مركز البحوث الإسلامية
إستانبول

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

تفسير أبي السعود

شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي
(ت. ٩٨٢هـ/١٥٧٤م)

ينشر لأول مرة عن نسخة المؤلف مع منهواته (تعليقاته) بخط يده

تحقيق
أ.م. محمد طه بويالق أحمد أيتب
أ.م. ضياء الدين القالش محمد عماد النابلسي

إشراف ومراجعة
أ.م. محمد طه بويالق

المجلد الثامن

نشريات وقف الديانة التركي

بسم الله الرحمن الرحيم

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية

تمّ إدراج "مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية" كمشروع إطاري يضم في طياته عدة مشاريع فرعية في جدول الأعمال من قِبَل مركز البحوث الإسلامية (إسام/İSAM) بهدف إخضاع التراكم الفكري فيما بين القرنين الهجريين السابع والثالث عشر (١٣-١٩م) -الذي يمكن أن يطلق عليه اسم "العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية"- لدراسة علمية كما يليق به، واستخراج ما حملته هذه الفترة من أبعاد علمية وفكرية لما يقارب سبعة قرون. وفي تصور كتابة التاريخ المعاصرة قد سُعي إلى كتابة تاريخ الحضارة الإسلامية على أساس فرضية أن تطور الحضارة الإسلامية بصفة عامة والفكر الإسلامي وعلومه بصفة خاصة قد تعرض للانقطاع بعد الغزو المغولي. فإن وجهة النظر هذه التي تشكلت في الغرب في القرن التاسع عشر، وانتشرت بين المسلمين أثناء فترة الاستعمار هي التي جعلت أحكامنا المتعلقة بالتاريخ الإسلامي ناقصة، مما حال بيننا وبين أن نتناول تاريخ الإسلام بفكره وفنونه ومؤسساته وشخصياته الرائدة وأدبه وأحداثه في وحدة متماسكة.

ولا تسلّط الدراسات في هذا المجال الضوء على فترة من فترات التاريخ الإسلامي فحسب؛ بل ستجلي أيضا حقبة مهمة من حقب التاريخ البشري. وإن هذا المشروع سيكون وسيلة لبعثِ المسائل العلمية المناقشة في العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية من جديد، وإلحاقِها بقضايا العالم العلمي والفكري، وبالتالي سيستفاد إلى أقصى حد من التراث العريق في بناء عهد جديد واستدراك المسائل الراهنة وتحليلها وانتقادها ومناقشتها.

وفي إطار الأعمال العلمية المتعلقة بهذه الفترة سيفسح هذا المشروع المجال لعقد دراسات عن العلوم الإسلامية والفكر الإسلامي وتاريخ العلوم الإسلامية التجريبية، وكذلك العلوم البشرية وميادين الفنون في الحضارة الإسلامية إلى جانب الدراسات المقارنة بين الإسلام وسائر الحضارات الأخرى. وسترگز المشاريع المرتقبة على أراضي الدولة العثمانية وجنوب الصحراء الكبرى، وكذلك على شبه القارة الهندية منذ سلطنة دلهي، بالإضافة إلى آسيا الوسطى وإيران بعد الغزو المغولي. هذا، ويتوقع إصدار منشورات في إطار المشروع مثل الفهرسة والتأليف والتحقيق والترجمة.

المنهج الفكري عند ابن تيمية ونقده للمتكلمين (بالتركية)، مَحمّد سعيد أوزَروارلي، ٢٠٠٨؛ ٢٠١٧.
دراسة فتح الباري وعمدة القاري من جهة تحليل المتن(بالتركية)، ياووز كُوكْطاش، ٢٠٠٩؛ ٢٠٢٠.
الوزارة في العهد المملوكي (بالتركية)، فاتح يحيى آياز، ٢٠٠٩؛ ٢٠١٧.
التاريخ الإداري والاقتصادي للعثمانيين (بالتركية)، خليل إينالجيق، ٢٠١١؛ ٢٠١٨.
مدرسة فخر الدين الرازي في أصول الفقه (بالتركية)، طونجاي باش أوغلو، ٢٠١١؛ ٢٠١٤.
عبد القادر الجيلاني والقادرية، (بالتركية)، عدالت چاقر، ٢٠١٢؛ ٢٠٢١.
فخر الدين الرازي في عهد التحول للفكر الإسلامي (بالتركية)، عثمان دمير - عمر تورك أَر (تحرير)، ٢٠١٣.
الكفاية في الهداية، نور الدين الصابوني، تحقيق: محمد أروتشي، ٢٠١٣؛ (نشر مشترك إسام/رئاسة الشؤون الدينية) ٢٠١٩.
المنتقى من عصمة الأنبياء، نور الدين الصابوني، تحقيق: محمد بولوط، ٢٠١٣؛ (نشر مشترك إسام/رئاسة الشؤون الدينية) ٢٠١٩.
الطرق الصوفية في تركيا: تاريخ وثقافة (بالتركية)، سميح جيحان (تحرير)، ٢٠١٥.
مرشد الشيوخ الثلاثة: الخلوتية وفرع الرمضانية وكوستندلي علي علاء الدين أفندي (بالتركية)، سميح جيحان، ٢٠١٥
تراث الحواشي في التفسير وحاشية شيخ زاده على أنوار التنزيل (بالتركية)، شكري معدن، ٢٠١٥
فهرس الوقفيات لسجلات محاكم إستانبول الشرعية (بالتركية)، إعداد: ب. آيدين، إ. يورداقول، آ. ايشيق، إ. قورت، أ. ييلديز، ٢٠١٥.
كتاب القواعد الكلّيّة في جملة من الفنون العلميّة، محمد الإصفهاني، تحقيق: منصور كوشيناكاغ - بلال تاشقين، ٢٠١٧.
عضد الدين الإيجي في التراث العلمي والفكري الإسلامي (بالتركية)، أشرف آلطاش (تحرير)، ٢٠١٧.
القاضي البيضاوي في التراث العلمي والفكري الإسلامي (بالتركية)، مستقيم آريجي (تحرير)، ٢٠١٧.
العلاقة بين النحو وأصول الفقه (بالتركية)، عثمان گومان، ٢٠١٧.
سلامة الإنسان في محافظة اللسان، ميرزا زاده محمد سالم، تحقيق: مراد صولا، ٢٠١٨.
معاني الأسماء الإلهيّة، التلمساني، تحقيق: أورخان موسى خان‌أوو، ٢٠١٨.
شرح الفاتحة وبعض سورة البقرة، التلمساني، تحقيق: أورخان موسى خان‌أوو، ٢٠١٨.
دليل تحقيق النصوص لمركز البحوث الإسلامية (إسام) (بالتركية)، إعداد: أوقان قدير يلماز، ٢٠١٨.
شيخ بدر الدين: فقيه عثماني (بالتركية)، مصطفى بولند داداش، ٢٠١٨.
رسالة في أدب المفتي، محمد فقهي العيني، تحقيق: عثمان شاهين، ٢٠١٨.
كتاب تقريب الغريب، قاسم بن قطلوبغا، تحقيق: عثمان كسكين‌أر، ٢٠١٨.
كشف الأسرار وهتك الأستار، يوسف بن هلال الصفدي، تحقيق: بهاء الدين دارتما، ١-٥، ٢٠١٩.
تراث الكشاف: أثر الكشاف للزمخشري في تراث التفسير (بالتركية) مَحمّد طه بُويالق، ٢٠١٩.
التسهيل شرح لطائف الإشارات، الشيخ بدر الدين، تحقيق: مصطفى بُولَنْدْ دَادَاش، ١-٣، ٢٠١٩.
جامع الأصول، ركن الدين السمرقندي، تحقيق: عصمت غريب الله شِمْشَك، ١-٢، ٢٠٢٠.
تسديد القواعد في شرح تجريد العقائد - حاشية التجريد - منهوات الجرجاني والحواشي الأخرى، محمود الإصفهاني - الجرجاني، تحقيق: أ. آلطاش، م. علي قُوجَا، ص. كونْ آيْدِن، م. يتيم، ١-٣، ٢٠٢٠؛ ١-٢، ٢٠٢١.
لبّ الأصول، ابن نجيم، تحقيق: محمد فال السيد الشنقيطي، ٢٠٢٠.
التسديد في شرح التمهيد، السغناقي، تحقيق: علي طارق زياد يلماز، ١-٢، ٢٠٢٠.
نظام الحقوق العثماني: أساس الدولة العلية، مَحمّد عاكف آيدن (بالتركية)، ٢٠٢٠.
نظرية الجسم في الفلسفة الإسلامية: تراث حكمة العين، مَحمّد سامي باغا (بالتركية)، ٢٠٢٠.
تراث الشروح والحواشي في كتابة السير: مُغُلْطاي بن قليج نموذجًا، كُولْلُو ييلديز (بالتركية)، ٢٠٢٠.
علي القوشجي مفسّرًا، مَحمّد جِيجَك (بالتركية)، ٢٠٢١.
حاشية علي القوشجي على شرح الكشاف للتفتازاني، علي القوشجي علاء الدين علي بن محمد السمرقندي، تحقيق: مَحمّد جِيجَك، ٢٠٢١.
شرح عقود رسم المفتي، ابن عابدين محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز الحسيني الدمشقي، تحقيق: شَنُول صَيْلان، ٢٠٢١.
إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي، تحقيق: محمد طه بويالق، أحمد أيتب، ضياء الدين القالش، محمد عماد النابلسي، ١-٩، ٢٠٢١.

مركز البحوث الإسلامية
إستانبول
سِلْسِلَةُ عيونِ التُّراثِ الإسْلَامِيِّ

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

تفسير أبي السعود

شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي
(ت. ٩٨٢هـ/١٥٧٤م)

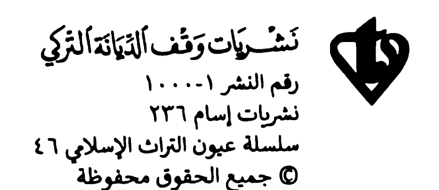
يُنشر لأوّل مرة عن نسخة المؤلّف مع منهواته (تعليقاته) بخط يده

تحقيق
أ.م. محمد طه بويالق — أحمد أيتب
أ.م. ضياء الدين القالش — محمد عماد النابلسي

إشراف ومراجعة
أ.م. محمد طه بويالق

المجلد الثامن

نشريات وقف الديانة التركي



رقم النشر ١-١٠٠٠
نشريات إسام ٢٣٦
سلسلة عيون التراث الإسلامي ٤٦

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم

شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي

المجلد الثامن

تحقيق محمد طه بُوتَالِق - أحمد أَيْتَبْ [المقدمة - البقرة ٩٨؛ النساء - التوبة]

ضياء الدين القَالِش [البقرة ٩٩ - آل عمران ٣٢؛ يونس - هود؛ الحجر - طه؛ الذاريات - الناس]

محمد عماد النابلسي [آل عمران ٣٣-٢٠٠؛ يوسف - إبراهيم؛ الأنبياء - ق]

تم إعداد كتاب إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم
بإشراف اللجنة العلمية للتحقيق
بـ مركز البحوث الإسلامية (İSAM) التابع لوقف الديانة التركي.

İcadiye - Bağlarbaşı Cad. 38 Üsküdar/İstanbul
الهاتف: 50 08 474 216 90+ www.isam.org.tr yayin@isam.org.tr

إدارة النشر محمد سُعَادْ مَرْتْ أوغلو
إشراف الطبع أَرْدَالْ جَساز
تحرير قسم التحقيق أوقَانْ قَدير يِلْمازْ
التدقيق النهائي لقسم الدراسة (التركي) مصطفى دَمِيرْآيْ
تنقيح الأسلوب والصياغة لقسم الدراسة (التركي) مَتِين قَرَه بَاشْ أوغلو
الترجمة (العربي) مروة داغستاني بازْسِيكْ
التصحيح (العربي) سعيد قاياجي، منذر شيخ حسن، محمد شاهين
(التركي) عيسى قايا ألْبْ، عبد القادر شَنَلْ، عنايت بَبَكْ
التصميم علي حيدر أُولُوصُويْ، إبراهيم درويش مؤذن (تطبيق)، حسن حسين جَانْ (غلاف)، رمزي حاج مصطفى (خط الغلاف)
سكرتير النشر منذر شيخ حسن، سماء دُوغانْ

تم إعداد هذا الكتاب
من قبل مركز البحوث الإسلامية (إسام / İSAM)
في إطار مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية.
منسق المشروع طُونْجَايْ بَاشْ أوغلو

تم طبع هذا الكتاب بقرار مجلس إدارة إسام
بتاريخ ٢٠٢٠/٠٦/٠١ ورقم ٢٠٢٠/٠٥.

الطبعة الأولى: أنقرة، يوليو ٢٠٢١م / ١٤٤٢هـ
(مجموعة) ISBN 978-625-7581-31-8
(المجلد الثامن) 978-625-7581-39-4

الطباعة والنشر والتوزيع
TDV Yayın Matbaacılık ve Tic. İşl.
Ostim OSB Mahallesi, 1256 Cadde, No: 11 Yeni Mahalle / Ankara
الهاتف: 9131 354 312 90+ الفاكس: 9132 354 312 90+ bilgi@tdv.com.tr



شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم / شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي؛ التحقيق: محمد طه بُوتَالِق، أحمد أَيْتَبْ، ضياء الدين القَالِش، محمد عماد النابلسي. - أنقرة: وقف الديانة التركي، ٢٠٢١.
المجلد الثامن، ٦٤٠ صفحة)؛ ٢٤ سم. - (نشريات وقف الديانة التركي؛ ١-١٠٠٠. نشريات إسام؛ ٢٣٦.
سلسلة عيون التراث الإسلامي؛ ٤٦)
يحتوي على الفهارس والمصادر
(المجلد الثامن) 978-625-7581-39-4 (مجموعة) ISBN 978-625-7581-31-8

فهرس المحتويات

سورة قٓ

مكيّة، وهي خمس وأربعون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١﴾

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ أي: ذي المَجد والشرف على سائر الكتب، / أو لأنّه [١١٩ظ] كلام المجيد، أو لأنّ مَن علِم معانيه وعمِل بما فيه مَجُدَ عند الله تعالى وعند الناس. والكلام فيه كالّذي فُصِّل في مطلع سورة ﴿صٓ﴾.

﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ٢﴾

وقوله تعالى: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: لِأن جاءهم منذر مِن جنسهم، لا مِن جنس الملَك، أو مِن جِلدتهم؛ إضراب عمّا يُنبئ عنه جواب القسم المحذوف، كأنّه قيل: والقرآنِ المجيدِ أنزلناه إليك لتنذر به الناس، حسبما ورَد في صدر سورة الأعراف، كأنّه قيل بعد ذلك: لم يؤمنوا به؛ بل جعلوا كلًّا مِن المنذِر والمنذَرِ به عُرضةً للنكير والتعجّبِ مع كونهما أوفقَ شيء لقضيّة العقول، وأقربَه إلى التلقّي بالقَبول.

وقيل:[١] التقدير: والقرآنِ المجيدِ إنّك لمنذِر، ثمّ قيل بعده: إنّهم شكّوا فيه، ثمّ أُضرِب عنه وقيل: بل عَجِبوا، أي:[٢] لم يكتفوا بالشكّ والردّ؛ بل جزموا بالخلاف حتّى جعلوا ذلك مِن الأمور العجيبة. وقيل:[٣] هو إضراب عمّا يُفهَم مِن وصف ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ بـ﴿ٱلۡمَجِيدِ﴾،[٤] كأنّه قيل: ليس سبب امتناعهم مِن الإيمان بالقرآن أن لا مَجدَ له، ولكن لجهلهم.

---

١ وفي هامش م: رازي. | تفسير الرازي، ١٢٧/٢٨.

٢ س: أن.

٣ وفي هامش م: راغب. «منه». | المفردات للراغب الأصفهاني، ص ١٤٢

٤ في الآي السابقة.

﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ تفسير لتعجّبهم، وبيان لكونه مقارِنًا لغاية الإنكار، مع زيادة تفصيل لمَحلّ التعجّب، و﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى كونه عليه السلام منذِرًا بالقرآن. وإضمارُهم أوّلًا للإشعار بتعيّنهم بما أُسنِد إليهم، وإظهارُهم ثانيًا للتسجيل عليهم بالكفر بموجَبه.

أو عطفٌ لتعجّبهم[1] مِن البعث على تعجّبهم مِن البِعثة، على أنّ ﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى مبهَم يفسّره ما بعده مِن الجملة الإنكاريّة.

ووضع المُظهر موضع المُضمَر إمّا لسبق اتّصافهم بما يوجب كفرهم، وإمّا للإيذان بأنّ تعجّبهم مِن البعث لدلالته على استقصارهم لقدرة الله سبحانه عنه مع معاينتهم لقدرته تعالى على ما هو أشقّ منه في قياس العقل مِن مصنوعاته البديعة أشنعُ مِن الأوّل، وأعرَقُ في كونه كفرًا.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ تقرير للتعجّب، وتأكيد للإنكار. والعامل في ﴿إِذَا﴾ مضمَر غنيّ عن البيان لغاية شُهرته مع دلالة ما بعده عليه، أي: أحِينَ نموت ونصيرُ ترابًا نُرجَعُ كما ينطق به النذيرُ والمنذَرُ به مع كمال التباين بيننا وبين الحياة حينئذ. وقُرئ: "إِذَا مِتْنَا"[2] على لفظ الخبر، أو على حذف أداة الإنكار.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى محلّ النزاع ﴿رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ أي: عن الأوهام، أو العادة، أو الإمكان. / [١٢٠و] وقيل: "الرَّجْع" بمعنى المَرجوع الذي هو الجواب، فناصِب الظرف حينئذ ما يُنبئ عنه المنذِر مِن البعث.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤﴾

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ ردّ لاستبعادهم، وإزاحة له، فإنّ مَن عَمّ عِلمُه ولَطُف حتّى انتهى إلى حيث علِم ما تنقص الأرض مِن أجساد الموتى وتأكل مِن لحومهم وعظامهم؛ كيف يُستبعَد رَجْعُه إيّاهم أحياءً كما كانوا.

---

١ السياق: تفسير لتعجّبهم... أو عطفٌ لتعجّبهم...

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب والأعرج وشيبة وأبي جعفر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٥.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «كلّ ابن آدم يَبْلَى إلّا عَجْبَ الذَّنَب».[١]

وقيل: ﴿مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ ما يموت فيُدفَن في الأرض منهم.

﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ حافظ لتفاصيل الأشياء كلّها، أو محفوظ مِن التغيّر. والمراد إمّا تمثيل علمِه تعالى بكلّيّات الأشياء وجزئيّاتها بعلمِ مَن عنده كتاب محيط يتلقّى منه كلَّ شيء، أو تأكيد لعلمه تعالى بها بثبوتها في اللوح المحفوظ عنده.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ إضراب وانتقال مِن بيان شناعتهم السابقة إلى بيان ما هو أشنع منه وأفظع، وهو تكذيبهم للنبوّة الثابتة بالمعجزات الباهرة. ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ مِن غير تأمّل وتفكّر، وقُرئ: "لِمَا جَاءَهُمْ"[٢] بالكسر على أنّ "اللام" للتوقيت، أي: وقتَ مجيئه إيّاهم. وقيل: ﴿ٱلْحَقِّ﴾ القرآن، أو الإخبار بالبعث. ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي: مضطربٍ لا قرارَ له، مِن "مَرِجَ الخاتمُ في أصبعه"، حيث يقولون تارةً: إنّه شاعر، وتارةً: ساحر، وأخرى: كاهِن.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾ أي: أغَفلُوا، أو أعَمُوا فلم ينظروا ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ بحيث يشاهدونها كلّ وقت ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ أي: رفعناها بغير عَمَد، ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بما فيها مِن الكواكب المرتَّبة على نظام بديع، ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ مِن فُتوق لِمَلاستها وسلامتها مِن كلّ عيب وخلل؟ ولعلّ تأخيرَ هذا لمراعاة الفواصل.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ أي: بسطناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالًا ثوابتَ، مِن "رَسَا الشيء"، أي: ثبَتَ. والتعبير عنها بهذا الوصف للإيذان بأنّ إلقاءها لإرساء الأرض بها. ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾ / مِن كلّ صِنف ﴿بَهِيجٍ﴾ حسنٍ. [١٢٠ظ]

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٩٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٨٠. وهو بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٦/١٦٥ (٤٩٣٥)؛ وصحيح مسلم، ٤/٢٢٧١ (٢٩٥٥).

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٦.

﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۝٨﴾

﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ﴾ عِلّتان للأفعال المذكورة معنًى، وإن انتصبَتا بالفعل الأخير، أو لِفعلٍ مقدَّر بطريق الاستئناف، أي: فعلنا ما فعلنا تبصيرًا وتذكيرًا ﴿لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ أي: راجعٍ إلى ربّه متفكّرٍ في بدائع صنائعه.

﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۝٩﴾

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾ أي: كثيرَ المنافع؛ شروع في بيان كيفيّة إنبات[1] ما ذُكر مِن كلّ زوج بهيج، وهو عطفٌ على ﴿أَنۢبَتۡنَا﴾،[2] وما بينهما على الوجه الأخير اعتراض مقرِّر لِما قبله، ومنبِّه على ما بعده، ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء ﴿جَنَّٰتٖ﴾ كثيرةً، أي: أشجارًا ذواتِ ثمارٍ ﴿وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ أي: حبَّ الزرع الذي[3] شأنه أن يُحصَد مِن البُرّ والشعير وأمثالهما. وتخصيصُ إنبات حَبّه بالذكر لأنّه المقصود بالذات.

﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝١٠﴾

﴿وَٱلنَّخۡلَ﴾ عطفٌ على ﴿جَنَّٰتٖ﴾.[4] وتخصيصُها بالذكر مع اندراجها في "الجنّات" لبيان فضلها على سائر الأشجار. وتوسيط "الحَبّ" بينهما لتأكيد استقلالها وامتيازها عن البقيّة، مع ما فيه مِن مراعاة الفواصل. ﴿بَاسِقَٰتٖ﴾ أي: طوالًا، أو حَواملَ، مِن "أبسَقَت الشاة" إذا حمَلَت، فيكون مِن باب "أفْعَلَ" وهو فاعِل. وقُرئ: "بَاصِقَاتٍ" لأجل "القاف".[5]

﴿لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ﴾ أي: مَنضود بعضُه فوق بعض، والمراد تراكُمُ الطَّلع، أو كثرةُ ما فيه مِن الثمر. والجملة حال مِن ﴿ٱلنَّخۡلَ﴾ كـ﴿بَاسِقَٰتٖ﴾ بطريق الترادف، أو مِن ضميرها في ﴿بَاسِقَٰتٖ﴾ على التداخل، أو الحال هو الجارّ والمجرور، و﴿طَلۡعٞ﴾ مرتفع به على الفاعليّة.

---

[1] س ي: إثبات.
[2] ق، ٥٠/٧.
[3] س - الذي.
[4] في الآية السابقة.
[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن قُطبة بن مالك عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. الكشّاف للزمخشري، ٣٨١/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٣١/٩.

﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾

وقوله تعالى: ﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي: لنَرزقَهم؛ علّة لقوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾.[١] وفي تعليله بذلك بعد تعليل ﴿أَنۢبَتْنَا﴾[٢] الأوّلِ بالتبصرة والتذكير تنبيهٌ على أنّ الواجب على العبد أن يكون انتفاعه بذلك مِن حيث التذكّرُ والاستبصار أهمَّ وأقدمَ مِن تمتّعه به مِن حيث الرزق. وقيل: ﴿رِزْقًا﴾ مصدر مِن معنى ﴿أَنۢبَتْنَا﴾؛ لأنّ الإنبات رزق.

[١٢١و] ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ﴾ بذلك الماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ / أرضًا جَدبةً، لا نماءَ فيها أصلًا، بأن جعلناها بحيث رَبَتْ وأنْبَتَت أنواع النبات والأزهار، فصارت تهتزّ بها بعد ما كانت جامدةً هامدةً، وتذكير ﴿مَيْتًا﴾ لأنّ البلدة بمعنى البلد والمكان.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ جملة قُدِّم فيها الخبر للقصد إلى القصر، وذلك إشارة إلى الحياة المستفادة مِن الأحياء، وما فيه مِن معنى البعد للإشعار ببُعد رتبتها، أي: مثلُ تلك الحياة البديعة حياتكم بالبعث مِن القبور، لا شيءَ مخالِف لها. وفي التعبير عن إخراج النبات مِن الأرض بـ"الإحياء"، وعن حياة الموتى بـ"الخروج" تفخيم لشأن الإنبات، وتهوينٌ لأمر البعث، وتحقيقٌ للمماثلة بين إخراج النبات وإحياء الموتى، لتوضيح منهاج القياس وتقريبه إلى أفهام الناس.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝١٣﴾

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾... إلخ استئناف وارد لتقرير حقّيّة البعث ببيان اتّفاق كافّة الرسل عليهم السلام عليها، وتعذيبِ منكرِيها، ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ قيل: هم ممّن بُعث إليهم شعيب عليه السلام، وقيل وقيل، كما مرّ في سورة الفرقان[٣] على التفصيل.

﴿وَثَمُودُ ۝ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ﴾ أي: هو وقومُه، ليلائم ما قبله وما بعده، ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ قيل: كانوا مِن أصهاره عليه السلام.

---

[١] ق، ٩/٥٠.

[٢] ق، ٧/٥٠.

[٣] الفرقان، ٣٨/٢٥.

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ١٤﴾

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ هم ممّن بُعِث إليهم شعيب عليه السلام غيرُ أهل مَدين. ﴿وَقَوۡمُ تُبَّعٖ﴾ سبقَ شرح حالهم في سورة الدخان.[١]

﴿كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: فيما أُرسِلوا به مِن الشرائع التي مِن جملتها البعث الذي أجمعوا عليه قاطبةً، أي: كلّ قوم مِن الأقوام المذكورين كذّبوا رسولَهم، أو كذّب جميعُهم جميعَ الرسل بالمعنى المذكور. وإفراد الضمير باعتبار لفظ "الكلّ"، / أو كلُّ واحدٍ منهم كذّب جميعَ الرسل، لاتّفاقهم على الدعوة إلى التوحيد، والإنذارِ بالبعث والحشر، فتكذيب واحد منهم تكذيب للكلّ، وهذا على تقدير رسالة تُبّعٍ ظاهر، وأمّا على تقدير عدمها -وهو الأظهر- فمعنى تكذيب قومه الرسلَ تكذيبُهم بمَن قبلهم مِن الرسل المجمِعين على التوحيد والبعث، وإلى ذلك كان يدعوهم تُبّع. [١٢١ظ]

﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي: فوجَب وحَلّ عليهم وعيدي، وهي كلمة العذاب، وفيه تسلية للرسول صلّى الله عليه وسلّم، وتهديد لهم.

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٥﴾

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِ﴾ استئناف مقرِّر لصِحّة البعث الذي حُكيت أحوال المنكرين له مِن الأمم المهلَكة. والعِيّ بالأمر: العجز عنه، يقال: "عَيَّ بالأمر" و"عَيِيَ به" إذا لم يَهْتَدِ لوجه عمله. و"الهمزة" للإنكار، و"الفاء" للعطف على مقدَّر ينبئ عنه العِيّ مِن القصد والمباشرة، كأنّه قيل: أَقَصَدْنا الخلقَ الأوّل، فعجزنا عنه حتّى يُتوهّم عَجزُنا عن الإعادة.

﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ عطفٌ على مقدَّر يدلّ عليه ما قبلَه، كأنّه قيل: هم غير منكرين لقدرتنا على الخلق الأوّل؛ بل هم في خَلطٍ وشبهة في خَلق مستأنَف لِما فيه مِن مخالفة العادة. وتنكير ﴿خَلۡقٖ﴾ لتفخيم شأنه، والإشعارِ بخروجه عن حدود العادات، والإيذانِ بأنّه حقيق بأن يُبحث عنه ويُهْتَمّ بمعرفته.

---
[١] الدخان، ٣٧/٤٤.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ١٦﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ أي: ما تُحدِّثه به نفسه، وهو ما يخطر بالبال. والوسوسة: الصوت الخفيّ، ومنه "وَسواس الحُليّ". والضمير لـ﴿مَا﴾ إن جُعلت موصولة، و"الباء" كما في "صَوَّتَ بكذا"، أو لـ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ إن جُعلت مصدريّةً، و"الباء" للتعدية.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ أي: أعلمُ بحاله / ممّن كان أقربَ إليه مِن حبل الوريد. عُبّر عن قُرب العلم بقُرب الذات تجوّزًا؛ لأنّه موجِب له. و﴿حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ مَثَلٌ في فَرْط القرب. و"الحَبل" العِرق. وإضافته بيانيّة. و"الوَريدان" عِرقان مكتنِفان بصفحتَي العنق في مقدَّمها متّصلان بالوَتين، يَرِدان مِن الرأس إليه. وقيل: سمّي "وَرِيدًا" لأنّ الروح تَرِدُه. [١٢٢و]

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ١٧﴾

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ منصوب بما في ﴿أَقْرَبُ﴾[1] مِن معنى الفعل. والمعنى: أنّه لطيف يتوصّل علمه إلى ما لا شيءَ أخفى منه، وهو أقرب مِن الإنسان مِن كلّ قريب حين يتلقّى ويتلقّن الحفيظان ما يتلفّظ به. وفيه إيذان بأنّه تعالى غنيّ عن استحفاظهما، لإحاطة علمه بما يخفى عليهما، وإنّما ذلك لِما في كَتْبتهما وحفظِهما لأعمال العبد وعَرضِ صحائفها يومَ يقوم الأشهاد، وعِلمِ العبد بذلك مع علمه بإحاطته تعالى بتفاصيل أحواله خُبرًا؛ مِن زيادة لُطفٍ له في الكفّ عن السيّئات والرغبة في الحسنات.

وعنه عليه السلام: «إنّ مَقعد مَلَكَيكَ على ثَنِيَّتَيكَ، ولسانُك قلمُهما، وريقُك مِدادُهما، وأنت تجري فيما لا يعنيك، لا تستحيي مِن الله ولا منهما».[2]

وقد جُوّز[3] أن يكون تلقِّي الملَكين بيانًا للقرب، على معنى: أنَا أقربُ إليه مطّلعون على أعماله؛ لأنّ حفَظتنا وكَتَبَتَنا موَكَّلون به.

---

١ في الآية السابقة.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٩٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٨٤.

٣ جوّزه الزمخشري في الكشّاف، ٤/٣٨٤.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي: عن اليمين قَعيد، وعن الشمال قَعيد، أي: مقاعد، كـ"الجَليس" بمعنى "المُجالس" لفظًا ومعنًى، فحُذف الأوّل لدلالة الثاني عليه، كما في قول مَن قال:

رماني بأمرٍ كنت منه ووالدي   بريئًا ومِن أجل الطَّوِيّ رماني[1]

وقيل: يُطلق الفعيل على الواحد والمتعدّد، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم، ٦٦/٤].

﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾

﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ ما يَرمي به مِن فيه مِن خيرٍ أو شرّ. وقُرئ: "مَا يُلْفَظُ"[2] على البناء للمفعول. ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ / مَلَك يَرقُب قولَه ذلك ويكتبه، فإن كان خيرًا فهو صاحب اليمين بعَينه، وإلّا فهو صاحب الشمال. ووجهُ تغيير العنوان غنيّ عن البيان. والإفرادُ مع وقوفهما معًا على ما صدر عنه لِما أنّ كلًّا منهما رَقيب لِما فُوّض إليه، لا لِما فُوّض إلى صاحبه، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿عَتِيدٌ﴾ أي: مُعَدّ مُهَيَّأ لِكتابة ما أُمِر به مِن الخير أو الشرّ. ومَن لم يتَنبّه له توهَّم أنّ معناه: رقيبان عتيدان. وتخصيص القول بالذكر لإثبات الحكم في الفعل بدلالة النصّ. [١٢٢ظ]

واختُلف فيما يكتبانه، فقيل: يكتبان كلّ شيء حتّى أنينَه في مرضه. وقيل: إنّما يكتبان ما فيه أجر أو وِزر. وهو الأظهر كما ينبئ عنه قوله صلّى الله عليه وسلّم: «كاتب الحسنات على يمين الرجل، وكاتب السيّئات على يسار الرجل، وكاتب الحسنات أمين[3] على كاتب السيّئات، فإذا عمل حسنةً كتبها ملَك اليمين عشرًا،

---

[1] ذكره ابن منظور في لسان العرب، «جول»، بلفظ: "ومِن جُول الطَّوِيّ رَماني"، وقال: «البيت لابن أحمر. وقيل: هو للأزرق بن طَرَفة بن العَمَرّد الفَراصي. أي: رماني بأمرٍ عاد عليه قُبحه، لأنّ الذي يرمي مِن جُول البئر يعود ما رَمى به عليه»، ثمّ قال: «ويُروى: "ومِن أجل الطَّوِيّ"، قال: وهو الصحيح؛ لأنّ الشاعر كان بينه وبين خَصمه حكومة في بئر، فقال خصمه: "إنّه لِصّ ابن لِصّ"».

[2] قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري بغير نسبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٨٥/٤. وفي شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٦: «عن محمّد بن سعدان: "مَا يَلْفَظُ" بفتح "الفاء"».

[3] م: أمير [صحّح في الهامش]. | وهو في مطبوع الكشف والبيان للثعلبي، ٩٩/٩: "أمين". وفي مطبوع معالم التنزيل للبغوي، ٣٥٩/٧: "أمير".

وإذا عمل سيّئةً قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: "دَعْهُ سبعَ ساعات لعلّه يسبّح أو يستغفر"».[١]

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ بعد ما ذُكِر استبعادهم للبعث والجزاء وأزيحَ ذلك بتحقيق قدرته تعالى وعِلمه، وبُيّن أنّ جميع أعمالهم محفوظة مكتوبة عليهم؛ أُتبع ذلك بيان ما يُلاقونه لا محالةَ مِن الموت والبعث، وما يتفرّع عليه مِن الأحوال والأهوال، وقد عُبّر عن وقوع كلّ منها بصيغة الماضي إيذانًا بتحقّقها وغايةِ اقترابها.

و﴿سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ شدّته الذاهبة بالعقل. و"الباء" إمّا للتعدية كما في قولك: "جاء الرسول بالخبر"، والمعنى: أُحضِرت سكرةُ الموت حقيقةَ الأمر الذي نطقت به كُتب الله ورسلُه، أو حقيقةَ الأمر وجليّةَ الحال مِن سعادة الميّت وشقاوته. وقيل: الحقّ الذي لا بدَّ أن يكون لا محالةَ مِن الموت أو الجزاء، فإنّ الإنسان خُلق له.

وإمّا للملابسة[٢] كالتي في قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون، ٢٣/٢٠]، أي: ملتبسةً بالحقّ، أي: بحقيقة الأمر، أو بالحكمة والغاية الجميلة.

[١٢٣و] وقُرئ: "سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ"،[٣] / والمعنى: أنّها السَّكْرة التي كتبت على الإنسان بموجَب الحكمة، وأنّها لشدّتها توجب زُهوق الروح، أو تستعقِبه. وقيل: "الباء" بمعنى "مع". وقيل: "سَكْرةُ الحقّ" سَكرة الله تعالى، على أنّ الإضافة للتهويل. وقُرئ: "سَكَرَاتُ المَوْتِ".[٤]

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الموتُ ﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: تميل وتنفِر عنه. والخطابُ للإنسان، فإنّ النُّفرة عنه شاملة لكلّ فرد مِن أفراده طبعًا.

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٩٩؛ معالم التنزيل للبغوي، ٧/٣٥٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٨٥.

٢ السياق: و"الباء" إمّا للتعدية... وإمّا للملابسة...

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي بكر رضي الله عنه وسعيد بن جبير وطلحة. المحتسب لابن جنّي، ٢/٢٨٣؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٥.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ۝٢٠﴾

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ هي النفخة الثانية، ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: وقتُ ذلك النفخ على حذف المضاف ﴿يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ أي: يومُ إنجاز الوعيد الواقع في الدنيا، أو يومُ وقوع الوعيد، على أنّه عبارة عن العذاب الموعود. وقيل: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الزمان المفهوم مِن ﴿نُفِخَ﴾، فإنّ الفعل كما يدلّ على الحدَث يدلّ على الزمان. وتخصيص الوعيد بالذكر مع أنّه يوم الوعد أيضًا لتهويله، ولذلك بُدِئ ببيان حال الكفرة.

﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ۝٢١﴾

﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ﴾ مِن النفوس البَرّة والفاجرة ﴿مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ وإن اختلفت كيفيّة السَّوق والشهادة حسب اختلاف النفوس عملًا، أي: معها ملَكان، أحدهما يسوقها إلى المحشر، والآخر يشهد بعملها، أو ملَك جامع بين الوصفين، كأنّه قيل: معها ملَك يسوقها ويشهَد عليها. وقيل: "السائق" كاتب السيّئات، و"الشهيد" كاتب الحسنات. وقيل: "السائق" نفسه أو قرينه، و"الشهيد" جوارحه وأعماله.

ومحلّ ﴿مَّعَهَا﴾ النصب على الحاليّة مِن ﴿كُلُّ﴾، لإضافته إلى ما هو في حكم المعرفة، كأنّه قيل: كلّ النفوس، أو الجرُّ على أنّه وصف لـ﴿نَفۡسٖ﴾، أو الرفعُ على أنّه وصف لـ﴿كُلُّ﴾.

﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ۝٢٢﴾

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ مَحكيّ بإضمار قولٍ هو إمّا صفة أخرى لـ﴿نَفۡسٖ﴾،[١] أو حال أخرى منها، أو استئناف مبنيّ على سؤال نشأ ممّا قبله، كأنّه قيل: فماذا يُفعَل بها؟ فقيل: يُقال: لقد كنتَ في غفلةٍ. وخطاب الكلّ بذلك لِما أنّه ما مِن أحدٍ إلّا وله غفلة ما مِن / الآخرة. وقيل: الخطاب للكافر. [١٢٣ظ]

---

[١] في الآية السابقة.

وقُرئ: "كُنْتِ"[1] بكسر "التاء" على اعتبار تأنيث "النفس". والتذكير على القراءة المشهورة بتأويل الشخص، كما في قول جَبَلة بن حُريث:

يـا نـفـسُ إنّـــكَ بـالـلـذّات مَـسـرورُ[2]

﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ الغِطاء: الحِجاب المغطّي لأمور المَعاد، وهو الغفلة والانهماك في المَحسوسات، والإلفُ بها، وقَصرُ النظر عليها. ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ نافذٌ لزوال المانع للإبصار. وقُرئ بكسر "الكاف" في المواضع الثلاثة.[3]

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: الشيطانُ المقيَّض له مشيرًا إليه: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي: هذا ما عندي وفي مَلَكتي عتيدٌ لجهنّم، قد هيّأته لها بإغوائي وإضلالي. وقيل: قال الملَك الموكَّل به مشيرًا إلى ما معه مِن كَتاب عملِه: هذا مَكتوب عندي عتيدٌ مهيّأٌ للعَرض. و﴿مَا﴾ إن جُعلت موصوفةً فـ﴿عَتِيدٌ﴾ صِفتها، وإن جُعلت موصولة فهي بدل منها، أو خبرٌ بعد خبر، أو خبرٌ لمبتدأ محذوف.

﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. **مختصر شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٤٥؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٤٧.

[2] وفي هامش م: تمامه:

فاذكر فهل ينفعنْك اليومَ تذكيرُ

| لم أجده بهذا اللفظ، ولفظه في المصادر:

يا قلبُ إنّكَ في أسماءَ مَغرورُ
اذكُر وهل ينفعُكَ اليومَ تذكيرُ

ووقع اختلاف في اسم قائله، ففي **العقد الفريد** لابن عبد ربّه، ٣/١٤١؛ و**شرح أبيات سيبويه** للسيرافي، ١/٢٣٧؛ و**تاريخ دمشق** لابن عساكر، ٣٨/٢٠٤؛ و**معجم الأدباء** للحموي، ٤/١٥٨٢؛ و**شرح أبيات مغني اللبيب** للبغدادي، ٢/١٦٨، مِن قول حُرَيث بن جَبَلة. وفي **نزهة الألبّاء** للأنباري، ص ٣٥: عثمان بن لبيد العذري. وفي **لباب الآداب** لأسامة بن منقذ، ١/١٢٤: قيل: هذا الشعر لجَبَلة بن الحارث. وقيل: عثمان بن لبيد العذري. وفي **شرح مقامات الحريري** للشريشي، ١/٣١٨: جبلة بن الحويرث. وفي **درّة الغوّاص** للحريري، ص ٦٨: عثير بن لبيد العذري، وقيل: عثمان بن لبيد العذري.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. **مختصر شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٤٥؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٤٧.

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ خطاب مِن الله تعالى للسائق والشهيد، أو للمَلَكين مِن خزَنة النار، أو لواحدٍ على تنزيل تثنية الفاعل منزلةَ تثنية الفعل وتكريرِه، كقول مَن قال:

فإن تزجُراني يا ابن عفّانَ أنزَجِرْ وإن تَدَعاني أحْمِ عِرضًا ممنَّعًا[1]

أو على أنّ "الألف" بدل مِن نون التأكيد على إجراء الوَصل مُجرى الوقف، ويؤيّده أنّه قُرئ: "أَلْقِيَنْ" بـ"النون" الخفيفة.[2] ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند للحقّ.

﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ كثيرِ المَنع للمال عن حقوقه المفروضة. وقيل: المراد بالخير الإسلام، فإنّ الآية نزَلت في الوليد بن المغيرة لمّا منع بني أخيه منه.[3] ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظالمٍ متخطٍ للحقّ، ﴿مُرِيبٍ﴾ شاكٍّ في الله وفي دينه.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ مبتدأ متضمِّن لمعنى الشرط، خبره: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾، أو بدل مِن ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾،[4] وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ تكرير للتوكيد، / أو مفعول لمُضمَر يفسّره ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾. [١٢٤و]

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: الشيطان المقيَّض له. وإنّما استُؤنفت استئنافَ الجمل الواقعة في حكاية المُقاولة لِما أنّه جواب لمحذوف دلّ عليه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾، فإنّه منبئ عن سابقة كلام اعتذَر به الكافر، كأنّه قال: هو أطغاني، فأجاب قرينه بتكذيبه وإسنادِ الطغيان إليه، بخِلاف الجملة الأولى[5] فإنّها واجبة العطف على ما قبلها دلالةً على الجمع بين مفهومَيهما في الحصول، أعني: مجيءَ كلّ نفس مع الملَكَين، وقولَ قرينه.

---

[1] لسُوَيد بن كُراع العُكْلي في لسان العرب لابن منظور، «جزز». وفيه: «وكان سُويد هذا هجا بني عبد الله بن دارم فاستعدَوا عليه سعيدَ بن عثمان، فأراد ضربه، فقال سويد قصيدة» فذكر أوّلها، وفيها البيت المذكور. ثمّ قال: «وهذا يدلّ على أنّه خاطب اثنين، سعيدَ بن عثمان ومَن يَنوب عنه أو يحضر معه». قال: «وقوله: "وإن تدعاني أحمِ عِرضًا مُمَنّعًا"، أي: إن تركتماني حَمَيت عِرضي ممّن يؤذيني، وإن زَجرتُماني انزجرتُ وصبرتُ».

[2] أي: بالتنوين في الوصل. قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. انظر: **مختصر شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٤٥؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٤٧.

[3] **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٠٢/٩؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣٨٧/٤.

[4] ق، ٢٤/٥٠.

[5] يعني: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ الآية [ق، ٢٣/٥٠].

﴿وَلَٰكِن كَانَ﴾ هو بالذات ﴿فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ مِن الحقّ، فأعنته عليه بالإغواء والدعوةِ إليه مِن غير قَسرٍ وإلجاءٍ، كما في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم، ٢٢/١٤].

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ۝٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٢٩﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ ممّا قبله، كأنّه قيل: فماذا قال الله تعالى؟ فقيل: قال تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ﴾ أي: في موقف الحساب والجزاء؛ إذ لا فائدة في ذلك، ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ على الطغيان في دار الكسب في كُتبي، وعلى ألسِنة رُسلي، فلا تطمعوا في الخلاص عنه بما أنتم فيه مِن التعلّل بالمعاذير الباطلة. والجملة حال فيها تعليلٌ للنهي، على معنى: لا تختصِموا وقد صحّ عندكم أنّي قدّمتُ إليكم بالوعيد حيث قلتُ لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص، ٨٥/٣٨]، فاتّبعتموه معرِضين عن الحقّ، فلا وجهَ للاختصام في هذا الوقت.

و"الباء" مَزيدة أو معدِّية على أنّ "قَدَّمَ" بمعنى "تَقَدَّمَ". وقد جُوّز[1] أن يكون ﴿قَدَّمْتُ﴾ واقعًا على قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾... إلخ، ويكونَ بالوعيد متعلِّقًا بمحذوف هو حال مِن المفعول أو الفاعل، أي: وقد قدّمتُ إليكم هذا القولَ ملتبِسًا بالوعيد مقترِنًا به، أو قدّمته إليكم مُوعِدًا لكم به، فلا تطمعوا أن أُبدّلَ وعيدي. والعفوُ عن بعض المذنبين لأسباب داعية إليه ليس بتبديل، فإنّ دلائل العفو تدلّ على تخصيص الوعيد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وارد لتحقيق الحقّ على الوجه الكلّي، وتبيينِ أنّ عدمَ تبديل القول وتحقيقَ موجَب الوعيد ليس مِن جهته تعالى مِن غير استحقاقٍ له منهم؛ بل إنّما ذلك بما صدَر عنهم مِن الجنايات الموجِبة له حسبما أشيرَ إليه آنفًا. / أي: وما أنا بمعذِّب للعبيد بغير ذنب مِن قِبَلهم. [١٢٤ظ]

---

١ جوّزه البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٤٢/٥.

والتعبير عنه بالظلم مع أنّ تعذيبهم بغير ذنب ليس بظُلمٍ -على ما تقرّر مِن قاعدة أهل السنّة- فضلًا عن كونه ظُلمًا مفرِطًا لبيان[١] كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه مِن الظلم. وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذُكر مِن التعذيب بغير ذنب في مَعرِض المبالغة في الظلم. وقيل: هي لرعاية جمعيّة العبيد، مِن قولهم: "فلان ظالم لعبده" و"ظلّام لعبيده" على أنّها مبالغة كَمًّا لا كيفًا.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ سؤال وجواب، جيء بهما على منهاج التمثيل والتخييل لتهويل أمرها. والمعنى: أنّها مع اتّساعها وتباعد أقطارها تطرح فيها مِن الجِنّة والناس فوجًا بعد فوج حتّى تمتلئ، أو أنّها مِن السَّعة بحيث يدخلها مَن يدخلها وفيها بَعدُ محلّ فارغ، أو أنّها لغَيظها على العصاة تطلب زيادتهم. وقُرئ: "يَقُولُ" بـ"الياء".[٢]

و"المَزيد" إمّا مصدر كـ"المَحيد" و"المَميد"، أو مفعول كـ"المَبيع". و﴿يَوْمَ﴾ إمّا منصوب بـ"اذكر" أو "أَنْذِرْ"، أو ظرف لِـ﴿نُفِخَ﴾،[٣] فيكون ﴿ذَٰلِكَ﴾[٤] حينئذ إشارةً إليه مِن غير حاجة إلى تقديرِ مضافٍ، أو لِمُقدَّرٍ مؤخَّر، أي: يكون مِن الأحوال والأهوال ما يَقصُر عنه المقال.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١﴾

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ شروع في بيان حال المؤمنين بعد النفخ، ومجيءِ النفوس إلى موقف الحساب، وقد مرّ سِرّ تقديم بيان حال الكفرة عليه. وهو عطفٌ على ﴿نُفِخَ﴾،[٥] أي: قُرِّبت للمتّقين عن الكفر والمعاصي بحيث يشاهدونها

---

١ وفي هامش م: خبر.
٢ قرأ بها نافع وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٦.
٣ ق، ٥٠/٢٠.
٤ ق، ٥٠/٢٠.
٥ ق، ٥٠/٢٠.

مِن الموقف، ويقفون على ما فيها مِن فنون المحاسن، فيبتهجون بأنّهم محشورون إليها، فائزون بها.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ تأكيد للإزلاف، أي: مكانًا غيرَ بعيد بحيث يشاهدونها، أو حالَ كونها غيرَ بعيد، أي: شيئًا غيرَ بعيد. ويجوز أن يكون / التذكير لكونه على زِنَة المصدر الذي يستوي في الوصف به المذكّر والمؤنّث، [١٢٥و] أو لتأويل ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾ بالبستان.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢﴾

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ إشارة إلى ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾.[١] والتذكير لِما أنّ المشار إليه هو المسمّى مِن غير أن يخطر بالبال لفظٌ يدلّ عليه فضلًا عن تذكيره وتأنيثه، فإنّهما مِن أحكام اللفظ العربي، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا[٢] رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام، ٧٨/٦]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [الأحزاب، ٢٢/٣٣]، ويجوز أن يكون ذلك لتذكير الخبر. وقيل: هو إشارة إلى الثواب. وقيل: إلى مصدر ﴿أُزْلِفَتِ﴾.[٣]

وقُرئ: "يُوعَدُونَ"،[٤] والجملة إمّا اعتراض بين البدل والمبدَل منه، وإمّا مقدّر بقولٍ هو حال مِن ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾،[٥] أو مِن ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾،[٦] والعامل ﴿أُزْلِفَتِ﴾،[٧] أي: مَقولًا لهم، أو مَقولًا في حقّها: هذا ما توعَدون ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ أي: رجّاعٍ إلى الله تعالى، بدل مِن ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٨] بإعادة الجارّ، ﴿حَفِيظٍ﴾ حافظٍ لتوبته مِن النقض. وقيل: هو الذي يحفظ ذنوبه حتّى يرجعَ عنها، ويستغفرَ منها.[٩] وقيل:[١٠] هو الحافظ لأوامر الله تعالى. وقيل:[١١] لِما استودعه الله تعالى مِن حقوقه.

---

[١] في الآية السابقة.
[٢] م س ي: ولمّا.
[٣] في الآية السابقة.
[٤] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٧٦/٢.
[٥] في الآية السابقة.
[٦] في الآية السابقة.
[٧] في الآية السابقة.
[٨] في الآية السابقة.
[٩] عن ابن عبّاس رضي الله عنه. انظر: جامع البيان للطبري، ٤٥٢/٢١؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٠٥/٩.
[١٠] وفي هامش م س: ابن عبّاس. «منه». | الكشف والبيان للثعلبي، ١٠٥/٩؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣٦٣/٧.
[١١] وفي هامش م س: قتادة. «منه». | جامع البيان للطبري، ٤٥٢/٢١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٠٥/٩.

﴿مَنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾

﴿مَنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ بدل بعدَ بدل، أو بدل مِن موصوف ﴿أَوَّابٍ﴾.[1] ولا يجوز أن يكون في حكمه؛ لأنّ ﴿مَنْ﴾ لا يُوصَف به، ولا يُوصَف إلّا بـ"الذي"، أو مبتدأ خبرُه: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ بتأويل: يقال لهم: ادخلوها. والجمعُ باعتبار معنى ﴿مَنْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ متعلّق بمحذوف هو حال مِن فاعل ﴿خَشِيَ﴾، أو مِن مفعوله، أو صفة لمَصدره، أي: خشيةً ملتبِسةً بالغيب حيث خشي عقابَه وهو غائب عنه، أو هو غائب عن الأعين لا يراه أحد.

والتعرّض لعنوان الرحمانيّة للإشعار بأنّهم مع خشيتهم عقابَه راجونَ رحمتَه، أو بأنّ عِلمهم بسَعة رحمته تعالى لا يصدّهم عن خشيته تعالى، وأنّهم عاملون بموجَب قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر، ١٥/٤٩-٥٠]. / ووصف القلب بالإنابة لِما أنّ العبرة برجوعه إلى الله تعالى. [١٢٥ظ]

﴿بِسَلَٰمٍ﴾ متعلِّق بمحذوف هو حال مِن فاعل ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾، أي: ملتبسين بسلامةٍ مِن العذاب وزوالِ النعم، أو بسلام مِن جهة الله تعالى وملائكته. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الزمان الممتدّ الذي وقع في بعضٍ منه ما ذُكر مِن الأمور. ﴿يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ إذ لا انتهاءَ له أبدًا.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ مِن فنون المطالب كائنًا ما كان ﴿فِيهَا﴾ متعلِّق بـ﴿يَشَآءُونَ﴾. وقيل: بمحذوف هو حال مِن الموصول، أو مِن عائده المحذوف مِن صلته.

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ هو ما لا يخطر ببالهم، ولا يندرج تحت مشيئتهم مِن معالي الكرامات التي لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمِعَت، ولا خطَرَ على قلب بشر. وقيل:

---

[1] في الآية السابقة.

إنّ السحاب تمرّ بأهل الجَنّة فتُمطرهم الحورَ، فتقول: نحن المَزيد الذي قال تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.[١]

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝٣٦﴾

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ أي: قبلَ قومك ﴿مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: قوّةً كعاد وأضرابِها، ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ أي: خَرَّقوا[٢] فيها، ودَوَّخوا وتصرّفوا في أقطارها، وجالوا في أكناف الأرض كلّ مجال حِذارَ الموت. وأصل "التنقيب" و"النَّقْب" التنقيرُ عن الأمر والبحثُ والطلب. و"الفاء" للدلالة على أنّ شدّة بطشهم أقدرَتْهم على التنقيب. قيل: هي عاطفة في المعنى، كأنّه قيل: اشتدّ بطشهم فنقَّبوا... إلخ. وقُرئ بالتخفيف.[٣]

﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: هل لهم مِن مُخلِّص مِن أمر الله تعالى.[٤] والجملة إمّا على إضمار قولٍ هو حال مِن واوِ ﴿نَقَّبُوا۟﴾، أي: فنقَّبوا في البلاد قائلين: هل مِن مَحيص، أو على إجراء التنقيب لِما فيه مِن معنى التتبّع والتفتيش مُجرى القول، أو هو كلام مستأنَف وارد لنفي أن يكون لهم محيص.

وقيل: ضمير ﴿نَقَّبُوا۟﴾ لأهل مكّة، أي: ساروا في مسائرهم وأسفارهم في بلاد القرون، فهل رأَوا لهم مَحيصًا حتّى يؤمِّلوا مثله لأنفسهم، ويعضُده القراءة على صيغة الأمر.[٥] وقُرئ: "فَنَقِبُوا"[٦] بكسر "القاف" مِن "النَّقَب"، وهو أن يَنتَقِب خفّ البعير، أي: أكثَروا السير حتّى نَقِبَت أقدامهم، أو أخفافُ إبِلهم.

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٣٩٠/٤. وفي مسند أحمد، ٢٤٣/١٨ (١١٧١٥)، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «إنّ الرجل لَيتكئ في الجنّة سبعين سنةً قبل أن يتحوّل، ثمّ تأتيه امرأته، فتضرِب على مَنكبيه، فينظر وجهه في خدّها أصفى مِن المِرآة، وإنّ أدنى لؤلؤة عليها تُضيء ما بين المشرق والمغرب، فتُسلّم عليه، قال: فيردّ السلام، ويسألها: "مَن أنت؟" وتقول: "أنا مِن المزيد"».

[٢] س: حرّقوا.

[٣] أي: "فَنَقَبُوا" بفتح "القاف". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنه وأبي عمرو مِن رواية عبيد عنه. انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ١٦٧/٥؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٤/١٠.

[٤] م - تعالى.

[٥] أي "فَنَقِّبُوا" بكسر "القاف" مشدّدة. قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنه وابن يَعمر وأبي العالية ونَصر بن يسار وأبي حَيوة والأصمعي عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٧؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٥٤١/٩.

[٦] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٤/١٠؛ واللباب لابن عادل، ٤٤/١٨.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ٣٧﴾

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن قصّتهم. وقيل: فيما ذُكر في السورة ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ / لتذكرةً وعِظةً ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: قلبٌ سليمٌ، يُدرك به كُنهَ ما يشاهده مِن الأمور، ويتفكّر فيها كما ينبغي، فإنّ مَن كان له ذلك يعلم أنّ مَدار دمارهم هو الكفر، فيرتدع عنه بمجرّد مشاهدة الآثار مِن غير تذكير. [١٢٦و]

﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي: إلى ما يُتلى عليه مِن الوحي الناطق بما جرى عليهم، فإنّ مَن فَعلَه يقِف على جليّة الأمر، فينزجر عمّا يؤدّي إليه مِن الكفر، فكلمة ﴿أَوْ﴾ لِمَنع الخلوّ دون الجمع، فإنّ إلقاء السمع لا يُجدي بدون سلامة القلب، كما يلوّح به قوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: حاضر بفِطنته؛ لأنّ مَن لا يُحضِر ذهنه فكأنّه غائب. وتجريد القلب عمّا ذُكر مِن الصفات للإيذان بأنّ مَن عَرِيَ قلبه عنها كمَن لا قلبَ له أصلًا.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ٣٨﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ مِن أصناف المخلوقات ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا﴾ بذلك مع كونه ممّا لا يفي به القُوَى والقُدَر ﴿مِن لُّغُوبٍ﴾ مِن إعياءٍ ما ولا تعبٍ في الجملة. وهذا ردّ على جهلة اليهود في زعمهم أنّه تعالى بدأ خلق العالم يومَ الأحد، وفرَغ منه يومَ الجمعة، واستراح يومَ السبت، واستلقى على العرش. سبحانه وتعالى عمّا يقولون علوّا كبيرًا.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ٣٩﴾

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: ما يقوله المشركون في شأن البعث مِن الأباطيل المَبنيّة على الإنكار والاستبعاد، فإنّ مَن فعلَ هذه الأفاعيل بلا فتور قادر على بَعثهم والانتقامِ منهم، أو ما يقوله اليهود مِن مقالات الكفر والتشبيه.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: نَزِّهْهُ تعالى عن العجز عمّا يمكن، وعن وقوع الخُلف في أخباره التي مِن جملتها الإخبار بوقوع البعث، وعن وصفه تعالى بما يوجِب التشبيه حامدًا له تعالى على ما أنعم به عليك مِن إصابة

الحقّ وغيرها. ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾[١] هما وقت الفجر والعصر، وفضيلتهما مشهورة.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ وسبِّحه بعض الليل، ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ وأعقابَ الصلوات. جمع "دُبُر". وقُرِئ بالكسر[٢] مِن "أدبَرَت الصلاةُ" إذا انقضَت وتمَّت. ومعناه: وقتَ انقضاء السجود. وقيل: المراد بـ"التسبيح" الصلاة، فالمراد بـ"ما قبل الطلوع" صلاةُ الفجر، وبـ"ما قبل الغروب" الظهرُ والعصرُ، وبـ"ما مِن الليل" العشاءان والتهجّد، / و"ما يصلّى بأدبار السجود" النوافلُ بعد المكتوبات. [١٢٦ظ]

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١﴾

﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ أي: لِما يُوحى إليكَ مِن أحوال القيامة. وفيه تهويل وتفظيع للمخبَر به. ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾[٣] أي: إسرافيل أو جبريل[٤] عليهما السلام، فيقول: "أيّتها العظام البالية، واللحوم المتمزّقة، والشعور المتفرّقة؛ إنّ الله يأمركنّ أن تجتمِعنَ لفصل القضاء". وقيل: إسرافيل ينفخ، وجبريل[٥] ينادي بالحشر. ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ بحيث يصِل نداؤه إلى الكلّ على سواء. وقيل: مِن صخرة بيت المقدس. وقيل: مِن تحت أقدامهم. وقيل: مِن مَنابت شعورهم يُسمَع مِن كلّ شعرةٍ. ولعلّ ذلك في الإعادة مثلُ "كُنْ" في البَدْء.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝٤٢ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ۝٤٣﴾

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ﴾ بدل مِن ﴿يَوْمَ يُنَادِ﴾...[٦] إلخ، وهي النفخة الثانية. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلّق بـ﴿ٱلصَّيْحَةَ﴾. والعامل في الظرف ما يدلّ عليه قوله تعالى:

---

[١] م س ي: غروبها.

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وحمزة وخلف ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٦/٢.

[٣] م س ي: ينادي المنادي.

[٤] س: جبرائيل.

[٥] س: وجبرائيل.

[٦] م س ي: ينادي. | في الآية السابقة.

﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾. أي: يوم يسمعون الصيحة ملتبِسةً بالحقّ الّذي هو البعث يخرجون مِن القبور.

﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾ في الدنيا مِن غير أن يشاركنا في ذلك أحد. ﴿وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ﴾ للجزاء في الآخرة، لا إلى غيرنا، لا استقلالًا، ولا اشتراكًا.

﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ٤٤﴾

﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ﴾ بحذف إحدى التاءَين مِن "تَتَشَقَّق". وقُرِئَ بتشديد "الشين"،[١] و"تُشَقَّقُ"[٢] على البناء للمفعول مِن التفعيل، و"تَنْشَقُّ".[٣] ﴿سِرَاعٗا﴾ مسرعين.

﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ﴾ بَعثٌ وجمعٌ وسَوقٌ ﴿عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾ أي: هيِّنٌ. وتقديم الجارِّ والمجرور لتخصيص اليُسر به تعالى.

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥﴾

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ مِن نفي البعث وتكذيب الآيات الناطقة به وغيرِ ذلك ممّا لا خيرَ فيه.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖ﴾ بمتسلِّط تَقسُرهم على الإيمان، أو تفعل بهم ما تريد، وإنّما أنت مذكِّر.

﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ وأمّا مَن عداهم فنحن نفعل بهم ما يوجبه أقوالهم، ويستدعيه أعمالهم مِن ألوان العقاب وفنون العذاب.

عن النبيّ صلّى الله تعالى[٤] عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿قٓ﴾ هوّنَ الله عليه تاراتِ الموت وسكراته».[٥]

---

[١] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٤.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٧.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٧.

[٤] م – تعالى.

[٥] س + الحمد لله ربّ العالمين. | الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٩٢؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤/١٦٢. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

سورة الذاريات[1]

مكيّة، وهي ستّون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ۝٦﴾

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ أي: الرياحِ التي تذرو الترابَ وغيرَه، وقُرئ / بإدغام "التاء" في "الذال".[2] [١٢٧و]

﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾ أي: السُّحبِ الحاملة للمطر، أو الرياحِ الحاملة للسحاب. وقُرئ: "وَقْرًا"[3] على تسمية المحمول بالمصدر.

﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾ أي: السُّفنِ الجارية في البحر، أو الرياحِ الجارية في مهابّها، أو السُّحب الجارية في الجوّ بسَوق الرِّياح أو الكواكبِ الجارية في مجاريها ومنازلها، و﴿يُسۡرٗا﴾ صفة لمصدر محذوف، أي: جريًا ذا يُسْر.

﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ أي: الملائكةِ التي تقسِّم الأمور مِن الأمطار والأرزاق وغيرِها، أو السُّحب التي يقسِّم الله تعالى بها أرزاق العباد. وقد جُوِّز أن يراد بالكلّ الرياح تنزيلًا لاختلاف العنوان منزلةَ اختلاف الذات، فإنّها كما تذرو ما تذروه تُثير السَّحاب وتحمله، وتجري في الجوّ جريًا سهلًا وتقسِّم الأمطار بتصريف السحاب في الأقطار.[4]

فإن حُملت الأمور المُقسَم بها على ذواتٍ مختلفة فـ"الفاء" لترتيب الأقسام باعتبار ما بينها مِن التفاوت في الدلالة على كمال القدرة، وإلّا فهي لترتيب

---

[1] س: والذاريات.

[2] قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٣٠٠/١، ٣٧٧.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٧.

[4] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٠/٤.

ما صدر عن الريح مِن الأفاعيل، فإنّها تذرو الأبخِرة إلى الجوّ حتّى تنعقد سحابًا فتجري به باسطةً له إلى ما أُمِرت به فتقسِّم المطر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ جواب للقسَم. وفي تخصيص الأمور المذكورة بالإقسام بها رمزٌ إلى شهادتها بتحقّق مضمون الجملة المُقسَم عليها مِن حيث إنّها أمور بديعة مخالفة لمقتضى الطبيعة، فمَن قدر عليها فهو قادر على البعث الموعود. و﴿مَا﴾ موصولة أو مصدريّة. ووصفُ الوعد بالصدق كوَصْف العيشة بالرِّضا.[1] والدِّين: الجزاء، ووقوعُه: حصوله.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنه وقتادةُ وعكرمةُ: ذات الخَلْق المستوي، وقال سعيد بن جُبير: ذات الزينة، وقال مجاهد: هي المتقنةُ البنيانِ، وقال مقاتل والكلبي والضحّاك: ذات الطرائق.[2] والمراد إمّا الطرائق المحسوسة التي هي مَسير الكواكب، أو المعقولةُ التي يسلكها النُّظّار، أو النجوم فإنّ لها طرائقَ. وعن الحسن: حُبُكها: نجومها،[3] حيث تُزَيّنها كما تُزيّن المَوشيَّ طرائقُ الوَشْي. وهي إمّا جمع "حِبَاك" أو "حَبيكة" / ك"مِثال ومُثُل" و"طَريقة وطُرُق". وقُرئ: "الحُبْك" بوزن "القُفْل"، و"الحِبْك" بوزن "السِّلْك"، و"الحَبَك" ك"الجَبَل"، و"الحُبَك" ك"البُرَق"، و"الحِبَك" ك"النِّعَم"، و"الحِبِك" ك"الإبِل". [١٢٧ظ]

﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ أي: متخالِف متناقض، وهو قولهم في حقّه عليه السلام تارةً: شاعر، وأخرى: ساحر، وفي شأن القرآن الكريم تارةً: شِعر، وتارة: سِحر، وأخرى: أساطير. وفي هذا الجواب تأييد لكون ﴿ٱلْحُبُكِ﴾ عبارةً عن الاستواء كما يلوِّح به ما نُقل عن الضحّاك أنّ قول الكفرة لا يكون مستويًا،

---

١ يعني في قوله تعالى: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة، ٢١/٦٩]، فهو مِن الإسناد المجازي.

٢ هذه الأقوال الأربعة عنهم في جامع البيان للطبري، ٤٨٦/٢١-٤٨٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٧١/٧-٣٧٢.

٣ مرويّ عن الحسن في جامع البيان للطبري، ٤٨٧/٢١؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٧١/٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠١/٤.

إنّما هو متناقض مختلِف.[١] وقيل: النكتة في هذا القسَم تشبيه أقوالهم في اختلافها وتنافي أغراضها بطرائق السماوات في تباعدها واختلاف غاياتها.[٢] وليس بذاك.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي: يُصرَف عن القرآن أو الرسول صلّى الله عليه وسلّم مَن صُرف؛ إذ لا صَرْفَ أفظعُ منه وأشدّ. وقيل: يُصرَف عنه مَن صُرف في عِلم الله تعالى وقضائه. ويجوز أن يكون الضمير للقول المختلِف، على معنى: يصدر إفكُ مَن أُفِك عن ذلك القول.[٣] وقُرئ: "مَنْ أَفَكَ"[٤] أي: مَن أَفَك الناس، وهم قريش حيث كانوا يصدُّون الناس عن الإيمان.

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ دعاء عليهم كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس، ١٧/٨٠]، وأصله الدعاء بالقتل والهلاك، ثمّ جرى مَجرى "لُعِن". والخرّاصون: الكذّابون المقدِّرون ما لا صحّةَ له، وهم أصحابُ القول المختلِف، كأنّه قيل: قُتل هؤلاء الخرّاصون. وقُرئ: "قَتَلَ الخَرَّاصِينَ"،[٥] أي: قَتَل الله.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ﴾ مِن الجهل والضلال ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عمّا أُمروا به.

﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: متى وقوع يوم الجزاء، لكن لا بطريق الاستعلام حقيقةً؛ بل بطريق الاستعجال استهزاءً. وقُرئ: "إِيَّانَ"[٦] بكسر "الهمزة".

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ جواب للسؤال، أي: يقع يومَ هم على النار يُحرَقون ويعذَّبون. ويجوز أن يكون ﴿يَوْمَ﴾ خبرًا لمبتدأ محذوف، أي: هو يومٌ هم... إلخ، والفتحُ لإضافته إلى غير متمكِّن،[٧] / ويؤيِّده أنّه قُرئ بالرفع.[٨] [١٢٨و]

---

[١] مرويّ عن الضحّاك في معالم التنزيل للبغوي، ٣٧١/٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠١/٤.

[٢] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٢١/٣.

[٣] القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٢١/٣.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٨.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧١١.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن السُلمي والأعمش. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٦.

[٧] الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٢/٤.

[٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة والزّعفراني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧١٢.

﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ أي: مقولًا لهم هذا القول. وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبرٍ داخلةٌ تحت القول المضمر، أي: هذا ما كنتُم تستعجلون به بطريق الاستهزاء. ويجوز أن يكون ﴿هَٰذَا﴾ بدلًا مِن ﴿فِتْنَتَكُمْ﴾ بتأويل العذاب و﴿ٱلَّذِى﴾ صفته.[1]

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ لا يبلغ كُنهها ولا يُقادَر قَدْرها.

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: قابلين لِما أعطاهم راضين به على معنى أنّ كلّ ما آتاهم حَسَن مَرضيّ يُتلقّى بحُسن القبول. ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ أي: لأعمالهم الصالحة آتين بها على ما ينبغي، فلذلك نالوا ما نالوا مِن الفوز العظيم.

ومعنى الإحسان بالإجمال ما أشار إليه عليه السلام بقوله: «أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك»،[2] وقد فُسِّر بقوله تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ أي: كانوا يهجعون في طائفة قليلة مِن الليل، على أنّ ﴿قَلِيلًا﴾ ظرف، أو كانوا يهجعون هجوعًا قليلًا، على أنّه صفة للمصدر، و﴿مَا﴾ مزيدة في الوجهين. ويجوز أن تكون مصدريّة أو موصولة مرتفعة بـ﴿قَلِيلًا﴾ على الفاعليّة، أي: كانوا قليلًا مِن الليل هجوعهم، أو ما يهجعون فيه.[3]

وفيه مبالغاتٌ في تقليل نومهم واستراحتهم: ذِكرُ القليل، والليلُ الذي هو وقت الراحة، والهُجوعُ الذي هو الفِرار مِن النوم، وزيادةُ ﴿مَا﴾. ولا مَساغ لجعل ﴿مَا﴾ نافيةً على معنى أنّهم لا يهجعون مِن الليل قليلًا؛ بل يُحيونه كلّه لِما أنّ "ما" النافيةَ لا يعمل ما بعدها فيما قبلها.[4]

---

[1] الوجه في **الكشّاف** للزمخشري، ٣٠٢/٤.

[2] **صحيح البخاري**، ١٩/١ (٥٠)؛ **صحيح مسلم**، ٣٦/١ (٨).

[3] الوجه في **الكشّاف** للزمخشري، ٣٠٢/٤.

[4] الكلام في **الكشّاف** للزمخشري، ٣٠٢/٤.

﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ أي: هم مع قِلّة هُجوعهم وكثرةِ تهجّدهم يداومون على الاستغفار في الأسحار كأنّهم أسلفوا ليلهم باقتراف الجرائم. وفي بناء الفعل على الضمير إشعارٌ بأنّهم الأحقّاء بأن يُوصَفوا بالاستغفار كأنّهم المختصّون به لاستدامتهم له وإطنابهم فيه.

[١٢٨ظ] ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ﴾ أي: نصيب وافر يستوجبونه / على أنفسهم تقرّبًا إلى الله تعالى[١] وإشفاقًا على الناس، ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ للمستجدي والمتعفِّف الذي يحسبه الناس غنيًّا فيُحرَم الصدقةَ.

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ أي: دلائلُ واضحة على شئونه تعالى على التفصيل مِن حيث إنّها مَدحوّة كالبِساط الممهَّد، وفيها مسالكُ وفِجاجٌ للمتقلِّبين في أقطارها والسالكين في مناكبها، وفيها سهلٌ وجبل، وبَرّ وبحر، وقِطَعٌ متجاورات، وعيونٌ متفجِّرة ومعادنُ مُفْتَنَّةٌ، وأنّها تُلقَح بألوان النبات وأنواعِ الأشجار وأصنافِ الثِّمار المختلفة الألوانِ والطعومِ والروائحِ، وفيها دوابُّ مُنبثَّة قد رُتِّب كلُّها ودُبِّر لمنافعِ ساكنيها ومصالحهم في صحّتهم واعتلالهم.

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي: وفي أنفسكم آياتٌ؛ إذ ليس في العالم شيء إلّا وفي الأنفس له نظيرٌ يدلّ دلالتَه على ما انفرد به مِن الهيئات النافعة، والمناظرِ البهيّة، والتركيباتِ العجيبة، والتمكّنِ مِن الأفعال البديعة، واستنباطِ الصنائع المختلفة، واستجماعِ الكمالات المتنوِّعة. ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ أي: ألا تنظرون فلا تُبصرون بعين البصيرة.

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ أي: أسباب رزقكم أو تقديره. وقيل: المراد بـ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ السحاب، وبـ"الرّزق" المطر،[٢] فإنّه سبب الأقوات. ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ مِن الثواب؛ لأنّ الجنّة في السماء السابعة، أو لأنّ الأعمال وثوابها مكتوبة

---

[١] م - تعالى.

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٠٣.

مقدَّرة في السماء. وقيل: إنّه مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ على أنّ الضمير لِـ﴿مَا﴾، وأمّا على الأوّل فإمّا له وإمّا لِما ذُكر مِن أمر الآيات والرزق،[١] على أنّه مستعار لاسم الإشارة.

﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ أي: كما أنّه لا شكّ لكم في أنكم تنطِقون ينبغي ألّا تشكُّوا في حقّيته. ونصبُه على الحاليّة مِن المستكنّ في "الحقّ"، أو على أنّه وصف لمصدر محذوف، أي: إنّه لَحَقٌّ حقًّا مثلَ نطقكم. وقيل: إنّه مبنيٌّ على الفتح لإضافته إلى غير متمكِّن،[٢] وهو ﴿مَا﴾ إن كانت عبارةً عن شيء، و﴿أَنَّ﴾ بما في حيِّزها إن جُعلت زائدة. ومحلُّه الرفع على أنّه صفةُ ﴿لَحَقٌّ﴾، ويؤيِّده القراءة بالرفع.[٣]

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

[١٢٩و] / ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ تفخيم لشأن الحديث وتنبيهٌ على أنّه ليس ممّا عَلِمه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بغير طريق الوحي. و"الضيفُ" في الأصل مصدرُ "ضافَه"، ولذلك يُطلَق على الواحد والجماعة كـ"الزَّوْر" و"الصَّوْم". وكانوا اثني عشرَ مَلَكًا، وقيل: تسعةً عاشرهم جبريلُ. وقيل: ثلاثة جبريلُ وميكائيلُ ومَلَك آخرُ معهما عليهم السلام.[٤] وتسميتُهم ضيفًا لأنّهم كانوا في صورة الضيف، حيث أضافهم إبراهيمُ عليه السلام، أو لأنّهم كانوا في حُسبانه كذلك.

﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ أي: المُكرَّمين عند الله تعالى، أو عند إبراهيمَ؛ حيث خَدَمهم بنفسه وبزوجته.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ ظرف للحديث أو لِما في الضيف مِن معنى الفعل، أو ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ إن فُسِّر بإكرام إبراهيمَ. ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي: نُسلِّم عليك سلامًا ﴿قَالَ﴾ أي: إبراهيمُ: ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: عليكم سلامٌ، عَدَل به إلى الرفع بالابتداء

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٢٢/٣.
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٣/٤.
٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٧٧/٢.
٤ الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٤/٤.

للقصد إلى الثبات والدوام حتّى يكون تحيّته عليه السلام أحسَنَ مِن تحيّتهم. وقُرئا مرفوعين،[١] وقُرئ: "سِلْمٌ"،[٢] وقُرئ منصوبًا،[٣] والمعنى واحد.

﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ أنكرهم عليه السلام للسلام الذي هو عَلَم للإسلام، أو لأنّهم ليسوا ممّن عهدهم مِن الناس، أو لأنّ أوضاعهم وأشكالهم خلافُ ما عليه الناس، ولعلّه عليه السلام إنّما قاله في نفسه مِن غير أن يُشعرهم بذلك، لا أنّه خاطبهم به جَهْرًا أو سألهم أن يعرّفوه أنفسَهم كما قيل، وإلّا لكشفوا أحوالهم عند ذلك ولم يتصدَّ عليه السلام لمقدِّمات الضيافة.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ۝٢٨ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ۝٢٩ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٣٠﴾

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ أي: ذهب إليهم على خُفيةٍ مِن ضيفه، فإنّ مِن أدب المُضيف أن يُبادِهَ بالقِرى ويُبادِر به حِذارًا مِن أن يكفَّه ويعذِره، أو يصير منتظِرًا. و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ فصيحة مُفصِحة عن جُمل قد حُذفت ثقةً بدلالة الحال عليها وإيذانًا بكمال سرعة المجيء بالطعام، كما في قوله تعالى: ﴿أَنِ[٤] ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء، ٦٣/٢٦]، أي: فذَبح عِجلًا فحَنَذه فجاء به. ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ/ إِلَيۡهِمۡ﴾ بأن وَضَعه لديهم حسبما هو المعتاد ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ إنكارًا لعدم تعرُّضهم للأكل. [١٢٩ظ]

﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ﴾ أضمر في نفسه ﴿خِيفَةٗ﴾ لتوهُّم أنّهم جاءوا للشرّ، وقيل: وقع في قلبه أنّهم ملائكة جاءوا للعذاب.[٥] ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾ قيل: مَسَح جبريلُ عليه السلام العِجل بجناحه فقام يدرُج حتى لَحِق بأمّه فعرفهم وأَمِن منهم.[٦]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وأبي البَرَهسم. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧١٣.

[٢] قرأ بها حمزة والكسائي. **النشر** لابن الجزري، ٢٩٠/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن عُبيد بن عُمير. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧١٣.

[٤] م س: فقلنا.

[٥] مرويّ عن ابن عبّاس في **الكشّاف** للزمخشري، ٣٠٤/٤.

[٦] مرويّ عن ابن عون بن شدّاد في **الكشّاف** للزمخشري، ٣٠٤/٤.

﴿وَبَشَّرُوهُ﴾ وفي سورة الصافات: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ﴾ [الصافات، ١١٢/٣٧]، أي: بواسطتهم. ﴿بِغُلَٰمٍ﴾ هو إسحاقُ عليه السلام ﴿عَلِيمٍ﴾ عند بلوغه واستوائه.

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ﴾ سارةُ لمّا سمعت بشارتهم إلى بيتها وكانت في زاوية تنظر إليهم. ﴿فِى صَرَّةٍ﴾ في صيحة مِن "الصرير"، ومحلُّه النصب على الحاليّة أو المفعوليّة، إن جُعل ﴿أَقْبَلَتِ﴾ بمعنى "أخذتْ"، كما يقال: أقبَلَ يشتِمُني. ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي: لطمَتْه مِن الخياء لِما أنّها وجدتْ حرارةَ دم الطَّمْث. وقيل: ضربَتْ بأطراف أصابعها جبينها كما يفعله المتعجِّب.[1] ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: أنا عجوز عاقرٌ فكيف ألِدُ؟

﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ﴾ مثل ذلك القول الكريم ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ وإنّما نحن معبِّرون نخبِرك به عنه تعالى، لا أنّا نقوله مِن تِلقاء أنفسنا. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ[2] ٱلْعَلِيمُ[3]﴾ فيكون قوله حقًّا وفعلُه متقنًا لا محالةَ. رُوي أنّ جبريلَ عليه السلام قال لها: انظري إلى سقف بيتك فنظرتْ فإذا جذوعه مُورِقة مُثمِرة.[4] ولم يكن هذه المفاوضة مع سارةَ فقط؛ بل مع إبراهيمَ عليه السلام أيضًا حسبما شُرح في سورة الحجر،[5] وإنّما لم يُذكَر ههنا اكتفاءً بما ذُكر هناك، كما أنّه لم يُذكَر هناك سارةُ اكتفاءً بما ذُكر ههنا وفي سورة هود.[6]

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣١ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ۝٣٢ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۝٣٤ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٦ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٣٧﴾

﴿قَالَ﴾ أي: إبراهيمُ عليه السلام لمّا عَلِم أنّهم ملائكة أرسِلوا لأمر: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: شأنكم الخطير الذي لأجله أُرسِلتم سوى البشارة ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعنون قوم لوط.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٤/٤.
٢ م س: العليم.
٣ م س: الحكيم.
٤ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٥/٤.
٥ الحجر، ٥٦/١٥.
٦ هود، ٦٩/١١-٧٣.

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: بعد ما قلبنا قراهم وجعلنا عاليها سافلها، حسبما فُصِّل في سائر السور الكريمة. ﴿حِجَارَةً مِن طِينٍ﴾ أي: طين متحجِّر هو السجّيل ﴿مُسَوَّمَةً﴾ مرسلةً مِن "أسَمْتُ الماشية"، أي: أرسلتُها، أو مُعْلَمةً مِن "السُّومَة" وهي العلامة، وقد مرّ تفصيله في سورة هود.[1] ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المُجاوِزين الحدَّ في الفجور.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾... إلى آخره حكايةٌ مِن جهته تعالى لِما جرى على قوم لوط عليه السلام بطريق الإجمال بعد حكاية ما جرى بين الملائكة وبين إبراهيمَ عليهم السلام مِن الكلام، و"الفاء" فصيحةٌ مُفصِحة عن جُمَل قد حُذِفت ثقةً بذِكرها في مواضع أخرَ، كأنّه قيل: فباشَروا ما أُمِروا به ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ بقولنا: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾... إلخ [هود، ٨١/١١] ﴿مَن كَانَ فِيهَا﴾ أي: في قرى قوم لوط، وإضمارُها بغير ذِكر لشُهرتها، ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ممّن آمن بلوط.

﴿فَمَا وَجَدْنَا / فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ﴾ أي: غيرَ أهلِ بيت ﴿مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قيل: هم لوط وابنتاه. وقيل: كان لوط وأهل بيته الذين نجَوا ثلاثةَ عشرَ.[2] [١٣٠و]

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا﴾ أي: في القرية ﴿آيَةً﴾ علامةً دالّةً على ما أصابهم مِن العذاب. قيل: هي تلك الأحجار، أو صخر منضود فيها، أو ماء مُنتِن.[3] ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي: مِن شأنهم أن يخافوه، لسلامة فطرتهم ورقّة قلوبهم دون مَن عداهم مِن ذوي القلوب القاسية، فإنّهم لا يعتدُّون بها ولا يعدُّونها آيةً.

﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

﴿وَفِي مُوسَىٰ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾ أو على قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً﴾ على معنى وجعلنا في موسى آيةً، كقول مِن قال:

---

١ في تفسير هود، ٨٣/١١.

٢ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٥/٤.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٥/٤.

عَلَفْتُها تِبْنًا وماءً بارِدًا[١]

﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ﴾ قيل: هو منصوب بـ﴿ءَايَةً﴾. وقيل: بمحذوف، أي: كائنةً وقت إرسالنا. وقيل: بـ﴿تَرَكْنَا﴾.[٢] ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ هو ما ظهر على يديه مِن المعجزات الباهرة.

﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: فأعرض عن الإيمان به وازورّ، كقوله تعالى: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء، ٨٣/١٧]. وقيل: فتولّى بما يتقوّى به مِن مُلكه وعساكره،[٣] فإنّ الرُّكن اسم لِما يركَن إليه الشيءُ. وقُرئ: "بِرُكُنِهِ"[٤] بضمّ "الكاف". ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ﴾ أي: هو ساحر ﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ كأنّه نسَب ما ظهر على يديه عليه السلام مِن الخوارق العجيبة إلى الجنّ، وتردَّد في أنّه حصَل باختياره وسعيه أو بغيرهما.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ وفيه مِن الدلالة على غاية عِظَم شأن القدرة الربّانيّة ونهاية قماءة فرعونَ وقومِه ما لا يخفى. ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: آتٍ بما يُلام عليه مِن الكفر والطغيان، والجملة حال مِن الضمير في ﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾.

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝﴾

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ وُصفت بالعُقم؛ لأنّها أهلكتْهم وقطعت دابرهم، أو لأنّها لم تتضمّن خيرًا ما مِن إنشاء مطر أو إلقاح شجر، وهي النَّكباء[٥] أو الدَّبور[٦] أو الجَنوب.[٧]

---

[١] في هامش م: تمامه:
حتّى غدَتْ همّالةً عيناها
المصراع الأوّل مخروم، أي: وعلفتَها. «منه». | ولا يُعرف قائله. وقال الفرّاء قبل إنشاده في معاني القرآن، ١٤/١ (البقرة، ٧/٢): «وأنشدني بعض بني أسد يصف فرسه». وليس في ديوان بني أسد؛ وهو في تفسير الطبري، ٢٧١/١ (البقرة، ٧/٢)؛ والصحاح للجوهري، «علف»، «قلد»؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠٥/٤. وتفصيل الكلام على البيت في خزانة الأدب للبغدادي، ١٣٩/٣-١٤١، وقال في نسبته: «ورأيتُ في حاشية نسخة صحيحة مِن الصحاح أنّه لذي الرُّمّة، ففتشت ديوانه فلم أجده فيه».

[٢] هذه الأقوال الثلاثة في اللباب لابن عادل، ٩٢/١٨.

[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٥/٤.

[٤] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٣٠٥/٤.

[٥] النكباء: كلّ ريح مِن الرِّياح الأربع انحرفت ووقعت بين ريحين. لسان العرب لابن منظور، «نكب».

[٦] الدَّبور: الريح التي تقابل الصَّبا والقَبول، وهي ريح تهبّ مِن نحو المغرب. لسان العرب لابن منظور، «دبر».

[٧] الجنوب: ريح تخالف الشَّمال تأتي عن يمين القِبلة. لسان العرب لابن منظور، «جنب».

﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أي: جرَتْ عليه ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ هو كلّ ما رمّ وبليَ وتفتّت مِن عَظْم أو نبات أو غيرِ ذلك.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

/ ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وهو قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود، ٦٥/١١]. قيل: قال لهم صالحٌ عليه السلام: «تُصبح وجوهكم غدًا مصفرَّةً، وبعد غدٍ محمرَّةً، واليومَ الثالث مسودَّةً، ثمّ يُصبِّحكم العذاب».[1] [١٣٠ظ]

﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: فاستكبروا عن الامتثال به ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ قيل: لمّا رأوا العلامات التي بيّنها صالحٌ عليه السلام مِن اصفرار وجوههم واحمرارها واسودادها عمدوا إلى قتله عليه السلام فنجّاه الله تعالى إلى أرض فلسطين، ولمّا كان ضحوة اليوم الرابع تحنّطوا وتكفّنوا بالأنطاع فأتتهم الصيحة فهلكوا. وقُرئ: "الصَّعْقَةُ"[2] وهيَ المرّة مِن الصَّعْق. ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إليها ويُعاينونها.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف، ٧٨/٧] ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ بغيرهم كما لم يمتنعوا بأنفسهم.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي: وأهلكنا قوم نوح، فإنّ ما قبله يدلّ عليه، أو "واذكُرْ". ويجوز أن يكون معطوفًا على محلّ ﴿فِي عَادٍ﴾،[3] ويُؤيِّده القراءة بالجرّ.[4] وقيل: هو معطوف على مفعول ﴿فَأَخَذْنَاهُ﴾.[5] ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبلِ هؤلاء المُهلَكين، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن الحدود فيما كانوا فيه مِن الكفر والمعاصي.

---

١ مرويّ عن قتادة في تفسير ابن أبي حاتم، ١٥١٥/٥ (الأعراف، ٧٧/٧).

٢ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٧٧/٢.

٣ الوجه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٢٥/٣.

٤ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٧٧/٢.

٥ القول في اللباب لابن عادل، ٩٩/١٨.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ۝٤٨ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ﴾ أي: بقوة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لَقادرون مِن "الوُسع" بمعنى الطاقة، والمُوسِع: القادر على الإنفاق، أو لمُوسعون السماءَ، أو ما بينها وبين الأرض، أو الرزقَ.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾ مهدناها وبسطناها ليستقرُّوا عليها ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ أي: نحن.

﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾ أي: مِن الأجناس ﴿خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ أي: نوعين ذكرًا وأنثى. وقيل: متقابلَين: السماء والأرض والليل والنهار والشمس والقمر والبر والبحر ونحو ذلك.[1] ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: فعلنا ذلك كلّه كي تتذكَّروا فتعرِفوا أنّه خالقُ الكلّ ورازقه وأنّه المستحقّ للعبادة وأنّه قادر على إعادة الجميع فتعملوا بمقتضاه.

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥١ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾

[١٦٨و] وقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ / مقدَّرٌ بقول خُوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بطريق التلوين. و"الفاء" إمّا لترتيب الأمر على ما حُكي مِن آثار غضبه الموجِبة للفرار منها، ومِن أحكام رحمته المستدعية للفرار إليها، كأنّه قيل: قلْ لهم: إذا كان الأمر كذلك فاهربوا إلى الله الذي هذه شئونه بالإيمان والطاعة / كي [١٣١و] تنجوا مِن عقابه وتفوزوا بثوابه، وإمّا للعطف على جملة مقدَّرة مترتِّبة على قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، كأنّه قيل: قلْ لهم فتذكَّروا ففرُّوا إلى الله... إلى آخره.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ تعليل للأمر بالفرار إليه تعالى أو لوجوب الامتثال به، فإنّ كونه عليه السلام منذِرًا منه تعالى موجِب عليه عليه السلام أن يأمرهم بالفرار إليه وعليهم أن يمتثلوا به، أي: إنّي لكم مِن جهته تعالى

---

[1] القول في معالم التنزيل للبغوي، ٣٧٩/٧.

منذرٌ بَيِّنٌ كونُه منذرًا منه تعالى، أو مظهرٌ لِما يجب إظهاره مِن العذاب المُنذَرِ به. وفي أمره تعالى للرسول صلّى الله عليه وسلّم بأن يأمرهم بالهرب إليه تعالى مِن عقابه وتعليلِه بأنّه عليه السلام ينذرهم مِن جهته تعالى لا مِن تلقاء نفسه وعدٌ كريم بنجاتهم مِن المهروب وفوزِهم بالمطلوب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ نهيٌ موجِب للفرار مِن سبب العقاب بعد الأمر بالفرار مِن نفسه، كما يشعر به قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾ أي: مِن الجعل المنهيّ عنه ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ فإنّ تعلّق كلمة ﴿مِنْ﴾ بالإنذار مع كون صلته "الباء" بتضمينه معنى الإفرارِ، يقال: "فرّ منه"، أي: هرَب و"أَفَرَّهُ غيره" كأنّه قيل: وفِرُّوا مِن أن تجعلوا معه تعالى اعتقادًا أو قولًا إلهًا آخرَ، وفيه تأكيدٌ لِما قبله مِن الأمر بالفِرار مِن العقاب إليه تعالى، لكن لا بطريق التكرير، كما قيل: بل بالنهي عن سببه وإيجابِ الفرار منه.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر مثلُ ما ذُكِر مِن تكذيبهم الرسولَ وتسميتِهم له ساحرًا أو مجنونًا، وقوله تعالى: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾... إلخ، تفسيرٌ له، أي: ما أتاهم ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ مِن رسل الله ﴿إِلَّا قَالُواْ﴾ في حقّه ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ ولا سبيلَ إلى انتصاب الكاف بـ﴿أَتَى﴾ لامتناع عمل ما بعد ﴿مَا﴾ النافية فيما قبلها.

﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾ إنكار وتعجيب مِن حالهم وإجماعهم على تلك الكلمة الشنيعة التي لا تكاد تخطر ببال أحد مِن العقلاء فضلًا عن التفوّه بها، أي: أأوصى بهذا القول بعضُهم بعضًا حتّى اتّفقوا عليه؟

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضراب عن كون مدار اتّفاقهم على الشرّ تواصيَهم بذلك، وإثباتٌ لكونه أمرًا / أقبحَ مِن التواصي وأشنعَ منه مِن الطغيان الشامل [١٣١ظ] للكلّ الدالّ على أنّ صدور تلك الكلمة الشنيعة عن كلّ واحد منهم بمقتضى جبلّته الخبيثة لا بموجَب وصيّة مَن قبلهم بذلك مِن غير أن يكون ذلك مقتضى طباعهم.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرِض عن جدالهم فقد كرّرتَ عليهم الدعوةَ فأبَوا إلّا الإباءَ

﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ على التولّي بعد ما بذلتَ المجهود وجاوزتَ في الإبلاغ كل حدّ معهود.

﴿وَذَكِّرْ﴾ أي: افعل التذكير والموعظة ولا تَدَعْهُما بالمرّة، أو فذكِّرهم، وقد حُذف الضمير لظهور الأمر. ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الذين قدّر الله تعالى إيمانهم، أو الذين آمنوا بالفعل فإنّها تزيدهم بصيرةً وقوّةً في اليقين.

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ استئناف مؤكِّد للأمر مقرِّر لمضمون تعليله، فإنّ كون خَلْقهم مُغيًّا بعبادته تعالى ممّا يدعوه عليه السلام إلى تذكيرهم، ويُوجِب عليهم التذكّر والاتّعاظ. ولعلّ تقديمَ خَلْقِ الجنّ في الذِّكر لتقدّمه على خَلْق الإنس في الوجود.

ومعنى خَلْقهم لعبادته تعالى خَلْقُهم مستعدِّين لها ومتمكِّنين منها أتمَّ استعداد وأكملَ تمكُّن مع كونها مطلوبةً منهم، بتنزيل ترتُّب الغاية على ما هي ثمرة له منزلةَ ترتُّب الغرض على ما هو غرض له، فإنّ استتباع أفعاله تعالى لغايات جليلة ممّا لا نزاع فيه قطعًا، كيف لا، وهي رحمة منه تعالى وتفضُّل على عباده، وإنّما الذي لا يليق بجنابه عزّ وجلّ تعليلُها بالغرض بمعنى الباعث على الفعل، بحيث لولاه لم يفعله لإفضائه إلى استكماله بفعله وهو الكامل بالفعل مِن كلّ وجه.

وأمّا بمعنى نهاية كماليّة يُفضي إليها فعلُ الفاعلِ الحقّ فغيرُ منفيّ مِن أفعاله تعالى؛ بل كلّها جارية على ذلك المنهاج، وعلى هذا الاعتبار يدور وصفه تعالى بالحكمة. ويكفي في تحقّق معنى التعليل -على ما يقوله الفقهاء ويتعارفه أهل اللغة- هذا المقدار، وبه يتحقَّق مدلول / "اللام". [١٣٢و]

وأمّا إرادة الفاعل لها فليست مِن مقتضيات "اللام" حتّى يلزم مِن عدم صدور العبادة عن البعض تخلُّف المراد عن الإرادة، فإنّ تعوّق البعض عن الوصول إلى الغاية مع تعاضُد المبادي وتآخُذ المقدِّمات الموصِلة إليها لا يمنع كونها

غايةً، كما في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم، ١/١٤] ونظائره.

وقيل: المعنى إلّا ليؤمَروا بعبادتي، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾ [التوبة، ٣١/٩]. وقيل: المراد سعداء الجنسين، كما أنّ المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ [الأعراف، ١٧٩/٧] أشقياؤهما،[١] ويعضده قراءة مَن قرأ: "وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ مِنَ المُؤمِنِينَ".[٢]

وقال مجاهد واختاره البغوي:[٣] معناه: إلّا ليعرفونِ،[٤] ومدارُه قوله صلّى الله عليه وسلّم فيما يحكيه عن ربّ العزّة: «كنتُ كنزًا مخفيًا فأحببتُ أن أُعرَف فخلَقتُ الخلق لأعرَف».[٥] ولعلّ السرَّ في التعبير عن المعرفة بالعبادة على طريقة إطلاق اسم السبب على المسبَّب التنبيهُ على أنّ المعتبر هي المعرفة الحاصلةُ بعبادته تعالى لا ما يحصل بغيرها كمعرفة الفلاسفة.

﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ بيان لكون شأنه تعالى مع عباده متعاليًا عن أن يكون كشأن السادة مع عبيدهم، حيث يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم وتهيئة أرزاقهم، أي: ما أريدُ أن أصرِّفهم في تحصيل رزقي ولا رزقهم؛ بل أتفضّل عليهم برزقهم وبما يُصلِحهم ويُعيّشهم مِن عندي فليَشتغلوا بما خُلِقوا له مِن عبادتي.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ الذي يرزق كلّ ما يفتقر إلى الرزق، وفيه تلويحٌ بأنّه غنيٌّ عنه. وقُرئ: "إِنِّي أَنَا الرَّزَاقُ".[٦] ﴿ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ بالرفع على أنّه نعت لـ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾

---

[١] القولان في اللباب لابن عادل، ١٠٥/١٨.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٦.

[٣] هو الحسين بن مسعود بن محمّد الفرّاء البغوي، أبو محمّد (ت. ٥١٠هـ/١١١٧م). نسبته إلى بَغَا مِن قرى خراسان بين هَراة ومرو. وكان يلقّب بمحيي السنّة وبركن الدّين، الفقيه الشافعي المحدِّث المفسِّر. كان سيّدًا إمامًا عالمًا علّامة زاهدًا قانعًا باليسير، وكان أبوه يعمل الفِراء ويبيعها. بُورك له في تصانيفه، ومِن أشهرها: معالم التنزيل، وشرح السنّة، والمصابيح. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤٣٩/١٩؛ والأعلام للزركلي، ٢٥٩/٢.

[٤] انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٨٠/٧؛ والكلام عنه في اللباب لابن عادل، ١٠٥/١٨.

[٥] فتوح الغيب للطِّيبي، ٤٤٥/١٠ (الحج، ٦/٢٢)؛ تنزيه الشريعة لابن عرّاق، ١٤٨/١.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٦.

أو لـ﴿ذُو﴾، أو خبرٌ بعد خبر، أو خبرٌ لمضمر. وقُرئ بالجرّ[١] على أنّه وصف لـ﴿ٱلْقُوَّةِ﴾ على تأويل الاقتدار / أو الأَيْدِ.[٢] [١٣٢ظ]

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٦٠﴾

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد بتكذيب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أو وُضعوا مكانَ التصديق تكذيبًا، وهم أهل مكّة. ﴿ذَنُوبًا﴾ أي: نصيبًا وافرًا مِن العذاب ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ مثل أنصباء نظرائهم مِن الأمم المحكيّة، وهو مأخوذ مِن مُقاسَمة السُّقاة الماءَ بالذَّنوب وهو الدلوُ العظيم المملوء.

﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي: لا يطلبوا منّي أن أعجِّل في المجيء به، يقال: "استعجله"، أي: حثّه على العجلة وأمَرَه بها، ويقال: "استعجله"، أي: طلب وقوعه بالعجلة، ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل، ١/١٦]، وهو جواب لقولهم ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس، ٤٨/١٠].

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وُضع الموصول موضع ضميرهم تسجيلًا عليهم بما في حيّز الصلة مِن الكفر وإشعارًا بعلّة الحُكم. و"الفاء" لترتيب ثبوت الويلِ لهم على أنّ لهم عذابًا عظيمًا، كما أنّ "الفاء" الأولى لترتيب النهي عن الاستعجال على ذلك، و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ للتعليل، أي: يُوعَدونه مِن يوم بدر. وقيل: يوم القيامة،[٣] وهو الأنسب بما في صدر السورة الكريمة الآتية، والأوّل هو الأوفق لِما قبله مِن حيث إنّهما مِن العذاب الدنيوي.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ "والذاريات" أعطاه الله تعالى عشر حسنات بعدد كلّ ريح هبّت وجرَت في الدنيا».[٤]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش والزّعفراني وابن وردة وقتبة طريق المطرّز عن الكسائي. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧١٥.

[٢] الأَدُ: الصُّلب والقوّة كالأَيْد. **قاموس**. | **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، «أود».

[٣] القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٣٠٨/٤.

[٤] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٥٠٨/٢٤ (الذاريات، ١/٥١)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ١٧٣/٤ (الذاريات، ١/٥١)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣٠٨/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة الطور

مكيّة، وهي تسع[1] أو[2] ثمان وأربعون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ ① وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ② فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ③ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ④ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ⑤ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ⑥ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ⑦ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ⑧ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ⑨ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ⑩﴾

﴿وَٱلطُّورِ﴾ الطور بالسُّريانيّة: الجبل، والمراد به طور سِينين، وهو جبل بمَدين[3] سمع فيه موسى عليه السلام كلام الله عزّ وعلا.

﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ مكتوب على وجه الانتظام، فإنّ السَّطر ترتيب الحروف المكتوبة، والمراد به القرآن، أو ألواح موسى عليه السلام، وهو الأنسَب بالطور، أو ما يُكتَب في اللوح أو ما يكتبه الحَفَظة.

﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ الرَّقّ: الجِلد الذي يُكتب فيه، استُعير لِما يُكتب فيه الكتاب مِن الصحيفة، وتنكيرُهما للتفخيم، أو للإشعار بأنّهما ليسا ممّا يتعارفه الناس.

﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ أي: الكعبة وعِمارتها بالحُجّاج والعمّار والمُجاوِرين، أو الضُّراح وهو في السماء الرابعة، وعمرانه كثرةُ غاشيته مِن الملائكة.

﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ أي: السماء، ولا يخفى حُسن موقع العنوان المذكور.

﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ أي: المملوء، / وهو البحر المحيط أو المُوقَد، مِن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير، ٦/٨١]، فالمراد به الجنس. رُوي أنّ الله تعالى [١٣٣و]

[1] س + وأربعون.

[2] س: وقيل.

[3] مَدْيَن: على بحر القلزم [البحر الأحمر] محاذية لتبوك، وهي اسم القبيلة، وهي مدينة قوم شُعيب عليه السلام. انظر: معجم البلدان للحموي، ٥/٧٧.

يجعل البحار يوم القيامة نارًا يُسجَر بها نار جهنّم.[١]

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ أي: لنازل حتمًا، جواب للقسم.

وقوله تعالى: ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ إمّا خبر ثانٍ لـ﴿إِنَّ﴾، أو صفة ﴿لَوَٰقِعٌ﴾، و﴿مِن دَافِعٍ﴾ إمّا مبتدأ للظرف أو مرتفعٌ منه على الفاعليّة، و﴿مِن﴾ مزيدة للتأكيد.

وتخصيص هذه الأمور بالإقسام بها لِما أنّها أمور عظام تنبئ عن عِظَم قدرة الله تعالى وكمالِ عِلمه وحكمته الدالّة على إحاطته تعالى بتفاصيل أعمال العباد وضبطها الشاهدةِ بصدق أخباره التي مِن جملتها الجملة المقسَم عليها.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ ظرفُ ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ مبيِّن لكيفيّة الوقوع مُنبئٌ عن كمال هَوله وفظاعته. والمَوْر: الاضطراب والتردّد في المجيء والذهاب، وقيل: هو تحرُّك في تموُّج.[٢] قيل: تدور السماء كما تدور الرَّحى وتتكفّأ بأهلها تَكَفُّؤَ السفينة، وقيل: تختلف أجزاؤها.[٣]

﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أي: تزول عن وجه الأرض فتصير هباءً، وتأكيد الفعلين بمصدريهما للإيذان بغرابتهما وخروجهما عن الحدود المعهودة، أي: مَوْرًا عجيبًا وسَيرًا بديعًا لا يُدرَك كنههما.

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: إذا وقع ذلك، أو إذا كان الأمر كما ذُكر، فويلٌ يومَ إذ يقع ذلك لهم.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ﴾ أي: اندفاع عجيب في الأباطيل والأكاذيب ﴿يَلْعَبُونَ﴾ يلهُون.

---

[١] مرويّ عن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ٣٨٦/٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٠٩/٤.

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٠٩/٤.

[٣] القولان في اللباب لابن عادل، ١١٩/١٨.

﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ أي: يُدفعون إليها دَفْعًا عنيفًا شديدًا بأن يُغَلّ أيديهم إلى أعناقهم ويُجمَع نواصيهم إلى أقدامهم فيُدفَعوا إلى النار. وقُرئ: "يُدْعَوْنَ"[١] مِن الدُّعاء، فيكون ﴿دَعًّا﴾ حالًا بمعنى مدعوعين. و﴿يَوۡمَ﴾ إمّا بدل مِن ﴿يَوۡمَ تَمُورُ﴾، أو ظرف لقول مقدَّر قبل قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي: يقال لهم ذلك، ومعنى التكذيب بها تكذيبُهم بالوحي الناطق بها.

وقوله تعالى: ﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ﴾ توبيخ وتقريع لهم، حيث كانوا يسمُّونه سِحرًا، كأنّه قيل: كنتُم تقولون للقرآن الناطق بهذا: "سِحرٌ"، فهذا أيضًا سِحرٌ. وتقديم الخبر لأنّه محطّ الإنكار ومدارُ التوبيخ. ﴿أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾ أي: أم أنتم عُمْيٌ عن المخبَر عنه / كما كنتم عُميًا عن الخبر، أو أم سُدَّت أبصاركم كما سُدَّت في الدنيا على زعمكم، حيث كنتم تقولون ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾ [الحجر، ١٥/١٥]. [١٣٣ظ]

﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾ أي: ادخلوها وقاسُوا شدائدها فافعلوا ما شئتم مِن الصبر وعدمه. ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: الأمران في عدم النفع لا بدَفْع العذاب ولا بتخفيفه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ تعليل للاستواء، فإنّ الجزاء حيث كان واجبَ الوقوع حتمًا كان الصبر وعدمُه سواءً في عدم النفع.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ١٧ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ١٨﴾

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ﴾ أي: في أيّة جنّاتٍ وأيّ نعيمٍ، على أنّ التنوين للتفخيم، أو في ﴿جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ﴾ مخصوصة بـ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ على أنّه للتنويع. ﴿فَٰكِهِينَ﴾ ناعمين متلذِّذين ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾. وقُرئ: "فَكِهِينَ"،[٢] و"فَاكِهُونَ"،[٣] على أنّه الخبر، والظرف لغوٌ متعلِّق بالخبر أو خبرٌ آخرُ.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٩.

[٢] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٤.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٠.

﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ عطفٌ على ﴿ءَاتَىٰهُمْ﴾ على أنّ ﴿مَا﴾ مصدريّة، أو على خبر ﴿إِنَّ﴾، أو حالٌ بإضمار "قد" إمّا مِن المستكنّ في الخبر أو في الحال، وإمّا مِن فاعل ﴿ءَاتَىٰ﴾ أو مِن مفعوله أو منهما، وإظهارُ الربّ في موقع الإضمار مضافًا إلى ضميرهم للتشريف والتعليل.

﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ٢٠﴾

﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ أي: يقال لهم كلوا واشربوا أكلًا وشُربًا ﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾ أو طعامًا وشرابًا هنيئًا وهو الذي لا تنغيص فيه ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بسببه أو بمقابلته، وقيل: الباء زائدة،[1] و﴿مَا﴾ فاعل ﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾، أي: هَنَأكم ما كنتم تعملون، أي: جزاؤه.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ مصطفّة ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾. وقُرئ: "بِحُورِ عِينٍ"[2] على إضافة الموصوف إلى صفته بالتأويل المشهور. وقُرئ: "بِعِيسٍ عِينٍ"،[3] و"الباء" مع أنّ التزويج ممّا يتعدّى إلى مفعولين لِما فيه مِن معنى الوصل والإلصاق، أو للسببيّة؛ إذ المعنى صيّرناهم أزواجًا بسببهنّ، فإنّ الزوجيّة لا تتحقّق بدون انضمامهنّ إليهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍۚ كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ٢١﴾

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾... إلى آخره، كلامٌ مستأنَف مَسوق لبيان حال طائفة مِن أهل الجنّة إثر بيان حال الكلّ وهم الذين شاركَتْهم ذرّيّتُهم في الإيمان، وهو مبتدأ خبره ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾.

[١٣٤و] وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ / ذُرِّيَّتُهُم﴾ عطفٌ على ﴿ءَامَنُواْ﴾، وقيل: اعتراض.[4] وقوله تعالى: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ متعلّق بالاتّباع، أي: اتّبعتهم ذرّيّتُهم بإيمان في الجملة

---

[1] كما في الكشّاف للزمخشري، ٣١٠/٤.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الصُّوفي والأديب والعنبري عن أبي بكر وعكرمة. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٧١٨.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والنخَعي. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٧١٨.

[4] كما في الكشّاف للزمخشري، ٣١١/٤.

قاصرٍ عن رتبة إيمان الآباء. واعتبارُ هذا القيد للإيذان بثبوت الحكم في الإيمان الكامل أصالةً لا إلحاقًا.

وقُرئ: "ذُرِّيَّاتُهُمْ"[١] للمبالغة في الكثرة و"ذِرِّيَّاتُهُمْ"[٢] بكسر "الذال". وقُرئ: "وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ"،[٣] أي: جعلناهم تابعين لهم في الإيمان. وقُرئ: "أَتْبَعْتُهُمْ".[٤]

﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: في الدرجة، كما رُوي أنّه عليه السلام قال: «إنّه تعالى يرفع ذُرِّيّة المؤمن في درجته وإن كانوا دونه لتقرّ بهم عينه»،[٥] ثمّ تلا هذه الآيةَ.

﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ وما نقصنا الآباءَ بهذا الإلحاقِ ﴿مِّنْ عَمَلِهِم﴾ مِن ثواب عملهم ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ بأن أعطينا بعضَ مثوباتهم أبناءهم، فينتقصَ مثوبتُهم وينحطَّ درجتهم، وإنّما رفعناهم إلى منزلتهم بمَحْض التفضّل والإحسان.

وقُرئ: "أَلِتْنَاهُمْ"[٦] بكسر "اللام" مِن "أَلِتَ يألَتُ" كـ"عَلِم يعلَم"، والأوّل كـ"ضَرَب يضرِب"، و"لِتْنَاهُمْ" مِن "لات يليت"، و"آلَتْنَاهُمْ"[٧] مِن "آلتَ يُولِتُ" و"وَلَتْنَاهُمْ"[٨] مِن "وَلَت يَلِت"، والكلُّ بمعنًى واحد.

هذا، وقد قيل: الموصول معطوف على ﴿حُورٍ﴾، والمعنى قرنّاهم بالحُور وبالذين آمنوا، أي: بالرُّفقاء والجُلساء منهم، فيتمتَّعون تارةً بملاعبة الحُور، وأخرى بمؤانسة الإخوان المؤمنين.[٩]

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿زَوَّجْنَٰهُم﴾. وقوله تعالى: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ متعلِّق بما بعده، أي: بسبب إيمان عظيم رفيعِ المحلّ، وهو إيمان الآباء،

---

١ قرأ بها ابن عامر وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٧/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٠.

٣ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٧٧/٢.

٤ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٣١١/٤.

٥ المستدرك للحاكم، ٥٠٩/٢ (٣٧٤٤)؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣٨٨/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣١١/٤.

٦ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٧٧/٢.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٠.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان بن تغلب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٠.

٩ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣١٠/٤-٣١١.

ألحقنا بدرجاتهم ذرّيّتهم وإن كانوا لا يستأهلونها تفضّلًا عليهم وعلى آبائهم ليتمّ سرورهم ويكمل نعيمهم، أو بسبب إيمانٍ داني المنزلة وهو إيمان الذُّرّية، كأنّه قيل: بشيء مِن الإيمان لا يؤهِّلهم لدرجة الآباء ألحقناهم[١] بهم.

﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ قيل: هو "فعيل" بمعنى "المفعول"، والمعنى: كلّ امرئ مرهون عند الله تعالى بالعمل الصالح،[٢] فإن عَمِله فكّه وإلّا أهلَكه. وقيل: بمعنى "الفاعل"، والمعنى: كلّ امرئ بما كسَب راهن، أي: دائم ثابت. وهذا أنسَب بالمقام، فإنّ الدوام يقتضي / عدم المفارقة بين المرء وعمله ومِن ضرورته ألّا ينقص مِن ثواب الآباء شيء، فالجملة تعليل لِما قبلها. [١٣٤ظ]

﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ۝٢٢ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ۝٢٣ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ۝٢٤﴾

﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ وزدناهم على ما كان لهم مِن مبادي التنعّم وقتًا فوقتًا ما يشتهون مِن فنون النعماء وألوان الآلاء.

﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا﴾ أي: يتعاطَون فيها هم وجلساؤهم بكمال رغبة واشتياق، كما ينبئ عنه التعبير عن ذلك بالتنازع. ﴿كَأۡسٗا﴾ أي: خمرًا تسميةً لها باسم محلّها ﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا﴾ أي: في شربها، حيث لا يتكلّمون في أثناء الشرب بلَغْو الحديث وسَقَط الكلام. ﴿وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ ولا يفعلون ما يُؤثَّم به فاعله، أي: يُنسَب إلى الإثم لو فعله في دار التكليف، كما هو ديدن المنادمين في الدنيا، وإنّما يتكلّمون بالحِكَم وأحاسن الكلام، ويفعلون ما يفعله الكرام. وقُرئ: "لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمَ"[٣] بالفتح.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: بالكأس ﴿غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ﴾ أي: مماليكُ مخصوصون بهم، وقيل: هم أولادهم الذين سبقوهم.[٤] ﴿كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾ مَصون في الصَّدَف مِن بياضهم وصفائهم، أو مخزون؛ لأنّه لا يُخزَن إلّا الثمينُ الغالي القِيمةِ.

---

١ س: ألحقنا.
٢ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣١١.
٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢١١.
٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٣١.

قيل: لقتادةَ: هذا الخادم فكيف المخدوم؟ فقال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «والذي نفسي بيده إنّ فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب».[1] وعنه عليه السلام: «إنّ أدنى أهل الجنّة منزلةً مَن يُنادي الخادمَ مِن خُدّامه فيُجيبه ألفٌ ببابه: لبّيكَ لبّيكَ».[2]

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: يسأل كلّ بعض منهم بعضًا آخرَ عن أحواله وأعماله فيكون كلّ بعضٍ سائلًا ومسئولًا، لا أنّه يسأل بعض معيَّنٌ منهم بعضًا آخرَ معيَّنًا.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: المسئولون، وهم كلّ واحد منهم في الحقيقة ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ﴾ أي: في الدنيا ﴿فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أرقّاء القلوب خائفين مِن عصيان الله تعالى معتنين بطاعته أو وَجِلين مِن العاقبة.

﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالرحمة أو التوفيق للحقّ ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ عذاب النار النافذة في المسامّ / نفوذَ السموم. وقُرئ: "وَوَقَّانَا"[3] بالتشديد. [١٣٥و]

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أي: نعبده، أو نسأله الوقاية ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ﴾ المحسِن ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الكثير الرحمة الذي إذا عُبد أثاب وإذا سُئل أجاب. وقُرئ: "أَنَّهُ"[4] بالفتح، بمعنى "لأنّه".

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١﴾

﴿فَذَكِّرْ﴾ فاثبُت على ما أنت عليه مِن التذكير لِما أُنزل إليك مِن الآيات والذِّكر الحكيم، ولا تكترث بما يقولون ممّا لا خيرَ فيه مِن الأباطيل.

---

١ جامع البيان للطبري، ٥٨٩/٢١؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣٩٠/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣١١/٤.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٧/٢٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٣١٢/٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٠.

٤ قرأ بها أبو عمرو والكسائي ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧٨/٢.

﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ بحمده وإنعامه بصدق النبوّة ورجاحة العقل ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ كما يقولون قاتلهم الله أنّى يؤفكون.

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ وهو ما يُقلِق النفوس ويشخص بها مِن حوادث الدهر، وقيل: ﴿ٱلْمَنُونِ﴾: الموت، وهو في الأصل "فَعُول" مِن "مَنَّه" إذا قطعه؛ لأنّ الموت قَطُوع،[١] أي: بل أيقولون: ننتظر به نوائبَ الدهر؟

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أتربَّص هلاككم كما تتربّصون هلاكي، وفيه عِدَة كريمة بإهلاكهم.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ أي: عقولهم ﴿بِهَٰذَآ﴾ أي: بهذا التناقض في المقال، فإنّ الكاهن يكون ذا فِطنة ودِقّة نظر في الأمور، والمجنون مغطّى عقلُه مختلٌّ فِكره، والشاعر ذو كلام موزون متّسقٍ مخيّل، فكيف يجتمع أوصاف هؤلاء في واحد؟ وأمرُ الأحلام بذلك مجازٌ مِن أدائها إليه.

﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ مُجاوِزون الحدودَ في المكابرة والعِناد، لا يحومون حول الرُّشد والسَّداد، ولذلك يقولون ما يقولون مِن الأكاذيب الخارجة عن دائرة العقول والظنون. وقُرِئ: "بَلْ هُمْ".[٢]

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ أي: اختلقه مِن تلقاء نفسه ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فلكفرهم وعِنادهم يرمون بهذه الأباطيل التي لا يخفى على أحد بطلانها، كيف لا، وما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلّا واحد مِن العرب، فكيف أتى بما عجز عنه كافّة الأمم مِن العرب والعجم؟

﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ مِثلِ القرآن في النعوت التي استقلّ بها مِن حيث النظمُ / ومِن حيث المعنى ﴿إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ فيما زعموا، فإنّ صدقهم في ذلك [١٣٥ظ]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣١٢/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٠.

يستدعي قدرتَهم على الإتيان بمِثله بقضيّة مشاركتهم له عليه السلام في البشريّة والعربيّة، مع ما بهم مِن طول الممارسة للخُطَب والأشعار وكثرةِ المزاولة لأساليب النظمِ والنثرِ والمبالغة في حفظ الوقائع والأيّام، ولا ريبَ في أنّ القدرة على الشيء مِن موجِبات الإتيان به ودواعي الأمر بذلك.

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ أي: أم أُحدِثوا وقُدِّروا هذا التقديرَ البديع مِن غير مُحدِث ومقدِّر؟ وقيل: أم خُلِقوا مِن أجل لا شيءَ مِن عبادة وجزاء. ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ لأنفسهم فلذلك لا يعبدون الله سبحانه.

﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي: إذا سُئلوا: مَن خلقكم وخَلَق السماواتِ والأرضَ؟ قالوا: الله، وهم غير موقنين بما قالوا، وإلّا لَما أعرضوا عن عبادته.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ أي: خزائن رزقه ورحمته حتّى يرزُقوا النبوّة مَن شاءوا ويُمسِكوها عمّن شاءوا، أو عندهم خزائنُ عِلمه وحكمته حتّى يختاروا لها مَن اقتضت الحكمة اختيارَه.

﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ أي: الغالبون على الأمور يدبِّرونها كيفما شاءوا حتّى يدبِّروا أمر الربوبيّة ويبنوا الأمورَ على إرادتهم ومشيئتهم. وقُرِئ: "المُصَيْطِرُونَ"[1] بـ"الصاد" لمكان "الطاء".

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ منصوب إلى السماء ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ صاعدين إلى كلام الملائكة وما يُوحى إليهم مِن عِلم الغيب حتّى يعلموا ما هو كائن مِن الأمور التي يتقوّلون فيها رَجْمًا بالغيب، ويُعلِّقون بها أطماعهم الفارغة. ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بحجّة واضحة تُصدِّق استماعَه.

---

١ قرأ بها نافع وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف والبزي وهشام وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٧٨/٢-٣٧٩.

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾

[١٣٦و] ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ / تسفيةٌ لهم وتركيكٌ لعقولهم وإيذانٌ بأنّ مَن هذا رأيه لا يكاد يُعدّ مِن العقلاء فضلًا عن الترقّي إلى عالم الملكوت والتطلّع على الأسرار الغيبيّة. والالتفاتُ إلى الخطاب لتشديد ما في ﴿أَمْ﴾ المنقطعة مِن الإنكار والتوبيخ.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ رجوع إلى خطابه عليه السلام وإعراضٌ عنهم، أي: بل أتسألهم أجرًا على تبليغ الرسالة ﴿فَهُم﴾ لأجل ذلك ﴿مِّن مَّغْرَمٍ﴾ مِن التزام غرامة فادحة ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ مُحمَّلون الثِّقَل فلذلك لا يتّبعونك.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي: اللوح المحفوظ المُثبَت فيه الغيوب ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما فيه حتى يتكلّموا في ذلك بنفي أو إثبات.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ هو كيدهم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم في دار الندوة. ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هم المذكورون. ووضعُ الموصول موضعَ ضميرهم للتسجيل عليهم بما في حيّز الصلة مِن الكفر وتعليلِ الحُكم به أو جميعِ الكفَرة، وهم داخلون فيهم دخولًا أوّليًا. ﴿هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ أي: هم الذين يحيق بهم كيدُهم أو يعود عليهم وباله لا مَن أرادوا أن يكيدوه وهو ما أصابهم يوم بدر، أو هم المغلوبون في الكيد مِن "كايَدتُه فكِدتُه".

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ يُعينهم ويحرسهم مِن عذابه ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: عن إشراكهم، أو عن شركة ما يُشركونه.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا﴾ قطعةً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ لتعذيبهم ﴿يَقُولُوا۟﴾ مِن فَرْط طغيانهم وعِنادهم ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ أي: هم في الطغيان بحيث لو أسقطناه عليهم

حسبما قالوا: ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء، ٩٢/١٧] لقالوا: "هذا سحابٌ تراكمَ بعضُها على بعض يُمطِرنا"، ولم يصدِّقوا أنّه كِسْف ساقط للعذاب.

﴿فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ﴾ وقُرئ: "حَتَّى يَلْقَوا"[١] ﴿يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ﴾ على البناء للمفعول مِن "صَعَقَتْه الصاعقة" أو مِن "أصعَقَتْه". وقُرئ: "يَصْعَقُونَ"[٢] بفتح "الياء" و"العين"، وهو يوم يُصيبهم الصعقةُ / بالقتل يوم بدر، لا النفخة الأولى كما [١٣٦ظ] قيل؛[٣] إذ لا يُصعَق بها إلّا مَن كان حيًّا حينئذ.

ولأنّ قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ أي: شيئًا مِن الإغناء بدل مِن ﴿يَوۡمَهُمُ﴾. ولا يخفى أنّ التعرّض لبيان عدم نفعِ كيدهم يستدعي استعمالهم له طمعًا في الانتفاع به، وليس ذلك إلّا ما دبّروه في أمره صلّى الله عليه وسلّم مِن الكيد الذي مِن جملته مُناصبتهم يومَ بدر، وأمّا النفخة الأولى فليست ممّا يجري في مدافعته الكيدُ والحِيَلُ. وقيل: هو يوم موتهم.[٤] وفيه ما فيه مع ما يأباه الإضافة المنبئة عن اختصاصه بهم. ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ مِن جهة الغير في دَفْع العذاب عنهم.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: لهم، ووضعُ الموصول موضعَ الضمير لِما ذُكر مِن قبل، أي: وإنّ لهؤلاء الظلَمة ﴿عَذَابٗا﴾ آخرَ ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ دون ما لاقَوه مِن القتل، أي: قبله، وهو القحط الذي أصابهم سبعَ سنين، أو وراءه كما في قوله:

تُـريـكَ الـقَـذى مِـن دونـهـا وهـو دونـهـا[٥]

وهو عذاب القبر وما بعده مِن فنون عذاب الآخرة. وقُرئ: "دُونَ ذَلِكَ قَرِيبًا".[٦]

---

١ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٧٠/٢، ٣٧٩.

٢ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي وحمزة أبو جعفر يعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٧٩/٢.

٣ كما في الكشّاف للزمخشري، ٣١٣/٤.

٤ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٣٩٤/٧.

٥ وفي هامش م: استشهاد لكلا المعنيين. «منه». | والشعر للأعشى في ديوانه، ص ٢١٩، وتمامه:

إذا ذاقـهـا مَـن ذاقـهـا يـتـمطّقُ

وهو له في معجم مقاييس اللغة لابن فارس، «مطق»؛ والكشّاف للزمخشري، ٨٢/١ (البقرة، ٢٣/٢)؛ وأساس البلاغة للزمخشري، «مطق». وفيها جميعًا «وهو دونه» مكان «وهو دونها».

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ٣١٣/٤.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ الأمر كما ذكر، وفيه إشارةٌ إلى أنّ فيهم مَن يعلم ذلك، وإنّما يُصرّ على الكفر عِنادًا، أو لا يعلمون شيئًا أصلًا.

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم إلى يومهم الموعود وإبقائك فيما بينهم مع مُقاساة الأحزان ومُعاناة الهموم. ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: في حفظنا وحمايتنا بحيث نراقبك ونكْلَؤك، وجُمع "العين" لجمع الضمير والإيذانِ بغاية الاعتناء بالحفظ.

﴿وَسَبِّحْ﴾ أي: نزِّهه تعالى عمّا لا يليق به ملتبِسًا ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ على نعمائه الفائتة للحصر ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ مِن أيّ مكان قمتَ. قال سعيد بن جُبير وعطاء، أي: قل حين تقوم مِن مجلسك: «سبحانك اللّٰهمّ وبحمدك»،[1] وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «معناه صلِّ لله حين تقوم مِن مقامك»،[2] وقال الضحّاك والربيع: «إذا قمتَ إلى الصلاة / فقل: سبحانك اللّٰهمّ وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جَدّك ولا إلهَ غيرُك».[3] [١٣٧و]

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ إفراد لبعض الليل بالتسبيح لِما أنّ العبادة فيه أشقُّ على النفس وأبعدُ عن الرِّياء كما يلوِّح به تقديمُه على الفعل. ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ أي: وقتَ إدبارها مِن آخر الليل، أي: غيبتها بضوء الصباح. وقيل: التسبيح مِن الليل: صلاةُ العشاءين، وإدبارُ النجوم: صلاةُ الفجر. وقرئ: "أَدْبَارَ النُّجُومِ"[4] بالفتح، أي: في أعقابها إذا غربتْ أو خفيتْ.

عن النبيّ عليه السلام: «مَن قرأ سورة الطور كان حقًّا على الله تعالى أن يؤمِنه مِن عذابه وأن ينعِّمه في جنّته».[5]

---

[1] معالم التنزيل للبغوي، ٣٩٤/٧.

[2] معالم التنزيل للبغوي، ٣٩٥/٧.

[3] جامع البيان للطبري، ٦٠٦/٢١؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣٩٥/٧.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وزيد عن يعقوب وسالم بن أبي الجعد. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٢١.

[5] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥/٨ (الطور، ١/٥٢)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ١٨٣/٤ (الطور، ١/٥٢)؛ الكشّاف للزمخشري، ٣١٤/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة والنجم

مكّيّة، وهي إحدى وستّون أو[1] اثنتان[2] وستّون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ المراد بـ﴿ٱلنَّجْمِ﴾ إمّا الثريّا فإنّه اسم غالبٌ له، أو جنس النجوم. وبهُويّه غروبُه، وقيل: طلوعه، يقال: "هَوى هَويًّا" بوزن "قَبول" إذا غرَب، و"هُويًّا" بوزن "دُخول" إذا علا وصعِد. وأمّا النجم مِن نجوم القرآن فهُويّه نزوله، والعامل في ﴿إِذَا﴾ فعل القسَم فإنّه بمعنى مطلقِ الوقت منسلِخ مِن معنى الاستقبال، كما في قولك: "آتيك إذا احمرَّ البُسر".[3]

وفي الإقسام بذلك على نزاهته عليه السلام عن شائبة الضلال والغَواية مِن البراعة البديعةِ وحُسنِ الموقع ما لا غايةَ وراءه، أمّا على الأوّلين فلأنّ النجمَ شأنُه أن يهتدي به الساري إلى مسالك الدنيا، كأنّه قيل: والنجم الذي يهتدي به السابلة إلى سواء السبيل.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ أي: ما عدل عن طريق الحقّ الذي هو مَسلَك الآخرة **﴿وَمَا غَوَىٰ﴾** أي: وما اعتقد باطلًا قطُّ، أي: هو في غاية الهدى والرُّشد، وليس ممّا تتوهّمونه مِن الضلال والغَواية في شيء أصلًا.

وأمّا على الثالث فلأنّه تنويهٌ بشأن القرآن، كما أُشيرَ إليه في مطلع سورة يس وسورة الزخرف، وتنبيهٌ / على مناط اهتدائه عليه السلام ومدار رشاده، [١٣٧ظ]

---

[1] س: وقيل.

[2] س: ثنتان.

[3] هذا القول للعرب في كتاب سيبويه، ٦٠/٣.

كأنّه قيل: والقرآنِ الذي هو عَلَم في الهداية إلى مناهج الدِّين ومسالك الحقّ ما ضلّ عنها محمّد عليه السلام وما غوى.

والخطاب لقريش، وإيرادُه عليه السلام بعنوان صاحبيّته لهم للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة وإحاطتهم خُبرًا ببراءته عليه السلام ممّا نُفي عنه بالكلّيّة وباتّصافه عليه السلام بغاية الهدى والرَّشاد، فإنّ طُول صحبتهم له عليه السلام ومشاهدتَهم لمحاسن شئونه العظيمة مقتضيةٌ لذلك حتمًا.

وتقييدُ القسم بوقت الهُويّ على الوجه الأخير ظاهر، وأمّا على الأوّلين فلأنّ النجم لا يهتدي به الساري عند كونه في وسط السماء، ولا يعلم المشرِق مِن المغرِب ولا الشَّمال مِن الجنوب، وإنّما يهتدي به عند هبوطه أو صعوده مع ما فيه مِن كمال المناسبة؛ لِما سيُحكى مِن تدلّي جبريلَ مِن الأفق الأعلى ودنوِّه منه عليهما السلام، هذا هو اللائق بشأن التنزيل الجليل.

وأمّا حَمْل هُويِّه على انتثاره يوم القيامة أو على انقضاض النجم الذي يُرجَم به أو حملُ النجم على النبات وحَمْلُ هُويِّه على سقوطه على الأرض أو ظهوره منها،[1] فممّا لا يناسب المقام.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ أي: وما يصدر نطقه بالقرآن عن هواه ورأيه أصلًا، فإنّ المراد استمرار نفي النطق عن الهوى، لا نفيُ استمرار النطق عنه، كما مرّ مرارًا.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما الذي ينطق به مِن القرآن ﴿إِلَّا وَحْىٌ﴾ مِن الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿يُوحَىٰ﴾ صفة مؤكِّدة لـ﴿وَحْىٌ﴾ رافعة لاحتمال المجاز مفيدةٌ للاستمرار التجدّدي.

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ أي: مَلَك شديدٌ قُواه وهو جبريلُ عليه السلام، فإنّه الواسطة في إبداء الخوارق. وناهيك دليلًا على شدّة قوّته أنّه قلَع قُرى قوم لوط

---

[1] هذه الوجوه في الكشّاف للزمخشري، ٣١٥/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣٥/٣.

مِن الماء الأسود الذي تحت الثرى وحَمَلها على جناحه ورفعها إلى السماء ثمّ قَلَبها، وصاح بثمودَ[١] صيحةً فأصبحوا جاثمين، وكان هبوطه على الأنبياء وصعوده في أسرع مِن رجعة الطرف.[٢]

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: حَصَافة[٣] في عقله ورأيه ومتانةٍ في دينه ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ / عطفٌ على ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ بطريق التفسير، فإنّه إلى قوله تعالى: ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ بيان لكيفيّة التعليم، أي: فاستقام على صورته التي خلقه الله تعالى عليها دون الصورة التي كان يتمثّل بها كلّما هبط بالوحي، وذلك أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أحبَّ أن يراه في صورته التي جُبل عليها، وكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بحِراء[٤] فطلع له جبريلُ عليهما السلام مِن المشرق فسدّ الأرض مِن المغرب وملأ الأفق، فخرَّ رسول الله عليه السلام، فنزل جبريلُ في صورة الآدميّين فضمّه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه.[٥] [١٣٨و]

قيل: ما رآه أحد مِن الأنبياء في صورته غير النبيّ عليهم السلام، فإنّه رآه فيها مرّتين مرّةً في الأرض ومرّةً في السماء.[٦] وقيل: استوى بقوّته على ما جُعل له مِن الأمر.[٧]

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي: أفقِ الشمس، حالٌ مِن فاعل ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾.

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ أي: أراد الدنوَّ مِن النبيّ عليهما السلام ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ أي: استرسل مِن الأفق الأعلى مع تعلُّق به فدنا مِن النبيّ، يقال: "تدلّت الثمرة" و"دلّى رجليه مِن السرير" و"أدلى دَلْوه"، والدوالي: التمر المعلّق.

---

١ س: ثمود.

٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣١٦/٤.

٣ وفي هامش م: إحكام. «منه».

٤ حِراء: جبل مِن جبال مكّة على ثلاثة أميال، وكان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قبل نزول الوحي يتعبّد في غار مِن هذا الجبل، وفيه أتاه جبريل عليه السلام. انظر: معجم البلدان للحموي، ٢٣٣/٢.

٥ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٤٠١/٧؛ واللباب لابن عادل، ١٦٠/١٨.

٦ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٤٠١/٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٣١٦/٤.

٧ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣٦/٣.

﴿فَكَانَ﴾ أي: مقدار امتداد ما بينهما ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أي: مقدارهما، فإنّ القاب والقِيب والقاد والقِيد والقِيس: المقدار. وقيل: فكان جبريلُ عليه السلام كما في قولك: "هو منّي معقدَ الإزار".[١] ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي: على تقديركم، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات، ١٤٧/٣٧]، والمراد تمثيلُ ملكة الاتِّصال وتحقيقُ استماعه لِما أوحي إليه بنفي البُعد المُلبِس.

﴿فَأَوْحَىٰ﴾ أي: جبريلُ ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ عبد الله تعالى، وإضماره قبل الذِّكر لغاية ظهوره كما في قوله تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ [فاطر، ٤٥/٣٥]. ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ أي: مِنَ الأمور العظيمة التي لا تفي بها العبارة، أو فأوحى الله تعالى حينئذ بواسطة جبريلَ ما أوحى. قيل: أوحى إليه أنّ الجنّةَ محرَّمة على الأنبياء حتّى تدخلها، وعلى الأمم حتّى تدخلها أمّتك.[٢]

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾ أي: فؤاد محمّد عليه السلام ﴿مَا رَأَىٰ﴾ أي: ما رآه ببصره مِن صورة جبريلَ عليهما السلام، / أي: ما قال فؤاده لمّا رآه: لمْ أعرِفك، ولو قال ذلك لَكان كاذبًا؛ لأنّه عرَفه بقلبه كما رآه ببصره. وقُرئ: "مَا كَذَّبَ"،[٣] أي: صدّقه ولم يشكّ أنّه جبريلُ بصورته. [١٣٨ظ]

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ١٨﴾

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ أي: أتُكذِّبونه فتُجادلونه على ما يراه معاينةً؟ أو أبعَد ما ذُكر مِن أحواله المنافية للمُماراة تُمارونه؟ مِن "المِراء" وهو الملاحاة والمجادلة، واشتقاقه مِن "مَرْيِ الناقةِ" كأنّ كلًّا مِن المتجادلَين يمري ما عند صاحبه. وقُرئ: "أَفَتَمْرُونَهُ"،[٤] أي: فتغلبونه في المِراء مِن "مارَيته فمَريته"،

---

١ كتاب سيبويه، ٤١٤/١؛ الصحاح للجوهري، «عقد».
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣١٧/٤.
٣ قرأ بها أبو جعفر وهشام. النشر لابن الجزري، ٣٧٩/٢.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والشعبي، والهَمْداني عن طلحة، وسعيد بن جبير ويحيى بن يعمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٢٣.

ولِما فيه مِن معنى الغلَبة عُدّي بـ﴿عَلَىٰ﴾، كما يقال: "غلبتُه على كذا". وقيل: أفتُمرونه: أفتجحدونه، مِن "مراه حقَّه"، أي:[١] جحَده.[٢]

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: وبالله لقد رأى جبريلَ في صورته مرّةً أخرى مِن النزول، نُصبت النَّزْلة نَصْبَ الظرف الذي هو مرّة؛ لأنّ "الفعلة" اسم للمرّة مِن الفعل، فكانت في حكمها. وقيل: تقديره: ولقد رآه نازلًا نزلةً أخرى فنصبُها على المصدر.[٣]

﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ هي شجرة نبق في السماء السابعة عن يمين العرش ثمرها كقِلال هَجَر،[٤] وورقُها كآذان الفُيول تنبع مِن أصلها الأنهار التي ذَكَرها الله تعالى في كتابه، يسير الراكب في ظِلّها سبعين عامًا لا يقطعها. و﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ موضع الانتهاء أو الانتهاء، كأنّها في منتهى الجنّة. وقيل: إليها ينتهي عِلم الخلائق وأعمالهم ولا يعلم أحد ما وراءها. وقيل: ينتهي إليها أرواح الشهداء.[٥] وقيل: ينتهي إليها ما يهبط مِن فوقها ويصعد مِن تحتها.[٦]

قيل: إضافة السِّدرة إلى المنتهى إمّا إضافة الشيء إلى مكانه كقولك أشجار البستان، أو إضافة المحلّ إلى الحالّ كقولك: "كتاب الفقه"، والتقدير: سدرةٌ عندها منتهى العلوم، أو إضافة المُلك إلى المالك على حذف الجارّ والمجرور، أي: سدرة المنتهى إليه وهو الله عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم، ٤٢/٥٣].[٧]

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: الجنّة التي يأوي إليها المتّقون أو أرواح الشهداء، والجملة حاليّة. قيل: الأحسنُ أن يكون الحال هو الظرف و﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ مرتفعٌ به على الفاعليّة.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ ظرف زمان لـ﴿رَءَاهُ﴾، لا لِما بعده مِن الجملة المنفيّة كما قيل،[٨] فإنّ "ما" النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها.

---

١ س: إذا.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣١٧/٤.

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣٧/٣.

٤ هجر: هي قاعدة البحرين، وقيل: ناحية البحرين كلّها هجر. معجم البلدان للحموي، ٣٩٣/٥.

٥ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٣١٧/٤.

٦ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٣٧/٣.

٧ الوجهان في اللباب لابن عادل، ١٧٣/١٨.

٨ وفي هامش م: إمام رازي. «منه». | انظر: تفسير الرازي، ٢٤٥/٢٨؛ ونقله ابن عادل في اللباب، ١٧٣/١٨.

والغِشيان بمعنى التغطية والسَّتر، ومنه "الغواشي"، أو بمعنى الإتيان، يقال: "فلان يغشاني كلَّ حين"، أي: يأتيني، والأوّل هو الأليَق بالمقام.

[١٣٩و] / وفي إبهام ﴿مَا يَغْشَىٰ﴾ مِن التفخيم ما لا يخفى، وتأخيرُه عن المفعول للتشويق إليه، أي: ولقد رآه عند السِّدرة وقتَ ما غشيها ما غشيها ممّا لا يكتنهه الوصفُ ولا يفي به البيانُ كيفًا ولا كمًّا. وصيغةُ المضارع لحكاية الحال الماضية استحضارًا لصورتها البديعة أو للإيذان باستمرار الغشيان بطريق التجدّد.

قيل: يغشاها الجمّ الغفير مِن الملائكة يعبدون الله تعالى عندها،[١] وقيل: يزورونها متبرّكين بها كما يزور الناسُ الكعبةَ، وقيل: يغشاها سُبُحاتُ أنوار الله عزّ وجلّ[٢] حين يتجلّى لها كما تجلّى للجبل، لكنّها كانت أقوى مِن الجبل وأثبتَ، حيث لم يصبها ما أصابه مِن الدكّ، وقيل: يغشاها فَراش أو جراد مِن ذهب، وهو قول ابن[٣] عبّاس وابن مسعود والضحّاك.[٤]

ورُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «رأيتُ السِّدرة يغشاها فَراش مِن ذهب، ورأيتُ على كلّ ورقة مَلَكًا قائمًا يسبّح الله تعالى»،[٥] وعنه عليه السلام: «يغشاها رَفرف[٦] مِن طير خُضر».[٧]

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي: ما مال بصرُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عمّا رآه ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ وما تجاوزه مع ما شاهَدَ هناك مِن الأمور المذهِلة ما لا يحصى؛ بل أثبتَه إثباتًا صحيحًا متيقّنًا، أو ما عَدَل عن رؤية العجائب التي أُمِر برؤيتها ومُكِّن منها وما جاوَزها.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣١٨/٤.

٢ مرويّ بمعناه عن ابن عبّاس في جامع البيان للطبري، ٤٢/٢١.

٣ س + ابن قول.

٤ كما في جامع البيان للطبري، ٤١/٢١-٤٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤٠٦/٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٣١٨/٤.

٥ جامع البيان للطبري، ٤٢/٢١؛ معالم التنزيل للبغوي، ٤٠٦/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣١٨/٤.

٦ وفي هامش م: جماعة. «منه».

٧ لم أجِده في مظانّه. وهو في الكشف والبيان للثعلبي، ١١٢/٢٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٣١٨/٤. وفي صحيح البخاري، ١٦١/٦ (٤٨٥٨) في تفسير الآية الثامنة عشرة مِن هذه السورة مِن حديث ابن مسعود رضيَ الله عنه، قال: «رأى رَفرفًا أخضرَ قد سدَّ الأفق».

﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ أي: والله لقد رأى الآيات التي هي كُبراها وعُظماها حين عُرج به إلى السماء، فأُري مِن عجائب المُلك والملكوت ما لا يُحيط به نطاق العبارة. ويجوز أن يكون ﴿ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ صفةً لـ"الآيات" والمفعول محذوف، أي: شيئًا عظيمًا مِن آيات ربّه، وأن يكون ﴿مِن﴾ مزيدةً.

﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ۝٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢﴾

﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۞ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ هي أصنام كانت لهم، فـ"اللات" كانت لثقيف بالطائف، وقيل: لقريش بنَخْلَة.[1] وهي "فَعْلة" مِن "لوى"؛ لأنّهم كانوا يلوون عليها ويطوفون بها. وقُرئ بتشديد "التاء"[2] على أنّه اسم فاعل اشتُهر به رجل كان يلتّ السمن بالزيت ويُطعِمه الحاجّ، وقيل: كان / يلتّ [١٣٩ظ] السَّوِيق[3] بالطائف ويُطعمه الحاجّ، فلمّا مات عكفوا على قبره يعبدونه،[4] وقيل: كان يجلس على حَجَر فلمّا مات سُمّي الحَجَر باسمه، وعُبد مِن دون الله، وقيل: كان الحَجَر على صورته.[5]

و"العزّى" تأنيث "الأعزّ" كانت لغطفان[6] وهي سمُرةٌ كانوا يعبدونها، فبَعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خالدَ بن الوليد فقطعها، فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها واضعةً يدها على رأسها وهي تُولوِل فجعل خالدٌ يضربها بالسيف حتّى قتلها، فأخبر رسول الله عليه السلام، فقال: «تلك العُزّى ولن تُعبَد أبدًا».[7]

---

١ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٣١٨/٤. | نخلة: موضع بالحِجاز قريب مِن مكّة. **معجم البلدان** للحموي، ٢٧٧/٥.

٢ قرأ بها رُويس. **النشر** لابن الجزري، ٣٧٩/٢.

٣ السَّويق: طعام يتّخذ مِن الحنطة والشعير، ولتُّه: بلُّه بالماء. **لسان العرب** لابن منظور، «سوق»، «لتت».

٤ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٣١٨/٤.

٥ القول في **اللباب** لابن عادل، ١٧٨/١٨-١٧٩.

٦ غَطَفان: وهي قبيلة عظيمة مِن قبائل سعد بن قيس بن عيلان، وهم بطن متّسع كثير البطون والشعوب، منهم بنو عبس وبنو ذُبيان، كانت منازلهم ممّا يلي وادي القرى وجبلي طيئ أجأ وسلمى، ثمّ تفرّقوا في الفتوحات الإسلاميّة، واستولت على مواطنهم قبائل طيئ. انظر: **اللباب** لابن الأثير، ٣٨٦/٢؛ **وقلائد الجمان** للقلقشندي، ص ١١٢.

٧ **التفسير البسيط** للواحدي، ٤٤٢/٢١؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ٤٠٧/٧-٤٠٨؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣١٨/٤.

و"مناة" صخرة لهُذيل وخزاعة، وقيل: لثقيف، وكأنّها سُمّيت مناةَ؛ لأنّ دماء النسائك تُمنَى عندها، أي: تُراق. وقُرئ: "وَمَنَاءَةَ"[١] وهي "مَفْعَلة" مِن "النَّوْء"؛ كأنّهم كانوا يستمطِرون عندها الأنواءَ تبرُّكًا بها، و﴿ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ صفة ذمّ لها، وهي المتأخِّرة الوضيعةُ المقدارِ. وقد جُوِّز أن تكون الأوّليّة والتقدّم عندهم للات والعُزّى.[٢]

ثمّ إنّهم كانوا مع ما ذُكر مِن عبادتهم لها يقولون: إنّ الملائكة وتلك الأصنام بنات الله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، فقيل: لهم توبيخًا وتبكيتًا ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ﴾... إلخ، و"الهمزة" للإنكار، و"الفاء" لتوجيهه إلى ترتيب الرؤية على ما ذُكر مِن شئون الله تعالى المنافية لها غاية المنافاة، وهي قلبيّة، ومفعولها الثاني محذوف لدلالة الحال عليه.

فالمعنى أعَقِيب ما سمعتم مِن آثار كمال عظمة الله عزّ وجلّ في مُلكه وملكوته وجلاله وجبروته وإحكامِ قدرته ونفاذِ أمره في الملأ الأعلى وما تحت الثرى وما بينهما رأيتُم هذه الأصنام مع غاية حقارتها وقماءتها بناتٍ له تعالى.

وقيل: المعنى أفرأيتم هذه الأصنام مع حقارتها وذِلّتها شركاءَ لله تعالى مع ما تقدَّم مِن عظمته. وقيل: أخبروني عن آلهتكم / هل لها شيء مِن القدرة [١٤٠و] والعظمة التي وُصف بها ربّ العزّة في الآي السابقة. وقيل:[٣] المعنى أظننتم أنّ هذه الأصنام التي تعبدونها تنفعكم. وقيل: أظننتم أنّها تشفع لكم في الآخرة. وقيل: أفرأيتم إلى هذه الأصنام إن عبدتموها لا تنفعكم وإن تركتموها لا تضرُّكم.

والأوّل هو الحقّ، كما يشهد به قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ﴾ شهادة بيّنةً، فإنّه توبيخ مبنيٌّ على التوبيخ الأوّل، وحيث كان مداره تفضيلَ جانب أنفسهم على جنابه تعالى بنسبتهم إليه تعالى الإناثَ مع اختيارهم لأنفسهم الذكورَ، وجب أن يكون مناطُ الأوّل نفسَ تلك النسبة حتّى يتسنّى بناء التوبيخ الثاني عليه، وظاهرٌ أن ليس في شيء مِن التقديرات المذكورة مِن تلك النسبة عينٌ ولا أثرٌ.

---

١ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٧٩/٢.

٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣١٩/٤.

٣ وفي هامش م: أبو الليث السمرقندي. «منه». | انظر القول في تفسير السمرقندي، ٢٩١/٣.

وأمّا ما قيل مِن أنّ هذه الجملة مفعول ثانٍ للرؤية وخلوّها عن العائد إلى المفعول الأوّل لِما أنّ الأصل: أخبروني أنّ اللات والعزى ومَناة، ألكم الذَّكَر وله هُنّ؟ أي: تلك الأصنام، فوُضع موضعَها الأنثى لمراعاة الفواصل وتحقيقِ مناط التوبيخ،[1] فمع ما فيه مِن التمحّلات التي ينبغي تنزيهُ ساحة التنزيل عن أمثالها يقتضي اقتصارَ التوبيخ على ترجيح جانبهم الحقيرِ على جَناب الله العزيز الجليل مِن غير تعرُّض للتوبيخ على نسبة الولد إليه سبحانه.

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى القِسمة المنفهِمة مِن الجملة الاستفهاميّة. ﴿إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ أي: جائرة حيث جعلتم له تعالى ما تستنكفون منه، وهي "فِعْلى" مِن "الضَّيْز" وهو الجَوْر، لكنّه كُسر فاؤه لتسلم "الياء"، كما فُعل في "بِيض"، فإنّ "فِعلى" بالكسر لم يأتِ في الوصف.

وقُرئ: "ضِئْزَى"[2] بـ"الهمز" مِن "ضَأَزه" إذا ظلمه، على أنّه مصدر نُعت به. وقُرئ: "ضَيْزَى"[3] إمّا على أنّه مصدر وُصف به كـ"دَعوى"، أو على أنّه صفة كـ"سَكْرى" و"عَطْشى".

﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾

﴿إِنْ هِيَ﴾ الضمير للأصنام، أي: ما الأصنام باعتبار الألوهيّة التي يدّعونها ﴿إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾ محضة ليس تحتها ممّا تنبئ هي عنه مِن معنى الألوهيّة شيءٌ ما أصلًا.

وقوله تعالى: ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾ صفة لـ﴿أَسْمَآءٌ﴾ وضميرها لها لا للأصنام، والمعنى جعلتموها أسماءً، لا جعلتم لها أسماءً، فإنّ التسمية نسبة بين الاسم والمسمّى، / فإذا قِيسَت إلى الاسم فمعناها جَعْلُه اسمًا للمسمّى، وإن قِيسَت إلى المسمّى فمعناها جَعْلُه مسمّى للاسم، وإنّما اختير ههنا المعنى الأوّل مِن غير تعرُّض للمسمّى لتحقيق أنّ تلك الأصنام التي يسمّونها آلهةً أسماءٌ مجرّدة [١٤٠ظ]

---

[1] القول في اللباب لابن عادل، ١٨/١٨٢.

[2] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ١/٣٩٥.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن عُبيد بن عُمير وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٢.

ليس لها مسمّياتٌ قطعًا، كما في قوله تعالى: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَا﴾ الآية [يوسف، ٤٠/١٢]، لا أنّ هناك مسمّيات لكنّها لا تستحقّ التسمية.

وقيل: هي للأسماء الثلاثة المذكورة،[١] حيث كانوا يُطلقونها على تلك الأصنام لاعتقادهم أنّها تستحقّ العكوفَ على عبادتها والإعزازَ والتقرّب إليها بالقرابين. وأنت خبير بأنّه لو سُلِّم دلالة الأسماء المذكورة على ثبوت تلك المعاني الخاصّة للأصنام فليس في سَلْبها عنها مزيدُ فائدة؛ بل إنّما هي في سَلْب الألوهيّة عنها كما هو زعمُهم المشهور في حقّ جميع الأصنام على وجه برهاني، فإنّ انتفاء الموصوف يقتضي انتفاءَ الوصف بطريق الأولويّة، أي: ما هي إلّا أسماءٌ خالية عن المسمّيات وضعتموها ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ بمقتضى أهوائكم الباطلة ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ برهان تتعلّقون به.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ التفات إلى الغيبة للإيذان بأنّ تعداد قبائحهم اقتضى الإعراضَ عنهم وحكايةَ جناياتهم لغيرهم، أي: ما يتّبعون فيما ذُكر مِن التسمية والعمل بموجَبها ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ إلّا توهُّم أنّ ما هم عليه حقٌّ توهّمًا باطلًا. ﴿وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُ﴾ أي: تشتهيه أنفسهم الأمّارة بالسوء.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ قيل: هي حال مِن فاعل ﴿يَتَّبِعُونَ﴾،[٢] أو اعتراضٌ، وأيًّا ما كان ففيه تأكيدٌ لبطلان اتّباع الظنّ وهو النفس، وزيادةُ تقبيح لحالهم، فإنّ اتّباعهما مِن أيّ شخص كان قبيحٌ وممّن هداه الله تعالى بإرسال الرسول عليه السلام وإنزالِ الكتاب أقبحُ.

﴿أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾

﴿أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ ﴿أَمۡ﴾ منقطعة، وما فيها مِن "بل" للانتقال مِن بيان أنّ ما هُم عليه غيرُ مستند إلّا إلى توهُّمهم وهوى أنفسهم إلى بيان أنّ ذلك ممّا لا يُجدي نفعًا أصلًا. / و"الهمزة" للإنكار والنفي، أي: ليس للإنسان كلّ ما يتمنّاه [١٤١و]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣١٩/٤.

٢ وفي هامش م: طيبيّ وابن عادل. | وانظر هذا الوجه في فتوح الغيب للطِّيبي، ٩٢/١٥؛ واللباب لابن عادل، ١٨٧/١٨.

وتشتهيه نفسه مِن الأمور التي مِن جملتها أطماعهم الفارغة في شفاعة الآلهة ونظائرِها التي لا تكاد تدخل تحت الوجود.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ تعليل لانتفاء أن يكون للإنسان ما يتمّناه حتمًا، فإنّ اختصاص أمور الآخرة والأولى جميعًا به تعالى مقتضٍ لانتفاء أن يكون له أمرٌ مِن الأمور.

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ إقناط لهم عمّا علّقوا به أطماعهم مِن شفاعة الملائكة لهم موجِبٌ لإقناطهم عن شفاعة الأصنام بطريق الأولويّة. و﴿كَم﴾ خبريّة مفيدةٌ للتكثير محلُّها الرفع على الابتداء، والخبرُ هي الجملة المنفيّة، وجَمْعُ الضمير في ﴿شَفَٰعَتُهُمْ﴾ مع إفراد "المَلَك" باعتبار المعنى، أي: وكثير مِن الملائكة لا تغني شفاعتهم عند الله تعالى شيئًا مِن الإغناء في وقت مِن الأوقات.

﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ لهم في الشفاعة ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يشفعوا له ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ ويراه أهلًا للشفاعة مِن أهل التوحيد والإيمان، وأمّا مَن عداهم مِن أهل الكفر والطغيان فهم مِن إذن الله تعالى بمَعزِل ومِن الشفاعة بألف مَنزِل، فإذا كان حال الملائكة في باب الشفاعة كما ذُكر فما ظنهم بحال الأصنام؟

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ وبما فيها مِن العقاب على ما يتعاطَونه مِن الكفر والمعاصي ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ المنزَّهين عن سِمات النقصان على الإطلاق، أي: يسمُّون كلَّ واحد منهم ﴿تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾، فإنّ قولهم: "الملائكةُ بناتُ الله" قولٌ منهم بأنّ كلًّا منهم بنتُه سبحانه، وهي التسمية بالأنثى،

وفي تعليقها بعدم الإيمان بالآخرة إشعارٌ بأنّها في الشناعة والفظاعة[١] واستتباع العقوبة في الآخرة بحيث لا يجترئ عليها إلّا مَن لا يؤمن بها رأسًا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾ حال مِن فاعل ﴿يُسَمُّونَ﴾، أي: يسمُّونهم والحال أنّه لا عِلم لهم بما يقولون أصلًا. / وقُرئ: "بِهَا"،[٢] أي: بالملائكة أو بالتسمية. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ في ذلك ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّۖ﴾ الفاسدَ ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ﴾ أي: جنس الظنّ، كما يلوِّح به الإظهارُ في موقع الإضمار ﴿لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ مِن الإغناء، فإنّ الحقّ: الذي هو عبارة عن حقيقة الشيء، لا يُدرَك إلّا بالعِلم، والظنُّ لا اعتدادَ به في شأن المعارف الحقيقيّة، وإنّما يُعتدّ به في العمليّات وما يؤدّي إليها. [١٤١ظ]

﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ۝٣٠﴾

﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا﴾ أي: عنهم. ووَضْعُ الموصول موضعَ ضميرهم للتوسّل به إلى وصفهم بما في حيّز صلته مِن الأوصاف القبيحة وتعليلِ الحكم بها، أي: فأعرِضْ عمّن أعرَض عن ذكرنا المفيدِ للعِلم اليقيني وهو القرآن المنطوي على علوم الأوّلين والآخرين المذكِّر لأمور الآخرة، أو عن ذِكرنا كما ينبغي، فإنّ ذلك مستتبع لذِكر الآخرة وما فيها مِن الأمور المرغوبِ فيها والمهروب عنها.

﴿وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ راضيًا بها قاصرًا نظرَه عليها، والمرادُ النهي عن دعوته والاعتناءِ بشأنه، فإنّ مَن أعرض عمّا ذُكر وانهمك في الدنيا بحيث كانت هي منتهى همّته وقُصارى سعيه لا تزيده الدعوة إلى خلافها إلّا عِنادًا وإصرارًا على الباطل.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما أدّاهم إلى ما هم فيه مِن التولّي وقَصْرِ الإرادة على الحياة الدنيا ﴿مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ﴾ لا يكادون يُجاوزونه إلى غيره حتّى تُجديهم الدعوة والإرشاد. وجَمْعُ الضمير في ﴿مَبۡلَغُهُم﴾ باعتبار معنى ﴿مَن﴾ كما أنّ إفراده

---

[١] س: الفضاحة.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٢٥.

فيما سبق باعتبار لفظها. والمرادُ بـ﴿ٱلْعِلْمِ﴾ مطلقُ الإدراك المنتظِم للظنّ الفاسد. والجملةُ اعتراضٌ مقرِّر لمضمون ما قبلها مِن قَصْر الإرادة على الحياة الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ تعليل للأمر بالإعراض، وتكريرُ قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ لزيادة التقرير والإيذانِ بكمال تباينِ المعلومَين. والمراد ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ مَن أصرّ عليه ولم يرجع إلى الهدى أصلًا، و﴿بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ مَن مِن شأنه الاهتداء في الجملة، أي: هو المبالغ في العِلم بمَن لا يرعوي عن الضلال أبدًا وبمَن يقبل الاهتداء في الجملة لا غيرَه، فلا تُتعب نفسك في دعوتهم فإنّهم مِن القبيل الأوّل.

وفي تعليل الأمر بإعراضه عليه السلام عن الاعتناء بأمرهم باقتصار العِلم بأحوال الفريقين عليه تعالى رمزٌ إلى أنّه تعالى يُعاملهم / بموجَب عِلمه بهم، فيجزي كلًّا منهم بما يليق به مِن الجزاء، ففيه وعيدٌ ووعدٌ ضِمنًا، كما سيأتي صريحًا. [١٤٢و]

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خَلقًا ومُلكًا لا لغيره أصلًا، لا استقلالًا ولا اشتراكًا. وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ﴾... إلخ متعلِّق بما دلّ عليه ﴿أَعْلَمُ﴾... إلخ،[١] وما بينهما اعتراضٌ مقرِّر لِما قبله، فإنّ كون الكلّ مخلوقًا له تعالى ممّا يقرِّر عِلمه تعالى بأحوالهم، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك، ١٤/٦٧]، كأنّه قيل: فيعلم ضلالَ مَن ضلّ واهتداءَ مَن اهتدى ويحفظهما ليجزي ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي: بعقاب ما عملوا مِن الضلال الذي عُبّر عنه بالإساءة بيانًا لحاله، أو بسبب ما عملوا ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ أي: اهتدوا ﴿بِٱلْحُسْنَى﴾ أي: بالمثوبة الحسنى التي هي الجنّة، أو بسبب أعمالهم الحسنى.

---

[١] في الآية السالفة.

وقيل: متعلِّق بما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، كأنّه قيل: خَلَق ما فيهما ليجزي... إلخ.[١] وقيل: متعلِّق بـ﴿ضَلَّ﴾ و﴿ٱهْتَدَىٰ﴾[٢] على أنّ "اللام" للعاقبة، أي: هو أعلمُ بمَن ضلّ ليئول أمرُه إلى أن يجزيَه الله تعالى بعمله وبمَن اهتدى ليئول أمرُه إلى أن يجزيَه بالحسنى.[٣] وفيه مِن البعد ما لا يخفى.

وتكريرُ الفعل لإبراز كمال الاعتناءِ بأمر الجزاء والتنبيهِ على تباين الجزاءين.

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ بدل مِن الموصول الثاني وصيغةُ الاستقبال في صلته للدلالة على تجدّد الاجتناب واستمراره، أو بيانٌ، أو نعتٌ، أو منصوبٌ على المدح. و﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ ما يكبر عقابه مِن الذنوب وهو ما رُتِّب عليه الوعيدُ بخصوصه. وقُرئ: "كَبِيرَ الإِثْمِ"[٤] على إرادة الجنس أو الشرك.

﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ وما فحُش مِن الكبائر خصوصًا ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ أي: إلّا ما قلّ وصغُر فإنّه مغفور ممّن يجتنب الكبائر. قيل: هي النظرة والغَمْزة والقُبلة،[٥] وقيل: هي الخَطْرة مِن الذنب، وقيل: كلّ ذَنْب لم يُذكَر الله عليه حدًّا ولا عذابًا، وقيل: عادة النفس الحين بعد الحين.[٦] والاستثناءُ منقطِع.

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر، فالجملة تعليلٌ لاستثناء ﴿ٱللَّمَمَ﴾ وتنبيهٌ على أنّ إخراجه عن حُكم المؤاخذة به ليس لخُلوّه عن الذّنب في نفسه؛ بل لسَعة المغفرة الربّانيّة. وقيل: المعنى له أن يغفر / لمَن يشاء مِن المؤمنين ما يشاء مِن الذنوب صغيرِها وكبيرِها.[٧] ولعلّ تعقيبَ وعيدِ المسيئين ووعدِ المحسنين بذلك حينئذ لئلّا ييأس صاحبُ الكبيرة مِن رحمته تعالى ولا يتوهَّم وجوبَ العقاب عليه تعالى. [١٤٢ظ]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٠/٤.

٢ في الآية السالفة.

٣ القول بمعناه في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٠/٤؛ ووضحه ابن عادل في اللباب، ١٩٤/١٨.

٤ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٣٢١/٤.

٥ وهو قول ابن مسعود وأبي هريرة ومسروق والشعبي ورواية طاوس عن ابن عبّاس. انظر: جامع البيان للطبري، ٦٣/٢٢-٦٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤١٢/٧.

٦ القولان في اللباب لابن عادل، ١٩٧/١٨.

٧ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٤٠/٣.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أي: بأحوالكم يعلمها ﴿إِذْ أَنشَأَكُم﴾ في ضمن إنشاء أبيكم آدمَ عليه السلام ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ إنشاءً إجماليًا حسبما مرّ تحقيقه مرارًا. ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ ووقتَ كونكم أجِنّةً ﴿فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ على أطوار مختلفة مترتّبة لا يخفى عليه حالٌ مِن أحوالكم وعملٌ مِن أعمالكم التي مِن جملتها اللَّمَم الذي لولا المغفرةُ الواسعة لأصابكم وَبالُه، فالجملةُ استئناف مقرِّر لِما قبلها.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ لترتيب النهي عن تزكية النفس على ما سبق مِن أنّ عدم المؤاخذة باللَّمَم ليس لعدم كونه مِن قبيل الذنوب؛ بل لمَحْض مغفرته تعالى مع عِلمه بصدوره عنكم، أي: إذا كان الأمر كذلك فلا تُثنوا عليها بالطهارة عن المعاصي بالكلّيّة،[1] أو بما يستلزمها مِن زكاء العمل ونماء الخير؛ بل اشكروا الله تعالى على فضله ومغفرته.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ المعاصي جميعًا، وهو استئنافٌ مقرِّر للنهي ومشعِرٌ بأنّ فيهم مَن يتّقيها بأسرها. وقيل: كان ناس يعملون أعمالًا حسنةً، ثمّ يقولون: صلاتنا وصيامنا وحجُّنا، فنزلت.[2] وهذا إذا كان بطريق الإعجاب أو الرِّياء، فأمّا مَن اعتقد أنّ ما عمله مِن الأعمال الصالحة مِن الله تعالى وبتوفيقه وتأييده ولم يقصد به التمدّح لم يكن مِن المزكِّين أنفسهم، فإنّ المسرَّة بالطاعة طاعة وذِكرُها شكر.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝٣٣ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ۝٣٤ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ۝٣٥﴾

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ أي: عن اتّباع الحقّ والثباتِ عليه.

﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾ أي: شيئًا قليلًا أو إعطاءً قليلًا ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ أي: قَطَع العطاء مِن قولهم: "أكدى الحافرُ" إذا بلغ الكُدية، أي: الصلابة كالصخرة، فلا يمكنه أن يحفر. قالوا: نزلت في الوليد بن المغيرة كان يتّبع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فعيّره بعض المشركين، وقال له: «تركتَ دين الأشياخ وضلّلتهم؟»

---

[1] وفي هامش م: بأن لا يصدر عنها شيء منها أصلًا. «منه».

[2] مرويّ عن الكلبي ومقاتل في معالم التنزيل للبغوي، ٤١٣/٧؛ واللباب لابن عادل، ١٩٩/١٨؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٣٢١/٤.

فقال: «أخشى عذاب الله»، فضمِن أن يتحمّل عنه العذاب إن أعطاه بعض ماله، فارتدّ وأعطاه بعض المشروط وبخل بالباقي.[١] وقيل: نزلت في العاص بن وائل السهمي، لِما أنّه كان يُوافق النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في بعض الأمور.[٢] وقيل: في أبي جهل كان ربّما يُوافق الرسول صلّى الله عليه وسلّم في بعض الأمور، وكان / يقول: «والله ما يأمرنا محمّد إلّا بمكارم الأخلاق»، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ﴾.[٣] [١٤٣و]

والأوّل هو الأشهر المناسب لِما بعده مِن قوله تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ﴾... إلى آخره، أي: أعنده عِلم بالأمور الغيبيّة التي مِن جملتها تحمُّل صاحبه عنه يوم القيامة؟

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ۝٤١﴾

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ أي: وفّر وأتمّ ما ابتُليَ به مِن الكلمات، أو أُمِر به، أو بالغ في الوفاء بما عاهد الله. وتخصيصه بذلك لاحتماله ما لم يحتمله غيره كالصبر على نار نمرود، حتّى إنّه أتاه جبريلُ عليهما السلام حين يُلقى في النار فقال: «ألك حاجة؟» فقال: «أمّا إليك فلا»،[٤] وعلى ذبح الولد. ويُروى أنّه كان يمشي كلّ يوم فرسخًا يرتاد ضيفًا، فإن وافقه أكرمَه وإلّا نوى الصوم. وتقديم موسى لِما أنّ صُحفه التي هي التوراة أشهرُ عندهم وأكثرُ.

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: أنّه لا تحمِل نفس مِن شأنها الحَمْلُ حِمْلَ نفسٍ أخرى، على أنّ ﴿أَنْ﴾ هي المخفَّفة مِن الثقيلة، وضمير الشأن الذي هو اسمها محذوفٌ، والجملةُ المنفيّة خبرُها، ومحلُّ الجملة الجرُّ على أنّها بدل مِن ﴿مَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾، أو الرفعُ على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، كأنّه قيل: ما في صحفهما؟

---

١ هذا السبب مذكور في معالم التنزيل للبغوي، ٧/٤١٣-٤١٤.

٢ مرويّ عن السدِّي في معالم التنزيل للبغوي، ٧/٤١٤.

٣ مرويّ عن محمّد بن كعب القُرظي في معالم التنزيل للبغوي، ٧/٤١٤.

٤ في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٢٢.

فقيل: هو ألّا تزر... إلخ، والمعنى أنّه لا يؤاخَذ أحدٌ بذَنْب غيره ليتخلّص الثاني عن عقابه، ولا يقدح في ذلك قوله عليه السلام: «مَن سنَّ سنّة سيّئة فله وِزرُها ووِزرُ مَن عَمِل بها إلى يوم القيامة»،[1] فإنّ ذلك وِزر الإضلال الذي هو وِزره.

وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ بيان لعدم انتفاع الإنسان بعمل غيره مِن حيث جلبُ النفع إليه إثرَ بيان عدمِ انتفاعه به مِن حيث دفعُ الضرر عنه. وأمّا شفاعة الأنبياء عليهم السلام واستغفارُ الملائكة عليهم السلام ودعاءُ الأحياء للأموات وصدقتُهم عنهم وغيرُ ذلك ممّا لا يكاد يحصى مِن الأمور النافعة للإنسان، مع أنّها ليست مِن عمله قطعًا، فحيث كان مناطُ منفعة كلّ منها عملُه الذي هو الإيمان والصلاح ولم يكن لشيء منها نفعٌ ما بدونه جُعل النافع نفسَ عملِه / وإن كان بانضمام عَمِل غيره إليه. و﴿أَن﴾ مخفَّفة كأختها معطوفة عليها، وكذا قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أي: يُعرَض عليه ويُكشَف له يوم القيامة في صحيفته وميزانه مِن "أَرَيتُه الشيءَ". [١٤٣ظ]

﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ﴾ أي: يُجزى الإنسانُ سعيه، يقال: "جزاه الله بعَمَله" و"جزاه على عَمَله" و"جزاه عملَه" بحذف الجارّ وإيصالِ الفعل، ويجوز أن يُجعَل الضمير للجزاء ثمّ يفسَّر بقوله تعالى: ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ أو يُبدَل هو عنه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الأنبياء، ٢١/٣].

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أي: انتهاءُ الخلقِ ورجوعُهم إليه تعالى لا إلى غيره استقلالًا ولا اشتراكًا. وقُرئ بكسر ﴿أَنَّ﴾[2] على الابتداء.

---

[1] بمعناه في مسند أحمد، ٣٢٦/١٦ (١٠٥٥٦)؛ وصحيح مسلم، ٢٠٥٩/٤ (١٠١٧)؛ وسنن الترمذي، ٤٣/٥ (٢٦٧٥).

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبان وأبي السَمّال واليماني وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٢.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ أي: هو خَلَق قوّتَي الضحك والبكاء.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ لا يقدِر على الإماتة والإحياء غيرُه، فإنّ أثر القاتل نقضُ البنية وتفريقُ الاتّصال، وإنّما يحصل الموت عنده بفعل الله تعالى على العادة.

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۝ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ تُدفَق في الرَّحِم أو تُخلَق أو يُقدَّر منها الولد مِن "مَنَى" بمعنى "قدّر".

﴿وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ أي: الإحياءَ بعد الموت وفاءً بوعده. وقُرئ: "النَّشَاءَةَ"[١] بالمدّ، وهي أيضًا مصدر "نَشَأَ".

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾ وأعطى القِنية وهي ما يُتأثّل مِن الأموال، وأفردها بالذِّكر لأنّها أشفُّ الأموال، أو أرضى، وتحقيقُه جَعْل الرِّضا له قِنيةً.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ أي: ربّ معبودهم، وهي العَبُور وهي أشد ضياءً مِن الغُميصاء، وكانت خُزاعةُ تعبدها، سَنّ لهم ذلك أبو كَبْشة رجلٌ مِن أشرافهم، وكانت قريش تقول لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أبو كبشة تشبيهًا له عليه السلام به لمخالفته إيّاهم في دينهم.[٢]

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ۝ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ۝ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝﴾

[١٤٤و] ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ هي قوم هودٍ عليه السلام، / وعادٌ الأخرى إرَمُ، وقيل: الأُولى القدماء؛ لأنّهم أُولى الأمَم هلاكًا بعد قوم نوح،[٣] وقُرئ: "عَادًا لُولَى"[٤] بحذف "الهمزة" ونقلِ ضمِّها إلى "اللام"، و"عَادَ لُّولَى"[٥] بإدغام التنوين في "اللام" وطرحِ همزة "أولى" ونقلِ حركتها إلى لام التعريف.

---

[١] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٤٣/٢.

[٢] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٣/٤. وقال الزيلعي تعليقًا عليه في تخريج أحاديث الكشّاف، ٣٨٥/٣: «كأنّه وهم، إنّما كانوا يقولون له: ابن أبي كبشة، كما في حديث أبي سفيان: لقد أمِر أمرُ ابن أبي كبشة»، وهو جزء مِن حديث طويل في صحيح البخاري، ٨/١ (٧)؛ وصحيح مسلم، ١٣٩٣/٣ (١٧٧٣).

[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٣/٤.

[٤] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٣٢٣/٤.

[٥] قرأ بها أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب وورش وقالون بخلف عنه. النشر لابن الجزري، ٤١٠/١.

﴿وَثَمُودَاْ﴾ عطفٌ على ﴿عَادًا﴾؛ لأنّ ما بعده لا يعمل فيه. وقُرئ: "وَثَمُودًا"[١] بالتنوين ﴿فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ أي: أحدًا مِن الفريقين.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ عطفٌ عليه أيضًا ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبل إهلاك عادٍ وثمود ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ مِن الفريقين حيث كانوا يؤذونه وينفِّرون الناس عنه، وكانوا يُحذِّرون صبيانهم أن يسمعوا منه، وكانوا يضربونه عليه السلام حتّى لا يكون به حراك، وما أثّر فيهم دعاؤه قريبًا مِن ألف سنة.

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ هي قرى قوم لوطٍ ائتفكت بأهلها، أي: انقلبت بهم. ﴿أَهْوَىٰ﴾ أي: أسقَطها إلى الأرض بعد أن رَفَعها على جناح جبريلَ عليه السلام إلى السماء.

﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ مِن فنون العذاب، وفيه مِن التهويل والتفظيع ما لا غايةَ وراءه.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ تتشكّك، والخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم، على طريقة قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر، ٦٥/٣٩]، أو لكلّ أحد.[٢] وصيغة[٣] التفاعل وإن وُضعت[٤] لإفادة صدور الفعل عن المتعدِّد ووقوعِه عليه بحيث يكون كلّ مِن ذلك فاعلًا ومفعولًا معًا، لكنّها قد تُجرَّد عن المعنى الثاني فيُراد بها المعنى الأوّل فقط،[٥] وربّما[٦] تجرَّد عنه أيضًا فيراد[٧] مجرّد[٨] تعدُّد[٩] الفعل باعتبار[١٠] تعدُّد[١١] متعلَّقه، كما فيما نحن فيه، فإنّ المِراء متعدِّد بتعدّد الآلاء، فتدبّر. وتسميةُ الأمور المعدودة "آلاءً" مع أنّ بعضها نِقَم لِما أنّها أيضًا نِعَم مِن حيث إنّها نُصرة للأنبياء والمؤمنين وانتقامٌ لهم، وفيها عِظاتٌ وعِبَر للمعتبِرين.

---

[١] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائي وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٨٩/٢.

[٢] س ي + وإسنادُ فعل التماري إلى الواحد باعتبار تعدُّده بحسب تعدُّد متعلَّقه، فإنّ.

[٣] س ي: صيغة.

[٤] س ي: كانت موضوعةً.

[٥] س ي + كما في "يتداعونهم"، أي: يدعونهم.

[٦] س ي: وقد.

[٧] س ي: فيُكتفى.

[٨] س ي - مجرّد.

[٩] س ي: بتعدُّد.

[١٠] س ي - باعتبار.

[١١] س ي: بتعدُّد.

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ ﴿هَٰذَا﴾ إمّا إشارة إلى القرآن، و"النذير" مصدر، أو إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم، و"النذير" بمعنى المُنذِر، وأيًا ما كان فالتنوين للتفخيم و﴿مِنْ﴾ متعلّقة بمحذوف هو نعت لـ﴿نَذِيرٌ﴾ مقرّر له ومتضمّن للوعيد، أي: هذا القرآن الذي تشاهِدونه نذيرٌ مِن قبيل الإنذارات المتقدِّمة التي سمعتُم عاقبتها، أو هذا الرسول منذِر مِن جنس المنذِرين الأوّلين، والأُولى[1] على تأويل الجماعة لمراعاة الفواصل، وقد علمتُم أحوال قومِهم المنذَرين.

وفي تعقيبه بقوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ﴾ إشعارٌ بأنّ تعذيبهم مؤخَّر إلى يوم القيامة، أي: دنتِ الساعة الموصوفة بالدنوّ في نحو قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر، ١/٥٤].

[١٤٤ظ] ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي: ليس لها نفسٌ قادرة / على كشفها عند وقوعها إلّا الله تعالى لكنّه لا يكشفها، أو ليس لها الآن نفسٌ كاشفة بتأخيرها إلّا الله تعالى، فإنّه المؤخِّر لها، أو ليس لها كاشفة لوقتها إلّا الله،[2] كقوله تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف، ١٨٧/٧]، أو ليس لها مِن غير الله تعالى كَشْف على أنّ "كاشفة" مصدر كـ"العافية".

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝٦٢﴾

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: القرآن ﴿تَعْجَبُونَ﴾ إنكارًا ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً مع كونه أبعدَ شيء مِن ذلك ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ حزنًا على ما فرّطتم في شأنه وخوفًا مِن أن يحيق بكم ما حاق بالأمم المذكورة.

﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ أي: لاهون، أو مستكبِرون مِن "سمَد البعيرُ" إذا رفع رأسه، أو مُغنُّون لتشغلوا الناس عن استماعه مِن "السُّمود" بمعنى الغِناء على لغة حِمْيَر، أو خاشعون جامدون مِن "السُّمود" بمعنى الجُمود والخشوع

---

[1] س: والأدنى.

[2] س + تعالى.

كما في قول مَن قال:

رمى الحَدَثان نسوةَ آل سعدٍ بمقدار سَمَدْنَ له سُمودا
فرَدّ شُعورَهنّ السُودَ بِيضا ورَدّ وجوههنّ البِيضَ سُودا[1]

والجملة حال مِن فاعل ﴿لَا تَبْكُونَ﴾، خلا أنّ مضمونها على الوجه الأخير قيدٌ للمنفي والإنكارُ واردٌ على نفي البكاءِ والسُّمود معًا، وعلى الوجوه الأُوَل قيدٌ للنفي والإنكارُ متوجّهٌ إلى نفي البكاءِ ووجودِ السُّمود. والأوّلُ أوفى بحقّ المقام، فتدبّر.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ۩﴾ لترتيب الأمر أو موجَبه على ما تقرَّر مِن بطلان مقابلة القرآن بالإنكار والاستهزاء ووجوبِ تلقِّيه بالإيمان مع كمال الخضوع والخشوع، أي: وإذا كان الأمر كذلك فاسجدوا لله الذي أنزله واعبدوه.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة والنجم أعطاه الله تعالى عشرَ حسناتٍ بعدد مَن صدّق بمحمّد وجَحَد به بمكّة».[2]

[1] هما لعبد الله بن الزَّبِير الأسدي في شرح الحماسة للتبريزي، ٣٩٠/١؛ وخِزانة الأدب للبغدادي، ٢٦٤/٢. ويُنسبان لآخرين غير عبد الله، وهما في ديوان أيمن بن خُريم الأسدي، ص ٣٠، وتخريجهما وذِكر الاختلاف في نسبتهما ثمّة.

[2] س + والحمد لله ربّ العالمين. | والحديث في الكشف والبيان للثعلبي، ٦٦/٢٥ (النجم، ١/٥٣)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ١٩٢/٤ (النجم، ١/٥٣)؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٢٤/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة القمر

مكّيّة، وهي خمس وخمسون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ رُوي أنّ الكفّار سألوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم آيةً، / فانشقّ القمر.[١] قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «انفلق فلقتين: فلقةٌ ذهبتْ وفلقةٌ بقيَتْ».[٢] وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «رأيتُ حِراءَ بين فلقتَي القمر».[٣] [١٤٥و]

وعن عثمانَ بن عطاء عن أبيه أنّ معناه سينشقّ يومَ القيامة،[٤] ويردُّه قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾؛ فإنّه ناطق بأنّه قد وقَع، وأنّهم قد شاهدوه بعد مشاهدة نظائره. وقد قُرئ: "وَقَد انْشَقَّ القَمَرُ"،[٥] أي: اقتربت الساعة وقد حصل مِن آيات اقترابها أنّ القمر قد انشقّ.

ومعنى الاستمرار الاطِّراد أو الاستحكام، أي: وإن يرَوا آيةً مِن آيات الله تعالى يُعرِضوا عن التأمّل فيها ليقفوا على حقِّيّتها وعُلوّ طبقتها ويقولوا: سِحْر مُطّرد دائم يأتي به محمّد عليه السلام على مرّ الزمان لا يكاد يختلف بحال كسائر أنواع السِّحر، أو قويّ مُستحكِم لا يمكن إزالته. وقيل: مستمرّ ذاهبٌ يزول ولا يبقى تمنيةً لأنفسهم وتعليلًا.[٦] وهو الأنسبُ بغُلوّهم في العناد والمكابرة، ويؤيّده ما سيأتي لردّه. وقُرئ: "وَإِن يُرَوا"[٧] على البناء للمفعول مِن "الإراءة".

---

١ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٢٠٦/٤ (٣٦٣٧)؛ وصحيح مسلم، ٢١٥٩/٤ (٢٨٠٢).

٢ بمعناه في صحيح البخاري، ١٤٢/٦ (٤٨٦٤)؛ وصحيح مسلم، ٢١٥٨/٤ (٢٨٠٠)؛ وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٥/٤.

٣ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٤٢٥/٧؛ وبلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٥/٤.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٥/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٤٤/٣.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن حذيفة بن اليمان. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٣.

٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٥/٤.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٣.

﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ ۝ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝﴾

﴿وَكَذَّبُوا﴾ أي: بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم وما عاينوه ممّا أظهره الله تعالى على يده مِن المعجزات ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ التي زيّنها الشيطان لهم أو كذّبوا الآية التي هي انشقاق القمر واتّبعوا أهواءهم وقالوا: «سَحَر القمرَ، أو سَحَر أعينَنا والقمرُ بحاله». وصيغةُ الماضي للدلالة على التحقّق.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ استئناف مَسوق لإقناطهم عمّا علّقوا به أمانيّهم الفارغة مِن عدم استقرار أمره عليه السلام حسبما قالوا: ﴿سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ ببيان ثباته ورسوخِه، أي: وكلّ أمر مِن الأمور مستقرّ، أي: مُنتَهٍ إلى غاية يستقرّ عليها لا محالةَ، ومِن جملتها أمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فسيصير إلى غاية يتبيَّن عندها حقّيّته وعُلوّ شأنه.

وإبهام المستقرّ عليه للتنبيه على كمال ظهور الحالِ وعدم الحاجةِ إلى التصريح به. وقيل: المعنى كلّ أمر مِن أمرهم وأمره عليه السلام مستقرٌّ، أي: سيثبت ويستقرّ على حالةِ خذلان أو نصرة في الدنيا وشقاوةٍ أو سعادة في الآخرة. وقُرئ بالفتح[1] على أنّه مصدر، أو اسم مكان، أو اسم زمان، أي: ذو استقرار، / أو ذو موضع استقرار، أو ذو زمان استقرار، وبالكسر والجرّ[2] على أنّه صفة ﴿أَمْرٍ﴾. و﴿كُلٌّ﴾ عطفٌ على ﴿السَّاعَةُ﴾، أي: اقتربت الساعةُ وكلُّ أمر مستقرّ. [١٤٥ظ]

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم﴾ أي: في القرآن. وقوله تعالى:[3] ﴿مِّنَ الْأَنبَاءِ﴾ أي: أنباء القرون الخالية أو أنباء الآخرة، متعلّق بمحذوف هو حال ممّا بعده، أي: وبالله لقد جاءهم كائنًا مِن الأنباء ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أي: ازدجارٌ مِن تعذيب أو وعيد، أو موضعُ ازدجار، على أنّ "في" تجريديّة، والمعنى أنّه في نفسه موضعُ ازدجار، وتاء الافتعال تُقلَب دالًا مع "الدال" و"الذال" و"الزاء" للتناسب. وقُرئ: "مُزَّجَرٌ"[4] بقلبها زاء وإدغامها.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن شيبة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٣.
٢ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٠.
٣ م - تعالى.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عُمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٤.

﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ﴾ غايتَها لا خَلَل فيها، وهي بدل مِن ﴿مَا﴾،[١] أو خبر لمحذوف. وقُرئ بالنصب[٢] حالًا منها، فإنّها موصولة أو موصوفة تخصَّصت بصفتها فساغ نصبُ الحال عنها.

﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾ نفي للإغناء، أو إنكار له. و"الفاء" لترتيب عدمِ الإغناء على مجيء الحكمة البالغة مع كونه مَظِنّة للإغناء. وصيغة المضارع للدلالة على تجدّد عدم الإغناء واستمرارِه، حسب تجدّد مجيء الزواجر واستمراره،[٣] و﴿مَا﴾ على الوجه الثاني[٤] منصوبةٌ، أي: فأيّ إغناء تغني النُّذر، وهو جمع نذير بمعنى المُنذِر، أو مصدر بمعنى الإنذار.

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ٦ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ٨﴾

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ﴾ لعلمك بأنّ الإنذار لا يؤثِّر فيهم البتّةَ ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾ منصوب بـ﴿يَخۡرُجُونَ﴾ أو بـ"اذكُر". والداعي إسرافيلُ عليه السلام، ويجوز أن يكون الدعاء فيه كالأمر في قوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة، ١١٧/٢]، وإسقاطُ "الياء" للاكتفاء بالكسر تخفيفًا. ﴿إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ﴾ أي: منكَر فظيع تُنكِره النفوس لعدم العهد بمثله وهو هَول القيامة. وقُرئ: "نُكْرٍ"[٥] بالتخفيف و"نُكِرَ"[٦] بمعنى أنكِر.

﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ حال مِن فاعل ﴿يَخۡرُجُونَ﴾ والتقديمُ لأنّ العامل متصرِّف، أي: يخرجون ﴿مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ أذلّةً أبصارهم مِن شِدّة الهول. وقُرئ: "خَاشِعًا"،[٧] والإفرادُ والتذكيرُ لأنّ فاعله ظاهر غيرُ حقيقيِّ التأنيث. وقُرئ: "خَاشِعَةً"[٨]

---

١ في الآية السالفة.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٣.

٣ س ي – حسب تجدُّد مجيء الزواجر واستمراره.

٤ س – على الوجه الثاني.

٥ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٦، ٣٨٠.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد والجَحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٣.

٧ قرأ بها أبو عمرو حمزة والكسائي ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٠.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني وابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٣.

على الأصل، وقُرئ: "خُشَّعٌ أَبْصَارُهُمْ"[١] على الابتداء والخبر على أنّ الجملة حالٌ. ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ في الكثرة والتموّج / والتفرّق في الأقطار. [١٤٦و]

﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ مسرعين مادّي أعناقهم إليه، أو ناظرين إليه ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ استئناف وَقَع جوابًا عمّا نشأ مِن وصف اليوم بالأهوال وأهلِه بسوء الحال، كأنّه قيل: فماذا يكون حينئذ؟ فقيل: يقول الكافرون: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي: صَعْب شديد. وفي إسناد القولِ المذكور إلى الكفّار تلويحٌ بأنّ المؤمنين ليسوا في تلك المرتبة مِن الشِدّة.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩﴾

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ شروع في تعداد بعض ما ذُكر مِن الأنباء الموجِبة للازدجار، ونوعُ تفصيل لها، وبيانٌ لعدم تأثُّرهم بها تقريرًا لفحوى قوله تعالى: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾،[٢] أي: فعَل التكذيبَ قبل تكذيب قومِك قومُ نوح. وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ تفسير لذلك التكذيب المبهَم، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ﴾... إلخ [هود، ٤٥/١١]، وفيه مزيدُ تقرير وتحقيقٍ للتكذيب. وقيل: معناه كذّبوه تكذيبًا إثرَ تكذيب كلّما خلا منهم قَرْن مكذِّب جاء عَقيبه قَرْن آخرُ مكذِّب مِثلُه. وقيل: كذّبت قوم نوح الرسلَ فكذّبوا عبدنا لأنّه مِن جملتهم.[٣] وفي ذِكره عليه السلام بعنوان العبوديّة مع الإضافة إلى نون العظمة تفخيمٌ له عليه السلام ورفعٌ لمحلّه وزيادةُ تشنيع لمكذِّبيه.

﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ﴾ أي: لم يقتصروا على مجرّد التكذيب؛ بل نسبوه إلى الجنون. ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ عطفٌ على ﴿قَالُوا۟﴾ أي: وزُجِر عن التبليغ بأنواع الأذيّة. وقيل: هو مِن جملة ما قالوه، أي: هو مجنون، وقد ازدجرَته الجِنّ وتخبّطَته.[٤]

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤﴾

---

١ قراءة شاذة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٣٢٦/٤.
٢ في الآية الخامسة مِن هذه السورة.
٣ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٧/٤.
٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٧/٤.

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى﴾ أي: بأنّي. وقُرئ بالكسر[1] على إرادة القول. ﴿مَغْلُوبٌ﴾ أي: مِن جهة قومي، ما لي قدرة على الانتقام منهم ﴿فَٱنتَصِرْ﴾ أي: فانتقِم لي منهم، وذلك بعد تقرُّر يأسه منهم بعد اللّتيّا والتي،[2] فقد رُوي أنّ الواحد منهم كان يلقاه فيخنقه حتّى يخرّ مغشيًّا عليه، ويقول: اللّهمّ اغفِر لقومي فإنّهم لا يعلمون.[3]

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ مُنصبّ، وهو تمثيل لكثرة الأمطار وشدّة انصبابها. وقُرئ: "فَفَتَّحْنَا"[4] بالتشديد لكثرة الأبواب.

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي: جعلنا الأرضَ كلّها كأنّها عُيون متفجّرة، وأصله "وفجّرنا عيونَ الأرضِ"، فغُيّر قضاءً لحَقّ المقام. ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ أي: ماء السماء وماء الأرض، والإفرادُ لتحقيق أنّ التقاء الماءين لم يكن بطريق المجاورة والتقارب؛ بل بطريق الاختلاط والاتّحاد. وقُرئ: "المَاءَانِ"[5] لاختلاف النوعين، و"المَاوَانِ"[6] بقلب "الهمزة" واوًا.

﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: كائنًا على حال قد قدّرها الله تعالى مِن غير تفاوت، / أو على حال قُدِّرت وسُوِّيت، وهو أنّ قَدْر ما أُنزِل على قَدْر ما أُخرِج، أو على أمر قدَّره الله تعالى وهو هلاك قوم نوح بالطوفان. [١٤٦ظ]

﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾ أي: نوحًا عليه السلام ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾ أخشاب عريضة ﴿وَدُسُرٍ﴾ ومساميرَ، جمع "دِسار" مِن "الدَّسْر" وهو الدفع، وهي صفة للسفينة أُقيمت مُقامها مِن حيث إنّها كالشرح لها تؤدّي مؤدّاها.

﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ بمَرأى منا، أي: محفوظةً بحفظنا ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: فعَلْنا ذلك جزاءً لنوح عليه السلام؛ لأنّه كان نعمةً كفروها، فإنّ كلّ نبيّ نعمةٌ

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر وابن أبي إسحاق وابن عُمير وزيد بن عليّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٨؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٤.

[2] اللّتيّا والّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللّتيّا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١٦٤/١.

[3] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٢٧/٤.

[4] قرأ بها ابن عامر وابن وردان وابن جمّاز ورَوح. النشر لابن الجزري، ٢٥٨/٢.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجَحدري ومحمّد بن كعب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٨.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٨.

مِن الله تعالى على أمّته ورحمةً، وأيُّ نعمة وأيُّ رحمة؟ وقد جُوِّز أن يكون على حذف الجارّ وإيصالِ الفعل إلى الضمير واستتارِه في الفعل بعد انقلابه مرفوعًا. وقُرئ: "لِمَنْ كَفَرَ"،[١] أي: للكافرين.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝١٦ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَا﴾ أي: السفينة أو الفعلة ﴿ءَايَةً﴾ يعتبر بها مَن يقف على خبرها. وقال قتادة: أبقاها الله تعالى بأرض الجزيرة.[٢] وقيل: على الجُوديّ دهرًا طويلًا حتّى نظر إليها أوائل هذه الأمّة.[٣]

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: معتبِر بتلك الآية الحقيقة بالاعتبار. وقُرئ: "مُذْتَكِرٍ"[٤] على الأصل، و"مُذَّكِرٍ"[٥] بقلب "التاء" ذالًا والإدغام فيها.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ استفهامُ تعظيم وتعجيب، أي: كانا على كيفيّة هائلة لا يُحيط بها الوصف، والنُّذر جمع "نذير" بمعنى الإنذار.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ﴾... إلى آخره جملة قسميّة وردت في أواخر القصص الأربع تقريرًا لمضمون ما سبق مِن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾،[٦] وتنبيهًا على أنّ كلّ قصّة منها مستقلّة بإيجاب الادّكار كافية في الازدجار، ومع ذلك لم تقع واحدة في حيّز الاعتبار، أي: وبالله لقد سهّلنا القرآن لقومك بأن أنزلناه على لغتهم وشحنّاه بأنواع المواعظ والعِبَر وصرّفنا فيه مِن الوعيد والوعد.

﴿لِلذِّكْرِ﴾ أي: للتذكّر والاتّعاظ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ إنكار ونفي للمتّعظ على أبلغ وجه وآكَدِه، حيث يدلّ على أنّه لا يقدر أحد أن يُجيب المستفهم بـ"نَعم".

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن يزيد بن رُومان وقتادة وعيسى بن عمر. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٣١.

[٢] بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٤٢٥/٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٢٨/٤.

[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٨/٤.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٣٢.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وقتادة. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٣٢.

[٦] في الآيتين الرابعة والخامسة مِن هذه السورة.

وحملُ تيسيره على تسهيل حفظِه بجزالة نظمِه وعذوبةِ ألفاظه وعباراته[١] / ممّا [١٤٧و] لا يُساعده المقام.

﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٨ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ٢١ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٢٢﴾

﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ﴾ أي: هودًا عليه السلام ولم يتعرّض لكيفيّة تكذيبهم له عليه السلام رَومًا للاختصار ومسارعةً إلى بيان ما فيه الازدجارُ مِن العذاب.

وقوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ لتوجيه قلوب السامعين نحوَ الإصغاء إلى ما يُلقى إليهم قبل ذِكره لا لتهويله وتعظيمه وتعجيبهم مِن حاله بعد بيانه كما قبله وما بعده، كأنّه قيل: كذّبت عاد فهل سمعتُم أو فاسمعوا كيف كان عذابي وإنذاراتي لهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ استئناف ببيان ما أُجمِل أوّلًا، أي: أرسلنا عليهم ريحًا باردةً أو شديدةَ الصوت ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ﴾ شؤم ﴿مُّسۡتَمِرّٖ﴾ أي: شؤمه أو مستمرّ عليهم إلى أن أهلكهم أو شاملٌ لجميعهم كبيرهم وصغيرهم أو مشتدّ مراراته، وكان يوم الأربعاء آخرَ الشهر.

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ تقلعهم، رُوِي أنّهم دخلوا الشِّعاب والحُفَر وتمسّك بعضهم ببعض فنزعتهم الرِّيح وصرعتهم موتى.[٢] ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ أي: منقلِع عن مغارسه. قيل: شُبِّهوا بأعجاز النخل وهي أصولها بلا فروع؛ لأنّ الريح كانت تقلع رءوسهم فتُبقي أجسادًا وجُثثًا بلا رءوس. وتذكيرُ صفة ﴿نَخۡلٖ﴾ للنظر إلى اللفظ، كما أنّ تأنيثها في قوله تعالى: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ﴾ [الحاقة، ٧/٦٩] للنظر إلى المعنى.

وقوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ تهويل لهما وتعجيبٌ مِن أمرهما بعد بيانهما، فليس فيه شائبةُ تكرار. وما قيل: مِن أنّ الأوّل لِما حاق بهم في الدنيا والثاني لِما يحيق بهم في الآخرة،[٣] يردُّه ترتيب الثاني على العذاب الدنيوي.

---

١ م + ألفاظه. | القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٨/٤.

٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣٢٨/٤.

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٤٧/٣.

﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ الكلامُ فيه كالذي مرّ فيما سبق.

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ٢٣ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ٢٤ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ٢٥ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ٢٦ إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ٢٧ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ٢٨ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ٢٩ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٠ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ٣١ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٣٢﴾

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ أي: الإنذارات والمواعظ التي سمعوها مِن صالح، أو بالرسل عليهم السلام، فإنّ تكذيبَ أحدهم تكذيبٌ للكلّ لاتّفاقهم على أصول الشرائع.

[١٤٧ظ] / ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا﴾ أي: كائنًا مِن جنسنا، وانتصابُه بفعل يفسِّره ما بعده. ﴿وَٰحِدٗا﴾ أي: منفردًا لا تَبَع له، أو واحدًا مِن آحادهم لا مِن أشرافهم، وهو صفة أخرى لـ﴿بَشَرٗا﴾، وتأخيرُه عن الصفة المئوّلة للتنبيه على أنّ كلًّا مِن الجنسيّة والوحدة ممّا يمنع الاتّباع، ولو قُدِّم عليها لفاتت هذه النكتة. وقُرِئ: "أَبَشَرٌ مِنَّا وَاحِدٌ"[١] على الابتداء. وقوله تعالى: ﴿نَّتَّبِعُهُۥ﴾ خبرُه والأوّل أوجَهُ للاستفهام.

﴿إِنَّآ إِذٗا﴾ أي: على تقدير اتّباعنا له وهو منفرِد ونحن أمّة جمّة ﴿لَّفِي ضَلَٰلٖ﴾ عن الصواب ﴿وَسُعُرٍ﴾ أي: جنون، فإنّ ذلك بمَعزِل مِن مقتضى العقل. وقيل: كان يقول لهم: إن لم تتّبعوني كنتم في ضلال عن الحقّ.[٢] و﴿سُعُرٍ﴾ أي: نيران جمع "سَعير"، فعكسوا عليه لغاية عتوّهم فقالوا: إن اتّبعناك كنّا إذن كما تقول.

﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ﴾ أي: الكتاب والوحي ﴿عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ وفينا مَن هو أحقّ منه بذلك ﴿بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ﴾ أي: ليس الأمر كذلك؛ بل هو كذا وكذا حَمَله بَطَره على الترفّع علينا بما ادّعاه.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٥.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٢٩.

وقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ حكاية لِما قاله تعالى لصالح عليه السلام وعدًا له ووعيدًا لقومه، و"السين" لتقريب مضمون الجملة وتأكيدِه، والمراد بـ"الغد" وقتُ نزول العذاب، أي: سيعلمون البتّةَ عن قريب مَن الكذّاب الأشِر الذي حَمَله أَشَره وبَطَره على الترفّع، أصالح هو أم مَن كذّبه.

وقُرئ: "سَتَعْلَمُونَ"،[١] على الالتفات لتشديد التوبيخ، أو على حكاية ما أجابهم به صالح. وقُرئ: "الأَشُرُ"[٢] كقولهم: "حَذُر" في "حَذِر". وقُرئ: "الأَشَرُّ"،[٣] أي: الأبلَغ في الشرارة، وهو أصل مرفوض كـ"الأَخْيَرُ".

وقيل: المراد بـ"الغد" يوم القيامة،[٤] ويأباه قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾... إلخ، فإنّه استئناف مسوقٌ لبيان مبادي الموعود حتمًا، أي: مخرجوها مِن الهضبة حسبما سألوا ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي: امتحانًا ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ أي: فانتظرهم وتبصَّر ما يصنعون / ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ على أذيّتهم. [١٤٨و]

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ مقسوم، لها يوم ولهم يوم. و﴿بَيْنَهُمْ﴾ لتغليب العقلاء. ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ يحضره صاحبه في نوبته.

﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ﴾ هو قُدار بن سالف،[٥] أُحيمِر ثمودَ ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ فاجترأ على تعاطي الأمر العظيم غيرَ مكترِث له فأحدث العَقْر بالناقة. وقيل: فتعاطى الناقة فعقرها، أو فتعاطى السيف فقتلها،[٦] والتعاطي تناول الشيء بتكلّف.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ في صدر قصّة عادٍ.

---

١ قرأ بها ابن عامر وحمزة. النشر لابن الجزري، ٣٨٠/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي قلابة. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٣٣.

٣ قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٣٢٩/٤.

٤ القول في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٤٧/٣.

٥ هو قُدار بن سالف بن جُنْدَع، كان أحمر أزرق قصيرًا، وهو الذي تولّى قتل ناقة ثمود، وهو واحد مِن التسعة رهط المذكورين في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل، ٤٨/٢٧]. انظر: **البداية والنهاية** لابن كثير، ٣١٣/١.

٦ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٣٢٩/٤.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ هي صيحة جبزيلَ عليه السلام ﴿فَكَانُواْ﴾ أي: فصاروا ﴿كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ أي: كالشجر اليابس الذي يتّخذه مَن يعمل الحظيرة لأجلها، أو كالحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته في الشتاء. وقُرئ بفتح "الظاء"،[١] أي: كهشيم الحظيرة، أو الشجر المتّخَذ لها.

﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾.

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ٣٣ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ٣٤ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ٣٥ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ٣٦ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٧ وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ٣٨ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٩ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٤٠﴾

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ۞ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا﴾ أي: ريحًا تحصبهم، أي: ترميهم بالحصباء ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ في سَحَر وهي[٢] آخرُ الليل. وقيل: هو السُدُس الأخير منه،[٣] أو:[٤] ملتبِسين بسَحَر.

﴿نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ أي: إنعامًا منّا، وهو علّة لـ"نجّينا". ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الجزاء العجيب ﴿نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾ نعمتنا بالإيمان والطاعة.

﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم﴾ لوط عليه السلام[٥] ﴿بَطۡشَتَنَا﴾ أي: أخذَتَنا الشديدة بالعذاب ﴿فَتَمَارَوۡاْ﴾ فكذّبوا ﴿بِٱلنُّذُرِ﴾ متشاكّين.

﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ﴾ قصدوا الفجور بهم ﴿فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ فمسحناها وسوّيناها كسائر الوجه. رُوي أنّهم لمّا دخلوا داره عُنوةً صَفَقهم جبريلُ عليه السلام صفقةً فتركهم يتردّدون لا يهتدون إلى الباب حتّى أخرجهم لوط عليه السلام.[٦]

[١٤٨ظ] ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي: فقلنا لهم "ذُوقوا" / على ألسِنة الملائكة، أو ظاهر الحال، والمراد به الطمس، فإنّه مِن جملة ما أُنذروه مِن العذاب.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي رجاء وقتادة. شواذ القراءات للكرماني، ص ٤٥٦.
٢ س: وهو.
٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٣٠.
٤ س: أي.
٥ س + عليه السلام.
٦ م – عليه السلام.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾ وقُرئ: "بُكْرَةَ"[١] غيرَ مصروفة على أنّ المراد بها أوّلُ نهار مخصوص. ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ لا يُفارِقهم حتّى يسلِّمهم إلى النار. وفي وصفه بالاستقرار إيماءٌ إلى أنّ ما قبله مِن عذاب الطمس ينتهي به.

﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ حكاية لِما قيل لهم حينئذ مِن جهته تعالى تشديدًا للعذاب.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ مرّ ما فيه مِن الكلام.

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ صُدِّرت قصّتهم بالتوكيد القَسَمي لإبراز كمال الاعتناء بشأنها لغاية عِظَم ما فيها مِن الآيات وكثرتها وهَول ما لاقوه مِن العذاب وقوّة إيجابها للاتّعاظ. والاكتفاءُ بذِكر آل فرعونَ للعِلم بأنّ نفسه أَولى بذلك، أي: وبالله لقد جاءهم الإنذارات.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية مجيء النُّذُر، كأنّه قيل: فماذا فعلوا حينئذ؟ فقيل: كذّبوا بجميع آياتنا، وهي الآيات التسع. ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ لا يُغالَب ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ لا يُعجِزه شيء.

﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ يا معشرَ العرب ﴿خَيْرٌ﴾ قوّةً وشدّةً وعِدّةً وعُدّةً أو مكانةً ﴿مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ الكفّار المعدودين. والمعنى أنّه أصابهم ما أصابهم مع ظهور خيريّتهم منكم فيما ذُكر مِن الأمور، فهل تطمعون ألّا يُصيبكم مثلُ ذلك، وأنتم شرٌّ منهم مكانًا وأسوأ حالًا.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ إضراب وانتقال مِن التبكيت بما ذُكر إلى التبكيت بوجه آخرَ، أي: بل ألكم براءة وأمنٌ مِن تبِعات ما تعملون مِن الكفر والمعاصي وغوائلهما في الكتب السماويّة فلذلك، تصرُّون على ما أنتم عليه.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٦.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ إضراب مِن التبكيت المذكور إلى وجه آخرَ مِن التبكيت. والالتفاتُ للإيذان باقتضاء حالهم للإعراض عنهم وإسقاطِهم عن رُتبة الخطاب وحكايةِ قبائحهم لغيرهم، أي: بل أيقولون واثقين بشوكتهم: نحن أولو حَزْم ورأي أمرنا مجتمع لا نُرام ولا نُضام أو مُنتصِر مِن الأعداء لا نُغلب أو متناصِر ينصر / بعضُنا بعضًا. والإفرادُ باعتبار لفظ الجميع. [١٤٩و]

وقوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ﴾ ردّ وإبطال لذلك، و"السين" للتأكيد، أي: يُهزَم جمعهم البتّةَ ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ أي: الأدبار، وقد قُرئ كذلك.[١] والتوحيد لإرادة الجنس، أو إرادة أنّ كلّ واحد منهم يولّي دُبُره، وقد كان كذلك يوم بدر، قال سعيد بن المسيّب: سمعتُ عمرَ بن الخطّاب رضيَ الله تعالى عنه يقول: «لمّا نزلت ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ كنتُ لا أدري أيّ جمع يُهزَم، فلمّا كان يومُ بدر رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يلبس الدرع ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ فعرفتُ تأويلها».[٢] وقُرئ: "سَيَهْزِمَ الجَمْعَ"[٣] أي: الله عزّ وعلا.

﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ أي: ليس هذا تمامَ عقوبتهم؛ بل الساعة موعِد أصل عذابهم، وهذا مِن طلائعه. ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ أي: في أقصى غاية مِن الفظاعة والمرارة. والداهيةُ: الأمر الفظيع الذي لا يُهتدى إلى الخلاص عنه. وإظهار الساعة في موقع إضمارها لتربية تهويلها.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ مِن الأوّلين والآخرين ﴿فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ أي: في هلاك ونيران مسعَّرة. وقيل: في ضلال عن الحقّ في الدنيا ونيرانٍ في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾... إلخ منصوب إمّا بما يُفهَم مِن قوله تعالى: ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾، أي: كائنون في ضلال وسُعُر يوم يجرُّون ﴿فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾،

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٦.

[٢] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١١٥٧/٢٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤٣٤/٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٣١/٤.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٦.

وإمّا بقول مقدَّر بعده، أي: يوم يُسحَبون، يقال لهم: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ أي: قاسُوا حرّها وألمها. و﴿سَقَرَ﴾ عَلَم جهنّم، ولذلك لم يُصرَف مِن "سَقَرته النارُ وصَقَرته" إذا لوَّحته. والقولُ المقدَّر على الوجه الأوّل حال مِن ضمير ﴿يُسْحَبُونَ﴾.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ مِن الأشياء ﴿خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ أي: ملتبِسًا بقَدْر معيَّن اقتضته الحكمة التي عليها يدور أمرُ التكوين، أو مقدَّرًا مكتوبًا في اللوح قبل وقوعه. و﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ منصوب بفعل يفسِّره ما بعده. وقُرئ بالرفع على أنّه مبتدأ و﴿خَلَقْنَٰهُ﴾ خبرُه.

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ إلّا كلمةٌ واحدة سريعةُ التكوينِ، وهو قوله تعالى: ﴿كُن﴾ [البقرة، ١١٧/٢]، أو إلّا فَعْلةٌ واحدةٌ هو الإيجاد بلا معالجة / ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ في اليُسر والسُّرعة. وقيل: معناه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل، ٧٧/١٦]. [١٤٩ظ]

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝٥١ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥﴾

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ أي: أشباهكم في الكفر مِن الأمَم. وقيل: أتباعكم.[١] ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ يتعظ بذلك.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾ مِن الكفر والمعاصي مكتوب على التفصيل ﴿فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أي: في ديوان الحَفَظة.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ مِن الأعمال ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ مسطور في اللوح المحفوظ بتفاصيله، ولمّا كان بيان سوء حال الكفَرة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾... إلخ[٢] ممّا يستدعي بيانَ حُسن حال المؤمنين ليتكافأ الترهيب والترغيب، بيَّن مآلهم مِن حُسن الحال بطريق الإجمال، فقيل: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بالإيمان، أي:

---

[١] القول في اللباب لابن عادل، ٢٨٥/١٨.
[٢] القمر، ٤٧/٥٤.

مِن الكفر والمعاصي ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ عظيمة الشأن ﴿وَنَهَرٍ﴾ أي: أنهار كذلك. والإفرادُ للاكتفاء باسم الجنس مراعاةً للفواصل، وقُرئ: "نُهُرٍ"[١] جمع "نَهْر" كـ"أُسْد" و"أَسَد".

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ في مكان مرضيّ. وقُرئ: "فِي مَقَاعِدِ صِدْقٍ".[٢] ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: مقرَّبين عند مليك لا يُقادَر قَدْر مُلكه وسلطانِه، فلا شيءَ إلّا وهو تحت ملكوته، سبحانه سبحانه ما أعظمَ شأنه.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة القمر في كلّ غِبٍّ بعثه الله تعالى يوم القيامة، ووجهُه مِثلُ القمر ليلةَ البدر».[٣]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن زهير القرقبي والزعفراني وأبي السّمّال، وزائدة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٣٦.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن عثمان التيمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٧.

[٣] الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٢/٢٥ (القمر، ١/٥٤)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٠٦/٤ (القمر، ١/٥٤)؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٣٢/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة الرحمن

مكيّة، وقيل: مدنيّة، وقيل:[1] مكيّة[2] ومدنيّة،[3] وهي ستّ وسبعون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لمّا عُدِّد في السورة السابقة ما نزَل بالأمَم السالفة مِن ضروب نِقَم الله عزّ وجلّ، وبُيِّن عقيبَ كلّ ضَرْب منها أنّ **القرآن** قد يُسِّر لحَمْل الناس على التذكُّر والاتِّعاظ، ونُعيَ عليهم إعراضُهم عن ذلك، عُدِّد[4] في هذه السورة الكريمة ما فاض على كافّة الأنام مِن فنون نِعَمه الدينيّة والدنيويّة الأنفُسيّة والآفاقيّة، وأُنكِر عليهم إثرَ كلّ فنّ منها إخلالهم بمواجب شكرِها، وبُدئ بتعليم **القرآن** فقيل:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾

/ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ لأنّه أعظمُ النِّعم شأنًا وأرفعُها مكانًا، كيف لا، [١٥٠و] وهو مدار للسعادة الدينيّة والدنيويّة عِيارٌ على سائر الكتب السماويّة، ما مِن مرصدٍ يَرْنو إليه أحداقُ الأمم إلّا وهو منشؤه ومناطه، ولا مَقصِد يمتدّ إليه أعناق الهمم إلّا وهو مَنْهَجه وصراطه. وإسنادُ تعليمه إلى اسم الرحمن للإيذان بأنّه مِن آثار الرحمة الواسعة وأحكامها، وقد اقتُصر على ذِكره تنبيهًا على أصالته وجلالةِ قَدْره.

ثمّ قيل: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ تعيينًا للمعلِّم وتبيينًا لكيفيّة التعليم، والمراد بخَلْق الإنسان إنشاؤه على ما هو عليه مِن القوى الظاهرة والباطِنة، والبيانُ: هو التعبير عمّا في الضمير، وليس المراد بتعليمه مجرّدَ تمكين الإنسان مِن بيان نفسه؛ بل منه ومِن فَهْم بيانِ غيره أيضًا؛ إذ هو الذي يدور عليه تعليم **القرآن**.

---

[1] س + فيها.
[2] س: مكّي.
[3] س: مدني.
[4] السياق: لمّا عُدِّد... عُدِّد...

والجملُ الثلاث أخبارٌ مترادفة لـ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، وإخلاءُ الأخيرتين عن العاطف لورودها على منهاج التعديد.

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي: يجريان بحساب مقدَّر في بروجهما ومنازلهما بحيث ينتظم بذلك أمور الكائنات السفليّة وتختلف الفصول والأوقات ويُعلَم السِّنون والحساب.

﴿وَٱلنَّجْمُ﴾ أي: النبات الذي ينجم، أي: يطلع مِن الأرض ولا ساقَ له ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾[1] الذي له ساق ﴿يَسْجُدَانِ﴾ أي: ينقادان له تعالى فيما يريد بهما طبعًا انقيادَ الساجدين مِن المكلَّفين طوعًا. والجملتان خبران آخران لـ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ جُرِّدا عن الرابط اللفظي تعويلًا على كمال قوّة الارتباط المعنوي؛[2] إذ لا يُتوهَّم ذهاب الوهم إلى كون حالِ الشمس والقمر بتسخير غيره تعالى، ولا إلى كون سجودِ النجم والشجر لِما سواه تعالى، كأنّه قيل: الشمس والقمر بحسبانه والنجم والشجر يسجدان له، وإخلاءُ الجملة الأولى عن العاطف لِما ذُكر مِن قبل، وتوسيطُ العاطف بينها وبين الثانية لتناسبهما مِن حيث التقابل / لِما أنّ الشمس والقمر عُلويّان والنجم والشجر سُفليّان، ومِن حيث إنّ كلًّا مِن حال العُلويّين وحالِ السفليّين مِن باب الانقياد لأمر الله عزّ وجلّ. [١٥٠ظ]

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ أي: خَلَقها مرفوعةً محلًّا ورتبةً حيث جَعَلها منشأ أحكامه وقضاياه ومتنزَّل أوامره ومحلَّ ملائكته، وفيه مِن التنبيه على كبرياء شأنه وعِظَم مُلْكه وسلطانه ما لا يخفى. وقُرئ بالرفع[3] على الابتداء. ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي:

---

[1] س + أي.

[2] وفي هامش م: أي: بأن يقال: أجرى الشمس والقمر. «منه».

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٩.

شَرَع العدل وأمر به بأن وفّر كلّ مستحقّ ما استحقه ووفّى كلّ ذي حقّ حقّه حتّى انتظم به أمر العالم واستقام، كما قال عليه السلام: «بالعدل قامتِ السماوات والأرض».[1] قيل: فعلى هذا الميزان: **القرآن**، وهو قول الحسين بن الفضل،[2] كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد، ٢٥/٥٧]. وقيل: هو ما يُعرَف به مقاديرُ الأشياء مِن مِيزان ومِكيال ونحوهما، وهو قول الحسن وقتادةَ والضحّاكِ،[3] فالمعنى خَلَقه موضوعًا مخفوضًا على الأرض حيث علّق به أحكام عباده وقضاياهم وما تعبّدهم به مِن التسوية والتعديل في أخذهم وإعطائهم.

﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ أي: لئلّا تطغوا فيه على أنّ ﴿أَن﴾ ناصبة و﴿لَا﴾ نافية ولام العلّة مقدّرة متعلّقة بقوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾، أو أي: لا تطغوا على أنّها مفسِّرة لِما في الشرع مِن معنى القول و﴿لَا﴾ ناهية، أي: لا تعتدوا أو لا تُجاوزوا الإنصافَ. وقُرئ: "لَا تَطْغَوا"[4] على إرادة القول.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ قوّموا وزنكم بالعدل، وقيل: أقيموا لسان الميزان بالقسط والعدل،[5] وقيل: الإقامة باليد والقسط بالقلب.[6] ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي: لا تُنقصوه، أُمِر أوّلًا بالتسوية، ثمّ نُهي عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة، ثمّ عن الخسران الذي هو تطفيف ونقصان، وكُرِّر لفظ ﴿ٱلْمِيزَانَ﴾ تشديدًا للتوصية به وتأكيدًا للأمر باستعماله والحثّ عليه.

---

[1] **أنوار التنزيل للبيضاوي**، ٣٥٢/٣.

[2] القول في **اللباب لابن عادل**، ٣٠٠/١٨. | هو الحُسين بن الفضل بن عُمير البجلي، أبو عليّ. (ت. ٢٨٢هـ/٨٩٥م). العلّامة المفسِّر الإمام اللغوي المحدِّث، عالم عصره، كان رأسًا في معاني القرآن، أصله مِن الكوفة، انتقل إلى نيسابور وأنزله واليها عبد الله بن طاهر في دار اشتراها له فأقام يعلِّم الناس خمسًا وستّين سنةً. وكان قبره بها معروفًا. انظر: **سير أعلام النبلاء للذهبي**، ٤١٤/١٣-٤١٥؛ **والأعلام للزركلي**، ٢٥١/٢.

[3] مَرويّ عنهم في **معالم التنزيل للبغوي**، ٤٤٢/٧.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. **المغني في القراءات للنّوزاوازي**، ص ١٧٣٩.

[5] مرويّ عن أبي الدرداء وعطاء في **معالم التنزيل للبغوي**، ٤٤٢/٧؛ **واللباب لابن عادل**، ٣٠٢/١٨.

[6] مرويّ عن ابن عُيينة في **معالم التنزيل للبغوي**، ٤٤٢/٧؛ **واللباب لابن عادل**، ٣٠٢/١٨.

[١٥١و] وقُرِئ: "وَلَا تَخسرُوا" بفتح "التاء" وضمّ "السين" وكسرها،[١] / يقال: "خسَر الميزانَ يخسُره ويخسِره"، وبفتح "السين"[٢] أيضًا على أنّ الأصل "ولا تَخسَروا في الميزان" فحُذف الجارّ وأُوصِل الفعل.

﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾

﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ أي: خفَضها مدحوّةً على الماء ﴿لِلْأَنَامِ﴾ أي: الخلق. قيل: المراد به كلّ ذي روح.[٣] وقيل: كلّ ما على ظهَر الأرض مِن دابّة. وقيل: الثقلان.[٤]

وقوله تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾... إلخ استئناف مسوق لتقرير ما أفاده الجملة السابقة مِن كون الأرض موضوعةً لمنافع الأنام وتفصيلِ المنافع العائدة إلى البشر، وقيل: حال مقدَّرة مِن ﴿ٱلْأَرْضَ﴾،[٥] فالأحسنُ حينئذ أن يكون الحال هو الجارّ والمجرور، و﴿فَٰكِهَةٌ﴾ رفع على الفاعليّة، أي: فيها ضروب كثيرة ممّا يُتفكّه به. ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ هي أوعية الثمر، جمع "كِمّ"، أو كلّ ما يُكمّ، أي: يغطّى مِن ليف وسَعَف وكَفَرّى، فإنّه ممّا ينتفع به كالمكموم مِن تمره وجمّازه وجذوعه.

﴿وَٱلْحَبُّ﴾ هو ما يُتغذّى به كالحِنطة والشعير ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ هو ورق الزرع. وقيل: التِّبن.[٦] ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ قيل: هو الرزق، أريدَ به اللبّ،[٧] أي: فيها ما يُتلذّذ به مِن الفواكه، والجامع بين التلذّذ والتغذّي وهو ثمر النخل وما يُتغذّى به وهو الحبّ الذي له عصفٌ هو علف الأنعام وريحانٌ هو مطعم الناس. وقُرِئ: "وَالحَبَّ ذَا العَصْفِ وَالرَّيْحَانَ"،[٨] أي: خلَق الحبّ والرَّيحان، أو "أخُصُّ"، ويجوز أن يراد "وذا الرَّيحان" فحُذف المضاف وأُقيمَ المضاف إليه مُقامه.

---

١ قراءتان شاذّتان، مرويّتان عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٧.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن بلال بن أبي بُردة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٧.
٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٥٢.
٤ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٣٤.
٥ القول في اللباب لابن عادل، ١٨/٣٠٤.
٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٣٤.
٧ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٣٤.
٨ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٠.

و﴿ٱلرَّيْحَانُ﴾ إمّا "فَيعَلان" مِن "روح" فقُلِبت الواو ياءً وأُدغِم ثمّ خُفِّف، أو "فَعْلان" قُلِبت واوه ياءً للتخفيف، أو للفرق بينه وبين الرَّوْحان وهو ما له رُوحٌ، قاله القرطبي.[١]

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الخِطاب للثقلين المدلول عليهما بقوله تعالى: ﴿لِلْأَنَامِ﴾، وسينطق به قوله تعالى: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾،[٢] و"الفاء" / لترتيب [١٥١ظ] الإنكار والتوبيخ على ما فُصِّل مِن فنون النعماء وصنوف الآلاء الموجِبة للإيمان والشكر حتمًا.

والتعرّض لعنوان الربوبيّة المنبئة عن المالكيّة الكلّيّة والتربية مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ، ومعنى تكذيبهم بآلائه تعالى كفرُهم بها: إمّا بإنكار كونه نعمةً في نفسه كتعليم القرآن وما يستند إليه مِن النِّعم الدينيّة، وإمّا بإنكار كونه مِن الله تعالى، مع الاعتراف بكونه نعمةً في نفسه كالنِّعم الدنيويّة الواصلة إليهم بإسناده إلى غيره تعالى استقلالًا أو اشتراكًا صريحًا أو دلالةً، فإنّ إشراكهم لآلهتهم به تعالى في العبادة مِن دواعي إشراكهم لها به تعالى فيما يُوجبها.

والتعبير عن كفرهم المذكور بالتكذيب لِما أنّ دلالة "الآلاء" المذكورة على وجوب الإيمان والشكر شهادة منها بذلك، فكفرهم بها تكذيب بها لا محالةَ، أي: فإذا كان الأمر كما فُصِّل فبأيّ فرد مِن أفراد آلاء مالككما ومربّيكما بتلك الآلاء تكذِّبان، مع أنّ كلًّا منها ناطق بالحقّ شاهدٌ بالصدق.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦﴾

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ تمهيد للتوبيخ على إخلالهم بمواجب شكر النعمة المتعلِّقة بذاتَي كلّ واحد مِن الثقلين. والصلصال: الطين اليابس

---

[١] انظر: تفسير القرطبي، ١٥٧/١٧؛ ونقله عنه ابن عادل في اللباب، ٣٠٩/١٨.

[٢] في الآية الحادية والثلاثين مِن هذه السورة.

الذي له صلصلة، والفخّار: الخزف. وقد خَلَق الله تعالى آدمَ عليه السلام مِن تراب جعله طينًا، ثمّ حَمَأً مسنونًا، ثمّ صلصالًا، فلا تنافي بين الآيةِ الناطقة بأحدها وبين ما نُطق بأحد الآخرَين.

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ أي: الجنّ أو أبا الجنّ ﴿مِن مَّارِجٍ﴾ مِن لهَب صافٍ[1] ﴿مِّن نَّارٍ﴾ بيانٌ لـ﴿مَارِجٍ﴾ فإنّه في الأصل للمضطرب، مِن "مَرِج" إذا اضطرب.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ممّا أفاض عليكما في تضاعيف خلقكما مِن سوابغ النِّعم.

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨﴾

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ بالرفع على خبريّةِ مبتدأ محذوف، أي: الذي فَعَل ما ذُكر مِن الأفاعيل البديعة / ربّ مشرقَي الصيف والشتاء [١٥٢و] ومغربَيهما، ومِن قضيّته أن يكون ربّ ما بينهما مِن الموجودات قاطبةً. وقيل: على الابتداء، والخبرُ قوله تعالى: ﴿مَرَجَ﴾... إلخ.[2] وقُرئ بالجرّ[3] على أنّه بدل مِن ﴿رَبِّكُمَا﴾.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ممّا في ذلك مِن فوائدَ لا تحصى مِن اعتدال الهواء واختلافِ الفصول وحدوثِ ما يناسب كلّ فصل في وقته إلى غير ذلك.

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١﴾

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: أرسلهما مِن "مرجتُ الدابّة" إذا أرسلتَها، والمعنى أرسل البحر المِلْحَ والبحر العذبَ ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ أي: يتجاوران ويتماسّ سطوحهما لا فصلَ بينهما في مَرأى العين، وقيل: أرسَل بحرَي فارس والروم يلتقيان في المحيط؛ لأنّهما خليجان يتشعّبان منه.[4]

[1] وفي هامش م: وقيل: مختلط بسواد النار. «منه». | القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٣٥.

[2] القول في اللباب لابن عادل، ١٨/٣١٥.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وشريح بن عبيد وأبي البَرَهسم وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٨.

[4] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٥٤.

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ أي: حاجز مِن قدرة الله عزّ وجلّ، أو مِن الأرض ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾ أي: لا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة وإبطالِ الخاصيّة، أو لا يتجاوزان حدَّيهما بإغراق ما بينهما.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وليس منها شيء يقبل التكذيب.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٣ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ۝٢٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٥﴾

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ ﴿ٱللُّؤْلُؤُ﴾: الدُّرّ، و﴿ٱلْمَرْجَانُ﴾: الخَرَز الأحمر المشهور، وقيل: ﴿ٱللُّؤْلُؤُ﴾ كبار الدرّ، و﴿ٱلْمَرْجَانُ﴾ صغارُه،[1] فنسبةُ خروجهما حينئذ إلى البحرين مع أنهما إنّما يخرجان مِن المِلْح على ما قالوا، لِما قيل: إنّهما لا يخرجان إلّا مِن ملتقى المِلْح والعَذْب، أو لأنّهما لمّا التقيا وصارا كالشيء الواحد ساغ أن يقال: يخرجان منهما كما يقال: يخرجان مِن البحر مع أنّهما لا يخرجان مِن جميع البحر، ولكن مِن بعضه، وهو الأظهر.

وقُرئ: "يُخْرَجُ"[2] مبنيًّا للمفعول مِن "الإخراج"، ومبنيًّا للفاعل بنصب ﴿ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ وبنون العظمة.[3]

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾ أي: السُّفن / جمع "جارية". [١٥٢ظ] وقُرئ برفع "الراء" بحذف "الياء"،[4] كقول مَن قال:

لـهـا ثـنـايـا أربـــعٌ حِـسَـــانُ وأربـــعٌ فـكـلُّـهـا ثـمـــانُ[5]

---

[1] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٣٥.

[2] قرأ بها نافع وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٠-٣٨١.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة، والمَلطي والعنبري والبصري كلّهم عن أبي بكر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٤١.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الوارث وعديّ كلاهما عن أبي عمرو وابن أبي عبلة والحسن وابن يعمر وخالد والقصبيّ عن عبد الوارث. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٤٢.

[5] ما عرفت قائله. وهو بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٣٥؛ وشرح الرضيّ على الكافية، ٣/٢٩٩. وانظر تفصيل كلام النحاة عليه في خزانة الأدب للبغدادي، ٧/٣٦٥-٣٦٧.

﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ المرفوعات الشُّرُع،[١] أو المصنوعات. وقُرئ بكسر "الشين"،[٢] أي: الرافعات الشُّرُع، أو اللاتي يُنشِئن الأمواج بجريهنّ. ﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ كالجبال الشاهقة جمع "عَلَم"، وهو الجبل الطويل.

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مِن خَلْق موادّ السُّفن والإرشاد إلى أخذها وكيفيّة تركيبها وإجرائها في البحر بأسباب لا يقدِر على خلقها وجمعِها وترتيبِها غيرُه سبحانه.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ أي: على الأرض مِن الحيوانات أو المَركبات، و﴿مَن﴾ للتغليب، أو مِن الثقلين ﴿فَانٍ﴾ هالك لا محالةَ.

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي: ذاته عزّ وجلّ ﴿ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي: ذو الاستغناء المطلق والفضلِ التامّ. وقيل: الذي عنده الجلال والإكرام للمخلصين مِن عباده،[٣] وهذه مِن عظائم صفاته تعالى، ولقد قال صلّى الله عليه وسلّم: «أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام»،[٤] وعنه عليه السلام: «أنّه مرّ برجل وهو يصلّي ويقول: يا ذا الجلال والإكرام، فقال: قد استجيب لك».[٥] وقُرئ: "ذِي الجَلَالِ وَالإِكْرَامِ"[٦] على أنّه صفة ﴿رَبِّكَ﴾، وأيًا ما كان ففي وصفه تعالى بذلك بعد ذِكر فناء الخلق وبقائه تعالى إيذان بأنّه تعالى[٧] يفيض عليهم بعد فنائهم أيضًا آثارَ لطفه وكرمه

---

[١] وفي هامش م: جمع شِراع. بادبان. | وفي المُغرِب للمُطرِّزي، «شرع»: «وشِراع السَّفينة بالفارسيّة: بادبان».

[٢] قرأ بها حمزة وأبو بكر بخلف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٨١/٢.

[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٣٦/٤.

[٤] مسند أحمد، ١٣٨/٢٩ (١٧٥٩٦)؛ سنن الترمذي، ٥٣٩/٥ (٣٥٢٤)؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٣٦/٤.

[٥] بلفظ قريب في مسند أحمد، ٣٤٧/٣٦ (٢٢٠١٧)؛ وسنن الترمذي، ٥٤١/٥ (٣٥٢٧)؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٣٦/٤.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأُبيّ بن كعب وكِرداب وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٨؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١٧٤٢.

[٧] س – إيذان بأنّه تعالى.

حسبما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فإنّ إحياءهم بالحياة الأبديّة وإثابتهم بالنعيم المقيم أجلّ النعماء وأعظمُ الآلاء.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قاطبةً ما يحتاجون إليه في ذواتهم ووجوداتهم حدوثًا وبقاءً وسائر أحوالهم سؤالًا مستمرًّا بلسان المقال أو بلسان الحال، فإنّهم كافّةً مِن حيث حقائقهم الممكنة بمَعزِل مِن استحقاق الوجود وما يتفرّع عليه مِن الكمالات بالمرّة، بحيث / لو انقطع ما بينهم وبين العناية [١٥٣و] الإلهيّة مِن العلاقة لم يشَمّوا رائحة الوجود أصلًا، فهم في كلّ آنٍ مستمرُّون على الاستدعاء والسؤال، وقد مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم، ١٤/٣٤] مِن سورة إبراهيمَ عليه السلام.[١]

﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾ أي: كلَّ وقت مِن الأوقات. ﴿هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ مِن الشئون التي مِن جملتها إعطاءُ ما سألوا، فإنّه تعالى لا يزال ينشئ أشخاصًا ويفني آخرين ويأتي بأحوال ويذهب بأحوال حسبما تقتضيه مشيئته المبنيّة على الحِكَم البالغة،[٢]

---

١ م - عليه السلام.

٢ في هامش م: هذا بحسب جليل النظر الظاهرِ للأفهام، وأمّا بحسب دقيقه اللائح لأولي البصائر النافذة في مضائق المُلك والملكوت فهو سبحانه وتعالى في كلّ آنٍ مِن آنات الزمان في شئون غير متناهية، فإنّ جميع الموجودات الممكنة مِن المجرّدات والمادّيّات محتاجةٌ في كلّ آنٍ مِن آنات وجودها إليه تعالى، فإنّ كلّ فرد مِن أفراد الموجودات كما لا يستحقّ الوجود ابتداءً لا يستحقّه بقاءً، وإنّما ذلك مِن جناب المبدئ الأوّل عزّ وعلا، فكما لا يُتصوَّر وجوده ابتداءً ما لم يبدُ عليه جميع أنحاء عدمه الأصلي لا يُتصوَّر بقاؤه على الوجود بعد تحقّقه بعلّته ما لم ينسدّ عليه جميع أنحاء عدمه الطارئ؛ لأنّ الدوام والاستمرار مِن خواصّ الوجود الواجبي، ولا ريبَ في أنّ ما يتوقّف عليه وجوده مسبّب ابتداءً وبقاءً مِن الأمور الوجوديّة التي هي عِلَله وشرائطه، وإن وجب تناهيها لقيام البرهان على تناهي ما يجب في الوجود الخارجي، لكنّ الأمور العدميّة التي لها مدخل في وجوده ليست كذلك؛ إذ لا استحالةَ في أن يكون لوجود شيءٍ موانعُ غيرُ متناهية، وإنّما الاستحالة في دخولها تحت الوجود، فارتفاعُ تلك الموانع التي لا تتناهى، أعني بقاءها على العدم مع إمكان وجودها في أنفسها في كلّ آنٍ مِن آنات وجوده، شئونٌ غير متناهية مستندةٌ إليه تعالى، وكذا الحال في وجودات عِلَله وشرائطه القريبة والبعيدة ابتداءً وبقاءً، وكذا في كمالاته التابعة لوجوده ابتداءً وبقاءً وحصولًا وانتفاءً، فاتّضح أنّه تعالى في شئون غيرِ متناهية في شأن موجود مِن الموجودات، فما ظنُّك بجميع الموجودات الممكنة مِن المجرّدات والمادّيّات؟

وفي الحديث: «مِن شأنه أن يغفر ذنبًا، ويُفرِّج كربًا، ويرفع قومًا، ويضعَ آخرين».[١] قيل: وفيه ردّ على اليهود حيث يقولون: إن الله لا يقضي يوم السبت شيئًا.[٢]

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مع مشاهدتكم لِما ذُكر مِن إحسانه.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۝٣١ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٢﴾

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ أي: سنتجرّد لحسابكم وجزائكم، وذلك يوم القيامة عند انتهاء شئون الخلق المشار إليها بقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، فلا يبقى حينئذ إلّا شأن واحد هو الجزاء، فعُبّر عنه بالفراغ لهم بطريق التمثيل. وقيل: هو مستعار مِن قول المتهدِّد لصاحبه: "سأفرُغ لك"، أي: سأتجرّد للإيقاع بك مِن كلّ ما يشغلني عنه، والمراد التوفّر على النكاية فيه والانتقام منه.[٣]

وقُرئ: "سيفرغ" مبنيًا للفاعل[٤] وللمفعول.[٥] وقُرئ: "سَنَفْرُغُ إِلَيْكُمْ"[٦] أي: سنقصد إليكم. ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ هما الإنس والجنّ سُمّيا بذلك لثِقلهما على الأرض، أو لرزانة آرائهما، أو لأنّهما مثقلان بالتكليف.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ التي مِن جملتها التنبيهُ على ما سيلقونه يوم القيامة للتحذير عمّا يؤدّي إلى سوء الحساب. ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ بأقوالكما أو أعمالكما.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ۝٣٣ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٤﴾

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ هما الثقلان خُوطبا باسم جنسهما لزيادة التقرير، ولأنّ الجنّ مشهورون بالقدرة على الأفاعيل الشاقّة فخوطبوا بما ينبئ عن ذلك لبيان أنّ قدرتهم لا تفي بما كُلِّفوه.

---

[١] بلفظ قريب في صحيح البخاري، ١٤٤/٦ (٤٨٧٧)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٣٦١/٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٣٦/٤.

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٣٧/٤.

[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٣٧/٤.

[٤] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٨١/٢.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجُعفي عن أبي عمرو، ابن أبي إسحاق وابن أبي عبلة وأبي البَرَهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٤٣.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٤٣.

﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ إن قدرتم على ﴿أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: أن تهربوا / مِن قضائي وتخرجوا مِن ملكوتي ومِن أقطار سماواتي وأرضي [١٥٣ظ] ﴿فَٱنفُذُواْ﴾ منها وخلِّصوا أنفسكم مِن عقابي. ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ لا تقدرون على النفوذ ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: بقوّة وقهر، وأنتم مِن ذلك بمَعزِل بعيد. روي أنّ الملائكة تنزل فتحيط بجميع الخلائق فإذا رآهم الجنّ والإنس هربوا، فلا يأتون وجهًا إلّا وجدوا الملائكة أحاطت به.[١]

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: مِن التنبيه والتحذير والمساهلة والعفو مع كمال القدرة على العقوبة.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ﴾ قيل: هو اللهب الخالص، وقيل: المختلط بالدخان، وقيل: اللهب الأحمر. وقيل: اللهب الأخضر المنقطع مِن النار، وقيل: هو الدخان الخارج مِن اللهب، وقيل: هو النار والدخان جميعًا.[٢] وقُرئ: "شِوَاظٌ"[٣] بكسر "الشين".

﴿مِّن نَّارٍ﴾ متعلِّق بـ﴿يُرْسَلُ﴾ أو بمضمر هو صفة لـ﴿شُوَاظٌ﴾، أي: كائن مِن نار، والتنوين للتفخيم. ﴿وَنُحَاسٌ﴾ أي: دخان، وقيل: صفر مذاب يصبّ على رءوسهم.

وقُرئ بكسر "النون"،[٤] وقُرئ بالجرّ[٥] عطفًا على ﴿نَارٍ﴾، وقُرئ: "نُرْسِلُ" بنون العظمة، ونصب "شواظًا" و"نحاسًا"،[٦] وقُرئ: "نُحُسٌ" جمع "نِحَاس" مثل "لِحَاف" و"لُحُف"، وقُرئ: "وَنَحُسُّ"،[٧] أي: نقتل بالعذاب. ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي: لا تمتنعان.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإنّ بيان عاقبة ما هم عليه مِن الكفر والمعاصي لطفٌ وأيُّ لطفٍ ونعمة وأيُّ نعمةٍ.

---

[١] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣٣٨/٤.
[٢] هذه الأقوال في اللباب لابن عادل، ٣٣٢/١٨.
[٣] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٨١/٢.
[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وطلحة والكلبي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٩.
[٥] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ورَوح. النشر لابن الجزري، ٣٨١/٢.
[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٩.
[٧] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي إسحاق وعبد الرحمن بن أبي بكرة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٥٩. | وفي هامش م: يقال: حَسّه، أي: أزال حِسّه. «منه».

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾﴾

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي: انصدعت يوم القيامة ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ كوردة حمراء. وقُرِئَ: "وَرْدَةٌ"[1] بالرفع على أنّ "كان" تامّة، أي: حَصَلت سماءُ وردة، فيكون مِن باب التجريد، كقول مَن قال:

ولئن بقيتُ لأرحلنّ بغزوةٍ تحوي الغنائمَ أو يموت كريمُ[2]

[١٥٤و] / ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ خبر ثانٍ لـ﴿كَانَتْ﴾، أو نعت لـ﴿وَرْدَةً﴾، أو حال مِن اسم ﴿كَانَتْ﴾، أي: كدهن الزيت، وهو إمّا جمع "دهن"، أو اسم لِما يدهن به كـ"الحِزام" و"الإدام"، وقيل: هو الأديم الأحمر.[3] وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف، أي: يكون مِن الأحوال والأهوال ما لا تحيط به دائرة المقال.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مع عِظَم شأنها.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ تنشقّ السماء حسبما ذُكر ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ لأنهم يُعرَفون بسيماهم، وذلك أوّلَ ما يخرجون مِن القبور ويُحشَرون إلى الموقف ذَودًا ذَودًا على اختلاف مراتبهم، وأمّا قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر، ٩٢/١٥] ونحوه ففي موقف المناقشة والحساب. وضميرُ ﴿ذَنۢبِهِۦ﴾ لـ"الإنس" لتقدّمه رتبةً، وإفرادُه لِما أنّ المراد فردٌ مِن الإنس، كأنّه قيل: لا يُسأل عن ذنبه إنسيٌّ ولا جنّي.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مع كثرة منافعها، فإنّ الإخبار بما ذُكر ممّا يزجركم عن الشرّ المؤدّي إليه، وأمّا ما قيل: ممّا أنعم الله على عباده المؤمنين في هذا اليوم فلا تعلُّق له بالمقام.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عُبيد بن عُمير. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٧٤٥.

[2] البيت لقتادة بن مسلمة الحنفي في شرح الحماسة للمرزوقي، ص ٧٧٠؛ والدُّرّ الفريد لابن آيدمر، ٣٦٩/٨؛ وهو بلا عزو في الإيضاح للقزويني، ص ٥١٣.

[3] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٣٨/٤.

﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ۝٤١ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٢﴾

وقوله تعالى: ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ﴾ استئناف يجري مجرى التعليل لعدم السؤال، قيل: يُعرَفون بسواد الوجوه وزُرقة العيون،[1] وقيل: بما يعلوهم مِن الكآبة والحزن.[2] ﴿فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾ الجارّ والمجرور هو القائم مقام الفاعل، يقال: "أخذه" إذا كان المأخوذ مقصودًا بالأخذ، ومنه قوله تعالى: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء، ٧١/٤] ونحوه. و"أَخَذَ به" إذا كان المأخوذ شيئًا مِن ملابسات المقصود بالأخذ، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓ﴾ [طه، ٩٤/٢٠]، وقولُ المستغيث: "خُذْ بيدي أَخَذ الله بيدك"، أي: يُجمَع بين نواصيهم وأقدامهم في سلسلة مِن وراء ظهورهم، وقيل: تسحبهم الملائكة، تارةً تأخذ بالنواصي وتارةً بالأقدام.[3] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٤٣ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ۝٤٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٥﴾

وقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا/ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ على إرادة القول، [١٥٤ظ] أي: يقال لهم ذلك بطريق التوبيخ على أنّ الجملة إمّا استئنافٌ وقع جوابًا عن سؤال ناشئ مِن حكاية الأخذ بالنواصي والأقدام، كأنّه قيل: فماذا يُفعَل بهم عند ذلك؟ فقيل: يقال... إلخ. أو حالٌ مِن أصحاب النواصي والأقدام، لأنّ "الألف" و"اللام" عِوَض مِن المضاف إليه وما بينهما اعتراضٌ.

﴿يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا﴾ أي: بين النار يُحرقون بها ﴿وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾ ماء بالغ مِن الحرارة أقصاها يُصبّ عليهم أو يُسقَون منه. وقيل: إذا استغاثوا مِن النار أغيثوا بالحميم.[4]

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وقد أشيرَ إلى سرّ كون بيانِ أمثال هذه الأمور مِن قبيل الآلاء مرارًا.

---

[1] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٣٨/٤.
[2] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٥٦/٣.
[3] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٣٨/٤-٣٣٩.
[4] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٣٩/٤.

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٧ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ۝٤٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٩﴾

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ شروع في تعداد الآلاء الفائضة عليهم في الآخرة بعد تعداد ما وصل إليهم في الدنيا مِن الآلاء الدينيّة والدنيويّة.

واعلم أنّ ما عُدِّد فيما بين هذه الآية وبين خاتمة السورة الكريمة مِن فنون الكرامات، كما أنّ أنفسَها آلاء جليلة واصلة إليهم في الآخرة، كذلك حكاياتها الواصلة إليهم في الدنيا آلاء عظيمة لكونها داعيةً لهم إلى السعي في تحصيل ما يؤدّي إلى نيلها مِن الإيمان والطاعة، وأنّ ما فُصِّل مِن فاتحة السورة الكريمة إلى قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ مِن النِّعَم الدينيّة والدنيويّة الأنفُسيّة والآفاقيّة آلاءٌ جليلة واصلة إليهم في الدنيا، وكذلك حكاياتها مِن حيث إيجابُها للشكر والمثابرةِ على ما يؤدّي إلى استدامتها، وأمّا ما عُدِّد فيما بين قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾[١] وبين هذه الآية مِن الأحوال الهائلة التي ستقع في الآخرة، فليست هي مِن قبيل الآلاء، وإنّما الآلاء حكاياتُها الموجِبة للانزجار عمّا يؤدّي إلى الابتلاء بها مِن الكفر والمعاصي، كما أشيرَ إليه في تضاعيف تعدادها.

ومقامه تعالى: موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب يوم يقوم الناس لربّ العالمين، أو قيامُه تعالى على أحواله مِن "قام عليه" إذا راقبه، أو مقام الخائف عند ربّه للحساب / بأحد المعنيين. وإضافته إلى الربّ للتفخيم والتهويل، أو هو مقحَم للتعظيم. [١٥٥و]

﴿جَنَّتَانِ﴾ جنّة للخائف الإنسي وجنّة للخائف الجنّي، فإنّ الخطاب للفريقين، والمعنى لكلّ خائفَين منكما، أو لكلّ واحد جنّة لعقيدته وأخرى لعمله، أو جنّة لفعل الطاعات وأخرى لترك المعاصي، أو جنّة يثاب بها وأخرى يتفضّل بها عليه، أو روحانيّة وجسمانيّة، وكذا ما جاء مثنّى بعدُ. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

---

[١] الرحمن، ٥٥/٣١.

وقوله تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ﴾ صفة لـ﴿جَنَّتَانِ﴾ وما بينهما اعتراضٌ وُسِّط بينهما تنبيهًا على أنّ تكذيب كلّ مِن الموصوف والصفة موجِب للإنكار والتوبيخ. و"الأفنان" إمّا جمع "فنّ"، أي: ذواتا أنواع مِن الأشجار والثمار، أو جمع "فَنَن"، أي: ذواتا أغصان متشعِّبة مِن فروع الشجر. وتخصيصُها بالذِّكر لأنّها التي تُورِق وتُثمِر وتمدّ الظلّ.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وليس فيها شيء يقبَل التكذيب.

﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ۝٥٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥١ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ۝٥٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٣﴾

﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ﴾ صفة أخرى لـ﴿جَنَّتَانِ﴾، أي: في كلّ واحدة منهما عين تجري كيف يشاء صاحبها في الأعالي والأسافل. وقيل: تجريان مِن جبل مِن مِسك،[1] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما[2] والحسن: تجريان بالماء الزُّلال إحداهما التسنيم والأخرى السلسبيل.[3] وقيل: إحداهما مِن ماء غير آسِن والأخرى مِن خمر لذّة للشاربين.[4] قال أبو بكر الورّاق: فيهما عينان تجريان لمَن كانت عيناه في الدنيا تجريان مِن مخافة الله عزّ وجلّ.[5] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ﴾ أي: صنفان معروف وغريب، أو رَطْب ويابس، صفة أخرى لـ﴿جَنَّتَانِ﴾. وتوسيطُ الاعتراضِ بين الصفات لِما مرّ آنفًا. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ۝٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٥﴾

وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال مِن الخائفين؛ لأنّ مَن خاف / في معنى الجمع، أو نصبٌ على المدح. ﴿عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ﴾ مِن ديباج ثخين، [١٥٥ظ]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٣٩/٤.
٢ م - رضي الله عنهما.
٣ معالم التنزيل للبغوي، ٤٥٢/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٣٩/٤.
٤ معالم التنزيل للبغوي، ٤٥٢/٧.
٥ نقله عنه ابن عادل في اللباب، ٣٤٤/١٨.

وحيث كانت بطائنها كذلك فما ظنّك بظهائرها؟ وقيل: ظهائرها مِن سُندس. وقيل: مِن نور.[١]

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ أي: ما يُجتنى مِن أشجارها مِن الثِّمار قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: تدنو الشجرة حتّى يجتنيها وليُّ الله إن شاء قائمًا وإن شاء قاعدًا وإن شاء مضطجعًا. وقُرئ: "جِنَى"[٢] بكسر "الجيم". ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ﴾ أي: في الجِنان المدلول عليها بقوله تعالى: ﴿جَنَّتَانِ﴾ لِما عرفت أنّهما لكلّ خائفين مِن الثقلين أو لكلّ خائف حسب تعدُّد عمله، وقد اعتُبر الجمعيّة في قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾. وقيل: فيما فيهما مِن الأماكن والقصور، وقيل: في الآلاء المعدودة مِن الجنّتين والعينين والفاكهة والفرش.[٣] ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ نساء يقصُرن أبصارهنّ على أزواجهنّ لا ينظرن إلى غيرهم.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي: لم يَمسّ الإنسيّات أحد مِن الإنس ولا الجنّيّات أحد مِن الجنّ قبل أزواجهنّ المدلول عليهم بـ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، وقيل: بقوله تعالى ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾، وفيه دليل على أنّ الجنّ يطمثون. وقُرئ: "يَطْمُثْهُنَّ"[٤] بضمّ "الميم". والجملة صفة لـ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، لأنّ إضافتها لفظيّة، أو حال منها لتخصُّصها بالإضافة. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ إمّا صفة لـ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، أو حال منها كالتي قبلها، أي: مشبَّهات بالياقوت في حُمرة الوجه، و﴿ٱلْمَرْجَانُ﴾

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٣٩/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٠.

٣ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٤٠/٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر وطلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٠.

أي: صغار الدُّرّ في بياض البشرة وصفائها، فإنّ صغار الدُّرّ أنصع بياضًا مِن كباره. قيل: إنّ الحوراء تلبَس سبعين حلّة فيُرى مُخّ ساقها مِن ورائها كما يُرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء.[١] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ / إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ استئناف مقرِّر لمضمون ما فُصِّل قبله، أي: ما جزاء الإحسان في العمل إلّا الإحسان في الثواب. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. [١٥٦و]

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ مبتدأ وخبر، أي: ومِن دون تَينك الجنّتين الموعودتين للخائفين المقرَّبين جنّتان أخريان لمَن دونهم مِن أصحاب اليمين. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ صفة لـ﴿جَنَّتَانِ﴾ وُسِّط بينهما الاعتراضُ لِما ذُكر مِن التنبيه على أنّ تكذيب كلّ مِن الموصوف والصفة حقيقٌ بالإنكار والتوبيخ، أي: خضراوان تضربان إلى السواد مِن شدّة الخُضرة، وفيه إشعارٌ بأنّ الغالب على هاتين الجنّتين النبات والرياحين المنبسطة على وجه الأرض وعلى الأُوليين الأشجار والفواكه. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ أي: فوّارتان بالماء، و"النَّضْخ" أكثر مِن "النَّضْح" بـ"الحاء" المهملة، وهو الرشّ. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ عُطف الأخيران على "الفاكهة" عطفَ ﴿جِبْرِيلَ وَمِيكَـٰلَ﴾ [البقرة، ٩٨/٢] على "الملائكة" بيانًا لفضلهما، فإنّ ثمرة النخل فاكهةٌ وغذاء والرمّانَ فاكهةٌ ودواء، وعن هذا قال أبو حنيفةَ رحمه الله: «مَن حلف لا يأكل فاكهةً فأكل رمّانًا أو رُطَبًا لم يحنث».[٢] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٤٠/٤.
[٢] الكشّاف للزمخشري، ٣٤٠/٤.

﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ﴾ صفة أخرى لـ﴿جَنَّتَانِ﴾ كالجملة التي قبلها. والكلامُ في جميع الضمير كالذي مرّ فيما مرّ. و﴿خَيْرَٰتٌ﴾ مخفَّفة مِن "خيِّرات"؛ لأنّ خيرًا الذي بمعنى أخيَر لا يُجمَع. وقد قُرئ على الأصل.[١] ﴿حِسَانٌ﴾ أي: حِسَان الخُلق والخَلق. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿حُورٌ﴾ بدل مِن ﴿خَيْرَٰتٌ﴾ ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ قُصِرن في خدورهنّ، يقال: "امرأة قصيرة وقصورة"، أي: مُخدَّرة، أو مقصورات الطرف على أزواجهنّ، وقيل: إنّ الخيمة مِن خيامهنّ درّة مجوَّفة.[٢] ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

[١٥٦ظ] وقوله تعالى: / ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ كالذي مرّ مِن نظيره في جميع الوجوه. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ نصب على الاختصاص ﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ "الرفرف" إمّا اسم جنس أو اسمُ جمع واحده "رَفرَفة". قيل: هو ما تدلّى مِن الأسرّة مِن عالي الثياب. وقيل: هو ضرب مِن البُسط، أو البُسط. وقيل: الوسائد. وقيل: النمارق. وقيل: كلّ ثوب عريض رَفرَف،[٣] ويقال: لأطراف البُسط وفضول الفسطاط رفارف. ورَفرَفُ السحاب: هَيْدَبُه.[٤]

﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ العبقري منسوب إلى عَبْقَر، تزعم العرب أنّه اسم بلد الجنّ، فينسبون إليه كلّ شيء عجيب، والمراد الجنس، ولذلك وُصِف بالجمع

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن بكر بن حبيب السهمي عن أبيه والزُّهري عن يعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٠.
[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٤١/٤.
[٣] هذه الأقوال في الكشّاف للزمخشري، ٣٤١/٤.
[٤] وفي هامش م: الهَيْدب: المتدلّي أو ذيله. «منه».

حملًا على المعنى، كما في ﴿رَفْرَفٍ﴾ على أحد الوجهين. وقُرئ: "عَلَى رَفَارِفَ خُضُرٍ" بضمّتين، و"عَبَاقِرِيّ"[١] كـ"مدائنيّ" نسبة إلى "عَبَاقِر" في اسم البلد. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ٧٨﴾

وقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ تنزيه وتقديس له تعالى، فيه تقرير لِما ذُكر في السورة الكريمة مِن آلائه الفائضة على الأنام، أي: تعالى اسمه الجليل الذي مِن جملته ما صُدِّرت به السورة مِن اسم الرحمن المنبئ عن إفاضته الآلاءَ المفصّلة، وارتفع ممّا لا يليق بشأنه مِن الأمور التي مِن جملتها جحود نعمائه وتكذيبها، وإذا كان حال اسمه بملابسة دلالته عليه فما ظنُّك بذاته الأقدس الأعلى؟ وقيل: الاسم بمعنى الصفة، وقيل: مُقحَم،[٢] كما في قول مَن قال:

إلى الحَوْل ثمّ اسمُ السلام عليكما[٣]

﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ وُصف به الربّ تكميلًا لِما ذُكر مِن التنزيه والتقرير. وقُرئ: "ذُو الجَلَالِ"[٤] على أنّه نعت للاسم.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الرحمن أدّى شُكر ما أنعم الله عليه».[٥]

---

١ قراءتان شاذّتان، مرويّتان عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وعثمان بن عفّان ونصر بن عاصم والجَحدري ومالك بن دينار وابن محيصن وزهير القرقبي والحسن وابن مِقسَم. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٤٦١؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٤٩.

٢ القولان في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٥٩/٣.

٣ صدر بيت للبيد بن ربيعة في ديوانه، ص ٢١٤، وتمامه:

ومَن يبكِ حَولًا كاملًا فقد اعتذرْ

٤ قرأ بها ابن عامر. **النشر** لابن الجزري، ٣٨٢/٢.

٥ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٨٦/٢٥ (الرحمن، ١/٥٥)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٢١٧/٤ (الرحمن، ١/٥٥)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣٤١/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة الواقعة

مكّيّة، وهي سبع وتسعون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أي: إذا قامت القيامة، وذلك عند النفخة الثانية. والتعبير عنها بـ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ / للإيذان بتحقّق وقوعها لا محالةَ، كأنّها واقعة في نفسها مع [١٥٧و] قطع النظر عن الوقوع الواقع في حيّز الشرط، كأنّه قيل: كانت الكائنة وحدثت الحادثة. وانتصابُ ﴿إِذَا﴾ بمضمر ينبئ عن الهَول والفظاعة، كأنّه قيل: إذا وقعت الواقعة يكون مِن الأهوال ما لا يفي به المقال.

وقيل: بالنفي المفهوم مِن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي: لا يكون عند وقوعها نفسٌ تكذب على الله تعالى، أو تكذب في نفيها، كما تكذب اليوم.[١] و"اللام" كهي في قوله تعالى: ﴿يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر، ٢٤/٨٩]. وهذه الجملة على الوجه الأوّل اعتراض مقرّر لمضمون الشرط على أنّ "الكاذبة" مصدر كـ"العافية"، أي: ليس لأجل وقعتها وفي حقّها كَذِب أصلًا؛ بل كلّ ما ورد في شأنها مِن الأخبار حقّ صادق لا ريبَ فيه.

وقوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هي خافضة لأقوام رافعةٌ لآخرين، وهو تقريرٌ لعظمتها وتهويلٌ لأمرها، فإنّ الوقائع العِظام شأنُها كذلك، أو بيانٌ لِما يكون يومئذ مِن حطّ الأشقياء إلى الدرَكات ورفعِ السُّعداء إلى الدرَجات، ومِن زلزلة الأشياء وإزالةِ الأجرام عن مقارّها بنَثْر الكواكبِ وإسقاطِ السماء كِسَفًا وتسييرِ الجبال في الجوّ كالسحاب. وتقديم الخَفْض على الرفع للتشديد في التهويل.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٤٢/٤.

وقُرِئ: "خَافِضَةً رَافِعَةً"[1] بالنصب على الحال مِن الواقعة.

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾

وقوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ أي: زُلزِلت زلزالًا شديدًا بحيث ينهدِم ما فوقها مِن بناء وجبل، متعلّق بـ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾[2] أي: تخفِض وترفَع وقتَ رجِّ الأرض؛ إذ عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع ويرتفع ما هو منخفض، أو بدل مِن ﴿إِذَا وَقَعَتْ﴾.[3]

﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ أي: فُتِّتَتْ حتى صارت مثل السّويق المَلتوت مِن "بسّ السّويقَ" إذا لتّه،[4] أو سِيقت وسُيِّرت مِن أماكنها مِن "بسّ الغنمَ" إذا ساقها، كقوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ [النبأ، ٧٨/٢٠]. وقُرِئ: "رَجَّتِ" و"بَسَّتِ"[5] أي: ارتجّت وذهبت.

﴿فَكَانَتْ﴾ أي: فصارت بسبب ذلك ﴿هَبَآءً﴾ غبارًا ﴿مُّنۢبَثًّا﴾ منتشرًا.

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٤﴾

﴿وَكُنتُمْ﴾ إمّا خطاب للأمّة الحاضرة والأمم السالفة تغليبًا، أو للحاضرة فقط ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أي: أصنافًا ﴿ثَلَٰثَةً﴾ فكلّ صنف يكون مع صنف آخرَ في الوجود / أو في الذِّكر فهو زوج. [١٥٧ظ]

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۞ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ تقسيم وتنويعٌ للأزواج الثلاثة مع الإشارة الإجماليّة إلى أحوالهم

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن واليزيدي وعيسى بن عمر وابن مِقْسَم وأبي حَيْوَة وابن أبي عبلة والزّعفراني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦١؛ المغني في القراءات للنّوْزاوازي، ص ١٧٥١.

[2] في الآية السالفة.

[3] الواقعة، ٥٦/١.

[4] السّويق: طعام يتّخذ مِن الحنطة والشعير، ولتّه: بلّه بالماء. لسان العرب لابن منظور، «سوق»، «لتت».

[5] قراءتان شاذّتان، مرويّتان عن عُبيد بن عُمير وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٢.

قبل تفصيلها. فقوله تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ خبره، على أنّ ﴿مَا﴾ الاستفهاميّة مبتدأ ثانٍ ما بعده خبرُه والجملةُ خبرٌ للأوّل، والأصل "ما هم"، أي: أيّ شيء هم في حالهم وصِفتهم، فإنّ "ما" و"إن" شاعت في طلب مفهوم الاسمِ والحقيقة لكنّها قد يُطلَب بها الصفة والحال، تقول: "ما زيد؟" فيقال: "عالمٌ" أو "طبيبٌ". فوُضع الظاهر موضعَ الضمير لكونه أدخَلَ في التفخيم، وكذا الكلام في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾.

والمراد تعجيب السامع مِن شأن الفريقين في الفخامة والفظاعة، كأنّه قيل: فأصحابُ الميمنة في غاية حُسن الحال، وأصحابُ المشأمة في نهاية سوءِ الحال. وتكلّموا في الفريقين، فقيل: أصحابُ الميمنة أصحابُ المنزلة السنيّة وأصحابُ المشأمة أصحابُ المنزلة الدنيّة أخذًا مِن تيمُّنهم بالميامن وتشاؤمِهم بالشمائل.

وقيل: الذين يُؤتَون صحائفهم بأيمانهم والذين يُؤتَونها بشمائلهم. وقيل: الذين يُؤخَذ بهم ذات اليمين إلى الجنّة والذين يُؤخَذ بهم ذات الشِّمال إلى النار. وقيل: أصحابُ اليُمن وأصحابُ الشؤم، فإنّ السعداء ميامينُ على أنفسهم بطاعاتهم والأشقياءُ مشائيمُ عليها بمعاصيهم.[١]

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ هو القسم الثالث مِن الأزواج الثلاثة، ولعلّ تأخيرَ ذِكرهم مع كونهم أسبقَ الأقسام وأقدمَهم في الفضل ليقترن ذِكرهم ببيان محاسن أحوالهم، على أنّ إيرادهم بعنوان السَّبْق مطلقًا مُعرِب عن إحرازهم لقَصَب السَّبْق مِن جميع الوجوه.

وتكلّموا فيهم أيضًا، فقيل: هم الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة عند ظهور الحقّ مِن غير تلعثُم وتوانٍ. وقيل: الذين سبقوا في حيازة الفضائل والكمالات.[٢] وقيل: هم الذين صلّوا إلى القبلتين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ

---

١ **الأقوال الثلاثة في الكشّاف** للزمخشري، ٣٤٣/٤. ٢ **القولان في أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣٦١/٣.

[١٥٨و] ﴿مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ [التوبة، ١٠٠/٩].[١] / وقيل: هم السابقون إلى الصلوات الخمس.[٢] وقيل: المسارِعون في الخيرات.[٣]

وأيًا ما كان فالجملةُ مبتدأ وخبر. والمعنى: والسابقون هم الذين اشتهرت أحوالهم وعُرِفت محاسنهم، كقول أبي النجم:

وشِــــعــــري شِــــعــــري[٤]

وفيه مِن تفخيم شأنهم والإيذانِ بشيوع فضلهم واستغنائهم عن الوصف بالجميل ما لا يخفى. وقيل: والسابقون إلى طاعة الله تعالى السابقون إلى رحمته، أو السابقون إلى الخير السابقون إلى الجنّة.[٥]

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى السابقين، وما فيه مِن معنى البُعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببُعد منزلتهم في الفضل، ومحلُّه الرفع على الابتداء، خبرُه ما بعده، أي: أولئك الموصوفون بذلك النعت الجليل ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ أي: الذين قُرِّبت إلى العرش العظيم درجاتهم، وأُعلِيت مراتبُهم ورُقِّيت إلى حظائر القدس نفوسُهم الزكيّة. هذا أظهَرُ ما ذُكر في إعراب هذه الجمل وأشهرُه.

والذي يقتضيه جزالةُ التنزيل أنّ قوله تعالى: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾[٦] خبرُ مبتدأ محذوف، وكذا قولُه تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾،[٧] وقولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾، فإنّ المترقِّب عند بيان انقسامِ الناس إلى الأقسام الثلاثةِ بيانُ أنفُس الأقسامِ، وأمّا أوصافُها وأحوالها فحقُّها أن تُبيَّن بعد ذلك بإسنادها إليها. والتقدير فأحدُها أصحاب الميمنة والآخرُ أصحاب المشأمة والثالثُ السابقون،

---

[١] مرويّ عن محمّد بن سيرين في جامع البيان للطبري، ٢٩٠/٢٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨/٨-٩؛ واللباب لابن عادل، ٣٧٩/١٨.

[٢] مرويّ عن عليّ رضي الله عنه في معالم التنزيل للبغوي، ٩/٨؛ واللباب لابن عادل، ٣٧٩/١٨.

[٣] مرويّ عن سعيد بن جُبير رضي الله عنه في معالم التنزيل للبغوي، ٩/٨؛ واللباب لابن عادل، ٣٧٩/١٨.

[٤] الرجز بتمامه:

أنـا أبـو النجـم وشِـعـري شِعـري

وهو في ديوان أبي النجم العِجلي، ص ١٩٨؛ وهو له في الخصائص لابن جنّي، ٣٣٧/٣، والكشّاف للزمخشري، ٣٤٤/٤؛ وشرح التسهيل لابن مالك ٣٠٤/١؛ وبلا نسبة في شرح الرضيّ على الكافية ٢٥٥/١، ٣٢٥.

[٥] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦١/٣.

[٦] في الآية الثامنة مِن هذه السورة.

[٧] في الآية التاسعة مِن هذه السورة.

خلا أنّه لمّا أُخِر بيان أحوال القسمين الأوّلين عُقِّب كلٌّ منهما بجملة معترِضة بين القسمين منبِئة عن ترامي أحوالهما في الخير والشرّ إنباءً إجماليًا مشعِرًا بأنّ لأحوال كلٍ منهما تفصيلًا مترقَّبًا، لكن لا على أنّ ﴿مَا﴾ الاستفهاميّة مبتدأ وما بعدها خبرٌ على ما رآه سيبويهِ في أمثاله؛[1] بل على أنّها خبرٌ لِما بعدها، فإنّ مناط الإفادة بيانُ أنّ أصحاب الميمنة أمرٌ بديع، كما يفيده كون ﴿مَا﴾ خبرًا، لا بيانُ أنّ أمرًا بديعًا أصحابُ الميمنة، كما يفيده كونها مبتدأ، وكذا الحالُ في ﴿مَآأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾.[2] وأمّا القسمُ الأخير فحيث قُرِن بيان محاسن أحواله بذِكره لم يُحتَج فيه إلى تقديم الأنموذج، فقوله تعالى: ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ مبتدأ.

والإظهارُ في مقام الإضمار للتفخيم، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ ثانٍ أو بدلٌ مِن الأوّل، وما بعده خبرٌ له أو للثاني، والجملةُ خبر للأوّل.

وقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ متعلِّق بـ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ أو بمضمر هو حال مِن ضميره، أي: كائنين في جنّات النعيم. وقيل: خبرٌ ثانٍ لاسم الإشارة.[3] وفيه أنّ الإخبار بكونهم فيها بعد الإخبار بكونهم مقرَّبين ليس فيه مزيد مزيّة. وقُرِئ: "فِي جَنَّةِ النَّعِيمِ".[4]

وقوله تعالى: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هم أمّة جمّة مِن الأوّلين، وهم الأمَم السالفة مِن لدن آدمَ إلى نبيّنا عليهما السلام وعلى مَن بينهما مِن الأنبياء العِظام.

﴿وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أي: مِن هذه الأمّة ولا يخالفه قوله عليه السلام: «إنّ أمّتي يكثرون سائرَ الأمم»،[5] فإنّ أكثريّة سابقي الأمم السالفة مِن سابقي هذه الأمّة، لا تمنع أكثريّة تابعي هؤلاء مِن تابعي أولئك، ولا يردُّه قوله تعالى: في أصحاب اليمين: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾؛ لأنّ كثرة كلٍ مِن الفريقين

---

١ انظر: كتاب سيبويه، ١/١٣٤.
٢ في الآية التاسعة مِن هذه السورة.
٣ القول في اللباب لابن عادل، ١٨/٣٨٠.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٢.
٥ ما وقفتُ عليه بهذا اللفظ في مظانّه. وهو بلفظه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٦٢؛ وفي مسند أحمد، ١٥/٣٨ (٩٠٨٠): «أنتم ثلث أهل الجنّة، بل أنتم نصف أهل الجنّة، وتُقاسمونني النصفَ الثاني».

[١٥٨ظ] في أنفسهما لا تُنافي أكثريّة أحدهما مِن الآخر / وسيأتي أنّ الثلّتين مِن هذه الأمّة، وقد روي مرفوعًا أنّ الأوّلين والآخِرين ههنا أيضًا متقدِّمو هذه الأمّة ومتأخِّروهم،[١] واشتقاقُ الثلّة مِن "الثَّلّ" وهو الكسر.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ۝٢٦﴾

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ حال أخرى مِن "المقرَّبين" أو مِن ضميرهم في الحال الأولى. وقيل: خبر آخرُ للضمير. والموضونة: المنسوجة بالذهب مشبَّكةً بالدُّرّ والياقوت، أو المتواصلة مِن "الوَضْن" وهو النسج.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ حالان مِن الضمير المستكنّ فيما تعلّق به ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾، أي: مستقرّين على سُرَر متّكئين عليها متقابلين، لا ينظر بعضهم مِن أقفاء بعض، وهو وصف لهم بحُسن العشرة وتهذيبِ الأخلاق والآداب.

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ حال أخرى أو استئنافٌ، أي: يدور حولهم للخدمة ﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: مُبقَون أبدًا على شكل الولدان وطراوتهم لا يتحوّلون عنها. وقيل: مقرّطون، والخلد: القُرط. قيل: هم أولاد أهل الدنيا لم يكن لهم حسنات فيُثابوا عليها ولا سيّئات فيُعاقبوا عليها، رُوي ذلك عن عليّ رضي الله تعالى عنه وعن الحسن رحمه الله،[٢] وفي الحديث: «أولادُ الكفّار خدّام أهل الجنّة».[٣]

﴿بِأَكْوَابٍ﴾ بآنية لا عُرى لها ولا خراطيمَ ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ أي: آنية ذات عُرى وخراطيمَ ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي: خمر جارية مِن العيون. قيل: إنّما أُفرِد الكأس؛ لأنّها لا تُسمّى كأسًا إلّا إذا كانت مملوءةً.

---

[١] الحديث في مسند الطيالسي، ٢/٢٠٩ (٩٢٧)؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٦٢.

[٢] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٤٥.

[٣] ما وقفتُ عليه في مظانّه. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٤٥.

﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي: بسببها، وحقيقتُه: لا يصدر صداعُهم عنها. وقُرئ: "لَا يَصَّدَّعُونَ"،[١] أي: لا يتصدّعون ولا يتفرّقون، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم، ٤٣/٣٠]. وقُرئ: "لا يَصْدَعُونَ"،[٢] أي: لا يفرِّق بعضُهم بعضًا. ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي: لا يَسكَرون مِن "أنزَف الشاربُ" إذا نَفِد عقله أو شرابه.

﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أي: يختارونه ويأخذون خيرَه وأفضلَه.

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: يتمنّون. وقُرئ: "وَلُحُومِ طَيْرٍ".[٣]

﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ بالرفع عطفٌ على ﴿وِلْدَٰنٌ﴾[٤] أو مبتدأ محذوفُ الخبر، أي: وفيها أو لهم حُورٌ. وقُرئ بالجرّ[٥] عطفًا على ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾،[٦] كأنّه قيل: هم في جنّات وفاكهة ولحم ومصاحبة حُور، أو على أكواب؛ لأنّ معنى ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ﴾:[٧] يُنعَّمون بأكواب، وبالنصب،[٨] أي: ويؤتَون حُورًا.

﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ / صفة لـ﴿حُورٌ﴾ أو حال. [١٥٩و]

﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ مفعول له، أي: يُفعَل بهم ذلك كلّه جزاءً بأعمالهم، أو مصدرٌ مؤكِّد، أي: يُجزون جزاءً.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: باطلًا ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ أي: ولا نسبةً إلى الإثم، أي: لا لغوَ فيها ولا تأثيمَ ولا سماعَ، كقوله:

ولا تـرى الـضـبَّ بـهـا يَـنْـجَـحِـرِ[٩]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٧٥٢.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٢.

[٤] في الآية السابعة عشرة مِن هذه السورة.

[٥] قرأ بها حمزة والكسائي وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٨٣/٢.

[٦] في الآية الثانية عشرة مِن هذه السورة.

[٧] في الآيتين السابعة عشرة والثامنة عشرة مِن هذه السورة.

[٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٥١.

[٩] وفي هامش م: وصدره:

لا يُـفـزِع الأرنــبَ أهـوالُـهـا

والبيت لابن أحمر في ديوانه، ص ٦٧؛ وهو له في شرح المفضّليّات للأنباري، ص ٥٩، ٨٧٩؛ والتكملة والذيل والصلة للصغاني، «فلت»؛ وخزانة الأدب للبغدادي، ١٩٢/١٠؛ وهو بلا عزو في شرح الرضيّ على الكافية، ٣٢٦/٤.

﴿إِلَّا قِيلًا﴾ أي: قولًا ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ بدل مِن ﴿قِيلًا﴾، كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم، ٦٢/١٩]، أو صفته، أو مفعوله بمعنى لا يسمعون فيها إلّا أن يقولوا: سلامًا سلامًا، والمعنى أنّهم يُفشون السلام فيُسلِّمون سلامًا بعد سلام، أو لا يسمع كلٌّ مِن المسلِّم والمسلَّم عليه إلّا سلامَ الآخر بدءًا أو ردًّا. وقُرئ: "سَلَامٌ سَلَامٌ"[1] على الحكاية.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ شروع في تفصيل ما أُجمِل عند التقسيم مِن شئونهم الفاضلة إثرَ تفصيل شئون السابقين، وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ جملة استفهاميّة مسوقة لتفخيمهم والتعجيبِ مِن حالهم، وقد عرفتَ كيفيّة سبكها، محلُّها إمّا الرفع على أنّها خبر للمبتدأ أو معترضةٌ لا محلَّ لها.

والخبر قوله تعالى: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ وهو على الأوّل خبرٌ ثانٍ للمبتدأ أو خبرٌ لمبتدأ محذوف، والجملةُ استئناف لبيان ما أُبهم في قوله: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ مِن علوّ الشأن، أي: هم في سِدر غير ذي شوك لا كسِدر الدنيا، وهو شجر النبق كأنّه خُضِد شوكه، أي: قُطِع. وقيل: مخضود، أي: مثنيٌّ أغصانه لكثرة حَمْله مِن "خَضَد الغصنَ" إذا ثناه وهو رَطْب.

﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ قد نُضِد حملُه مِن أسفله إلى أعلاه، ليست له ساق بارزة، وهو شجر الموز أو أمّ غَيلان، وله أنوارٌ كثيرة منتظِمة طيِّبةُ الرائحة، وعن السدّي: شجر يشبه طلحَ الدنيا، ولكنّ له ثمرًا أحلى مِن العسل.[2] وعن عليّ رضي الله عنه

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٢.

[2] القول في اللباب لابن عادل، ٣٩٧/١٨.

أنّه قرأ: "وَطَلْع"،[١] وما شأن الطلح،[٢] وقرأ قوله تعالى: ﴿لَهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق، ١٠/٥٠]، فقيل: أَوَنُحَوِّلُها؟ قال: آيُ القرآن لا تُهاج ولا تُحوَّل،[٣] وعن ابن عبّاس رضي الله عنه نحوه.[٤]

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ ممتدّ منبسط لا يتقلّص / ولا يتفاوت كظلّ ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس. [١٥٩ظ]

﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ يُسكَب لهم أينما شاءوا وكيفما أرادوا بلا تعب، أو مصبوبٌ سائل يجري على الأرض في غير أخدود، كأنّه مُثِّل حال السابقين بأقصى ما يُتصوَّر لأهل المدن، وحالُ أصحاب اليمين بأكملِ ما يُتصوَّر لأهل البوادي إيذانًا بالتفاوت بين الحالين.

﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ بحسب الأنواع والأجناس.

﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ في وقت مِن الأوقات كفواكه الدنيا ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ عن متناوليها بوجه مِن الوجوه، لا يُحظَر عليها كما يُحظَر على بساتين الدنيا. وقُرئ: "فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ"[٥] بالرفع على "وهناك فاكهةٌ"... إلخ، كقوله تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾.[٦]

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي: رفيعة القدر، أو منضّدة مرتفعة، أو مرفوعة على الأسرّة. وقيل: الفرُش النساء، حيث يُكنى بالفراش عن المرأة، وارتفاعُها كونهنّ على الأرائك. قال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس، ٥٦/٣٦].[٧] ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾. وعلى التفسير الأوّل أُضمِر "لهنّ" لدلالة ذِكر "الفرُش" التي هي المضاجع عليهنّ دلالةً بيّنة، والمعنى ابتدأنا خلقهنّ ابتداءً جديدًا، أو أبدعناهنّ مِن غير وِلاد إبداءً أو إعادةً.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٥١.

٢ أي: أنّه قال له: وما شأن الطلح.

٣ بلفظ قريب في شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٥١؛ وجامع البيان للطبري، ٣٠٩/٢٢-٣١٠؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٢/٨.

٤ اللباب لابن عادل، ٣٩٧/١٨.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٢.

٦ في الآية الثانية والعشرين مِن هذه السورة.

٧ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٤٦/٤.

وفي الحديث: هنّ اللواتي قُبضنَ في دار الدنيا عجائزَ شُمْطًا رُمْصًا جعلهنّ الله تعالى بعد الكِبَر أترابًا على ميلاد واحد في الاستواء، كلّما أتاهنّ أزواجهن وجدوهنّ أبكارًا،[١] وذلك قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾. وقوله تعالى: ﴿عُرُبًا﴾ جمع "عَروب" وهي المتحبّبة إلى زوجها الحسنةُ التبعّل. وقُرئ: "عُرْبًا"[٢] بسكون "الراء" ﴿أَتْرَابًا﴾ مستويات في السنّ بنات ثلاث وثلاثين سنةً، وكذا أزواجهنّ.

و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ متعلِّقة بـ﴿أَنشَأْنَا﴾ أو ﴿جَعَلْنَا﴾ أو بـ﴿أَتْرَابًا﴾، كقولك: "هذا تِرْب لهذا"، أي: مساوٍ له في السنّ. وقيل: بمحذوف هو صفة لـ﴿أَبْكَارًا﴾، أي: كائنات لأصحاب اليمين أو خبرُ مبتدأ محذوف، / أي: هنَّ لأصحاب اليمين. وقيل: خبر لقوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾.[٣] وهو بعيد؛ بل هو خبر مبتدأ محذوف خُتِمت به قصّة أصحاب اليمين، أي: هم أمّة مِن الأوّلين وأمّة مِن الآخرين، وقد مرّ الكلام فيهما. وعن أبي العالية ومجاهد وعطاء والضحّاك: ثلّة مِن الأوّلين، أي: مِن سابقي هذه الأمّة، وثلّة مِن الآخرين مِن هذه الأمّة في آخر الزمان.[٤] وعن سعيد بن جُبير عن ابن عبّاس رضي الله عنهما في هذه الآية قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «هم جميعًا مِن أمّتي».[٥] [١٦٠و]

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۝٤٥ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤٦ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٤٧ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۝٤٨ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠﴾

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ شروع في تفصيل أحوالهم التي أشيرَ عند التنويع إلى هولها وفظاعتها بعد تفصيل حُسن حال أصحاب اليمين. والكلام في قوله تعالى:

---

١ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٣٢٠/٢٢-٣٢١؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٤/٨.

٢ قرأ بها حمزة وخلف وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢، ٣٨٣.

٣ القولان في اللباب لابن عادل، ٤٠٤/١٨.

٤ وفي هامش م: ثعلبي. | وهو في الكشف والبيان للثعلبي، ٤٨٤/٢٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٨/٨.

٥ الحديث في مسند الطيالسي، ٢٠٩/٢ (٩٢٧).

﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ عينُ ما فُصِل في نظيره. وكذا في قوله تعالى: ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ والسَّموم: حرُّ نار ينفذ في المسامّ، والحميم: الماء المتناهي في الحرارة.

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ مِن دخان أسودَ بهيم.

﴿لَّا بَارِدٍ﴾ كسائر الظلال ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ فيه خيرٌ ما في الجملة سُمّي ذلك ظلًّا، ثمّ نُفي عنه وَصْفاه البَرْد والكرَم الذي عُبّر به عن دفع أذى الحرّ لتحقيق أنّه ليس بظلّ. وقُرئ: "لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ"[١] بالرفع، أي: لا هو بارد ولا كريم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ تعليل لابتلائهم بما ذُكر مِن العذاب، أي:إنّهم كانوا قبل ما ذُكر مِن سوء العذاب في الدنيا منعَّمين بأنواع النِّعَم مِن المآكل والمشارب والمساكن الطيّبة والمقامات الكريمة منهمِكين في الشهوات، فلا جرمَ عُذّبوا بنقائضها.

﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: الذنب العظيم الذي هو الشِّرك، ومنه قولهم: "بلغ الغلامُ الحنثَ"، أي: الحُلم ووقتَ المؤاخذة بالذنب.

﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ﴾ لغاية عُتوّهم وعِنادهم ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ أي: كان بعض أجزائنا مِن اللحم والجلد ترابًا وبعضُها عظامًا نخرةً. وتقديم "التراب" لعراقته في الاستبعاد / وانقلابِه مِن الأجزاء البادية. و"إذا" متمحّضة للظرفيّة، [١٦٠ظ] والعامل فيها ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، لا نفسُه؛ لأنّ ما بعد "أنّ" و"اللام" و"الهمزة" لا يعمل فيما قبلها، وهو "نُبعَثُ"، وهو المرجع للإنكار.

وتقييدُه بالوقت المذكور ليس لتخصيص إنكاره به، فإنّهم منكِرون للإحياء بعد الموت وإن كان البدن على حاله؛ بل لتقوية الإنكار للبعث بتوجيهه إليه في حالة منافية له بالكلّيّة. وتكرير "الهمزة" لتأكيد النكير.

وتحلية الجملة بـ"أنّ" لتأكيد الإنكار لا لإنكار التأكيد كما عسى يُتوهَم مِن ظاهر النظم، فإنّ تقديم "الهمزة" لاقتضائها الصدارة، كما في مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة، ٤٤/٢] على رأي الجمهور، فإنّ المعنى عندهم تعقيبُ الإنكار

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٣.

لا إنكار التعقيب كما هو المشهور، وليس مدارُ إنكارهم كونَهم ثابتين في المبعوثيّة بالفعل في حال كونهم ترابًا وعظامًا؛ بل كونُهم بعرضيّة ذلك واستعدادُهم له، ومرجعُه إلى إنكار البعث بعد تلك الحالة، وفيه مِن الدلالة على غُلوّهم في الكفر وتماديهم في الضلال ما لا مزيدَ عليه.

وتكرير الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ لتأكيد النكير، و"الواو" للعطف على المستكنّ في ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾، وحَسُن ذلك للفصل بـ"الهمزة"، يعنُون أنّ بَعْث آبائهم الأوّلين أبعدُ مِن الوقوع. وقُرئ: "أَوْ آبَاؤُنَا".[١]

﴿قُلْ﴾ ردًّا لإنكارهم وتحقيقًا للحقّ ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ﴾ مِن الأمم الذين مِن جملتهم أنتم وآباؤكم، وفي تقديم الأوّلين مبالغة في الردّ حيث كان إنكارهم لبعث آبائهم أشدَّ مِن إنكارهم لبعثهم مع مراعاة الترتيب الوجودي. ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ بعد البعث. وقُرئ: "لَمُجَمَّعُونَ"[٢] ﴿إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ إلى ما وُقّتت به الدنيا مِن يوم معلوم، والإضافة بمعنى "مِن" كـ"خاتمُ فضّةٍ".

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝٥١ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝٥٢ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝٥٣ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝٥٤ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ۝٥٥ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٥٦﴾

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ﴾ عطفٌ على ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٣] داخل تحت القول، و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي زمانًا أو رتبةً. ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ أي: بالبعث، والخطاب لأهل مكّة وأضرابهم.

[١٦١و] ﴿لَأَكِلُونَ﴾ بعد البعث / والجمعِ ودخولِ جهنّم ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ ﴿مِن﴾ الأولى لابتداء الغاية والثانية لبيان الشجر، وتفسيره، أي: مبتدئون الأكل مِن شجر هو زقّوم. وقيل: ﴿مِن﴾ الثانية متعلّقة بمضمَر هو وصف لشجر، أي: كائن مِن زقّوم.[٤]

﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ أي: بطونكم مِن شدّة الجوع.

---

١ قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر وقالون. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٧.

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٤٧.

٣ في الآية التاسعة والأربعين مِن هذه السورة.

٤ القول في اللباب لابن عادل، ١٨/٤١٠.

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ﴾ عَقيبَ ذلك بلا ريث ﴿مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾ أي: الماء الحارّ في الغاية. وتأنيثُ ضمير "الشجر" أوّلًا وتذكيرُه ثانيًا باعتبار المعنى واللفظ. وقُرئ: "مِنْ شَجَرَةٍ"،[١] فضمير ﴿عَلَيۡهِ﴾ حينئذ للزقّوم، وقيل: للأكل.[٢]

وقوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾ كالتفسير لِما قبله على طريقة قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا﴾ [القمر، ٩/٥٤] أي: لا يكون شُربكم شُربًا معتادًا؛ بل يكون مثلَ شُرب الهِيم وهي الإبل التي بها الهُيام، وهو داء يُصيبها فتشرب ولا تروى، جمع "أهيَم وهَيْمَاء"، وقيل: الهِيَم: الرمال، على أنّه جمع الهَيام بفتح الهاء، وهو الرمل الذي لا يتماسك جمع على "فُعُل" كـ"سَحَاب" و"سُحُب"، ثمّ خُفِّف وفُعِل به ما فُعِل بجمع "أبيَض"،[٣] والمعنى أنّه يُسلَّط عليهم مِن الجوع والتهاب النار في أحشائهم ما يضطرّهم إلى أَكْل الزقّوم الذي هو كالمُهل، فإذا ملأوا منه بطونهم وهو في غاية المرارة والحرارة سُلِّط عليهم مِن العطش ما يضطرّهم إلى شُرب الحميم الذي يقطِّع أمعاءهم فيشربونه شُرب الهِيم.

وقُرئ: "شَرْبَ الهِيمِ"[٤] بالفتح وهو أيضًا مصدر، وقُرئ بالكسر[٥] على أنّه اسم المشروب.

﴿هَٰذَا﴾ الذي ذُكر مِن ألوان العذاب ﴿نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ أي: يومَ الجزاء فإذا كان ذلك نُزُلهم، وهو ما يُعدّ للنازل ممّا حَضَر، فما ظنُّك بما لهم بعد ما استقرّ لهم القرار واطمأنّت بهم الدار في النار؟ وفيه مِن التهكّم بهم ما لا يخفى. وقُرئ: "نُزْلُهُمْ"[٦] بسكون "الزاء" تخفيفًا. والجملةُ مسوقة مِن جهته تعالى بطريق الفذلكة مقرِّرة لمضمون الكلام الملقَّن غيرُ داخلة تحت القول.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٥٧.

٢ القول في اللباب لابن عادل، ٤١٠/١٨.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٤٨/٤.

٤ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٨٣/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبّاس عن أبي عمرو، والأعمش، وابن مُحيصن، وخارجة عن نافع. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٥٧.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ تلوين للخطاب وتوجيهٌ له إلى الكفرة بطريق الإلزام والتبكيت. و"الفاء" لترتيب التحضيض على ما قبلها، أي: فهلّا تصدِّقون بالخَلْق، فإنّ ما لا يحقِّقه العمل ولا يساعده بل ينبئ عن خلافه ليس مِن التصديق في شيء. وقيل: بالبعث / استدلالا عليه بالإنشاء، فإنّ مَن قَدَر [١٦١ظ] عليه قَدَر على الإعادة حتمًا.[1] والأوّل هو الوجه كما ستُحيط به خُبرًا.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ أي: تقذِفون في الأرحام مِن النُّطف. وقُرئ بفتح "التاء"[2] مِن "مَنَى النطفةَ" بمعنى أمناها.

﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ أي: تُقدِّرونه وتُصوِّرونه بشرًا سويًّا ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ له مِن غير دَخْل شيء فيه. و﴿أَمْ﴾ قيل: منقطعة لأنّ ما بعدها جملة، فالمعنى: بل أنحن الخالقون؟ على أنّ الاستفهام للتقرير، وقيل: متّصلة،[3] ومجيء ﴿ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ بعد ﴿نَحْنُ﴾ بطريق التأكيد لا بطريق الخبريّة أصالةً.

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: قسمناه عليكم ووقَّتنا موتَ كلّ أحد بوقت معيّن حسبما يقتضيه مشيئتنا المبنيّة على الحِكَم البالغة. وقُرئ: "قَدَرْنَا"[4] مخفَّفًا.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: إنّا قادرون ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَـٰلَكُمْ﴾ لا يغلبنا أحدٌ على أن نُذهِبكم ونأتيَ مكانكم أشباهَكم مِن الخلق ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مِن الخَلْق والأطوار ولا تعهدون بمثلها، قال الحسن رحمه الله: أي: نجعلكم قردةً وخنازيرَ.[5] وقيل: المعنى: ونُنشئكم في البعث على غير صوركم في الدنيا، فمَن هذا شأنه كيف يعجز عن إعادتكم.[6] وقيل: المعنى: وما يسبقنا أحد فيهرُبَ مِن الموت أو يغيِّر وقته.[7] و﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ﴾... إلخ، إمّا حال مِن فاعل ﴿قَدَّرْنَا﴾،

---

[1] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٤٨/٤.
[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي السَّمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٣.
[3] الوجهان في اللباب لابن عادل، ٤١٦/١٨.
[4] قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٨٣/٢.
[5] بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٠/٨.
[6] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٤٨/٤.
[7] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٦/٣.

أو علّة التقدير، و﴿عَلَىٰٓ﴾ بمعنى "اللام" وما بينهما اعتراض.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ هي خَلْقهم مِن نطفة ثمّ مِن علقة ثمّ مِن مُضغة. وقيل: هي فطرة آدمَ عليه السلام مِن التراب.[١] ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فهلّا تتذكّرون أنّ مَن قدَر عليها قدَر على النشأة الأخرى حتمًا، فإنّه أقلّ صنعًا لحصول الموادّ وتخصُّص الأجزاء وسبقِ المثال، وفيه دليلٌ على صحّة القياس. وقُرئ: "فَلَوْلَا تَذْكُرُونَ"[٢] مِن الثلاثي.

وفي الخبر: «عجبًا كلَّ العجب للمكذِّب بالنشأة الآخرة وهو يرى النشأة الأولى، وعجبًا للمصدِّق بالنشأة الآخرة وهو يسعى لدار الغرور».[٣]

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ أي: تبذرون حَبّه وتعملون في أرضه ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ تُنبتونه وتردُّونه نباتًا / يرِف ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ أي: المنبِتون لا أنتم، والكلام في ﴿أَمْ﴾ كما مرّ آنفًا. [١٦٢و]

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ هشيمًا متكسِّرًا متفتِّتًا بعد ما أنبتناه وصار بحيث طمعتم في حيازة غِلاله ﴿فَظَلْتُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ تتعجّبون مِن سوء حاله إثرَ ما شاهدتموه على أحسن ما يكون مِن الحال، أو تندمون على ما تعبتم فيه وأنفقتم عليه، أو على ما اقترفتم لأجله مِن المعاصي فتتحدَّثون فيه. والتفكّه: التنقّل بصنوف الفاكهة، وقد استُعير للتنقّل بالحديث.

وقُرئ: "تَفَكَّنُونَ"،[٤] أي: تتندّمون، وقُرئ: "فَظِلْتُمْ"[٥] بالكسر و"فَظَلِلْتُمْ"[٦] على الأصل.

---

[١] مرويّ عن قتادة والضحّاك في جامع البيان للطبري، ٢٢/٣٤٧-٣٤٨؛ واللباب لابن عادل، ١٨/٤١٨.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. اللباب لابن عادل، ١٨/٤١٨.

[٣] اللباب لابن عادل، ١٨/٤١٨.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن حزام العُكلي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٥٢.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وأبي حَيْوَة، والحسن عن أبي بكر عن عاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٣.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٣.

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ أي: لمُلزَمون غرامةَ ما أنفقنا أو مُهلَكون بهلاك رزقنا مِن "الغَرام" وهو الهلاك. وقُرئ: "أَئِنَّا"[١] على الاستفهام، والجملةُ على القراءتين مقدّرة بقول هو في حيّز النصب على الحاليّة مِن فاعل ﴿تَفَكَّهُونَ﴾، أي: قائلين أو تقولون: إنّا لمغرمون.

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ حُرِمنا رزقَنا أو محارَفون محدودون لا حظٌّ لنا ولا بَخْتَ لا مجدودون.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ عذبًا فراتًا، وتخصيص هذا الوصف بالذِّكر مع كثرة منافعه لأنَّ الشُّرب أهمُّ المقاصد المَنوطة به.

﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ أي: مِن السَّحاب، واحده "مُزْنة"، وقيل: هو السحاب الأبيض، وماؤه أعذبُ.[٢] ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ له بقدرتنا.

﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ مِلحًا زُعاقًا لا يمكن شُربه. وحذفُ "اللام" ههنا مع إثباتها في الشرطيّة الأولى للتعويل على عِلم السامع أو الفرقِ بين المطعوم والمشروب في الأهميّة وصعوبةِ الفقد، والشرطيّتان مستأنَفتان مسوقتان لبيان أنّ عصمته تعالى للزرع والماء عمّا يُخلّ بالتمتّع بهما نعمةٌ أخرى بعد نعمة الإنبات والإنزالِ مستوجبةٌ للشكر، فقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ تحضيض على شكر الكلّ.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ أي: تقدحونها وتستخرجونها مِن الزِّناد.

[١٦٢ظ] ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ / التي منها الزِّناد وهي المَرْخ والعَفار ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ لها بقدرتنا. والتعبير عن خَلْقها بالإنشاء المنبئ عن بديع الصُّنع

---

[١] قرأ بها أبو بكر. النشر لابن الجزري، ١/٣٧٢.
[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٤٩.

المُعربِ عن كمال القدرة والحكمة لِما فيه مِن الغرابة الفارقة بينها وبين سائر الأشجار التي لا تخلو عن النار، حتّى قيل: «في كلّ شجر نار، واستمجد المَرْخ والعَفار»،[١] كما أنّ التعبير عن نفخ الروح بالإنشاء في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون، ١٤/٢٣] لذلك.

وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ استئناف مبيّن لمنافعها، أي: جعلناها تذكيرًا لنار جهنّم حيث علّقنا بها أسباب المعاش لينظروا إليها ويذكّروا ما أُوعِدوا به مِن نار جهنّم أو تذكرةً وأُنمُوذجًا مِن نار[٢] جهنّم، لِما رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «ناركم هذه التي يُوقدها بنو آدم جزء مِن سبعين جزءًا مِن حرّ جهنّم».[٣] وقيل: تبصرةً في أمر البعث،[٤] فإنّه ليس بأبدعَ مِن إخراج النار مِن الشيء الرَّطْب.

﴿وَمَتَٰعًا﴾ ومنفعةً ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ للذين ينزلون القَواء وهي القَفْر، وتخصيصُهم بذلك لأنّهم أحوجُ إليها، فإنّ المقيمين أو النازلين بقُرب منهم ليسوا بمضطّرين إلى الاقتداح بالزِّناد. وقد جُوّز أن يراد بالمُقوين الذين خَلَت بطونهم ومزاودهم مِن الطعام.[٥] وهو بعيد لعدم انحصار ما يُهمهم ويسدّ خَلَلهم فيما لا يؤكل إلّا بالطبخ. وتأخير هذه المنفعة للتنبيه على أنّ الأهم هو النفع الأخروي.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ لترتيب ما بعدها على عددٍ مِن بدائع صُنعه تعالى وروائع نِعَمه الموجِبة لتسبيحه تعالى، إمّا تنزيهًا له تعالى عمّا يقوله الجاحدون بوحدانيّته تعالى الكافرون بنعمته مع عِظَمها وكثرتها، أو تعجُّبًا مِن أمرهم في غَمْط تلك النِّعَم الباهرة مع جلالة قدرها وظهور أمرِها، / أو شكرًا على تلك النِّعَم السابغة، أي: فأحدِث التسبيحَ بذِكر اسمه تعالى أو بذِكره، فإنّ إطلاق الاسم للشيء ذِكرٌ له. و﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ صفة لـ"الاسم" أو "الربّ". [١٦٣و]

---

[١] انظر: مجمع الأمثال للميداني، ٧٤/٢؛ وأورده في هذا الموضع ابن عادل في اللباب، ٤٢٥/١٨.

[٢] س ي - نار.

[٣] صحيح البخاري، ١٢١/٤ (٣٢٦٥)؛ صحيح مسلم، ٢١٨٤/٤ (٢٨٤٣)؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٥٠/٤.

[٤] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٧/٣.

[٥] هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٣٥٠/٤.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠﴾

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ أي: فأقسِمُ، و﴿لَآ﴾ مزيدة للتأكيد، كما في قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ﴾ [الحديد، ٢٩/٥٧]، أو "فلأَنَا أقسِمُ"، فحُذف المبتدأ وأُشبعَ فتحةُ لام الابتداء، ويعضده قراءة مَن قرأ: "فَلَأُقۡسِمُ"،[1] أو ﴿فَلَا﴾ ردٌّ لكلام يخالف المقسَم عليه. وأمّا ما قيل: مِن أنّ المعنى: فلا أُقسِم؛ إذِ الأمرُ أوضحُ مِن أن يحتاج إلى قسَم،[2] فيأباه تعيينُ المقسَم به وتفخيمُ شأن القسم به.

﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ أي: بمساقطها وهي مغاربها، وتخصيصُها بالقَسم لِما في غروبها مِن زوال أثرها والدلالةِ على وجود مؤثِّر دائم لا يتغيَّر، أو لأنّ ذلك وقتُ قيام المتهجِّدين والمبتهلين إليه تعالى وأَوَانُ نزول الرحمة والرضوان عليهم، أو بمنازلها ومجاريها، فإنّ له تعالى في ذلك مِن الدليل على عِظَم قدرته وكمالِ حكمته ما لا يحيط به البيان. وقيل: النجومُ نجوم القرآن ومواقُعها أوقاتُ نزولها.[3]

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ اعتراض في اعتراض قُصِد به المبالغة في تحقيق مضمون الجملة القسميّة وتأكيدُه، حيث اعتُرض بقوله تعالى:[4] ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ﴾ بين القسم وجوابه الذي هو قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ أي: كثيرُ النفع لاشتماله على أصول العلوم المهمّة في صلاح المعاش والمعادِ، أو حسنٌ مرضيٌّ، أو كريمٌ عند الله تعالى؛ وبقوله تعالى: ﴿لَّوۡ تَعۡلَمُونَ﴾ بين الموصوف وصفته، وجواب ﴿لَوۡ﴾ إمّا متروك أريدَ به نفيُ عِلمهم، أو محذوفٌ ثقةً بظهوره، أي: لَعظّمتموه أو لَعملتم بموجَبه.

﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ أي: مَصون مِن غير المقرَّبين مِن الملائكة لا يطَّلع عليه مَن سواهم وهو اللوح.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والثقفي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٣.

[2] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٧/٣.

[3] هذا القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٥١/٤.

[4] م - تعالى.

﴿لَا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ إمّا صفة أخرى لـ﴿كِتَٰبٍ﴾، فالمراد بالمُطهَّرين الملائكة المنزَّهون عن الكدورات الجسمانيّة وأوضارِ الأوزار، أو للقرآن، فالمرادُ هم المطهَّرون مِن الأحداث، فيكون نفيًا بمعنى النهي، أي: لا ينبغي أن يمسَّه إلّا مَن كان على طهارة مِن الناس، على طريقة قوله صلّى الله عليه وسلّم: «المسلمُ أخو المسلمِ لا يظلِمه ولا يُسلِمه»،[1] أي: لا ينبغي / له أن يظلِمه أو يسلِمَه إلى مَن يظلِمُه. وقيل: لا يطلبه إلّا المطهَّرون مِن الكفر.[2] [١٦٣ظ]

وقُرئ: "المُتَطَهِّرُونَ"،[3] و"المُطَّهِّرُونَ"[4] بالإدغام، و"المُطْهَرُونَ"[5] مِن "أطهَره" بمعنى "طهَّره"، و"المُطَهِّرُونَ"،[6] أي: أنفسَهم أو غيرَهم بالاستغفار أو غيرِه.

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ صفة أخرى لـ﴿قُرْءَانٌ﴾، وهو مصدر نُعت به حتّى جرى مَجرى اسمه. وقُرئ: "تَنْزِيلًا".[7]

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ الذي ذُكرت نعوته الجليلة الموجِبة لإعظامه وإجلاله وهو القرآن الكريم ﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ أي: متهاوِنون به كمَن يُدهِن في الأمر، أي: يلين جانبه ولا يتصلَّب فيه تهاونًا به.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ أي: شُكرَ رزقكم ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: تضعون التكذيب موضعَ الشكر. وقُرئ: "وَتَجْعَلُونَ شُكْرَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ"،[8] أي: تجعلون شُكركم لنعمة القرآن أنكم تكذِّبون به. وقيل: الرزق المطر،[9] والمعنى:

---

١ صحيح البخاري، ١٢٨/٣ (٢٤٤٢)؛ صحيح مسلم، ١٩٩٦/٤ (٢٥٨٠)؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٥١/٤.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٨/٣.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن سلمان الفارسي وابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٣.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٤.

٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٣٥١/٤.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبّاس عن ابن مسعود وزِرّ بن حُبيش. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٥٩.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب وابن عبّاس. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٤.

٩ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٥١/٤.

وتجعلون شُكر ما يرزقكم الله تعالى مِن الغيث أنّكم تكذِّبون بكونه مِن الله، حيث تنسبونه إلى الأنواء.

والأوّل هو الأوفَقُ لسِباق النظم الكريم وسياقِه، فإنّ قوله عزّ وجلّ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾... إلى آخره، تبكيتٌ مبنيٌّ على تكذيبهم بالقرآن فيما نطَق به قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ إلى هنا مِن القوارع الدالّة على كونهم تحت ملكوته تعالى مِن حيث ذواتُهم ومن حيث طعامهم وشرابهم وسائر أسباب معايشهم، كما ستقف عليه. و﴿لَوْلَا﴾ للتحضيض لإظهار عجزِهم، و﴿إِذَا﴾ ظرفيّة، أي: فهلّا إذا بلغت النفس، أي: الروح. وقيل: نفسُ أحدكم الحلقوم وتداعَت إلى الخروج.

[١٦٤و] ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ﴾ أيها الحاضرون حولَ صاحبها / ﴿تَنظُرُونَ﴾ إلى ما هو فيه مِن الغمرات.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ عِلمًا وقدرةً وتصرُّفًا ﴿مِنكُمْ﴾، حيث لا تعرفون مِن حاله إلّا ما تُشاهدونه مِن آثار الشدّة مِن غير أن تقِفوا على كُنهها وكيفيّتها وأسبابها، ولا أن تقدروا على دَفْع أدنى شيء منها، ونحن المتولُّون لتفاصيل أحواله بعِلمنا وقدرتنا، أو بملائكة الموت. ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ لا تُدرِكون ذلك لجهلكم بشئوننا.

﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي: غير مربوبين مِن "دان السلطانُ رعيّتَه" إذا ساسهم واستعبدهم ناظرًا إلى قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾،[١] فإنّ التحضيض يستدعي عدم المحضَّض عليه حتمًا.

وقوله تعالى: ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ أي: النفسَ إلى مقرّها، هو العامل في ﴿إِذَا﴾ والمحضَّض عليه بـ﴿لَوْلَا﴾ الأولى، والثانية مكرَّرة للتأكيد، وهي مع ما في حيّزها دليل جواب الشرط، والمعنى إن كنتم غير مربوبين كما ينبئ عنه عدمُ تصديقكم بخلقنا إيّاكم فهلّا ترجعون النفسَ إلى مقرّها عند بلوغها الحلقوم

---

[١] في الآية السابعة والخمسين مِن هذه السورة.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في اعتقادكم، فإنّ عدم تصديقهم بخالقيّته تعالى لهم عبارةٌ عن تصديقهم بعدم خالقيّته تعالى بموجَب مذهبهم.

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩﴾

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾... إلخ شروع في بيان حال المتوفّى بعد الممات إثرَ بيان حاله عند الوفاة، أي: فأمّا إن كان الذي بيِّن حاله مِن السابقين مِن الأزواج الثلاثة عُبِّر عنهم بأجلّ أوصافهم.

﴿فَرَوْحٌ﴾ أي: فله استراحةٌ. وقُرئ: "فَرُوحٌ"[1] بضمّ "الراء"، وفُسِّر بالرحمة؛ لأنّها سبب لحياة المرحوم وبالحياة الدائمة. ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ ورزق ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ أي: ذات تنعُّم.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١﴾

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ / عُبِّر عنهم بالعنوان السابق؛ إذ لم يُذكَر لهم فيما سبق وصف واحد ينبئ عن شأنهم سواه، كما ذُكر للفريقين الآخرين. [١٦٤ظ]

وقوله تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ إخبار مِن جهته تعالى بتسليم بعضهم على بعض، كما يُفصِح عنه "اللام"، لا حكايةُ إنشاء سلامٍ بعضهم على بعض، وإلّا لَقيل: "عليك". والالتفاتُ إلى خطاب كلّ واحد منهم للتشريف.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤﴾

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهم أصحاب الشِّمال عُبِّر عنهم بذلك حسبما وُصِفوا به عند بيان أحوالهم بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾[2] ذمًّا لهم بذلك وإشعارًا بسبب ما ابتُلوا به مِن العذاب.

﴿فَنُزُلٌ﴾ أي: فله نزُلٌ كائن ﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾ يُشرَب بعد أكل الزقّوم، كما فُصِّل فيما قبل.

---

[1] قرأ بها رُويس. النشر لابن الجزري، ٣٨٣/١.

[2] في الآية الحادية والخمسين مِن هذه السورة.

﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي: إدخال في النار. وقيل: إقامةٌ فيها ومُقاساة لألوان عذابها.[١] وقيل: ذلك ما يجده في القبر مِن سموم النار ودخانها.[٢]

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٩٥ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٩٦﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: الذي ذُكر في السورة الكريمة ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ أي: حقّ الخبر اليقين. وقيل: الحقّ الثابت مِن اليقين.[٣]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ لترتيب التسبيح أو الأمر به على ما قبلها، فإنّ حقّيّة ما فُصِل في تضاعيف السورة الكريمة ممّا يوجب تنزيهه تعالى عمّا لا يليق بشأنه الجليل مِن الأمور التي مِن جملتها الإشراكُ به والتكذيبُ بآياته الناطقة بالحقّ.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الواقعة في كلّ ليلة لم تُصبه فاقة أبدًا».[٤]

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ٤٤٨/١٨.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٦٩/٣.

٣ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣٥٢/٤.

٤ بلفظ قريب في فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل، ٧٢٦/٢ (١٢٤٧)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ١١٩/٤ (٢٢٦٨)؛ وبلفظه في الكشف والبيان للثعلبي، ٤٠١/٢٥ (الواقعة، ١/٥٦)؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٥٣/٤.

سورة الحديد

مكيّة، وهي تسع وعشرون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ التسبيح تنزيه الله تعالى اعتقادًا / وقولًا [١٦٥و] وعملًا عمّا لا يليق بجَنابه سبحانه مِن "سبَّح في الأرض والماء" إذا ذهب وأبعد فيهما، وحيث أُسنِد ههنا إلى غير العقلاء أيضًا فإنّ ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعمّ جميع ما فيهما سواءٌ كان مستقرًّا فيهما أو جزءًا منهما، كما مرّ في آية الكرسي. أريدَ به معنى عامّ مجازيٌّ شامل لِما نطق به لسانُ المقال كتسبيح الملائكة والمؤمنين مِن الثقلين ولسانُ الحال كتسبيح غيرهم، فإنّ كلّ فرد مِن أفراد الموجودات يدلّ بإمكانه وحدوثه على الصانع القديم الواجبِ الوجودِ المتّصف بالكمال المنزَّه عن النقصان، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء، ٤٤/١٧]، وهو متعدّ بنفسه، كما في قوله تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ [الفتح، ٩/٤٨].

و"اللام" إمّا مزيدة للتأكيد، كما في "نصحتُ له وشكرتُ له" أو للتعليل، أي: فَعَلَ التسبيح لأجل الله تعالى وخالصًا لوجهه. ومجيئُه في بعض الفواتح ماضيًا وفي البعض مضارعًا للإيذان بتحقّقه في جميع الأوقات. وفيه تنبيهٌ على أنّ حقّ مَن مِن شأنه التسبيح الاختياري أن يسبِّحه تعالى في جميع أوقاته، كما عليه الملأ الأعلى، حيث يسبِّحون الليلَ والنهار لا يفتُرون.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادر الغالب الذي لا يُمانعه ولا ينازِعه شيء ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلّا ما يقتضيه الحكمة والمصلحة. والجملة اعتراضٌ تذييلي مقرّر لمضمون ما قبله مشعِر بعلّة الحُكم، وكذا[١] قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: التصرّف الكلّي فيهما وفيما فيهما مِن الموجودات، مِن حيث الإيجادُ والإعدام وسائر التصرّفات ممّا نعلمه وما لا نعلمه.

وقوله تعالى: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ استئناف مبيّن لبعض أحكام المُلك. وجعلُه حالًا مِن ضمير ﴿لَهُۥ﴾[٢] ليس كما ينبغي. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن الأشياء التي مِن جُملتها ما ذُكر مِن الإحياء والإماتة ﴿قَدِيرٌ﴾ مبالِغٌ في القدرة.

[١٦٥ظ] ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ السابق على سائر الموجودات / لِما أنّه مُبدئها ومُبدعها ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾ الباقي بعد فنائها حقيقةً أو نظرًا إلى ذاتها مع قطع النظر عن مُبْقِيها، فإنّ جميع الموجودات الممكنة إذا قُطع النظر عن علّتها فهي فانية.

﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ وجودًا لكثرة دلائله الواضحة ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ حقيقةً فلا تحوم حولها العقول. و"الواو" الأولى والأخيرة للجمع بين الوصفين المكتنفين بهما، والوسطى للجمع بين المجموعين فهو متّصف باستمرار الوجود في جميع الأوقات والظهور والخفاء.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يعزب عن عِلمه شيء مِن الظاهر والخفيّ.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ[٣] ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بيان لبعض أحكام مُلكهما، وقد مرّ تفسيره مرارًا. ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ مرّ بيانه في سورة سبأ.[٤]

---

١ وفي هامش م: أي: في الإشعار بها. «منه».
٢ هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٥٤.
٣ م س – في ستّة أيّام.
٤ في الآية الثانية منها.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ تمثيل لإحاطة عِلمه تعالى بهم وتصويرٌ لعدم خروجهم عنه أينما داروا. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ عبارة عن إحاطته بأعمالهم، فتأخيرُه عن الخلق لِما أنّ المراد به ما يدور عليه الجزاء مِن العِلم التابع للمعلوم، لا لِما قيل: مِن أنّه دليل عليه.[1]

وقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تكرير للتأكيد وتمهيدٌ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: إليه وحدَه لا إلى غيره استقلالًا أو اشتراكًا ترجع جميع الأمور، على البناء للمفعول مِن "رَجَع رَجْعًا". وقُرئ على البناء للفاعل[2] مِن "رَجَع رُجوعًا".

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ مرّ تفسيره مرارًا. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ﴾ أي: مبالِغ في العِلم ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بمكنوناتها اللازمة لها، بيانٌ لإحاطة عِلمه تعالى بما يُضمِرونه مِن نيّاتهم بعد بيان إحاطته بأعمالهم التي يُظهرونها.

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٩﴾

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ أي: جعلكم خلفاء في التصرّف فيه مِن غير أن تملكوه حقيقةً، عُبّر عمّا بأيديهم مِن الأموال والأرزاق بذلك تحقيقًا للحقّ وترغيبًا لهم في الإنفاق، / فإنّ مَن عَلِم أنّها لله عزّ وجلّ وإنّما هو بمنزلة الوكيل يصرّفها إلى ما عيّنه الله تعالى مِن المصارف هان عليه الإنفاقُ؛ أو جَعَلكم خلفاءَ ممّن قبلكم فيما كان بأيديهم بتوريثه إيّاكم، فاعتبِروا بحالهم حيث انتقل منهم إليكم وسينتقل منكم إلى مَن بعدكم، فلا تبخلوا به. [١٦٦و]

---

[1] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٧١.

[2] قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٠٩.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ﴾ حسبما أُمِروا به ﴿لَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾. وفيه مِن المبالغات ما لا يخفى، حيث جُعِل الجملة اسميّة، وأعيدَ ذِكرُ الإيمان والإنفاقِ وكُرِّر الإسنادُ وفخِّم الأجرُ بالتنكير ووُصِف بالكبير.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ استئناف مسوق لتوبيخهم على تَرْك الإيمان حسبما أُمِروا به بإنكار أن يكون لهم في ذلك عذرٌ ما في الجملة، على أنّ ﴿لَا تُؤْمِنُونَ﴾ حال مِن الضمير في ﴿لَكُمْ﴾، والعامل ما فيه مِن معنى الاستقرار، أي: أيُّ سببٍ[1] حصل لكم غيرَ مؤمنين، على توجيه الإنكارِ والنفي إلى السبب فقط، مع تحقّق المسبَّب لا إلى السبب والمسبَّب جميعًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [يس، ٣٦/٢٢].

فإنّ همزة الاستفهام كما تكون تارةً لإنكار الواقع كما في "أتضربُ أباك؟" وأخرى لإنكار الوقوع كما في "أأضرِب أبي؟"، كذلك "ما" الاستفهاميّة قد تكون لإنكار سبب الواقع ونفيه فقط، كما فيما نحن فيه، وفي قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح، ٧١/١٣]، فيكون مضمون الجملة الحاليّة محقّقًا، فإنّ كلًّا مِن عدم الإيمان وعدمِ الرجاء أمرٌ محقَّق قد أُنكِر ونُفيَ سببُه، وقد تكون لإنكار سبب الوقوع ونفيه فيسريان إلى المسبَّب أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ﴾... إلخ [يس، ٣٦/٢٢]، فيكون مضمون الجملة الحاليّة مفروضًا قطعًا، فإنّ عدم العبادة أمرٌ مفروضٌ حتمًا قد أُنكِر ونُفيَ سببُه فانتفى نفسه أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ﴾ حال مِن ضمير ﴿لَا تُؤْمِنُونَ﴾ مفيدةٌ لتوبيخهم على الكفر مع تحقّق ما يُوجِب عدمَه بعد توبيخهم عليه مع عدم ما يُوجِبه، أي: وأيُّ / عُذر في تَرْك الإيمان، والرسولُ يدعوكم إليه وينبّهكم عليه. [١٦٦ظ]

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ حال مِن مفعول ﴿يَدْعُوكُمْ﴾، أي: وقد أخَذ الله تعالى ميثاقكم بالإيمان مِن قبلُ، وذلك بنَصْب الأدلّة والتمكينِ مِن النظر.

---

١ م س: شيء [صُحّح في هامش م].

وقُرئ: "وَقَدْ أُخِذَ"[١] مبنيًا للمفعول برفع "مِيثَاقُكُمْ". ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لموجِبٍ ما، فإنّ هذا مُوجِب لا مُوجِبَ وراءه.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ﴾ حسبما يعِنّ لكم مِن المصالح ﴿ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ﴾ واضحاتٍ ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ أي: الله تعالى أو العبدُ بها ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ مِن ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث يهديكم إلى سعادة الدارين بإرسال الرسول وتنزيلِ الآيات بعد نَصْب الحُجج العقليّة.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ توبيخ لهم على ترك الإنفاق المأمور به بعد توبيخهم على ترك الإيمان بإنكار أن يكون لهم في ذلك أيضًا عُذرٌ مِن الأعذار. وحَذفُ المفعول لظهور أنّه الذي بيِّن حاله فيما سبق وتعيينُ المُنفَقِ فيه لتشديد التوبيخ، أي: وأيُّ شيء لكم في ألّا تنفقوا فيما هو قُربة إلى الله تعالى ما هو له في الحقيقة، وإنّما أنتم خلفاؤه في صَرْفه إلى ما عيَّنه مِن المصارف.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حال مِن فاعل ﴿لَا تُنفِقُوا۟﴾ ومفعولِه مؤكِّدةٌ للتوبيخ، فإنّ ترك الإنفاق بغير سبب قبيحٌ منكَرٌ، ومع تحقّق ما يُوجِب الإنفاقَ أشدُّ في القبح وأدخَلُ في الإنكار، فإنّ بيان بقاءِ جميع ما في السماوات والأرض مِن الأموال بالآخرة لله عزّ وجلّ مِن غير أن يبقى مِن أصحابها أحدٌ أقوى في إيجاب الإنفاق عليهم مِن بيان أنّها لله تعالى في الحقيقة، وهم خلفاؤه في التصرّف فيها، كأنّه قيل: وما لكم في ترك إنفاقها في سبيل الله / والحالُ أنّه لا يبقى لكم منها شيء؛ بل تبقى كلّها لله تعالى. وإظهارُ الاسم الجليل في موقع الإضمار لزيادة التقرير وتربيةِ المهابة. [١٦٧و]

---

[١] قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٨٤/٢.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ بيان لتفاوت درجاتِ المنفِقين حسب تفاوت أحوالهم في الإنفاق بعد بيان أنّ لهم أجرًا كبيرًا على الإطلاق حثًا لهم على تحرّي الأفضل. وعطفُ القتال على الإنفاق للإيذان بأنّه مِن أهمّ موادّ الإنفاق مع كونه في نفسه مِن أفضل العبادات، وأنّه لا يخلو مِن الإنفاق أصلًا. وقسيمُ ﴿مَنْ أَنفَقَ﴾ محذوفٌ لظهوره ودلالةِ ما بعده عليه. وقُرئ: "قَبلَ الفَتْحِ"[1] بغير ﴿مِن﴾، والفتحُ فتح مكّة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى ﴿مَنْ أَنفَقَ﴾، والجمعُ بالنظر إلى معنى ﴿مَنْ﴾، كما أنّ إفراد الضميرين السابقين بالنظر إلى لفظها. وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمشار إليه للإشعار ببُعد منزلتهم وعُلوّ طبقاتهم في الفضل، ومحلُّه الرفع على الابتداء، أي: أولئك المنعوتون بذينك النعتين الجميلين ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ وأرفعُ منزلةً ﴿مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾؛ لأنّهم إنّما فعلوا ما فعلوا مِن الإنفاق والقتالِ قبل عزّة الإسلام وقوّة أهله عند كمال الحاجة إلى النُّصرة بالنفس والمال، وهم السابقون الأوّلون مِن المهاجرين والأنصارِ الذين قال فيهم النبي صلّى الله عليه وسلّم: «لو أنفق أحدُكم مثلَ أحُدٍ ذهبًا ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نَصيفه»،[2] وهؤلاء فعلوا ما فعلوا بعد ظهور الدِّين ودخولِ الناس فيه أفواجًا وقلّةِ الحاجة إلى الإنفاق والقتال.

﴿وَكُلًّا﴾ أي: كلَّ واحد مِن الفريقين ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي: المثوبة الحسنى، وهي الجنّة لا الأوّلين فقط. وقُرئ: "وَكُلٌّ"[3] بالرفع على الابتداء، أي: وكلٌّ وَعَده الله تعالى... إلخ.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ بظواهره وبواطنه فيجازيكم بحسبه. وقيل: نزلت الآية في أبي بكر رضي الله عنه، فإنّه أوّل مَن آمن، وأوّل مَن أنفق في سبيل الله، وخاصم الكفّار حتّى ضُرب ضربًا أشرفَ به على الهلاك.[4]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٦٢.

٢ صحيح البخاري، ٨/٥ (٣٦٧٣)؛ صحيح مسلم، ١٩٦٧/٤ (٢٥٤٠)؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٥٦/٤.

٣ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٨٤/٢.

٤ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٣٣/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٥٦/٤.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١١﴾

وقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ / ندبٌ بليغ مِن الله تعالى [١٦٧ظ] إلى الإنفاق في سبيله بعد الأمر به والتوبيخ على تركه وبيانِ درجات المنفِقين، أي: مَن ذا الذي ينفق ماله في سبيله تعالى رجاءَ أن يُعوِّضه، فإنّه كمَن يُقرِضه. وحُسنُ الإنفاق بالإخلاص فيه وتحرّي أكرمِ المال وأفضلِ الجهات.

﴿فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ بالنصب على جواب الاستفهام باعتبار المعنى، كأنّه قيل: أيُقرِض الله أحدٌ فيضاعفه له؟ أي: فيُعطيه أجرَه أضعافًا. ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: وذلك الأجر المضمومُ إليه الأضعافُ كريمٌ في نفسه حقيقٌ بأن يتنافس فيه المتنافسون وإن لم يُضاعَف، فكيف وقد ضُوعِف أضعافًا كثيرة. وقُرئ بالرفع[١] عطفًا على ﴿يُقْرِضُ﴾، أو حملًا على تقدير مبتدأ، أي: فهو يُضاعفه. وقُرئ: "يُضعِّفه" بالرفع[٢] وبالنصب.[٣]

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢﴾

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ ظرف لقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾،[٤] أو لقوله تعالى: ﴿فَيُضَـٰعِفَهُۥ﴾، أو منصوب بإضمار "اذكر" تفخيمًا لذلك اليوم، وقولُه تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ حال مِن مفعول ﴿تَرَى﴾. قيل: نورهم الضياء الذي يُرى ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم﴾.[٥] وقيل: هو هداهم و﴿بِأَيْمَـٰنِهِم﴾ كُتبهم، أي: يسعى إيمانهم وعملُهم الصالح بين أيديهم، وفي أيمانهم كُتب أعمالهم.[٦] وقيل: هو القرآن.[٧]

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٢٨/٢.

٢ قرأ بها ابن كثير وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٢٨/٢.

٣ قرأ بها ابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٢٨/٢.

٤ في الآية السابقة.

٥ القول في اللباب لابن عادل، ٤٦٨/١٨.

٦ مرويّ عن الضحّاك في جامع البيان للطبري، ٣٩٨/٢٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٥/٨.

٧ القول في اللباب لابن عادل، ٤٦٩/١٨.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «يؤتَون نورهم على قَدْر أعمالهم، فمنهم مَن يُؤتى نورَه كالنخلة، ومنهم مَن يُؤتى كالرجل القائم، وأدناهم نورًا مَن نوره على إبهام رجله ينطفئ تارةً ويلمع أخرى».[١] قال الحسن: يستضيئون به على الصراط. وقال مقاتل: يكون لهم دليلًا إلى الجنة.[٢]

﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾ مقدَّر بقول هو حال أو استئناف، أي: يقال لهم: بشراكم، أي: ما تبشَّرون به جنّاتٌ، أو بشراكم دخولُ جنّات. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن النور والبشرى بالجنان المخلَّدة ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا غايةَ وراءه. وقُرئ: "ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ".[٣]

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ بدل مِن ﴿يَوْمَ تَرَى﴾ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا﴾ أي: انتظرونا، يقولون ذلك لِما أنّ المؤمنين يُسرَع بهم إلى الجنّة كالبروق الخاطفة على ركاب تزفّ بهم وهؤلاء مُشاة، أو انظروا إلينا فإنّهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بالنور الذي بين أيديهم. وقُرئ: "أَنْظِرُونَا"[٤] مِن "النَّظِرَة" وهي الإمهال، جُعل اتّئادهم في المُضيّ إلى أن يلحقوا بهم إنظارًا لهم. ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي: نستضئ منه، وأصله اتّخاذ القَبَس.

﴿قِيلَ﴾ طردًا لهم وتهكّمًا بهم مِن جهة المؤمنين أو جهة الملائكة ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾ أي: إلى الموقف ﴿فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ فإنّه مِن ثمّة يُقتبَس، أو إلى الدنيا فالتمسوا النور بتحصيل مباديه مِن الإيمان والأعمال الصالحة، أو ارجعوا خائبين خاسئين فالتمسوا نورًا آخرَ، وقد علموا ألّا نورَ وراءهم وإنّما قالوه تخييبًا لهم، أو أرادوا بالنور ما وراءهم مِن الظلمة الكثيفة تهكّمًا بهم.

---

١ معالم التنزيل للبغوي، ٣٥/٨.
٢ القولان في اللباب لابن عادل، ٤٦٩/١٨.
٣ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٣٥٦/٤.
٤ قرأ بها حمزة. النشر لابن الجزري، ٣٨٤/٢.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ بين الفريقين ﴿بِسُورٍ﴾ أي: حائط، و"الباء" زائدة ﴿لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ﴾ أي: باطن السور أو الباب: وهو الجانب الذي يلي الجنّةَ. ﴿فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ﴾ وهو الطرف الذي يلي النارَ ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ مِن جهته ﴿ٱلْعَذَابُ﴾. / وقُرئ: "فَضَرَبَ"[1] على البناء للفاعل. [١٦٨ظ]

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾

﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ استئناف مبنيّ على السؤال، كأنّه قيل: فماذا يفعلون بعد ضَرْب السُّور ومشاهدةِ العذاب فقيل: يُنادونهم: ﴿أَلَمْ نَكُن﴾ في الدنيا ﴿مَّعَكُمْ﴾ يريدون به موافقتَهم لهم في الظاهر. ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ كنتم معنا بحسب الظاهر ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ محنتموها بالنفاق وأهلكتموها ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالمؤمنين الدوائر ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ في أمر الدين ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ الفارغةُ التي مِن جملتها الطمعُ في انتكاس أمر الإسلام ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: الموت ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ﴾ الكريم ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ أي: غرّكم الشيطان بأنّ الله عفوٌّ كريم لا يعذّبكم. وقُرئ: "الغُرُور"[2] بالضمّ.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ فِداء، وقُرئ: "تُؤخَذُ"[3] بـ"التاء"، ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: ظاهرًا وباطنًا ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ لا تبرحونها أبدًا ﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: أولى بكم، وحقيقتُه مكانُكم الذي يقال فيه: "هو أولى بكم"، كما يقال: "هو مَئِنّة الكرم"، أي: مكان لقول القائل: "إنّه لكريمٌ"، أو مكانُكم عن قريب مِن "الوَلْي" وهو القُرب، أو ناصركم على طريقة قوله:

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عُمير وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٥.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن سِماك بن حرب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٥.

[3] قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٤.

تحيّةُ بينهم ضربٌ وجيعُ[١]

أو متولّيكم، تتولّاكم كما توليتُم موجِباتِها. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: النار.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ استئنافٌ ناعٍ عليهم تثاقلَهم في أمور الدِّين ورخاوةَ عقدهم فيها واستبطاءٌ لانتدابهم لِما نُدبوا إليه بالترغيب والترهيب. ورُوي أنّ المؤمنين كانوا مُجدِبين بمكّة، فلمّا هاجروا أصابوا الرزق والنعمة وفتروا عمّا كانوا عليه، فنزلت.[٢] وعن ابن مسعود رضي الله عنه: ما كان بين إسلامنا وبين أن عُوتبنا بهذه الآية إلّا أربعُ سنين.[٣] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: إنّ الله تعالى استبطأ / قلوبَ المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاثَ عشرةَ سنةً مِن نزول القرآن،[٤] أي: ألم يجئ وقتُ أن تخشع قلوبهم لذِكره تعالى وتطمئنّ به ويُسارعوا إلى طاعته بالامتثال بأوامره والانتهاء عمّا نُهوا عنه مِن غير توانٍ ولا فتور، مِن "أَنَى الأمرُ" إذا جاء إناهُ، أي: وقته. [١٦٩و]

وقُرئ: "أَلَمْ يَئِنْ"[٥] مِن "آنَ يئينُ" بمعنى "أنى"، وقُرئ: "أَلَمَّا يَأْنِ"،[٦] وفيه دلالةٌ على أنّ المنفيّ مُتوقَّع.

---

[١] عجُز بيت أوّله:

وخيلٍ قد دلفتُ لها بخيلٍ

والبيت لعمرو بن مَعْديكَرِب الزُّبيدي في ديوانه، ص ١٤٩، ولمُحقِّقه تفصيل في تخريجه ونسبته. وقال البغدادي فيه: «وهذا البيت نَسَبه شُرّاح أبيات الكتاب وغيرهم إلى عمرو بن مَعْديكَرِب الصحابي، ولم أره في شعره. والعجبُ مِن شيخنا الشهاب الخَفاجي أنّه نسبه إليه في حاشية البيضاوي. وقال: "هو مِن قصيدة مسطورة له في المُفضَّليّات"، مع أنّه غير موجود شعره في المُفضَّليّات لا مِن كثيره ولا مِن قليله». خزانة الأدب، ٢٦٥/٩. والبيت معزوّ لعمرو في كتاب سيبويه، ٥٠/١؛ والنوادر لأبي زيد، ص ٤٢٨.

[٢] بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٣٥٧/٤.

[٣] بلفظ قريب في صحيح مسلم، ٢٣١٩/٤ (٣٠٢٧)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٧/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٥٧/٤.

[٤] بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٣٧/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٥٨/٤.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٦٤.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن إسماعيل بن الحسن. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٦٤.

﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: القرآن، وهو عطف على ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فإن كان هو المراد به أيضًا فالعطف لتغاير العنوانين، فإنّه ذِكر وموعظة كما أنّه حقّ نازل مِن السماء، وإلّا فالعطف كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال، ٨/٢]، ومعنى الخشوع له الانقياد التامّ لأوامره ونواهيه والعكوفُ على العمل بما فيه مِن الأحكام التي مِن جملتها ما سبَق وما لحِق مِن الإنفاق في سبيل الله تعالى. وقُرئ: "نُزِّل" مِن "التنزيل" مبنيًا للمفعول[١] ومبنيًّا للفاعل،[٢] و"أَنْزَلَ".[٣]

﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ عطفٌ على ﴿تَخْشَعَ﴾. وقُرئ بـ"التاء"[٤] على الالتفات؛ للاعتناء بالتحذير. وقيل: هو نهيٌ عن مماثلة أهل الكتاب في قسوة القلوب بعد أن وُبِخوا، وذلك أنّ بني إسرائيلَ كان الحقّ يحول بينهم وبين شهواتهم، وإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا لله تعالى ورقَّت قلوبهم،[٥] ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ أي: الأجل -وقُرئ: "الأَمَدّ"[٦] بتشديد "الدال"، أي: الوقت الأطوَل- وغَلَبهم الجفاء وزالت عنهم الرَّوعة التي كانت تأتيهم[٧] مِن الكتابَين، ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فهي كالحجارة أو أشدّ قسوةً. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: خارجون عن حدود دينهم رافضون لِما في كتابهم بالكلّيّة.

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ تمثيل لإحياء القلوب القاسية بالذِّكر والتلاوة بإحياء الأرض الميتة بالغيث للترغيب في الخشوع والتحذير عن القساوة.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ التي مِن جملتها هذه الآيات ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كي تعقِلوا ما فيها وتعملوا / بموجَبها فتفوزوا بسعادة الدارين. [١٦٩ظ]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبّاس ويونس عن أبي عمرو. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٦٥.

٢ قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو والكسائي وحمزة وأبو جعفر وخلف ورَوح، ورُويس بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والحسن والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٦٥.

٤ قرأ بها رُويس. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٤.

٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٥٨.

٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٥٨.

٧ س: تعتريهم.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ١٨﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ أي: المتصدِّقين والمتصدِّقات، وقد قُرئ كذلك،[١] وقُرئ بتخفيف "الصاد"[٢] مِن التصديق، أي: الذين صدَّقوا الله ورسوله ﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قيل: هو عطفٌ على ما في ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ مِن معنى الفعل، فإنّه في حُكم الذين اصّدّقوا أو صَدَّقوا على القراءتين.[٣] وعُقِّب بأنّ فيه فصلًا بين أجزاء الصلة بأجنبيّ وهو ﴿ٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾. وأجيبَ بأنّ المعنى: إنّ الناس الذين تصدّقوا وتصدّقنَ وأقرضوا، فهو عطفٌ على الصلة مِن حيث المعنى مِن غير فصل.[٤]

وقيل: إن ﴿ٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ ليس بعطف على ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ بل هو منصوب على الاختصاص،[٥] كأنّه قيل: إنّ المصّدّقين على العموم تغليبًا وأخصُّ المصّدِّقات مِن بينهم، كما تقول: إنّ الذين آمنوا ولا سيّما العلماءُ منهم وعملوا الصالحات لهم كذا، لكن لا على أنّ مدار التخصيص مزيدُ استحقاقهنّ لمضاعفة الأجر كما في المثال المذكور؛ بل زيادةُ احتياجهنّ إلى التصدّق الداعيةُ إلى الاعتناء بحثهنّ على التصدّق، لِما رُوي أنّه عليه السلام قال: «يا معشرَ النساء تصدَّقنَ، فإنّي أُريتُكنّ أكثرَ أهل النار».[٦]

وقيل: هو صلة لموصول محذوف معطوفٍ على ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾، كأنّه قيل: والذين أقرضوا.[٧]

والقرضُ الحسَن عبارة عن التصدّق مِن الطيِّب عن طِيبة النفس وخلوصِ النيّة على المستحِقّ للصدقة.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٦٥.

٢ قرأ بها ابن كثير وأبو بكر. **النشر** لابن الجزري، ٣٨٤/٢.

٣ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٣٥٨/٤.

٤ التعقيب والجواب للفالي في **التقريب في التفسير** ١٨٨ظ، ونقلهما عنه الطِّيبي في **فتوح الغيب**، ٢٤٧/١٥.

٥ ما وقفتُ على هذا القول فيما بين يديّ مِن المظانّ.

٦ **صحيح البخاري**، ٦٨/١ (٣٠٤)؛ **صحيح مسلم**، ٨٦/١ (٧٩).

٧ القول في **اللباب** لابن عادل، ٤٨٤/١٨.

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ على البناء للمفعول مسندًا إلى ما بعده مِن الجارّ والمجرور. وقيل: إلى مصدر ما في حيّز الصلة على حذف مضاف، أي: ثوابُ التصدّق.[١] وقُرئ على البناء للفاعل،[٢] أي: يُضاعِف الله تعالى. وقُرئ: "يُضَعَّفُ"[٣] بتشديد العين وفتحها.[٤] ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ مرّ ما فيه مِن الكلام.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝١٩﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ كافّةً، وقد مرّ بيانُ كيفيّة الإيمان بهم في خاتمة سورة البقرة.[٥] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ / إشارة إلى الموصول الذي هو مبتدأ، وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمشار إليه قد مرّ سرّه مرارًا، وهو مبتدأ ثانٍ، وقوله تعالى: ﴿هُمُ﴾ مبتدأ ثالث خبرُه ﴿ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ﴾، وهو مع خبره خبرٌ للثاني، وهو مع خبره خبرٌ للأول، أو ﴿هُمُ﴾ ضمير الفصل، وما بعده خبرٌ لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، والجملةُ خبرٌ للموصول، أي: أولئك ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ بمنزلة الصدِّيقين والشهداء المشهورين بعُلوّ الرُّتبة ورِفعة المحلّ، وهم الذين سبقوا إلى التصديق واستُشهدوا في سبيل الله تعالى، أو هم المبالغون في الصِّدق حيث آمنوا وصدَّقوا جميعَ أخباره تعالى ورسلَه، والقائمون بالشهادة لله تعالى بالوحدانيّة، ولهم بالإيمان أو على الأمم يوم القيامة. [١٧٠و]

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ بيان لثمرات ما وُصفوا به مِن نُعوت الكمال، على أنّه جملة مِن مبتدأ وخبر، محلُّها الرفع على أنّه خبر ثانٍ للموصول، أو الخبرُ هو الجارّ وما بعده مرتفعٌ به على الفاعليّة، والضميرُ الأوّل على الوجه الأوّل للموصول والأخيران للصدِّيقين والشهداء، أي: لهم مِثلُ أجرهم ونورهم المعروفَين بغاية الكمال وعزّة المنال.

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ١٨/٤٨٤.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٥.
٣ قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٨.
٤ وفي هامش م: لباب. | انظر: اللباب لابن عادل، ١٨/٤٨٤.
٥ في تفسير البقرة، ٢/٢٨٥.

وقد حُذف أداة التشبيه تنبيهًا على قوّة المماثلة وبلوغها حدَّ الاتّحاد، كما فُعل ذلك حيث قيل: هم الصدِّيقون والشهداء، وليست المماثلة بين ما للفريق الأوّلِ مِن الأجر والنور وبين تمامِ ما للفريقين الأخيرين؛ بل بين تمام ما للأوّل مِن الأصل والأضعاف وبين ما للأخيرين مِن الأصل بدون الأضعاف، وأمّا على الوجه الثاني فمرجع الكلّ واحد، والمعنى لهم الأجر والنور الموعودان لهم. هذا هو الذي يقتضيه جزالة النظم الكريم. وقد قيل: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ مبتدأ و﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ خبره، وقيل: الخبر ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾... إلخ.[١]

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفة القبيحة ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ بحيث لا يفارقونها / أبدًا. [١٧٠ظ]

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝٢٠﴾

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ بعد ما بُيِّن حال الفريقين في الآخرة، شُرح حال الحياة الدنيا[٢] التي اطمأنّ بها الفريق الثاني، وأشيرَ إلى أنّها مِن محقَّرات الأمور التي لا يركن إليها العقلاء فضلًا عن الاطمئنان بها، وأنّها مع ذلك سريعة الزوال وشيكةُ الاضمحلال حيث قيل: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: الحُرّاث ﴿نَبَاتُهُۥ﴾ أي: النبات الحاصل به.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: يجف بعد خُضرته ونضارته ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد ما رأيته ناضرًا مونقًا. وقُرئ: "مُصْفَارًّا"،[٣] وإنّما لم يُقل: "فيصفرّ" إيذانًا بأنّ اصفراره مقارِن لجفافه، وإنّما المترتِّب عليه رؤيته كذلك. ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا﴾ هشيمًا متكسِّرًا. ومحلّ "الكاف" قيل: النصب على الحاليّة مِن الضمير في ﴿لَعِبٌ﴾؛

---

[١] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٥٨.
[٢] س – الدنيا.
[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٦٦.

لأنّه في معنى الوصف، وقيل: الرفع على أنّه خبر بعد خبر لـ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بتقدير المضاف، أي: مَثَل الحياة الدنيا كمَثَل... إلخ.[1]

وبعد ما بُيِّن حقارة أمر الدنيا تزهيدًا فيها وتنفيرًا عن العكوف عليها أشيرَ إلى فخامة شأنِ الآخرة وعِظَم ما فيها مِن اللذّات والآلام ترغيبًا في تحصيل نعيمها المقيم وتحذيرًا مِن عذابها الأليم، وقُدِّم ذِكر العذاب فقيل: ﴿وَفِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لأنّه مِن نتائج الانهماك فيما فُصِّل مِن أحوال الحياة الدنيا، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ عظيمة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ عظيم لا يُقادَر قَدْره.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي: لمَن اطمأنّ بها ولم يجعلها ذريعةً إلى الآخرة. عن سعيد بن جبير: متاعُ الغرور إن ألهَتك عن طلب الآخرة، فأمّا إذا دعَتك إلى طلب رضوان الله تعالى[2] فنِعَم المتاع ونِعَم الوسيلة.[3]

﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾

﴿سَابِقُوٓا۟﴾ أي: سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم في المضمار ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: إلى موجِباتها مِن الأعمال الصالحة ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: كعرضهما جميعًا، وإذا كان عرضها / كذلك فما ظنُّك [١٧١و] بطولها؟ وقيل: المراد بالعرض البسطَة. وتقديمُ المغفرة على الجنّة لتقدُّم التخلية على التحلية. ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ فيه دليل على أنّ الجنّة مخلوقة بالفعل وأنّ الإيمان وحدَه كافٍ في استحقاقها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي وُعد مِن المغفرة والجنّة ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ عطاؤه ﴿يُؤْتِيهِ﴾ تفضّلًا وإحسانًا ﴿مَن يَشَآءُ﴾ إيتاءه إيّاه مِن غير إيجاب. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ولذلك يُؤتي مَن يشاء مِثل ذلك الفضل الذي لا غايةَ وراءه.

---

[1] القولان في اللباب لابن عادل، ١٨/٤٨٨.

[2] م - تعالى.

[3] بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٨/٣٩.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝٢٣ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٢٤﴾

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ كجَدْب وعاهة في الزروع والثمار ﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ كمرض وآفة ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ أي: إلّا مكتوبةً مثبتةً في عِلم الله تعالى، أو في اللوح ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أي: نخلق الأنفس، أو المصائب، أو الأرض. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي: إثباتها في كتاب ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لاستغنائه فيه عن العُدّة والمُدّة.

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟﴾ أي: أخبرناكم بذلك لئلّا تحزنوا ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ مِن نِعَم الدنيا ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي: أعطاكم الله تعالى منها، فإنّ مَن عَلِم أنّ الكلّ مقدَّر يفوت ما قُدِّر فواته ويأتي ما قُدِّر إتيانه لا محالةَ، لا يعظم جزعه على ما فات ولا فرحه بما هو آتٍ.

وقُرئ: "بِمَا أَتَاكُمْ"[1] مِن الإتيان. وفي القراءة الأولى إشعار بأنّ فوات النِّعَم يلحقها إذا خُلِّيت وطباعَها، وأمّا حصولها وبقاؤها فلا بدّ لهما مِن سبب يُوجِدها ويُبقيها. وقُرئ: "بِمَا أُوتِيتُمْ"،[2] والمرادُ به نفي الأسى المانع عن التسليم لأمر الله تعالى والفرحِ الموجِب للبطر والاختيال، ولذلك عُقِّب بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ فإنّ مَن فرح بالحظوظ الدنيويّة وعظُمت في نفسه اختال وافتخر بها لا محالةَ. وفي تخصيص التذييل بالنهي عن الفرح المذكور إيذانٌ بأنّه أقبح مِن الأسى.

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ بدل مِن ﴿كُلَّ مُخْتَالٍ﴾، فإنّ المختال بالمال يضنّ به غالبًا ويأمر غيرَه به. أو مبتدأ خبرُه محذوف يدلّ عليه قوله تعالى: / ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، فإنّ معناه ومَن يُعرِض عن الإنفاق فإنّ الله غنيّ عنه وعن إنفاقه محمود في ذاته لا يضرّه الإعراض عن شكره [١٧١ظ]

---

[1] قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٤.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٥٣.

بالتقرّب إليه بشيء مِن نعمه، وفيه تهديدٌ وإشعارٌ بأنّ الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفِق. وقُرئ: "فَإِنَّ اللهَ الغَنِيُّ".[١]

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ أي: الملائكةَ إلى الأنبياء، أو الأنبياءَ إلى الأمم، وهو الأظهرُ، ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: الحُجج والمعجزات ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: جنس الكتاب الشامل للكلّ، ﴿وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل. رُوي أن جبريلَ عليه السلام نزل بالميزان فدفعه إلى نوح عليه السلام وقال: مُرْ قومك يزِنوا به.[٢] وقيل: أريدَ به العدل ليُقام به السياسة ويُدفع به العدوان.[٣]

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ قيل: نزل آدمُ عليه السلام مِن الجنّة ومعه خمسة أشياءَ مِن حديد: السَّنَدان والكلبتان والمِيقَعة والمِطرَقة والإبرة. ورُوي ومعه المَرّ والمِسحاة. وعن الحسن: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾: خلقناه، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ﴾ [الزمر، ٦/٣٩]،[٤] وذلك أنّ أوامره تعالى وقضاياه وأحكامه تنزل مِن السماء.

وقوله تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيد﴾ لأنّ آلات الحروب إنّما تُتّخذ منه، ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ إذ ما مِن صنعة إلّا والحديد أو ما يُعمَل بالحديد آلتها. والجملةُ حال مِن ﴿الْحَدِيدَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ﴾ عطفٌ على محذوف يدلّ عليه ما قبله، فإنّه حال متضمِّنة للتعليل، كأنّه قيل: ليستعملوه، وليعلم الله عِلمًا يتعلّق به الجزاء مَن ينصره ورسلَه باستعمال السيوف والرماح وسائرِ الأسلحة في مجاهدة أعدائه، أو متعلِّق بمحذوف مؤخَّر، و"الواو" اعتراضيّة، أي: وليعلم الله مَن ينصره

---

١ قرأ بها نافع وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٨٤/٢.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٦٠/٤.

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٧٦/٣.

٤ الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٣٦٠/٤.

ورسلَه أنزله. وقيل: عطفٌ على قوله تعالى: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾.[١] وقوله تعالى: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال مِن فاعل ﴿يَنصُرُ﴾، أو مفعوله، أي: غائبًا منهم، أو غائبين منه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ اعتراض تذييلي جيء به تحقيقًا للحقّ وتنبيهًا على أنّ تكليفهم الجهادَ وتعريضَهم للقتال ليس لحاجته في إعلاء كلمته وإظهارِ دينه إلى نصرتهم؛ بل إنّما هو لينتفعوا به ويصلوا بامتثال الأمر فيه إلى الثواب، وإلّا فهو غنيّ بقدرته وعزّته عنهم في كلّ ما يريده.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ نوعُ تفصيل لِمَا أُجمِل في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾... إلخ،[٢] وتكريرُ القسم لإظهار مزيدِ الاعتناء بالأمر، أي: وبالله لقد / أرسلناهما ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ بأن استنبأناهم وأوحينا إليهم الكتب. وقيل: المراد بالكتاب الخطّ بالقلم.[٣] [١٧٢و]

﴿فَمِنْهُم﴾ أي: مِن الذرّيّة أو مِن المُرسَل إليهم المدلول عليهم بذِكر الإرسال والمرسَلين ﴿مُّهْتَدٍ﴾ إلى الحقّ، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن الطريق المستقيم. والعدول عن سَنن المقابلة للمبالغة في الذمّ والإيذانِ بغَلَبة الضُّلّال وكثرتهم.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ أي: ثمّ أرسلنا بعدهم رسلَنا ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: أرسلنا رسولًا بعد رسول حتّى انتهى إلى عيسى عليه السلام. والضمير لنوح وإبراهيمَ ومَن أُرسِلا إليهم، أو مَن عاصراهم مِن الرسل لا للذرّيّة، فإنّ الرسل المقفّى بهم مِن الذرّيّة. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ وقُرئ بفتح "الهمزة"،[٤] فإنّه أعجمي لا يلزم فيه مراعاة أبنية العرب.

---

[١] القول في اللباب لابن عادل، ١٨/٥٠٠.
[٢] في الآية السابقة.
[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٦٠.
[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٦٧.

﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً﴾ وقُرئ: "رَآفَةً"[١] على "فَعَالة" ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: وفّقناهم للتراحم والتعاطف بينهم، ونحوُه في شأن أصحاب النبيّ عليه السلام ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح، ٢٩/٤٨]. ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ منصوب إمّا بفعل مضمر يفسّره الظاهر، أي: وابتدعوا رهبانيّةً ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾، وإمّا بالعطف على ما قبلها و﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ صفة لها، أي: وجعلنا في قلوبهم رأفةً ورحمةً ورهبانيّةً مبتدَعة مِن عندهم، أي: وفّقناهم للتراحم بينهم ولابتداع الرهبانيّة واستحداثها، وهي المبالغة في العبادة بالرياضة والانقطاع عن الناس، ومعناها الفِعْلة المنسوبة إلى "الرَّهبان" وهو الخائف "فَعْلان" مِن رَهِب كـ"خشيان" مِن "خشي". وقُرئ بضمّ "الراء"،[٢] كأنّها نسبة إلى "الرُّهبان" وهو جمع "راهب" كـ"رَاكب" و"رُكْبان".

وسببُ ابتداعهم إيّاها أنّ الجبابرة ظهروا على المؤمنين بعد رفع عيسى عليه السلام فقاتلوهم ثلاث مرّات، فقُتلوا حتّى لم يبقَ منهم إلّا قليل، فخافوا أن يُفتَتَنوا / في دينهم فاختاروا الرهبانيّة في قُلَل الجبال فارّين بدينهم مخلِصين أنفسَهم للعبادة. [١٧٢ظ]

وقوله تعالى: ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ جملة مستأنَفة. وقيل: صفة أخرى لـ﴿رَهْبَانِيَّةً﴾.[٣] والنفيُ على الوجه الأوّل[٤] متوجِّه إلى أصل الفعل. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ استثناء منقطِع، أي: ما فرضناها نحن عليهم رأسًا، ولكنّهم ابتدعوها ابتغاءَ رضوان الله، فذمُّهم حينئذ بقوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ مِن حيث أنّ النذر عهدٌ مع الله تعالى[٥] لا يحِلّ نكثه، لا سيّما إذا قُصِد به رضاه تعالى، وعلى الوجه الثاني[٦] متوجِّه إلى قَيده لا إلى نفسه، والاستثناء متّصل مِن أعمّ العِلَل، أي: ما كتبناها عليهم بأن وفّقناهم لابتداعها لشيء مِن الأشياء إلّا ليبتغوا بها رضوان الله ويستحقّوا بها الثواب، ومِن ضرورة ذلك أن يُحافظوا عليها ويُراعوها[٧] حقّ رعايتها، فما رعاها كلّهم؛ بل بعضهم.

---

١ قرأ بها قنبل بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٣٠/٢.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن مبشر بن عُبيد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٥.
٣ القول في اللباب لابن عادل، ٥٠٤/١٨.
٤ وفي هامش م: وهو أن يكون انتصاب ﴿رَهْبَانِيَّةً﴾ بمضمَر يفسّره الظاهر. «منه».
٥ م - تعالى.
٦ وفي هامش م: وهو أن يكون انتصاب ﴿رَهْبَانِيَّةً﴾ بالعطف على ﴿رَأْفَةً﴾. «منه».
٧ س: ويراعوا.

﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ﴾ إيمانًا صحيحًا، وهو الإيمان برسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد رعاية رهبانيّتهم لا مجرَّد رعايتها، فإنّها بعد البعثة لغوٌ محضٌ وكُفر بحتٌ، وأنّى لها استتباع الأجر. ﴿أَجۡرَهُمۡ﴾ أي: ما يُخصّ بهم مِن الأجر. ﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن حدّ الاتّباع. وحملُ الفريقين على مَن مضى مِن المراعين لحقوق الرهبانيّة قبل النسخ والمخلِّين بها إذ ذاك بالتثليث، والقولُ بالاتّحاد وقصدِ السُّمعة مِن غير تعرّض لإيمانهم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وكفرهم به، ممّا لا يُساعده المقام.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: بالرسل المتقدِّمة ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما نهاكم عنه ﴿وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ أي: بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم، وفي إطلاقه إيذانٌ بأنّه عَلَم فرد في الرسالة لا يذهب الوهم إلى غيره.

﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ﴾ نصيبين ﴿مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ لإيمانكم بالرسول وبمَن قبله مِن الرسل عليهم السلام، لكن لا على معنى أنّ شريعتهم باقية بعد البعثة؛ بل على أنّها كانت حقّةً قبل النسخ. ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ يوم القيامة حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ [الحديد، ١٢/٥٧]. ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ ما أسلفتم مِن الكفر والمعاصي، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ / أي: مبالغ في المغفرة والرحمة. [١٧٣و]

﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾

وقوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ متعلِّق بمضمون الجملة الطلبيّة المتضمِّنة لمعنى الشرط؛ إذ التقدير إن تتّقوا الله وتؤمنوا برسوله يؤتِكم كذا وكذا لئلّا يعلم الذين لم يُسلِموا مِن أهل الكتاب، أي: ليعلموا، و﴿لَا﴾ مزيدة

كما ينبئ عنه قراءة: "لِيَعْلَمَ"،[١] و"لِكَي يَعْلَمَ"،[٢] و"لِأَنْ يَعْلَمَ"[٣] بإدغام "النون" في "الياء".

و"أن" في قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ مخفَّفة مِن الثقيلة، واسمها الذي هو ضمير الشأن محذوفٌ، والجملةُ في حيِّز النصب على أنّها مفعول ﴿يَعْلَمَ﴾، أي: ليعلموا أنّه لا ينالون شيئًا ممّا ذُكر مِن فضله مِن الكِفلين والنور والمغفرة، ولا يتمكّنون مِن نيله حيث لم يأتوا بشرطه الذي هو الإيمان برسوله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ عطفٌ على ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾. وقوله تعالى:[٤] ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ خبرٌ ثانٍ لـ﴿أَنَّ﴾، وقيل: هو الخبر والجارّ حالٌ لازمة.[٥]

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ اعتراض تذييلي مقرِّر لمضمون ما قبله، وقد جُوِّز أن يكون الأمر بالتقوى والإيمان لغير أهل الكتاب، فالمعنى اتّقوا الله واثبتوا على إيمانكم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم يؤتِكم ما وعد مَن آمن مِن أهل الكتاب مِن الكفلين في قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [القصص، ٥٤/٢٨]، ولا ينقصكم مِن مِثل أجرهم لأنكم مِثلهم في الإيمانين لا تفرِّقون بين أحد مِن رسله.

ورُوي أنّ مؤمني أهل الكتاب افتخروا على سائر المؤمنين بأنّهم يؤتَون أجرهم مرّتين وادّعَوا الفضلَ عليهم، فنزلت.[٦] وقُرئ: "لِيَلَّا"[٧] بقلب الهمزة ياءً لانفتاحها بعد كسرة، وقُرئ بسكون "الياء" وفتح "اللام"[٨] كاسم المرأة، وبكسر "اللام" مع سكون "الياء".[٩] وقُرئ: "أَلَّا يَقْدِرُوا".[١٠]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس وسعيد بن جُبير وعكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٦٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٦.

٤ س – تعالى.

٥ القول في اللباب لابن عادل، ٥١١/١٨.

٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٦٢/٤.

٧ قرأ بها ورش عن نافع. النشر لابن الجزري، ٣٩٧/١.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٦.

٩ قراءة شاذّة، مرويّة عن قطرب. الكشّاف للزمخشري، ٣٦٢/٤.

١٠ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٦.

هذا، وقد قيل: ﴿لَا﴾ غيرُ مزيدة، وضمير ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ للنبيّ عليه السلام وأصحابه، والمعنى لئلّا يعتقد أهل الكتاب أنّه لا يقدِر النبيّ عليه السلام والمؤمنون به على شيء مِن فضل الله الذي هو عبارة عمّا أوتوه مِن سعادة الدارين، على أنّ عدم عِلمهم بعدم قدرتهم على ذلك كنايةٌ عن عِلمهم بقدرتهم عليه، فيكون قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾... إلخ، / عطفًا على ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ﴾. [١٧٣ظ]

عن النبي صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الحديد كُتب مِن الذين آمنوا بالله ورسله».[١]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ١٠/٢٦ (الحديد، ١/٥٧)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤/٢٤٤ (الحديد، ١/٥٧)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٦٣. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

سورة المجادلة

مدنيّة، وقيل: ما عدا العشر الأُوَل، وقيل: ما عدا قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ﴾ الآية [المجادلة، ٧/٥٨].[١] وهي ثِنتان وعشرون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ①﴾

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ بإظهار "الدال"، وقُرئ بإدغامها في "السين".[٢] ﴿قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ أي: تُراجعك الكلام في شأنه وفيما صدر عنه في حقّها مِن الظِّهار، وقُرئ: "تُحَاوِرُكَ"[٣] و"تُحَاوِلُكَ"،[٤] أي: تُسائلك. ﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ عطفٌ على ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾، أي: تتضرَّع إليه تعالى. وقيل: حال مِن فاعله، أي: تُجادلك وهي متضرِّعة إليه تعالى.[٥]

وهي خولةُ بنت ثعلبةَ بن مالك بن حرامةَ الخزرجيّة،[٦] ظاهَرَ عنها زوجُها

---

١ س ي - وقيل: ما عدا العشر الأُوَل، وقيل: ما عدا قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ﴾ الآية.

٢ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وهشام. **النشر** لابن الجزري، ٣/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود واليماني. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٦٦.

٤ قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٣٦٤/٤.

٥ القول في **اللباب** لابن عادل، ٥١٧/١٨.

٦ اختُلف في اسمها على جملة مِن الأقوال: فقيل: خولة بنت ثعلبة بن أصرم بن فهر، وقيل: خولة بنت ثعلبة بن مالك بن الدخشم، وقيل: خولة بنت مالك بن ثعلبة، وقيل: خولة أو خُويلة بنت الدُّليج، وقيل: خولة أو خويلة بنت الصامت، وقيل: خُويلة بنت خُويلد الأنصاريّة. انظر: **جامع البيان** للطبري، ٤٤٦/٢٢؛ و**تهذيب الكمال** للمِزّي، ١٦٣/٣٥. وفي مطبوع **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٢٠/٢٦: «قال المقاتلان: هي خولة بنت ثعلبة بن مالك بن حرام الخزرجيّة مِن بني عمرو بن عوف»، وفي بعض أصوله «خزامة» مكان «حرام». أسلمت وبايعت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وكانت تحت أوس بن الصامت. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٣٥٣/١٠؛ و**الاستيعاب** لابن عبد البر، ١٨٣٠/٤.

أوس بن الصامت[1] أخو عبادة ثمّ ندم على ما قال، فقال لها: «ما أظنُّك إلّا قد حَرُمتِ عليّ»، فشقّ عليها ذاك، فاستفتت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: «حَرُمتِ عليه»، فقالت: «يا رسول الله ما ذَكَر طلاقًا»، فقال: «حرُمتِ عليه». وفي رواية: «ما أُراكِ إلّا قد حرُمتِ عليه»، في المِرار كلِّها، فقالت: «أشكو إلى الله فاقتي ووجدي»، وجعلت تُراجع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكلّما قال عليه الصلاة والسلام: «حَرُمتِ عليه» هتفتْ وشكتْ إلى الله تعالى،[2] فنزلت.[3]

وفي كلمة ﴿قَدْ﴾ إشعار بأنّ الرسول عليه السلام والمجادِلة كانا يتوقّعان أن يُنزِّل الله تعالى حُكم الحادثة ويفرِّج عنها كربها كما يلوِّح به ما رُوي أنّه عليه السلام قال لها عند استفتائها: «ما عندي في أمرك شيء»،[4] وأنّها كانت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: «اللّهمّ إني أشكو إليك، فأنزِلْ على لسان نبيّك».[5]

ومعنى سمعِه تعالى لقولها إجابةُ دعائها لا مجرّدُ عِلمه تعالى بذلك، كما هو المعنيُّ بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ أي: يعلم تراجُعكما الكلامَ. وصيغة المضارع للدلالة على استمرار السمع حسب استمرار التحاور وتجدُّده، وفي نظمها في سِلك الخطاب تغليبًا تشريفٌ لها مِن جهتين. والجملة استئناف جارٍ مَجرى التعليل لِما قبله، فإنّ إلحافها في المسألة ومبالغتَها في التضرّع إلى الله تعالى ومدافعتِه عليه السلام إيّاها بجواب منبئ عن التوقّف[6] وترقّب الوحي وعِلمه تعالى بحالهما مِن دواعي الإجابة. وقيل: هي حال، وهو بعيد.[7]

---

[1] هو أوس بن الصامت بن قيس بن أصرَم بن فِهر بن ثعلبة بن غَنَم بن سالم بن عوف بن الخزرج الأنصاري (ت. ٣٤هـ/٦٥٤م). هو أخو عبادة بن الصامت. شهد بدرًا وأُحدًا وسائر المشاهد مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبقي إلى زمن عثمان بن عفّان، وكان شاعرًا مُحسِنًا، وهو أوّل مَن ظاهر بالإسلام وكان به لَمَم. توفّي بالرملة وهو ابن اثنتين وسبعين سنةً. انظر: **الطبقات الكبرى**، ٥٠٧/٣؛ **والاستيعاب** لابن عبد البرّ، ١١٨/١؛ **والإصابة** لابن حجر، ١٥٦/١.

[2] س - تعالى.

[3] انظر: **جامع البيان** للطبري، ٤٤٦/٢٢-٤٤٧؛ **ومعالم التنزيل** للبغوي، ٤٩/١٨-٥٠.

[4] **الكشّاف** للزمخشري، ٣٦٤/٤.

[5] **معالم التنزيل** للبغوي، ٤٩/١٨.

[6] وفي هامش م: فإنّ ما ذُكر مِن الروايتين يشهد بأنّ قوله عليه السلام: «حرُمتِ عليه» ليس بطريق القطع. «منه».

[7] الكلام في **اللباب** لابن عادل، ٥١٧/١٨.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ تعليل لِما قبله / بطريق التحقيق، [١٧٤و] أي: مبالغ في العِلم بالمسموعات والمبصَرات، ومِن قضيّته أن يسمع تحاورهما ويرى ما يُقارنه مِن الهيئات التي مِن جملتها رفعُ رأسها إلى السماء وسائرُ آثار التضرّع. وإظهار الاسمِ الجليلِ في الموقعين لتربية المهابة وتعليلِ الحكم بوصف الألوهيّة وتأكيدِ استقلال الجملتين.

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ شروع في بيان شأن الظِّهار في نفسه وحُكمه المترتِّب عليه شرعًا بطريق الاستئناف. والظِّهار أن يقول الرجل لامرأته: "أنت عليَّ كظهر أمّي"، مشتقّ مِن الظَّهر، وقد مرّ تفصيله في الأحزاب،[1] وألحق به الفقهاء تشبيهها بجزءٍ محرَّم. وفي ﴿مِنكُم﴾ مزيد توبيخ للعرب وتهجينٌ لعادتهم فيه، فإنّه كان مِن أيمان أهل جاهليّتهم خاصّة دون سائر الأمم. وقُرئ: "يَظَّاهَرُونَ"[2] مِن "اظَّاهَرَ" و"يَتَظَاهَرُونَ"[3] و"يَتَظَهَّرُونَ".[4]

وقوله تعالى: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ خبر للموصول، أي: ما نساؤهم أمّهاتهم على الحقيقة، فهو كذب بحتٌ. وقُرئ: "أُمَّهَاتُهمْ"[5] بالرفع على لغة تميم، و"بِأُمَّهَاتِهِمْ".[6] ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي: ما هنّ ﴿إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ فلا تُشبَّه بهنّ في الحُرمة إلّا مَن ألحقها الشرع بهنّ مِن المرضِعات وأزواج النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فدخلن بذلك في حُكم الأمّهات، وأمّا الزوجات فأبعد شيء مِن الأمومة.

---

[1] في تفسير الأحزاب، ٤/٣٣.

[2] قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف. **النشر** لابن الجزري، ٣٨٥/٢.

[3] قراءة شاذّة، غير منسوبة. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٥٤.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب ويزيد بن قُطيب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٦٦؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٦٩.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن المفضّل وشيبان وابن نبهان كلّهم عن عاصم. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٦٦؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٦٩.

[6] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٥٤.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ﴾ بقولهم ذلك ﴿مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ على أنّ مناط التأكيد ليس صدورَ القول عنهم فإنّه أمر محقَّق، بل كونه منكرًا، أي: عند الشرع وعند العقل والطبع أيضًا، كما يُشعِر به تنكيره. ونظيرُه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء، ٤٠/١٧]. ﴿وَزُورًا﴾ أي: محرّفًا عن الحقّ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي: مبالِغ في العفو والمغفرة، فيغفِر لِما سلف منه على الإطلاق أو بالمَتاب عنه.

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ③﴾

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ تفصيل لحُكم الظِّهار بعد بيان كونه أمرًا منكَرًا بطريق التشريع الكلّي المنتظِم / لحُكم الحادثة [١٧٤ظ] انتظامًا أوّليًا، أي: والذين يقولون ذلك القول المنكَر ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾، أي: إلى ما قالوا بالتدارك والتلافي، لا بالتقرير والتكرير كما في قوله تعالى: ﴿أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [النور، ١٧/٢٤]، فإنّ "اللام" و"إلى" تتعاقبان كثيرًا، كما في قوله تعالى: ﴿هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف، ٤٣/٧]، وقولِه تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات، ٢٣/٣٧]، وقولِه تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة، ٥/٩٩]، وقولِه تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ [هود، ٣٦/١١].

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: فتداركُه، أو فعليه، أو فالواجبُ إعتاق رقبة أيِّ رقبةٍ كانت. وعند الشافعي رحمه الله تعالى يشترط الإيمان.[١] و"الفاء" للسببيّة، ومِن فوائدها الدلالةُ على تكرّر وجوب التحرير بتكرّر الظِّهار. وقيل: ﴿مَا قَالُواْ﴾ عبارةٌ عمّا حرّموه على أنفسهم بلفظ الظِّهار تنزيلًا للقول منزلةَ المقولِ فيه، كما ذُكر في قوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ [مريم، ٨٠/١٩] أي: المقول فيه مِن المال والولد، فالمعنى: ثمّ يريدون العَود للاستمتاع، فتحريرُ رقبة ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ أي: مِن قبل أن يستمتع كلٌّ مِن المُظاهِر والمُظاهَر منها بالآخر جِماعًا ولَمسًا ونظرًا إلى الفرج بشهوة، وإن وَقَع شيءٌ مِن ذلك قبل التكفير يجب عليه

---

[١] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣٦٧/٤.

أن يستغفر ولا يعود حتّى يكفِّر، وإن أعتق بعض الرقبة ثمّ مسّ عليه أن يستأنف عند أبي حنيفةَ رحمه الله تعالى.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى الحُكم المذكور، وهو مبتدأ خبرُه ﴿تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ أي: تُزجَرون به عن ارتكاب المنكَر المذكور، فإنّ الغراماتِ مَزاجِر عن تعاطي الجنايات، والمراد بذِكره بيانُ أنّ المقصود مِن شرع هذا الحُكم ليس تعريضَكم للثواب بمباشرتكم لتحرير الرقبة الذي هو عَلَم في استتباع الثواب العظيم؛ بل هو ردعُكم وزجركم عن مباشرة ما يُوجِبه.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مِن الأعمال التي مِن جملتها التكفير وما يُوجبه مِن جناية الظِّهار ﴿خَبِيرٌ﴾ أي: عالم بظواهرها وبواطنها ومُجازيكم بها فحافظوا على حدود ما شرَع لكم ولا تُخِلّوا بشيء منها.

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ أي: الرقبةَ ﴿فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ﴾ فعليه صيامُ شهرين ﴿مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ ليلًا أو نهارًا عمدًا أو خطأً، ﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ﴾ أي: الصيام لسبب مِن الأسباب ﴿فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ/ مِسۡكِينٗا﴾ لكلّ مسكين نصفُ صاع مِن برّ أو صاعٌ مِن غيره، ويجب تقديمُه على المسيس، لكن لا يستأنف إن مسّ في خلال الإطعام. [١٧٥و]

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما مرّ مِن البيان والتعليمِ للأحكام والتنبيهِ عليها. وما فيه مِن معنى البُعد قد مرّ سِرّه مرارًا. ومحلّه إمّا الرفع على الابتداء، أو النصب بمضمَر معلَّل بما بعده، أي: ذلك واقعٌ، أو فعلْنا ذلك. ﴿لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وتعملوا بشرائعه التي شَرَعها لكم وترفضوا ما كنتم عليه في جاهليّتكم.

﴿وَتِلۡكَ﴾ إشارة إلى الأحكام المذكورة، وما فيه مِن معنى البُعد لتعظيمها، كما مرّ غيرَ مرّة. ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ التي لا يجوز تعدّيها، ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: الذين لا يعملون بها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عُبّر عنه بذلك للتغليظ، على طريقة قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران، ٣/٩٧].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٥ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٦﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يُعادونهما ويشاقّونهما، فإنّ كلًّا مِن المتعاديَين كما أنّه يكون في عُدوةٍ وشِقّ غيرِ عُدوة الآخرِ وشِقّه كذلك يكون في حدٍّ غيرِ حدّ الآخرِ، غيرَ أنّ لورود المُحادّة في أثناء ذِكر حدود الله دون المُعاداة والمُشاقّة مِن حُسن الموقع ما لا غايةَ وراءه.

﴿كُبِتُواْ﴾ أي: أُخزوا، وقيل: خُذلوا، وقيل: أُذلّوا، وقيل: أُهلِكوا، وقيل: لُعنوا، وقيل: غِيظوا. وهو ما وَقَع يوم الخندق، قالوا: معنى ﴿كُبِتُواْ﴾ سيكبتون،[1] على طريقة قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل، ١/١٦]. وقيل: أصل الكبت الكبّ. ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ مِن كفّار الأمم الماضية المعادِين للرسل عليهم السلام.

﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ حال مِن واو ﴿كُبِتُواْ﴾ أي: كُبتوا لمُحادّتهم، والحال أنّا قد أنزلنا آياتٍ واضحاتٍ فيمَن حادّ الله ورسوله ممّن قبلهم مِن الأمم وفيما فعلنا بهم. وقيل: ﴿ءَايَٰتِۭ﴾ تدلّ على صدق الرسول وصحّة ما جاء به.[2] ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: بتلك الآيات، أو بكلّ ما يجب الإيمان به، فيدخل فيه تلك الآيات دخولًا أوّليًا. ﴿عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ / يذهب بعزّهم وكِبرهم. [١٧٥ظ]

﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ منصوب بما تعلّق به "اللام" مِن الاستقرار، أو بـ﴿مُّهِينٞ﴾، أو بإضمار "اذكرْ" تعظيمًا لليوم وتهويلًا له. ﴿جَمِيعٗا﴾ أي: كلّهم بحيث لا يبقى منهم أحد غير مبعوث أو مجتمعين في حالة واحدة، ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ مِن القبائح ببيان صدورها عنهم، أو بتصويرها في تلك النشأة بما يليق بها مِن الصور الهائلة على رءوس الأشهاد تخجيلًا لهم وتشهيرًا بحالهم وتشديدًا لعذابهم.

وقوله تعالى: ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ استئناف وَقَع جوابًا عمّا نشأ ممّا قبله مِن السؤال، إمّا عن كيفيّة التنبئة أو عن سببها، كأنّه قيل: كيف ينبّئهم بأعمالهم

---

[1] هذه الأقوال كلّها في اللباب لابن عادل، ٥٣١/١٨. [2] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣٦٨/٤.

وهي أعراض متقضّية متلاشية؟ فقيل: أحصاه الله عددًا لم يفُته منه شيء. فقوله تعالى: ﴿وَنَسُوهُ﴾ حينئذ حال مِن مفعول ﴿أَحْصَىٰ﴾ بإضمار "قد" أو بدونه على الخلاف المشهور، أو قيل: لِمَ ينبّئهم بذلك؟ فقيل: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾، فينبّئهم به ليعرفوا أنّ ما عاينوه مِن العذاب إنّما حاق بهم لأجله، وفيه مزيدُ توبيخ وتنديم لهم غيرُ التخجيل والتشهيرِ.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يغيب عنه أمر مِن الأمور قطّ. والجملة اعتراضٌ تذييلي مقرِّر لإحصائه تعالى.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استشهاد على شمول شهادته تعالى كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة، ٢٥٨/٢] وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ [الشعراء، ٢٢٥/٢٦]، أي: ألم تعلم عِلمًا يقينيًا متاخمًا للمشاهدة أنّه تعالى يعلم ما فيهما مِن الموجودات سواءً كان ذلك بالاستقرار فيهما أو بالجزئيّة منهما.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾... إلى آخره، استئناف مقرِّر لِما قبله مِن سَعة عِلمه تعالى ومبيّن لكيفيّته. و﴿يَكُونُ﴾ مِن "كان" التامّة. وقُرِئ: "تَكُونُ"[١] بـ"التاء" اعتبارًا لتأنيثِ النجوى وإن كان غيرَ حقيقي، أي: ما يقع مِن تناجي ثلاثة نفر، أي: مِن مُسارّتهم، على أنّ ﴿نَّجْوَىٰ﴾ مضافة إلى ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾، أو على أنها موصوفة بها إمّا بتقدير مضاف، أي: مِن أهل نجوى ثلاثة، أو بجعلهم نجوى في أنفسهم مبالغةً، / ﴿إِلَّا هُوَ﴾ أي: الله عزّ وجلّ: ﴿رَابِعُهُمْ﴾ أي: جاعلهم أربعةً مِن حيث إنّه تعالى يشاركهم في الاطّلاع عليها، وهو استثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال. ﴿وَلَا خَمْسَةٍ﴾ ولا نجوى خمسةٍ ﴿إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾. [١٧٦و]

---

[١] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٨٥/٢.

وتخصيص العددين بالذِّكر إمّا لخصوص الواقعة، فإنّ الآية نزلت في تناجي المنافقين، وإمّا لبناء الكلام على أغلب عادات المتناجين، وقد عُمِّم الحكم بعد ذلك فقيل: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: ممّا ذُكر كالواحد والاثنين ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾ كالستّة وما فوقها ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ يعلم ما يجري بينهم. وقُرئ: "وَلَا أَكْثَرُ"[1] بالرفع عطفًا على محلّ ﴿مِن نَّجْوَىٰ﴾، أو محلّ ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ﴾ بأن جُعل ﴿لَا﴾ لنفي الجنس. ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ مِن الأماكن، ولو كانوا تحت الأرض، فإنّ عِلمه تعالى بالأشياء ليس لقُرب مكانيّ حتّى يتفاوت باختلاف الأمكنة قُربًا وبُعدًا.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾ وقُرئ: "يُنْبِئُهُمْ"[2] بالتخفيف ﴿بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ تفضيحًا لهم وإظهارًا لِما يُوجِب عذابَهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لأنّ نسبة ذاته المقتضية للعِلم إلى الكلّ سواء.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ نزلت في اليهود والمنافقين كانوا يتناجَون فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين، فنهاهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ عادوا لمِثل فعلهم. والخِطاب للرسول عليه السلام، و"الهمزة" للتعجيب مِن حالهم، وصيغةُ المضارع للدلالة على تكرّر عَودهم وتجدّده واستحضار صورته العجيبة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ عطفٌ عليه داخلٌ في حُكمه، أي: بما هو إثم في نفسه وعدوان للمؤمنين وتواصٍ بمعصية الرسول عليه السلام. وذِكره عليه السلام بعنوان الرسالة بين الخطابين المتوجِّهين

---

[1] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٥.
[2] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٦٩.

إليه عليه السلام لزيادة تشنيعهم واستعظام معصيتهم. وقُرئ: "وَيَنْتَجُونَ بِالإِثْمِ"،[١] و"العِدْوَانِ"[٢] بكسر "العين"، "وَمَعْصِيَاتِ الرَّسُولِ".[٣]

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ فيقولون: "السام عليكم" أو "انعم صباحًا"، والله سبحانه يقول: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الصافات، ١٨١/٣٧]. ﴿وَيَقُولُونَ / فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: فيما بينهم ﴿لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي: هلا يعذِّبنا الله بذلك لو كان محمّد نبيًّا، ﴿حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ عذابًا ﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾ يدخلونها ﴿فَبِئۡسَ[٤] ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: جهنّم. [١٧٦ظ]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ﴾ في أنديتكم وفي خلواتكم ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ كما يفعله المنافقون. وقُرئ: "فَلَا تَنْتَجُوا"[٥] و"فَلَا تَنَاجَوا"[٦] بحذف إحدى التاءين.

﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ أي: بما يتضمّن خير المؤمنين والاتّقاءَ عن معصية الرسول صلّى الله عليه وسلّم، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ وحدَه لا إلى غيره استقلالًا أو اشتراكًا فيُجازيكم بكلّ ما تأتون وما تذرون.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٠﴾

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ المعهودة التي هي التناجي بالإثم والعدوان ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ لا مِن غيره، فإنّه المزيّن لها والحاملُ عليها. وقوله تعالى: ﴿لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خبرٌ آخرُ، أي: إنّما هي ليحزُن المؤمنين بتوهّمهم أنّها في نكبة أصابتهم.

---

١ قرأ بها حمزة ورُويس. النشر لابن الجزري، ٣٨٥/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك ومقاتل بن حيّان. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٧٢.

٤ م س ي: وبئس.

٥ قرأ بها رُويس. النشر لابن الجزري، ٣٨٥/٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محيصن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٧.

﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ﴾ أي: الشيطان أو التناجي بضارّ المؤمنين ﴿شَيْـًٔا﴾ مِن الأشياء أو شيئًا مِن الضرر ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بمشيئته. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ولا يُبالوا بنجواهم، فإنّه تعالى يعصِمهم مِن شرّه وضرّه.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟﴾ أي: توسّعوا ولْيَفسَح بعضكم عن بعض، ولا تتضامُّوا مِن قولهم: "افسحْ عنّي"، أي: تنحَّ. وقُرِئ: "تَفَاسَحُوا".[١] وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ﴾ متعلّق بـ﴿قِيلَ﴾. وقُرِئ: "فِي المَجْلِسِ"،[٢] على أنّ المراد به الجنس.

وقيل: مجلس الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وكانوا يتضامُّون تنافسًا في القرب منه عليه السلام وحرصًا على استماع كلامه. وقيل: هو المَجلِس مِن مجالس القتال، وهي مراكز الغُزاة، كقوله تعالى: ﴿مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران، ١٢١/٣]. قيل: كان الرجل يأتي الصفَّ ويقول: تفسّحوا فيأبَون لحرصهم على الشهادة.[٣] وقُرِئ: "في المَجْلَسِ"[٤] / بفتح "اللام" فهو متعلّق بـ﴿تَفَسَّحُوا۟﴾ قطعًا، أي: توسّعوا في جلوسكم ولا تتضايقوا فيه. [١٧٧و]

﴿فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: في كلّ ما تريدون التفسّح فيه مِن المكان والرزق والصدر والقبر وغيرها. ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟﴾ أي: انهضوا للتوسِعة على المقبِلين، أو لِما أمرتُم به مِن صلاة أو جهاد أو غيرهما مِن أعمال الخير، ﴿فَٱنشُزُوا۟﴾ فانهضوا ولا تتثبّطوا ولا تُفرّطوا. وقُرِئ بكسر "الشين".[٥]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وداود بن هند. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٧.

[٢] قرأ بها العشرة إلّا عاصمًا. النشر لابن الجزري، ٣٨٥/٢.

[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٧٠/٤.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٧.

[٥] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف وأبو بكر بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٨٥/٢.

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ بالنصر وحُسن الذِّكر في الدنيا والإيواء إلى غُرف الجِنان في الآخرة. ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ منهم خصوصًا ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ عالية بما جمعوا مِن أَثَرتي العِلم والعمل، فإنّ العِلم مع عُلوّ رتبته يقتضي العمل المقرون به مزيدَ رفعة، لا يُدرِك شأوَه العملُ العاري عنه وإن كان في غاية الصلاح، ولذلك يُقتدى بالعالم في أفعاله ولا يُقتدى بغيره. وفي الحديث: «فضلُ العالمِ على العابد كفضل القمرِ ليلةَ البدر على سائر الكواكب».[1]

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تهديد لمَن لم يمتثل بالأمر. وقُرئ: "يَعْمَلُونَ"[2] بـ"الياء" التحتانيّة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ في بعض شئونكم المهمّة الداعية إلى مناجاته عليه السلام ﴿فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ أي: فتصدّقوا قبلها، مستعارٌ ممّن له يدان، وفي هذا الأمر تعظيمُ الرسول صلّى الله عليه وسلّم وإنفاعُ الفقراء والزجرُ عن الإفراط في السؤال والتمييزُ بين المخلِص والمنافق ومحِبّ الآخرة ومُحِبّ الدنيا.

واختُلف في أنّه للندب أو للوجوب، لكنّه نُسِخ بقوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾ [المجادلة، ١٣/٥٨]، وهو وإن كان متّصلًا به تلاوةً لكنّه متراخٍ عنه نزولًا. وعن عليّ رضي الله عنه: «إنّ في كتاب الله آيةً ما عمِل بها أحد غيري، كان لي دينار فصرفته، فكنتُ إذا ناجيتُه عليه السلام تصدّقت بدِرهم»،[3] وهو على القول بالوجوب محمول على أنّه لم يتّفق للأغنياء مناجاة في مدّة بقائه؛ / إذ رُوي أنّه لم يبقَ إلّا عشرًا. وقيل: إلّا ساعةً.[4] [١٧٧ظ]

---

[1] سنن ابن ماجه، ١٥١/١ (٢٢٣)؛ سنن أبي داود، ٤٨٥/٥ (٣٦٤١)؛ سنن الترمذي، ٥٠/٥ (٢٦٨٥)؛

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عبّاس عن أبي عمرو. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٧٣.

[3] بلفظ قريب في المصنَّف لابن أبي شيبة، ٣٧٣/٦ (٣٢١٢٥)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٦٠/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٧١/٤-٣٧٢.

[4] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٨٣/٣.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: التصدّق ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي: لأنفسكم مِن الرِّيبة وحبِّ المال. وهذا يُشعِر بالندب، لكنّ قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ منبئ عن الوجوب؛ لأنّه ترخيص لمَن لم يجد في المناجاة بلا تصدّق.

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾ أي: أخِفتُم الفقرَ مِن تقديم الصدقات، أو أخِفتُم التقديم لِما يعدكم الشيطان عليه مِن الفقر وجمعِ صدقات لجمع المخاطَبين. ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ ما أُمِرتم به وشقّ عليكم ذلك ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بأن رخَّص لكم ألّا تفعلوه، وفيه إشعارٌ بأنّ إشفاقهم ذنبٌ تجاوز الله عنه لِما رأى منهم مِن الانفعال ما قام مقامَ توبتهم، و﴿إِذْ﴾ على بابها مِن المضيّ. وقيل: بمعنى "إذا" كما في قوله تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَٰلُ فِي أَعْنَٰقِهِمْ﴾ [غافر، ٧١/٤٠]. وقيل: بمعنى "إن".[1]

﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ أي: فإذ فرّطتم فيما أُمِرتم به مِن تقديم الصدقات فتداركوه بالمُثابرة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في سائر الأوامر، فإنّ القيام بها كالجابر لِما وقع في ذلك مِن التفريط. ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ظاهرًا وباطنًا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعجيبٌ مِن حال المنافقين الذين كانوا يتّخذون اليهود أولياءَ ويُناصحونهم وينقلون إليهم أسرارَ المؤمنين، أي: ألم تنظر ﴿إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾ أي: والَوا ﴿قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ وهم اليهود، كما أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة، ٦٠/٥]. ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ لأنّهم منافقون مذبذَبون بين ذلك. والجملة مستأنفةٌ أو حالٌ مِن فاعل ﴿تَوَلَّوْا﴾.

---

[1] الوجهان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٨٤/٣.

﴿وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ﴾ أي: يقولون واللهِ إنّا لَمسلمون، وهو عطفٌ على ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ داخل في حُكم التعجيب، وصيغةُ المضارع للدلالة على تكرّر الحَلِف وتجدّده / حسب تكرّر ما يقتضيه. وقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ حال مِن فاعل ﴿يَحۡلِفُونَ﴾ مفيدة لكمال شناعةِ ما فعلوا، فإنّ الحَلِف على ما يُعلَم أنّه كذبٌ في غاية القبح. وفيه دلالةٌ على أنّ الكذب يعمّ ما يعلَم المُخبِر عدم مطابقته للواقع وما لا يعلمه. [١٧٨و]

رُوي أنّه عليه السلام كان في حُجرة مِن حجراته فقال: «يدخل عليكم الآن رجلٌ قلبُه قلبُ جبّار، وينظر بعين شيطان»، فدخل عبد الله بن نَبْتَلٍ المنافق، وكان أزرقَ، فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «علامَ تشتمني أنت وأصحابُك؟»، فحلف بالله ما فعل، فقال عليه السلام: «فعلتَ»، فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبُّوه، فنزلت.[1]

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٥﴾

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ بسبب ذلك ﴿عَذَابٗا شَدِيدًا﴾ نوعًا مِن العذاب متفاقمًا ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ فيما مضى مِن الزمان المتطاول فتمرَّنوا على سوء العمل وضَرُوا به وأصرُّوا عليه.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝١٦﴾

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ الفاجرة التي يحلفون بها عند الحاجة، وقُرئ بكسر "الهمزة"،[2] أي: إيمانهم الذي أظهروه لأهل الإسلام. ﴿جُنَّةٗ﴾ وِقايةً وسُترةً دون دمائهم وأموالهم، فالاتّخاذ على هذه القراءة عبارة عن التستّر بما أظهروه بالفعل، وأمّا على القراءة الأولى فهي عبارة عن إعدادهم لأيمانهم الكاذبة وتهيئتهم لها إلى وقت الحاجة ليحلفوا بها ويتخلّصوا عن المؤاخذة لا عن استعمالها بالفعل،

---

[1] بلفظ قريب في مسند أحمد، ٣١٦/٥ (٣٢٧٦)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٦١/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٧٢/٤.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٨.

فإنّ ذلك متأخِّر عن المؤاخذة المسبوقة بوقوع الجناية والخيانة، واتّخاذُ الجُنّة لا بدّ أن يكون قبل المؤاخذة، وعن سببها أيضًا، كما يُعرب عنه "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَصَدُّواْ﴾ أي: الناسَ ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في خلال أَمْنِهم بتثبيط مَن لَقُوا عن الدخول في الإسلام وتضعيفِ أمر المسلمين عندهم.

﴿فَلَهُمْ[1] عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وعيدٌ ثانٍ بوصف آخرَ لعذابهم. وقيل: الأوّل عذاب القبر وهذا عذاب الآخرة.[2]

﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾

﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: مِن عذابه تعالى ﴿شَيْـًٔا﴾ مِن الإغناء، رُوي أنّ رجلًا منهم قال: لنُنصرنّ يوم القيامة بأنفسنا وأموالنا وأولادنا. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن الصفات القبيحة ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: ملازموها ومقارنوها، ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبدًا.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ قيل: هو ظرف لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾. ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ﴾ أي: لله تعالى يومئذ على أنّهم مسلمون ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ / في الدنيا ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ في الآخرة ﴿أَنَّهُمْ﴾ بتلك الأيمان الفاجرة ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ مِن جَلْب منفعة أو دَفْع مضرّة، كما كانوا عليه في الدنيا حيث كانوا يدفعون بها عن أرواحهم وأموالهم ويستجرُّون بها فوائدَ دنيويّة. [١٧٨ظ]

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ البالغون في الكذب إلى غاية لا مطمحَ وراءها، حيث تجاسروا على الكذب بين يدي علّام الغيوب وزعموا أنّ أيمانهم الفاجرة تروّج الكذب لديه كما تروّجه عند الغافلين.

---

[1] م س: ولهم.

[2] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٨٤.

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: استولى عليهم مِن "حُذْتُ الإبلَ" إذا استوليتَ عليها وجمعتَها، وهو ممّا جاء على الأصل كـ"استصوَب" و"استنوَق"، أي: مَلَكهم ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ بحيث لم يذكروه بقلوبهم ولا بألسنتهم. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن القبائح ﴿حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: جنوده وأتباعه.

﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: الموصوفون بالخسران الذي لا غايةَ وراءه حيث فوّتوا على أنفسهم النعيمَ المقيم وأخذوا بدله العذابَ الأليم. وفي تصدير الجملة بحرفَي التنبيهِ والتحقيقِ وإظهار المضافين معًا في موقع الإضمارِ بأحد الوجهين[١] وتوسيطِ ضمير الفصل؛ مِن فنون التأكيدِ ما لا يخفى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ استئناف مسوق لتعليل ما قبله مِن خسران حزب الشيطان. عُبّر عنهم بالموصول للتنبيه بما في حيّز الصلة على أنّ مُوادّة مَن حادّ الله ورسوله مُحادّةٌ لهما، والإشعارِ بعلّة الحكم.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ بما فعلوا مِن التولّي والمُوادّة ﴿فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ أي: في جملة مَن هو أذلّ خلق الله مِن الأوّلين والآخِرين؛ لأنّ ذِلّة أحد المتخاصمَين على مقدار عزّة الآخر، وحيث كانت عزّة الله عزّ وجلّ غيرَ متناهية كانت ذِلّة مَن يحادّه كذلك.

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ استئناف واردٌ لتعليل كونهم في الأذلّين، أي: قُضي وأُثبت في اللوح، وحيث جرى ذلك مَجرى القسم أجيبَ بما يُجاب به فقيل: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ أي: بالحجّة / والسيف وما يجري مَجراه، أو بأحدهما، ونظيرُه قوله تعالى: [١٧٩و]

---

١ وفي هامش م: بأن يقال ألا إنّهم، أو يقال: ألا إنّ حزبه. «منه».

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات، ٣٧/١٧١-١٧٣]. وقُرِئ: "وَرُسُلِيَ"[١] بفتح "الياء".

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ﴾[٢] على نصر أنبيائه ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يُغلب عليه في مراده.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٢٢﴾

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم، أو لكلّ أحد. و﴿تَجِدُ﴾ إمّا متعدٍّ إلى اثنين فقوله تعالى: ﴿يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ مفعوله الثاني، أو إلى واحد فهو حالٌ مِن مفعوله لتخصُّصه بالصفة. وقيل: صفة أخرى له،[٣] أي: قومًا جامعين بين الإيمان بالله واليوم الآخر وبين مُوادّة أعداء الله ورسوله. والمراد بنفيِ الوجدان نفيُ المُوادّة، على معنى أنّه لا ينبغي أن يتحقّق ذلك، وحقُّه أن يمتنع ولا يوجد بحال وإن جدّ في طلبه كلّ أحد.

﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟﴾ أي: مَن حادّ الله ورسوله. والجمع باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ الإفراد فيما قبله باعتبار لفظها. ﴿ءَابَآءَهُمْ﴾ آباء الموادّين ﴿أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ فإنّ قضيّة الإيمان بالله تعالىٰ أن يُهجَر الجميعُ بالمرّة. والكلام في "لو" قد مرّ على التفصيل مِرارًا.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الذين لا يوادُّونهم وإن كانوا أقربَ الناس إليهم وأمسَّهم رحمًا، وما فيه مِن معنى البُعد لرفعة درجتهم في الفضل. وهو مبتدأ خبرُه ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: أثبتَه فيها، وفيه دلالةٌ على خروج العمل مِن مفهوم الإيمان، فإنّ جزء الثابت في القلب ثابتٌ فيه قطعًا، ولا شيءَ مِن أعمال الجوارح يثبُت فيه. ﴿وَأَيَّدَهُم﴾ أي: قوّاهم ﴿بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي: مِن عند الله تعالى،

---

[١] قرأ بها نافع وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٨٦/٢.

[٢] م: لقويّ.

[٣] القول في اللباب لابن عادل، ٥٥٨/١٨.

وهو نور القلب، أو القرآن، أو النصر على العدوّ. وقيل: الضمير للإيمان لحياة القلوب به،[١] فـ"مِن" تجريديّة.

وقوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ﴾... إلى آخره، بيانٌ لآثار رحمته الأخرويّة إثرَ بيان ألطافه الدنيويّة، أي: ويُدخِلهم في الآخرة ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أبدَ الآبدِين.

وقوله تعالى:﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ استئناف جارٍ مَجرى التعليل لِما أفاض عليهم مِن آثار رحمته / العاجلة والآجلة. وقوله تعالى: ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بيان لابتهاجهم بما أوتوه عاجلًا وآجلًا. وقوله تعالى:﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾ تشريف لهم ببيان اختصاصهم به عزّ وعلا. وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ بيان لاختصاصهم بالفوز بسعادة النشأتين. والكلام في تحلية الجملةِ بفنون التأكيد كما مرّ في مِثلها. [١٧٩ظ]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة المجادلة كُتب مِن حزب الله يوم القيامة».[٢]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٧٤/٤.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ١١٨/٢٦ (المجادلة، ١/٥٨)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٥٨/٤ (المجادلة، ١/٥٨)؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٧٤/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة الحشر

مدنيّة، وهي أربع وعشرون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ① هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ②﴾

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ مرّ ما فيه مِن الكلام في صدر سورة الحديد، وقد كُرِّر الموصول ههنا لزيادة التقرير والتنبيه على استقلال كلّ مِن الفريقين بالتسبيح.

رُوي أنّه صلّى الله عليه وسلّم لمّا قدم المدينة صالَحَ بني النضير، وهم رهط مِن اليهود مِن ذرّيّة هارون عليه السلام، نزلوا المدينة في فتن بني إسرائيل انتظارًا لبعثة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وعاهدهم ألّا يكونوا له ولا عليه، فلمّا ظهر عليه السلام يوم بدر قالوا: «هو النبيّ الذي نعتُه في **التوراة** لا تُرَدّ له رايةٌ»، فلمّا كان يومُ أُحُد ما كان ارتابوا ونكثوا.

فخرج كعبُ بن الأشرف في الأربعين راكبًا إلى مكّةَ فحالفوا قريشًا عند الكعبة على قتاله عليه السلام، فأمر عليه السلام محمّد بن مسلمةَ الأنصاريَّ[1]

---

[1] محمّد بن مسلمة بن خالد الأنصاري الأوسي، أبو عبد الرحمن، وقيل: أبو عبد الله (ت. ٤٣هـ/٦٦٣م). حليف لبني الأشهل، كان مِن فُضلاء الصحابة، شهد بدرًا والمشاهد كلّها، وعاش ومات بالمدينة. استخلفه النبيّ عليه الصلاة والسلام على المدينة في إحدى غزواته، كان ممّن اعتزل الفتنة ولا حضر الجَمَل ولا صِفّين، بل اتّخذ سيفًا مِن خشب، وتحوّل إلى الرَّبذة فأقام بها مُديدة. انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ، ١٣٧٧/٣، وسير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٦٩/٢.

فقتل كعبًا غِيلةً وكان أخاه مِن الرضاعة، ثمّ صبّحهم بالكتائب، فقال لهم: «اخرجوا مِن المدينة»، فاستمهلوه عليه السلام عشرةَ أيّام ليتجهّزوا للخروج.

فدسّ عبدُ الله بنُ أبيّ المنافقُ وأصحابه إليهم لا تخرجوا مِن الحِصن، فإن قاتلوكم فنحن معكم لا نخذلكم، ولئن خرجتم لنخرجنّ معكم، فدَرَّبوا على الأزِقّة وحصّنوها، فحاصرهم النبيّ عليه السلام إحدى وعشرين ليلةً.

فلمّا قذف الله في قلوبهم الرعب وأيِسُوا مِن نصر المنافقين طلبوا الصلحَ [١٨٠و] / فأبى عليهم إلّا الجلاءَ على أن يحمل كلُّ ثلاثة أبيات على بعير ما شاءوا مِن متاعهم، فجَلَوا إلى الشام إلى أريحا وأذرِعات إلّا أهلَ بيتين منهم: آلَ أبي الحقيق وآلَ حُيَيّ بن أخطبَ،[١] فإنّهم لحِقوا بخيبرَ،[٢] ولحقت طائفة بالحِيرة، فأنزل الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.[٣]

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ بيان لبعض آثار عزّته تعالى وأحكام حكمته إثرَ وصفه تعالى بالعزّة القاهرة والحكمة الباهرة على الإطلاق. والضمير راجع إليه تعالى بذلك العنوان إمّا بناءً على كمال ظهور اتّصافه تعالى بهما مع مساعدة تامّة مِن المقام، أو على جعلِه مستعارًا لاسم الإشارة، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام، ٤٦/٦]، أي: بذلك، وعليه قول رؤبة بن العجّاج:

كأنّه في الجِلد توليعُ البَهَقْ[٤]

---

[١] هو حُيَيّ بن أخطب النضري (ت. ٥هـ/٦٢٦م)، أبو صفيّة أمّ المؤمنين. سيّد اليهود، كان يُنعت بسيّد الحاضر والبادي، أدرك الإسلام وآذى المسلمين فأسروه يوم قريظة ثمّ قتلوه. انظر: **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٤٨٤/٣؛ و**الأعلام** للزركلي، ٢٩٢/٢.

[٢] خيبر: هو الموضع المذكور في غزوة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وهي ناحية على ثمانية بُرد مِن المدينة. ولفظ خيبر بلسان اليهود يعني الحصن. انظر: **معجم البلدان** للحموي، ٤٠٩/٢.

[٣] الحشر، ٥٩/١-٦. | والخبر بلفظ قريب في **معالم التنزيل** للبغوي، ٦٧/٨-٦٨؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٣٧٥/٤.

[٤] في ديوانه، ص ١٠٤؛ وهو له في **الصحاح** للجوهري، «بهق»، وفيه «البهق: بياض يعتري الجلد يخالف لونه، ليس مِن البرص». والشاهد فيه أنّه قال: «كأنّه»، بضمير المفرد المذكّر، وكان قال قبله:

كما هو المشهور، كأنّه قيل: ذلك المنعوت بالعزّة والحكمة الذي أخرج... إلخ، ففيه إشعارٌ بأنّ في الإخراج حكمةً باهرةً.

وقوله تعالى: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ أي: في أوّل حشرهم إلى الشام، وكانوا مِن سِبْطٍ[1] لم يُصبهم جلاءٌ قطّ، وهم أوّل مَن أُخرِج مِن جزيرة العرب إلى الشام، أو هذا أوّل حشرهم، وآخرُ حشرِهم إجلاءُ عمرَ رضي الله عنه إيّاهم مِن خيبر إلى الشام. وقيل: آخرُ حشرِهم حشرُ يوم القيامة؛ لأنّ المَحشَر يكون بالشام.[2]

﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ أيّها المسلمون ﴿أَن يَخْرُجُواْ﴾ مِن ديارهم بهذا الذلّ والهَوان لشدّة بأسهم وقوّة مَنَعتِهم ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: ظنّوا أنّ حصونهم تمنعهم أو مانعتُهم مِن بأس الله.

وتغييرُ النظم بتقديم الخبرِ وإسنادِ الجملة إلى ضميرهم للدلالة على كمال وثوقهم بحصانة حصونهم، واعتقادِهم في أنفسهم أنّهم في عزّةٍ ومَنَعة لا يُبالى معها بأحد يتعرَّض لهم أو يطمع في مُعازّتهم. ويجوز أن يكون ﴿مَانِعَتُهُمْ﴾ خبرًا لـ﴿أَنَّ﴾ و﴿حُصُونُهُم﴾ مرتفعًا على الفاعليّة.

[١٨٠ظ] ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أمرُ الله تعالى / وقدَرُه المقدور لهم ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ ولم يخطر ببالهم، وهو قتلُ رئيسهم كعب بن الأشرف، فإنّه ممّا أضعفَ قوّتهم وفلّ شوكتَهم وسَلَب قلوبهم الأمن والطُّمأنينة. وقيل: الضمير في ﴿أَتَىٰهُمْ﴾ و﴿لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ للمؤمنين، أي: فأتاهم نصر الله. وقُرئ: "فَآتَاهُمْ"،[3] أي: فآتاهم الله العذابَ أو النصرَ. ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ أي: أثبت فيها الخوفَ الذي يَرْعبُها، أي: يملؤها.

فيها خطوط مِن سواد وبَلَقْ

ولهذا راجعه فيه أبو عبيدة في خبر نقله في مجاز القرآن، ١/٤٤ (البقرة، ٢/٦٨)، فقال: «قال أبو عبيدة فقلتُ لرؤبة: إن كانت خطوطٌ فقل: "كأنّها"، وإن كانت سودٌ وبُلقٌ فقلْ: "كأنّهما"، فقال: كأنّ ذلك ويلك توليعُ البهَق».

[1] السِّبط مِن اليهود: كالقبيلة في العرب. لسان العرب لابن منظور، «سبط».

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٧٥.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة وأحمد بن أبي معاذ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٨.

﴿يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ ليسدّوا بما نَقَضوا منها مِن الخشب والحجارةِ أفواهَ الأزِقّة، ولئلّا يبقى بعد جلائهم مساكنُ للمسلمين، ولينقلوا معهم بعضَ آلاتها المرغوبِ فيها ممّا يقبل النقلَ. ﴿وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ حيث كانوا يُخرِّبونها إزالةً لمتحصّنهم ومتمنَّعهم وتوسيعًا لمجال القتالِ ونكايةً لهم. وإسنادُ هذا إليهم لِما أنّهم السبب فيه، فكأنّهم كلّفوهم إيّاه وأمروهم به. قيل: الجملة حال، أو تفسير لـ﴿ٱلرُّعۡبَ﴾.[١] وقُرِئ: "يُخَرِّبُونَ"[٢] بالتشديد للتكثير. وقيل: الإخرابُ: التعطيل، أو تركُ الشيء خرابًا، والتخريب: النقض والهدم.[٣]

﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ فاتّعِظوا بما جرى عليهم مِن الأمور الهائلة على وجه لا يكاد يهتدي إليه الأفكار واتّقوا مباشرة ما أدّاهم إليه مِن الكفر والمعاصي، أو انتقلوا مِن حال الفريقين إلى حال أنفسكم، فلا تعوّلوا على تعاضد الأسباب؛ بل توكّلوا على الله عزّ وجلّ، وقد استُدلّ به على حجّيّة القياس، كما فُصِّل في موقعه.

﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٤﴾

﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ﴾ أي: الخروج عن أوطانهم على ذلك الوجه الفظيع ﴿لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ بالقتل والسبي كما فُعل ببني قريظةَ، ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ استئناف غيرُ متعلِّق بجواب ﴿لَوۡلَا﴾، جيء به لبيان أنّهم إن نجَوا مِن عذاب الدنيا بكتابة الجلاء لا نجاةَ لهم مِن عذاب الآخرة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما حاق بهم وما سيحيق ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾ بسبب أنّهم ﴿شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وفعلوا ما فعلوا ممّا حُكي عنهم مِن القبائح. ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ وقُرِئ: "يُشَاقِقِ اللهَ"[٤] كما في الأنفال.[٥] والاقتصار على ذِكر مُشاقّته تعالى لتضمُّنها لمُشاقّته عليه السلام، / [١٨١و] وليُوافق قولَه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ وهو إمّا نفس الجزاء

---

١ الوجهان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٨٨/٣.
٢ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٨٦/٢.
٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٨٨/٣.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٨.
٥ الأنفال، ١٣/٨.

قد حُذف منه العائد إلى ﴿مَن﴾ عند مَن يلتزمه، أي: شديد العقاب له، أو تعليل للجزاء المحذوف، أي: يعاقبه الله، فإنّ الله شديدُ العقاب.

وأيًا ما كان فالشرطيّة تكملة لِما قبلها وتقريرٌ لمضمونه وتحقيقٌ للسببيّة بالطريق البرهاني، كأنّه قيل: ذلك الذي حاق بهم مِن العقاب العاجل والآجل بسبب مُشاقّتهم لله تعالى ورسوله، وكلّ[1] مَن يشاقِّ الله كائنًا مَن كان فله بسبب ذلك عقابٌ شديد، فإذن لهم عقابٌ شديد.

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝﴾

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ أي: أيُّ شيء قطعتم مِن نخلة، وهي فِعْلة مِن "اللون"، وياؤها مقلوبة مِن واوٍ لكسرةِ ما قبلها كـ"دِيمة" وتُجمَع على "ألوان". وقيل: مِن "اللّين" وتُجمَع على "لِيَن" وهي النخلة الكريمة. ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ الضمير لـ﴿مَا﴾، وتأنيثُه لتفسيره باللّينة كما في قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر، ٣٥/٢]. ﴿قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ كما كانت مِن غير أن تتعرَّضوا لها بشيء ما. وقُرئ: "عَلَى أُصُلِهَا"[2] إمّا على الاكتفاء مِن "الواو" بالضمّ، أو على أنّه جمع كـ"رُهُن". وقُرئ: "قَائِمًا"[3] على أصوله ذهابًا إلى لفظ ﴿مَا﴾. ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فذاك، أي: قطعُها وتركُها بأمر الله تعالى.

﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي: وليُذِلّ اليهود ويَغيظهم أذِن في قطعها وتركِها؛ لأنّهم إذا رأوا المؤمنين يتحكّمون في أموالهم كيف أحبُّوا، ويتصرَّفون فيها حسبما شاءوا مِن القَطْع والتركِ يزدادون غيظًا ويتضاعفون حسرةً.[4] واستُدلّ به على جواز هدمِ ديار الكفَرة وقطعِ أشجارهم وإحراقِ زروعهم زيادةً لغيظهم. وتخصيص اللِّينة بالقطع إن كانت مِن الألوان لاستبقاء العَجوة والبَرنيّة اللتين هما كِرامُ النخيل، وإن كانت هي الكِرام ليكون غيظهم أشدَّ.

---

[1] س - كلّ.

[2] قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٣٧٧/٤.

[3] قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٣٧٧/٤.

[4] وفي هامش م: لأنّ الترك أيضًا لمصلحة المؤمنين. «منه».

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ شروع في بيان حالِ ما أُخِذ مِن أموالهم بعد بيان ما حلّ بأنفسهم مِن العذاب العاجل والآجل، وما فُعل بديارهم ونخيلهم مِن التخريب والقطع، أي: ما أعاده إليه مِن مالهم. وفيه إشعارٌ بأنّه كان حقيقًا بأن يكون له عليه السلام، وإنّما وقع في أيديهم بغير حقّ فرجعه الله تعالى إلى مستحقّه؛ لأنّه تعالى خَلَق الناس لعبادته وخَلَق ما خَلَق ليتوسَّلوا به إلى طاعته، فهو جدير / بأنْ يكون للمطيعين. ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: مِن بني النَّضير. [١٨١ظ]

﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: فما أجريتم على تحصيله وتغنُّمه مِن الوجيف: وهو سرعة السَّير ﴿مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ هي ما يُركَب مِن الإبل خاصّة، كما أنّ الراكب عندهم راكبُها لا غيرُ، وأمّا راكب الفرس فإنّما يسمُّونه فارسًا، ولا واحدَ لها مِن لفظها، وإنّما الواحدة منها "راحلة"، والمعنى: ما قطعتُم لها شُقّةً بعيدةً ولا لقيتُم مشقّةً شديدةً ولا قتالًا شديدًا؛ وذلك لأنّه كانت قراهم على مِيلين مِن المدينة فمشَوا إليها مشيًا، وما كان فيهم راكب إلّا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فافتتحها صُلحًا مِن غير أن تجري بينهم مسايفةٌ، كأنّه قيل: وما أفاء الله على رسوله منهم فما حصَّلتموه بكدّ اليمين وعرقِ الجبين.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أي: سنّته تعالى جارية على أن يسلِّطهم على مَن يشاء مِن أعدائهم تسليطًا خاصًّا، وقد سلّط النبيَّ عليه السلام على هؤلاء تسليطًا غيرَ معتاد مِن غير أن تقتحموا مضايقَ الخطوب وتُقاسُوا شدائد الحروب، فلا حقَّ لكم في أموالهم.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيفعل ما يشاء كما يشاء تارةً على الوجوه المعهودة وأخرى على غيرها.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾

وقوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ بيان لمصارف الفيء بعد بيانِ إفاءته عليه عليه السلام مِن غير أن يكون للمقاتِلة فيه حقٌّ. وإعادةُ عين العبارة الأولى لزيادة التقرير، ووضعُ أهل القرى موضعَ ضميرهم للإشعار بشمول ما لعقاراتهم أيضًا.

﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ «اختُلف في قسمة الفيء، قيل: تُسدَّس لظاهر الآية ويُصرَف سهم الله إلى عِمارة الكعبة وسائر المساجد. وقيل: تُخمَّس؛ لأنّ ذِكر الله للتعظيم، ويُصرَف الآن سهمُ الرسول صلّى الله عليه وسلّم إلى الإمام على قول، وإلى العساكر والثغور على قول، وإلى مصالح المسلمين على قول. وقيل: / يُخمَّس خُمُسه كالغنيمة، فإنّه [١٨٢و] صلّى الله عليه وسلّم كان يقسِم الخُمُس كذلك، ويصرِف الأخماس الأربعةَ كما يشاء، والآن على الخلاف المذكور».[١]

﴿كَىْ لَا يَكُونَ﴾ أي: الفيءُ الذي حقُّه أن يكون للفقراء يعيشون به ﴿دُولَةًۢ﴾ بضمّ "الدال"، وقُرئ بفتحها،[٢] وهي ما يَدُول للإنسان، أي: يدور مِن الغنى والجَدّ والغَلَبة. وقيل: "الدَّولة" بالفتح مِن "المُلك" بالضمّ، وبالضمّ مِن "المِلك" بكسرها، أو بالضمّ في المال، وبالفتح في النُّصرة،[٣] أي: كيلا يكون جَدًّا ﴿بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ يتكاثرون به، أو كيلا يكون دولةً جاهليّةً بينكم؛ فإنّ الرؤساء منهم كانوا يستأثرون بالغنيمة ويقولون: «مَن عزّ بزّ».[٤] وقيل: الدُّولة بالضمّ: ما يُتداول كالغُرفة: اسم ما يُغترَف، فالمعنى كيلا يكون الفيء شيئًا يتداوله الأغنياء بينهم ويتعاورونه فلا يصيب الفقراءَ. والدَّولة بالفتح: بمعنى التداول، فالمعنى كيلا يكون ذا تداول بينهم، أو كيلا يكون إمساكه تداولًا بينهم لا يُخرِجونه إلى الفقراء.[٥] وقُرئ: "دَوْلَةٌ"[٦] بالرفع على أنّ "كان" تامّة، أي: كيلا يقع دولة، على ما فُصِّل مِن المعاني.

---

١ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٨٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب والسُّلمي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٩.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ١٨/٥٧٩.

٤ المستقصى للزمخشري، ٢/٣٥٧.

٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٧٨.

٦ قرأ بها أبو جعفر وهشام بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٦.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ أي: ما أعطاكموه مِن الفيء أو مِن الأمر ﴿فَخُذُوهُ﴾ فإنّه حقّكم أو فتمسّكوا به، فإنّه واجب عليكم. ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ عن أخذه أو عن تعاطيه ﴿فَٱنتَهُواْ﴾ عنه ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مخالفته عليه السلام. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فيُعاقب مَن يُخالف أمرَه ونهيَه.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨﴾

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ بدل مِن لـ﴿لِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وما عُطف عليه، فإنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم لا يُسمّى فقيرًا. ومَن[1] أعطى أغنياء ذوي القربى خصَّ الإبدال بما بعده، وأمّا تخصيصُ اعتبار الفقر بفيء بني النضير[2] فتعسفٌ ظاهر.

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ حيث اضطرّهم كفّار مكّة وأحوجوهم إلى الخروج وكانوا مائة رجل فخرجوا منها. ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: طالبين منه تعالى رزقًا في الدنيا ومرضاة في الآخرة، وُصفوا أوّلًا بما يدلّ على استحقاقهم للفيء مِن الإخراج مِن الدِّيار والأموال. وقُيِّد ذلك ثانيًا بما يُوجِب تفخيمَ شأنهم ويؤكِّده.

[١٨٢ظ] ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ / عطفٌ على ﴿يَبْتَغُونَ﴾، فهي حال مقدّرة، أي: ناوين لنصرة الله تعالى ورسوله أو مقارِنةٌ، فإنّ خروجهم مِن بين الكفّار مراغِمين لهم مهاجرين إلى المدينة نصرةٌ وأيُّ نصرة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما فُصِّل مِن الصفات الحميدة ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ الراسخون في الصِّدق حيث ظهر ذلك بما فعلوا ظهورًا بيّنًا.

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾

---

[1] وفي هامش م: كالشافعي وأحمدَ رحمهما الله تعالى. «منه».

[2] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٩٠.

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ كلام مستأنَف مسوقٌ لمدح الأنصار بخصال حميدة، مِن جملتها محبّتُهم للمهاجرين، ورضاهم باختصاص الفيء بهم أحسنَ رضا وأكمَلَه. ومعنى تبوُّئهم الدار أنّهم اتّخذوا المدينة والإيمان مباءةً وتمكّنوا فيهما أشدّ تمكُّن، على تنزيل الحالِ منزلةَ المكان. وقيل: ضُمِّن التبوّء معنى اللزوم.[١] وقيل: تبوّءوا الدار وأخلصوا الإيمان،[٢] كقول مَن قال:

علفتُها تِبنًا وماءً باردًا[٣]

وقيل: المعنى تبوّءوا دار الهجرة ودار الإيمان، فحُذف المضاف مِن الثاني، والمضاف إليه مِن الأوّل، وعُوِّض منه "اللام". وقيل: سمّى المدينة بالإيمان لكونها مَظهره ومنشأه.[٤]

﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مِن قبل هجرة المهاجرين، على المعاني الأُوَل؛ ومِن قبل تبوُّء المهاجرين، على الأخيرين. ويجوز أن يُجعَل اتّخاذ الإيمان مَباءةً ولزومَه وإخلاصَه على المعاني الأُوَل عبارةً عن إقامة كافّة حقوقه التي مِن جملتها إظهارُ عامّة شعائره وأحكامِه، ولا ريبَ في تقدّم الأنصارِ في ذلك على المهاجرين لظهور عجزهم عن إظهار بعضها لا عن إخلاصه قلبًا واعتقادًا؛ إذ لا يتصوَّر تقدُّمهم عليهم في ذلك.

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ خبر للموصول، أي: يحبُّونهم مِن حيث مهاجرتُهم إليهم لمحبّتهم الإيمانَ. ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ﴾ أي: في نفوسهم ﴿حَاجَةً﴾ أي: شيئًا محتاجًا إليه، يقال: "خُذْ منه حاجتَك"، أي: ما تحتاج إليه. وقيل: أثرَ حاجةٍ كالطلب والحَزازة والحسد والغيظ.[٥] ﴿مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ أي: ممّا أوتيَ المهاجرون مِن الفيء وغيره.

﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾ أي: يقدِّمون المهاجرين ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ في كلّ شيء مِن أسباب المعاش حتّى إنّ مَن كان عنده امرأتان كان ينزل عن إحداهما ويزوِّجها واحدًا منهم. ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: حاجة وخَلّة، وأصلُها خَصاص البيت: وهي فروجه. والجملة في حيّز الحال، وقد عرفتَ وجهَه مرارًا.

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ١٨/٥٨٤.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٧٩.

٣ لا يُعلَم قائله. ومضى تخريجه في تفسير الذاريات ٥١/٣٨.

٤ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٨٠.

٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٣٩٠.

وكان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قسَّم أموال بني النَّضير على المهاجرين ولم يُعطِ الأنصار إلّا ثلاثةَ نفر محتاجين: أبا دُجانةَ سِماكَ بن خَرَشةَ / وسهلَ [١٨٣و] بن حُنَيف والحارثَ بن الصِّمّة،[١] وقال لهم:[٢] «إن شئتم قسمتم للمهاجرين مِن أموالكم ودياركم، وشاركتموهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم، ولم يُقسَم لكم شيء مِن الغنيمة»، فقالت الأنصار: «بل نقسم لهم مِن أموالنا وديارنا ونُؤثِرهم بالغنيمة ولا نُشاركهم فيها»، فنزلت.[٣] وهذا صريح في أنّ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو﴾... إلخ مستأنَف غير معطوف على ﴿ٱلْفُقَرَآءِ﴾ أو ﴿ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾. نعم، يجوز عطفه على ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، فإنّ ذلك إنّما يستدعي شركةَ الأنصار للمهاجرين في الصِّدق دون الفيء، فيكون قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَ﴾ وما عُطف عليه استئنافًا مقرِّرًا لصدقهم، أو حالًا مِن ضمير ﴿تَبَوَّءُو﴾.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ الشحّ بالضمّ والكسر -وقد قُرئ به أيضًا-[٤] اللؤمُ، وإضافتُه إلى النفس لأنّه غريزة فيها مقتضية للحرص على المنع الذي هو البخل، أي: ومَن يُوقَ بتوفيق الله تعالى شحَّها حتّى يُخالفها فيما يغلب عليها مِن حبّ المال وبُغضِ الإنفاق.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿مَن﴾ باعتبار معناها العامّ المنتظِم للمذكورين انتظامًا أوّليًا. ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بكلّ مطلوب الناجون عن كلّ مكروه. والجملة اعتراض واردٌ لمدح الأنصار والثناءِ عليهم. وقُرئ: "يُوَقَّ"[٥] بالتشديد.

---

[١] هو الحارث بن الصمّة بن عمرو بن عتيك بن عمرو بن عامر أبو سعيد. صحب النبيّ عليه الصلاة والسلام وروى عنه. آخى النبيّ بينه وبين صُهيب بن سنان. ذُكر في أهل بدر، وشهد أحدًا مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وثبت حين انكشف الناس، وبايعه على الموت. وشهد بئر معونة واستشهد فيها. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٤٧١/٣؛ **والاستيعاب** لابن عبد البرّ، ٢٩٢/١؛ **والإصابة** لابن حجر، ٥٧٨/١.

[٢] وفي هامش م: أي: للأنصار. «منه».

[٣] بلفظ قريب في **معالم التنزيل** للبغوي، ٧٧/٨؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٣٨٠/٤.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٦٩.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البَرَهسم وأبي حَيْوَة وابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٦٩؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٧٨.

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ هم الذين هاجروا بعد ما قوي الإسلامُ، أو التابعون بإحسان، وهم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة، ولذلك قيل: إنّ الآية قد استوعبت جميع المؤمنين. وأيًّا ما كان فالموصولُ مبتدأ خبرُه ﴿يَقُولُونَ﴾... إلخ، والجملةُ مسوقة لمدحهم بمحبّتهم لمَن تقدّمهم مِن المؤمنين ومراعاتِهم لحقوق الأخوّة في الدِّين والسَّبق بالإيمان، كما أنّ ما عُطفت عليه مِن الجملة السابقة لمدح الأنصار، أي: يدعون لهم: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا﴾ أي: في الدِّين الذي هو أعزُّ وأشرفُ عندهم مِن النسب. ﴿ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ وصفوهم بذلك اعترافًا بفضلهم. ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا﴾ وقُرئ: "غِمْرًا"،[١] وهما الحقد. ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على الإطلاق. ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ أي: مبالغٌ في الرأفة والرحمة، فحقيقٌ بأن تُجيب دعاءنا.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١١﴾

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ حكايةٌ لِما جرى بين الكفرة والمنافقين مِن الأقوال الكاذبة والأحوال الفاسدة، وتعجيبٌ منها بعد حكاية محاسنِ أحوال المؤمنين وأقوالهم على اختلاف طبقاتهم. / والخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، [١٨٣ظ] أو لكلّ أحد ممّن له حظٌّ مِن الخطاب.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾... إلخ استئنافٌ لبيان المتعجَّب منه. وصيغةُ المضارع للدلالة على استمرار قولهم، أو لاستحضار صورته. و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ للتبليغ. والمراد بأخوّتهم

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مِقسَم وابن غزوان عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٧٨.

إمّا توافقُهم في الكفر أو صداقتُهم وموالاتُهم. و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ أي: مِن دياركم قسرًا، موطِّئة للقسم. وقوله تعالى: ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ جواب القسم، أي: والله لئن أُخرِجتم لنخرجنّ معكم البتّةَ ونذهبنَّ في صحبتكم أينما ذهبتُم ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ أي: في شأنكم ﴿أَحَدًا﴾ يمنعُنا مِن الخروج معكم ﴿أَبَدًا﴾ وإن طال الزمان.

وقيل: لا نُطيع في قتالكم أو خذلانِكم.[١] وليس بذاك؛ لأنّ تقدير القتال مترقَّب بعد، ولأنّ وعدهم لهم على ذلك التقدير ليس مجرّدَ عدم طاعتهم لمَن يدعوهم إلى قتالهم؛ بل نصرتهم عليه، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ أي: لنعاوننّكم على عدوّكم، على أنّ دعوتهم إلى خذلان اليهودِ ممّا لا يمكن صدوره عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمسلمين حتّى يدّعوا عدم طاعتهم فيها، ضرورةَ أنّها لو كانت لكانت عند استعدادهم لنُصرتهم وإظهارِ كفرهم، ولا ريبَ في أنّ ما يفعله عليه السلام عند ذلك قتلُهم لا دعوتُهم إلى ترك نُصرتِهم، وأمّا الخروج معهم فليس بهذه المرتبة مِن إظهار الكفر لجواز أن يدَّعوا أنّ خروجهم معهم لِما بينهم مِن الصداقة الدنيويّة، لا للموافقة في الدين.

﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ في مواعيدهم المؤكَّدة بالأيمان الفاجرة.

﴿لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ۝١٢﴾

وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾... إلخ تكذيبٌ لهم في كلّ واحد مِن أقوالهم على التفصيل بعد تكذيبهم في الكلّ على الإجمال. ﴿وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ وكان الأمر كذلك، فإنّ ابن أُبيّ وأصحابه أرسلوا إلى بني النَّضير ذلك سرًّا ثمّ أخلفوهم. وفيه حُجّة بيّنة لصحّة النبوّة وإعجازِ القرآن.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٨١.

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ على الفَرْض والتقدير ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ فِرارًا ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: المنافقون بعد ذلك، أي: يُهلكهم الله ولا ينفعهم نفاقُهم لظهور كفرهم، أو لينهزِمَنّ اليهودُ ثمّ لا ينفعهم نُصرة المنافقين.

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ أي: أشدُّ مرهوبيّةً، على أنها مصدر مِن المبنيّ للمفعول. ﴿فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رهبتُهم منكم في السرّ أشدُّ ممّا يُظهرونه لكم مِن رهبة الله، فإنّهم كانوا يدَّعون عندهم رهبةً عظيمةً مِن الله تعالى. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن كون رهبتهم منكم أشدَّ مِن رهبة الله ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنّهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: شيئًا حتّى يعلموا عظمةَ الله تعالى / فيخشَوه حقَّ خشيته. [١٨٤و]

﴿لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾ أي: اليهودُ والمنافقون، بمعنى لا يقدِرون على قتالكم ﴿جَمِيعًا﴾ أي: مجتمعين متّفقين في موطِن مِن المواطن ﴿إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ بالدروب والخنادق ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ دون أن يُصحِرُوا لكم ويُبارزوكم، لفرط رهبتهم. وقُرئ: "جُدْرٍ"[١] بالتخفيف، وقُرئ: "جِدَارٍ"،[٢] وبإمالة فتحة "الدال"،[٣] و"جَدْرٍ"،[٤] و"جَدَرٍ"،[٥] وهما الجِدار.

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ استئناف سِيق لبيان أنّ ما ذُكر مِن رهبتهم ليس لضعفهم وجُبنهم في أنفسهم، فإنّ بأسهم بالنسبة إلى أقرانهم شديدٌ، وإنّما ضعفهم وجبنُهم بالنسبة إليكم بما قذف الله عزّ وجلّ في قلوبهم مِن الرعب. ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ مجتمعين متّفقين ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متفرِّقة لا ألفةَ بينها.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء وابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٦٩.

٢ قرأ بها ابن كثير. **النشر** لابن الجزري، ٣٨٦/٢.

٣ قرأ بها أبو عمرو. **النشر** لابن الجزري، ٣٨٦/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن ومجاهد واليماني، وهارون عن ابن كثير. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٦٩؛ **المغني في القراءات** للنُوزاوازي، ص ١٧٧٩.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وابن أبي عبلة، وابن جُبير عن ابن كثير. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٦٩؛ **المغني في القراءات** للنُوزاوازي، ص ١٧٧٩.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي: ما ذُكر مِن تشتّت قلوبهم بسبب أنّهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا يعقلون شيئًا حتّى يعرفوا الحقّ ويتّبعوه وتطمئنّ به قلوبهم وتتّحد كلمتهم ويَرمُوا عن قوس واحدة، فيقعون في تِيه الضلال وتتشتَّت قلوبهم حسب تشتُّت طرقه وتفرُّق فنونه. وأمّا ما قيل مِن أنّ المعنى: لا يعقلون أنّ تشتّت القلوب ممّا يُوهِن قواهم،[1] فبمَعزِل مِن السَّداد.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٥ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦﴾

وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف تقديرُه "مَثلُهم"، أي: مَثلُ المذكورين مِن اليهود والمنافقين كمَثل أهل بدر، أو بني قينُقاع على ما قيل: إنّهم أُخرِجوا قبل بني النَّضير.[2] ﴿قَرِيبًا﴾ في زمان قريب. وانتصابُه بـ﴿مَثَلِ﴾؛ إذ التقديرُ كوقوع مَثل... إلخ.

﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: سوءَ عاقبة كفرهم في الدنيا ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لا يُقادَر قَدْرُه. والمعنى أنّ حال هؤلاء كحال أولئك في الدنيا والآخرة، لكن لا على أنّ حال كلّهم كحالهم؛ بل حال بعضهم الذين هم اليهود كذلك.

وأمّا حالُ المنافقين فهي ما نطق به قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، فإنّه خبر ثانٍ للمبتدأ المقدّر مبيِّن لحالهم متضمِّن لحال أخرى لليهود، وهي اغترارهم بمقالة المنافقين أوّلًا وخيبتُهم آخرًا، وقد أُجمِل في النظم الكريم، حيث أُسنِد كلّ مِن الخبرين إلى المقدَّر المضاف إلى ضمير الفريقين مِن غير تعيين ما أُسنِد إليه بخصوصه ثقةً بأنّ السامع يرُدّ كلًّا مِن المَثلين إلى ما يُماثله. كأنّه قيل: مَثلُ اليهود في حلول العذاب بهم كمَثل الذين مِن قبلهم... إلخ، ومَثل المنافقين في إغرائهم إيّاهم على القتال حسبما نقل عنهم كمَثل الشيطان.

﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ أي: أغراه على الكفر إغراءَ الآمر المأمور على المأمور به، ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ﴾ وقُرِئَ:" أَنَا بَرِيءٌ مِنْكَ".[3] إن أريدَ

---

[1] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٨١/٤-٣٨٢.
[2] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٢/٣.
[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٩.

بالإنسان الجنسُ فهذا التبرُّء مِن الشيطان يكون يومَ القيامة، كما يُنبئ عنه قوله تعالى:[١] ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وإن أريدَ به أبو جهل، فقوله تعالى: ﴿ٱكۡفُرۡ﴾ عبارةٌ عن قول إبليسَ يومَ بدر: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡ﴾ [الأنفال، ٤٨/٨]، وتبرؤه قولُه يومئذ: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ الآية [الأنفال، ٤٨/٨].

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧﴾

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ بالنصب على أنّه خبر ﴿كَانَ﴾ واسمها. ﴿أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ﴾ وقُرئ بالعكس،[٢] وقد مرّ أنّه / أوضحُ. ﴿خَٰلِدَيۡنِ فِيهَا﴾ وقُرئ: "خَالِدَانِ فِيهَا"[٣] على أنّه خبر ﴿أَنَّ﴾ و﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ لغوٌ. ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الخلودُ في النار جزاءُ الظالمين على الإطلاق دون هؤلاء خاصّة. [١٨٤ظ]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: في كلّ ما تأتون وما تذرون ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ أي: أيَّ شيء قدّمت ليوم القيامة. عُبّر عنه بذلك لدنوّه، أو لأنّ الدنيا كيومٍ والآخرةُ غدُه. وتنكيره لتفخيمه وتهويله، كأنّه قيل: لغدٍ لا يُعرَف كنهه لغاية عِظَمه، وأمّا تنكيرُ ﴿نَفۡسٞ﴾ فلاستقلال الأنفس النواظر فيما قدمن لذلك اليوم الهائل، كأنّه قيل: ولتنظُر نفسٌ واحدة في ذلك.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تكرير للتأكيد، أو الأوّل في أداء الواجبات، كما يُشعِر به ما بعده مِن الأمر بالعمل، وهذا في ترك المحارم، كما يؤذِن به الوعيد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي: مِن المعاصي.

---

١ م - تعالى.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن محيصن وابن مِقسَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٦٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٨٠.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وزيد بن عليّ والأعمش وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٨٠.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: نسُوا حقوقه تعالى وما قدّروه حقّ قدره، ولم يراعوا مواجب أوامره ونواهيه حقَّ رعايتها، ﴿فَأَنسَىٰهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ أي: جعلهم ناسين لها حتّى لم يسمعوا ما ينفعها ولم يفعلوا ما يخلِّصها، أو أراهم يوم القيامة ما أنساهم أنفسَهم. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ الكاملون في الفسوق.

﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾ الذين نسُوا الله تعالى فاستحقُّوا الخلودَ في النار ﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ الذين اتقوا الله فاستحقُّوا الخلودَ في الجنَّة. ولعلّ تقديمَ ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾ في الذِّكر للإيذان مِن أوّل الأمر بأنّ القصور الذي يُنبئ عنه عدمُ الاستواء مِن جهتهم لا مِن جهة مقابليهم، فإنّ مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتَين زيادةً ونقصانًا وإن جاز اعتبارُه بحسب زيادة الزائد لكن المتبادر اعتبارُه بحسب نُقصانِ الناقص، وعليه قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد، ١٦/١٣]، إلى غير ذلك مِن المواقع. وأمّا قوله تعالى: / ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر، ٩/٣٩]، فلعلّ تقديمَ الفاضل فيه لأنّ صلته مَلَكة لصلة المفضول والأعدام مسبوقة بمَلَكاتها. [١٨٥و]

ولا دلالةَ في الآية الكريمة على أنّ المسلم لا يُقتصّ بالكافر وأنّ الكفّار لا يملكون أموالَ المسلمين بالقهر؛[١] لأنّ المراد عدم الاستواء في الأحوال الأخرويّة، كما يُنبئ عنه التعبير عن الفريقين بصاحبيّة النار وصاحبيّةِ الجنّة، وكذا قوله تعالى: ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ فإنّه استئناف مبيّن لكيفيّة عدم الاستواءِ بين الفريقين، أي: هم الفائزون بكلّ مطلوب، الناجُون عن كلّ مكروه.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ العظيمَ الشأنِ المنطوي على فنون القوارع ﴿عَلَىٰ جَبَلٍ﴾

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٨٣/٤.

مِن الجبال ﴿لَرَأَيْتَهُۥ﴾ مع كونه عَلَمًا في القسوة وعدمِ التأثّر ممّا يُصادمه ﴿خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: متشقِّقًا منها. وقُرئ: "مُصَّدِّعًا"[١] بالإدغام. وهذا تمثيل وتخييل لعُلوّ شأن القرآن وقوّةِ تأثير ما فيه مِن المواعظ، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أريدَ به توبيخُ الإنسان على قسوة قلبه وعدمِ تخشّعه عند تلاوته وقلّةِ تدبّره فيه.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وحدَه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: ما غاب عن الحسّ مِن الجواهر القدسيّة وأحوالها وما حضَر له مِن الأجرام وأعراضِها، وتقديمُ الغيب على الشهادة لتقدّمه في الوجود وتعلّق العِلمِ القديم به، أو المعدومِ[٢] والموجودِ، أو السرِّ والعلانيةِ.

﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۞ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كُرِّر لإبراز الاعتناء بأمر التوحيد. ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ البليغ في النزاهة عمّا يُوجِب نقصانًا ما. وقُرئ بالفتح،[٣] وهي لغة فيه. ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ ذو السلامة مِن كلّ نقصٍ وآفةٍ، مصدرٌ وُصِف به للمبالغة. ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ واهبُ الأمن. وقُرئ بالفتح[٤] بمعنى المؤمَن به على حذف الجارّ. ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ الرقيبُ الحافظُ لكلّ شيء "مُفَيْعِل" مِن الأمن بقلب همزته هاءً. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالبُ ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ الذي جَبَر خلقَه على ما أراد، أو جَبَر أحوالهم، أي: أصلحها. ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي تكبَّر عن كلّ ما يُوجِب حاجةً أو نقصانًا،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٠.

٢ السياق: ما غاب... أو المعدوم...

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي الدِّينار والأعرابي وزيد بن عليّ وابن أبي عبلة وأبي السّمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٨٠.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر محمّد بن عليّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٥٥.

أو البليغُ الكبرياء والعظمة. ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ تنزيه له تعالى عمّا يشركونه به تعالى، أو عن إشراكهم به تعالى / إثرَ تعداد صفاته التي لا يمكن أن يُشاركه تعالى في شيء منها شيءٌ ما أصلًا. [١٨٥ظ]

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ﴾ المقدِّر للأشياء على مقتضى حكمته ﴿ٱلۡبَارِئُ﴾ المُوجِد لها بريئًا مِن التفاوت. وقيل: المميِّز بعضها مِن بعض بالأشكال المختلفة.[١] ﴿ٱلۡمُصَوِّرُۖ﴾ الموجد لصورها وكيفيّاتها كما أراد. ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ لدلالتها على المعاني الحسنة. ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ ينطق بتنزّهه عن جميع النقائص تنزّهًا ظاهرًا. ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ الجامع للكمالات كافّةً فإنّها مع تكثّرها وتشعّبها راجعةٌ إلى الكمال في القدرة والعِلم.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الحشر غفر الله له ما تقدَّم مِن ذنبه وما تأخَّر».[٢]

---

[١] القول في معالم التنزيل للبغوي، ٨/٨٨.

[٢] بمعناه في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦/١٧٨ (الحشر، ١/٥٩)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٤/٢٦٩ (الحشر، ١/٥٩)؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٨٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

سورة الممتحنة

مدنيّة، وآيها[1] ثلاث عشرة.[2]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ نزلت في حاطب بن أبي بَلْتعة،[3] وذلك أنّه لمّا تجهّز رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لغزوة الفتح كتب إلى أهل مكّة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يريدكم فخُذوا حِذركم وأرسله مع سارة مولاة بني المطّلب، فنزل جبريلُ عليه السلام بالخبر، فبعث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عليًّا وعمّارًا وطلحةَ والزُّبير والمِقداد وأبا مَرثَد، وقال: «انطلقوا حتّى تأتوا روضة خاخ،[4] فإنّ بها ظعينةً معها كتاب حاطبٍ إلى أهل مكّة، فخذوه منها وخلّوها، فإنْ أبتْ فاضربوا عُنقها»، فأدركوها ثمّة فجحدتْ، فسلّ عليٌّ سيفه، فأخرجته مِن عِقاصها، فاستحضر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حاطبًا وقال: «ما حملك على هذا؟»، فقال: يا رسولَ الله

---

[1] س: وهي.

[2] س ي + آية.

[3] هو حاطب بن أبي بلتعة بن عمرو بن عمير بن سلمة اللخمي المكّي (ت. ٣٠هـ/٦٥٠م). حليف بني أسد بن عبد العُزّى بن قُصيّ. مِن مشاهير المهاجرين اشتهر بقصّة كتابه إلى مكّة. شهد المشاهد كلّها. وكان رسولَ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم إلى المقوقس صاحب مصر. وهو مِن الرُّماة الموصوفين، له تجارة واسعة، كان أحد فرسان قريش وشعرائها في الجاهليّة. انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ، ٣١٢/١، والإصابة لابن حجر، ٤/٢، والأعلام للزركلي، ١٥٩/٢.

[4] روضة خاخ: موضع بين الحرمين بقرب حمراء الأسد مِن المدينة. انظر: معجم البلدان للحموي، ٣٣٥/٢.

[١٨٦و] ما كفرتُ منذ أسلمتُ، ولا غششتُك منذ نصحتُك، ولكنّي كنتُ / امرءًا مُلصَقًا في قريش ليس فيهم مَن يحمي أهلي، فأردتُ أن آخذ عندهم يدًا، وقد علمتُ أنّ كتابي لن يُغنيَ عنهم شيئًا. فصدَّقه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وقبِل عُذرَه.[١]

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي: توصلون إليهم المودّةَ، على أنّ "الباء" زائدة كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة، ١٩٥/٢]، أو تُلقون إليهم أخبارَ النبيّ عليه السلام بسبب المودّة التي بينكم وبينهم. والجملة إمّا حال مِن فاعل ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾ أو صفة لـ﴿أَوْلِيَآءَ﴾. وإبرازُ الضمير في الصفات الجارية على غير مَن هي له إنّما يشترط في الاسم دون الفعل، أو استئناف.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ حال مِن فاعل ﴿تُلْقُونَ﴾. وقيل: مِن فاعل ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾.[٢] وقُرئ: "لِمَا جَاءَكُمْ"،[٣] أي: كفروا لأجل ما جاءكم بمعنى: جُعل ما هو سبب الإيمان سببًا للكفر.

﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: مِن مكّة، وهو إمّا حال مِن فاعل ﴿كَفَرُوا۟﴾، أو استئناف مبيِّن لكفرهم. وصيغة المضارع لاستحضار الصورة. وقوله تعالى: ﴿أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ تعليل للإخراج وفيه تغليبُ المخاطَب على الغائب، والتفاتٌ مِن التكلّم إلى الغَيبة، للإشعار بما يوجِب الإيمان مِن الألوهيّة والربوبيّة. ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ متعلّق بـ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾، كأنّه قيل: لا تتولّوا أعدائي إن كنتم أوليائي.

وقوله تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ استئناف واردٌ على نهج العِتاب والتوبيخ، أي: تُسِرُّون إليهم المودّةَ أو الأخبارَ بسبب المودّة. ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ﴾ أي: والحالُ أنّي أعلمُ منكم ﴿بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ ومُطلِع رسولي على ما تُسرُّون، فأيُّ طائل لكم في الإسرار. وقيل: ﴿أَعْلَمُ﴾ مضارع و"الباء" مزيدة و﴿مَا﴾ موصولة أو مصدريّة.[٤] وتقديم الإخفاءِ على الإعلان قد مرّ وجهُه

---

[١] بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٥٩/٤ (٣٠٠٧)؛ وصحيح مسلم، ١٩٤١/٤ (٢٤٩٤).

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٣٨٦/٤.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجَحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٠.

[٤] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٦/٣.

في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة، ٧٧/٢]. ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ أي: الاتّخاذ ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فقد أخطأ طريق الحقّ والصواب.

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣﴾

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ أي: إن يظفروا بكم ﴿يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ / أي: يُظهِروا [١٨٦ظ] ما في قلوبهم مِن العداوة ويرتّبوا عليها أحكامها ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ بما يسوءكم مِن القتل والأسر والشتم ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: تمنَّوا ارتدادكم. وصيغة الماضي للإيذان بتحقّق وَدادتهم قبل أن يَثْقَفوهم أيضًا.

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ قراباتكم ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ الذين تُوالون المشركين لأجلهم وتتقرّبون إليهم محاماةً عليهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بجَلْب نفع أو دَفْع ضرّ، ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ استئنافٌ لبيان عدم نفعِ الأرحام والأولاد يومئذ، أي: يفرِّق الله بينكم بما اعتراكم مِن الهَول الموجِب لفرار كلّ منكم مِن الآخر حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ الآية [عبس، ٣٤/٨٠]، فما لكم ترفضون حقّ الله تعالى لمراعاة حقّ مَن هذا شأنه. وقُرئ: "يُفْصَلُ"[١] و"يُفَصَّلُ"[٢] مبنيًا للمفعول، و"يُفْصِلُ"[٣] و"يُفَصِّلُ"[٤] مبنيًا للفاعل وهو الله تعالى، و"نُفْصِلُ"[٥] و"نُفَصِّلُ"[٦] بـ"النون". ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيُجازيكم به.

---

[١] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وهشام بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٨٧/٢.

[٢] قرأ بها ابن ذكوان وهشام بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٨٧/٢.

[٣] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٨٧/٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وابن مِقسَم، وهارون عن أبي عمرو، وابن أبي ليلى. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٥٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٨٢.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مجاهد عن طلحة. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٨٣.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوة وطلحة وابن أبي عبلة. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٨٣.

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٥﴾

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: خَصلة حميدة حقيقة بأن يُؤتسى ويُقتدى بها. وقوله تعالى: ﴿فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ أي: مِن أصحابه المؤمنين صفة ثانية لـ﴿أُسْوَةٌ﴾، أو خبر لـ﴿كَانَ﴾، و﴿لَكُمْ﴾ للبيان، أو حال مِن المستكنّ في ﴿حَسَنَةٌ﴾، أو صلة لها، لا لـ﴿أُسْوَةٌ﴾ عند مَن لا يجوِّز العمل بعد الوصف.

﴿إِذْ قَالُواْ﴾ ظرف لخبر ﴿كَانَ﴾ ﴿لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ﴾ جمع "بريء" كـ"ظَرِيف" و"ظُرَفاء". وقُرِئ: "بِرَاءٌ"[1] كـ"ظِراف"، و"بُرَاءٌ"[2] كـ"رُخَال"، و"بَرَاءٌ"[3] على الوصف بالمصدر مبالغةً. ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مِن الأصنام ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي: بدينكم أو بمعبودكم، أو بكم وبه، فلا نعتدّ بشأنكم وبآلهتكم.

﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا﴾ أي: هذا دأبنا معكم لا نتركه ﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ وتتركوا ما أنتم عليه مِن الشِّرك فينقلب العداوةُ حينئذ ولايةً والبغضاءُ محبّةً.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ استثناء مِن قوله تعالى: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، فإنّ استغفاره عليه السلام لأبيه الكافر، وإن كان جائزًا عقلًا وشرعًا لوقوعه قبل تبيُّن أنّه مِن أصحاب الجحيم كما نطق به النصُّ، لكنّه ليس ممّا ينبغي أن يُؤتسى به أصلًا؛ إذ المراد به ما يجب الائتساءُ به حتمًا لورود الوعيد / على [١٨٧و] الإعراض عنه بما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحديد، ٢٤/٥٧]، فاستثناؤه عن الأسوة إنّما يفيد عدمَ وجوب استدعاءِ الإيمان

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الثقفي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧١.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧١.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧١.

والمغفرةِ للكافر المرجوّ إيمانه، وذلك ممّا لا يرتاب فيه عاقل، وأمّا عدم جوازه فلا دلالةَ للاستثناء عليه قطعًا.

هذا، وأمّا تعليلُ عدم كونِ استغفاره عليه السلام لأبيه الكافر ممّا ينبغي أن يُؤتسى به بأنّه[١] كان قبل النهي أو لمَوعدة وعدها إيّاه،[٢] فبمَعزِل مِن السَّداد بالكلّيّة؛ لابتنائه على تناول النهي لاستغفاره عليه السلام له، وإنبائه عن كونه مؤتسًى به لو لم يُنهَ عنه، وكلاهما بيّن البطلان لِما أنّ مورد النهي هو الاستغفارُ للكافر بعد تبيّن أمره، وقد عرفتَ أنّ استغفاره عليه السلام لأبيه كان قبل ذلك قطعًا، وأنّ ما يُؤتسى به ما يجب الائتساء به، لا ما يجوز فعله في الجملة، وتجويزُ أن يكون استغفاره عليه السلام له بعد النهي كما هو المفهوم مِن ظاهر قوله:[٣] "أو لموعدة وعدها إيّاه" ممّا لا مساغَ له.

وتوجيه الاستثناء إلى العِدَة بالاستغفار لا إلى نفس الاستغفار بقوله: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِي﴾ الآية [الشعراء، ٨٦/٢٦]؛ لأنّها كانت هي الحاملة له عليه السلام على الاستغفار، وتخصيصُ هذه العِدَة بالذِّكر دون ما وقع في سورة مريم مِن قوله تعالى: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [مريم، ٤٧/١٩] لورودها على طريق التوكيد القَسَمي، وأمّا جعلُ الاستغفار دائرًا عليها وترتيبُ التبرّؤ على تبيُّن الأمر فقد مرّ تحقيقه في سورة التوبة.[٤]

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ مِن تمام القول المستثنى، محلُّه النصب على أنّه حال مِن فاعل ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾، أي: أستغفر لك وليس في طاقتي إلّا الاستغفار، فموردُ الاستثناء نفسُ الاستغفار لا قيدُه الذي هو في نفسه مِن خصال الخير لكونه إظهارًا للعجز وتفويضًا للأمر إلى الله تعالى.

وقوله تعالى:[٥] ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾... إلى آخره، / مِن تمام ما نُقل عن إبراهيمَ عليه السلام ومَن معه مِن الأسوة الحسنة. [١٨٧ظ]

---

١ السياق: وأمّا تعليل... بأنّه...
٢ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٦/٣.
٣ أي: البيضاوي.
٤ التوبة، ١١٤/٩.
٥ س – وقوله تعالى.

وتقديم الجارّ والمجرور لقَصْر التوكّل والإنابةِ والمصير على الله تعالى، قالوه بعد المجاهرة وقشرِ العصا التجاءً إلى الله عزّ وجلّ في جميع أمورهم لا سيّما في مدافعة الكفَرة وكفايةِ شرورِهم، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأن تُسلِّطهم علينا فيفتنونا بعذاب لا نُطيقه، ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ ما فرط منّا مِن الذنوب، ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يذلّ مَن التجأ إليه ولا يخيب رجاءُ مَن توكّل عليه، ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلّا ما فيه حكمةٌ بالغة. وتكرير النداء للمبالغة في التضرّع والجؤار.

هذا، وأمّا جعل الآيتين تلقينًا للمؤمنين مِن جهته تعالى وأمرًا لهم بأن يتوكّلوا عليه وينيبوا إليه ويستعيذوا به مِن فتنة الكفرة ويستغفروا ممّا فرط منهم تكملةً لِما وصّاهم به مِن قطع العلائق بينهم وبين الكفرة،[١] فلا يُساعده النظم الكريم.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ﴾ أي: في إبراهيمَ ومَن معه ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ تكرير للمبالغة في الحثّ على الائتساء به عليه السلام، ولذلك صُدِّر بالقسم. وقوله تعالى: ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ بدل مِن ﴿لَكُمْ﴾، فائدتُه الإيذان بأنّ مَن يؤمن بالله واليوم الآخر لا يترك الاقتداءَ بهم وأنّ تركه مِن مخايل عدم الإيمان بهما، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ فإنه ممّا يُوعَد بأمثاله الكفرة.

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم﴾ أي: مِن أقاربكم المشركين ﴿مَّوَدَّةً﴾ بأن يوافقوكم في الدِّين. وَعَدهم الله تعالى بذلك لِما رأى منهم مِن التصلّب في الدِّين والتشدّد في مُعاداة آبائهم وأبنائهم وسائر أقربائهم

---

١ كما في الكشّاف للزمخشري، ٣٨٨/٤.

ومقاطعتهم إيّاهم بالكلّيّة تطييبًا[١] لقلوبهم، ولقد أنجز وعدَه الكريم حين أتاح لهم الفتح، فأسلم قومهم فتمّ بينهم مِن التّحابّ والتّصافي ما تمّ.

﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ أي: مبالِغ في القدرة، فيقدر على تقليب القلوب وتغييرِ الأحوال وتسهيلِ أسباب المودّة. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيغفر لمَن أسلم مِن المشركين ويرحمهم. / وقيل: غفور لِما فرط منكم في موالاتهم مِن قبل ولِما بقي في قلوبكم مِن مَيل الرَّحِم.[٢] [١٨٨و]

﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩﴾

﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ أي: لا ينهاكم عن البرّ بهؤلاء، فإنّ قوله تعالى: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ بدل مِن الموصول. ﴿وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ أي: تُفضوا إليهم بالقسط، أي: العدل. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي: العادلين.

رُوي أنّ قُتيلةَ بنت عبد العُزّى[٣] قدِمتْ مشركةً على بنتها أسماءَ بنت أبي بكر رضي الله عنه بهدايا، فلم تقبلها ولم تأذن لها بالدخول، فنزلت، فأمرها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن تُدخِلها وتقبل منها وتُكرِمها وتُحسِن إليها.[٤] وقيل: المراد بهم خزاعةُ، وكانوا صالحوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على ألّا يقاتلوه ولا يُعينوا عليه.[٥]

---

١ السياق: وعدهم... تطييبًا...

٢ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣٩٧/٣.

٣ هي قُتيلة بنت عبد العُزّى العامريّة، كانت زوجة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، وطلّقها في الجاهلية، وله مِن الولد منها أسماء ذات النطاقين وعبد الله. لم تدخل الإسلام. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٥٥/٣، ٢٤٠/١٠.

٤ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٥٧٢/٢٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٩٦/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٨٩/٤.

٥ مرويّ عن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ٩٥/٨.

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ وهم عتاةُ أهل مكّة ﴿وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ﴾ وهم سائر أهلها ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ بدل اشتمال مِن الموصول، أي: إنّما ينهاكم عن أن تتولّوهم، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لوضعهم الولاية في موضع العداوة، أو هم الظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ بيان لحكم مَن يُظهِر الإيمان بعد بيان حُكم فريقَي الكافرين ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ مِن بين الكفّار ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ فاختبروهنّ بما يغلِب على ظنّكم موافقةُ قلوبهنّ للسانهنّ في الإيمان. يُروى أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يقول للتي يمتحنها: «بالله الذي لا إلهَ إلّا هو ما خرجتِ مِن بغض زوج؟ بالله ما خرجتِ رغبةً عن أرضٍ إلى أرضٍ؟ بالله ما خرجتِ التماسَ دنيا؟ بالله ما خرجتِ إلّا حبًّا لله ولرسوله؟».[١] ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ لأنّه المطّلع على ما في قلوبهنّ. والجملة اعتراضٌ.

﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾ بعد الامتحان ﴿مُؤْمِنَٰتٍ﴾ عِلمًا يُمكنكم تحصيلُه وتبلغه طاقتُكم بعد اللُّتيّا والتي،[٢] مِن الاستدلال بالعلائم والدلائل والاستشهاد بالأمارات والمَخايل وهو الظنّ الغالب. وتسميتُه عِلمًا للإيذان بأنّه جارٍ مَجرى العِلم في وجوب العمل به. ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: إلى أزواجهنّ الكفَرة لقوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ فإنّه تعليل للنهي عن رجعهنّ إليهم.

---

١ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٢٢/١٥٧٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٩٨/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٩٠/٤.

٢ اللُّتيّا والَّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللُّتيّا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١٦٤/١.

والتكرير إمّا لتأكيد الحرمة، أو لأنّ الأوّل / لبيان زوال النكاح الأوّل، والثاني [١٨٨ظ] لبيان امتناعِ النكاح الجديد.

﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ أي: وأعطُوا أزواجهنّ مِثلَ ما دفعوا إليهنّ مِن المهور، وذلك أنّ صُلح الحديبية كان على أنّ مَن جاءنا منكم رددناه، فجاءت سُبيعةُ بنت الحارث الأسلميّة[١] مسلمةً، والنبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالحديبية، فأقبل زوجها مُسافرٌ المخزوميُّ، وقيل: صيفيُّ بن الراهب، فقال: يا محمّد، اردُد عليّ امرأتي، فإنّك قد شرطتَ أن تردّ علينا مَن أتاك منّا، فنزلت لبيان أنّ الشرط إنّما كان في الرجال دون النساء، فاستحلفها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فحلفت، فأعطى زوجها ما أنفق، وتزوّجها عمرُ رضي الله عنه.[٢]

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ فإنّ إسلامهنّ حالَ بينهنّ وبين أزواجهنّ الكفّار ﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ شُرط إيتاءُ المهر في نكاحهنّ إيذانًا بأنّ ما أعطيَ أزواجهنّ لا يقوم مقامَ المهر. ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ جمع عِصمة، وهي: ما يُعتصَم به مِن عقدٍ وسبب، أي: لا يكن بينكم وبين المشركات عِصمة ولا عُلْقَةُ زوجيّةٍ. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: مَن كانت له امرأة كافرة بمكّة فلا يعتدّنّ بها مِن نسائه؛ لأنّ اختلاف الدارين قَطَع عصمتَها منه. وعن النخَعي رحمه الله: هي المسلمة تلحق بدار الحرب فتكفر. وعن مجاهدٍ: أمرَهم بطلاق الباقيات مع الكفّار ومفارقتهنّ.[٣] وقُرئ: "وَلَا تُمَسِّكُوا"[٤] بالتشديد و"لَا تَمَسَّكُوا"[٥] بحذف إحدى التاءين مِن "تتمسّكوا". ﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ﴾ مِن مهور نسائكم اللاحقات بالكفّار ﴿وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ مِن مهور أزواجهم المهاجرات.

---

[١] هي سُبيعة بنت الحارث الأسلميّة كانت تحت سعد بن خولة، فتوّفي عنها ونُفِست بعد وفاة زوجها بليالٍ فجاءت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فاستأذنته أن تَنكِح فأذِن لها فنكَحت، وروى هذا الحديث عنها فقهاء المدينة وفقهاء الكوفة. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٢٧٢/١٠؛ و**الإصابة** لابن حجر، ٦٩٠/٧.

[٢] بلفظ قريب في **معالم التنزيل** للبغوي، ٩٧/٨-٩٨؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٣٩٠/٤.

[٣] بلفظ قريب في **الكشّاف** للزمخشري، ٣٩١/٤.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مِقسَم ومعاذ. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٨٥.

[٥] قرأ بها أبو عمرو ويعقوب. **النشر** لابن الجزري، ٣٨٧/٢.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي ذُكِر ﴿حُكْمُ ٱللَّهِ﴾. وقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ كلام مستأنَف، أو حال مِن ﴿حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ على حذف الضمير، أي: يحكمه الله، أو جُعل الحُكم حاكمًا على المبالغة. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ / يشرع ما يقتضيه الحكمةُ البالغة. [١٨٩و]

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

رُوي أنّه لمّا نزلت الآية أدّى المؤمنون ما أُمِروا به مِن مهور المهاجرات إلى أزواجهنّ المشركين وأبى المشركون أن يؤدّوا شيئًا مِن مهور الكوافر إلى أزواجهنّ المسلمين، فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ﴾ أي: سبقكم وانفلتَ منكم ﴿شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: أحد مِن أزواجكم، وقد قُرئ كذلك.[١] وإيقاعُ ﴿شَىْءٌ﴾ موقعَه للتحقير والإشباع في التعميم، أو شيءٌ مِن مهور أزواجكم. ﴿فَعَاقَبْتُم﴾ أي: فجاءت عُقْبَتُكم، أي: نَوبتكم مِن أداء المهر، شُبِّه ما حُكم به على المسلمين والكافرين مِن أداء هؤلاء مهورَ نساء أولئك تارةً وأداء أولئك مهورَ نساء هؤلاء أخرى بأمر يتعاقبون فيه كما يُتَعاقب في الركوب وغيرِه. ﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ مِن مَهر المهاجِرة التي تزوّجتموها، ولا تُؤتوه زوجَها الكافر.

وقيل: معناه إن فاتكم فأصبتُم مِن الكفّار عُقبى، هي الغنيمة فآتوا بدلَ الفائت مِن الغنيمة.[٢] وقُرئ: "فَأَعْقَبْتُمْ"،[٣] و"فَعَقَّبْتُمْ"[٤] بالتشديد، و"فَعَقِبْتُمْ" بالتخفيف وفتح القاف[٥] وبكسرها.[٦] قيل: جميع مَن لحِق بالمشركين مِن نساء المؤمنين المهاجرين

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٨٥.

٢ القول في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣/٣٩٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد والحسن. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٧١؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٨٥.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة والزعفراني والحسن وحُميد والأعمش. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٨٥.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج والزُهري. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٧١؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٨٥.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن مسروق. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٧١.

ستُّ نسوةٍ أمُّ الحَكَم بنت أبي سفيان[1] وفاطمةُ بنت أميّةَ وبَرْوَع بنت عُقبة وعَبدةُ بنت عبد العُزّى وهندُ بنت أبي جهل وكلثومُ بنت جرول.[2]

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ فإنّ الإيمان به تعالى يقتضي التقوى منه تعالى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ﴾ أي: مبايعاتٍ لك، أي: قاصداتٍ للمبايعة، نزلت يوم الفتح فإنّه عليه السلام لمّا فرغ مِن بيعة الرجال شرع في بيعة النساء ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ أي: شيئًا مِن الأشياء أو شيئًا مِن الإشراك ﴿وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾ أريدَ به وأدُ البنات. وقُرئ: "وَلَا يُقتِّلْنَ"[3] بالتشديد.

﴿وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾ كانت المرأة تلتقط المولودَ فتقول لزوجها: "هو ولدي منك"، كُنّي عنه بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها؛ لأنّ بطنها الذي تحمله فيه بين يديها ومخرجه بين رجليها. ﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ﴾ أي: فيما تأمرهنّ به مِن معروف وتنهاهنّ عنه / مِن منكَر. [١٨٩ظ] والتقييد بالمعروف مع أنّ الرسول صلّى الله عليه وسلّم لا يأمر إلّا به للتنبيه

---

[1] هي أمّ الحكم بنت أبي سفيان بن حرب بن أميّة بن عبد شمس، وأمّها هند بنت عُتبة بن ربيعة. أسلمت يوم الفتح، وكانت تحت عِياض بن عنم الفهري وحين نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة، ١٠/٦٠] طلّقها، فتزوّجها عبد الله بن عثمان الثقفي فولدت له عبد الرحمن المعروف بابن أمّ الحكم. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٢٢٨/١٠؛ **والاستيعاب** لابن عبد البرّ، ١٩٣٢/٤.

[2] مرويّ عن ابن عبّاس في **معالم التنزيل** للبغوي، ٩٩/٨-١٠٠. | هي أمّ كلثوم بنت جرول الخزاعيّة، كانت تحت عمر بن الخطّاب، ففرق الإسلام بينهما، ولها منه مِن الولد عبيد الرحمن وزيد الأصغر، وقيل: طلّقها عمر في الجاهليّة وتزوّجها أبو جَهْم بن حذيفة بن غانم. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٢٤٥/٣؛ **والروض الأُنف** للسُهيلي، ١٤٧٤/٦؛ **والإصابة** لابن حجر، ٦٢٨/٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن السُلمي والحسن وابن مِقسَم. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٧١؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٨٥.

على أنّه لا يجوز طاعةُ مخلوق في معصية الخالق. وتخصيص الأمور المعدودة بالذِّكر في حقِّهنّ لكثرة وقوعها فيما بينهنّ مع اختصاص بعضها بهنّ.

﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ أي: على ما ذُكر وما لم يُذكَر، لوضوح أمره وظهور أصالته في المبايعة مِن الصلاة والزكاة وسائر أركان الدين وشعائر الإسلام. وتقييدُ مبايعتهنّ بما ذُكر مِن مجيئهنّ لحثّهنّ على المسارعة إليها مع كمال الرغبةِ فيها مِن غير دعوة لهنّ إليها. ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ زيادة على ما في ضِمْن المبايعة، فإنّها عبارة عن ضمان الثواب مِن قِبَله عليه السلام بمقابلة الوفاء بالأمور المذكورة مِن قبلهنّ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: مبالِغ في المغفرة والرحمة فيغفر لهنّ ويرحمهنّ إذا وفينَ بما بايعنَ عليه.

واختُلف في كيفيّة مبايعته عليه السلام لهنّ يومئذ، فرُوي أنّه عليه السلام لمّا فرغ مِن بَيعة الرجال جلس على الصَّفا ومعه عمرُ أسفلَ منه، فجعل عليه السلام يشترط عليهنّ البَيعة وعمرُ يصافحهنّ.[١] ورُوي أنّه كلّف امرأة وقفت على الصَّفا فبايَعتْهنّ. وقيل: دعا بقدح مِن ماء فغمس منه يده، ثمّ غمسنَ أيديَهنّ. ورُوي أنّه عليه السلام بايعهنّ وبين يديه وأيديهنّ ثوب قِطْري.[٢]

والأظهر الأشهر ما قالت عائشةُ رضي الله عنها: «واللهِ ما أخذ رسول الله على النساء قطّ إلّا بما أمر الله تعالي، وما مسّت كفّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كفّ امرأة قطّ»، وكان يقول إذا أَخَذ عليهنّ: «قد بايعتُكنّ كلامًا»، وكان المؤمنات إذا هاجرنَ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يمتحنهنّ بقول الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ إلى آخر الآية، فإذا أقررنَ بذلك مِن قولهنّ قال لهنّ: «انطلقن فقد بايعتُكنّ».[٣]

---

١ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ١٠٠/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٩٢/٤.

٢ لم أجد هذه الروايات في مظانّها. وهي بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٣٩٣/٤.

٣ حديث عائشة رضي الله عنها بلفظ قريب في صحيح مسلم، ١٤٨٩/٣ (١٨٦٦)؛ وسنن ابن ماجه، ١٢٩/٤ (٢٨٧٥)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٠٢/٨.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ١٣﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ هم عامّة الكفرة، وقيل: اليهود، لِما رُوي أنّها نزلت في بعض فقراء المسلمين، كانوا يواصلون اليهود ليُصيبوا مِن ثمارهم.[١] ﴿قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ لكفرهم بها، أو لعلمهم بأنّه لا خلاقَ لهم فيها لعنادهم الرسول المنعوت في التوراة المؤيَّد بالآيات.

﴿كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ أي: كما يئس منها الذين ماتوا منهم؛ لأنّهم وقفوا على حقيقة الحال، وشاهدوا حرمانَهم مِن نعيمها المقيم، وابتلاءَهم بعذابها الأليم، والمرادُ وصفهم بكمال اليأس منها. وقيل: المعنى كما يئسوا مِن موتاهم أن يُبعثوا ويُرجعوا إلى الدنيا أحياءً.[٢] والإظهارُ في موقع الإضمار للإشعار بعلّة يأسهم.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الممتحنة كان له المؤمنون والمؤمنات شفعاءَ يوم القيامة».[٣]

---

١ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ١٠٣/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٩٣/٤.

٢ القول في اللباب لابن عادل، ٤١/١٩.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٦/٢٦ (الممتحنة، ١/٦٠)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٢٨١/٤ (الممتحنة، ١/٦٠)؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٩٣/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

/ ## سورة الصفّ [١٩٠و]

مدنيّة، وقيل:[١] مكّيّة، وهي أربعَ عشرةَ آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ① يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ②﴾

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ في نظيره.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ رُوي أنّ المسلمين قالوا: لو عَلِمنا أحبّ الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسَنا، فلمّا نزل الجهادُ كرهوه، فنزلت.[٢] وما قيل: مِن أنّ النازل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا﴾،[٣] بيّنُ الاختلال. ورُوي أنّهم قالوا: يا رسول الله لو نعلم أحبَّ الأعمال إلى الله تعالى لسارعنا إليه، فنزلت: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾،[٤] فولّوا يوم أحد. وفيه التزامُ أنّ ترتيب الآيات الكريمةِ ليس على ترتيب النزول.

وقيل: لمّا أخبر الله تعالى بثواب شهداء بدر قالتِ الصحابة: اللّهمّ اشهد لئن لقِينا قتالًا لنُفرّغن فيه وسعنا ففرُّوا يوم أحد، فنزلت.[٥] وقيل: إنّها نزلت فيمن يتمدّح كاذبًا، حيث كان الرجل يقول: "قتلتُ" ولم يقتل، و"طعنتُ" ولم يطعَن،

---

[١] س - مدنيّة، وقيل.

[٢] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٦٠٦/٢٢-٦٠٧؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٠٧/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٣٩٤/٤.

[٣] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠٠/٣.

[٤] الصف، ١٠/٦١-١١.

[٥] مرويّ عن محمّد بن كعب في معالم التنزيل للبغوي، ١٠٧/٨؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٣٩٤/٤.

وهكذا.[١] وقيل: كان رجل قد آذى المسلمين يوم بدر ونكى فيهم، فقتله صهيبٌ وانتحل قَتْلَه آخرُ، فنزلت في المُنتحِل.[٢] وقيل: نزلت في المنافقين،[٣] ونداؤهم بالإيمان تهكُّم بهم وبإيمانهم.[٤] وليس بذاك كما ستعرفه.

و﴿لِمَ﴾ مركَّبة مِن "اللام" الجارّة و"ما" الاستفهاميّة، قد حُذفت ألفها تخفيفًا لكثرة استعمالهما معًا كما في "عمَّ" و"فيمَ" ونظائرهما. معناها لأيّ شيء تقولون نفعل ما لا تفعلون مِن الخير والمعروف، على أنّ مدار التعيير والتوبيخ في الحقيقة عدمُ فعلهم، وإنّما وُجِّها إلى قولهم تنبيهًا على تضاعف معصيتهم ببيان أنّ المُنكَر ليس ترك الخير الموعود فقط؛ بل الوعد به أيضًا، وقد كانوا يحسبونه معروفًا. ولو قيل: "لِمَ لا تفعلون ما تقولون" لفُهِم منه[٥] أنّ المُنكَر هو تركُ الموعود.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ بيان لغاية قُبح ما فعلوه وفرطِ سماجته. و﴿كَبُرَ﴾ مِن باب "نِعمَ" و"بئس" فيه ضمير مبهَم مفسَّر بالنكرة بعده، و﴿أَن تَقُولُواْ﴾ هو المخصوص بالذمّ. وقيل: قُصد فيه التعجّب مِن غير لفظه، وأُسنِد إلى ﴿أَن تَقُولُواْ﴾. ونُصِب ﴿مَقْتًا﴾ على تفسيره دلالة على أنّ قولهم: ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ مقتٌ خالص لا شَوب فيه كبُر عند مَن يُحقَّر دونه كلُّ عظيم.

[١٩٠ظ] وقوله تعالى: / ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ بيان لِما هو مَرضيّ عنده تعالى بعد بيان ما هو ممقوت عنده. وهذا صريح في أنّ ما قالوه عبارةٌ عن الوعد بالقتال لا عمّا تقوّله المتمدّح أو انتحله المنتحِل أو ادّعاه المنافق،

---

[١] مرويّ عن قتادة والضحّاك في جامع البيان للطبري، ٦٠٨/٢٢-٦٠٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٠٧/٨؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٣٩٤/٤.

[٢] لم أجِده في مظانّه. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٣٩٤/٤.

[٣] مرويّ عن ابن زيد في جامع البيان للطبري، ٦٠٩/٢٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٠٧/٨؛ وعن الحسن في الكشّاف للزمخشري، ٣٩٤/٤.

[٤] ذكر ذلك الزمخشري في الكشّاف، ٣٩٤/٤.

[٥] س - منه.

وأنّ مناط التعيير والتوبيخ هو إخلافُهم لا وعدُهم كما أشيرَ إليه. وقُرئ: "يُقَاتَلُونَ"[١] بفتح "التاء"، و"يُقَتِّلُونَ".[٢] و﴿صَفًّا﴾ مصدر وَقَع موقعَ الفاعل أو المفعول، ونصبُه على الحاليّة مِن فاعل ﴿يُقَـٰتِلُونَ﴾ أي: صافّين أنفسَهم أو مصفوفين.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ حال مِن المستكنّ في الحال الأولى، أي: مشبّهين في تراصّهم مِن غير فُرجة وخُلَل ببنيان رُصّ بعضُه إلى بعض ورُصِف حتّى صار شيئًا واحدًا.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٥﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ كلام مستأنَف مقرّر لِما قبله مِن شَناعة تَرْك القتال. و﴿إِذْ﴾ منصوب على المفعوليّة بمضمر خُوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بطريق التلوين، أي: واذكر لهؤلاء المعرِضين عن القتال وقتَ قولِ موسى لبني إسرائيلَ حين ندبهم إلى قتال الجبابرة بقوله: ﴿يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ﴾ [المائدة، ٢١/٥]، فلم يمتثلوا بأمره وعصَوه أشدَّ عصيان حيث: ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المائدة، ٢٢/٥]، إلى قوله تعالى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة، ٢٤/٥]، وأصرُّوا على ذلك وآذَوه عليه السلام كلَّ الأذيّة.

﴿يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ أي: بالمخالفة والعصيان فيما أمرتكم به. وقوله تعالى: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ جملة حاليّة مؤكِّدة لإنكار الإيذاءِ ونفيِ سببه. و﴿قَد﴾ لتحقيق العِلم. وصيغة المضارع للدلالة على استمراره، أي: والحال أنّكم تعلمون عِلمًا قطعيًّا مستمرًّا بمشاهدة ما ظهر بيدي مِن المعجزات القاهرة التي معظمُها إهلاكُ عدوّكم وإنجاؤكم مِن ملكته أنّي رسول الله إليكم

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٢.

[١٩١و] لأرشدكم / إلى خير الدنيا والآخرة، ومِن قضيّة عِلمكم بذلك أن تبالغوا في تعظيمي وتُسارعوا إلى طاعتي.

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ﴾ أي: أصرُّوا على الزَّيغ عن الحقّ الذي جاء به موسى عليه السلام واستمرُّوا عليه ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: صَرَفها عن قَبول الحقّ والميلِ إلى الصواب لصَرْف اختيارهم نحو الغَي والضلال.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ اعتراض تذييلي مقرّر لمضمون ما قبله مِن الإزاغة، ومؤذِن بعلّته، أي: لا يهدي القوم الخارجين عن الطاعة ومنهاجِ الحقّ المصرّين على الغَواية هِدايةً موصِلةً إلى البُغية، لا هِدايةً موصِلةً إلى ما يُوصِل إليها، فإنّها شاملة للكلّ. والمراد بهم إمّا المذكورون خاصّة، والإظهارُ في موقع الإضمار لذمّهم بالفسق وتعليلِ عدم الهداية به، أو جنسُ الفاسقين وهم داخلون في حُكمهم دخولًا أوّليًا. وأيًا ما كان فوصفُهم بالفسق ناظرٌ إلى ما في قوله تعالى: ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة، ٢٥/٥] وقولِه تعالى:[١] ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة، ٢٦/٥]. هذا هو الذي تقتضيه جزالة النظم الكريم ويرتضيه الذوق السليم.

وأمّا ما قيل بصدد بيان أسبابِ الأذيّة مِن أنّهم كانوا يؤذونه عليه السلام بأنواع الأذى مِن انتقاصه وعيبِه في نفسه وجحودِ آياته وعصيانِه فيما تعود إليهم منافعه وعبادتِهم البقرَ وطلبِهم رؤية الله جهرةً والتكذيبِ الذي هو تضييعُ حقِّ الله وحقِّه،[٢] فممّا لا تعلّق له بالمقام.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ إمّا معطوف على ﴿إِذْ﴾ الأولى معمول لعاملها، وإمّا معمول لمضمر معطوف على عاملها. ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾

---

١ س – تعالى.

٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٣٩٥/٤.

ناداهم بذلك استمالةً لقلوبهم إلى تصديقه في قوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ فإنّ تصديقه عليه السلام إيّاها مِن أقوى الدواعي إلى تصديقهم إيّاه.

وقوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرَۢا/ بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي﴾ معطوف على ﴿مُصَدِّقٗا﴾ داعٍ [١٩١ظ] إلى تصديقه عليه السلام مِثله مِن حيث إنّ البشارة به واقعةٌ في التوراة. والعاملُ فيهما ما في الرسول مِن معنى الإرسالِ لا الجارّ، فإنّه صلة للرسول، والصلات بمَعزِل مِن تضمّن معنى الفعل، وعليه يدور العمل، أي: أُرسِلتُ إليكم حال كوني مصدِّقًا لِما تقدّمني مِن التوراة ومبشِّرًا بمَن يأتي مِن بعدي مِن رسول ﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾ أي: محمّد صلّى الله عليه وسلّم. يريد أنّ ديني التصديقُ بكتب الله وأنبيائه جميعًا ممّن تقدَّم وتأخَّر. وقُرئ: "مِن بَعْدِيَ"[١] بفتح "الياء".

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات الظاهرة ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ مشيرين إلى ما جاء به، أو إليه عليه السلام. وتسميتُه سحرًا للمبالغة، ويؤيّده قراءة مَن قرأ: "هَذَا سَاحِرٌ".[٢]

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِ﴾ أي: أيُّ الناس أشدّ ظلمًا ممّن يُدعى إلى الإسلام الذي يُوصله إلى سعادة الدارين فيضع موضعَ الإجابة الافتراءَ على الله عزّ وجلّ بقوله لكلامه الذي هو دعاء عباده إلى الحقّ: هذا سحرٌ، أي: هو أظلم مِن كلّ ظالم، وإن لم يتعرّض ظاهرُ الكلام لنفي المساوي، وقد مرّ بيانُه غيرَ مرّة. وقُرئ: "يُدَّعَى"،[٣] يقال: "دَعاه وادّعاه" مثل "لمسَه والتمسَه".

---

[١] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٨٧/٢.

[٢] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٥٦/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وطلحة. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٨٨.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يُرشِدهم إلى ما فيه فلاحُهم لعدم توجّههم إليه.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ⑧﴾

﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ أي: يُريدون أن يطفئوا دينَه أو كتابَه أو حجّتَه النيّرة. و"اللام" مزيدة لِما فيها مِن معنى الإرادة تأكيدًا لها، كما زِيدت لِما فيها مِن معنى الإضافة تأكيدًا لها في "لا أبا لك". أو يريدون الافتراء ليطفئوا نور الله. ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ بطعنهم فيه، مُثِّلتْ حالهم بحال مَن ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه.

﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ أي: مبلّغُه إلى غايته بنشره في الآفاق وإعلائه. وقُرئ: "مُتِمٌّ نُورَهُ"[1] بلا إضافة. ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ أي: إرغامًا لهم. والجملة في حيّز الحال على ما بُيّن مرارًا.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ⑨﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ بالقرآن أو بالمعجزةِ ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ والملّة الحنيفيّة ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ لِيُغْلِبَهُ / على جميع الأديان المخالفة له. ولقد أنجز الله عزّ وعلا وعدَه، حيث جَعَله بحيث لم يبقَ دين مِن الأديان إلّا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام. ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ ذلك. وقُرئ: "هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ نَبِيَّهُ".[2] [١٩٢و]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ⑩ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ⑪﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ وقُرئ: "تُنَجِّيكُمْ"[3] بالتشديد.

---

١ قرأ بها نافع وابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٨٧/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٨٨.

٣ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢٥٩/٢.

وقوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ استئناف وَقَع جوابًا عمّا نشأ ممّا قبله، كأنّهم قالوا: كيف نعمل؟ أو ماذا نصنع؟ فقيل: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾... إلخ. وهو خبرٌ في معنى الأمر، جيء به للإيذان بوجوب الامتثال، فكأنّه قد وَقَع فأُخبِر بوقوعه، ويؤيِّده قراءة مَن قرأ: "آمِنُوا بالله وَرَسُولِهِ وَجَاهِدُوا"،[1] وقُرِئ: "تُؤْمِنُوا" و"تُجَاهِدُوا"[2] على إضمار لام الأمر.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن الإيمان والجهاد بقسميه، وما فيه مِن معنى البُعد لِما مرّ سرُّه غيرَ مرّة. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ على الإطلاق، أو مِن ﴿أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم مِن أهل العِلم، فإنّ الجَهَلة لا يُعتدّ بأفعالهم، أو إن كنتم تعلمون أنّه خير لكم كان خيرًا لكم حينئذ؛ لأنكم إذا علمتُم ذلك واعتقدتموه أحببتُم الإيمانَ والجهادَ فوق ما تُحبّون أنفسَكم وأموالَكم فتُخلصون وتُفلحون.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ جواب للأمر المدلول عليه بلفظ الخبر، أو لشرطٍ، أو استفهامٍ دلّ عليه الكلام، تقديره: أن تُؤمنوا وتُجاهدوا، أو هل تقبلون أن أدلَّكم يَغفِرْ لكم. وجعلُه جوابًا لـ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ بعيدٌ؛ لأنّ مجرّد الدلالة لا يُوجِب المغفرة.

﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن المغفرة وإدخالِ الجنّات الموصوفة بما ذُكر مِن الأوصاف الجليلة ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوزَ وراءه.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿وَأُخْرَىٰ﴾ ولكم إلى هذه النِّعم العظيمة نعمةٌ أخرى عاجلة ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ وترغبون فيها. وفيه تعريضٌ بأنّهم يُؤثِرون العاجل على الآجل. وقيل: ﴿أُخْرَىٰ﴾

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٢.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٢.

منصوبة بإضمار "يُعطِكم" أو "تحبّون"، أو مبتدأ خبرُه ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾،[١] وهو على الأوّل بدل أو بيان، وعلى تقدير النصب خبرُ مبتدأ محذوف. ﴿وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ﴾ أي: عاجل، عطفٌ على ﴿نَصۡرٞ﴾ على الوجوه المذكورة. وقُرِئَ: "نَصْرًا" و"فَتْحًا قَرِيبًا"[٢] على الاختصاص، أو على المصدر، أي: تُنصَرون / نصرًا ويُفتَح لكم فتحًا، أو على البدليّة مِن ﴿أُخۡرَىٰ﴾ على تقدير نصبها، أي: يُعطِكم نعمةً أخرى نصرًا وفتحًا. [١٩٢ظ]

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عطفٌ على محذوف، مثل قل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ و﴿وَبَشِّرِ﴾، أو على ﴿تُؤۡمِنُونَ﴾ فإنّه في معنى "آمِنوا"، كأنّه قيل: آمِنوا وجاهدوا أيّها المؤمنون وبشِّرهم يا أيّها الرسول بما وعدتَهم على ذلك عاجلًا وآجلًا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ وقُرِئَ: "أَنْصَارًا للهِ"[٣] بلا إضافة؛ لأنّ المعنى كونوا بعضَ أنصار الله. وقُرِئَ: "كُونُوا أَنْتُمْ أَنْصَارَ اللهِ".[٤] ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: مَن جُندي متوجِّهًا إلى نصرة الله؟ كما يقتضيه قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾. والإضافةُ الأولى إضافةُ أحدِ المتشاركين إلى الآخر لِما بينهما مِن الاختصاص، والثانيةُ إضافةُ الفاعل إلى المفعول. والتشبيهُ باعتبار المعنى أي: كونوا أنصار الله كما كان الحواريّون أنصاره حين قال لهم عيسى: مَن أنصاري إلى الله؟ أو قل لهم: كونوا كما قال عيسى للحواريّين. والحواريّون: أصفياؤه، وهم أوّل مَن آمن به، وكانوا اثني عشرَ رجلًا.

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٠٢/٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٢.

٣ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٨٧/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٨٩.

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: بعيسى وأطاعوه فيما أمرهم به مِن نصرة الدين ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ أخرى به وقاتلوهم ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ﴾ أي: قوّيناهم بالحُجّة أو بالسيف، وذلك بعد رفع عيسى عليه السلام، ﴿فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ غالبين.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الصفّ كان عيسى مصلّيًا عليه مستغفِرًا له ما دام في الدنيا، وهو يوم القيامة رفيقُه».[١]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦/٢٤٠ (الصف، ١/٦١)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤/٢٩٠ (الصف، ١/٦١)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٩٩. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

سورة الجمعة

مدنيّة، وهي إحدى عشرةَ آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٢﴾

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تسبيحًا مستمرًا ﴿ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ وقد قُرئ الصفاتُ الأربع بالرفع على المدح.[1]

﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ أي: في العرب؛ لأنّ أكثرهم لا يكتبون ولا يقرأون. قيل: بُدئت الكتابة بالطائف أخذوها مِن أهل الحِيرة وهم مِن أهل الأنبار.[2] ﴿رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي: كائنًا مِن جملتهم أمّيًا مثلَهم ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ مع كونه أمّيًا مثلَهم لم يُعهَد منه قراءة ولا تعلُّم. ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ صفة أخرى لـ﴿رَسُولٗا﴾ معطوفة على ﴿يَتۡلُواْ﴾ أي: يحملهم على ما يصيرون به أزكياءَ مِن خبائث العقائد والأعمال.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ صفة أخرى لـ﴿رَسُولٗا﴾ مترتِّبة في الوجود على التلاوة. وإنّما وُسِّط بينهما التزكية -التي هي عبارة عن تكميل النفس بحسب قوّتها العمليّة وتهذيبها المتفرّع على تكميلها، بحسب القوّة النظريّة الحاصل بالتعليم المترتِّب على التلاوة- للإيذان بأنّ كلًّا مِن الأمور المترتِّبة نعمةٌ جليلة على حيالها مستوجبة للشكر، فلو روعي ترتيبُ الوجود لَتبادَر إلى الفهم كونُ الكلّ نعمةً واحدةً، كما مرّ في سورة البقرة.[3] وهو السرُّ في التعبير عن القرآن تارةً بالآيات

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن شقيق ومسلمة بن محارب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٢.
[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٠٠.
[3] البقرة، ١٢٩/٢.

وأخرى بالكتاب والحكمة رمزًا إلى أنّه باعتبار كلّ عنوان نعمة على حِدَة، ولا يقدح فيه شمولُ الحكمة لِما في تضاعيف الأحاديث النبويّة مِن الأحكام والشرائع.

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ مِن الشِّرك وخَبَث الجاهليّة، وهو بيانٌ لشدّة افتقارهم إلى مَن يرشدهم وإزاحةٌ لِما عسى يُتوهَّم مِن تعلّمه عليه السلام مِن الغير. و﴿إن﴾ هي المخفَّفة، و"اللام" هي الفارقة.

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾، أو على المنصوب في ﴿يُعَلِّمُهُمُ﴾، أي: يعلِّمهم ويعلِّم آخرين منهم، أي: مِن الأمّيّين، وهم الذين جاءوا بعد الصحابة إلى يوم الدِّين، فإنّ دعوته عليه السلام وتعليمه يعمُّ الجميع. ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ صفة لـ﴿ءَاخَرِينَ﴾، أي: لم يلحقوا بهم بعدُ وسيلحقون. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ المبالِغُ في العزّة والحكمة، ولذلك مكَّن رجلًا أمّيًّا مِن ذلك الأمر العظيم واصطفاه مِن بين كافّة البشر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي امتاز به مِن بين سائر الأفراد ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ وإحسانه ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ تفضّلًا وعطيّةً. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي / يُستحقَر دونه نِعَم الدنيا ونعيم الآخرة. [١٩٣ظ]

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَۢاۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥﴾

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ أي: عُلِّموها وكُلِّفوا العمل بها ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي: لم يعملوا بما في تضاعيفها مِن الآيات التي مِن جملتها الآيات الناطقة بنبوّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ أي: كتبًا مِن العِلم يَتْعَبُ بحملها ولا ينتفع بها. و﴿يَحْمِلُ﴾ إمّا حال والعامل فيها معنى المَثل، أو صفة للحمار؛ إذ ليس المراد به معيَّنًا، فهو في حُكم النكرة،

كما في قول مَن قال:

ولقد أمرُّ على اللئيم يسبُّني[١]

﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بئس مثلًا مَثل القوم الذين كذَّبوا بآيات الله، على أنّ التمييز محذوف والفاعل المفسَّر به مستتر. و﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾ هو المخصوص بالذمّ، والموصول صفة لـ﴿ٱلْقَوْمِ﴾. أو بئس مَثلُ القوم مَثلُ الذين كذَّبوا... إلخ، على أنّ ﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾ فاعلُ ﴿بِئْسَ﴾ والمخصوصُ بالذمّ الموصول بحذف المضاف، أو بئس مثلُ القوم المكذِّبين مثلُ هؤلاء، على أنّ الموصول صفة ﴿ٱلْقَوْمِ﴾ والمخصوص بالذمّ محذوف، وهم اليهود الذين كذَّبوا بما في **التوراة** مِن الآيات الشاهدة بصحّة نبوّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ الواضعين للتكذيب في موضع التصديق أو الظالمين لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد.

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾﴾

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾ أي: تهوَّدوا ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ كانوا يقولون نحن أبناء الله وأحبّاؤه، ويدَّعون أنّ الدار الآخرة لهم عند الله خالصةً، ويقولون: لن يدخل الجنّة إلّا مَن كان هودًا، فأُمِر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأن يقول لهم إظهارًا لكذبهم: إن زعمتم ذلك ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: فتمنّوا مِن الله أن يُميتكم وينقلكم مِن دار البليّة إلى دار الكرامة. ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ جوابه محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه، أي: إن كنتم صادقين في زعمكم واثقين / بأنّه حقّ فتمنّوا الموتَ، فإنّ مَن أيقن بأنّه مِن أهل الجنّة أحبّ أن يتخلّص إليها مِن هذه الدار التي هي قرارة الأكدار. [١٩٤و]

---

[١] صدر بيت تمامه:

فمضيتُ ثُمَّت قلتُ لا يعنيني

واختُلف في نسبته: فهو لرجل مِن سلول في كتاب سيبويه، ٢٤/٣؛ ولشَمِر بن عمرو الحَنفي في الأصمعيّات للأصمعي، ص١٢٦؛ ولعُمَيرة بن جابر الحنفي في حماسة البُحتري، ص٣٤٠؛ وهو بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٤٠١/٤. وانظر في الكلام على البيت خزانة الأدب للبغدادي، ٣٥٧/١.

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ إخبار بما سيكون منهم، و"الباء" في قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ متعلِّقة بما يدلُّ عليه النفي، أي: يأبون التمنّي بسبب ما عملوا مِن الكفر والمعاصي الموجِبة لدخول النار. ولمّا كانت اليد مِن بين جوارح الإنسانِ مناطَ عامّة أفاعيله عُبِّر بها تارةً عن النفس وأخرى عن القدرة.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: بهم. وإيثارُ الإظهار على الإضمار لذمِّهم والتسجيل عليهم بأنّهم ظالمون في كلِّ ما يأتون وما يذرون مِن الأمور التي مِن جملتها ادّعاء ما هم عنه بمَعزِل.

والجملة تذييل لِما قبلها مقرِّرة لمضمونه، أي: عليم بهم وبما صدر عنهم مِن فنون الظلم والمعاصي المُفضية إلى أفانين العذاب، وبما سيكون منهم مِن الاحتراز عمّا يؤدّي إلى ذلك، فوقع الأمر كما ذُكر فلم يتمنَّ منهم موتَه أحدٌ، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾، فإنّ ذلك إنّما يقال لهم بعد ظهور فرارهم مِن التمنّي، وقد قال عليه السلام: «لو تمنّوا لَماتوا مِن ساعتهم»،[1] وهذه إحدى المعجزات، أي: إنّ الموت الذي تفرّون منه ولا تجسرون على أن تتمنّوه مخافةَ أن تُؤخذوا بوبال كفركم، ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ البتّةَ مِن غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه. و"الفاء" لتضمّن الاسم معنى الشرط باعتبار الوصف، وقُرئ بدونها،[2] وقُرئ: "تَفِرُّونَ مِنْهُ مُلَاقِيكُمْ".[3]

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مِن الكفر والمعاصي بأن يُجازيَكم بها.

---

١ لم أجده في مظانّه. وهو بلفظه مِن غير نصٍّ على أنّه حديث في الكشّاف للزمخشري، ٤٠١/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٩١.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٣.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ أي: فُعل النداء لها، أي: أُذِن لها ﴿مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ بيان لـ﴿إِذَا﴾ وتفسيرٌ لها، وقيل: ﴿مِن﴾ بمعنى "في"، كما في قوله تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر، ٤٠/٣٥] أي: في الأرض.[١] وإنّما سُمّي جمعةً لاجتماع الناس فيه للصلاة.

وقيل: أوّل مَن سمّاها جمعةً كعب بن لؤيّ،[٢] وكانت العرب تُسمّيه العَروبة. / وقيل: إنّ الأنصار قالوا قبل الهجرة: لليهود يوم يجتمعون فيه بكلّ [١٩٤ظ] سبعة أيّام، وللنصارى مثلُ ذلك، فهلمُّوا نجعل لنا يومًا نجتمع فيه فنذكر الله فيه ونُصلّي، فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى، فاجعلوه يوم العَروبة، فاجتمعوا إلى سعد بن زُرارة[٣] فصلّى بهم ركعتين وذكّرهم، فسمَّوه يوم الجمعة لاجتماعهم فيه، فأنزل الله آية الجمعة، فهي أوّل جمعة كانت في الإسلام.[٤]

وأمّا أوّل جمعةٍ جمّعها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فهي أنّه لمّا قدم المدينة مهاجرًا نزل قُباء على بني عمرو بن عوف،[٥] وأقام بها يوم الإثنين

---

١ القول في **التبيان** للعكبري، ١٢٢٣/٢.

٢ هو كعب بن لؤيّ بن غالب، أبو هصيص (ت.١٧٣ق هـ/٤٥٤م). مِن قريش مِن عدنان، جدّ جاهلي، خطيب. مِن سلسلة النسب النبوي، كان عظيم القدر عند العرب حتّى أرّخوا بموته إلى عام الفيل، وهو أوّل مَن سنّ الاجتماع يوم الجمعة، وكان اسمه يوم العَروبة فكانت قريش تجتمع إليه فيه فيخطبهم ويعظهم. انظر: **الأعلام** للزركلي، ٢٢٨/٥.

٣ هو سعد بن زُرارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غَنَم بن مالك النجار الأنصاري، أبو أمامة. جدُّ عمرة بنت عبد الرحمن، أخو أسعد بن زُرارة. يُذكر أنّه مِن الصحابة وفيه نظر، وقد يكون لم يدركه الإسلام؛ لأنّ أكثرهم لم يذكروه، وذكروا أنّه كان يُنسب إلى النِفاق، ولعلّه تاب، والله أعلم. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ٥٩١/٢؛ **والإصابة** لابن حجر، ٢٦٤/٤.

٤ القولان في **معالم التنزيل** للبغوي، ١١٦/٨؛ **والكشّاف** للزمخشري، ٤٠٢/٤.

٥ بنو عمرو بن عوف بن الخزرج بن حارثة، وهم بطن مِن بطون عوف بن مالك بن الأوس، وهم أهل قُباء، ومِن نسله عوف وسالم وغنم وعنز، وكلّهم بطون، انظر: **جمهرة أنساب العرب** لابن حزم، ص ٣٥٣، ٤٧٠.

والثلاثاء والأربعاء والخميس، وأسَّس مسجدهم، ثمّ خرج يوم الجمعة عامدًا المدينة، فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن وادٍ لهم، فخطب وصلّى الجمعة.[١]

﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: امشوا واقصِدوا إلى الخطبة والصلاة ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ واتركوا المعاملة. ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: السعيُ إلى ذِكر الله وتركُ البيع ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ مِن مباشرته، فإنّ نَفع الآخرة أجلّ وأبقى ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي: الخير والشرّ الحقيقيّين، أو إن كنتم أهل العلم.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠﴾

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ أي: أدِّيت وفُرغ منها ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لإقامة مصالحكم ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ أي: الربح، فالأمر للإطلاق بعد الحظر. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: لم يؤمروا بطلب شيء مِن الدنيا، إنّما هو عيادة المرضى، وحضور الجنائز، وزيارة أخ في الله. وعن الحسن وسعيد بن المسيّب: طلبُ العِلم. وقيل: صلاة التطوّع.[٢] ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ ذِكرًا كثيرًا، أو زمانًا كثيرًا، ولا تخصّوا ذِكره تعالى بالصلاة ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ كي تفوزوا بخير الدارين.

﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١﴾

﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ رُوي أنّ أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء شديد فقدم دحية بن خليفة[٣] بتجارة مِن زيت الشام والنبيّ عليه السلام يخطب

---

[١] بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ١١٦/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٠٢/٤.

[٢] الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٤٠٥/٤. ولم أجدها في مظانّها.

[٣] هو دِحية بن خليفة بن فضالة الكلبي القُضاعي (ت. نحو٤٥هـ/ نحو٦٦٥م). كان مِن كبار الصحابة وروى أحاديث. شهد أحدًا وما بعدها مِن المشاهد، كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يشبّهه بجبريل عليه السلام، أرسله النبيُّ عليه الصلاة والسلام رسولًا إلى قيصر في الهدنة. نزل دمشق وسكن المِزّة، وعاش إلى خلافة معاوية. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ٤٦١/٢؛ و**سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٥٥٠/٢؛ و**الأعلام** للزركلي، ٣٣٧/٢.

يوم الجمعة، فقاموا إليه خشية / أن يُسبقوا إليه، فما بقي معه عليه السلام إلّا [١٩٥و] ثمانيةٌ، وقيل: أحدَ عشرَ، وقيل: اثنا عشر، وقيل: أربعون، فقال عليه السلام: «والذي نفس محمّد بيده لو خرجوا جميعًا لأضرم الله عليهم الوادي نارًا».[١] وكانوا إذا أقبلت العير استقبلوها بالطبل والتصفيق، وهو المراد باللهو. وتخصيص التجارة برجع الضمير لأنّها المقصودة، أو لأنّ الانفضاض للتجارة مع الحاجة إليها والانتفاعِ بها إذا كان مذمومًا، فما ظنّك بالانفضاض إلى اللهو وهو مذموم في نفسه. وقيل: تقديره إذا رأوا تجارةً انفضّوا إليها أو لهوًا انفضّوا إليه، فحُذف الثاني لدلالة الأوّل عليه. وقُرئ: "إلَيْهِمَا".[٢] ﴿وَتَرَكُوكَ قَآيِمًا﴾ أي: على المنبر.

﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِن الثواب ﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ فإنّ ذلك نفع محقَّق مخلَّد بخلاف ما فيهما مِن النفع المتوهَّم. ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإليه اسعَوا ومنه اطلبوا الرزق.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الجمعة أعطيَ مِن الأجر عشرَ حسنات بعدد مَن أتى الجمعة ومَن لم يأتِها في أمصار المسلمين».[٣]

---

١ بلفظ قريب في **التفسير الوسيط** للواحدي، ٣٠٠/٤؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٤٠٦/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٧٣.

٣ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣٧٠/٢٦ (الجمعة، ١/٦٢)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٢٩٤/٤ (الجمعة، ١/٦٢)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٠٦/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة المنافقون[1]

مدنيّة، وهي إحدى عشرةَ آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١﴾

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ أي: حضروا مجلسك ﴿قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ مؤكّدين كلامَهم بـ﴿إِنَّ﴾ و"اللام" للإيذان بأنّ شهادتهم هذه صادرة عن صميم قلوبهم وخلوصِ اعتقادهم ووفورِ رغبتهم ونشاطِهم.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ اعتراض مقرِّر لمنطوق كلامهم وُسِّط بينه وبين قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ تحقيقًا وتعيينًا لِما نيط به التكذيب مِن أنّهم قالوه عن اعتقاد كما أشيرَ إليه، وإماطةً مِن أوّل الأمر لِما عسى يُتوهَّم مِن توجّه التكذيب إلى منطوق كلامهم، أي: والله يشهد إنّهم لكاذبون فيما ضمّنوا مقالتهم مِن أنّها صادرة عن اعتقاد وطُمأنينة قلبٍ. / والإظهار في موقع الإضمار لذمّهم والإشعارِ بعلّة الحُكم. [١٩٥ظ]

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢﴾

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ الفاجرة التي مِن جملتها ما حُكي عنهم ﴿جُنَّةً﴾ أي: وقايةً عمّا يتوجّه إليهم مِن المؤاخذة بالقتل والسبي أو غير ذلك. واتّخاذُها جُنّةً عبارة عن إعدادهم وتهيئتهم لها إلى وقت الحاجة ليحلفوا بها ويتخلّصوا عن المؤاخذة، لا عن استعمالها بالفعل، فإنّ ذلك متأخِّر عن المؤاخذة المسبوقة بوقوع الجناية، واتّخاذُ الجُنّة لا بدّ أن يكون قبل المؤاخذة وعن سببها أيضًا،

[1] س: المنافقين.

كما يُفصح عنه "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: فصدُّوا مَن أراد الدخول في الإسلام بأنّه عليه السلام ليس برسول ومَن أراد الإنفاق في سبيل الله بالنهي عنه كما سيُحكى عنهم، ولا ريبَ في أنّ هذا الصدّ منهم متقدِّم على حلفهم بالفعل.

وقُرئ: "إيمَانَهُمْ"،[1] أي: ما أظهروه على ألسنتهم، فاتّخاذُه جُنّةً عبارة عن استعماله بالفعل، فإنّه وقاية دون دمائهم وأموالهم، فمعنى قوله تعالى: ﴿فَصَدُّواْ﴾ حينئذ: فاستمرُّوا على ما كانوا عليه مِن الصدود والإعراض عن سبيله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ مِن النفاق والصدّ. وفي ﴿سَآءَ﴾ معنى التعجّبِ وتعظيمِ أمرهم عند السامعين.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدَّم مِن القول الناعي عليهم أنّهم أسوأ الناس أعمالًا، أو إلى ما وُصف مِن حالهم في النِّفاق والكذب والاستتار بالإيمان الصُّوري. وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمشار إليه لِما مرّ مرارًا مِن الإشعار ببُعد منزلته في الشرّ. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿ءَامَنُواْ﴾ أي: نطقوا بكلمة الشهادة كسائر مَن يدخل في الإسلام، ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ أي: ظهر كفرهم بما شُوهد منهم مِن شواهد الكفر ودلائله، أو نطقوا بالإيمان عند المؤمنين، ثمّ نطقوا بالكفر عند شياطينهم.

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ حتّى تمرَّنوا على الكفر واطمأنُّوا به. وقُرئ على البناء للفاعل،[2] وقُرئ: "فَطَبَعَ اللهُ".[3] ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ حقيقة الإيمان ولا يعرفون حقّيّته أصلًا.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن، والرُّهاوي عن الساجي عن يعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٩٣.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ والأعمش وعُبيد بن عُمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٩٣.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن، والرُّهاوي عن الساجي عن يعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٤.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ لضخامتها ويَروقك منظرهم لصَباحة وجوههم، ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ لفصاحتهم وذَلاقة ألسنتهم وحلاوة كلامِهم، وكان ابن أُبيّ جسيمًا فصيحًا / يحضر مجلس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في [١٩٦و] نفر مِن أمثاله وهم رؤساء المدينة، وكان عليه السلام ومَن معه يُعجَبون بهياكلهم ويسمعون إلى كلامهم. وقيل: الخطاب لكلّ أحد ممّن يصلح للخطاب، ويؤيِّده قراءة: "يُسْمَعْ"[١] على البناء للمفعول.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ في حيّز الرفع على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، أو كلام مستأنَف لا محلّ له، شُبّهوا في جلوسهم في مجالس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مستندين فيها بخُشب منصوبة مُسنَّدة إلى الحائط في كونهم أشباحًا خاليةً عن العِلم والخير. وقُرئ: "خُشْبٌ"[٢] على أنّه جمع "خَشَبة" كـ"بُدْن" جمع "بَدَنة". وقيل: هو جَمعُ "خَشباء" وهي الخشبةُ التي دَعِر جوفها، أي: فسَد، شُبِّهوا بها في نفاقهم وفساد بواطنهم.[٣] وقُرئ: "خَشَبٌ"[٤] كـ"مَدَرة" و"مَدَر".

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: واقعةً عليهم ضارّةً لهم لجُبنهم واستقرارِ الرعب في قلوبهم. وقيل: كانوا على وَجَل مِن أن يُنزل الله فيهم ما يهتك أستارهم، ويُبيح دماءهم وأموالهم. ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ أي: هم الكاملون في العداوة والراسخون فيها، فإنّ أعدى الأعادي العدوُّ المكاشِر الذي يُكاشِرك وتحت ضلوعه الداء الدويُّ.

والجملة مستأنَفة، وجَعْلُها مفعولًا ثانيًا للحسبان ممّا لا يُساعده النظم الكريم أصلًا، فإنّ "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ لترتيب الأمر بالحذر على كونهم أعدى الأعداء. ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ دعاء عليهم وطلبٌ مِن ذاته تعالى أن يلعنهَم ويُخزيهم،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عطيّة بن سعيد العَوفي والضحّاك. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٧٤؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٩٣.

٢ قرأ بها أبو عمرو والكسائي. **النشر** لابن الجزري، ٢/٢١٦.

٣ الكلام في **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٤٠٩.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبّاس وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيّب وابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٧٤؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٩٣.

أو تعليمٌ للمؤمنين أن يدعوا عليهم بذلك. وقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ تعجيبٌ مِن حالهم، أي: كيف يُصرَفون عن الحقّ إلى ما هم عليه مِن الكفر والضلال.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ عند ظهور جنايتهم بطريق النصيحة ﴿تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ أي: عطفوها استكبارًا ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يُعرِضون عن القائل أو عن الاستغفار ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن ذلك.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾ كما إذا جاءوك معتذرين مِن جنايتهم. وقُرئ: "اسْتَغْفَرْتَ"[1] بحذف حرف الاستفهام ثقةً بدلالة ﴿أَمْ﴾ عليه. وقُرئ: "آسْتَغْفَرْتَ"[2] بإشباع همزة الاستفهام، لا بقلب همزة الوصل ألفًا. ﴿أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ كما إذا أصرّوا على قبائحهم واستكبروا عن الاعتذار والاستغفار.

[١٩٦ظ] ﴿لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أبدًا لإصرارهم على الفِسق ورسوخهم في الكفر. / ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الكاملين في الفِسق الخارجين عن دائرة الاستصلاح المنهمِكين في الكفر والنِّفاق. والمراد إمّا هم بأعيانهم، والإظهارُ في موقع الإضمار لبيان غلوِّهم في الفِسق، أو الجنسُ وهم داخلون في زمرتهم دخولًا أوّليًّا.

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧﴾

وقوله تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ أي: للأنصار ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ يعنون فقراء المهاجرين. استئنافٌ جارٍ مَجرى التعليل لفِسقهم،

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الصوفي، والأديب، والعنبري عن أبي بكر، والزهريّ، وثابتٍ الأنطاكيّ عن أبي جعفر. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٩٤.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحلواني عن أبي جعفر، والخبازي لفضل عنه. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٩٤.

أو لعدم مغفرته تعالى لهم. وقُرئ: "حَتَّى يُنفِضُوا"[١] مِن "أنفَض القومُ" إذا فنيت أزوادهم، وحقيقتُه: حان لهم أن يُنفضوا مزاودهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ردٌّ وإبطال لِما زعموا مِن أنّ عدم إنفاقهم يؤدّي إلى انفضاض الفقراء مِن حوله عليه السلام ببيان أنّ خزائن الأرزاق بيد الله تعالى خاصّة يعطي مَن يشاء ويمنع مَن يشاء. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذلك لجهلهم بالله تعالى وبشئونه، ولذلك يقولون مِن مقالات الكفر ما يقولون.

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ رُوي أنّ جَهْجَاه بن سعيد[٢] أجيرَ عمرَ رضي الله عنه نازع سِنانًا الجُهَنيَّ[٣] حليفَ ابن أُبيّ واقتتلا، فصرخ جَهْجَاه يا لَلمهاجرين وسِنان يا لَلأنصار، فأعان جَهْجَاهًا جِعالٌ مِن فقراء المهاجرين ولطَم سِنانًا، فاشتكى إلى ابن أُبيّ، فقال للأنصار: ﴿لَا تُنفِقُوا۟﴾... إلخ، واللهِ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، عنى بالأعزّ نفسه وبالأذلّ جانبَ المؤمنين.[٤]

وإسناد القول المذكور إلى المنافقين لرضاهم به، فرُدّ عليهم ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولله الغلبة والقوّة ولِمن أعزّه الله مِن رسوله والمؤمنين لا لغيرهم.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وعيسى بن عمر. المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١٧٩٥.

[٢] هو جهجاه بن سعيد الغفاري، وقيل: ابن قيس، وقيل: ابن مسعود. مِن فقراء المهاجرين، وهو أجير لعمر بن الخطّاب رضي الله عنه. شهد بيعة الرضوان بالحُديبية، وشهد غزوة المُريسيع مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وهو الذي نازع سِنان بن وبر الجُهني يوم المُرَيسيع الدلو وهما يستقيان الماء، والقصّة مذكورة. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٠٨/٥؛ والإصابة لابن حجر، ٥١٨/١.

[٣] هو سِنان الجهني، كان حليفًا في بني سالم مِن الأنصار، شهد المُرَيسيع مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، هو الذي نازع جهجاه بن سعيد يومئذ الدلو، وتنادوا بالقبائل. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢٦٧/٥.

[٤] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٦٦٧/٢٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٣١/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٠٩/٤.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ مِن فرط جهلِهم وغرورهم فيَهْذون ما يَهْذون. رُوي أنّ عبد الله بن أُبيّ لمّا أراد أن يدخل المدينة اعترضه ابنه عبد الله بن عبد الله بن أُبيّ، وكان مخلِصًا، وقال: لئن لم تُقرّ لله ورسوله بالعزّ لأضربنّ عنقك، فلمّا رأى منه الجِدّ قال: أشهد أنّ العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين، / فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لابنه: جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيرًا. [١٩٧و]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يشغلكم الاهتمامُ بتدبير أمورها والاعتناء بمصالحها والتمتّع بها عن الاشتغال بذِكره عزّ وجلّ مِن الصلاة وسائرِ العبادات المذكِّرة للمعبود. والمراد نهيُهم عن التلهّي بها، وتوجيهُ النهي إليها للمبالغة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ﴾... إلخ، [المائدة، ٥/٢].

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ أي: التلهّي بالدنيا مِن الدِّين ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أي: الكاملون في الخسران حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني.

﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠﴾

﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ أي: بعض ما أعطيناكم تفضّلًا مِن غير أن يكون حصوله مِن جهتكم ادّخارًا للآخرة. ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ بأن يشاهد دلائله ويُعاين أماراته ومخايله. وتقديمُ المفعول على الفاعل لِما مرّ مرارًا مِن الاهتمام بما قُدّم والتشويق إلى ما أُخّر. ﴿فَيَقُولَ﴾ عند تيقّنه بحلوله ﴿رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ﴾ أي: أمهلتني ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ أي: أمدٍ قصير ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ بالنصب على جواب التمنّي. وقُرئ: "فَأَتَصَدَّقَ".[١] ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بالجزم عطفًا

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وعيسى بن عمر. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٧٩٦.

على محلّ ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾، كأنّه قيل: إن أخّرتني أصّدّق وأكن. وقُرئ: "وَأَكُونَ"[١] بالنصب عطفًا على لفظه، وقُرئ: "وَأَكُونُ"[٢] بالرفع، أي: وأنا أكون، عِدَةً منه بالصلاح.

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١﴾

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا﴾ أي: ولن يمهلها ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ أي: آخرُ عمرها، أو انتهى إن أُريدَ بالأجل الزمان الممتدّ مِن أوّل العمر إلى آخره. ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فمُجازٍ لكم عليه إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ، فسارعوا في الخيرات واستعدُّوا لِما هو آت. وقُرئ: "يَعْمَلُونَ"[٣] بـ"الياء" التحتانيّة.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة المنافقين برئ مِن النِّفاق».[٤]

---

١ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٨٨/٢.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عُمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٤.
٣ قرأ بها أبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٨٨/٢.
٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٤٠/٢٦ (المنافقون، ١/٦٣)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٠٢/٤ (المنافقون، ١/٦٣)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤١٢/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

/ سورة التغابن [١٩٧ظ]

مختلفٌ فيها، وهي ثماني عشرةَ آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ①﴾

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يُنزِّهه سبحانه جميعُ ما فيهما مِن المخلوقات عمّا لا يليق بجناب كبريائه تنزيهًا مستمرًا. ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ لا لغيره؛ إذ هو المبدئ لكلّ شيء وهو القائم به والمهيمن عليه، وهو المُولي لأصول النِّعم وفروعها، وأمّا مُلك غيره فاسترعاء مِن جنابه وحمدُ غيره اعتدادٌ بأنّ نعمة الله جرت على يده. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأنّ نسبة ذاته المقتضية للقدرة إلى الكلّ سواء.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ②﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ خلقًا بديعًا حاويًا لجميع مبادي الكمالات العِلميّة والعمليّة، ومع ذلك ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ أي: فبعضكم أو فبعض منكم مختار للكفر كاسبٌ له على خلاف ما يستدعيه خلقتُه، ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ مختار للإيمان كاسبٌ له حسبما يقتضيه خلقتُه، وكان الواجب عليكم جميعًا أن تكونوا مختارين للإيمان شاكرين لنعمة الخلق والإيجاد وما يتفرّع عليها مِن سائر النعم، فما فعلتم ذلك مع تمام تمكُّنكم منه؛ بل تشعّبتُم شُعَبًا وتفرّقتُم فِرَقًا. وتقديمُ الكفر لأنّه الأغلب فيما بينهم والأنسبُ بمقام التوبيخ. وحملُه على معنى: فمنكم كافر مقدَّر كفرُه متوجّه إليه ما يحمله عليه ومنكم مؤمن مقدَّر إيمانُه موفَّق لِما يدعوه إليه،[1] ممّا لا يلائم المقام.

---

[1] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤١٠/٣.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيُجازيكم بذلك فاختاروا منه ما يُجديكم مِن الإيمان والطاعة، وإيّاكم وما يُرديكم مِن الكفر والعصيان.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ③﴾

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ بالحكمة البالغة المتضمِّنة للمصالح الدينيّة والدنيويّة ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ حيث برأكم في أحسن تقويم وأودعَ فيكم مِن القوى والمشاعر الظاهرة والباطنة ما نِيطَ بها جميعُ الكمالات البارزة والكامنة، وزيَّنكم بصفوة صفاتِ مصنوعاته وخصَّكم بخلاصة خصائص مبدعاته، وجَعَلكم أنموذجَ جميع مخلوقاته في هذه النشأة، ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ في النشأة الأخرى لا إلى غيره استقلالًا أو اشتراكًا، فأحسِنوا سرائركم باستعمال تلك القُوى والمشاعر فيما خُلِقْن له.

﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ④﴾

﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن الأمور الكلّيّة والجزئيّة والأحوال الجليّة والخفيّة ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ أي: ما تُسرُّونه فيما بينكم وما تُظهرونه مِن الأمور. والتصريح به مع اندراجه فيما قبله؛ لأنّه الذي يدور عليه الجزاء، ففيه تأكيد للوعد والوعيد وتشديد لهما.

[١٩٨و] وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ/ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ اعتراض تذييلي مقرِّر لِما قبله مِن شمول علمه تعالى لسرِّهم وعلنهم، أي: هو محيط بجميع المضمرات المستكنَّة في صدور الناس بحيث لا تُفارقها أصلًا، فكيف يخفى عليه ما يسرُّونه وما يعلنونه. وإظهار الجلالة للإشعار بعلّة الحُكم وتأكيدِ استقلال الجملة. قيل: وتقديمُ تقرير القدرة على تقرير العِلم؛ لأنّ دلالة المخلوقات على قدرته بالذات وعلى عِلمه بما فيها مِن الإتقان والاختصاص ببعض الأنحاء.[١]

---

١ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤١١/٣.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥﴾

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أيُها الكفرة ﴿نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ كقوم نوح ومَن بعدهم مِن الأمم المصرّة على الكفر ﴿فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ عطفٌ على ﴿كَفَرُوا۟﴾. والوبال الثِّقَل والشدّة المترتِّبة على أمر مِن الأمور. وأمرهم: كفرهم عُبِّر عنه بذلك للإيذان بأنّه أمر هائل وجناية عظيمة، أي: ألم يأتِكم خبر الذين كفروا مِن قبلُ فذاقوا مِن غير مهلة ما يستتبعه كفرهم في الدنيا. ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لا يُقادَر قَدْره.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٦﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن العذاب الذي ذاقوه في الدنيا وما سيذوقونه في الآخرة ﴿بِأَنَّهُۥ﴾ بسبب أنّ الشأنَ ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات الظاهرة ﴿فَقَالُوٓا۟﴾ عطفٌ على ﴿كَانَت﴾ ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ أي: قال كلّ قوم مِن المذكورين في حقّ رسولهم الذي أتاهم بالمعجزات منكِرين لكون الرسول مِن جنس البشر متعجّبين مِن ذلك: أبشَرٌ يهدينا، كما قالت ثمود: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ [القمر، ٢٤/٥٤]. وقد أُجمِل في الحكاية فأُسنِد القول إلى جميع الأقوام وأريدَ بالبشر الجنس فوُصِف بالجمع، كما أُجمِل الخطابُ والأمرُ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون، ٥١/٢٣].

﴿فَكَفَرُوا۟﴾ أي: بالرسل ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾ عن التدبّر فيما أتوا به مِن البيّنات وعن الإيمان بهم، ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ أي: أظهَر استغناءه عن إيمانهم وطاعتِهم حيث أهلكهم وقَطَع دابرهم، ولولا غناه تعالى عنهما لَما فعل ذلك. ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ عن العالمين فضلًا عن إيمانهم وطاعتهم، ﴿حَمِيدٌ﴾ يحمده كلّ مخلوق بلسان الحال، أو مستحقٌّ للحمد بذاته وإن لم يحمده حامد.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٨﴾

[١٩٨ظ] ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ / الزعم: ادِّعاءُ العِلم، يتعدّى إلى مفعولين، وقد قام مقامَهما ﴿أَن﴾ المخفَّفة مع ما في حيّزه. والمراد بالموصول كفّار مكّة، أي: زعموا أنّ الشأن لن يبعثوا بعد موتهم أبدًا. ﴿قُلۡ﴾ ردًّا عليهم وإبطالًا لزعمهم بإثبات ما نفَوه: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: تُبعثون.

وقوله: ﴿وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ أي: لتحاسبنَّ وتُجزَونَّ بأعمالكم، جملة مستقلّة داخلةٌ تحت الأمر واردةٌ لتأكيد ما أفاده كلمة ﴿بَلَىٰ﴾ مِن إثبات البعث وبيانِ تحقّق أمر آخرَ متفرّع عليه منوطٍ به، ففيه تأكيدٌ لتحقّق البعثِ بوجهين. ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن البعث والجزاءِ ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ لتحقّق القدرة التامّة وقَبول المادّة.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ فصيحة مَفصِحة عن شرط قد حُذف ثقةً بغاية ظهوره، أي: إذا كان الأمر كذلك فآمنوا ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ محمّد صلّى الله عليه وسلّم ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ وهو القرآن فإنّه بإعجازه بيّن بنفسه مبيّنٌ لغيره، كما أنّ النور كذلك. والالتفاتُ إلى نون العظمة لإبراز كمال العناية بأمر الإنزال.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مِن الامتثال بالأمر وعدمِه ﴿خَبِيرٞ﴾ فمُجازيكم عليه. والجملة اعتراض تذييلي مقرّر لِما قبله مِن الأمر، موجِبٌ للامتثال به بالوعد والوعيد. والالتفاتُ إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وتأكيدِ استقلال الجملة.

﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٠﴾

﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ﴾ ظرف ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾،[١] وقيل: لـ﴿خَبِيرٞ﴾،[٢] لِما فيه مِن معنى الوعيد، كأنّه قيل: والله مُجازيكم ومُعاقبكم يومَ يجمعكم، أو مفعول لـ"اذكرْ".[٣]

---

١ التغابن، ٧/٦٤.
٢ في الآية السابقة.
٣ الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤١٥/٤.

وقُرئ: "نَجْمَعُكُمْ"[١] بنون العظمة. ﴿لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ ليوم يُجمَع فيه الأوّلون والآخِرون، أي: لأجل ما فيه مِن الحساب والجزاء.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ أي: يومُ غَبْن بعض الناس بعضًا بنزول السُّعداء منازلَ الأشقياء لو كانوا سعداءَ وبالعكس. وفي الحديث: «ما مِن عبد يدخل الجنّة إلّا أريَ مقعدَه مِن النار لو أساء لِيزدادَ شكرًا، وما مِن عبد يدخل النارَ إلّا أريَ مقعده مِن الجنّة لو أحسَنَ لِيزدادَ حسرةً».[٢] وتخصيص التغابن بذلك اليوم للإيذان بأنّ التغابن في الحقيقة هو الذي يقع فيه لا ما يقع في أمور الدنيا.

[١٩٩و] ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ / أي: عملًا صالحًا ﴿يُكَفِّرْ﴾ أي: الله عزّ وجلّ، وقُرئ بنون العظمة.[٣] ﴿عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ يوم القيامة ﴿وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ وقُرئ: "نُدْخِلْهُ"[٤] بـ"النون". ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن تكفير السيّئات وإدخالِ الجنّات ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فَوْزَ[٥] وراءه لانطوائه على النجاة مِن أعظم الهَلَكات والظفرِ بأجلِّ الطَّلِبات.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: النارُ.

كأنّ هاتين الآيتين الكريمتين بيانٌ لكيفيّة التغابن.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ مِن المصائب الدنيويّة ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بتقديره وإرادته، كأنّها بذاتها متوجّهة إلى الإنسان متوقّفة على إذنه تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ

---

[١] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٨٨/٢.

[٢] بلفظ قريب في مسند أحمد، ٥٧٨/١٦ (١٠٩٨٠)؛ وصحيح البخاري، ١١٧/٨ (٦٥٦٩)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٥٨٠/١ (٣٧١).

[٣] قرأ بها نافع وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٤٨/٢.

[٤] قرأ بها نافع وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٤٨/٢.

[٥] وفي هامش م: الفوز: هو النجاة مِن المكروه والظفر بالخير. قاموس. | انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي، «فوز».

﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ عند إصابتها للثبات والاسترجاع. وقيل: يهدِ قلبه حتّى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليُخطئه وما أخطأه لم يكن ليُصيبه. وقيل: يهدِ قلبه، أي: يلطُف به ويشرحه لازدياد الطاعة والخيرِ.[١] وقُرئ: "يُهْدَ قَلْبُهُ"[٢] على البناء للمفعول ورُفِع ﴿قَلْبَهُۥ﴾، وقُرئ بنصبه[٣] على نهج ﴿سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة، ٢/١٣٠]، وقُرئ: "يَهْدَأْ قَلْبُهُ"[٤] بالهمزة، أي: يسكُن.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ مِن الأشياء التي مِن جملتها القلوب وأحوالها ﴿عَلِيمٌ﴾ فيعلم إيمانَ المؤمن ويهدي قلبَه إلى ما ذُكر.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ كُرِّر الأمرُ للتأكيد والإيذانِ بالفرق بين الطاعتين في الكيفيّة وتوضيحِ مَوْرِد التولّي في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: عن إطاعة الرسول. وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ تعليل للجواب المحذوف، أي: فلا بأسَ عليه؛ إذ ما عليه إلّا التبليغ المبين، وقد فعل ذلك بما لا مَزيد عليه.

وإظهارُ الرسول مضافًا إلى نون العظمة في مقام إضماره لتشريفه عليه السلام والإشعارِ بمدار الحُكم الذي هو كون وظيفته عليه السلام محضَ البلاغ، ولزيادة تشنيعِ التولّي عنه.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾

[١٩٩ظ] / ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبر، أي: هو المستحقّ للمعبوديّة لا غير. وفي إضمار خبرِ ﴿لَآ﴾ مثل "في الوجود" أو "يصحّ أن يوجد" خلافٌ للنُّحاة معروف.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤١٥-٤١٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جُبير. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٩٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عُمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٥.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي بكر رضي الله عنه وعكرمة وعمرو بن دينار. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٧٩٩.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: عليه تعالى خاصّة دون غيره لا استقلالًا ولا اشتراكًا ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وإظهارُ الجلالة في موقع الإضمارِ للإشعار بعلّة التوكّل والأمرِ به، فإنّ الألوهيّة مقتضية للتبتّل إليه تعالى بالكلّيّة وقطعِ التعلّق عمّا سواه بالمرّة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ يشغلونكم عن طاعة الله تعالى، أو يُخاصمونكم في أمور الدِّين أو الدنيا. ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ الضمير للعدوّ، فإنّه يُطلَق على الجمع، نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ [الشعراء، ٧٧/٢٦]، أو للأزواج والأولادِ جميعًا، فالمأمور به على **الأوّل** الحذرُ عن الكلّ،[1] وعلى **الثاني** إمّا الحذر عن البعض، لأنّ منهم مَن ليس بعدوّ، وإمّا الحذر عن مجموع الفريقين لاشتمالهم على العدوّ.

﴿وَإِن تَعْفُواْ﴾ عن ذنوبهم القابلة للعفو بأن تكون متعلِّقةً بأمور الدنيا أو بأمور الدِّين، لكن مقارنة للتوبة، ﴿وَتَصْفَحُواْ﴾ بترْك التثريبِ والتعيير ﴿وَتَغْفِرُواْ﴾ بإخفائها وتمهيد عُذرها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يُعاملكم بمثل ما عملتُم ويتفضَّل عليكم.

وقيل: إن ناسًا مِن المؤمنين أرادوا الهجرة عن مكّة فثبّطهم أزواجُهم وأولادهم، وقالوا: تنطلقون وتُضيّعوننا، فَرَقُّوا لهم ووقفوا، فلمّا هاجروا بعد ذلك ورأوا المهاجرين الأوّلين قد فَقُهوا في الدِّين أرادوا أن يُعاقبوا أزواجَهم وأولادهم فزُيِّن لهم العفو. وقيل: قالوا لهم: أين تذهبون وتدَعُون بلدكم وعشيرتكم وأموالكم، فغضبوا عليهم وقالوا: لئن جمعَنا الله في دار الهجرة لم نُصبكم بخير، فلمّا هاجروا منعوهم الخير، فحُثّوا على أن يعفوا عنهم ويردُّوا إليهم البرّ والصلة.[2]

---

[1] وفي هامش م: أي: عن كلّ ما رجع إليه الضمير. «منه».

[2] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤١٦/٤.

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥﴾

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ بلاء ومِحْنة يُوقعونكم في الإثم مِن حيث لا تحتسبون. ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ لمَن آثَر محبّة الله تعالى وطاعته على محبّة الأموال والأولاد والسعي في تدبير مصالحهم.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ أي: ابذلوا في تقواه جُهدَكم وطاقتَكم ﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ مواعظَه ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ أوامره ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ ممّا رزقكم في الوجوه التي أمركم بالإنفاق فيها خالصًا لوجهه ﴿خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡ﴾ أي: ائتُوا خيرًا لأنفسكم وافعلوا ما هو خير لها وأنفعُ. وهو تأكيد للحثّ على امتثال هذه الأوامر وبيانٌ لكون الأمور المذكورة خيرًا لأنفسهم. ويجوز أن يكون صفةً لمصدر محذوف، أي: إنفاقًا خيرًا، أو خبرًا لـ"كان" مقدّرًا جوابًا للأوامر، أي: يكن خيرًا لأنفسكم.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الفائزون بكلّ مرام.

﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾

﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ﴾ بصرف أموالكم إلى المصارف التي عيّنها ﴿قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ مقرونًا بالإخلاص وطِيب النفس، ﴿يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ﴾ بالواحد عشرةً إلى سبعمائة وأكثرَ. وقُرِئ: "يُضَعِّفْهُ لَكُمْ".[١] ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ ببركة الإنفاق ما فرط منكم مِن بعض الذنوب.

﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ يعطي الجزيل بمقابلة النزر القليل، ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يُعاجل بالعقوبة مع كثرة ذنوبكم.

---

١ قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٨.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ لا يخفى عليه خافية، ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ المبالغ في القدرة والحكمة.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة التغابن دُفع عنه موتُ الفجأة».[1]

---

[1] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٤٨٠/٢٦ (التغابن، ١/٦٣)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٣٠٦/٤ (التغابن، ١/٦٣)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤١٧/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة الطلاق

مدنيّة، وهي إحدى عشرةَ[1] أو ثنتا[2] عشرةَ آيةً.[3]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ تخصيصُ النداء به صلّى الله عليه وسلّم مع عموم الخطابِ لأمّته أيضًا لتشريفه عليه السلام وإظهارِ جلالة منصبه وتحقيقِ أنّه المخاطَب حقيقةً. ودخولُهم في الخطاب بطريق استتباعه عليه السلام إيّاهم وتغليبُه عليهم لا لأنّ نداءه كندائهم، فإنّ ذلك الاعتبار لو كان في حيّز الرِّعاية لَكان الخطاب هو الأحقَّ به لشمول حُكمه للكلّ قطعًا. والمعنى إذا أردتُم تطليقهنّ وعزمتُم عليه كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة، ٦/٥]، ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي: مستقبِلات لها، كقولك: "أتيتُه لليلة خلَتْ مِن شهر كذا"، فإنّ المرأة إذا طُلِّقت في طُهر يعقُبه القرءُ الأوّل مِن أقرائها فقد طُلِّقت مستقبلةً لعدَّتها. والمراد أن يُطلِّقن / في طُهر لم يقع فيه جماعٌ، ثمّ يُخلَّين حتَّى تنقضي عدَّتهنّ، وهذا أحسنُ الطلاق وأدخَلُه في السُّنّة. [٢٠٠ظ]

﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ واضبطوها وأكمِلوها ثلاثةَ أقراء كواملَ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ﴾ في تطويل العِدّة عليهنّ والإضرار بهنّ. وفي وصفه تعالى بربوبيّته لهم تأكيدٌ للأمر ومبالغةٌ في إيجاب الاتّقاء. ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ مِن مساكنهنّ

---

[1] س + آية.

[2] س: اثنا.

[3] س – آية؛ س + أو ثلاث عشرة.

عند الفراق إلى أن تنقضي عدّتهنّ. وإضافتُها إليهنّ وهي لأزواجهنّ لتأكيد النهيِ ببيان كمالِ استحقاقهنّ لسُكناها كأنّها أملاكهنّ.

﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ ولو بإذن منكم، فإنّ الإذن بالخروج في حُكم الإخراج. وقيل: المعنى لا يخرجنَ باستبدادٍ منهنّ، أمّا إذا اتّفقا على الخروج جاز؛ إذ الحقّ لا يعدوهما.[١] ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ استثناء مِن الأوّل. قيل: هي الزنا فيخرجن لإقامة الحدّ عليهنّ، وقيل: إلّا أن يَبْذُون[٢] على الأزواج فيحلّ حينئذ إخراجهنّ، ويؤيِّده قراءة: "إِلَّا أَن يَفْحَشْنَ عَلَيْكُمْ"،[٣] أو مِن الثاني للمبالغة في النهي عن الخروج ببيان أنّ خروجها فاحشة.

﴿وَتِلْكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن الأحكام. وما في اسم الإشارة مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلوّ درجتها وبُعد منزلتها. ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ التي عيّنها لعباده ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي: حدوده المذكورة بأن أخلّ بشيء منها على أنّ الإظهار في حيّز الإضمار لتهويل أمر التعدّي والإشعارِ بعلّة الحُكم في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ أي: أضرّ بها.

وتفسير الظلم بتعريضها للعقاب،[٤] يأباه قوله تعالى: ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾، فإنّه استئنافٌ مسوق لتعليل مضمون الشرطيّة، وقد قالوا: إنّ الأمر الذي يُحدثه الله تعالى أن يَقلِب قلبه عمّا فعله بالتعدّي إلى خلافه، فلا بدّ أن يكون الظلم عبارةً عن ضرر دنيوي يلحقه بسبب تعدّيه ولا يمكن تداركه، أو عن مطلق الضرر الشامل للدنيوي والأُخروي، ويُخصّ التعليل بالدنيوي لكون احترازِ الناس منه أشدّ واهتمامِهم بدفعه أقوى.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَدۡرِي﴾ خطاب للمتعدي بطريق الالتفات لمزيد الاهتمام بالزجر عن التعدّي، لا للنبيّ عليه السلام كما تُوهِّم، فالمعنى ومَن يتعدَّ حدود الله فقد أضرّ بنفسه، / فإنّك لا تدري أيّها المتعدّي عاقبة الأمر، لعلّ اللهَ يُحدِث في قلبك [٢٠١و]

---

١ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤١٥/٣.

٢ مِن البَذاء، وهو الفُحش والكلام القبيح. لسان العرب لابن منظور، «بذو».

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٦.

٤ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤١٥/٣.

بعد ذلك الذي فعلتَ مِن التعدّي أمرًا يقتضي خلافَ ما فعلتَه فيُبدِّل ببغضها محبّةً وبالإعراض عنها إقبالًا إليها، ولا يتسنّى تلافيه برجعة أو استئنافِ نكاح.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢﴾

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ شارفنَ آخرَ عدتهنّ ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ فراجعوهنّ ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بحُسن معاشرة وإنفاق لائق ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ بإيفاء الحقّ واتّقاء الضِّرار بأن يُراجعها ثمّ يُطلِّقها تطويلًا للعدّة. ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ عند الرَّجعة والفُرقة قطعًا للتنازع. وهذا أمر نُدب كما في قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة، ٢٨٢/٢]. ويروى عن الشافعي أنّه للوجوب في الرجعة.[١] ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ أيُّها الشهود عند الحاجة خالصًا لوجهه تعالى.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى الحثّ على الإشهاد والإقامةِ، أو على جميع ما في الآية ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ إذ هو المنتفَع به والمقصودُ تذكيرُه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾... إلخ جملة اعتراضيّة مؤكِّدة لِما سبق مِن وجوب مراعاة حدود الله تعالى بالوعد على الاتّقاء عن تعدّيها، كما أنّ ما تقدّم مِن قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[٢] مؤكِّد له بالوعيد على تعدّيها، فالمعنى: ومَن يتّقِ الله فطلّق للسنّة ولم يضارَّ المعتدَّة ولم يُخرجها مِن مَسكنها واحتاط في الإشهاد وغيره مِن الأمور ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ ممّا عسى يقع في شأن الأزواج مِن الغُموم والوقوع في المضايق، ويفرّج عنه ما يعتريه مِن الكروب.

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾

﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: مِن وجه لا يُخطِره بباله ولا يحتسبه. ويجوز أن يكون كلامًا جيء به على نهج الاستطراد عند ذِكر قوله تعالى:

---

[١] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤٢٠/٤. [٢] الطلاق، ١/٦٥.

﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾... إلخ،[١] فالمعنى ومَن يتّقِ الله في كلّ ما يأتي وما يذَر يجعل له مخرَجًا ومخلَصًا مِن غُموم الدنيا والآخرة، فيندرج فيه ما نحن فيه اندراجًا أوّليًّا.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قرأها فقال: «مخرَجًا مِن شُبُهات الدنيا ومِن غَمَرات الموت ومِن شدائد يوم القيامة»،[٢] وقال عليه السلام: «إنّي لأعلم آيةً لو أخذ الناس بها لكفتهم: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾»،[٣] فما زال يَقرؤها ويُعيدها. ورُوي أنّ عَوف بن مالك / الأشجعي[٤] أسر المشركون ابنه سالمًا فأتى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: «أُسِر ابني، وشكا إليه الفاقة»، فقال عليه السلام: «اتّقِ الله وأكثِرْ قولَ: لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم»، ففعل، فبينا هو في بيته إذ قَرَع ابنه البابَ ومعه مائة مِن الإبل غَفَل عنها العدوّ فاستاقها، فنزلت.[٥] [٢٠١ظ]

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي: كافيه في جميع أموره. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ بالإضافة، أي: مُنفِذُ أمره. وقُرئ بتنوين ﴿بَٰلِغُ﴾ ونصب ﴿أَمْرِهِۦ﴾،[٦] أي: يبلغ ما يريده لا يفوته مرادٌ ولا يُعجِزه مطلوبٌ، وقُرئ برفع ﴿أَمْرِهِۦ﴾،[٧] على أنّه مبتدأ و﴿بَٰلِغُ﴾ خبرٌ مقدَّم، والجملة خبر ﴿إِنَّ﴾، أو "بَالِغٌ" خبرُ ﴿إِنَّ﴾ و"أَمْرُه" مرتفعٌ به على الفاعليّة، أي: نافذٌ أمره. وقُرئ: "بَالِغًا أَمْرُهُ"[٨] على أنّه حال وخبر ﴿إِنَّ﴾.

١ الطلاق، ٦٥/٢.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٥٦٠/٢٦؛ حلية الأولياء لأبي نُعيم، ٣٤٠/٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٢١/٤.

٣ بلفظ قريب في مسند أحمد، ٤٣٦/٣٥ (٢١٥٥١)؛ وسنن الدارمي، ١٧٩٢/٣ (٢٧٦٧)؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٢١/٤.

٤ هو عوف بن مالك الأشجعي الغطفاني، في كنيته أقوال: أبو عبد الرحمن، وقيل: أبو عبد الله، وغير ذلك (ت. ٧٣هـ/٦٩٢م). كان مِن نبلاء الصحابة، شهد فتح مكّة وكان معه راية الأشجع، وشهد غزوة مؤتة، له جملة أحاديث، حدّث عنه أبو هريرة وأبو مسلم الخولاني وغيرهم. آخى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بينه وبين أبي الدرداء. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤٨٧/٢-٤٩٠؛ والإصابة لابن حجر، ٧٤٢/٤، والأعلام للزركلي، ٩٦/٥.

٥ بلفظ قريب في أسباب النزول للواحدي، ص ٤٥٧؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٥١/٨؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٥٥٥/٢٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٢١/٤.

٦ قرأ بها العشرة إلّا حفصًا. النشر لابن الجزري، ٣٨٨/٢.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن داود بن أبي هند وابن أبي عبلة، وعِصمة عن أبي عمرو، والسمّان عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٠٢.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة والمفضّل. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٠٢.

قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ أي: تقديرًا وتوقيتًا أو مِقدارًا، وهو بيان لوجوب التوكّل عليه تعالى وتفويضِ الأمر إليه؛ لأنّه إذا عُلِم أنّ كلّ شيء مِن الرزق وغيرِه لا يكون إلّا بتقديره تعالى، لا يبقى إلّا التسليمُ للقَدَر والتوكّل على الله تعالى.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤﴾

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾ لكِبَرهنّ، وقد قدّروه بستّين سنةً وبخمس وخمسين. ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ أي: شككتُم وجهلتُم كيف عِدّتهنّ ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَ﴾ بعدُ لصغرهنّ، أي: فعدّتهنّ أيضًا كذلك، فحُذف ثقةً بدلالة ما قبله عليه. ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ أي: منتهى عدّتهنّ ﴿أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ سواء كنّ مطلَّقات أو مُتوفّى عنهنّ أزواجهنّ. وقد نُسِخ به عمومُ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗا﴾ [البقرة، ٢/٢٣٤] لتراخي نزوله عن ذلك، لِما هو المشهور مِن قول ابن مسعود رضي الله عنه: مَن شاء باهَلتُه أنّ سورة النساء القُصرى نزلت بعد التي / في سورة البقرة، وقد صحّ أنّ سُبيعة بنت الحارث الأسلميّة وَلَدت بعدَ وفاة زوجها بليالٍ، فذكَرَت ذلك لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال لها: «قد حللتِ فتزوّجي».[١] [٢٠٢و]

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في شأن أحكامه ومراعاةِ حقوقها ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ أي: يُسهِّل عليه أمرَه ويُوفِّقه للخير.

﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ۝٥﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن الأحكام. وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببُعد منزلته في الفضل. وإفراد "الكاف" مع أنّ الخطاب للجمع كما يُفصح عنه قوله تعالى: ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡ﴾ لِما أنّها لمجرّد الفرقِ

---

١ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٨٠/٥ (٣٩٩١)؛ وصحيح مسلم، ١١٢٢/٢ (١٤٨٤)؛ وهو في الكشّاف للزمخشري، ٤٢٢/٤.

بين الحاضر والمنقضي، لا لتعيين خصوصيّة المخاطَبين، وقد مرّ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ[1] يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة، ٢٣٢/٢] مِن سورة البقرة.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ بالمحافظة على أحكامه ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ فإنّ الحسناتِ يُذهِبن السيّئات ﴿وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ بالمضاعَفة.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ۝٦﴾

وقوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ استئناف وَقَع جوابًا عن سؤال نشأ ممّا قبله مِن الحثّ على التقوى، كأنّه قيل: كيف نعمل بالتقوى في شأن المعتدّات؟ فقيل: أسكنوهنّ مسكنًا مِن حيث سكنتم، أي: بعضَ مكان سُكناكم. وقوله تعالى: ﴿مِن وُجْدِكُمْ﴾ أي: مِن وُسعكم، أي: ممّا تُطيقونه، عطفُ بيانٍ لقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ وتفسيرٌ له. ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ أي: في السُّكنى ﴿لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ وتُلجئوهنّ إلى الخروج.

﴿وَإِن كُنَّ﴾ أي: المطلَّقات ﴿أُو۟لَـٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فيخرجن مِن العدَّة، أمّا المتوفّى عنهنّ أزواجهنّ فلا نفقةَ لها. ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ بعد ذلك ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ على الإرضاع ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: تشاوروا. وحقيقتُه لِيأمر بعضكم بعضًا بجميل في الإرضاع / [٢٠٢ظ] والأجرِ ولا يكن مِن الأب مماكَسة ولا[2] مِن الأمّ معاسَرة. ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ أي: تضايقتُم ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ أي: فستُوجَد ولا تُعوِز مرضعةٌ أخرى. وفيه معاتبةٌ للأمّ على المعاسَرة.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ وإن قلّ، أي: لِيُنفِق كلّ واحد مِن الموسِر والمُعسِر ما يبلغه وُسعه. ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا

[1] س ي - منكم.
[2] س - لا.

﴿إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ جلّ أو قلّ، فإنّه تعالى لا يكلّف نفسًا إلّا وُسعها. وفيه تطييبٌ لقلب المُعسِر وترغيبٌ له في بذل مجهوده، وقد أكّد ذلك بالوعد حيث قيل: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أي: عاجلًا أو آجلًا.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩﴾

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: كثير مِن أهل قريةٍ ﴿عَتَتْ﴾ أي: أعرضت ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ بالعُتوّ والتمرّد والعِناد ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ بالاستقصاء والتنقير والمناقشة في كلّ نقير وقِطمير ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ أي: منكرًا عظيمًا. وقُرئ: "نُكُرًا"،[1] والمراد حساب الآخرة وعذابُها. والتعبير عنهما بلفظ الماضي للدلالة على تحقّقهما، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف، ٤٤/٧]. ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ هائلًا لا خُسرَ وراءه.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ۝١١﴾

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ تكرير للوعيد وبيانٌ لكونه مترقّبًا، كأنّه قيل: أعدّ الله لهم هذا العذاب ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ويجوز أن يُراد بـ"الحساب" استقصاءُ ذنوبهم وإثباتُها في صحائف الحفظة وبـ"العذاب" ما أصابهم عاجلًا، وقد جُوّز[2] أن يكون ﴿عَتَتْ﴾ وما عُطف عليه صفةً للقرية، و﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ جوابًا لقوله تعالى: ﴿كَأَيِّن﴾. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ منصوب بإضمار "أعني" بيانًا للمنادى أو عطفُ بيانٍ له أو نعتٌ، وفي إبداله منه ضعفٌ لتعذّر حلوله محلَّه.

---

[1] قرأ بها نافع وأبو جعفر ويعقوب وذكوان وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.

[2] س - قد جُوّز. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ س.

﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ هو جبريلُ عليه السلام سُمّي به لكثرة ذِكره، أو لنزوله بالذِّكر الذي هو **القرآن**، كما يُنبئ عنه إبدال قوله تعالى: ﴿رَسُولًا﴾ منه، أو لأنّه مذكور في السماوات وفي الأمم، أو أريدَ بالذِّكر الشرفُ، كما في قوله تعالى: / ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف، ٤٣/٤٤]، كأنّه في نفسه شرفٌ، إمّا لأنّه شرفٌ للمنزَل عليه، وإمّا لأنّه ذو مجدٍ وشرفٍ عند الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير، ٨١/٢٠]، أو هو النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وعليه الأكثرُ، عُبّر عنه بالذِّكر لمواظبته على تلاوة **القرآن**، أو تبليغِه والتذكيرِ به، وعُبّر عن إرساله بالإنزال بطريق الترشيح، أو لأنّه مسبَّب عن إنزال الوحي إليه، وأُبدلَ منه ﴿رَسُولًا﴾ للبيان، أو هو **القرآن**، و﴿رَسُولًا﴾ منصوب بمقدَّر مثلِ "أرسَل"، أو بـ﴿ذِكْرًا﴾ على إعمال المصدر المنوَّن، أو بدلٌ منه على أنّه بمعنى الرسالة.

[٢٠٣و]

وقوله تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ نعت لـ﴿رَسُولًا﴾، و﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ **القرآنُ**، و﴿مُبَيِّنَٰتٍ﴾ حال منها، أي: حال كونها مبيِّنات لكم ما تحتاجون إليه مِن الأحكام. وقُرئ: "مُبَيَّنَاتٍ"،[1] أي بيَّنها الله تعالى، لقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ [الحديد، ٥٧/١٧].

و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ متعلِّقة بـ﴿يَتْلُوا۟﴾ أو بـ﴿أَنزَلَ﴾، وفاعل ﴿يُخْرِجَ﴾ على الأوّل ضمير الرسول عليه السلام، أو ضمير الجلالة. والموصول عبارة عن المؤمنين بعد إنزاله، أي: ليُحصِّل لهم الرسول أو الله عزّ وعلا ما هم عليه الآن مِن الإيمان والعملِ الصالح، أو ليُخرج مَن عَلِم أو قدَّر أنّه سيؤمن. ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ مِن الضلالة إلى الهدى.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ حسبما بُيِّن في تضاعيف ما أنزل مِن الآيات المبيِّنات ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وقُرئ: "نُدْخِلْهُ"[2] بـ"النون".

---

[1] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب وأبو بكر. **النشر** لابن الجزري، ٢/٢٤٨.

[2] قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٤٢٥.

وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ حال مِن مفعول ﴿يُدۡخِلۡهُ﴾، والجمع باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ الإفراد في الضمائر الثلاثة باعتبار لفظها. وقوله تعالى: ﴿قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾ حال أخرى منه أو مِن الضمير في ﴿خَٰلِدِينَ﴾ بطريق التداخل. وإفرادُ ضمير ﴿لَهُۥ﴾ قد مرّ وجهُه، وفيه معنى التعجّبِ والتعظيمِ لِما رَزَقه الله المؤمنين مِن الثواب.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ مبتدأ وخبرٌ ﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ أي: خَلَق مِن الأرض مثلهنّ في العدد. وقُرئ: "مِثْلُهُنَّ"[1] بالرفع على أنّه مبتدأ و﴿مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ خبره. واختُلف في كيفيّة طبقات الأرض، قالوا: الجمهورُ على أنّها سبع أرَضين طباقًا بعضُها فوق بعض، بين كلّ أرض وأرضٍ مسافةٌ كما بين السماء والأرض، وفي كلّ أرضٍ سُكّان مِن خَلْق الله تعالى. / وقال الضحّاك: [٢٠٣ظ] «مطبقة بعضُها فوق بعض مِن غير فُتوقٍ، بخلاف السماوات».[2] قال القرطبي: والأوّل أصحُّ؛ لأنّ الأخبار دالّة عليه،[3] كما روى البخاري وغيره مِن أنّ كعبًا حَلَف بالذي فَلَق البحر لموسى أنّ صهيبًا حدَّثه أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لم يرَ قريةً يريد دخولها إلّا قال حين يراها: «اللّٰهمّ ربّ السماواتِ السبع وما أظللنَ، وربّ الأرَضين السبع وما أقللنَ، وربّ الشياطين وما أضللنَ، وربّ الرياح وما أذرَينَ، نسألك خيرَ هذه القرية وخيرَ أهلها، ونعوذ بك مِن شرّها وشرّ أهلها وشرّ مَن فيها».[4]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن المفضَّل مِن طريق المليحي، واللؤلئي عن أبي عمرو، والضحّاك، واليماني. المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١٨٠٤.

[2] لم أجده في مظانّه. وهو في تفسير القرطبي، ١٧٥/١٨؛ واللباب لابن عادل، ١٨١/١٩.

[3] انظر: تفسير القرطبي، ١٧٥/١٨.

[4] لم أجده في صحيح البخاري. وهو بلفظ قريب في صحيح ابن خزيمة، ١٥٠/٤ (٢٥٦٥)؛ والمعجم الكبير للطبراني، ٣٣/٨ (٧٢٩٩)؛ وتفسير القرطبي، ١٧٥/١٨.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ نافع بن الأزرق[١] سأله: «هل تحت الأرضين خلقٌ؟»، قال: «نعم»، قال: «فما الخلقُ؟»، قال: «إمّا ملائكة أو جنٌّ».[٢] قال الماوردي:[٣] وعلى هذا تختصّ دعوة الإسلام بأهل الأرض العليا دون مَن عداهم، وإن كان فيهنّ مَن يعقل مِن خلق، وفي مشاهدتهم السماءَ واستمدادِهم الضوءَ منها قولان: أحدهما أنّهم يشاهدون السماء مِن كلّ جانب مِن أرضهم ويستمدّون الضياءَ منها، والثاني أنّهم لا يشاهدون السماء وأنّ الله تعالى خلق لهم ضياءً يشاهدونه.[٤] وحكى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّها سبع أرَضين متفرّقة بالبحار وتُظلّ الجميعَ السماءُ.[٥]

﴿يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾ أي: يجري أمرُه وقضاؤه بينهنّ وينفَذ ملكه فيهنّ. وعن قتادةَ: «في كلّ سماء وفي كلّ أرض خَلْق مِن خلقه وأمرٌ مِن أمره وقضاءٌ مِن قضائه».[٦] وقيل: هو ما يدبّر فيهنّ مِن عجائب تدبيره.[٧] وقُرئ: "يُنَزِّلُ الأَمْرَ".[٨]

﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ متعلِّق بـ﴿خَلَقَ﴾ أو بـ﴿يَتَنَزَّلُ﴾ أو بمضمَر يعمّهما، أي: فعل ذلك لتعلموا أنّ مَن قَدَر على ما ذُكِر قادر على كلّ شيء.

---

[١] هو نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي البكري الوائلي الحروري، أبو راشد (ت. ٦٥هـ/٦٨٥م). مِن أهل البصرة. رأس الأزارقة وإليه نسبتهم. كان أمير قومه وفقيههم، كان هو وأصحاب له مِن أصحاب الثورة على عثمان ووالوا عليًا رضي الله عنهما، وبعد قضيّة التحكيم نادَوا بالخروج على عليّ رضي الله عنه، فعُرفوا بالخوارج. انظر: **الأعلام** للزركلي، ٣٥١/٧.

[٢] لم أجِده في مظانّه. وهو في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٢٥/٤.

[٣] هو عليّ بن محمّد بن حبيب البصري المعروف بالماوردي، أبو الحسن (ت. ٤٥٠هـ/١٠٥٨م). كان مِن وجوه الفقهاء الشافعيّة ومِن كبارهم. أخذ الفقه عن أبي القاسم الصيمري بالبصرة، ثمّ عن الشيخ أبي حامد الإسفرايني ببغداد. وفُوّض إليه القضاء ببلدان كثيرة. مِن تصانيفه: **الحاوي**، **والإقناع**، **والنكت والعيون**، وغيرها. انظر: **وفيات الأعيان** لابن خلِّكان، ٢٨٢/٣؛ **وسير أعلام النبلاء** للذهبي، ١٨، ٦٤؛ **والأعلام** للزركلي، ٣٢٧/٤.

[٤] انظر: **النكت والعيون** للماوردي، ٣٦/٦-٣٧؛ **وتفسير القرطبي**، ١٧٥/١٨؛ **واللباب** لابن عادل، ١٨١/١٩.

[٥] بلفظ قريب في **النكت والعيون** للماوردي، ٣٧/٦؛ **وتفسير القرطبي**، ١٧٥/١٨؛ **واللباب** لابن عادل، ١٨١/١٩.

[٦] **جامع البيان** للطبري، ٨٠/٢٣؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ١٥٨/٨.

[٧] القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٢٥/٤.

[٨] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٨٠٥.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ لاستحالة صدور الأفاعيل المذكورة ممَّن ليس كذلك. ويجوز أن يكون العامل في "اللام" بيانُ ما ذُكر مِن الخلق وتنزُّلِ الأمر، أي: أوحى ذلك وبيَّنه لتعلموا بما ذُكر مِن الأمور التي تشاهدونها والتي تتلقَّونها مِن الوحي مِن عجائب المصنوعات / أنّه لا يخرج عن قدرته وعِلمه شيء ما أصلًا، وقُرئ: "لِيَعْلَمُوا".[1] [٢٠٤و]

عن النبيّ[2] صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الطلاق مات على سنّة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم».[3]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يعقوب بن إبراهيم الزُّهري عن نافع. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٠٥.

٢ س: رسول الله.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦/٥١٧-٥١٨ (الطلاق، ٦٥/١)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤/٣١٠ (الطلاق، ٦٥/١)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٢٥. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

سورة التحريم

مدنيّة، وهي اثنتا[1] عشرةَ آيةً.[2]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ①﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ رُوي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم خلا بماريةَ في يوم عائشةَ وعلمتْ بذلك حفصةُ، فقال لها: «اكتُمي عليّ، فقد حرَّمتُ ماريةَ على نفسي وأبشِّرك أنّ أبا بكر وعمرَ يملِكان بعدي أمرَ أمّتي». فأخبرت به عائشةَ، وكانتا متصادقتين.[3] وقيل: خلا بها في يوم حفصةَ فأرضاها بذلك واستكتمها فلم تكتُم، فطلَّقها واعتزل نساءه، فنزل جبريلُ عليه السلام، فقال: «راجِعها فإنّها صوّامة قوّامة، وإنّها لَمِن نسائك في الجنّة».[4] ورُوي أنّه عليهِ السلام شرب عسلًا في بيت زينبَ بنت جحشٍ، فتواطأت عائشةُ وحفصةُ فقالتا: نشَمّ منك ريح المغافير،[5] وكان رسول الله يكره التَّفَل، فحرَّم العسل، فنزلت.[6] فمعناه لِمَ تحرِّم ما أحلّ الله لك مِن مِلك اليمين أو مِن العسل.

﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾ إمّا تفسير لـ﴿تُحَرِّمُ﴾، أو حال مِن فاعله، أو استئناف ببيان ما دعاه إليه مؤذِن بعدم صلاحيّته لذلك.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ مبالِغٌ في الغفران قد غفر لك هذه الزلّة، ﴿رَّحِيمٞ﴾ قد رَحِمك ولم يؤاخذك به، وإنّما عاتبك مُحاماةً على عصمتك.

---

[1] س: ثنتا.

[2] س + وتُسمّى سورة النبيّ.

[3] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٨٥/٢٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٦٢/٨-١٦٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٢٦/٤.

[4] بلفظ قريب في المستدرك للحاكم، ١٦/٤ (٦٧٥٣)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٥٢٣/٢٦ (الطلاق، ١/٦٥)؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٢٧/٤.

[5] المغافير: صمغ يسيل مِن شجر العُرفُط، رائحته ليست بطيّبة. لسان العرب لابن منظور، «غفر».

[6] بمعناه في صحيح البخاري، ٤٤/٧ (٥٢٦٧)؛ وسنن أبي داود، ٥٥٠/٥ (٣٧١٥)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٦١/٨-١٦٢؛ وبلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٤٢٧/٤.

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ أي: شَرَع لكم تحليلها، وهو حلّ ما عقده بالكفّارة أو بالاستثناء متّصلًا حتّى لا يحنث، والأوّل هو المراد ههنا.

﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ سيّدكم ومتولّي أموركم، ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يُصلِحكم فيشرعه لكم، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ المتقِن في أفعاله وأحكامه فلا يأمركم ولا ينهاكم إلّا حسبما يقتضيه الحكمةُ.

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾ وهي حفصةُ ﴿حَدِيثًا﴾ أي: حديثَ تحريم مارية، أو العسلِ، أو أمرِ الخلافة، ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ أي: أخبرتْ حفصةُ عائشةَ بالحديث / وأفشَتْه إليها، وقُرئ: "أَنْبَأَتْ بِهِ".[١] ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: أطلع الله تعالى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على إفشاء حفصةَ، ﴿عَرَّفَ﴾ أي: النبيُّ عليه السلام حفصةَ ﴿بَعْضَهُۥ﴾ بعضَ الحديث الذي أفشَتْه. قيل: هو حديث الإمامة، رُوي أنّه عليه السلام قال لها: «ألم أقل لك اكتمي عليَّ»، قالت: «والذي بعثك بالحقّ ما ملكتُ نفسي»،[٢] فرحًا بالكرامة التي خصّ الله تعالى بها أباها. ﴿وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ أي: عن تعريف بعض تكرّمًا. قيل: هو حديث مارية.[٣]

[٢٠٤ظ]

﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ أي: أخبر النبيّ عليه السلام حفصةَ بما عرّفه مِن الحديث ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ أي: إفشاءَها للحديث، ﴿قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافيةٌ.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٧.

[٢] لم أجده في مظانّه. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٢٩.

[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٢٩.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ خطاب لحفصةَ وعائشةَ على الالتفات للمبالغة في العِتاب. ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ "الفاء" للتعليل، كما في قولك: "اعبد ربّك فالعبادةُ حقّ"، أي: فقد وُجد منكما ما يُوجِب التوبة مِن مَيل قلوبكما عمّا يجب عليكما مِن مخالصة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وحبِّ ما يُحبّه وكراهةِ ما يكرهه. وقُرئ: "فَقَدْ زَاغَتْ".[١]

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ بإسقاط إحدى التاءين. وقُرئ على الأصل،[٢] وبتشديد "الظاء"،[٣] و"تَظَّهَّرَا"،[٤] أي: تتعاونا عليه بما يَسوءه مِن الإفراط في الغَيرة وإفشاءِ سرّه. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: فلن يَعْدَم مَن يُظاهِره، فإنّ الله هو ناصره وجبريلُ رئيس الكروبيّين قرينُه، ومَن صلح مِن المؤمنين أتباعُه وأعوانُه.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أراد بصالح المؤمنين أبا بكر وعمرَ»، وقد رُوي ذلك مرفوعًا إلى النبيّ عليه السلام، وبه قال عكرمةُ ومقاتل.[٥] وهو اللائق بتوسيطه بين جبريلَ والملائكة عليهم السلام، فإنّه جَمَع بين الظهير المعنوي والظهير الصوري، كيف لا، وإنّ جبريلَ ظهير له عليهما السلام يُؤيِّده بالتأييدات الإلهيّة، وهما وزيراه وظهيراه في تدبير أمور الرسالة وتمشية أحكامها الظاهرة، ولأنّ بيان مظاهرتهما له عليه السلام أشدّ تأثيرًا في قلوب بنتيهما وتوهينًا لأمرهما، فكان حقيقًا بالتقديم بخلاف ما إذا أُريدَ به جنس الصالحين كما هو المشهور.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مع تكاثر عددهم وامتلاء السماواتِ مِن جموعهم ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ قيل: أي: بعد نصرة الله عزّ وجلّ وناموسِه الأعظم وصالحِ المؤمنين.[٦]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وعليّ بن أبي طالب والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٠٧.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن خارجة عن نافع. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٧.

[٣] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢١٨/٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعمش، وأبي معمر عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٠٧.

[٥] مرويّ عن مجاهد والضحّاك في جامع البيان للطبري، ٩٧/٢٣؛ وبلا عزو في معالم التنزيل للبغوي، ١٦٩/٨، وعن عكرمة وشقيق عن عبد الله في اللباب لابن عادل، ١٩٩/١٩.

[٦] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤٣٠/٤.

﴿ظَهِيرٌ﴾ أي: فوج مظاهِرٌ له كأنّهم يد واحدة على مَن يعاديه، فماذا يفيد تظاهُر امرأتين على مَن هؤلاء ظهراؤه، وما ينبئ عنه قوله تعالى بعد ذلك مِن فَضْل نُصرتهم على نصرة غيرهم مِن حيث إنّ نُصرة الكلّ نصرةُ الله تعالى، / وأنّ [٢٠٥و] نُصرته تعالى بهم وبمظاهرتهم أفضلُ مِن سائر وجوه نُصرته. هذا ما قالوا.

ولعلّ الأنسبَ أن يُجعَل ذلك إشارةً إلى مظاهَرة صالحِ المؤمنين خاصّة، ويكونَ بيانُ بعديّة مظاهَرة الملائكة تداركًا لِما يُوهِمه الترتيب الذِّكري مِن أفضليّة المقدَّم، فكأنّه قيل بعد ذِكر مظاهَرة صالحِ المؤمنين: وسائرُ الملائكة بعد ذلك ظهيرٌ له عليه السلام، إيذانًا بعلوّ رتبة مظاهَرتهم وبُعد منزلتها وجَبرًا لفَصْلها عن مظاهَرة جبريلَ عليه السلام.

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ﴾ أي: يعطيَه عليه السلام بدلكنّ ﴿أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ على التغليب، أو تعميمِ الخطاب، وليس فيه ما يدلّ على أنّه عليه السلام لم يُطلِّق حفصةَ وإنّ في النساء خيرًا منهنّ، فإنّ تعليقَ[١] طلاقِ الكلّ لا يُنافي تطليقَ واحدةٍ، وما عُلِّق بما لم يقع لا يجب وقوعه. وقُرئ: "أَنْ يُبَدِّلَهُ"[٢] بالتشديد.

﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ مقِرّات مخلِصات أو منقادات مصدِّقات ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ مصلِّيات أو مواظِبات على الطاعة ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ مِن الذنوب ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ متعبِّدات أو متذلِّلات لأمر الرسول صلّى الله عليه وسلّم ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ صائمات -سُمّي الصائم سائحًا؛ لأنّه يسيح في النهار بلا زاد- أو مهاجِرات. وقُرئ: "سَيِّحَاتٍ".[٣] ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ وُسِّط بينهما العاطفُ لتنافيهما.

---

[١] س: تطليق.

[٢] قرأ بها نافع وأبو عمرو وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٤.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن عمرو بن فائد. المغني في القراءات للنّوزاواري، ص ١٨٠٧.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ بترك المعاصي وفعل الطاعات ﴿وَأَهۡلِيكُمۡ﴾ بأن تأخذوهم بما تأخذون به أنفسكم. وقُرئ: "أَهْلُوكُمْ"[1] عطفًا على واو ﴿قُوٓاْ﴾، فيكون ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾ عبارةً عن أنفس الكلّ على تغليب المخاطَبين، أي: قُوا أنتم وأهلوكم أنفسَكم. ﴿نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ أي: نارًا تتّقد بهما اتّقاد غيرها بالحطب. وأمرُ المؤمنين باتّقاء هذه النار المعدّة للكافرين كما نُصّ عليه في سورة البقرة[2] للمبالغة في التحذير.

[٢٠٥ظ] ﴿عَلَيۡهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ﴾ أي: تَلي أمرَها وتعذيبَ أهلها، / وهم الزبانية. ﴿غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ غِلاظ الأقوال شِداد الأفعال، أو غِلاظ الخُلق شِداد الخَلق أقوياء على الأفعال الشديدة. ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ أي: "أَمْرَه" على أنّه بدل اشتمال مِن ﴿ٱللَّهَ﴾، أو "فيما أَمَرهم به" على نزع الخافض، أي: لا يمتنعون مِن قَبول الأمر ويلتزمونه. ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ أي: ويؤدُّون ما يؤمَرون به مِن غير تثاقل ولا توانٍ.

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ مقول لقولٍ قد حُذف ثقةً بدلالة الحالِ عليه، أي: يقال لهم ذلك عند إدخال الملائكة إيّاهم النارَ حسبما أُمِروا به. ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ في الدنيا مِن الكفر والمعاصي بعد ما نُهيتم عنهما أشدَّ النهي وأُمِرتم بالإيمان والطاعة فلا عُذرَ لكم قطعًا.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَـٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٨﴾

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن وكيع. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٨.

[2] البقرة، ٢/٢٤.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ أي: بالغةً في النصح وُصِفت التوبة بذلك على الإسناد المجازي، وهو وصفُ التائبين، وهو أن يَنصحوا بالتوبة أنفسَهم فيأتوا بها على طريقتها، وذلك أن يتوبوا عن القبائح لقُبحها نادمين عليها مغتمِّين أشدَّ الاغتمام لارتكابها عازمين على أنّهم لا يعودون في قبيح مِن القبائح مُوطِّنين أنفسهم على ذلك، بحيث لا يلويهم عنه صارفٌ أصلًا.

عن عليّ رضي الله تعالى عنه: إنّ التوبة يجمعها ستّة أشياءَ: على الماضي مِن الذنوب الندامةُ،[١] وللفرائض الإعادةُ، وردُّ المظالم، واستحلالُ الخصومِ، وأن تعزِم على ألّا تعود، وأن تُذيب نفسَك في طاعة الله تعالى كما ربَّيتَها في المعصية، وأن تُذيقها مَرارةَ الطاعة كما أذقتها حلاوةَ المعاصي. وعن شهر بن حَوشبَ ألّا يعود ولو حُزّ بالسيف وأُحرِق بالنار.[٢]

وقيل: ﴿نَصُوحًا﴾ مِن نِصاحة الثوب، أي: توبة ترفو خروقَك في دينك وتَرُمّ خَلَلك. وقيل: خالصةً، / مِن قولهم: "عسلٌ ناصحٌ" إذا خلص مِن الشمع. [٢٠٦و] ويجوز أن يُراد توبةً تنصح الناس، أي: تدعوهم إلى مِثلها لظهور أثرها في صاحبها واستعمالِه الجِدَّ والعزيمةَ في العمل بمقتضياتها.

وقُرئ: "تَوْبًا نَصُوحًا"،[٣] وقُرئ: "نُصُوحًا"،[٤] وهو مصدر "نَصَح"، فإنّ "النُّصح" و"النُّصوح" كـ"الشُّكر" و"الشُّكور"، أي: ذات نُصوح، أو تَنْصَحُ نُصوحًا، أو توبوا لنُصح أنفسِكم على أنّه مفعول له.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وُرودُ صيغة الإطماع للجري على سَنن الكبرياء والإشعارِ بأنّه تفضُّل والتوبةُ غير موجِبة له وأنّ العبد ينبغي أن يكون بين خوفٍ ورجاء وإن بالغ في إقامة وظائف العبادة.

---

١ س – الندامة.

٢ لم أجدهما في مظانّهما. وهما في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٣٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٨.

٤ قرأ بها أبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٨.

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ ظرف لـ﴿يُدْخِلَكُمْ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلنَّبِىَّ﴾. وفيه تعريضٌ بمَن أخزاهم الله تعالى مِن أهل الكفر والفسوق واستحمادٌ إلى المؤمنين على أن عَصَمهم مِن مِثل حالهم. وقيل: هو مبتدأ خبرُه قوله تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ﴾ أي: على الصراط.[١]

وهو على الأوّل استئناف أو حال، وكذا قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾... إلخ، وعلى الثاني خبرٌ آخرُ للموصول، أي: يقولون إذا طفئ نور المنافقين: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقيل: يدعون تقرُّبًا إلى الله مع تمام نورهم.[٢] وقيل: تتفاوت أنوارهم بحسب أعمالهم فيسألون إتمامه تفضّلًا. وقيل: السابقون إلى الجنّة يمرُّون مثل البرق على الصراط، وبعضُهم كالريح، وبعضُهم حَبْوًا وزَحْفًا، وأولئك الذين يقولون: ربّنا أتمم لنا نورَنا.[٣]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالسيف ﴿وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ بالحجّة ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ واستعمِل الخشونةَ على الفريقين فيما تُجاهدهما مِن القتال والمُحاجّة.

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ سيَرون فيها عذابًا غليظًا ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: جهنّمُ أو مصيرُهم.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ضَرْبُ المثل في أمثال هذه المواقع / عبارةٌ عن إيراد حالةٍ غريبة ليُعرف بها حالةٌ أخرى مشاكِلةٌ لها في الغرابة، أي: جَعَل الله مثلًا لحال هؤلاء الكَفَرة حالًا ومآلًا على أنّ ﴿مَثَلًا﴾ مفعولٌ ثانٍ لـ﴿ضَرَبَ﴾، [٢٠٦ظ]

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٢٢/٣.

٢ مرويّ عن الحسن في اللباب لابن عادل، ٢١٣/١٩.

٣ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤٣٢/٤.

و"اللام" متعلِّقةٌ به. وقوله تعالى: ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ أي: حالَهما، مفعولُه الأوّل أخِّر عنه ليتَّصل به ما هو شرحٌ وتفسير لحالهما، ويتّضحَ بذلك حالُ هؤلاء، فقوله تعالى: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ بيانٌ لحالهما الداعية لهما إلى الخير والصلاح، أي: كانتا في عصمة نبيَّين عظيمَي الشأنِ متمكّنتين مِن تحصيل خيرِ الدنيا والآخرة وحيازةِ سعادتَيهما.

وقوله تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بيان لِما صدر عنهما مِن الجناية العظيمة مع تحقّق ما ينفيها مِن صحبة النبيّ، أي: خانتاهما بالكفر والنِّفاق. وهذا تصوير لحالهما المُحاكية لحال هؤلاء الكَفَرة في خيانتهم لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالكفر والعصيان مع تمكّنهم التامّ مِن الإيمان والطاعة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا﴾... إلخ، بيان لِما أدّى إليه خيانتُهما، أي: فلم يُغنِ النبيّان ﴿عَنْهُمَا﴾ بحقّ الزواج ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: مِن عذابه تعالى[1] ﴿شَيْـًٔا﴾ أي: شيئًا مِن الإغناء. ﴿وَقِيلَ﴾ لهما عند موتهما، أو يومَ القيامة: ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ أي: مع سائر الداخلين مِن الكفرة الذين لا وُصلةَ بينهم وبين الأنبياء.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: جُعل حالها مثلًا لحال المؤمنين في أنّ وُصلة الكفرة لا تضرُّهم، حيث كانت في الدنيا تحت أعدى أعداءِ الله، وهي في أعلى غُرف الجنّة.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ ظرفٌ لمحذوف أشيرَ إليه، أي: ضَرَب الله مثلًا للمؤمنين حالَها إذ قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ قريبًا مِن رحمتك، أو في أعلى درجات المقرَّبين. رُوي أنّها لمّا قالت ذلك أُريَتْ بيتَها في الجنّة مِن درّة وانتزع روحها.[2] ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ أي: مِن نفسه الخبيثة وعملِه السيّء، ﴿وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مِن القبط التابعين له / في الظلم. [٢٠٧و]

---

[1] س – تعالى.

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٣٤.

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ عطفٌ على ﴿ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ تسليةً للأرامل، أي: وضَرَب مثلًا للذين آمنوا حالها وما أوتيت مِن كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاءِ على نساء العالمين مع كون قومها كفّارًا. ﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ وقُرِئ: "فِيهَا"،[1] أي: في مريم ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ مِن روحٍ خلقناه بلا توسُّط أصلًا. ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ بصُحفه المنزَلة، أو بما أوحى إلى أنبيائه، ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ بجميع كتبه المنزَلة. وقُرِئ: "بِكَلِمَةِ اللهِ وَكِتَابِهِ"،[2] أي: بعيسى وبالكتاب المنزَل عليه وهو الإنجيل.

﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أي: مِن عِداد المواظِبين على الطاعة. والتذكير للتغليب والإشعارِ بأنّ طاعتها لم تقصر مِن طاعات الرجال حتّى عُدَّت مِن جملتهم، أو مِن نسلهم؛ لأنّها مِن أعقاب هارونَ أخي موسى عليهما السلام.

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «كمُل مِن الرجال كثيرٌ ولم تكمل مِن النساء إلّا أربع: آسيةُ بنت مزاحِم ومريمُ بنت عمرانَ وخديجةُ بنت خُويلد وفاطمةُ بنت محمّد. وفضلُ عائشةَ على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».[3]

وعن النبي صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة التحريم آتاه الله تعالى توبةً نصوحًا».[4]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٨.

٢ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي وحمزة وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٨٩/٢.

٣ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٢٩/٥ (٣٧٦٩)؛ وسنن الترمذي، ٢٧٥/٤؛ وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٣٤/٤-٤٣٥.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٢٧ (التحريم، ١/٦٦)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣١٧/٤ (التحريم، ١/٦٦)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٣٥/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة الملك

مكيّة،[1] وتسمّى الواقيةَ والمُنجية؛
لأنّها تقي وتنجي قارئها مِن عذاب القبر، وهي ثلاثون آيةً.[2]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ البركة: النماء والزيادة حسيّةً كانت أو عقلية، وكثرةُ الخير ودوامه أيضًا. ونسبتُها إلى الله عزّ وجلّ على المعنى الأوّل، وهو الأليق بالمقام باعتبار تعاليه عمّا سواه في ذاته وصفاته وأفعاله. وصيغة التفاعل للمبالغة في ذلك، فإنّ ما لا يتصوّر نسبته إليه سبحانه مِن الصيغ كالتكبّر ونحوه، إنّما تنسب إليه سبحانه باعتبار غاياتها؛ وعلى الثاني[3] باعتبار كثرة ما يفيض منه على مخلوقاته مِن / فنون الخيرات. [٢٠٧ظ]

والصيغة حينئذ يجوز أن تكون لإفادة نماء تلك الخيرات وازديادها شيئًا فشيئًا وآنًا فآنًا بحسب حدوثها أو حدوث متعلّقاتها، ولاستقلالها بالدلالة على غاية الكمال، وإنبائها عن نهاية التعظيم، لم يجُز استعمالها في حقّ غيره سبحانه، ولا استعمالُ غيرها مِن الصيغ في حقّه تبارك وتعالى. وإسنادُها إلى الموصول للاستشهاد بما في حيّز الصلة على تحقّق مضمونها. واليد مجاز مِن القدرة التامّة والاستيلاء الكامل، أي: تعالى وتعاظَم بالذات عن كلّ ما سواهُ ذاتًا وصفةً وفعلًا، الذي بقبضة قُدرته التصرّف الكلّيّ في كلّ الأمور.

---

[1] س + وهي ثلاثون آية.
[2] س – وهي ثلاثون آية.
[3] السياق: على المعنى الأوّل... وعلى الثاني...

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن الأشياء ﴿قَدِيرٌ﴾ مُبالغٌ في القُدرة عليه، يتصرَّف فيه حسبَما تقتضيه مشيئته المَبنيّة على الحِكَم البالغة. والجملة معطوفة على الصلة، مقرِّرةٌ لمضمونها، مفيدة لجريان أحكام مُلكه تعالى في جلائل الأمور ودقائقها.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ شروع في تفصيل بعض أحكام المُلك وآثار القدرة، وبيان ابتنائهما على قوانين الحِكَم والمصالح، واستتباعهما لغايات جليلة. والموصول بدل مِن الموصول الأوّل داخل معه في حُكم الشهادة بتعاليه تعالى.

والموت عند أصحابنا صفة وجوديّة مضادّة للحياة، وأمّا ما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما مِن أنّه تعالى خلَق الموت في صورة كبش أملحَ، لا يمرّ بشيء ولا يجد رائحته شيء إلّا مات، وخلَق الحياة في صورة فرس بلقاء، لا تمرّ بشيء ولا يجد رائحتها شيء إلّا حيي،[1] فكلام وارد على منهاج التمثيل والتصوير. وقيل: هو عدم الحياة، فمعنى خَلْقه حينئذ تقديره أو إزالة الحياة.[2]

وأيًّا ما كان فالأقرب أنّ المراد به الموت الطارئ، وبالحياة ما قبله وما بعده لظهور مداريّتهما لِما ينطق به قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فإنّ استدعاء ملاحظتهما لإحسان العمل بما لا ريبَ فيه مع أنّ نفس العمل لا يتحقَّق بدون الحياة الدنيويّة.

[٢٠٨و] وتقديمُ الموت لكونه أدعى إلى إحسان العمل، و"اللام" / متعلِّقة بـ﴿خَلَقَ﴾، أي: خَلَق موتكم وحياتكم، على أنّ "الألف"[3] و"اللام"[4] عِوض عن المضاف إليه، ليعاملكم معاملة مَن يختبركم أيّكم أحسنَ عملًا، فيُجازيكم على مراتبَ متفاوتة حسب تفاوت طبقات[5] علومكم وأعمالكم. فإنّ العمل غير مختصّ بعمل الجوارح، ولذلك فسّره صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «أيّكم أحسنُ عقلًا وأورَعُ عن محارم الله وأسرعُ في طاعة الله».[6]

---

[1] التفسير البسيط للواحدي، ٣٧/٢٢؛ تفسير الرازي، ٥٧٩/٣٠؛ اللباب لابن عادل، ٢٢٤/١٩.

[2] القول بمعناه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٢٤/٣؛ وفتوح الغيب للطِّيبي، ٥٢٨/١٥.

[3] س – الألف.

[4] س: اللام.

[5] س – طبقات.

[6] مضى بتخريجه في تفسير هود، ٧/١١.

فإنّ لكلّ مِن القلب والقالب عملًا خاصًا به، فكما أنّ الأوّل أشرفُ مِن الثّاني، كذلك الحال في عمله، كيف لا، ولا عملَ بدون معرفة الله عزّ وجلّ الواجبة على العباد آثر ذي أثير، وإنّما طريقها النظري التفكّر في بدائع صُنع الله تعالى والتدبّرُ في آياته المنصوبة في الأنفس والآفاق.

وقد رُوي عنه صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «لا تفضّلوني على يونسَ بن متّى، فإنّه كان يُرفَع له كلّ يوم مِثلُ عمل أهلِ الأرض».[1] قالوا: وإنّما كان ذلك التفكّر في أمر الله عزّ وجلّ، الذي هو عمَل القلب ضرورة أنّ أحدًا لا يقدر على أن يعمل بجوارحه كلّ يوم مثلَ عمل أهل الأرض.

وتعليق فعلِ البلوى، أي: تعقيبه بحرف الاستفهام، لا التعليقُ المشهور الذي يقتضي عدم إيراد المفعول أصلًا مع اختصاصه بأفعال القلوب، لِما فيه مِن معنى العِلم باعتبار عاقبته كالنظر ونظائره، ولذلك أُجري مُجراه بطريق التمثيل. وقيل: بطريق الاستعارة التبَعيّة.[2]

وإيراد صيغة التفضيل مع أنّ الابتلاء شامل لهم باعتبار أعمالهم المنقسِمة إلى الحسَن والقبيح أيضًا لا إلى الحسَن والأحسن فقط، للإيذان بأنّ المراد بالذات والمقصدَ الأصلي مِن الابتلاء هو ظهور كمال إحسان المحسنين مع تحقّق أصل الإيمان والطاعة في الباقين أيضًا، لكمال تعاضد الموجِبات له.

وأمّا الإعراض عن ذلك فبمَعزِل مِن الاندراج تحت الوقوع فضلًا عن الانتظام في سِلك الغاية للأفعال الإلهيّة، وإنّما هو عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره، / مِن غير مصحِّح له ولا تقريب. وفيه مِن الترغيب في الترقّي إلى معارج العلوم ومدارج الطاعات، والزجرِ عن مباشرة نقائضها ما لا يخفى. [٢٠٨ظ]

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يفوته مَن أساء العمل ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لمَن تاب منهم.

---

[1] مضى بتخريجه في تفسير هود، ٧/١١.

[2] القول في فتوح الغيب للطِّيبي، ٥٢٩/١٥.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ قيل: هو نعت لـ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ أو بيان أو بدل.[١] والأوجه أنّه نصب أو رفع على المدح،[٢] متعلّق بالموصولين السابقين معنًى وإن كان منقطعًا عنهما إعرابًا، كما مرّ تفصيله في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة، ٣/٢] مِن سورة البقرة، منتظِم معهما في سِلك الشهادة بتعاليه سبحانه، ومع الموصول الثاني في كونه مدارًا للبلوى، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود، ٧/١١].

وقوله تعالى: ﴿طِبَاقًا﴾ صفة لـ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ أي: مطابقةً على أنّه مصدر "طابقتُ النعل" إذا خصفتَها، وُصف به المفعول، أو مصدر مؤكِّد لمحذوف هو صفتها، أي: طوبِقَت طباقًا.[٣]

وقوله تعالى: ﴿مَا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ صفة أخرى لـ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾، وُضع فيها ﴿خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ موضع الضمير للتعظيم والإشعار بعلّة الحُكم وبأنّه تعالى خلَقها بقدرته القاهرة رحمةً وتفضّلًا، وبأنّ في إبداعها نِعَمًا جليلة، أو استئناف. والخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم، أو لكلّ أحد ممّن يصلح للخطاب، و﴿مِن﴾ لتأكيد النّفي، أي: ما ترى فيه شيئًا مِن تفاوت، أي: اختلاف وعدم تناسب، مِن "الفَوْت"، فإنّ كلًّا مِن المتفاوتَين يفوت منه بعض ما في الآخر. وقُرئ: "مِنْ تَفَوُّتٍ"،[٤] ومعناهما واحد.

وقوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ متعلّق به على معنى التسبّب، حيث أُخبِر أوّلًا بأنه لا تفاوت في خلقهنّ، ثمّ قيل: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾

---

١ هذه الوجوه في اللباب لابن عادل، ٢٢٦/١٩.

٢ انظر: اللباب لابن عادل، ٢٢٧/١٩.

٣ وفي هامش م: وفي القاموس: المطابقة: الموافقة، و"السماوات طِباق" كـ"كتاب" لمطابقة بعضها لبعض، فيكون مصدرًا وُصف به الفاعل، أو مصدرًا مؤكِّدًا لفعل مبنيّ للفاعل، أي: طابقت طباقًا. «منه». | انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي، «طبق».

٤ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٨٩/٢.

حتّى يتّضح لك / ذلك بالمعاينة ولا يبقى عندك شبهة ما. والفُطور: الشقوق [٢٠٩و] والصدوع جمع "فَطْر" وهو الشقّ، يقال: فطَره فانفطر.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝﴾

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي: رجعتين أُخريين في ارتياد الخلَل. والمراد بالتثنية التكرير والتكثير كما في "لبّيك" و"سعدَيك"، أي: رجعة بعد رجعة وإن كثُرت. ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أي: بعيدًا محرومًا مِن إصابة ما التمسه مِن العيب والخلَل، كأنّه يُطرد عن ذلك طردًا بالصَّغار والقماءة. ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: كَلِيل لطول المعاودة وكثرةِ المراجعة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ بيان لكون خَلْق السماوات في غاية الحُسن والبهاء، إثر بيان خلوّها عن شائبة القصور. وتصدير الجملة بالقسَم لإبراز كمال الاعتناء بمضمونها، أي: وبالله لقد زيّنا أقرب السماوات إلى الأرض ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي: بكواكبَ مضيئةٍ بالليل إضاءة السُّرُج مِن السيّارات والثوابت، تتراءى كأنّ كلّها مركوزة فيها مع أنّ بعضها في سائر السماوات، وما ذاك إلّا لأنّ كلّ واحدة منها مخلوقة على نمط رائق يحار في فهمه الأفكار، وطِراز فائق يهيم في دَرْكه الأنظار.

﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ وجعلنا لها فائدةً أخرى، هي رَجْم أعدائكم بانقضاض الشُّهُب المقتبَسة مِن نار الكواكب.[١] وقيل: معناه وجعلناها ظنونًا ورجومًا بالغيب لشياطين الإنس وهم المنجِّمون.[٢] ولا يساعده المقام. و"الرُّجوم" جَمْع "رَجْم" بالفتح: وهو ما يُرجَم به.

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ بعد الإحراق في الدنيا بالشُّهب.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝﴾

---

١ س: الكوكب.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٣٨.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ مِن الشياطين وغيرهم ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ وقُرئ بالنصب[١] على أنّه عطف على ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾،[٢] ﴿وَلِلَّذِينَ﴾ على ﴿لَهُمْ﴾.[٣] ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ / أي: جهنّم. [٢٠٩ظ]

﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩﴾

﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا﴾ أي: لجهنّم، وهو متعلّق بمحذوف وقع حالًا مِن قوله تعالى: ﴿شَهِيقًا﴾، لأنّه في الأصل صفته، فلمّا قدِّمت صارت حالًا، أي: سمعوا كائنًا لها شهيقًا، أي: صوتًا كصوت الحمير، وهو حسيسها المنكَر الفظيع. قالوا: الشهيق في الصدر والزفير في الحَلْق.[٤] ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ أي: والحال أنّها تغلي بهم غليان المِرجل بما فيه.

وجعلُ الشهيق لأهلها منهم وممّن طُرح فيها قبلهم كما في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود، ١٠٦/١١]،[٥] يردّه قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ أي: تتميّز وتتفرّق ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: مِن شدّة الغضب عليهم، فإنّه صريح في أنّه مِن آثار الغضب عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان، ١٢/٢٥]، فأين هو مِن شهيقهم الناشئ مِن شدّة ما يقاسونه مِن العذاب الأليم. والجملة إمّا حال مِن فاعل ﴿تَفُورُ﴾ أو خبر آخر.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ استئناف مَسوق لبيان حال أهلها بعد بيان حال نفسها. وقيل:[٦] حال مِن ضميرها،[٧] أي: كلّما ألقي فيها جماعة مِن الكفرة.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج والضحّاك وأسيد المدني. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٧٩؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٨١١.

[٢] في الآية السالفة.

[٣] في الآية السالفة.

[٤] مرويّ عن أبي العالية في **جامع البيان** للطبري، ٥٧٧/١٢ (هود، ١٠٦/١١)؛ ونقله ابن عادل عن القرطبي في **اللباب**، ٢٣٨/١٩.

[٥] كما في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٣٨/٤.

[٦] س: وهي.

[٧] هذا الوجه في **اللباب** لابن عادل، ٢٣٩/١٩.

﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ بطريق التوبيخ والتقريع، ليزدادوا عذابًا فوق عذاب وحسرةً على حسرة: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ يتلو عليكم آيات ربّكم وينذركم لقاءَ يومكم هذا، كما وقَع في سورة الزمر.[1]

ويُعرب عنه جوابهم أيضًا، ﴿قَالُوا۟﴾ اعترافًا بأنّه تعالى قد أزاح عِلَلهم بالكلّيّة ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ جامعين بين حرف الجواب ونفس الجملة المجاب بها مبالغةً في الاعتراف بمجيء النذير وتحسّرًا على ما فاتهم مِن السعادة في تصديقهم وتمهيدًا لبيان ما وقَع منهم مِن التفريط تندّمًا واغتمامًا على ذلك، أي: قال كلّ فوج مِن تلك الأفواج: ﴿قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾، أي: واحد حقيقةً أو حُكمًا، كأنبياء بني إسرائيلَ، فإنّهم في حُكم نذير واحد، فأنذرَنا وتلا علينا ما نزّل الله تعالى عليه مِن آياته.

﴿فَكَذَّبْنَا﴾ ذلك النذير في كونه نذيرًا مِن جهته تعالى: ﴿وَقُلْنَا﴾ في حقّ ما تلاه مِن الآيات إفراطًا في التكذيب وتماديًا في النكير ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ على أحد ﴿مِن شَىْءٍ﴾ مِن الأشياء فضلًا عن تنزيل الآيات عليكم. ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم في ادّعاء أنّه تعالى نزّل عليكم آياتٍ تنذروننا بما فيها ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ بعيد عن الحقّ والصواب.

وجمعُ ضمير الخطاب مع أنّ مخاطَب كلّ فوج نذيرُه لتغليبه على أمثاله مبالغةً في التكذيب وتماديًا في التضليل، / كما ينبئ عنه تعميم المُنزَّل مع تَرْك ذِكر المنزَّل عليه، فإنّه ملوّح بعمومه حتمًا. وأمّا إقامة تكذيب الواحد مُقام تكذيب الكلّ فأمر تحقيقيّ يُصار إليه لتهويل ما ارتكبوه مِن الجناية، لا مساغَ لاعتباره مِن جهتهم ولا لإدراجه تحت عبارتهم، كيف لا، وهو منوط بملاحظة إجماع النذُر على ما لا يختلف مِن الشرائع والأحكام باختلاف العصور والأعوام، وأين هم مِن ذلك وقد «حال الجريض دون القريض».[2] [٢١٠و]

---

١ في الآية التاسعة والخمسين منها.

٢ مجمع الأمثال للميداني، ١/١٩١. وفيه: «الجريض: الغُصّة... والقريض: الشِّعر... يُضرَب للأمر يُقدَر عليه أخيرًا حين لا ينفع». ومضى في تفسير هود، ١١/٤٢.

هذا إذا جُعل ما ذُكر حكايةً عن كلّ واحد مِن الأفواج، وأمّا إذا جُعل حكايةً عن الكلّ، فالنذير إمّا بمعنى الجمع لأنّه فعيل، أو مصدر مقدَّر بمضاف عامّ، أي: أهل نذير، أو منعوت به فيتّفق كلا طرفَي الخطاب في الجمعيّة.

ومَن اعتبر الجمعيّة بأحد الوجوه الثلاثة على التقدير الأوّل ولم يخصّ اعتبارها بالتقدير الأخير، فقد اشتبه عليه الشئون واختلط به الظنون. وقد جُوّز أن يكون الخطاب مِن كلام الخزَنة للكفّار على إرادة القول، على أنّ مرادهم بالضّلال ما كانوا عليه في الدنيا، أو هلاكهم أو عقاب ضلالهم تسميةً له باسم سببه، وأن يكون مِن كلام الرسل للكفَرة، وقد حكَوه للخزَنة.[1] فتأمّل وكن على الحقّ المبين.

﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ أيضًا معترِفين بأنّهم لم يكونوا ممّن يسمع أو يعقل ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ كلامًا ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ شيئًا ﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: في عِدادهم ومِن أتباعهم، وهم الشياطين، لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾،[2] كأنّ الخزَنة قالوا لهم في تضاعيف التوبيخ: ألم تسمعوا آيات ربّكم ولم تعقلوا معانيَها حتّى لا تكذبوا بها، فأجابوا بذلك.

﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾

﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ﴾ الذي هو كفرهم وتكذيبهم بآيات الله ورسله ﴿فَسُحْقًا﴾ بسكون "الحاء"، وقُرئ بضمّها،[3] مصدر مؤكِّد إمّا لفعل متعدّ مِن المزيد بحذف الزوائد، كما في "قِعْدَكَ اللهَ"، أي: فأسحقهم الله، أي: أبعَدهم مِن رحمته سُحقًا، أي: إسحاقًا، أو لفعل مترتِّب على ذلك الفعل، أي: فأسحقهم الله فسحُقوا، أي: بعدوا سُحقًا، أي: بعدًا، كما في قول مَن قال:

[٢١٠ظ] وعضّةُ دهر يا بن مروان لم يَدَعْ / مِن المال إلّا مُسحَتٌ أو مُجلَّفُ[4]

---

[1] الوجهان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٢٦/٣.
[2] في الآية الخامسة مِن هذه السورة.
[3] قرأ بها الكسائي وابن جمّاز بخلاف عنهما. النشر لابن الجزري، ٢١٧/٢.
[4] البيت للفرزدق، ومضى بتخريجه في تفسير البقرة، ٤٩/٢.

أي: لم يدعَ فلم يبقَ إلّا مُسحَت... إلخ، وعلى هذين الوجهين قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران، ٣٧/٣]. و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ للبيان كما في ﴿هَيۡتَ لَكَ﴾ [يوسف، ٢٣/١٢] ونحوه، والمراد بهم الشياطين والداخلون في عِدادهم بطريق التغليب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: يخافون عذابه غائبًا عنهم، أو غائبين عنه، أو عن أعين النّاس، أو بما خفيَ منهم وهو قلوبهم. ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ عظيمة لذنوبهم ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ لا يُقادر قَدْره.

﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾

﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ بيان لتساوي السرّ والجهر بالنسبة إلى عِلمه تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد، ١٠/١٣]. قال ابن عبّاس: نزلت في المشركين كانوا ينالون مِن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فيُوحى إليه عليه السلام، فقال بعضهم لبعض: أسرّوا قولكم كيلا يسمع ربّ محمّد، فقيل لهم: أسرّوا ذلك أو اجهروا به فإنّ الله يعلمه.[١]

وتقديم السرّ على الجهر للإيذان بافتضاحهم ووقوعِ ما يحذرونه مِن أوّل الأمر والمبالغةِ في بيان شمول عِلمه المحيط لجميع المعلومات، كأنّ عِلمه تعالى بما يُسرّونه أقدم منه بما يجهرون به، مع كونهما في الحقيقة على السويّة، فإنّ عِلمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صوَرها؛ بل وجود كلّ شيء في نفسه عِلم بالنسبة إليه تعالى، أو لأنّ مرتبة السرّ متقدّمة على مرتبة الجهر؛ إذ ما مِن شيء يُجهر به إلّا وهو أو مباديه مضمَر في القلب، يتعلّق به الأسرار غالبًا، فتعلُّق عِلمه تعالى بحالته الأولى متقدِّم على تعلّقه بحالته الثانية.

---

[١] معالم التنزيل للبغوي، ١٧٨/٨.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليل لِما قبله وتقرير له. وفي صيغة "الفعيل" وتحليةِ ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ بِلام الاستغراق ووصفِ الضمائر بصاحبيّتها مِن الجزالة ما لا غايةَ وراءه. كأنّه قيل: إنّه مبالِغ في الإحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارِهم الخفيّة المستكِنّة في صدورهم بحيث لا تكاد تفارقها أصلًا، فكيف يخفى عليه ما تُسرّونه وتجهرون به. ويجوز أن يراد بـ﴿ذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: القلوب التي في الصدور، والمعنى: إنّه عليم بالقلوب وأحوالها، فلا يخفى [٢١١و] / عليه سرّ مِن أسرارها.[١]

وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ إنكار ونفي لعدم إحاطة عِلمه تعالى بالمضمَر والمظهَر، أي: ألا يعلم السرّ والجهر مَن أوجد بموجَب حِكمته جميع الأشياء التي هما مِن جملتها. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ حال مِن فاعل ﴿يَعْلَمُ﴾ مؤكِّدة للإنكار والنفي، أي: ألا يعلم ذلك والحال أنّه المتوصِّل عِلمه إلى ما ظهر مِن خلقه وما بطن.

ويجوز أن يكون ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ منصوبًا،[٢] والمعنى: ألا يعلم الله مَن خلقه، والحال أنّه بهذه المثابة مِن شمول العِلم. ولا مساغ لإخلاء العِلم عن المفعول بإجرائه مُجرَى "يعطي" و"يمنع"، على معنى: ألّا يكون عالمًا مَن خلَق، لأنّ الخَلْق لا يتأتّى بدون العِلم، لخلوّ الحال حينئذ عن الإفادة؛ لأنّ نَظْم الكلام حينئذ ألّا يكون عالمًا وهو مبالغ في العِلم.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ ليّنة يسهل عليكم السلوك فيها، وتقديم ﴿لَكُمُ﴾ على مفعولَي الجَعْل مع أنّ حقّه التأخّر عنهما للاهتمام بما قُدِّم والتشويق إلى ما أُخِّر، فإنّ ما حقّه التقديم إذا أُخِّر لا سيّما عند كون المقدَّم

---

[١] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢١/٢ (هود، ٥/١١).

[٢] هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤٣٩/٤-٤٤٠.

ممّا يدلّ على كون المؤخَّر مِن منافع المخاطَبين تبقى النفس مترقبةً لوروده، فيتمكَّن لديها عند ذِكره فضلَ تمكّن.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ لترتيب الأمر على الجَعْل المذكور، أي: فاسلكوا في جوانبها أو جبالها. وهو مثَل لفرط التذليل، فإنّ مَنكِب البعير أرقّ أعضائه وأنْباها عن أن يطأه الراكب بقدمه، فإذا جُعل الأرض في الذلّ بحيث يتأتّى المشيُ في مناكبها لم يبقَ منها شيء لم يتذلّل.

﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ والتمسوا مِن نِعَم الله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: المَرجِع بعد البعث، لا إلى غيره، فبالغوا في شُكر نِعَمه وآلائه.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: الملائكةَ الموكَّلين بتدبير هذا العالم، أو الله سبحانه على تأويل: مَن في السماء أمرُه وقضاؤه، أو على زَعْم العرب حيث كانوا يزعمون أنّه تعالى في السماء، أي: أأمنتم مَن تزعمون / أنّه في السماء، وهو متعالٍ عن المكان. [٢١١ظ]

﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ بعد ما جعَلها لكم ذلولًا تمشون في مناكبها وتأكلون مِن رزقه، لكفرانكم تلك النعمة، أي: يقلبها ملتبِسةً بكم، فيُغيِّبكم فيها كما فعل بقارون، وهو بدل اشتمال مِن ﴿مَن﴾. وقيل: هو على حذف الجارّ، أي: مِن أن يخسف.[1] ﴿فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ أي: تضطرب ذهابًا ومجيئًا على خلاف ما كانت عليه مِن الذلّ والاطمئنان.

﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾

﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ إضراب عن التهديد بما ذُكر وانتقال إلى التهديد بوجه آخرَ، أي: بل أأمنتم مَن في السّماء. ﴿أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: حجارةً مِن السماء كما أرسلها على قوم لوطٍ وأصحاب الفيل. وقيل: ريحًا فيها حجارة وحصباء، كأنّها تقلع الحصباء لشدّتها وقوّتها. وقيل: هي سحاب فيها حجارة.[2]

---

[1] القول في اللباب لابن عادل، ٢٤٨/١٩.

[2] القولان في اللباب لابن عادل، ٢٤٩/١٩.

﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾ عن قريب البتّةَ ﴿كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ أي: إنذاري عند مشاهدتكم للمنذَر به، ولكن لا ينفعكم العِلم حينئذ. وقُرِئ: "فَسَيَعْلَمُوْنَ"[١] بالياء.

﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ۝١٨﴾

﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ مِن قبل كفّار مكّة مِن كفّار الأمم السّالفة، كقوم نوحٍ وعادٍ وأضرابهم. والالتفات إلى الغَيبة لإبراز الإعراض عنهم. ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري عليهم بإنزال العذاب، أي: كان على غاية الهَول والفظاعة. وهذا هو مورد التأكيد القسَمي، لا تكذيبهم فقط. وفيه مِن المبالغة في تسلية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وتشديدِ التهديد لقومه ما لا يخفى.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ۝١٩ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ۝٢٠ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ۝٢١ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٢٢﴾

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ أغفَلوا ولم ينظروا ﴿إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ﴾ باسطات أجنحتهنّ في الجوّ عند طيرانها، فإنهنّ إذا بَسْطنها صففْنَ قوادمها[٢] صفًّا. ﴿وَيَقۡبِضۡنَ﴾ ويضمُمْنَها إذا ضربنَ بها جنوبهنّ حينًا فحينًا للاستظهار به على التحرُّك. وهو السرّ في إيثار ﴿يَقۡبِضۡنَ﴾ الدالِّ على تجدُّد القبض تارةً بعد تارة على "قابضات".

﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ﴾ في الجوّ عند الصفّ والقبض على خلاف مقتضى الطبع ﴿إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ الواسعُ رحمتُه كلَّ شيء، بأن برأهنّ على أشكال وخصائص، وهيأَهنّ للجري في الهواء. والجملة مستأنفة أو حال مِن الضمير في ﴿يَقۡبِضۡنَ﴾. ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ يعلم كيفيّة إبداع المبدَعات وتدبير المصنوعات.

وقوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ تبكيت لهم / بنفي أن يكون لهم ناصرٌ غير الله تعالى، كما يلوِّح به التعرّض لعنوان الرحمانيّة، [٢١٢و]

---

[١] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٠.

[٢] القوادم: أربع ريشات في مقدَّم الجناح، الواحدة منها قادمة. لسان العرب لابن منظور، «منه».

ويعضده قوله تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾،[١] أو ناصر مِن عذابه تعالى، كما هو الأنسب بما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾،[٢] كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء، ٤٣/٢١] في المعنيين معًا، خلا أنّ الاستفهام هناك متوجِّه إلى نفس المانع وتحقُّقه، وههنا إلى تعيين الناصر لتبكيتهم بإظهار عجزهم عن تعيينه.

و"أم" منقطِعة مقدَّرة بـ"بل" المفيدة للانتقال مِن توبيخهم على ترك التأمّل فيما يشاهدونه مِن أحوال الطير المنبئة عن تعاجيب آثار قدرة الله عزّ وجلّ إلى التبكيت بما ذُكر. والالتفات للتشديد في ذلك، ولا سبيلَ إلى تقدير الهمزة معها، لأنّ ما بعدها "مَن" الاستفهاميّة، وهي مبتدأ وهذا خبره، والموصول مع صلته صفته، كما في قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ﴾ [البقرة، ٢٥٥/٢].

وإيثارُ ﴿هَٰذَا﴾ لتحقير المشار إليه. و﴿يَنصُرُكُم﴾ صفة لـ﴿جُندٌ﴾ باعتبار لفظه. و﴿مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، على الوجه الأوّل، إمّا حال مِن فاعل ﴿يَنصُرُكُم﴾ أو نعت لمصدره، وعلى الثاني متعلّق بـ﴿يَنصُرُكُم﴾، كما في قوله تعالى: ﴿مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ [هود، ٣٠/١١]، فالمعنى: بل مَن هذا الحقير الذي هو في زعمكم جند لكم ينصركم، متجاوزًا نصر الرحمن، أو ينصركم نصرًا كائنًا مِن دون نصره تعالى، أو ينصركم مِن عذاب كائن مِن عند الله عزّ وجلّ.

وتوهُّم أنّ "أم" معادِلةٌ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾... إلخ، معَ القول بأنّ "مَن" استفهاميّة،[٣] ممّا لا تقريبَ له أصلًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ اعتراض مقرّر لِما قبله، ناعٍ عليهم ما هم فيه مِن غاية الضلال، أي: ما هم في زعمهم أنّهم محفوظون مِن النوائب بحفظ آلهتهم لا بحفظه تعالى فقط، أو أنّ آلهتهم تحفظهم مِن بأس الله إلّا في غُرور عظيم وضلال فاحش مِن جهة الشيطان، ليس لهم في ذلك شيء يعتدّ به في الجملة. والالتفاتُ إلى الغَيبة للإيذان باقتضاء حالهم للإعراض عنهم وبيانِ قبائحهم لغيرهم. والإظهارُ في موقع الإضمار لذمّهم بالكفر وتعليلِ غُرورهم به.

---

[١] في الآية السالفة.

[٢] في الآية التالية.

[٣] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٢٨/٣.

والكلام في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ﴾ أي: الله عزّ وجلّ ﴿رِزْقَهُۥ﴾ بإمساك المطر وسائر مباديه، كالذي[1] مرّ تفصيله، خلا أنّ قوله تعالى: ﴿بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ / منبئ عن مقدّر يستدعيه المقام، كأنّه قيل إثرَ تمام التبكيت والتعجيز: لم يتأثّروا بذلك ولم يُذعنوا للحقّ؛ بل لجّوا وتمادَوا في عتوّ، أي: عِناد واستكبار وطغيان، ونفور، أي: شِراد عن الحقّ. [٢١٢ظ]

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ﴾... إلخ، مَثَل ضُرب للمشرك والموحّد توضيحًا لحالهما وتحقيقًا لشأن مذهبيهما. و"الفاء" لترتيب ذلك على ما ظهَر مِن سوء حالهم وخُرورهم في مهاوي الغرور، وركوبِهم متنَ عشواءِ العتوّ والنفور، وعدمِ اهتدائهم في مَسلك المُحاجّة إلى جهة يتوهَّم فيها رُشد في الجملة، فإنّ تقدّم "الهمزة" عليها صورةً إنّما هو لاقتضائها الصدارة، وأمّا بحسب المعنى فالأمر بالعكس، كما هو المشهور حتّى لو كان مكان "الهمزة" "هل" لقيل: فهل مَن يمشي مكبًا... إلخ؟ والمُكِبّ الساقط على وجهه، يقال: أكبّ: خرّ على وجهه، وحقيقته صار ذا كبّ ودخل في الكبّ، كـ"أقشع الغمام"، أي: صار ذا قشَع.

والمعنى: أفمن يمشي وهو يعثر في كلّ ساعة ويخرّ على وجهه في كلّ خطوة لتوعُّر طريقه واختلال قواه، أهدى إلى المقصد الذي يؤمّه ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾ أي: قائمًا سالمًا مِن الخبط والعِثار ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مستوي الأجزاء لا عِوَج فيه ولا انحراف. قيل: خبرُ "مَن" الثانية محذوف لدلالة خبر الأولى عليه.[2] ولا حاجةَ إلى ذلك، فإنّ الثانية معطوفة على الأولى عطْفَ المفرد على المفرد، كقولك: أزيد أفضلُ أم عمرو؟

وقيل: أُريدَ بـ"المُكبّ" الأعمى وبـ"السويّ" البصير. وقيل: مَن يمشي مكبًا هو الذي يُحشر على وجهه إلى النّار، ومَن يمشي سويًا الذي يُحشر على قدميه إلى الجنّة.[3]

---

[1] السياق: والكلامُ... كالذي...

[2] القول في اللباب لابن عادل، ٢٥٥/١٩.

[3] القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٢٩/٣.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ إنشاءً بديعًا ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ لتسمعوا آياتِ الله وتمتثلوا بما فيها مِن الأوامر والنواهي وتتّعظوا بمواعظها. ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتنظروا بها إلى الآيات/ التكوينيّة الشاهدة بشئون الله عزّ وجلّ. ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتتفكّروا بها فيما تسمعونه وتشاهدونه مِن الآيات التنزيليّة والتكوينيّة، وترتقوا في معارج الإيمان والطاعة. [٢١٣و]

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: باستعمالها فيما خُلقت لأجله مِن الأمور المذكورة. و﴿قَلِيلًا﴾[١] نعت لمحذوف، و﴿مَا﴾ مزيدة لتأكيد القلّة، أي: شكرًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا تشكرون. وقيل: القلّة عبارة عن العدم.[٢]

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلقكم وكثّركم فيها لا غيرُه ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للجزاء لا إلى غيره اشتراكًا أو استقلالًا، فابنُوا أموركم على ذلك.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَيَقُولُونَ﴾ مِن فَرْط عتوّهم وعنادهم ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: الحشر الموعود، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.[٣] ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يُخاطبون به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين، حيث كانوا مشاركين له عليه السلام في الوعد وتلاوة الآيات المتضمِّنة له. وجواب الشرط محذوف، أي: إن كنتم صادقين فيما تخبرونه مِن مجيء الساعة والحشر فبيّنوا وقته.

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ أي: العِلم بوقته ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ عزّ وجلّ، لا يطّلع عليه غيره، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الأعراف، ١٨٧/٧]. ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أنذِركم وقوع الموعود لا محالةَ، وأمّا العِلم بوقت وقوعه فليس مِن وظائف الإنذار.

---

١ س ي + إمّا.

٢ القول في اللباب لابن عادل، ٢٥٦/١٩.

٣ في الآية السالفة.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ فصيحة معرِبة عن تقدير جملتين وترتيبِ الشرطيّة عليهما، كأنّه قيل: وقد أتاهم الموعود فرأوه فلمّا رأوه... إلخ، كما مرّ تحقيقه في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ [النمل، ٢٧/٤٠]، إلّا أنّ المقدَّر هناك أمر واقع مرتَّب على ما قبله بـ"الفاء"، وههنا أمر منزَّل منزلةَ الواقع وارد على طريقة الاستئناف.

وقوله تعالى: ﴿زُلْفَةً﴾ حال مِن مفعول ﴿رَأَوْا﴾، إمّا بتقدير المضاف أي: ذا زُلفة وقُرب، أو على أنّه مصدر بمعنى الفاعل، أي: مزدلفًا، / أو على أنّه مصدر نُعت به مبالغةً، أو ظرف، أي: رأوه في مكان ذي زُلفة. ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بأن غشِيَتها الكآبة ورَهِقَها القَتَر والذِلَّة. ووَضْعُ الموصول موضعَ ضميرهم لذمّهم بالكفر وتعليل المساءة به. [٢١٣ظ]

﴿وَقِيلَ﴾ توبيخًا لهم وتشديدًا لعذابهم ﴿هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي: تطلبونه في الدنيا وتستعجلونه إنكارًا واستهزاءً، على أنّه "تفتعلون" مِن الدعاء. وقيل: هو مِن الدّعوى،[١] أي: تدّعون ألّا بعثَ ولا حشرَ. وقُرئ: "تَدْعُونَ".[٢] هذا وقد رُوي عن مجاهد أنّ الموعود عذاب يوم بدر.[٣] وهو بعيد.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ﴾ أي: أماتني، والتعبيرُ عنه بالإهلاك لِما كانوا يدعون عليه صلّى الله عليه وسلّم وعلى المؤمنين بالهلاك. ﴿وَمَن مَّعِىَ﴾ مِن المؤمنين ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بتأخير آجالنا، فنحن في جوار رحمته متربّصون لإحدى الحُسنيين. ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: لا ينجّيكم منه أحد مُتنا أو بقينا. ووضعُ الكافرين موضعَ ضميرهم للتسجيل عليهم بالكفر وتعليلِ نفي الإنجاء به.

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ أي: الذي أدعوكم إلى عبادته مُولي النِّعم كلّها، ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ وحدَه لِما علمنا أنّ كلّ ما سواه فإمّا نعمة أو مُنعَم عليه. ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٢.

[٢] قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٩.

[٣] انظر: اللباب لابن عادل، ١٩/٢٥٧.

لا على غيره أصلًا، لعِلمنا بأنّ ما عداه كائنًا ما كان بمَعزِل مِن النفع والضَرّ. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عن قريب البتّةَ ﴿مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ منّا ومنكم. وقُرِئ: "فَسَيَعْلَمُوْنَ"[١] بالياء التحتانيّة.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي: غائرًا في الأرض بالكلّيّة. وقيل: بحيث لا تناله الدِّلاء.[٢] وهو مصدر وُصف به.[٣] ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ جارٍ،[٤] أو ظاهرٍ سَهْل المأخذ.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة المُلك فكأنّه أحيا ليلة القدر».[٥]

---

١ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٩.

٢ مَرويّ عن سعيد بن جُبير في جامع البيان للطبري، ٢٣/١٣٩.

٣ انظر: جامع البيان للطبري، ٢٣/١٣٩.

٤ مَرويّ عن ابن عبّاس وقتادة والضحّاك في جامع البيان للطبري، ٢٣/١٣٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨/١٨١.

٥ التفسير الوسيط للواحدي، ٤/٣٢٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٢. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

سورة نٓ[1]

مكّيّة، وهي ثنتان وخمسون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢﴾

﴿نٓ﴾ بالسكون على الوقف، وقُرئ بالكسر[2] وبالفتح[3] لالتقاء الساكنين. ويجوز أن يكون / الفتح بإضمار حرف القسَم في موضع الجرّ، كقولهم: "اللهِ لأفعلنّ" بالجرّ، وأن يكون ذلك نصبًا بإضمار "اذكُر"،[4] لا فتحًا كما سبَق في فاتحة سورة البقرة.[5] وامتناع الصرف للتعريف والتأنيث على أنّه عَلَم للسورة. [٢١٤و]

ثمّ إن جُعل اسمًا للحرف مسرودًا على نمط التعديد للتحدّي بأحد الطريقين المذكورين في موقعه، أو اسمًا للسورة منصوبًا على الوجه المذكور، أو مرفوعًا على أنّه خبر لمبتدأ محذوف،[6] فـ"الواو"[7] في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَلَمِ﴾ للقسَم، وإن جُعل مقسَمًا به فهي للعطف عليه.

وأيًّا ما كان فإن أريدَ به قلم اللوح والكرام الكاتبين فاستحقاقه للإعظام بالإقسام به ظاهر، وإن أريدَ به الجنس فاستحقاق ما في أيدي الناس لذلك لكثرة منافعه، ولو لم يكن له مزيّة سوى كونه آلةً لتحرير كتبِ الله عزّ قائلًا لكفى به فضلًا موجِبًا لتعظيمه. وقُرئ بإدغام "النون" في "الواو".[8]

---

[1] وتُسمّى سورة القلم.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وابن أبي إسحاق وأبي السّمّال والحسن والأعمش. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٠؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨١٥.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جُبير وعيسى بن عمر الثقفي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٠؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٠.

[4] الوجهان في اللباب لابن عادل، ٢٦٤/١٩.

[5] في تفسير الآية الأولى منها.

[6] مرّت هذه الوجوه مفصّلة في تفسير البقرة، ١/٢.

[7] السياق: ثمّ إن جُعل... فالواو...

[8] قرأ بها الكسائي ويعقوب وخلف وهشام. النشر لابن الجزري، ١٨/٢.

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ الضمير لأصحاب القلم المدلول عليهم بذِكره، وقيل: لـ﴿ٱلْقَلَمِ﴾ على أنّ المراد به أصحابه، كأنّه قيل: وأصحاب القلم ومسطوراتهم على أنّ ﴿مَا﴾ موصولة، أو وسَطْرهم على أنّها مصدريّة.[١] وقيل: لـ﴿ٱلْقَلَمِ﴾ نفسه بإسناد الفعل إلى الآلة وإجرائه مُجرى العقلاء لإقامته مُقامهم.[٢] وقيل المراد بـ﴿ٱلْقَلَمِ﴾ ما خَطّ اللوح خاصّةً، والجمع للتعظيم.[٣]

وقوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ جواب القسَم، و"الباء" متعلِّقة بمضمر هو حال مِن الضمير في خبر ﴿مَا﴾، والعامل فيها معنى النّفي، كأنّه قيل: أنت بريء مِن الجنون ملتبِسًا بنعمة الله التي هي النبوّة والرياسة العامّة.

والتعرّض لوَصْف الربوبيّة المنبئة عن التبليغ إلى معارج الكمال مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام، لتشريفه عليه السلام والإيذانِ بأنّه تعالى يُتمّ نعمته عليه ويُبلّغه مِن العلوّ إلى غاية لا غايةَ وراءها. والمراد تنزيهُه صلّى الله عليه وسلّم عمّا كانوا ينسبونه عليه السلام إليه مِن الجنون حسدًا وعداوةً ومكابرةً، مع جزمهم بأنّه عليه السلام في غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية مِن حصانة العقل ورَزانة الرأي.

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾

[٢١٤ظ] ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ بمقابلة مقاساتك ألوانَ الشدائد مِن جهتهم / وتحمُّلِك لأعباء الرسالة ﴿لَأَجْرًا﴾ لثوابًا عظيمًا لا يُقادَر قَدْره ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ مع عِظَمه، كقوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود، ١٠٨/١١]، أو غيرَ ممنون عليك مِن جهة الناس، فإنّه عطاؤه تعالى بلا توسّط.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ لا يُدرِك شَأْوَه أحد مِن الخَلْق، ولذلك تحتمل مِن جهتهم ما لا يكاد يحتمله البشر. وسُئلت عائشةُ رضي الله عنها عن خُلقه عليه الصلاة والسلام فقالت: «كان خُلقه القرآن، ألست تقرأ القرآن:

---

١ الوجهان في الكشّاف للزمخشري، ٤٤٣/٤.
٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٣٢/٣.
٣ القول في اللباب لابن عادل، ٢٦٦/١٩.

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المؤمنون، ١/٢٣]».[١] والجملتانِ معطوفتان على جواب القسم.

﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۝٩﴾

﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ﴾ قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «فستعلم ويعلمون يوم القيامة حين يتبيّن الحقّ مِن الباطل».[٢] وقيل: فستُبصر ويبصرون في الدنيا بظهور عاقبة أمركم بغلَبة الإسلام واستيلائك عليهم بالقتل والنهب، وصيرورتِك مَهيبًا معظَّمًا في قلوب العالمين وكونِهم أذلّة صاغرين. قال مقاتل: هذا وعيد بعذاب يوم بدر.[٣]

﴿بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ أي: أيّكم الذي فُتن بالجنون، و"الباء" مزيدة، أو بأيّكم الجنون على أنّ ﴿ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ مصدر كـ"المعقول" و"المجلود"، أو بأيّ الفريقين منكم المجنون أبفريق المؤمنين أم بفريق الكافرين؟ أي: في أيّهما يوجد مَن يستحقّ هذا الاسم؟ وهو تعريض بأبي جهل بن هشام والوليد بن المغيرة وأضرابهما،[٤] كقوله تعالى: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ﴾ [القمر، ٢٦/٥٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ تعليل لِما ينبئ عنه ما قبله مِن ظهور جنونهم بحيث لا يخفى على أحد، وتأكيدٌ لِما فيه مِن الوعد والوعيد، أي: هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله تعالى المؤدّي إلى سعادة الدارين، وهامَ في تِيه الضلال متوجِّهًا إلى ما يفضيه إلى الشقاوة الأبديّة. وهذا هو المجنون الذي لا يفرق بين النفع والضرر؛ بل يحسب الضررَ نفعًا فيُؤثِره والنفعَ ضررًا فيهجُره.

﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ إلى سبيله الفائزين بكلّ مطلوب، الناجين عن كلّ محذور، وهم العقلاء المَراجيح، فيجزي كلًّا مِن الفريقين حسبما يستحقّه مِن العقاب والثواب. وإعادة ﴿هُوَ أَعۡلَمُ﴾ لزيادة التقرير.

---

[١] مسند أحمد، ١٤٨/٤١ (٢٤٦٠١)؛ الأدب المفرد للبخاري، ص ١١٥ (٣٠٨)؛ جامع البيان للطبري، ١٥٠/٢٣-١٥١؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٨٧/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٤٤/٤؛

[٢] لم أجِده في مظانّه. وهو بلفظه في تفسير القرطبي، ٢٢٩/١٨؛ واللباب لابن عادل، ٢٧١/١٩.

[٣] القول في اللباب لابن عادل، ٢٧١/١٩.

[٤] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤٤٤/٤.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ لترتيب النّهي على ما ينبئ عنه ما قبله مِن اهتدائه عليه السلام وضلالهم، أو على جميع ما فُصّل مِن أوّل السورة، وهذا تهييج وإلهاب للتصميم على معاصاتهم، أي: دُمْ على ما أنت عليه مِن عدم طاعتهم وتصلَّبْ في ذلك، أو نهيٌ عن مُداهنتهم ومُداراتهم بإظهار خلاف ما في ضميره عليه السلام، استجلابًا لقلوبهم لا عن طاعتهم حقيقةً، كما ينبئ عنه / قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ﴾، فإنّه تعليل للنّهي أو للانتهاء، وإنّما عُبّر عنها بالطاعة للمبالغة في الزجر والتنفير، أي: أحبُّوا لو تُلاينُهم وتُسامِحهم في بعض الأمور. [٢١٥و]

﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ أي: فهم يُدهنون حينئذ، أو فهم الآن يدهنون طمعًا في إدهانك. وقيل: هو عطفٌ على ﴿تُدْهِنُ﴾ داخلٌ في حيِّز ﴿لَوْ﴾، والمعنى: ودّوا لو يُدهِنون عَقيبَ إدهانك.[1] ويأباه ما سيأتي مِن بدئهم بالإدهان، على أنّ إدهانهم أمر محقَّق لا يناسب إدخاله تحت التمنّي.

وأيًا ما كان فالمعتبَر في جانبهم حقيقة الإدهان الذي هو إظهار المُلاينة وإضمار خلافها، وأمّا في جانبه عليه السلام فالمعتبرُ بالنسبة إلى وَدادتهم هو إظهار المُلاينة فقط، وأمّا إضمار خلافها فليس في حيِّز الاعتبار؛ بل هم في غاية الكراهة له، وإنّما اعتباره بالنسبة إليه عليه السلام.

وفي بعض المصاحف "فَيُدْهِنُوا"[2] على أنّه جواب التمنّي المفهوم مِن ﴿وَدُّواْ﴾، وأنّ ما بعده حكاية لودادتهم. وقيل: على أنّه عطفٌ على ﴿تُدْهِنُ﴾ بناءً على أنّ ﴿لَوْ﴾ بمنزلة "أن" الناصبة، فلا يكون لها جواب، وينسَبِكُ منها وممّا بعدها مصدر يقع مفعولًا لـ﴿وَدُّواْ﴾، كأنّه قيل: ودّوا أن تُدهنَ فيُدهنوا. وقيل ﴿لَوْ﴾ على حقيقتها، وجوابها محذوف وكذا مفعول ﴿وَدُّواْ﴾، أي: ودّوا إدهانك لو تُدهن فيُدهنوا لَسُرُّوا بذلك.[3]

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٣٢/٣.
٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤٤٤/٤.
٣ الوجهان بإيجاز في اللباب لابن عادل، ٢٧٣/١٩.

﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلِّۢ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ۝١٦﴾

﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ﴾ كثير الحلف في الحقّ والباطل. تقديم هذا الوصف على سائر الأوصاف الزاجرة عن الطاعة لكونه أدخَلَ في الزجر. ﴿مَّهِينٍ﴾ حقير الرّأي والتدبير.

﴿هَمَّازٖ﴾ عيّاب طعّان ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾ مُضرِّب نقّال للحديث مِن قوم إلى قوم على وجه السِّعاية والإفساد بينهم، فإنّ النميم والنميمة: السِّعاية.

﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ﴾ أي: بخيل، أو منّاع للناس مِن الخير الذي هو الإيمان والطاعة والإنفاق. ﴿مُعۡتَدٍ﴾ متجاوِز في الظلم ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الآثام.

﴿عُتُلِّۢ﴾ جافٍ غليظ مِن "عتَلَه" إذا قاده بعُنف وغِلظة ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ بعد ما عُدّ مِن مَثالبه ﴿زَنِيمٍ﴾ دَعِيّ مأخوذ مِن الزَّنَمة: وهي الهَنَة مِن جلد الماعزة تُقطَع فتُخلّى متدلّيةً في حلقها. وفي قوله تعالى: ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ دلالة على أنّ دِعْوَتَه أشدّ معايبه وأقبح قبائحه. قيل: هو الوليد بن المُغيرة، / فإنّه كان دَعيًّا في قريش وليس مِن سِنخهم،[١] ادّعاه[٢] المُغيرة بعد ثماني عشرةَ مِن مَولده.[٣] وقيل: هو الأخنس بن شَريق، أصله مِن ثَقيف وعِداده في زُهْرة.[٤] [٢١٥ظ]

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ﴾ متعلِّق بقوله تعالى: ﴿لَا تُطِعۡ﴾ أي: لا تطع مَن هذه مَثالبه، لأن كان متموِّلًا مستظهِرًا بالبنين.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ استئناف جارٍ مَجرى التعليل للنّهي. وقيل: متعلِّق بما دلّ عليه الجملة الشرطيّة مِن معنى الجُحود والتكذيب لا بجواب الشرط؛ لأنّ ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله، كأنّه قيل:

---

١ السِّنخ: الأصل مِن كلّ شيء. لسان العرب لابن منظور، «سنخ».

٢ س ي: ادّعاء.

٣ القول بمعناه في معالم التنزيل للبغوي، ١٩٨/٨؛ وبلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٤٤٥/٤.

٤ مَرويّ عن الكلبي في جامع البيان للطبري، ١٦٠/٢٣؛ وعن السدّي في الكشّاف للزمخشري، ٤٤٥/٤.

لكونه مستظهِرًا بالمال والبنين كذّب بآياتنا.[١] وفيه أنّه يدلّ على أنّ مَدار تكذيبه كونُه ذا مال وبنين مِن غير أن يكون لسائر قبائحه دَخْل في ذلك.

وقُرئ: "أَأَنْ كَانَ"[٢] على معنى أَلِأن كان ذا مال كذّب بها؟ أو أتُطيعه لأن كان ذا مال؟ وقُرئ: "إِنْ كَانَ"[٣] بالكسر، والشرط للمخاطَب، أي: لا تطع كلّ حلّاف شارطًا يساره؛ لأنّ إطاعة الكافر لغِناه بمنزلة اشتراط غِناه في الطاعة.

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ بالكيّ على أكرَم مواضعه لغاية إهانته وإذلاله. قيل: أصاب أنفَ الوليد جِراحةٌ يوم بدر فبقيَت علامتها. وقيل: معناه سنُعلِمه يوم القيامة بعلامة مشوّهة يُعلَم بها عن سائر الكفرة.[٤]

﴿إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ﴾ أي: أهل مكّة بالقحط بدعوة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ وهم قوم مِن أهل الصلاة كانت لأبيهم هذه الجنّة دون صنعاءَ بفرسخين، فكان يأخذ منها قوت سنة ويتصدّق بالباقي، وكان ينادي الفقراءَ وقت الصِّرام، ويترك لهم ما أخطأه المِنجَل، وما في أسفل الأكداس، وما أخطأه القِطاف مِن العنب، وما بقيَ على البساط الذي يبسط تحت النخلة إذا صُرمت، فكان يجتمع لهم شيءٌ كثير، فلمّا مات أبوهم قال بنوه إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا / الأمر، فحلفوا فيما بينهم، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ لَيقطعُنّها داخلين في الصباح. [٢١٦و]

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي: لا يقولون: "إن شاء الله". وتسميتُه استثناء مع أنّه شرط مِن حيث إنّ مؤدّاه مؤدّى الاستثناء، فإنّ قولك: "لأخرجنّ إن شاء الله"

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٦.

٢ قرأ بها ابن عامر وحمزة ويعقوب وأبو جعفر وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزُّهري والنقّاش عن نافع. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٠؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٠.

٤ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٦.

و"لا أخرج إلّا أن يشاء الله" بمعنى واحد. أو لا يستثنون حِصّة المساكين كما كان يفعله أبوهم، والجملة مستأنفة.

﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ١٩ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ٢٠﴾

﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا﴾ أي: على الجنّة ﴿طَآئِفٞ﴾ بلاءٌ طائف، وقُرئ: "طَيْفٌ".[1] ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ مبتدئ مِن جهته تعالى ﴿وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾ غافلون عمّا جرت به المقادير.

﴿فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ﴾ كالبستان الذي صُرِمت ثماره بحيث لم يبقَ منها شيء، "فعيل" بمعنى "مفعول". وقيل: كالليل، أي: احترقت فاسودّت. وقيل: كالنّهار، أي: يبِست وابيضّت، سُمّيا بذلك لأنّ كلًّا منهما ينصرِم عن صاحبه. وقيل: الصريم الرِّمال.[2]

﴿فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ ٢١ أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ ٢٢﴾

﴿فَتَنَادَوۡاْ﴾ أي: نادى بعضهم بعضًا ﴿مُصۡبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح.

﴿أَنِ ٱغۡدُواْ﴾ أي: اغدوا على أنّ ﴿أن﴾ مفسِّرة، أو بأن اغدوا، على أنّها مصدريّة، أي: اخرجوا غدوةً. ﴿عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ﴾ بستانكم وضيعتكم. وتعدية الغدوّ بـ﴿عَلَىٰ﴾ لتضمينه معنى الإقبال أو الاستيلاء. ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ﴾ قاصدين للصّرم.

﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ٢٣ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ ٢٤ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ ٢٥﴾

﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ أي: يتشاورون فيما بينهم بطريق المُخافَتة، و"خفيَ" و"خفتَ" و"خفَد" ثلاثتُها في معنى الكَتْم، ومنه "الخُفدُود" للخفّاش.[3]

﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا﴾ أي: الجنّة ﴿ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ﴾ ﴿أن﴾ مفسِّرة لِما في التخافُت مِن معنى القول. وقرئ بطَرْحها[4] على إضمار القول. والمراد

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن إبراهيمَ النخَعي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٠.

[2] الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٤٤٧/٤.

[3] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤٤٧/٤.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨١.

بنهي المِسكين عن الدخول المبالغةُ في النهي عن تمكينه مِن الدخول، كقولهم: "لا أرينَّك ههنا".

[٢١٦ظ] ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾ / أي: على نكَدٍ لا غيرُ، مِن "حاردَت السَّنَة" إذا لم يكن فيها مطر، و"حاردَت الإبل" إذا منعتْ درّها، والمعنى أنّهم أرادوا أن يتنكّدوا على المساكين ويحرِموهم وهم قادرون على نفعهم، فغدوا بحال لا يقدرون فيها إلّا على النّكَد والحِرمان. وذلك أنّهم طلبوا حِرمان المساكين فتعجّلوا الحِرمان والمَسكنَة، أو وغدَوا على محارَدة جنّتهم وذهاب خيرِها قادرين بدلَ كونهم قادرين على إصابة خيرِها ومنافعها، أي: غدوا حاصلين على النّكَد والحِرمان مكانَ كونهم قادرين على الانتفاع.

وقيل: الحَرْد: الحَرَد،[١] وقد قُرئ بذلك،[٢] أي: لم يقدروا إلّا على حَنَق بعضهم لبعض لقوله تعالى: ﴿يَتَلَٰوَمُونَ﴾.[٣] وقيل: الحَرْد: القصد والسرعة، أي: غدوا قاصدين إلى جنّتهم بسرعة قادرين عند أنفسهم على صِرامها. وقيل: هو عَلَم للجنّة.[٤]

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ۝٢٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ۝٢٧﴾

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ﴾ في بديهة رؤيتهم ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: طريق جنّتنا، وما هي بها.

﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ قالوه بعد ما تأمّلوا ووقفوا على حقيقة الأمر مُضربين عن قولهم الأوّل، أي: لسنا ضالّين؛ بل نحن محرومون حُرمنا خيرها بجِنايتنا على أنفسنا.

﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨ قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٩﴾

﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ﴾ أي: رأيًا أو سِنًّا ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ﴾ لولا تذكرون الله تعالى وتتوبون إليه مِن خُبث نيّتكم، وقد كان قال لهم حين عزموا على ذلك: اذكروا الله وتوبوا إليه عن هذه العزيمة الخبيثة مِن فوركم، وسارعوا إلى حَسْم شرّها قبل حلول النقمة، فعصوه فعيّرهم، كما ينبئ عنه قوله تعالى:

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٧. والحَرَد: الغضب. لسان العرب لابن منظور، «حرد».

[٢] قراءة شاذّة، غير منسوبة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٠.

[٣] في الآية الثلاثين مِن هذه السورة.

[٤] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٧.

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾. وقيل: المرادُ بالتسبيح الاستثناء لاشتراكهما في التعظيم، أو لأنّه تنزيه له تعالى عن أن يجري في ملكه ما لا يشاؤه.[1]

﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۝٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ۝٣٢﴾

﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ أي: يلوم بعضهم بعضًا، فإنّ منهم مَن أشار بذلك، ومنهم مَن استصوبه، ومنهم مَن سكت راضيًا به، ومنهم مَن أنكره.

/ ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ متجاوِزين حدودَ الله. [٢١٧و]

﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا﴾ وقرئ بالتشديد،[2] أي: يُعطينا بدلًا منها ببركة التوبة والاعتراف بالخطيئة. ﴿خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ راجون العفوَ طالبون الخيرَ. و﴿إِلَىٰ﴾ لانتهاء الرغبة، أو لتضمُّنها معنى الرجوع.

عن مجاهد: «تابوا فأُبدلوا خيرًا منها».[3] ورُوي أنّهم تعاقدوا وقالوا: إن أبدلَنا الله تعالى خيرًا منها لنصنعَنّ كما صنع أبونا، فدعوا الله تعالى وتضرّعوا إليه فأبدلهم الله تعالى مِن ليلتهم ما هو خير منها. قالوا: إنّ الله تعالى أمر جبريلَ عليه السلام أن يقتلع تلك الجنّة المحترِقة فيجعلها بزعر[4] مِن أرض الشام ويأخذ مِن الشام جنّة فيجعلها مكانها.[5] وقال ابن مسعود: «إنّ القوم لمّا أخلصوا وعرَف الله منهم الصدقَ أبدلهم جنّة يقال لها الحيوان، فيها عنب يحمل البغلُ منه عنقودًا».[6]

وقال أبو خالد اليماني:[7] دخلتُ تلك الجنّة فرأيتُ كلّ عنقود منها كالرجُل الأسود القائم. وسُئل قتادة عن أصحاب الجنّة: أهم مِن أهل الجنّة أم مِن أهل النار؟ فقال: لقد كلّفتني تعبًا. وعن الحسن رحمه الله: قول أصحاب الجنّة:

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٨.

٢ قرأ بها نافع وأبو عمرو وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣١٤.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٨.

٤ الزّعَر: قلّة النبات في الأرض. لسان العرب لابن منظور، «زعر». وفي مطبوع اللباب لابن عادل، ١٩/٢٩٣: «زغر».

٥ الكلام في اللباب لابن عادل، ١٩/٢٩٣.

٦ معالم التنزيل للبغوي، ٨/١٩٧.

٧ وفي هامش م: ابن عادل.

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ لا أدري إيمانًا كان ذلك منهم، أو على حدّ ما يكون مِن المشركين إذا أصابتهم الشدّة، فتوقّف في أمرهم. والأكثرون على أنّهم تابوا وأخلصوا. حكاه القُشيري.[1]

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبر مقدَّم لإفادة القصر، و"الألف" و"اللام" للعهد، أي: مثلُ الذي بلونا به أهلَ مكّة وأصحابَ الجنّة عذابُ الدنيا. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أعظم وأشدّ ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أنّه أكبر لاحترزوا عمّا يؤدّيهم إليه.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: مِن الكفر والمعاصي ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: في الآخرة، أو في جوار القدس ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ جنات ليس فيها إلّا التنعّم الخالص عن شائبة ما يُنغّصه مِن الكدورات وخوف الزوال، كما عليه نعيم الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ تقرير لِما قبله مِن فوز المتّقين بجنّات النعيم، وردٌّ لِما يقوله الكفَرة عند سماعهم بحديث الآخرة / [٢١٧ظ] وما وعَد الله المسلمين فيها، فإنّهم كانوا يقولون: إن صحّ أنّا نُبعثُ كما يزعم محمّد ومَن معه لم تكن حالنا وحالهم إلّا مثلَ ما هي في الدنيا، وإلّا لم يزيدوا علينا ولم يفضلونا وأقصى أمرهم أن يُساوونا. و"الهمزة" للإنكار، و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أنَحيف في الحُكم فنجعَل المسلمين كالكافرين.

---

[1] هذه الأقوال كلُّها في اللباب لابن عادل، ٢٩٣/١٩. وانظر كلام القُشيري في لطائف الإشارات، ٦٢٠/٣. | هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة النيسابوري القشيري، مِن بني قشير بن كعب، أبو القاسم (ت. ٤٦٥هـ/١٠٧٢م). الإمام القدوة الأستاذ الشافعي الصوفي المفسِّر. زين الإسلام وشيخ خراسان في عصره زهدًا وعِلمًا بالدِّين. برع بالفروسيّة والعمل بالسلاح. أقام بنيسابور ومات فيها. مِن كتبه: الرسالة القشيريّة، ولطائف الإشارات. انظر: وسير أعلام النبلاء للذهبي، ١٨، ٢٢٧؛ والأعلام للزركلي، ٥٧/٤.

ثمّ قيل لهم بطريق الالتفات لتأكيد الردّ وتشديده: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ تعجيبًا مِن حكمهم واستبعادًا له وإيذانًا بأنّه لا يصدر عن عاقل.

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ﴾ نازل مِن السماء ﴿فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ أي: تقرأون.

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ أي: ما تتخيَّرونه وتشتهونه، وأصله "أنّ لكم" بالفتح؛ لأنّه مدروس، فلمّا جيء بـ"اللام" كُسِرت. ويجوز أن يكون حكاية للمدروس، كما هو كقوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات، ٣٧/٧٨-٧٩].[١] وتخيُّر الشيءِ واختِيارُه: أَخْذ خَيره.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا﴾ أي: عهود مؤكَّدة بالأيمان ﴿بَالِغَةٌ﴾ متناهية في التوكيد. وقُرئت بالنصب[٢] على الحال والعامل فيها أحد الظرفين. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ متعلِّق بالمقدَّر في ﴿لَكُمْ﴾، أي: ثابتة لكم إلى يوم القيامة لا نخرُج عن عهدتها حتّى نحكِّمكم يومئذ ونعطيكم ما تحكمون، أو بـ﴿بَالِغَةٌ﴾، أي: أيمان تبلغ ذلك اليوم وتنتهي إليه وافرةً لم تبطل منها يمين. ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ جوابُ القسَم، لأنّ معنى "أم لكم علينا أيمان": أم أقسَمنا لكم.

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾﴾

﴿سَلْهُمْ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بإسقاطهم عن رتبة الخطاب، أي: سَلْهم مُبكِّتًا لهم. ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ﴾ الحُكم الخارج عن العقول ﴿زَعِيمٌ﴾ أي: قائم يتصدّى لتصحيحه.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ يشاركونهم في هذا القول ويذهبون مذهبَهم ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في دعواهم؛ إذ لا أقلَّ مِن التقليد، وقد نُبِّه في هذه الآيات الكريمة على أن ليس لهم / شيء يُتوهَّم أن يتشبَّثوا به حتّى التقليد [٢١٨و]

---

١ الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وإبراهيم وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨١؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨١٨.

الذي لا يفلح مَن تشبَّث بذيله. وقيل: المعنى: أم لهم شركاء يجعلونهم مثلَ المسلمين في الآخرة.[١]

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ۝﴾

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ أي: يوم يشتدّ الأمر ويصعُب الخَطْب، وكَشْفُ الساق مثَل في ذلك، وأصله تشمير المخدَّرات عن سُوقهنّ في الهرَب. قال حاتم:[٢]

أخو الحربِ إن عضّتْ به الحرب عضّها وإن شمّرتْ عن ساقها الحربُ شمّرا[٣]

وقيل: "ساقُ الشيء" أصله الذي به قوامه كساق الشجر وساق الإنسان، أي: يوم يُكشف عن أصل الأمر فتظهر حقائق الأمور وأصولها بحيث تصير عِيانًا.[٤] وتنكيره للتهويل أو التعظيم. وقُرئ: "تَكْشِفُ" بـ"التاء" على البناء للفاعل[٥] والمفعول،[٦] والفعل للساعة أو الحال، وقُرئ: "نَكْشِفُ"[٧] بـ"النون"، و"تُكْشِفُ"[٨] بـ"التاء" المضمومة وكسرِ "الشين" مِن "أكشَف الأمر"، أي: دخل في الكَشْف.

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٣٦/٣.

٢ هو حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي، أبو عديّ (ت. ٥٧٨م). فارسٌ شاعر جواد جاهلي، يُضرب المَثَل بجوده، مِن أهل نجد، وزار الشام فتزوّج ماويّة بنت حجر الغسانيّة، ومات في عوارض: جبل في طيئ. له شعر كثير ضاع معظمه، وبقي قليل منه، وديوانه مطبوع. وأخباره كثيرة متفرّقة في كتب الأدب والتاريخ. أرّخوا وفاته في السنة الثامنة بعد مولد النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة، ٢٤١/١؛ والأعلام للزركلي، ١٥١/٢.

٣ البيت لحاتم الطائي في زيادات ديوانه، ص ٢٩٧، ممّا نُسِب إليه وصحّ له؛ وهو لحاتم في الكشّاف للزمخشري، ٤٤٩/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٣٦/٣؛ واللباب لابن عادل، ٢٩٩/١٩.

٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٣٦/٣.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨١٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وابن يعمر وأبي البَرَهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨١؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨١٩.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وابن يعمر وأبي البَرَهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨١؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨١٩.

٨ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤٥٠/٤.

وناصب الظرفِ ﴿فَلْيَأْتُواْ﴾،[١] أو مضمَر مقدَّم، أي: اذكُر يومَ... إلخ، أو مؤخَّر، أي: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾... إلخ، يكون مِن الأهوال وعظائم الأحوال ما لا يبلغه الوصف.

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ توبيخًا وتعنيفًا على تَرْكهم إيّاه في الدنيا، وتحسيرًا لهم على تفريطهم في ذلك. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لزوال القدرة عليه، وفيه دلالة على أنّهم يقصدون السجودَ فلا يتأتّى منهم ذلك. عن ابن مسعود رضي الله عنه: تُعْقَم أصلابهم،[٢] أي: تُرَدّ عظامًا بلا مفاصلَ لا تنثني عند الرفع والخفض. وفي الحديث: وتبقى أصلابهم طبقًا واحدًا،[٣] أي: فَقارة واحدة.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ حال مِن مرفوع ﴿يُدْعَوْنَ﴾، على أنّ ﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾ مرتفع به على الفاعليّة. ونسبة الخشوع إلى الأبصار لظهور أثره فيها. ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ تلحَقهم وتغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ شديدة ﴿وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ في الدنيا.

والإظهار في موضع الإضمار لزيادة التقرير، أو لأنّ المراد به الصلاة، أو ما فيها مِن السجود، والدعوة دعوة التكليف. ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ متمكِّنون منه أقوى تمكّن، أي: فلا يُجيبون إليه ويأبَونه، وإنّما تُرِك ذِكره ثقةً بظهوره.

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: كِلْه إليّ فإنّي أكفيك أمرَه، أي: حسبك في الإيقاع به والانتقام منه أن تكِل أمره إليّ وتُخلّي بيني وبينه، فإنّي عالم بما يستحقّه / مِن العذاب ومُطيق له. و"الفاء" لترتيب الأمر على ما قبلها مِن أحوالهم المحكيّة، أي: وإذا كان حالهم في الآخرة كذلك فذرني ومَن يكذِّب بالقرآن، وتوكّل عليّ في الانتقام منه. [٢١٨ظ]

---

١ في الآية السالفة.

٢ بمعناه في جامع البيان للطبري، ١٩٠/٢٣؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٥٠/٤.

٣ بمعناه في معالم التنزيل للبغوي، ٢٠٠/٨؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٥٠/٤.

وقوله تعالى: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾ استئناف مَسوق لبيان كيفيّة التعذيب المستفاد مِن الأمر السابق إجمالًا، والضمير لـ﴿مَن﴾، والجمع باعتبار معناها، كما أنّ الإفراد في ﴿يُكَذِّبُ﴾ باعتبار لفظها، أي: سنستنزلهم إلى العذاب درجةً فدرجةً بالإحسان وإدامة الصحّة وازدياد النعمة. ﴿مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنّه استدراج، وهو الإنعام عليهم؛ بل يزعمون أنّه إيثار لهم وتفضيل على المؤمنين مع أنّه سبب لهلاكهم.

﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡ﴾ وأمهلهم ليزدادوا إثمًا وهم يزعمون أنّ ذلك لإرادة الخير بهم. ﴿إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ لا يُوقَف عليه ولا يُدفَع بشيء. وتسمية ذلك كيدًا لكونه في صورة الكيد.

﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ﴾ على الإبلاغ والإرشاد ﴿أَجۡرًا﴾ دُنيويًّا ﴿فَهُم﴾ لأجل ذلك ﴿مِّن مَّغۡرَمٖ﴾ أي: غرامة ماليّة ﴿مُّثۡقَلُونَ﴾ مكلَّفون حِملًا ثقيلًا فيُعرِضون عنك.

﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ﴾ أي: اللوح أو المغيَّبات ﴿فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ منه ما يحكمون ويستغنون به عن عِلمك.

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ۝٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ۝٤٩ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم. ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ أي: يونس عليه السلام ﴿إِذۡ نَادَىٰ﴾ في بطن الحوت ﴿وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ مملوءٌ غيظًا. والجملة حال مِن ضمير﴿نَادَىٰ﴾، وعليها يدور النهي لا على النداء، فإنّه أمر مُستحسَن، ولذلكَ لم يُذكَر المنادى. و﴿إِذۡ﴾ منصوب بمضاف محذوف، أي: لا يكن حالك كحاله وقتَ ندائه، أي: لا يُوجَد منك ما وُجِد منه مِن الضجر والمُغاضبة فتُبتلى ببلائه.

﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وقُرئ: "رَحۡمَةٌ"،[١] وهو توفيقه للتوبة وقَبولها منه،

---

[١] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥١.

وحَسُن تذكير الفعل للفصل بالضمير. وقرئ: "تَدَارَكَتْهُ"[١] و"تَدَارَكُهُ"،[٢] أي: "تتدارَكُه" على حكاية الحال الماضية، بمعنى لولا أن كان يقال فيه: تتداركه.

﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾ بالأرض الخالية مِن الأشجار ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ مُليم مَطرود مِن الرحمة والكرامة، وهو حال مِن مرفوع ﴿نُبِذَ﴾، عليها يعتمد جواب ﴿لَّوْلَآ﴾ لأنّها هي المُنتفية لا النَّبذ بالعراء كما مرّ في الحال الأولى. والجملة الشرطيّة / استئناف وارد لبيان كون المنهيّ عنه أمرًا محذورًا مستتبعًا للغائلة. [٢١٩و]

وقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ عطفٌ على مقدَّر، أي: فتدارَكته نعمة مِن ربّه فاجتباه بأن ردّ إليه الوحيَ، وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون. وقيل: استنبأه إن صحّ أنّه لم يكن نبيًا قبل هذه الواقعة.[٣] ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مِن الكاملين في الصلاح بأن عصَمه مِن أن يفعل فعلًا يكون تَرْكه أَوْلى.

رُوي أنّها نزلت بأُحُد حين همّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يدعو على المنهزمين مِن المؤمنين، وقيل: حين أراد أن يدعو على ثَقيف.[٤]

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ وقُرئ: "لَيَزْلِقُوْنَكَ"[٥] بفتح "الياء" مِن "زَلَقه" بمعنى أزلَقه، و"يُزْهِقُوْنَكَ".[٦] و﴿إِن﴾ هي المخفَّفة و"اللام" دليلها، والمعنى أنّهم مِن شدّة عداوتهم لك ينظرون إليك شَزْرًا بحيث يكادون يُزِلّون قدمك فيَرمونك، مِن قولهم: "نظَر إليّ نظرًا يكاد يصرعني"، أي: لو أمكنه بنظره الصرع لفعله، أو أنّهم يكادون يُصيبونك بالعين؛ إذ قد رُوي أنّه كان في بني أسدٍ عيّانون فأراد بعضهم أن يَعين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وابن مسعود وإبراهيم النخَعي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٢.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. الكشّاف للزمخشري، ٤٥١/٤.
٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٣٧/٣.
٤ كلاهما في الكشّاف للزمخشري، ٤٥١/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٣٧/٣.
٥ قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٨٩/٢.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦١.

فنزلت.[١] وفي الحديث: «إنّ العين لتُدخِل الرجلَ القبرَ والجملَ القِدْرَ»،[٢] ولعلّه مِن خصائص بعض النفوس، وعن الحسن: دواء الإصابة بالعين أن تُقرأ هذه الآية.[٣]

﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: وقتَ سماعهم بالقرآن، على أنّ ﴿لَمَّا﴾ ظرفيّة منصوبة بـ﴿يُزْلِقُونَكَ﴾، وذلك لاشتداد بُغضهم وحسَدهم عند سماعه.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ لغاية حيرتهم في أَمْره عليه السلام، ونهايةِ جهلهم بما في تضاعيف القرآن مِن تعاجيب الحِكَم وبدائع العلوم المحجوبة عن العقول المنغمِسة بأحكام الطبائع، ولتنفير النّاس عنه: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾.

وحيث كان مَدارُ حُكمهم الباطل ما سمعوه منه عليه السلام رُدّ ذلك ببيان علوّ شأنه وسطوع برهانه فقيل: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ على أنّه حال مِن فاعل ﴿يَقُولُونَ﴾ مفيدةٌ لغاية بُطلان / قولهم، وتعجيبِ السامعين[٤] مِن جرأتهم على تفوّه تلك العظيمة، أي: يقولون ذلك والحال أنّه ذِكر للعالمين، أي: تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون إليه مِن أمور دينهم، فأين مَن أنزل عليه ذلك وهو مطّلع على أسراره طُرًّا ومحيطٌ بجميع حقائقه خُبرًا ممّا قالوا؟ [٢١٩ظ]

وقيل: معناه: شرف وفضل، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف، ٤٤/٤٣]. وقيل: الضمير لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكونُه مذكِّرًا وشرفًا للعالمين لا ريبَ فيه.[٥]

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة القلم أعطاه الله ثواب الذين حسّن الله أخلاقهم».[٦]

---

١ بمعناه في أسباب النزول للواحدي، ص ٤٦٣-٤٦٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٠٢/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٥١/٤.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٣/٢٧؛ حلية الأولياء لأبي نُعيم، ٩٠/٧؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٥٨/٤ (يوسف، ٦٧/١٢).

٣ معالم التنزيل للبغوي، ٢٠٣/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٥١/٤.

٤ السياق: رُدّ ذلك ببيان... وتعجيبِ...

٥ القولان في اللباب لابن عادل، ٣١١/١٩.

٦ الكشف والبيان للثعلبي، ١٣٠/٢٧ (القلم، ١/٦٨)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٣٢/٤ (القلم، ١/٦٨)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٥١/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة الحاقّة

مكيّة، وهي[1] إحدى[2] وخمسون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾

﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ أي: السّاعة، أو الحالة الثابتةُ الوقوعِ الواجبةُ المجيءِ لا محالةَ، أو التي تحقّ فيها الأمور الحقّة مِن الحساب والثواب والعقاب، أو التي تُحَقّ فيها الأمور، أي: تُعرف على الحقيقة مِن "حَقَّه يَحُقّه" إذا عرَف حقيقته.

جُعل الفعل لها مجازًا، وهو لِما فيها مِن الأمور، أو لمَن فيها مِن أولي العِلم. وأيًّا ما كان فحَذْف الموصوف للإيذان بكمال ظهور اتّصافه بهذه الصفة وجريانها مَجرى الاسم. وارتفاعها على الابتداء، خبرُها ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ على أنّ ﴿مَا﴾ مبتدأ ثانٍ، و﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ خبره، والجملة خبرٌ للمبتدأ الأوّل. والأصل "ما هي"، أي: أيُّ شيء هي في حالها وصفتها؟ فإنّ "ما" قد يُطلب بها الصفة والحال، فوُضع الظاهر موضعَ المضمر تأكيدًا لهَولِها.

هذا ما ذكروه في إعراب هذه الجملة ونظائرها، وقد سبَق في سورة الواقعة[3] أنّ مقتضى التحقيق أن يكون ﴿مَا﴾ الاستفهاميّة خبرًا لِما بعدها، فإنّ مَناط الإفادة بيانُ أنّ الحاقّة أمر بديع وخطب فظيع، كما يُفيده كون ﴿مَا﴾ خبرًا، لا بيانُ أنّ أمرًا بديعًا ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾، كما يُفيده كونها مبتدأ وكون ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ خبرًا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ أي: وأيّ شيء أعلَمك ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ تأكيد لهَولِها وفظاعتِها ببيان خروجها عن دائرة علوم المخلوقات، على معنى أنّ عِظَم شأنها

---

[1] ي - وهي.

[2] ي: اثنتان.

[3] في تفسير الآية الثامنة منها. لكنّه ذكَر ثمّة أنّ الاستفهاميّة مبتدأ ثانٍ، فليُتأمّل.

ومَدَى هَولها وشدّتها بحيث لا تكاد تبلغه دراية أحد ولا وهمه، وكيفما قُدِّرت حالها فهي أعظم مِن ذلك وأعظم فلا يتسنّى الإعلام.

و﴿مَا﴾ في حيّز الرفع على الابتداء، و﴿أَدْرَىٰكَ﴾ خبره. ولا مَساغَ ههنا للعكس. و﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبر على الوجه الذي عرفتَه، محلُّها النصب على إسقاط الخافض؛ لأنّ "أدرى" يتعدّى إلى المفعول الثّاني بـ"الباء"، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ [يونس، ١٠/١٦]، فلمّا وقعت جملة الاستفهام / معلِّقةً [٢٢٠و] له كانت في موضع المفعول الثاني، والجملةُ الكبيرة معطوفة على ما قبلها مِن الجملة الواقعة خبرًا لقوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ مؤكِّدةٌ لهَولِها، كما مرّ.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ أي: بالحالة التي تقرع الناس بفنون الأفزاع والأهوال والسماءَ بالانشقاق والانفطار والأرضَ والجبالَ بالدكّ والنّسف والنجومَ بالطمس والانكدارِ. ووضعُها موضعَ ضمير ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾[١] للدلالة على معنى القَرْع فيها تشديدًا لهَولِها.

والجملة استئناف مَسوق لإعلام بعض أحوال الحاقّة له عليه السلام إثرَ تقرير أنّه ما أدراه عليه السلام بها أحدٌ، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة، ١٠١/١٠-١١] ونظائرِه، خلا أنّ المبيَّن هناك نفسُ المسئول عنها وههنا حال مِن أحوالها، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر، ٩٧/٢-٣]، فكما أنّ المبيَّن هناك ليس نفس ليلة القدر؛ بل فضلُها وشرفها، كذلك المبيَّن ههنا هَول الحاقّة وعِظم شأنها وكونها بحيث يَحِقُّ إهلاكُ مَن يكذِّب بها، كأنّه قيل: وما أدراك ما الحاقّة، كذّبت بها ثمودُ وعادٌ فأهلكوا.

---

[١] في الآية السالفة.

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ أي: بالواقعة المُجاوِزة للحدّ، وهي الصيحة أو الرجفة.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ أي: شديدة الصوت لها صرصرة، أو شديدة البَرْد تحرق ببَرْدها ﴿عَاتِيَةٍ﴾ شديدة العصف، كأنّها عتَت على خُزّانها فلم يتمكّنوا مِن ضَبْطها، أو على عاد فلم يقدروا على ردّها.

وقوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾... إلخ، استئناف جيء به بيانًا لكيفيّة إهلاكهم بالريح، أي: سلّطها الله تعالى عليهم بقدرته القاهرة. ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي: متتابعاتٍ، جمع حاسم كـ"شهود" جمع "شاهد" مِن "حسمتُ الدابة" إذا تابعتَ بين كيّها، أو نحِساتٍ حسمَتْ كلّ خير واستأصلَته، أو قاطعاتٍ قطعَتْ دابرهم. ويجوز أن يكون مصدرًا منتصبًا على العِلّة بمعنى قطعًا، أو على المصدر لفعله المقدَّر حالًا، أي: تحسِمهم حُسومًا، ويُؤيِّده القراءة بالفتح.[1]

وهي كانت أيّام العجوز مِن صبيحة أربعاء إلى غروب الأربعاء الآخر، وإنّما سُمّيت عجوزًا لأنّ عجوزًا مِن عادٍ توارت / في سَرب فانتزعَتْها الريح في اليوم الثامن فأهلكَتْها. وقيل: هي أيّام العَجُز وهي آخر الشتاء وأسماؤها: الصِّنُّ والصِّنَّبْرُ والوَبْرُ والآمِر والمؤتمِر والمُعلّل ومطفئ الجمر. وقيل: مكفئ الظَّعن.[2] [٢٢٠ظ]

﴿فَتَرَى الْقَوْمَ﴾ إن كنت حاضرًا حينئذ ﴿فِيهَا﴾ في مهابّها أو في تلك الليالي والأيّام ﴿صَرْعَىٰ﴾ مَوتى جمعُ صريع ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ أي: أصول نخل ﴿خَاوِيَةٍ﴾ متآكلة الأجواف.

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ أي: بقيّة، أو نفس باقية، أو بقاء على أنّها مصدر كـ"الكاذبة" و"الطاغية".

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ۝ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝﴾

---

[1] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٤٠/٣. وقراءة الفتح قراءة شاذّة، مرويّة عن السدّي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦١.

[2] الكلام في الأيّام كلّه في الكشّاف للزمخشري، ٤٥٣/٤.

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ أي: ومَن تقدّمه. وقُرئ: "وَمَنْ قِبَلَهُ"،[١] أي: ومَن عنده مِن أتباعه، ويُؤيّده أنّه قرئ: "وَمَنْ مَعَهُ".[٢] ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ أي: قُرَى قوم لوطٍ، أي: أهلها. ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ بالخطأ أو بالفعلة أو الأفعال ذات الخطأ التي مِن جملتها تكذيب البعث والقيامة.

﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي: فعصى كلّ أمّة رسولها حين نَهَوهم عمّا كانوا يتعاطَونه مِن القبائح ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ أي: الله عزّ وجلّ ﴿أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي: زائدة في الشِّدّة كما زادت قبائحهم في القبح، مِن "ربا الشيء" إذا زاد.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ بسبب إصرار قوم نوحٍ على فنون الكفر والمعاصي ومبالغتهم في تكذيبه عليه السلام فيما أُوحيَ إليه مِن الأحكام التي مِن جملتها أحوال القيامة. ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ أي: في أصلاب آبائكم ﴿فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ في سفينة نوحٍ عليه السلام.

والمراد بحَمْلهم فيها رفعُهم فوق الماء إلى انقضاء أيّام الطوفان، لا مجرّدُ رفعِهم إلى السفينة كما يعرب عنه كلمة ﴿فِى﴾، فإنّها ليست بصلة للحمل؛ بل متعلّقة بمحذوف هو حال مِن مفعوله، أي: رفعناكم فوق الماء وحفظناكم حال كونكم في السفينة الجارية بأمرنا وحفظنا. وفيه تنبيه على أنّ مَدار نجاتهم مَحض عِصمته تعالى، وإنّما[٣] السفينة سبب صوري.

﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ أي: لنجعل الفعلة التي هي عبارة عن إنجاء المؤمنين وإغراق الكافرين. ﴿لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ عبرةً ودلالةً على كمال قدرة الصانع وحِكمته وقوّة قهره وسَعَة رحمته.

﴿وَتَعِيَهَا﴾ أي: تحفظَها، والوعي أن تحفظ الشيء في نفسك، والإيعاء أن تحفظه في غير نفسك مِن وعاء. وقرئ: "تَعْيَهَا"[٤] بسكون "العين" تشبيهًا له بـ"كَتْف".

---

[١] قرأ بها نافع والكسائي وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٩.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٣.

[٣] س ي: إنّما.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٣.

﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ أي: أذن مِن شأنها أن تحفظ ما يجب حِفْظه بتذكّره وإشاعته والتفكّر فيه ولا تضيّعَه بتَرْك العمل به. / والتنكير للدلالة على قلّتها وأنّ مَن هذا شأنه مع [٢٢١و] قلّته يتسبَّب لنجاة الجمّ الغفير وإدامة نسلهم. وقرئ: "أُذْنٌ"[١] بالتخفيف.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝١٧﴾

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ شروع في بيان نفس الحاقّة وكيفيّة وقوعها إثر بيان عِظم شأنها بإهلاك مكذِّبيها. وإنّما حَسُن إسناد الفعل إلى المصدر لتقيّده وحَسُن تذكيره للفصل. وقرئ: "نَفْخَةً وَاحِدَةً"[٢] بالنصب على إسناد الفعل إلى الجارّ والمجرور. والمراد بها النفخة الأولى التي عندها خرابُ العالم.

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ أي: قُلعت ورُفعت مِن أماكنها بمجرَّد القدرة الإلهيّة أو بتوسّط الزلزلة أو الريح العاصفة. ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: فضُربت الجملتان إثرَ رفعهما بعضها ببعض ضربةً واحدةً حتّى تندقّ وترجع كثيبًا مَهيلًا وهَباءً مُنبثًّا. وقيل: فبُسِطَتا بسطةً واحدةً فصارتا قاعًا صَفصَفًا لا ترى فيها عِوَجًا ولا أَمْتًا، مِن قولهم: "اندكّ السَّنام" إذا تفرَّش، و"بعير أدكُّ وناقة دكّاءُ" ومنه "الدُّكّان".[٣]

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ فحينئذ ﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أي: قامت القيامة.

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ لنزول الملائكة ﴿فَهِيَ﴾ أي: السماء ﴿يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ ضعيفة مسترخية بعدما كانت مُحكَمة.

﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ أي: الخَلْق المعروف بالمَلَك ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ أي: جوانبها جمع "رجًا" بالقصر، أي: تنشقّ السماء التي هي مساكنهم فيلجأون إلى أكنافها وحافّاتها.

---

١ قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦١.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥٤.

﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ﴾ فوق الملائكة الذين هم على الأرجاء أو فوق الثمانية ﴿يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ مِن الملائكة. عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «هم اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة أيّدهم الله تعالى بأربعة آخرين فيكونون ثمانية».[١]

[٢٢١ظ] ورُوي: ثمانية أملاك، أرجلُهم في / تُخُوم الأرض السابعة، والعرشُ فوق رءوسهم وهم مطرِقون مسبِّحون.[٢] وقيل: بعضُهم على صورة الإنسان، وبعضُهم على صورة الأسد، وبعضُهم على صورة الثور، وبعضُهم على صورة النسر.[٣]

ورُوي: ثمانيةُ أملاك في خَلْق الأوعال ما بين أظلافها إلى رُكَبِها مسيرةُ سبعين عامًا.[٤] وعن شَهْر بن حَوشب: «أربعة منهم يقولون: سبحانَك اللّهمّ وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك، وأربعة يقولون: سبحانك اللّهمّ وبحمدك لك الحمد على حِلمك بعد عِلمك».[٥] وعن الحسن: الله أعلم أثمانية أم ثمانية آلاف؟[٦] وعن الضحّاك: ثمانية صفوف لا يعلَم عددهم إلّا الله تعالى.[٧] ويجوز أن يكون الثمانية مِن الرُّوح أو مِن خَلْق آخر.[٨]

وقيل: هو تمثيل لعظَمته تعالى بما يشاهَد مِن أحوال السلاطين يوم خروجهم على الناس للقضاء العامّ،[٩] لكونها أقصى ما يُتصوَّر مِن العظَمة والجلال، وإلّا فشئونه سبحانه أجلّ مِن كلّ ما يُحيط به فَلَك العبارة والإشارة.

---

[١] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٢٢٩/٢٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٠٩/٨-٢١٠؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٥٤/٤.

[٢] بمعناه في جامع البيان للطبري، ٢٣٠/٢٣؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٥٤/٤.

[٣] حديث بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢١٠/٨؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٥٤/٤.

[٤] بعضه مرويّ عن الضحّاك في جامع البيان للطبري، ٢٢٨/٢٣؛ وبلفظ قريب عن العبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ٢١٠/٨؛ واللباب لابن عادل، ٣٢٨/١٩.

[٥] معالم التنزيل للبغوي، ١٤١/٧ (غافر، ٧/٤٠)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٤/٤-٤٥٥.

[٦] الكشّاف للزمخشري، ٤٥٥/٤؛ اللباب لابن عادل، ٣٢٨/١٩.

[٧] مرويّ عن ابن عبّاس والضحّاك في جامع البيان للطبري، ٢٢٨/٢٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢١٠/٨-٢١١؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٥٥/٤.

[٨] كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٥٥/٤.

[٩] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٤١/٣.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝٢٣ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤﴾

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ أي: تُسألون وتُحاسبون، عُبِّر عنه بذلك تشبيهًا له بعَرْض السلطان العسكرَ لتَعَرُّف أحوالهم. رُوي: أنّ في يوم القيامة ثلاثَ عرضات، فأمّا عرضتان فاعتذار واحتجاج وتوبيخ، وأمّا الثالثة ففيها تُنشَر الكتب، فيأخذ الفائز كتابه بيمينه والهالك بشماله.[١] وهذا وإن كان بعد النفخة الثانية لكن لمّا كان اليوم اسمًا لزمان متَّسع يقع فيه النفختان والصعقة والنشور والحساب وإدخال أهل الجنّةِ الجنّةَ وأهل النارِ النارَ. صحّ جعله ظرفًا للكلّ.

﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ حال مِن مرفوع ﴿تُعْرَضُونَ﴾، أي: تُعرَضون غيرَ خافٍ عليه تعالى سِرّ مِن أسراركم قبل ذلك أيضًا، وإنّما العَرْض لإفشاء الحال والمبالغة في العدل، أو غيرَ خافٍ يومئذ على الناس، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق، ٩/٨٦]. وقرئ: "يَخْفَى"[٢] بالياء التحتانيّة.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ تفصيل لأحكام العَرْض ﴿فَيَقُولُ﴾ تبجّحًا وابتهاجًا ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ ﴿هَا﴾ اسمٌ لـ"خُذْ"، وفيه ثلاث لغات أجودُهنّ "هاءَ يا رجلُ" و"هاءِ يا امرأة" و"هاؤما يا رجلان أو امرأتان" و"هاؤم يا رجال" و"هاؤنّ يا نِسوة"، ومفعوله محذوف.

و﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ مفعول ﴿ٱقْرَءُواْ﴾؛ لأنّه أقرب العاملَين ولأنّه لو كان مفعولَ ﴿هَآؤُمُ﴾ لقيل: اقرؤه؛ إذ الأَوْلى إضماره حيث أمكن. والهاء فيه وفي ﴿حِسَابِيَهْ﴾[٣] و﴿مَالِيَهْ﴾[٤] و﴿سُلْطَٰنِيَهْ﴾[٥] للسَّكْت تثبُت في الوقف وتسقُط في الوصل، واستُحِبّ إثباتها لثباتها في **الإمام**.[٦]

---

[١] مرويّ بمعناه عن أبي موسى الأشعري وابن مسعود وقتادة في **جامع البيان** للطبري، ٢٣/٢٣٠-٢٣١؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ٨/٢١١؛ وبلفظه مِن غير عزو في **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٤٥٥.

[٢] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. **النشر** لابن الجزري، ٢/٣٨٩.

[٣] في الآية التالية.

[٤] في الآية الثامنة والعشرين مِن هذه السورة.

[٥] في الآية التاسعة والعشرين مِن هذه السورة.

[٦] الكلام في **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٤٥٥.

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي: علِمت، ولعلّ التعبيرَ عنه بـ"الظنّ" للإشعار بأنّه لا يقدح في الاعتقاد ما يَهْجِس في النفس مِن الخطَرات التي لا تنفكّ عنها العلوم النظريّة غالبًا.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ ذات رضًا على النِّسبة بالصيغة، كما يقال: "دارِع" في النسبة بالحِرَف، أو جُعل الفعل لها مجازًا وهو لصاحبها، وذلك لكونها صافيةً عن الشوائب دائمة مقرونة بالتعظيم.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ مرتفعة المكانِ؛ لأنّها في السماء أو الدرجات أو الأبنية والأشجار.

﴿قُطُوفُهَا﴾ جمعُ "قِطْف" وهو ما يُجتنى بسرعة، و"القَطْف" بالفتح مصدر. ﴿دَانِيَةٌ﴾ يتناولها القاعد.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ بإضمار القول، والجمع باعتبار المعنى. ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ أكلًا وشربًا هنيئًا أو هنئتم هنيئًا ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾ بمقابلة ما قدّمتم مِن الأعمال الصالحة ﴿فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ أي: الماضية في الدنيا، وعن مجاهدٍ: أيّام الصيام.[1]

ورُوي: يقول الله تعالى: «يا أوليائي طالما نظرتُ إليكم في الدنيا وقد قلّصت شفاهكم عن الأشربة وغارَت أعينكم وخمِصَت بطونكم فكونوا اليوم في نعيمكم و﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ الآية».[2]

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾

[٢٢٢ظ] / ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ ورأى ما فيه مِن قبائح الأعمال ﴿فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ لِما شاهد مِن سوء العاقبة.

﴿يَٰلَيْتَهَا﴾ يا ليت المَوتةَ التي مُتُّها ﴿كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ أي: القاطعةَ لأمري ولم أُبعث بعدها، ولم ألقَ ما ألقى، فضمير ﴿لَيْتَهَا﴾ للمَوتة، ويجوز أن يكون لِما شاهده مِن الحالة، أي: يا ليت هذه الحالةَ كانت المَوتة التي قضت عليّ،

[1] الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥٦.
[2] الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥٦.

لِما أنّه وجدها أمرّ مِن الموت فتمنّاه عندها. وقد جُوِّز أن يكون للحياة الدنيا، أي: يا ليت الحياة الدنيا كانت الموتةَ ولم أُخلق حيًّا.[١]

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ﴾ ما ليَ مِن المال والأتباع، على أنّ ﴿مَا﴾ نافية، والمفعول محذوف، أو استفهاميّة للإنكار، أي: أيّ شيء أغنى عنّيْ ما كان لي مِن اليسار.

﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾ أي: مُلكي وتسلُّطي على الناس، أو حجّتي التي كنت أحتجّ بها في الدنيا، أو تسلّطي على القوى والآلات فعجَزت عن استعمالها في العبادات.

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿خُذُوهُ﴾ حكاية لِما يقوله الله عزّ وجلّ يومئذ لخزَنة النار ﴿فَغُلُّوهُ﴾ أي: شدُّوه بالأغلال.

﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي: لا تُصلّوه إلّا الجحيمَ، وهي النار العظيمة، ليكون الجزاء على وَفق المعصية، حيث كان يتعظّم على الناس.

﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا﴾ أي: طولهَا ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ فأَدْخِلوه فيها بأن تلفُّوها على جسده، فهو فيما بينها مُرهَق لا يستطيع حَراكًا ما، وتقديمُ "السلسلة" كتقديم ﴿ٱلْجَحِيمَ﴾[٢] للدلالة على الاختصاص والاهتمام بذِكر ألوان ما يعذَّب به. و﴿ثُمَّ﴾ لتفاوت ما بين الغلّ والتصلية وما بينها وبين السَّلك في السلسلة في الشدّة.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ تعليل بطريق الاستئناف التحقيقي، ووصفُه تعالى بالعِظم للإيذان بأنّه المستحقّ للعَظمة فحسب، فمَن نسبها إلى نفسه استحقّ أعظمَ العقوبات.

---

١ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٤٢/٣.

٢ في الآية السالفة.

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ ولا يحثّ على بذل طعامه أو على إطعامه فضلًا عن أن يبذل مِن ماله. وقيل: ذُكر الحضّ للتنبيه على / أنّ تارك الحضّ [٢٢٣و] بهذه المنزلة، فما ظنّك بتارك الفعل؟[١] وفيه دلالة على أنّ الكفّار مخاطَبون بالفروع في حقّ المؤاخذة. قالوا: تخصيص الأمرين بالذِّكر لِما أنّ أقبح العقائد الكفر وأشنع الرذائل البخل وقسوة القلب.[٢]

﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ﴾ أي: قريب يحميه ويدفَع عنه ويحزَن عليه؛ لأنّ أولياءه يتحامَونه ويفِرّون منه.

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ﴾ أي: مِن غُسالة أهل النار وصديدهم "فِعْلِين" مِن "الغَسْل".

﴿لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾ أصحاب الخطايا، مِن "خطِئ الرجل" إذا تعمّد الذنب مِن الخطأ المقابل للصواب دون المقابل للعَمْد، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّهم المشركون.[٣] وقُرئ: "الخَاطِيُوْنَ"[٤] بإبدال "الهمزة" "ياء"، وقُرئ بطرحها.[٥] وقد جُوّز أن يُراد بهم الذين يتخطَّون الحقّ إلى الباطل ويتعدّون حدود الله.[٦]

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٣ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٤٨ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٥١ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٥٢﴾

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ أي: فأقسم، على أنّ ﴿لَا﴾ مزيدة للتأكيد. وأمّا حملُه على معنى نفي الإقسام لظهور الأمر واستغنائه عن التحقيق،[٧] فيردّه تعيين المُقسَم به

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥٦.
٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٤٣.
٣ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥٧.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزُّهري والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٤.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس وأبي جعفر وشيبة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٤.
٦ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥٧.
٧ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٤٣.

بقوله تعالى: ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ ۞ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾، كما مرّ في سورة الواقعة،[١] أي: أقسِم بالمشاهَدات والمغيّبات. وقيل: بالدنيا والآخرة. وقيل: بالأجسام والأرواح والإنس والجنّ والخلق والخالق والنِّعم الظاهرة والباطنة.[٢] والأوّل منتظِم[٣] للكلّ.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القرآنَ ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ يبلِّغه عن الله تعالى، فإنّ الرسول لا يقول عن نفسه ﴿كَرِيمٍ﴾ على الله تعالى، وهو النبيّ أو جبريلُ عليهما السلام.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ كما تزعمون تارةً ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ إيمانًا قليلًا تؤمنون.

﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ كما تدّعون ذلك تارةً أخرى ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تذكُّرًا قليلًا أو زمانًا قليلًا تتذكّرون على أنّ القِلّة بمعنى النفي، أي: لا تؤمنون ولا تتذكّرون أصلًا. قيل: ذِكر الإيمان مع نفي الشاعريّة والتذكُّرِ مع نفي الكاهنيّة؛ لِما أنّ عدم مشابهة القرآن الشعرَ أمر بيِّن لا يُنكره إلّا معانِد، بخلاف مُباينته / للكِهانة، فإنّها تتوقَّف على تذكّر أحواله صلّى الله عليه وسلّم ومعاني [٢٢٣ظ] القرآن المنافية لطريقة الكَهَنة ومعاني أقوالهم.[٤] وأنت خبير بأنّ ذلك أيضًا ممّا لا يتوقَّف على تأمّل قطعًا. وقُرئ بـ"الياء" فيهما.[٥]

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ نزّله على لسان جبريلَ عليه السلام.

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ سُمّي الافتراء تقوُّلًا لأنه قول متكلَّف، والأقوالُ المفتراة أقاويلَ تحقيرًا لها، كأنّها جَمْع "أُفْعُولة" مِن "القول" كـ"الأضاحيك".[٦]

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ أي: بيمينه.

﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ أي: نِياط[٧] قلبه، بضرب عُنقه، وهو تصوير لإهلاكه بأفظع ما يفعله الملوك بمَن يغضبون عليه، وهو أن يأخذ القتّال بيمينه ويكفَحه

---

١ في الآية الخامسة والسبعين منها.
٢ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥٧.
٣ س: المنتظم.
٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٤٣.
٥ قرأ بها ابن كثير ويعقوب وهشام. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩٠.
٦ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥٧.
٧ النِّياط: عِرق عُلِّق به القلب مِن الوتين، فإذا قُطع مات صاحبه. لسان العرب لابن منظور، «نيط».

بالسيف ويضرب عُنقه. وقيل: اليمين بمعنى القوّة،[١] قال قائلهم:

إذا ما رايةٌ رُفعتْ لمجدٍ تلقّاها عَرابةُ باليمينِ[٢]

﴿فَمَا مِنكُم﴾ أيها الناس ﴿مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ﴾ عن القتل أو المقتول ﴿حَٰجِزِينَ﴾ دافعين، وَصْف لـ﴿أَحَدٍ﴾ فإنّه عامّ.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنّهم المُنتفِعون به.

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ فنُجازيهم على تكذيبهم.

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ عند مشاهدتهم لثواب المؤمنين به.

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ الذي لا يحوم حوله ريب ما.

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: فسبّح بذِكر اسمه العظيم تنزيهًا له عن الرضا بالتقوّل عليه وشكرًا على ما أُوحيَ إليك.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الحاقّة حاسبه الله تعالى حسابًا يسيرًا».[٣]

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٤٤/٣.

٢ البيت للشّمّاخ في ديوانه، ص ٣٣٦؛ وهو له في التفسير البسيط للواحدي، ١٨٩/٢٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢١٤/٨.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٢/٢٧ (الحاقة، ٦٩/١)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٤٣/٤ (الحاقة، ٦٩/١)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٥٨/٤. وهو جزء مِن حديث أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة المعارج

مكيّة، وهي أربع وأربعون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ٤ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ٥﴾

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ أي: دعا داع ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ أي: استدعاه وطلبه وهو النَّضْر بن الحارث حيث قال إنكارًا واستهزاءً: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال، ٣٢/٨].[١] / وقيل: أبو جهل، [٢٢٤و] حيث قال: ﴿أَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الشعراء، ١٨٧/٢٦]. وقيل: هو الحارث بن النُّعمان الفِهري، وذلك أنّه لمّا بلغه قول النبيّ[٢] صلّى الله عليه وسلّم في عليّ رضي الله عنه: «مَن كنت مولاه فعليّ مَولاه»،[٣] قال: «اللّهمّ إن كان ما يقول محمّد حقًّا فأمطر علينا حجارةً مِن السماء»، فما لبث حتّى رماه الله تعالى بحَجر فوقَع على دِماغه فخرج مِن أسفله، فهلك مِن ساعته. وقيل: هو الرسول صلّى الله عليه وسلّم استعجل عذابهم.[٤]

وقُرئ: "سَالَ"،[٥] وهو إمّا مِن السؤال على لغة قريش فالمعنى ما مرّ، أو مِن السَّيلان، ويؤيّده أنّه قُرئ: "سَالَ سَيْلٌ"،[٦] أي: اندفع وادٍ بعذاب واقع.

---

[١] مرويّ عن ابن عبّاس ومجاهد في الكشّاف للزمخشري، ٤٥٩/٤؛ واللباب لابن عادل، ٣٥٠/١٩.

[٢] س ي: رسول الله.

[٣] مسند أحمد، ٧١/٢ (٦٤١)؛ فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل، ٥٦٩/٢ (٩٥٩)؛ سنن الترمذي، ٦٣٣/٥ (٣٧١٣).

[٤] الأقوال الثلاثة في اللباب لابن عادل، ٣٥٠/١٩-٣٥١.

[٥] قرأ بها أبو عمرو وأبو جعفر وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٩٠/٢.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وزيد بن ثابت. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٢٨.

وصيغةُ الماضي للدلالة على تحقّق وقوعه إمّا في الدنيا وهو عذاب يوم بدر، فإنّ النَّضر قُتل يومئذ صَبْرًا،[١] وقد مرّ حال الفِهري،[٢] وإمّا في الآخرة فهو عذاب النار.

﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ صفة أخرى لـ﴿عَذَابٍ﴾ أي: كائن للكافرين، أو صلة لـ﴿وَاقِعٍ﴾ أو متعلّق بـ﴿سَأَلَ﴾،[٣] أي: دعا للكافرين بعذاب واقع. وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ صفة أخرى لـ﴿عَذَابٍ﴾، أو حال منه لتخصّصه بالصفة أو بالعمل، أو مِن الضمير في ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ على تقدير كونه صفةً لـ﴿عَذَابٍ﴾، أو استئناف.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ متعلّق بـ﴿وَاقِعٍ﴾ أو بـ﴿دَافِعٌ﴾، أي: ليس له دافع مِن جهته تعالى. ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ ذي المصاعِد التي تصعَد فيها الملائكة بالأوامر والنّواهي، أو هي عبارة عن السماوات المترتّبة بعضُها فوق بعض.

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ أي: جبريلُ عليه السلام، أُفرِد بالذِّكر لتميّزه وفَضْله. وقيل: ﴿ٱلرُّوحُ﴾ خَلْق هم حفَظة على الملائكة كما أنّ الملائكة حفَظة على الناس.[٤] ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى عرشه تعالى وإلى حيث تهبط منه أوامره تعالى. وقيل: هو مِن قبيل قول إبراهيمَ عليه السلام: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾ [الصافات، ٣٧/٩٩]، أي: إلى حيث أمرني به.[٥]

﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ممّا يعدّه الناس. وهو بيان لغاية ارتفاع تلك المعارج وبُعد مداها على مِنهاج التمثيل والتخييل، / [٢٢٤ظ] والمعنى أنّها مِن الارتفاع بحيث لو قُدّر قَطْعها في زمان لَكان ذلك الزمان مقدار خمسين ألف سنةٍ مِن سِني الدنيا. وقيل: معناه تعرج الملائكة والروح إلى عرشه تعالى في يوم كان مقداره مقدارَ خمسين ألف سنةٍ، أي: يقطعون في يومٍ ما يقطعه الإنسان في خمسين ألف سنةٍ لو فُرض ذلك.[٦]

---

١ الصَّبْر: نصب الإنسان للقتل، وأصل الصَّبْر: الحبسُ. لسان العرب لابن منظور، «نيط».

٢ يعني: مرّ آنفًا.

٣ وفي هامش م: على الوجه الأخير. «منه».

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٥٩. وسيأتي تفصيل وجوه تأويل "الروح" في تفسير النبأ، ٧٨/٣٨.

٥ القول في اللباب لابن عادل، ١٩/٣٥٤.

٦ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٤٦.

وقيل: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ متعلِّق بـ﴿وَاقِعٍ﴾. وقيل: بـ"سالَ" على تقدير كونه مِن السَّيلان، فالمراد به يوم القيامة، واستطالته إمّا لأنّه كذلك في الحقيقة، أو لشدَّته على الكفّار، أو لكثرة ما فيه مِن الحالات والمحاسَبات.[1]

وأيًا ما كان فذلك في حقّ الكافر، وأمّا في حقّ المؤمن فلا، لِما روى أبو سعيد الخُدري رضي الله عنه أنّه قيل لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: ما أطولَ هذا اليوم! فقال عليه السلام: «والذي نفسي بيده إنّه ليخفّ على المؤمن حتّى إنّه يكون أخفّ مِن صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا».[2]

وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ متعلِّق بـ﴿سَأَلَ﴾؛ لأنّ السؤال كان عن استهزاء وتعنُّت وتكذيب بالوحي، وذلك ممّا يُضجره عليه السلام أو كان عن تضجّر واستبطاء للنصر، أو بـ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾، أو "سَالَ سَيْلٌ" فمعناه: جاء العذاب لقرب وقوعِه فقد شارفتَ الانتقام.

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨﴾

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ﴾ أي: العذابَ الواقع أو يوم القيامة على تقدير تعلُّق ﴿فِي يَوْمٍ﴾[3] بـ﴿وَاقِعٍ﴾.[4] ﴿بَعِيدًا﴾ أي: يستبعدونه بطريق الإحالة فلذلك يسألون به.

﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ هيّنًا في قدرتنا غير بعيد علينا ولا متعذِّر، على أنّ البُعد والقرب معتبران بالنسبة إلى الإمكان، والجملة تعليل للأمر بالصبر.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ متعلِّق بـ﴿قَرِيبًا﴾، أي: يمكن ولا يتعذَّر في ذلك اليوم، أو بمضمَر دلّ عليه ﴿وَاقِعٍ﴾، أو بمضمَر مؤخَّر، أي:

---

١ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٠.

٢ مسند أحمد، ١٨/٢٤٦ (١١٧١٧)؛ صحيح ابن حبّان، ١٦/٣٢٩ (٧٣٣٤)؛ معالم التنزيل للبغوي، ٦/٨٠ (الفرقان، ٢٥/٢٦).

٣ في الآية الرابعة مِن هذه السورة.

٤ في الآية الأولى مِن هذه السورة.

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾... إلخ، يكون مِن الأحوال والأهوال ما لا يُوصَف، أو بدل مِن ﴿فِى يَوْمٍ﴾ على تقدير تعلُّقه بـ﴿وَاقِعٍ﴾.

هذا ما قالوا، ولعلّ الأقربَ أنّ قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾ حكاية لسؤالهم / المعهود على طريقة قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الأعراف، ١٨٧/٧]، [٢٢٥و] وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [يونس، ٤٨/١٠]، ونحوِهما؛ إذ هو المعهود بالوقوع على الكافرين لا ما دعا به النَّضر أو أبو جهل أو الفهري، فالسؤال بمعناه و"الباء" بمعنى "عن"، كما في قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان، ٥٩/٢٥]. وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾... إلخ،[1] استئناف مَسوق لبيان وقوع المسئول عنه لا محالةَ. وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾[2] مترتِّب عليه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۞ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ تعليل للأمر بالصبر كما ذُكر. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ﴾... إلخ، متعلِّق بـ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾،[3] أو بما يدلّ هو عليه، أي: يقع يوم تكون السماء كالمُهل، وهو ما أُذيب على مهَل مِن الفِلِزّات. وقيل: دُرديّ الزيت.[4]

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ كالصوف المصبوغ ألوانًا لاختلاف ألوان الجبال، منها ﴿جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا[5] وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر، ٢٧/٣٥]، فإذا بُسّت وطُيِّرت في الجوّ أشبَهت العِهن المنفوش إذا طيَّرته الريح.

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ أي: لا يسأل قريب قريبًا مِن[6] أحواله ولا يُكلِّمه، لابتلاء كلّ منهم بما يشغله عن ذلك. وقُرئ على البناء للمفعول،[7] أي: لا يطلب مِن حميم حميمُه أو لا يُسأل منه حالُه.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: يبصَّر الأحِمّاء الأحِمّاءَ فلا يَخفَون عليهم، وما يمنعهم مِن التساؤل إلّا تشاغلهم بحال أنفسهم. وقيل: ما يغني عنه مِن مشاهدة الحال

---

[1] في الآية الثانية مِن هذه السورة.
[2] في الآية الخامسة مِن هذه السورة.
[3] في الآية الثانية مِن هذه السورة.
[4] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٠/٤.
[5] م س - ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾.
[6] س: عن.
[7] قرأ بها أبو جعفر والبزيّ بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٩٠/٢.

كبياض الوجه وسواده.[١] والأوّل أدخَلُ في التهويل. وجَمْع الضميرين لعموم الحميم. وقُرئ: "يُبْصِرُونَهُمْ".[٢] والجملة استئناف.

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ أي: يتمنّى الكافر. وقيل: كلّ مُذنِب.[٣] وقوله تعالى: ﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي: العذاب الذي ابتلُوا به يومئذ ﴿بِبَنِيهِ ۞ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ﴾ حكاية لودادتهم.

و﴿لَوْ﴾ في معنى التمنّي. وقيل: هي بمنزلة "أنْ" الناصبة،[٤] فلا يكون لها جواب، وينسبِك منها وممّا بعدها مصدر يقع مفعولًا لـ﴿يَوَدُّ﴾، والتقدير يودّ افتداءه ببنيه... إلخ، والجملة استئناف لبيان أنّ اشتغال كلّ مجرم بنفسه بلغ إلى حيث يتمنّى أن / يفتدي بأقرب الناس إليه وأعلقِهم بقلبه فضلًا أن يهتمّ بحاله ويسأل منها. وقُرئ: "يَوْمَئِذٍ"[٥] بالفتح على البناء للإضافة إلى غير متمكِّن، وبتنوين ﴿عَذَابِ﴾ ونصبِ ﴿يَوْمِئِذٍ﴾،[٦] وانتصابه بـ﴿عَذَابِ﴾ لأنّه في معنى تعذيب. [٢٢٥ظ]

﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ أي: عشيرته التي فُصل عنهم ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ أي: تضمُّه في النسب أو عند الشدائد.

﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ مِن الثقلين والخلائق، و﴿مَن﴾ للتغليب. ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ عطفٌ على ﴿يَفْتَدِى﴾، أي: يودّ لو يفتدي ثمّ لو ينجيه الافتداء، و﴿ثُمَّ﴾ لاستبعاد الإنجاء، يعني يتمنّى لو كان هؤلاء جميعًا تحت يده وبذلهم في فداء نفسه ثمّ ينجيه ذلك وهيهات.

﴿كَلَّآ﴾ ردع للمجرم عن الودادة وتصريح بامتناع إنجاء الافتداء. وضمير ﴿إِنَّهَا﴾ إمّا للنار المدلول عليها بذِكر العذاب، أو هو مبهَم تُرجِم عنه الخبر الذي هو قوله تعالى: ﴿لَظَىٰ﴾ وهي عَلَم للنار منقول مِن اللظى بمعنى اللهب.

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٤٦-٤٤٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٢.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ١٩/٣٦١.

٤ ذكره العكبري في التبيان، ٢/١٢٤٠، ونقله ابن عادل في اللباب، ١٩/٣٦٤.

٥ قرأ بها أبو عمرو والكسائي وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة واليماني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٢؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٥.

﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ نصب على الاختصاص، أو حال مؤكِّدة، والشَّوى: الأطراف، أو جمع شَواة وهي جلد الرأس. وقُرِئ: "نَزَّاعَةٌ"[1] بالرفع على أنّه خبر ثانٍ لـ﴿إِنَّ﴾، أو هو الخبر و﴿لَظَىٰ﴾ بدل مِن الضمير، أو الضمير للقصّة و﴿لَظَىٰ﴾ مبتدأ و﴿نَزَّاعَةً﴾ خبره.

﴿تَدْعُواْ﴾ أي: تجذب وتُحضِرُ. وقيل: تدعو وتقول لهم: إليّ إليّ يا كافرُ يا منافقُ. وقيل: تدعو المنافقين والكافرين بلسان فصيح ثمّ تلتقِطهم التقاطَ الحبّ. وقيل: تدعو: تُهلِك. وقيل: تدعو زبانيتها.[2] ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ أي: عن الحقّ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أعرَض عن الطاعة.

﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ أي: جَمَع المال فجعله في وعاء وكَنَزه، ولم يؤدِّ زكاته وحقوقه، وتشاغل به عن الدِّين، وزُهيَ باقتنائه حرصًا وتأميلًا.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ الهَلَع: سرعة الجَزَع عند مسّ المكروه وسرعة المَنْع عند مسّ الخير، وقد فسّره أحسنَ تفسير قولُه تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي: الفقر والمرض ونحوهما ﴿جَزُوعًا﴾ أي: مُبالِغًا / في الجَزَع مكثِرًا منه. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ﴾ [٢٢٦و] أي: السَّعة والصحّة ﴿مَنُوعًا﴾ مُبالِغًا في المنع والإمساك. والأوصافُ الثلاثة أحوال مقدَّرة أو محقَّقة؛ لأنّها طبائعُ جُبل الإنسان عليها. و﴿إِذَا﴾ الأولى ظرف لـ﴿جَزُوعًا﴾ والثانية لـ﴿مَنُوعًا﴾.

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ استثناء للمتّصفين بالنعوت الجليلة الآتية مِن المطبوعين على القبائح الماضية؛ لأنباء نعوتهم عن الاستغراق في طاعة الحقّ، والإشفاقِ

---

[1] قرأ بها العشرة إلّا حفصًا. النشر لابن الجزري، ٣٩٠/٢.

[2] الأقوال الأربعة في الكشّاف للزمخشري، ٤٦١/٤.

على الخلق، والإيمانِ بالجزاء، والخوف مِن العقوبة وكَسْر الشَّهوة، وإيثار الآجِل على العاجل، على خلاف القبائح المذكورة الناشئة مِن الانهماك في حبّ العاجل وقَصْر النظر عليه.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ لا يشغَلهم عنها شاغل.

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ أي: نصيب معيَّن يستوجبونه على أنفسهم تقرُّبًا إلى الله تعالى وإشفاقًا على النّاس مِن الزكاة المفروضة والصدقات المُوظَّفة.

﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ للذي يسأله ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ الذي لا يسأله، فيُظنّ أنّه غنيّ فيُحرَم.

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: بأعمالهم حيث يُتعبون أنفسهم في الطاعات البدنيّة والماليّة طمعًا في المثوبة الأخرويّة بحيث يُستدلّ بذلك على تصديقهم بيوم الجزاء.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ خائفون على أنفسهم مع ما لهم مِن الأعمال الفاضلة استقصارًا لها واستعظامًا لجنابه عزّ وجلّ، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون، ٦٠/٢٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ اعتراضٌ مؤذِن بأنّه لا ينبغي لأحد أن يأمن عذابه تعالى وإن بالغ في الطاعة.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ سلَف تفسيره في سورة المؤمنين.[1]

﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ﴾ أي: طلَب لنفسه ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ وراء ما ذُكر مِن الأزواج والمملوكات ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المبتغون ﴿هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ المتعدُّون لحدود الله تعالى.

---

[1] في تفسير الآيتين الخامسة والسادسة منها.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ لا يُخلّون بشيء مِن حقوقها.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ أي: مقيمون لها بالعدل إحياءً لحقوق الناس. وتخصيصُها بالذِّكر مع اندراجها في الأمانات لإبانة / فضلها. وقُرئ: "لِأَمَانَتِهِمْ"[1] و"بِشَهَادَتِهِمْ"[2] على إرادة الجنس. [٢٢٦ظ]

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يُراعون شرائطها ويكمِّلون فرائضها وسُننها ومستحَبّاتِها وآدابَها. وتكريرُ ذِكر الصّلاة ووَصْفهم بها أوّلًا وآخرًا باعتبارين للدلالة على فضلها وإنافتها على سائر الطاعات. وتكريرُ الموصولات لتنزيل اختلاف الصفاتِ منزلةَ اختلاف الذوات، كما في قول مَن قال:

إلى المَلِك القَرْم وابنِ الهُمامِ وليثِ الكتائب في المُزدَحَمْ[3]

إيذانًا بأنّ كلّ واحد مِن الأوصاف المذكورة نعت جليل على حياله، له شأن خطير مُستتبع لأحكام جمّة، حقيق بأن يفرَد له موصوف مستقلّ ولا يُجعَل شيء منها تتمّةً للآخر.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصوفين بما ذُكر مِن الصفات، وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد بالمُشار إليهم للإيذان بعلوّ شأنهم وبُعد منزلتهم في الفضل، وهو مبتدأ خبرُه ﴿فِي جَنَّـٰتٍ﴾ أي: مستقِرُّون في جنّات لا يُقادَر قَدْرها ولا يُدرَك كُنهها.

وقوله تعالى: ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ خبر آخرُ، أو هو الخبر و﴿فِي جَنَّـٰتٍ﴾ متعلِّق به، قدّم عليه لمراعاة الفواصل، أو بمضمَر هو حال مِن الضمير في الخبر، أي: مكرَمون كائنين في جنّات.

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾

---

١ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٣٢٨.

٢ قرأ بها العشرة إلّا يعقوبَ وحفصًا. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩١.

٣ مضى بتخريجه وشرحه في تفسير البقرة، ٢/٢٣١.

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ﴾ حولك ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مُسرِعين نحوَك مادّي أعناقهم إليك مقبِلين بأبصارهم عليك.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي: فِرَقًا شتّى، جمع "عِزَةٍ"، وأصلها "عِزْوَة" مِن "العِزْو"، كأنّ كلّ فِرقة تعتزي إلى غير مَن تعتزي إليه الأخرى. كان المشركون يُحلِّقون حول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حَلَقًا حَلَقًا وفِرَقًا فِرَقًا ويستهزئون بكلامه عليه السلام، ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنّة كما يقول محمّد صلّى الله عليه وسلّم فلَندخلنّها قبلهم، فنزلت.[1]

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ بلا إيمان.

﴿كَلَّآ﴾ رَدْع لهم مِن ذلك الطمع الفارغ ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ قيل: هو / تعليل الرَّدع،[2] والمعنى: إنّا خلقناهم مِن أجل ما يعلمون، كما في قول الأعشى: [٢٢٧و]

أأزمَعْتَ مِن آل ليلى ابتِكارا وشطّتْ على ذي هوًى أن تُزارا[3]

وهو تكميل النفس بالإيمان والطاعة، فمَن لم يستكملها بذلك فهو بمَعزِل مِن أن يُبوَّأ مُبَوَّأ الكاملين فمِن أين لهم أن يطمعوا في دخول الجنّة، وهم مكبُّون على الكفر والفُسوق وإنكار البعث. وقيل: معناه إنّا خلقناهم ممّا يعلمون مِن نُطْفة مَذِرة، فمِن أين يتشرَّفون ويدَّعون التقدّم، ويقولون لَندخُلنّ الجنّة قبلهم.[4] وقيل: إنّهم مخلوقون مِن نُطْفة قَذِرة لا تُناسب عالم القدس، فمتى لم تستكمِل الإيمانَ والطاعة ولم تتخلّق بالأخلاق المَلَكيّة لم تستعدّ دخولَها.[5] ولا يخفى ما في الكلّ مِن التمحّل.

والأقرب أنّه كلام مستأنَف قد سِيق تمهيدًا لِما بعده مِن بيان قدرته تعالى على أن يُهلِكهم لكفرهم بالبعث والجزاء، واستهزائهم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وبما نزل عليه مِن الوحي، وادّعائهم دخولَ الجنّة بطريق السُّخريَة،

---

١ بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٣٦٧/٢٧؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٤٦٦؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٢/٤.
٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٣/٤.
٣ في ديوانه ٤٤٥؛ وهو له في الصحاح للجوهري، (زمع)؛ واللباب لابن عادل، ٣٧٥/١٩؛ وبلا عزو في الكشف والبيان للثعلبي، ٣٧٢/٢٧.
٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٣/٤.
٥ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٤٩/٣.

وينشئ[١] بدلهم قومًا آخرين، فإنّ قدرته تعالى على ما يعلمون مِن النشأة الأولى حجّة بيّنة على قُدرته تعالى على ذلك، كما يُفصِح عنه الفاء الفصيحة في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾.

والمعنى: إذا كان الأمر كما ذُكر مِن أنّا خلقناهم ممّا يعلمون فأقسِم بربّ المشارق والمغارب ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي: نُهلِكَهم بالمرّة حسبما يقتضيه جناياتهم، ونأتي بدلَهم بخَلْق آخرين ليسوا على صفتهم. ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ بمغلوبين إن أردنا ذلك، لكنّ مشيئتنا المبنيّة على الحِكَم البالغة اقتضت تأخيرَ عقوباتهم.

﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ۝٤٢ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾

﴿فَذَرۡهُمۡ﴾ فخلّهم وشأنَهم ﴿يَخُوضُواْ﴾ في باطلهم الذي مِن جملته ما حُكي عنهم ﴿وَيَلۡعَبُواْ﴾ في دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ هو يوم البعث عند النفخة الثانية، لا يوم النفخة الأولى كما تُوهِّم، فإنّ قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ بدل مِن ﴿يَوۡمَهُمُ﴾. وقُرئ: "يُخْرَجُوْنَ"[٢] على البناء للمفعول مِن الإخراج. ﴿سِرَاعٗا﴾ حال مِن مرفوع / ﴿يَخۡرُجُونَ﴾، أي: مسرِعين ﴿كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ﴾ وهو كلّ ما نُصِب فعُبد مِن دون الله تعالى. وقُرئ بسكون "الصاد"،[٣] وبفتح "النون" وسكون "الصاد" أيضًا.[٤] ﴿يُوفِضُونَ﴾ يُسرِعون. [٢٢٧ظ]

﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ وُصفت أبصارهم بالخشوع مع أنّه وَصْف الكلّ لغاية ظهور آثاره فيها. ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾ تغشاهم ذِلّة شديدة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذُكر ما سيقع فيه

---

١ السياق: أن يُهلِكهم... وينشئ...

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب والأعشى والبُرجُمي وأبي حَيْوَة وأبي البَرَهسم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٣١.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي العالية والحسن وقتادة وعمرو بن فائد وابن مُسلم عن ابن عامر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٢؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٣١.

٤ قرأ بها العشرة إلّا ابن عامر وحفصًا. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩١.

مِن الأحوال الهائلة ﴿ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾ أعطاه الله تعالى ثواب الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون».[1]

---

[1] بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٨/٢٧ (المعارج، ١/٧٠)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٣٥٠/٤؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٣/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة نوح عليه السلام

مكيّة،[1] وهي تسع أو ثمان وعشرون آيةً.[2]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٤﴾

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ﴾ أي: بأن أنذرهم، على أنّ ﴿أَنۡ﴾ مصدريّة حُذف منها الجارّ وأوصِل إليها الفعل، فإنّ حذفه مع "أنْ" و"أنّ" مُطّرِد، وجُعِلت صلتُها أمرًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ﴾ [يونس، ١٠/١٠٥]، لأنّ مدار وصلها بصيغ الأفعال دلالتُها على المصدر، وذلك لا يختلف بالخبريّة والإنشائيّة، ووجوبُ كون الصلة خبريّة في الموصول الاسمي إنّما هو للتوصّل إلى وَصْف المعارف بالجمل، وهي لا تُوصَف إلّا بالجمل الخبريّة، وليس الموصول الحرفي كذلك، وحيث استوى الخبر والإنشاء في الدلالة على المصدر استويا في صحّة الوصل بهما، فيتجرّد عند ذلك كلّ منهما عن المعنى الخاصّ بصيغته، فيبقى الحدث المجرّد عن معنى الأمر والنّهي والمُضيّ والاستقبال، كأنّه قيل: أرسلناه بالإنذار.

وقيل: المعنى أرسلناه بأن قلنا له: أنذِر، أي: أرسلناه بالأمر بالإنذار. ويجوز أن تكون ﴿أَنۡ﴾ مفسّرةً لِما في الإرسال مِن معنى القول،[3] فلا يكون للجملة محلّ مِن الإعراب، وعلى الأوّل محلّها النصب عند سيبويهِ والفرّاء،

---

[1] س – مكيّة.

[2] س – وهي تسع أو ثمان وعشرون آية؛ س + وآيها تسع وعشرون أو ثمان وعشرون.

[3] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٤.

والجرُّ عند الخليل والكسائي كما هو المعروف.[١] وقُرئ: "أَنْذِرْ"[٢] بغير "أَنْ" على إرادة القول.

﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عاجل أو آجل لئلّا يبقى لهم عُذر ما أصلًا.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ مِن حكاية إرساله عليه السلام بالوجه المذكور، / كأنّه قيل: فما فعل عليه السلام؟ فقيل: قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ مُنذِر موضِّح لحقيقة الأمر. [٢٢٨و]

وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ متعلِّق بـ﴿نَذِيرٌ﴾ على الوجهين المذكورين.

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: بعض ذنوبكم، وهو ما سلَف في الجاهليّة، فإنّ الإسلام يجبّه.

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو الأمد الأقصى الذي قدّره الله تعالى لهم بشرط الإيمان والطاعة وراء ما قدّره لهم على تقدير بقائهم على الكفر والعصيان، فإنّ وَصْف الأجل بالمسمّى وتعليقَ تأخيرهم إليه بالإيمان والطاعة صريحٌ في أنّ لهم أجلًا آخرَ لا يُجاوزونه إن لم يؤمنوا، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما قُدّر لكم على تقدير بقائكم على الكفر ﴿إِذَا جَآءَ﴾ وأنتم على ما أنتم عليه مِن الكفر ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ فبادِرُوا إلى الإيمان والطاعة قبل مجيئه حتّى لا يتحقّق شرطه الذي هو بقاؤكم على الكفر فلا يجيءَ، ويتحقَّقَ شَرْط التأخير إلى الأجل المسمّى فتُؤخَّروا إليه.

ويجوز أن يُراد به وقتُ إتيان العذاب المذكور في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فإنّه أَجَل موقَّت له حتمًا، وحَمْله على الأجل الأطول[٣] ممّا لا يساعده المقام؛ كيف لا، والجملةُ تعليل للأمر بالعبادة المُستتبِعة للمغفرة والتأخير إلى الأجل المسمّى، فلا بدّ أن يكون المنفيّ عند مجيء

---

[١] انظر مذاهبهم وتفصيلها في شرح الرضيّ على الكافية، ١٣٧/٤.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٦.

[٣] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٦٤/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٥٠/٣.

الأجل هو التأخير الموعود، فكيف يُتصوَّر أن يكون ما فُرض مجيئه هو الأجل المسمّى.

﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كنتم تعلمون شيئًا لسارعتم إلى ما أمرتكم به.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝﴾

﴿قَالَ﴾ أي: نوح عليه السلام مناجيًا ربّه وحاكيًا له تعالى -وهو أعلم بحاله- ما جرى بينه وبين قومه مِن القيل والقال في تلك المُدَد الطوال بعد ما بذل في الدعوة غاية المجهود وجاوز في الإنذار كلّ حدّ معهود وضاقت عليه الحِيَل وعيَّت به العِلَل: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ إلى الإيمان والطّاعة ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي: دائمًا مِن غير فتور ولا توانٍ، ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا﴾ ممّا دعوتهم إليه. وإسنادُ الزيادة إلى الدعاء لسببيّته لها، كما في قوله تعالى: ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال، ٢/٨].

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ أي: إلى الإيمان ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ بسببه ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ / فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: سدّوا مسامعهم مِن استماع الدعوة ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: بالغوا في التغطّي بها، كأنّهم طلبوا أن تغشاهم ثيابهم أو تُغشِّيَهم لئلّا يُبصروه كراهة النظر إليه، أو لئلّا يعرفهم فيدعوهم. ﴿وَأَصَرُّواْ﴾ أي: أكبّوا على الكفر والمعاصي، مستعار مِن "أصرّ الحمار على العانة"[١] إذا صَرّ أُذُنيه وأقبل عليها. ﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ عن اتّباعي وطاعتي ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ شديدًا. [٢٢٤و]

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝﴾

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ أي: دعوتهم تارةً بعد تارة ومرّةً غِبّ مرّة على وجوه متخالِفة وأساليبَ متفاوتة. و﴿ثُمَّ﴾

---

١ العانة: الأتان، والقطيع مِن حُمُر الوحش. لسان العرب لابن منظور، «عنن».

لتفاوت الوجوه، فإنّ الجهار أشدّ مِن الإسرار، والجمع بينهما أغلظ مِن الإفراد، أو لتراخي بعضها مِن بعض، و﴿جِهَارًا﴾ منصوب بـ﴿دَعَوْتُهُمْ﴾ على المصدر؛ لأنّه أحد نوعَي الدعاء، أو أريدَ بـ﴿دَعَوْتُهُمْ﴾ جاهَرتُهم، أو هو صفة لمصدر، أي: دعوتهم دعاءً جهارًا، أي: مجاهرًا به، أو مصدر في موقع الحال، أي: مجاهرًا.

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ بالتوبة عن الكفر والمعاصي ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ للتّائبين، كأنّهم تعلّلوا وقالوا: إن كنّا على الحقّ فكيف نتركه، وإن كنّا على الباطل فكيف يقبلنا بعد ما عكفنا عليه دهرًا طويلًا، فأمَرهم بما يمحَق ما سلَف منهم مِن المعاصي ويجلِب إليهم المنافع، ولذلك وعَدهم بما هو أوقَع في قلوبهم وأحبّ إليهم مِن الفوائد العاجلة. وقيل: لمّا[1] كذّبوه بعد تكرير الدعوة حبَس الله تعالى عنهم القطر وأعقَم أرحام نسائهم أربعين سنةً. وقيل: سبعين سنةً فوعَدهم أنّهم إن آمنوا أن يرزقهم الله الخِصبَ ويدفع عنهم ما كانوا فيه.[2]

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ أي: كثيرَ الدُّرور، والمراد بالسماء المُظلّة أو السحاب.

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ﴾ فيها ﴿أَنْهَٰرًا﴾ / جاريةً. [٢٢٩و]

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ إنكار لأن يكون لهم سبب ما في عدم رجائهم لله تعالى وقارًا، على أنّ الرجاء بمعنى الاعتقاد، و﴿لَا تَرْجُونَ﴾ حال مِن ضمير المخاطَبين، والعامل فيها معنى الاستقرار في ﴿لَكُمْ﴾، على أنّ الإنكار متوجّه إلى السبب فقط مع تحقّق مضمون الجملة الحاليّة، لا إليهما معًا كما في قوله تعالى:

---

[1] س: كما.

[2] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٥.

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس، ٢٢/٣٦]. و﴿لِلَّهِ﴾ متعلِّق بمضمر وقَع حالًا مِن ﴿وَقَارٗا﴾، ولو تأخَّر لكان صفةً له، أي: أيّ سبب حصَل لكم حالَ كونكم غيرَ معتقدين لله تعالى عظمةً موجِبةً لتعظيمه بالإيمان به والطاعة له.

﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾ أي: والحال أنكم على حال منافية لِما أنتم عليه بالكلّيّة، وهي أنكم تعلمون أنّه تعالى خلَقكم تاراتٍ عناصرَ ثمّ أغذيةً ثمّ أخلاطًا ثمّ نُطفًا ثمّ عَلَقًا ثمّ مُضَغًا ثمّ عِظامًا ولُحومًا ثمّ أنشأكم خَلْقًا آخرَ، فإنّ التقصير في توقير مَن هذه شئونه في القُدرة القاهرة والإحسان التامّ مع العِلم بها ممّا لا يكاد يصدر عن العاقل.

هذا وقد قيل: الرجاء بمعنى الأمل، أي: ما لكم لا تأملون له تعالى توقيرًا، أي: تعظيمًا لمَن عبده وأطاعه، ولا تكونون على حال تأملون فيها تعظيم الله تعالى إيّاكم في دار الثواب، و﴿لِلَّهِ﴾ بيان للموقَّر، ولو تأخَّر لَكان صلةً للوقار.[1]

والأوّل هو الذي يستدعيه الجَزالة التنزيليّة، فإنّ اللائق بحال الكفَرة استبعادُ ألّا يعتقدوا وقارًا لله وعظمَته مع مشاهدتهم لآثارها وأحكامها الموجِبة للاعتقاد حتمًا، وأمّا عدم رجائهم لتعظيم الله إيّاهم في دار الثواب فليس في حيّز الاستبعاد والإنكار مع أنّ في جَعْل الوقار بمعنى التوقير مِن التعسّف. وفي قوله:[2] «و﴿لِلَّهِ﴾ بيانٌ للموقَّر ولو تأخَّر لَكان صلةً للوقار»[3] مِن التناقض ما لا يخفى، فإنّ كونه بيانًا للموقَّر يقتضي أن يكون التوقير صادرًا عنه تعالى والوقارُ وصفًا للمخاطَبين، وكونُه صلةً للوقار يوجِب كونَ الوقار وصفًا له تعالى.

وقيل: ما لكم لا تخافون لله عظَمةً وقُدرةً على أَخْذكم بالعقوبة، أي: أيُّ عُذر لكم في تَرْك الخوف منه تعالى.[4] وعن سعيد بن جُبير / عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «ما لكم لا تخشَون لله عقابًا ولا ترجُون منه ثوابًا»، [٢٢٩ظ]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٦/٤.
٢ س + تعالى.
٣ الكشّاف للزمخشري، ٤٦٦/٤؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٥٢/٣.
٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٦/٤.

وعن مجاهدٍ والضحّاك: «ما لكم لا تُبالون لله عظمةً»،[١] قال قُطْرُب: «هي لغة حِجازيّة، يقولون: لم أرجُ، أي: لم أبالِ».[٢]

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أي: متطابقةً بعضها فوق بعض.

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ أي: منوِّرًا لوجه الأرض في ظلمة الليل، ونسبتُه إلى الكلّ مع أنّه في السماء الدنيا لِما أنّها محاطَة بسائر السماوات، فما فيها يكون في الكلّ، ولأنّ كلّ واحدة منها شفّافة لا تحجب ما وراءها، فيُرى الكلّ كأنّها سماء واحدة، ومِن ضرورة ذلك أن يكون ما في واحدةٍ منها كأنّه في الكلّ.

﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ يُزيل ظلمة الليل، ويُبصر أهل الدنيا في ضوئها وجهَ الأرض، ويشاهدون الآفاق كما يبصِر أهلُ البيت في ضوء السِّراج ما يحتاجون إلى إبصاره، وليس القمر بهذه المثابة، إنّما هو نور في الجملة.[٣]

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ أي: أنشأكم منها فاستُعير الإنبات للإنشاء لكونه أدلَّ على الحدوث والتكوّن مِن الأرض، و﴿نَبَاتًا﴾ إمّا مصدر مؤكِّد لـ﴿أَنۢبَتَكُم﴾ بحذف الزوائد، ويسمّى اسمَ مصدر، أو لِما يترتّب عليه مِن فعله، أي: أنبتَكم مِن الأرض فنبتّم نباتًا. ويجوز أن يكون الأصل: أنبتكم مِن الأرض إنباتًا فنبتُّم نباتًا، فيُحذف مِن الجملة الأولى المصدر ومِن الثانية الفعل اكتفاءً في كلّ منهما بما ذُكر في الأخرى، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ﴾ [البقرة، ١٠٨/٢]، وقولِه تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس، ١٠٧/١٠].

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ بالدَّفن عند موتكم ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ منها عند البعث والحشر ﴿إِخْرَاجًا﴾ محقَّقًا لا ريبَ فيه.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ تتقلَّبون عليها تقلُّبكم على بُسُطكم في بيوتكم. وتوسيطُ ﴿لَكُمُ﴾ بين الجَعْل ومفعوليه مع أنّ حقّه التأخّر لِما مرّ مرارًا

---

١ كلاهما بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٣١/٨؛ واللباب لابن عادل، ٣٨٧/١٩.

٢ القول في اللباب لابن عادل، ٣٨٧/١٩.

٣ س – في الجملة.

مِن الاهتمام ببيان كون المجعول مِن منافعهم والتشويقِ إلى المؤخَّر، فإنّ النفس عند تأخير ما حقُّه التقديم لا سيّما عند كون المقدَّم مُلوِّحًا بكونه مِن المنافع تبقى[1] مترقِّبةً له فيتمكَّن عند وروده لها فضلَ تمكُّن.

﴿لِتَسْلُكُوا/ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ أي: طُرقًا واسعةً جَمْع "فجّ"، وهو الطريق الواسع. وقيل: هو المَسلَك بين الجبلين.[2] و﴿مِنْ﴾ متعلِّقة بما قبلها لِما فيه مِن معنى الاتِّخاذ، أو بمضمر هو حال مِن ﴿سُبُلًا﴾، أي: كائنةً مِن الأرض، ولو تأخَّر لَكان صفةً لها. [٢٣٠و]

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾

﴿قَالَ نُوحٌ﴾ أعيدَ لفظ الحكاية لطول العهد بحكاية مناجاته لربّه، أي: قال مناجيًا له تعالى: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ أي: تمّوا على عصياني فيما أمرتُهم به مع ما بالغتُ في إرشادهم بالعِظة والتذكير.

﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: واستمرّوا على اتّباع رؤسائهم الذين أبطرتهم أموالهم وغرّتهم أولادهم، وصار ذلك سببًا لزيادة خسارهم في الآخرة فصاروا أسوةً لهم في الخَسار، وفي وصفهم بذلك إشعار بأنّهم إنّما اتّبعوهم لوجاهتهم الحاصلة لهم بسبب الأموال والأولاد لِما شاهدوا فيهم مِن شبهة مصحِّحة للاتّباع في الجملة. وقُرئ: "وَوُلْدُهُ"[3] بالضمّ والسكون على أنّه لغة كـ"الحُزْن" أو جمع كـ"الأُسد".

﴿وَمَكَرُوا﴾ عطفٌ على صلة ﴿مَن﴾ والجمع باعتبار معناها، كما أنّ الإفراد في الضمائر الأُول باعتبار لفظها. ﴿مَكْرًا كُبَّارًا﴾ أي: كبيرًا في الغاية.

---

[1] السياق: فإنّ النفس... تبقى...

[2] القول في اللباب لابن عادل، ٣٩١/١٩.

[3] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي وحمزة ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٩١/٢.

وقُرئ بالتخفيف،[١] والأوّل أبلغ منه، وهو أبلغ مِن "الكبير"، وذلك احتيالهم في الدِّين وصدّهم للناس عنه وتحريشهم لهم على أذيّة نوح عليه السلام.

﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: لا تتركوا عبادتها على الإطلاق إلى عبادة ربّ نوح ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ أي: ولا تذَرُنّ عبادة هؤلاء، خصّوها بالذِّكر مع اندراجها فيما سبق لأنّها كانت أكبرَ أصنامهم وأعظمَها عندهم، وقد انتقلت هذه الأصنام عنهم إلى العرب فكان وَدّ لكلب وسُواعٌ لهَمْدان ويغوثُ لمَذْحِج ويعوقُ لمُراد ونَسْر لحِمْيَر.

[٢٣٠ظ] وقيل: هي أسماء رجال / صالحين كانوا بين آدمَ ونوح. وقيل: مِن أولاد آدمَ عليه السلام، ماتوا فقال إبليسُ لمَن بعدهم: لو صوّرتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم وتتبرّكون بهم ففعلوا، فلمّا مات أولئك قال لمَن بعدهم: إنّهم كانوا يعبدونهم فعبدوهم. وقيل: كان وَدّ على صورة رجل، وسُواعٌ على صورة امرأة، ويغوثُ على صورة أسد، ويعوقُ على صورة فرَس، ونَسْر على صورة نسر.[٢]

وقُرئ: "وُدًّا"[٣] بضمّ "الواو" و"يَغُوثًا ويَعُوقًا"[٤] للتناسب، ومَنْعُ صرفهما للعُجمة والعَلَميّة.

﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ﴾ أي: الرؤساء ﴿كَثِيرًا﴾ خَلقًا كثيرًا، أو الأصنام كقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم، ٣٦/١٤].

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ على حكاية كلام نوح بعد ﴿قَالَ﴾، وبعد "الواو" النائبة عنه، أي: قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾، وقال: ﴿لَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾. ووَضْعُ الظّاهر موضعَ ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم المُفرط، وتعليلُ الدعاء عليهم به. والمطلوبُ هو الضّلال

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السّمّال وعيسى بن عمر الثقفي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٢.

٢ الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٧/٤.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩١/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش والأشهب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٢، شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٦.

في تمشية مكرهم ومصالح دنياهم أو الضياع والهلاك، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر، ٤٧/٥٤]، ويؤيِّده ما سيأتي مِن دعائه عليه السلام.

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ أي: مِن أجل خطيئاتهم، و﴿مَا﴾ مزيدة بين الجارّ والمجرور للتوكيد والتفخيم، ومَن لم يرَ زيادتها جَعَلها نكرةً وجَعَل ﴿خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ بدلًا منها. وقُرِئ: "مِمَّا خَطَايَاهُمْ"[1] و"مِنْ خَطِيَّاتِهِمْ"،[2] أي: بسبب خطيئاتهم المعدودة وغيرها مِن خطاياهم. ﴿أُغْرِقُوا۟﴾ بالطوفان لا بسبب آخر ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ المراد إمّا عذابُ القبر فهو عَقيب الإغراق، وإن كانوا في الماء. عن الضحّاك أنّهم كانوا يُغْرَقون مِن جانب ويُحْرَقون مِن جانب،[3] أو عذابُ جهنّم،[4] والتعقيب لتنزيله منزلةَ المتعقّب لإغراقهم لاقترابه وتحقُّقه لا محالةَ. وتنكير "النار" إمّا لتعظيمها وتهويلها، أو لأنّه تعالى أعدّ لهم على حسب خطيئاتهم نوعًا مِن النّار.

﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ أي: لم يجد أحد منهم واحدًا مِن الأنصار. وفيه تعريضٌ باتّخاذهم آلهة مِن دون الله تعالى وبأنّها غير قادرة على نصرهم، وتهكّمٌ بهم.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ عطفٌ على نظيره السابق. وقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾... إلخ، اعتراضٌ وُسّط بين دُعائَيه عليه السلام للإيذان مِن أوّل الأمر، بأنّ ما أصابهم / مِن الإغراق والإحراق لم يصبهم إلّا [٢٣١و] لأجل خطيئاتهم التي عدَّدها نوح وأشار إلى استحقاقهم للإهلاك لأجلها، لا أنّها حكاية لنفس الإغراق والإحراق، على طريقة حكاية ما جرى بينه عليه السلام وبينهم مِن الأحوال والأقوال وإلّا لأخّر عن حكاية دعائه هذا. و﴿ديّارًا﴾

---

١ قرأ بها أبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٣٩١/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ٤٦٧/٤.

٣ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٢٣٣/٨؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤٦٨/٤.

٤ السياق: إمّا عذاب القبر... أو عذاب جهنّم...

مِن الأسماء المستعمَلة في النفي العامّ، يقال: "ما بالدار ديّار أو ديّور" كـ"قيّام" و"قيّوم"، أي: أحدٌ، وهو "فَيْعال" مِن "الدَّور" أو مِن "الدَّار"، أصله "دَيْوَار" قد فُعل به ما فُعل بأصل "سيِّد"، لا "فعّال" وإلّا لكان "دوّارًا".[١]

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ﴾ عليها كلًّا أو بعضًا ﴿يُضِلُّواْ عِبَادَكَ﴾ عن طريق الحقّ ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾ أي: إلّا مَن سيفجُر ويكفر، فوَصَفهم بما يصيرون إليه،[٢] وكأنّه اعتذار ممّا عسى يرِد عليه مِن أنّ الدعاء بالاستئصال مع احتمال أن يكون مِن أخلافهم مَن يؤمن مُنكَر، وإنّما قاله لاستحكام عِلمه بما يكون منهم ومِن أعقابهم بعدما جرّبهم واستقرأ أحوالهم قريبًا مِن ألف سنةٍ.

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ أبوه مُتَوَشْلِخُ وأمّه شمخا بنت أنوش كانا مؤمنين. وقيل: هما آدمُ وحوّاءُ.[٣] وقُرئ: "وَلِوَلَدَيَّ"[٤] يريد سامًا وحامًا. ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ﴾ أي: منزلي. وقيل: مسجدي. وقيل: سفينتي.[٥] ﴿مُؤْمِنٗا﴾ بهذا القيد خرجت امرأته وابنه كنعان، ولكن لم يجزم عليه السلام بخروجه إلّا بعد ما قيل له: إنّه ليس مِن أهلك، وقد مرّ تفصيله في سورة هود.[٦] ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ عمّهم بالدّعاء إثرَ ما خصّ به مَن يتّصل به نسبًا ودينًا.

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارٗا﴾ أي: هلاكًا. قيل: غرِق معهم صبيانهم أيضًا، لكنْ لا على وجه العقاب لهم؛ بل لتشديد عذاب آبائهم وأمّهاتهم بإراءة هلاك أطفالهم الذين كانوا أعزّ عليهم مِن أنفسهم.[٧]

قال عليه السلام: «يهلِكون مَهلِكًا واحدًا ويصدرون مصادرَ شتّى»،[٨] وعن الحسن أنّه سئل عن ذلك فقال: «عَلِم الله براءتهم فأهلكهم بغير عذاب»،[٩]

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٨.

٢ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٨.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٨.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن بن عليّ والزُّهري وإبراهيم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٦.

٥ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٨.

٦ في الآية السادسة والأربعين منها.

٧ القول بمعناه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٨-٤٦٩.

٨ مسند أحمد، ٤١/٢٥٧ (٢٤٧٣٨)؛ وصحيح مسلم، ٤/٢٢١٠ (٢٨٨٤)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٩.

٩ ما وجدته في مظانّه. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٦٩.

وقيل: / أعقَم الله تعالى أرحامَ نسائهم وأيبَ،س أصلاب آبائهم قبل الطّوفان [٢٣١ظ] بأربعين أو سبعين سنةً فلم يكن معهم صبيّ حين غرقوا.[1]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة نوح كان مِن المؤمنين الذين تُدرِكهم دعوة نوح عليه السلام».[2]

---

١ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٤٦٩.

٢ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣٨٤/٢٧ (نوح، ١/٧١)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٢٥٦/٤ (نوح، ١/٧١)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٦٩/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة الجنّ

مكّيّة، وهي ثمان وعشرون آية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ① يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ② وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ③ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ④ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ⑤﴾

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ وقُرئ: "أُحِيَ"[1] أصله وُحِيَ، وقد قُرئ كذلك،[2] مِن "وَحَى إليه"، فقُلبت "الواو" المضمومة همزة كـ"أَعِد" و"أَزِن" في "وُعِد" و"وُزِن". ﴿أَنَّهُ﴾ بالفتح لأنّه فاعل ﴿أُوحِيَ﴾، والضمير للشأن. ﴿ٱسْتَمَعَ﴾ أي: القرآن كما ذُكر في "الأحقاف"[3] وقد حُذف لدلالة ما بعده عليه. ﴿نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ النفرُ ما بين الثلاثة والعشرة، والجنّ: أجسام عاقلة خفيّة يغلب عليهم الناريّة أو الهوائيّة. وقيل: نوع مِن الأرواح المجرّدة. وقيل: هي النفوس البشريّة المفارقة عن أبدانها.[4] وفيه دلالة على أنّه عليه السلام لم يشعر بهم وباستماعهم ولم يقرأ عليهم، وإنّما اتّفق حضورهم في بعض أوقات قراءته فسمعوها فأخبره الله تعالى بذلك، وقد مرّ ما فيه مِن التفصيل في "الأحقاف".[5]

﴿فَقَالُوٓاْ﴾ لقومهم عند رجوعهم إليهم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا﴾ كتابًا مقروًا ﴿عَجَبًا﴾ بديعًا مُباينًا لكلام الناس في حُسن النظم ودِقّة المعنى، وهو مصدر وُصف به للمبالغة.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وجُؤَيّة بن عائذ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة والعتكي عن أبي عمرو. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٣؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٧.

٣ في الآية التاسعة والعشرين منها.

٤ القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٥٤/٣.

٥ في تفسير الآية التاسعة والعشرين منها.

﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾ إلى الحقّ والصواب ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بذلك القرآن ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ حسبما نطق به ما فيه مِن دلائل التوحيد.

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ بالفتح، قالوا: هو وما بعده مِن الجُمل المصدّرة بأنّ في أحدَ عشرَ موضعًا عطفٌ على محلّ الجارّ والمجرور في ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾، كأنّه قيل: فصدّقناه وصدّقنا أنّه تعالى جَدُّ ربّنا، أي: ارتفع عظمته، مِن "جَدّ فلان في عيني"، أي: عظُم تمكُّنه أو سلطانه أو غِناه، على أنّه مستعار مِن الجَدّ الذي هو البَخْت، والمعنى وَصْفُه بالاستغناء عن الصاحبة والولد لعظمته أو لسلطانه أو لغِناه. وقُرئ بالكسر،[١] وكذا الجمل المذكورة عطفًا على المحكيّ بعد القول.[٢] وهو الأظهرُ لوضوح اندراج كلّها تحت القول، وأمّا اندراج الجُمل الآتية تحت الإيمان والتصديق كما يقتضيه العطف على محلّ الجارّ والمجرور، ففيه إشكال، كما ستُحيط به خُبرًا.

وقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا﴾ بيان لحُكم تعالِي جدِّه. وقُرئ: "جَدًّا رَبُّنَا"[٣] على التمييز و"جِدُّ رَبِّنَا"[٤] / بالكسر، أي: صِدق ربوبيّته وحقّ إلهيّته [٢٣٢و] عن اتّخاذ الصاحبة والولد، وذلك أنّهم لمّا سمعوا القرآن ووُفِّقوا للتوحيد والإيمان تنبّهوا للخطأ فيما اعتقده كفَرة الجنّ مِن تشبيه الله تعالى بخَلْقه في اتّخاذ الصاحبة والولد فاستعظموه ونزّهوه تعالى عنه.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ أي: إبليسُ أو مَرَدة الجنّ ﴿عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا﴾ أي: قولًا ذا شَطَط، أي: بُعدٍ عن القَصْد ومُجاوزةٍ للحدّ، أو هو شطَط في نفسه لفَرْط بُعده عن الحقّ، وهو نسبة الصاحبة والولد إليه تعالى، وتعلُّق الإيمان والتصديق بهذا القول ليس باعتبار نفسه، فإنّهم كانوا عالمين بقول سفهائهم مِن قبلُ أيضًا؛ بل باعتبار كونه شطَطًا كأنّه قيل: وصدّقنا أنّ ما كان يقوله سفيهنا في حقّه تعالى كان شطَطًا.

---

[١] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩١.

[٢] انظر تفصيله في النشر لابن الجزري، ٢/٣٩١-٣٩٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٧.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٧.

وأمّا تعلّقهما بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فغيرُ ظاهر، وهو اعتذار منهم عن تقليدهم لسفيههم، أي: كنّا نظنّ أنّه لن يكذب على الله تعالى أحد أبدًا، ولذلك اتّبعنا قوله. و﴿كَذِبًا﴾ مصدر مؤكِّد لـ﴿تَقُولَ﴾ لأنّه نوع مِن القول أو وصفٌ لمصدره المحذوف، أي: قولًا كذبًا، أي: مكذوبًا فيه. وقُرئ: "لَنْ تَقَوَّلَ"[١] بحذف إحدى التاءين فـ﴿كَذِبًا﴾ مصدر مؤكِّد له؛ لأنّ الكذب هو التقوّل.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ كان الرجل مِن العرب إذا أمسى في وادٍ قَفْر وخاف على نفسه يقول: أعوذ بسيّد هذا الوادي مِن سفهاء قومه، يريد الجنّ وكبيرهم، فإذا سمعوا بذلك استكبروا وقالوا: سُدنا الإنسَ والجنّ، وذلك قوله تعالى: ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ أي: زاد الرجال العائذون الجنَّ ﴿رَهَقًا﴾ أي: تكبّرًا وعُتوًّا، أو فزاد الجنُّ العائذين غيًّا بأن أضلّوهم حتّى استعاذوا بهم.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟﴾ أي: الإنس ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ أيّها الجنّ على أنّه كلام بعضهم لبعض ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾. وقيل: المعنى أنّ الجنّ ظنّوا كما ظننتُم أيّها الكفرة... إلخ، فيكون هذه الآية وما قبلها مِن جملة الكلام المُوحى به.[٢] والأقربُ أنّهما كذلك على كلّ تقدير عطفًا على ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾؛ إذ لا معنى لإدراجهما تحت ما ذُكر مِن الإيمان والتصديق.

وكذا قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ وما بعده مِن الجمل المصدَّرة بـ﴿أَنَّا﴾ ينبغي أن تكون معطوفةً على ذلك، على أنّ المُوحى عين عبارة الجنّ بطريق الحكاية، كأنّه قيل: قل أوحيَ إليّ كيت وكيت وهذه العبارات، أي:

---

١ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٩٢/٢. ٢ الكلام بمعناه في الكشّاف للزمخشري، ٤٧١/٤.

[٢٣٢ظ] طلبنا بلوغ السماء أو خبرها. واللَّمس مستعار مِن المَسّ / للطلب كـ"الجَسّ". يقال: "لمسَه والتمسه وتلمَّسه" كـ"طلَبه واطّلبه وتطلّبه".

﴿فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا﴾ أي: حرّاسًا اسم جَمْع كـ"خَدَم"، مفرد اللفظ، ولذلك قيل: ﴿شَدِيدًا﴾ قويًّا، وهم الملائكة يمنعونهم عنها، ﴿وَشُهُبًا﴾ جمع "شِهاب"، وهي الشُّعلة المقتبَسة مِن نار الكواكب.

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ﴾ قبل هذا ﴿مِنْهَا﴾ مِن السماء ﴿مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ خاليةً عن الحرَس والشُّهب، أو صالحةً للترصّد والاستماع، و﴿لِلسَّمْعِ﴾ متعلّق بـ﴿نَقْعُدُ﴾، أي: لأجل السمع أو بمضمر هو صفة لـ﴿مَقَـٰعِدَ﴾، أي: مقاعدَ كائنةً للسمع. ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ﴾ في مقعَد مِن المقاعد ﴿يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أي: شِهابًا راصدًا له ولأجله يصدّه عن الاستماع بالرَّجم، أو ذوي شِهاب راصدين له، على أنّه اسم مفرد في معنى الجمع كـ"الحَرَس".

قيل: حدَث هذا عند مَبعَث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، والصحيحُ أنّه كان قبل البعث أيضًا، لكنّه كثُر الرجم بعد البعثة وزاد زيادةً حتّى تنبّه لها الإنس والجنّ، ومُنع الاستراق أصلًا، فقالوا: ما هذا إلّا لأمر أراده الله تعالى بأهل الأرض، وذلك قولهم: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بحراسة السماء ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ أي: خيرًا، ونسبة الخير إلى الله تعالى دون الشرّ مِن الآداب الشريفة القرآنيّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء، ٢٦/٨٠] ونظائرِه.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ أي: الموصوفون بصلاح الحال في شأن أنفسهم وفي معاملتهم مع غيرهم المائلون إلى الخير والصلاح حسبما تقتضيه الفطرة السليمة،

لا إلى الشرّ والفساد كما هو مقتضى النفوس الشريرة. ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: قوم دون ذلك، فحُذف الموصوف وهم المقتصِدون في صلاح الحال على الوجه المذكور، لا في الإيمان والتّقوى كما تُوهِّم،[1] فإنّ هذا بيان لحالهم قبل استماع القرآن، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾، وأمّا حالهم بعد استماعه فسيُحكى بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾،[2] أي: كنّا قبل هذا ذوي طرائق، أي: مذاهبَ، أو مثلَ طرائق في اختلاف الأحوال، أو كانت طرائقنا طرائقَ قِدَدًا، أي: متفرِّقةً مختلفةً جمع "قِدّة" مِن "قَدَّ" كـ"القِطعة" مِن "قَطَع".

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ أي: علِمنا الآن ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ﴾ أي: أنّ الشأن لن نعجز الله كائنين ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أينما كنّا مِن أقطارها ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ هاربين منها إلى السماء، أو لن نعجزه في الأرض إن أراد بنا أمرًا ولن نعجزه هربًا / إن طلبَنا. [٢٣٣و]

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: القرآن الذي هو الهدى بعينه ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ مِن غير تلعثُم وتردُّد ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ﴾ وبما أنزله ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ فهو لا يخاف ﴿بَخْسًا﴾ أي: نقصًا في الجزاء ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ ولا أن ترهَقه ذِلَّة، أو جزاءَ بخسٍ ولا رَهَقٍ؛ إذ لم يبخس أحدًا حقًّا ولا رَهِق ظلم أحد، فلا يخاف جزاءهما. وفيه دلالة على أنّ مِن حقّ مَن آمن بالله تعالى أن يجتنب المظالم. وقُرئ: "فَلَا يَخَفْ"،[3] والأوّل أدلّ على تحقيق نجاة المؤمن واختصاصها به.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ الجائرون عن طريق الحقّ الذي هو الإيمان والطاعة، ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى مَن أسلَم، والجمع باعتبار المعنى، ﴿تَحَرَّوْاْ﴾ توخّوا ﴿رَشَدًا﴾ عظيمًا يبلِّغهم إلى دار الثواب.

﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ الجائرون عن سنَن الإسلام ﴿فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ تُوقَد بهم كما تُوقَد بكفَرة الإنس.

---

[1] ما وقفت عليه فيما بين يديّ مِن المظانّ.

[2] في الآيتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٣.

﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ "أنْ" مخفَّفة مِن الثقيلة، والجملة معطوفة قطعًا على ﴿أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ﴾،[١] والمعنى وأُوحيَ إليّ أنّ الشأن لو استقام الجنّ والإنس أو كلاهما ﴿عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ التي هي مِلّة الإسلام ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾ أي: لوسّعنا عليهم الرزق، وتخصيصُ الماء الغَدَق -وهو الكثير- بالذِّكر، لأنّه أصل المعاش والسَّعة، ولعِزّة وجوده بين العرب. وقيل: لو استقام الجنّ على الطريقة المُثلى، أي: لو ثبت أبوهم الجانّ على ما كان عليه مِن عبادة الله تعالى وطاعته ولم يتكبّر عن السجود لآدمَ عليه السلام ولم يكفرِ وتبِعه ولده في الإسلام لأنعمنا عليهم ووسَّعنا رزقهم.[٢]

﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ﴾ لنختبرهم كيف يشكرونه. وقيل: معناه أنّه لو استقام الجنّ على طريقتهم القديمة ولم يُسلِموا باستماع القرآن لوسَّعنا عليهم الرزق استدراجًا لنُوقعهم في الفتنة ونعذِّبهم في كفران النعمة.[٣] ﴿وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ﴾ عن عبادته أو عن موعظته أو وحيه ﴿يَسۡلُكۡهُ﴾ يُدخله ﴿عَذَابٗا صَعَدٗا﴾ أي: شاقًّا صعبًا يعلو المعذَّب ويغلِبه، على أنّه مصدر وُصف به مبالغةً.

﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ۝١٨ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ۝١٩﴾

[٢٣٣ظ] / ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ﴾،[٤] أي: وأوحيَ إليّ أنّ المساجد مختصّة بالله تعالى. وقيل: معناه ولأنّ المساجد لله[٥] ﴿فَلَا تَدۡعُواْ﴾ أي: لا تعبدوا فيها ﴿مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ غيره. وقيل: المراد بـ﴿ٱلۡمَسَٰجِدَ﴾ المسجد الحرام، والجَمْعُ لأنّ كلّ ناحية منه مسجِد، له قبلة مخصوصة، أو لأنّه قبلة المساجد.[٦] وقيل: الأرضُ كلّها؛ لأنّها جُعلت مسجدًا للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم.[٧] وقيل:

---

١ في الآية الأولى مِن هذه السورة.
٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٧٤.
٣ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٧٤.
٤ في الآية الأولى مِن هذه السورة.
٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٧٤.
٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٧٥؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٥٧.
٧ مرويّ عن الحسن في معالم التنزيل للبغوي، ٨/٢٤٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٤٧٤-٤٧٥.

مواضعُ السجود، على أنّ المراد نهي السجود لغير الله تعالى.[١] وقيل: أعضاءُ السجود السبعة. وقيل: السجدات، على أنّه جَمْع المصدر الميمي.[٢]

﴿وَأَنَّهُۥ﴾ مِن جملة المُوحى، أي: وأوحيَ إليّ أنّ الشأن ﴿لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ أي: النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وإيراده بلفظ العبد للإشعار بما هو المقتضي لقيامه وعبادته وللتواضع؛ لأنّه واقع موقع كلامه عن نفسه. ﴿يَدۡعُوهُ﴾ حال مِن فاعل ﴿قَامَ﴾، أي: يعبده، وذلك قيامه لصلاة الفجر بنخلة، كما مرّ تفصيله في "الأحقاف".[٣]

﴿كَادُواْ﴾ أي: الجنّ ﴿يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ متراكِمين مِن ازدحامهم عليه تعجُّبًا ممّا شاهدوا مِن عبادته وسمعوا مِن قراءته واقتداءِ أصحابه به قيامًا وركوعًا وسجودًا؛ لأنّهم رأوا ما لم يروا مِثلَه وسمعوا بما لم يسمعوا بنظيره. وقيل: معناه لمّا قام عليه السلام يعبد الله وحدَه مخالِفًا للمشركين كاد المشركون يزدحمون عليه متراكمين. واللِّبد جمع لِبْدة: وهي ما تلبَّد بعضه على بعض، ومنها لِبْدة الأسَد. وقُرئ: "لُبَدًا"[٤] جمع "لُبْدة" وهي بمعنى اللِّبدة، و"لُبَّدًا"[٥] جمع "لابِد" كـ"ساجد" و"سُجَّد"، و"لُبُدًا"[٦] بضمّتين جمع "لَبُود" كـ"صَبور" و"صُبُر"، وعن قتادة: تلبَّدت الإنس والجنّ على هذا الأمر ليطفئوه، فأبى الله إلّا أن يُظهره على مَن ناوأه.[٧]

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ۝٢٠ قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ۝٢١ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ۝٢٢ إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۝٢٣﴾

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ﴾ أي: أعبد ﴿رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ﴾[٨] بربّي في العبادة ﴿أَحَدٗا﴾ فليس ذلك ببِدع ولا مستنكَر يوجِب التعجّب أو الإطباق على عداوتي. وقُرئ:

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٥٧/٣.

٢ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٥/٤.

٣ في تفسير الآية التاسعة والعشرين منها.

٤ قرأ بها هشام بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٩٢/٢.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجَحدريّ والحسن وابن محيصن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٣؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٤٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الجَحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٩.

٧ مَرويّ عن الحسن وقتادة وابن زيد في جامع البيان للطبري، ٣٤٤/٢٣-٣٤٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٤٣/٨؛ وعن قتادة في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٥/٤.

٨ م س - به

"قَالَ"،[١] على أنّه حكاية لقوله عليه السلام للمتراكِمين عليه.[٢] والأوّل هو الأظهر والأوفَق لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ كأنّه أريدَ: لا أملِك ضرًّا ولا نفعًا ولا غيًّا ولا رَشدًا، فتُرِك مِن كلا المتقابلَين ما ذُكر في الآخر.

﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ إن أرادني بسوء ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ مُلتجَأ ومَعدِلًا، هذا بيان لعجزه عليه السلام / [٢٣٤و] عن شئون نفسه بعد بيان عجزه عليه السلام عن شئون غيره.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ استثناء مِن قوله: ﴿لَآ أَمْلِكُ﴾ فإنّ التبليغ إرشاد ونفع وما بينهما اعتراضٌ مؤكِّد لنفي الاستطاعة أو مِن ﴿مُلْتَحَدًا﴾ أي: لن أجد مِن دونه مَنجًى إلّا أن أبلِّغ عنه ما أرسلني به، وقيل: ﴿إِلَّا﴾ مركّبة مِن "إن" الشرطيّة و"لا" النافية، ومعناه: "إنْ لا أبلِّغ بلاغًا مِن الله"، والجواب محذوف لدلالة ما قبله عليه.[٣] ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ عطفٌ على ﴿بَلَٰغًا﴾، و﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ صفته لا صلته، أي: لا أملك لكم إلّا تبليغًا كائنًا منه تعالى ورسالاتِه التي أرسلني بها.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الأمر بالتوحيد، إذ الكلام فيه، ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ وقُرئ بفتح "الهمزة"[٤] على "فحقُّه" أو "فجزاؤه أنّ له نار جهنّم". ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ في النار أو في جهنّم، والجمع باعتبار المعنى. ﴿أَبَدًا﴾ بلا نهاية.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائي ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٩٢/٢.

٢ الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٦/٤.

٣ القول بإيجاز في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٦/٤؛ وهو مع ذِكر تقدير الجواب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٥٧/٣.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة وزيد بن عليّ وعيسى بن عمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٣؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٨٩.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ غاية لمحذوف يدلّ عليه الحال مِن استضعاف الكفّار لأنصاره عليه السلام واستقلالهم لعدده، كأنّه قيل: لا يزالون على ما هم عليه حتّى إذا رأوا ما يوعدون مِن فنون العذاب في الآخرة ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾ حينئذ ﴿مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا﴾.[١] وحَمۡلُ ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ على ما رأوه يوم بدر،[٢] يأباه قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ﴾ أي: ما أدري ﴿أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾؛ فإنّه ردّ لِما قاله المشركون عند سماعهم ذلك متى يكون ذلك الموعود إنكارًا له واستهزاءً به، فقيل: قل إنّه كائن لا محالةَ، وأمّا وقته فما أدري متى يكون.

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ بالرفع، قيل: هو بدل مِن ﴿رَبِّيٓ﴾، أو بيان له،[٣] ويأباه "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ إذ يكون النظم حينئذ: أم يجعل له عالمُ الغيب أمدًا فلا يُظهِر عليه أحدًا. وفيه مِن الاختلال ما لا يخفى. فهو خبر مبتدأ محذوف، / أي: هو عالم الغيب.[٤] والجملة استئناف مقرِّر لِما قبله مِن عدم الدِّراية، و"الفاء" لترتيب عدم الإظهار على تفرُّده تعالى بعِلم الغيب على الإطلاق، أي: فلا يُطلِع على غَيبه إطلاعًا كاملًا ينكشف به جليّةُ الحال انكشافًا تامًّا موجِبًا لعين اليقين أحدًا مِن خَلْقه. [٢٣٤ظ]

﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ أي: إلّا رسولًا ارتضاه لإظهاره على بعض غيوبه المتعلِّقة برسالته كما يُعرِب عنه بيانُ مَن ارتضى بالرسول تعلُّقًا ما، إمّا لكونه مِن مبادي رسالته بأن يكون معجزةً دالّةً على صحّتها، وإمّا لكونه مِن أركانها وأحكامها، كعامّة التكاليف الشرعيّة التي أُمِر بها المكلَّفون، وكيفيّاتِ أعمالهم وأجزِيتها المترتِّبة عليها في الآخرة، وما تتوقَّف هي عليه مِن أحوال الآخرة التي مِن جملتها قيامُ الساعة والبعث وغيرُ ذلك مِن الأمور الغيبيّة التي بيانها مِن وظائف الرسالة. وأمّا ما لا يتعلّق بها على أحد الوجهين مِن الغيوب

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٧٦-٤٧٧.

٢ حمله على ذلك الزمخشري في الكشّاف، ٤/٤٧٦.

٣ الوجهان في اللباب لابن عادل، ١٩/٤٤٢.

٤ وهو ثالث الوجوه المذكورة في اللباب لابن عادل، ١٩/٤٤٢.

التي مِن جملتها وقتُ قيام الساعة، فلا يُظهِر عليه أحدًا أبدًا، على أنّ بيان وقتِه مُخِلّ بالحكمة التشريعيّة التي عليها يدور فلَك الرسالة.

وليس فيه ما يدلّ على نفي كراماتِ الأولياء المتعلِّقة بالكشف،[١] فإنّ اختصاص الغاية القاصية مِن مراتب الكشفِ بالرسل لا يستلزم عدمَ حصول مرتبةٍ ما مِن تلك المراتب لغيرهم أصلًا، ولا يدّعي أحد لأحد مِن الأولياء ما في رُتبة الرسل عليهم السلام مِن الكشف الكامل الحاصل بالوحي الصريح.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ تقرير وتحقيق للإظهار المستفاد مِن الاستثناء وبيانٌ لكيفيّته، أي: فإنّه تعالى يسلك مِن جميع جوانب الرسول عند إظهاره على غيبه حرَسًا مِن الملائكة يُحرسونه مِن تعرُّض الشياطين لِما أظهره عليه مِن الغيوب المتعلِّقة برسالته.

[٢٣٥و] وقوله تعالى: / ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ متعلِّق بـ﴿يَسْلُكُ﴾، غايةٌ له مِن حيث إنّه مترتِّب على الإبلاغ المترتِّب عليه؛ إذ المراد به العِلم المتعلِّق بالإبلاغ الموجود بالفعل. و"أنْ" مخفَّفة مِن الثقيلة، واسمها الذي هو ضمير الشأن محذوف، والجملة خبرها. و﴿رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ عبارة عن الغيب الذي أُريدَ إظهار المرتضى عليه، والجمع باعتبار تعدُّد أفراده.

وضمير ﴿أَبْلَغُوا۟﴾ إمّا لـ"الرصَد" فالمعنى أنّه تعالى يسلُكهم مِن جميع جوانب المرتضى ليعلم أنّ الشأن قد أبلغوه رسالات ربّهم سالمةً عن الاختطاف والتخليط عِلمًا مستتبعًا للجزاء، وهو أن يعلمه موجودًا حاصلًا بالفعل، كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ﴾ [محمد، ٣١/٤٧]. والغايةُ في الحقيقة هو الإبلاغ والجهاد، وإيرادُ عِلمه تعالى لإبراز اعتنائه تعالى بأمرهما والإشعار بترتيب الجزاء عليهما والمبالغة في الحثّ عليهما والتحذير عن التفريط فيهما. وإمّا لـ﴿مَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾،[٢] والجمع باعتبار معنى ﴿مَن﴾ كما أنّ الإفراد في الضميرين السابقين باعتبار لفظهما

---

١ على ما ذهب إليه الزمخشري في الكشّاف، ٤٧٧/٤؛ وردّه البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤٥٨/٣، بأنّ كراماتِ الأولياء عن المغيّبات تكون بتوسّط الأنبياء.

٢ السياق: إمّا لـ"الرصَد"... وإمّا لـ﴿مَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾...

فالمعنى ليعلم أنّه قد أبلغ الرسل الموحى إليهم رسالات ربّهم إلى أممهم كما هي مِن غير اختطاف ولا تخليط بعد ما أبلغها الرصَد إليهم كذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي: بما عند الرصَد أو الرسل عليهم السّلام، حالٌ مِن فاعل ﴿يَسْلُكُ﴾ بإضمار "قد" أو بدونه على الخِلاف المشهور،[1] جيء بها لتحقيق استغنائه تعالى في العِلم بالإبلاغ عمّا ذُكر مِن سَلْك الرَّصَد على الوجه المذكور، أي: يسلكهم بين يديه ومِن خلفه ليترتَّب عليه عِلمه تعالى بما ذُكر، والحال أنّه تعالى قد أحاط بما لديهم مِن الأحوال جميعًا.

﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ممّا كان وما سيكون ﴿عَدَدًا﴾ أي: فردًا فردًا، وهو تمييز منقول مِن المفعول به، كقوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر، ١٢/٥٤]. والأصل أحصى عدد كلّ شيء. وقيل: هو حال، أي: معدودًا محصورًا، أو مصدر بمعنى "إحصاءً".[2]

وأيّا ما كان ففائدته بيان أنّ عِلمه تعالى بالأشياء ليس على وجه كلّي إجمالي؛ بل على وجه جزئي تفصيلي، فإنّ الإحصاء قد يُراد به الإحاطة الإجماليّة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم، ٣٤/١٤] / أي: لا تقدروا على حصرها إجمالًا فضلًا عن التفصيل، وذلك لأنّ أصل الإحصاء أنّ الحاسب إذا بلغ عَقدًا معيَّنًا مِن عقود الأعداد كالعشرة والمائة والألف وضَع حصاةً ليحفظ بها كمّيّةَ ذلك العقد، فيبني على ذلك حسابه هذا. [٢٣٥ظ]

وأمّا ما قيل: مِن أنّ قوله تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾... إلى آخره، معطوفٌ على مقدَّر يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ﴾، كأنّه قيل: قد عَلِم ذلك و﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾... إلخ،[3] فبمَعزِل مِن السَّداد.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الجنّ كان له بعدد كلّ جنّيّ صدّق محمّدًا وكذّب به عِتقُ رقبة».[4]

---

١ انظر تفصيل المسألة في **الإنصاف في مسائل الخلاف** للأنباري، ٢٥٢/١-٢٥٨.

٢ الوجهان في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧٧/٤.

٣ أوردَ هذا الوجه ابن عادل في **اللباب**، ٤٤٨/١٩.

٤ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٤١٦/٢٧؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤٧٧/٤؛ **اللباب** لابن عادل، ٤٤٨/١٩. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة المزّمّل

مكّيّة، وهي تسعَ عشرةَ أو عشرون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ أي: المُتزمّل، مِن "تزمّل بثيابه" إذا تلفّف بها، فأُدغم "التاء" في "الزاء". وقد قُرئ على الأصل،[1] وقُرئ: "المُزَمّلُ" مِن زمّله مبنيًا للمفعول[2] ومبنيًا للفاعل.[3] قيل: خُوطب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم تهجينًا لِما كان عليه مِن الحالة، حيث كان عليه السلام متلفِّفًا بقطيفة مستعدًّا للنوم، كما يفعله مَن لا يهمّه أمر ولا يعنيه شأن، فأُمر بأن يترك التزمّل إلى التشمّر للعبادة والهُجودَ إلى التهجّد.[4]

وقيل: دخل عليه السلام على خديجة وقد جُئثَ[5] فرَقًا[6] أوّلَ ما أتاه جبريلُ عليهما السّلام وبَوادرُه[7] تَرعد، فقال: زمّلوني، فحسِب أنّه عُرِض له، فبَيْنَا هو على ذلك إذ ناداه جبريلُ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾.[8] فيكون تخصيص وَصْف التزمّل بالخطاب للمُلاطَفة والتأنيس، كما في قوله عليه السلام لعليّ رضي الله عنه

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأُبيّ بن كعب والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٤٦.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٠.

[3] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤٧٨/٤.

[4] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٩/٤.

[5] جُئثَ: فزِع. لسان العرب لابن منظور، «جأث».

[6] الفرَق: الخوف والذُعر. لسان العرب لابن منظور، «فرق».

[7] البوادر جمع البادرة: وهي مِن الإنسان اللحمة بين المَنكِب والعنق. لسان العرب لابن منظور، «بدر».

[8] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٩/٤.

حين غاضَب فاطمةَ رضي الله عنها فأتاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب: «قُمْ يا أبا تراب»[١] ملاطفةً له وإشعارًا بأنّه غير عاتب عليه.

وقيل: المعنى: يا أيّها الذي زُمِّل أمرًا عظيمًا هو أمر النبوّة،[٢] أي: حُمِّله، والزِّمْل: الحِمل، وازدملَه، أي: احتمله، فالتعرّض للوصف حينئذ للإشعار بعلّيّته للقيام أو للأمر به، فإنّ تحميله عليه السلام لأعباء النبوّة ممّا يُوجب الاجتهاد في العبادة.

[٢٣٦و] ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ أي: قُمْ إلى الصلاة. وانتصابُ / ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ على الظرفيّة. وقيل: القيام مستعار للصلاة، ومعنى ﴿قُمِ﴾: صلِّ.[٣] وقُرئ بضمّ "الميم"[٤] وبفتحها.[٥] ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ استثناء مِن ﴿ٱلَّيۡلَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بدل مِن ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ الباقي بعد الثُّنيا[٦] بدلَ الكلّ، أي: قُم نصفَه. والتعبير عن النصف المُخرج بالقليل لإظهار كمال الاعتداد بشأن الجزء المقارِن للقيام، والإيذانِ بفضله، وكونِ القيام فيه بمنزلة القيام في أكثره في كثرة الثواب، واعتبارِ قلّته بالنسبة إلى الكلّ مع عرائه عن الفائدة خلاف الظاهر. ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ﴾ أي: أنقِص القيام مِن النصف المقارن له في الصورة الأولى ﴿قَلِيلًا﴾ أي: نقصًا قليلًا، أو مقدارًا قليلًا بحيث لا ينحطّ إلى نصف النصف.

﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ أي: زِد القيام على النصف المقارن له، فالمعنى تخييره عليه السلام بين أن يقوم نصفَه أو أقلّ منه أو أكثرَ.

وقيل: قوله تعالى ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بدلٌ مِن ﴿قَلِيلًا﴾، والتخيير بحاله.[٧] وليس بسديد، أمّا أوّلًا فلأنّ الحقيق بالاعتناء الذي يُنبئ عنه الإبدال هو الجزء الباقي

---

١ المعجم الكبير للطبراني، ٢٠٢/٦ (٦٠١٠).

٢ مرويّ عن عكرمة في جامع البيان للطبري، ٣٥٨/٢٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٧٩/٤.

٣ هو مِن أمثلة المجاز المرسل الذي سُمّي فيه الشيء باسم جزئه عند البلاغيّين. انظر: الإيضاح للقزويني، ص ٣٩٩.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٠.

٦ الثُّنيا: الاستثناء. لسان العرب لابن منظور، «ثني».

٧ الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٩/٤؛ والتبيان للعكبري، ١٢٤٧/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٦٠/٣.

بعد الثُّنيا المقارن للقيام لا الجزء المخرَجُ العاري عنه، وأمّا ثانيًا فلأنّ نقص القيام وزيادته إنّما يعتبران بالقياس إلى مِعياره الذي هو النصف المقارن له، فلو جعل ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بدلًا مِن ﴿قَلِيلًا﴾ لزم اعتبارُ نقصِ القيام وزيادتِه بالقياس إلى ما هو عارٍ عنه بالكلّيّة، والاعتذارُ بتساوي النصفين مع كونه تمحُّلًا ظاهرًا اعترافٌ بأنّ الحقّ هو الأوّل.

وقيل: ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بدل مِن ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ و﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثناء مِن النصف، والضمير في ﴿مِنۡهُ﴾ و﴿عَلَيۡهِ﴾ للنصف، والمعنى التخيير بين أمرين: بين أن يقوم أقلّ مِن نصف الليل على البتات، وبين أن يختار أحد الأمرين وهما النقصان مِن النصف والزيادة عليه. وقيل: الضميران للأقلّ مِن النصف، كأنّه قيل: قم أقلّ مِن نصفه أو قم أنقص مِن ذلك الأقلّ أو أزيدَ منه قليلًا.[١] وقيل وقيل.[٢]

والذي يليق بجزالة التنزيل هو الأوّل.[٣] والله أعلم بما في كتابه الجليل.

﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ في أثناء ما ذُكر مِن القيام، أي: اقرأه على تَؤدة وتبيين حروف ﴿تَرۡتِيلًا﴾ بليغًا بحيث يتمكّن السامع مِن عدّها، مِن قولهم: "ثَغر رَتْل وَرَتِل" إذا كان / مفلَّجًا. [٢٣٦ظ]

﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ﴾ أي: سنُوحي إليك، وإيثارُ "الإلقاء" عليه لقوله تعالى: ﴿قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾، وهو القرآن العظيم المُنطوي على تكاليفَ شاقّة ثقيلة على المكلَّفين لا سيّما على الرسول صلّى الله عليه وسلّم، فإنّه عليه السلام مأمور بتحمُّلها وتحميلها للأمّة. والجملة اعتراضٌ بين الأمر وتعليله لتسهيل ما كُلِّفه عليه السلام مِن القيام.

وقيل: معنى كونه ثقيلًا أنّه رصين لرَزانة لفظه ومتانة معناه، أو ثقيلٌ على المتأمِّل فيه لافتقاره إلى مزيد تصفيةٍ للسرّ وتجريدٍ للنظر،[٤] أو ثقيلٌ في الميزان،[٥]

---

[١] الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤٧٩؛ والتبيان للعكبري، ١٢٤٧/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٦٠/٣.

[٢] س – وقيل.

[٣] كما في التبيان للعكبري، ١٢٤٧/٢.

[٤] هذان الوجهان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٦٠/٣.

[٥] مرويّ عن الحسين بن الفضل في معالم التنزيل للبغوي، ٢٥٢/٨؛ وعن الحسن في الكشّاف للزمخشري، ٤٨٠/٤.

أو على الكفّار والفُجّار، أو ثقيل تلقّيه.[١] عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «كان إذا نزل عليه الوحيُ ثقُل عليه وتربّد له جِلده».[٢] وعن عائشةَ رضي الله عنها: «رأيتُه ينزل عليه الوحيُ في اليوم الشديد البرد فيُفصِم[٣] عنه وإنّ جبينه ليَرْفَضّ[٤] عَرَقًا».[٥]

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: إنّ النفس التي تنشأ مِن مضجعها إلى العبادة، أي: تنهض، مِن "نشأ مِن مكانه" إذا نهض، أو إنّ قيام الليل، على أنّ الناشئة مصدر مِن "نشأ" كـ"العافية"، أو إنّ العبادة التي تنشأ بالليل، أي: تحدُث أوان ساعات الليل، فإنّها تحدُث واحدةً بعد واحدة، أو ساعاتها الأوَل مِن "نشأ" إذا ابتدأ.

﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا﴾ أي: هي خاصّةً أشدّ ثباتَ قدمٍ أو كلفةً، فلا بدّ مِن الاعتناء بالقيام. وقُرئ: "وِطَاءً"،[٦] أي: أشدّ مواطأة يواطئ قلبُها لسانَها إن أريد بها النفس، أو يواطئ فيها قلبُ القائم لسانَه إن أريد بها القيام أو العبادة أو الساعات، أو أشدّ مُوافقةً لِما يُراد مِن الخشوع والإخلاص.

﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ وأسدّ مقالًا وأثبَت قراءةً لحضور القلب وهدوء الأصوات.

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ۝١٠ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ۝١١ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ۝١٢ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ۝١٣ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ۝١٤﴾

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ أي: تقلّبًا وتصرّفًا في مهمّاتك واشتغالًا بشواغلك فلا تستطيع أن تتفرّغ للعبادة، فعليك بها في الليل، وهذا بيان للداعي

---

١ هذان الوجهان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٦٠/٣.

٢ مسند أحمد، ٣٤/٤ (٢١٣١)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٠/٤.

٣ يُفصِم عنه، أي: يقلع عنه. لسان العرب لابن منظور، «فصم».

٤ ارفضّ العَرَقُ: جرى وسال. لسان العرب لابن منظور، «رفض».

٥ صحيح البخاري، ٦/١ (٢)؛ صحيح مسلم، ١٨١٦/٤ (٢٣٣٣)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٠/٤.

٦ قرأ بها أبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٩٣/٢.

[٢٣٧و] الخارجي إلى / قيام الليل بعد بيان ما في نفسه مِن الداعي. وقُرئ: "سَبْخًا"،[١] أي: تفرُّق قلب بالشواغل، مستعار مِن "سَبْخ الصوفِ"، وهو نفشُه ونَشْر أجزائه.

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ ودُمْ على ذِكره تعالى ليلًا ونهارًا على أيّ وجه كان مِن تسبيح وتهليل وتحميد وصلاة وقراءةِ قرآن ودِراسة عِلم.

﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ﴾ أي: وانقطِعْ إليه بمَجامع الهمّة واستغراق العزيمة في مراقبته، وحيث لم يكن ذلك إلّا بتجريد نفسه عليه السلام عن العوائق الصادّة عن مراقبة الله تعالى وقطعِ العلائق عمّا سواه قيل: ﴿تَبْتِيلًا﴾ مكان "تبتُّلًا"، مع ما فيه مِن رعاية الفواصل.

﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ مرفوع على المدح. وقيل: على الابتداء، خبرُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.[٢] وقُرئ بالجرّ[٣] على أنّه بدل مِن ﴿رَبِّكَ﴾. وقيل: على إضمار حرف القسم، جوابه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.[٤] و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ لترتيب الأمر ومُوجَبه على اختصاص الألوهيّة والربوبيّة به تعالى.

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ ممّا لا خير فيه مِن الخرافات ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ بأن تُجانبهم وتُدارئَهم ولا تكافئهم وتَكِلَ أمورهم إلى ربّهم، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: دعني وإيّاهم وكِلْ أمرَهم إليّ فإنّي أكفيكَهم. ﴿أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ﴾ أربابَ التنعّم وهم صناديد قريش ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ زمانًا قليلًا.

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ جمع "نِكْل" وهو القيد الثقيل، والجملة تعليل للأمر، أي: إنّ لدينا أمورًا مضادّة لتنعّمهم ﴿وَجَحِيمًا ۝ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ ينشَب في الحلوق ولا يكاد يُساغ كالضّريع والزقّوم ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ ونوعًا آخر مِن العذاب مؤلِمًا لا يُقادَر قَدْره ولا يُدرك كُنهه، كلّ ذلك مُعدّ لهم ومُرصَد.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمر وعكرمة وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٤؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٠.

[٢] هذا الوجه في التبيان للعكبري، ١٢٤٧/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٦١/٣؛ واللباب لابن عادل، ٤٦٨/١٩.

[٣] قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٩٣/٢.

[٤] هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤٨١/٤-٤٨٢.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ أي: تضطرب وتتزلزل، ظرف للاستقرار / الذي تعلّق به ﴿لَدَيْنَا﴾. وقيل: متعلّق بمضمر هو صفة لـ﴿عَذَابًا﴾، أي: عذابًا واقعًا يوم ترجف.[1] ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ مع صلابتها وارتفاعها ﴿كَثِيبًا﴾ رملًا مجتمِعًا مِن "كَثَب الشيءَ" إذا جَمَعه، كأنّه فعيل بمعنى مفعول. ﴿مَّهِيلًا﴾ منثورًا مِن "هِيل هَيْلًا" إذا نُثِر وأُسِيلَ. [٢٣٧ظ]

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾ يا أهل مكّة ﴿رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ يشهد يوم القيامة بما صدَر عنكم مِن الكفر والعصيان ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ هو موسى عليه السلام. وعدمُ تعيينه لعدم دَخْله في التشبيه.

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ الذي أرسلناه إليه، ومحلّ "الكاف" النصب على أنّها صفة لمصدر محذوف، أي: إنّا أرسلنا إليكم رسولًا فعصيتموه، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾، إرسالًا كائنًا كما أرسلنا إلى فرعون رسولًا فعصاه، وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ خارج مِن التشبيه جيء به للتنبيه على أنّه سيَحيق بهؤلاء ما حاقَ بأولئك لا محالةَ. والوبيل: الثقيل الغليظ مِن قولهم: "كلأٌ وبيلٌ"، أي: وخيم لا يُستمرَأ لثِقله، والوبيل: العصا الضخمة.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ أي: كيف تقُون أنفسكم ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾ أي: بقيتُم على الكفر ﴿يَوْمًا﴾ أي: عذاب يوم ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ﴾ مِن شدّة هَوْله وفظاعةِ ما فيه مِن الدّواهي ﴿شِيبًا﴾ شُيوخًا جمع "أشيَب" إمّا حقيقةً أو تمثيلًا، وأصله أنّ الهموم والأحزان إذا تفاقمت على المرء ضعُفت قواه وأسرعَ فيه الشيب. وقد جُوّز أن يكون ذلك وصفًا لليوم بالطُّول.[2] وليس بذاك.

---

[1] هذا الوجه في التبيان للعكبري، ١٢٤٧/٢؛ واللباب لابن عادل، ٤٧١/١٩.

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٨٣/٤.

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ﴾ أي: منشق. وقُرِئ: "مُتَفَطِّر"،[١] أي: متشقِّق، والتذكير لإجرائه على موصوف مذكّر، أي: شيءٌ منفطِر، عُبّر عنها بذلك للتنبيه على أنّه تبدّلت حقيقتها وزال عنها اسمها ورسمها ولم يبقَ منها إلّا ما يُعبَّر عنه بالشيء. وقيل: لتأويل السماء بالسَّقف. / وقيل: هو مِن باب النسَب، أي: ذات انفطار.[٢] [٢٣٨و]

و"الباء" في قوله تعالى: ﴿بِهِۦ﴾ مثلُها في "فطرْتُ العودَ بالقَدوم" ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ الضمير لله عزّ وجلّ، والمصدر مضاف إلى فاعله، أو لـ"اليوم" وهو مضاف إلى مفعوله.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ إشارة إلى الآيات المنطوية على القوارع المذكورة. ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ موعظة ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ بالتقرّب إليه بالإيمان والطاعة، فإنّه المنهاج المُوصِل إلى مرضاته.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ أي: أقلّ منهما، استُعير له الأدنى لِما أنّ المسافة بين الشيئين إذا دنَت قلّ ما بينهما مِن الأحياز. ﴿وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ بالنصب عطفًا على ﴿أَدْنَىٰ﴾. وقُرِئا بالجرّ[٣] عطفًا على ﴿ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾. ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ أي: ويقوم معك طائفة مِن أصحابك.

---

[١] قراءة شاذّة، غير منسوبة. **الكشّاف** للزمخشري، ٤٨٣/٤.

[٢] القولان في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٨٣/٤.

[٣] قرأ بها نافع وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر. **النشر** لابن الجزري، ٣٩٣/٢.

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ وحدَه لا يقدِر على تقديرهما أحد أصلًا، فإنّ تقديم الاسم الجليل مبتدأ وبناءً يقدّر عليه موجِبٌ للاختصاص قطعًا، كما يعرِب عنه قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ أي: علم أنّ الشأن لن تقدروا على تقدير الأوقات، ولن تستطيعوا ضبط الساعات أبدًا. ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ بالترخيص في ترك القيام المقدور ورفع التبِعة عنكم في تَرْكه.

﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ فصلّوا ما تيسّر لكم مِن صلاة الليل، عُبّر عن الصلاة بالقراءة، كما عُبّر عنها بسائر أركانها. قيل: كان التهجّد واجبًا على التخيير المذكور فعسُر عليهم القيام به فنُسخ به، ثمّ نُسخ هذا بالصلوات الخمس. وقيل: هي قراءة القرآن بعينها، قالوا: مَن قرأ مائة آية مِن القرآن في ليلة لم يحاجّه. وقيل: مَن قرأ مائة آية كُتب مِن القانتين. وقيل: خمسين آيةً.[1]

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ﴾ استئناف مبيّن لحكمة أخرى داعية إلى الترخيص والتخفيف. ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يُسافرون فيها للتجارة ﴿يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ وهو الربح، / وقد عُمّم ابتغاءُ الفضل لتحصيل العِلم. [٢٣٨ظ] ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وإذا كان الأمر كما ذُكر وتعاضدت الدواعي إلى الترخيص ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾ مِن غير تحمُّل المشاقّ.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: المفروضة ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبة. وقيل: هي زكاة الفطر؛ إذ لم يكن بمكّة زكاة، ومَن فسّرها بالزكاة المفروضة جعَل آخرَ السورة مدنيًا.[2] ﴿وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ أريدَ به الإنفاقات في سبيل الخيرات أو أداءُ الزكاة على أحسن الوجوه وأنفعِها للفقراء.

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ أيِّ خير كان ممّا ذُكر وما لم يُذكَر ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗا﴾ مِن الذي تُؤخِّرونه إلى الوصيّة عند الموت، و﴿خَيۡرٗا﴾ ثاني مفعولَي ﴿تَجِدُوا﴾، وهو تأكيد أو فَصْل وإن لم يقع بين معرفتين،

---

١ هذه الأقوال الأربعة في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨٤.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨٥.

فإنّ "أَفْعَلَ مِنْ" في حُكم المعرفة، ولذلك يمتنع مِن حرف التعريف. وقُرئ: "هُوَ خَيْرٌ"[١] على الابتداء والخبر.

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ في كافّة أحوالكم، فإنّ الإنسان قلّما يخلو مِن تفريط، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة المُزَّمِّل رفع الله عنه العُسر في الدنيا والآخرة».[٢]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السّمّال والبصري والعَنبري والأديب عن أبي بكر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٤؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٥٠.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٦٨/٢٧ (المزمل، ١/٧٣)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٧١/٤ (المزمل، ١/٧٣)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٥/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة المُدَّثِّر

مكيّة، وهي ستّ وخمسون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ أي: المُتدثِّر، وهو لابسُ الدِّثار وهو ما يلبس فوق الشِّعار الذي يلي الجسد. قيل: هي أوّل سورة نزلت.[1] رُوي عن جابر رضي الله عنه عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «كنتُ على جبل حِراءٍ فنُوديت: يا محمّد إنّك رسول الله، فنظرتُ عن يميني ويساري فلم أرَ شيئًا، فنظرت فوقي فإذا به قاعد على عرش بين السماء والأرض، يعني المَلَكَ الذي ناداه، فرُعبت ورجعتُ إلى خديجةَ، فقلت: دثِّروني دثِّروني، فنزل جبريلُ وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾».[2]

وعن الزُّهري: إنّ أوّل ما نزل سورة اقرأ إلى قوله تعالى: ﴿مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق، ٥/٩٦]، فحزن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وجعل يعلو شواهق الجبال، فأتاه جبريلُ عليه السلام، وقال: «إنّك نبيّ الله»، فرجع إلى / خديجة، فقال: «دثِّروني وصبّوا عليَّ ماءً باردًا»، فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾.[3] [٢٣٩و]

وقيل: سَمِع مِن قريش ما كرِهه فاغتمّ، فتغطّى بثوبه متفكِّرًا كما يفعل المغموم، فأُمر ألّا يدَع إنذارهم وإن أسمعوه وآذوه.[4] وقيل: كان نائمًا متدثِّرًا.

---

[1] انظر: جامع البيان للطبري، ٤٠١/٢٣-٤٠٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٨٦/٤.

[2] بلفظ قريب في صحيح البخاري، ١٦١/٦ (٤٩٢٢)؛ وصحيح مسلم، ١٤٤/١ (٢٥٧)؛ وجامع البيان للطبري، ٤٠٠/٢٣-٤٠١؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٨٦/٤.

[3] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٤٠٢/٢٣-٤٠٣. وبمعناه في مسند أحمد، ٣٨٤/٢٣ (١٥٢١٤)؛ وصحيح البخاري، ١٦١/٦ (٤٩٢٢)؛ وصحيح مسلم، ١٤٤/١ (٢٥٧).

[4] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٨٦/٤.

وقيل: المراد المتدثِّر بلباس النبوّة والمعارف الإلهيّة.[١] وقُرئ: "المُدَثَّرُ"[٢] على صيغة اسم المفعول مِن "دثَّره"، أي: الذي دُثِّر هذا الأمرَ العظيم وعُصِب به. وفي حرف أبي المنذر: "يَا أَيُّهَا المُتَدَثِّرُ"[٣] على الأصل.

﴿قُمْ﴾ أي: مِن مضجعك أو قمْ قيامَ عزم وتصميم ﴿فَأَنذِرْ﴾ أي: افعل الإنذار وأحدِثه. وقيل: أنذر قومك، كقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء، ٢١٤/٢٦]، أو جميع الناس، حسبما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ، ٢٨/٣٤].[٤]

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ واختصّ ربَّك بالتكبير، وهو وصفه تعالى بالكبرياء اعتقادًا وقولًا. ويروى أنّه لمّا قال رسول الله: «الله أكبر»، فكبَّرت خديجةُ وفرحتْ وأيقنتْ أنّه الوحيُ.[٥] وقد يُحمَل على تكبير الصّلاة، و"الفاء" لمعنى الشَّرط، كأنّه قيل: ما كان، أي: أيّ شيء حدثَ فلا تدَع تكبيره،[٦] أو للدلالة على أنّ المقصود الأَوّلي مِن الأمر بالقيام أن يكبِّر ربّه وينزِّهه مِن الشِّرك، فإنّ أوّل ما يجب معرفةُ الصانع جلّ جلاله، ثمّ تنزيهه عمّا لا يليق بجنابه.[٧]

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ ممّا ليس بطاهر فإنّه واجب في الصلاة وأَولى وأحبّ في غيرها، وذلك بصيانتها وحفظها عن النجاسات وغَسْلها بعد تلطُّخها، وبتقصيرها أيضًا فإنّ طُولها يؤدِّي إلى جرّ الذُّيول على القاذورات، وهو أوَّل ما أُمر به عليه السلام مِن رَفْض العادات المذمومة. وقيل: هو أمر بتطهير النفس ممّا يُستقذر مِن الأفعال ويُستهجن مِن الأحوال، يقال: "فلان طاهرُ الذيل والأردان"[٨] / [٢٣٩ظ] إذا وصفوه بالنقاء مِن المعائب ومدانسِ الأخلاق.[٩]

---

[١] القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٦٤/٣.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩١.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩١؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٥١.

[٤] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٦٤/٣.

[٥] بلفظ قريب في التفسير البسيط للواحدي، ٣٩٥/٢٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٨٦/٤؛ واللباب لابن عادل، ٤٩٤/١٩.

[٦] هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤٨٦/٤.

[٧] هذا الوجه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٦٥/٣.

[٨] الأردان جمع رُدْن: وهو مقدَّم كمّ القميص. لسان العرب لابن منظور، «ردن».

[٩] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٨٧/٤.

﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ أي: واهجر العذاب بالثبات على هَجْر ما يؤدِّي إليه مِن المآثم. وقُرئ بكسر "الراء"،[١] وهما لغتان كالذُّكر والذِّكر.

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ ولا تُعطِ مُستكثِرًا، أي: رائيًا لِما تعطيه كثيرًا، أو طالبًا للكثير، على أنّه نهيٌ عن الاستغزار، وهو أن يهَب شيئًا وهو يطمع أن يتعوَّض مِن الموهوب له أكثر ممّا أعطاه، وهو جائز، ومنه الحديث: «المُستغزِر يُثاب مِن هِبته».[٢] فالنهي إمّا للتحريم وهو خاصّ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ لأنّ الله تعالى اختار له أشرفَ الأخلاق وأحسنَ الآداب، أو للتنزيه للكلّ.

وقرئ: "تَسْتَكْثِرْ"[٣] بالسكون اعتبارًا بحال الوقف، أو إبدالًا مِن ﴿تَمْنُن﴾، كأنّه قيل: ولا تمننْ ولا تستكثرْ، على أنّه مِن "المَنّ" الّذي في قوله تعالى: ﴿مَنًّا وَلَآ أَذًى﴾ [البقرة، ٢/٢٦٢]؛ لأنَّ "مَنَّ يَمُنّ بما يعطي": يستكثره ويعتدّ به. وقُرئ بالنصب[٤] بإضمار "أن" مع إبقاء عملها، كقول مَن قال:

ألَا أيُّهذا الزَّاجري أحضُرَ الوغى[٥]

وقد قُرئ بإثباتها.[٦] ويجوز في قراءة الرفع أن تُحذف "أن" ويُبطَل عملها، كما يروى "أحضرُ الوغى" بالرفع.[٧]

﴿وَلِرَبِّكَ﴾ أي: لوجهه تعالى أو لأمره ﴿فَٱصْبِرْ﴾ فاستعمل الصبر. وقيل: على أذِيّة المشركين. وقيل: على أداء الفرائض.[٨]

---

[١] قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو والكسائي وحمزة وخلف وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩٣.

[٢] المصنَّف لابن أبي شيبة، ١٢/١٤٦ (٢٢١٢٧)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨٧. وانظر: تخريج أحاديث الكشّاف للزَّيلَعي، ٣/٥٨.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٤؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩١.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩١.

[٥] وفي هامش م: تمامه:

وأن أشهد اللذّاتِ هل أنتَ مُخلدي

والبيتِ مِن معلَّقة طرفة بن العبد، وهو في ديوانه، ص ٤٥؛ وهو له في كتاب سيبويه، ٣/٩٩، ١٠٠؛ وجامع البيان للطبري، ٢٤/٤٢٣ (البلد، ٩٠/١٤)؛ وهو بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨٧.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٤.

[٧] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨٧؛ وانظر الكلام على وجهي النصب والرفع في بيت طرفة في شرح القصائد السبع لابن الأنباري، ص ١٩٣.

[٨] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨٧.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ أي: نُفخ في الصُّور، وهو فاعول مِن النَّقْر بمعنى التصويت، وأصله القَرْع الذي هو سبب الصَّوت، و"الفاء" للسببيّة، كأنّه قيل: اصبر على أذاهم فبين أيديهم يوم هائل يلقَون فيه عاقبة أذاهم وتلقى عاقبة صبرك عليه، والعامل في ﴿إِذَا﴾ ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإنّ معناه عَسُر الأمر على الكافرين، / [٢٤٠و] وذلك إشارة إلى وقت النَّقْر، وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العَهْد بالمُشار إليه للإيذان ببُعد منزلته في الهَول والفظاعة، ومحلُّه الرفع على الابتداء، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل منه مبنيّ على الفتح لإضافته إلى غير متمكِّن، والخبر ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾.

وقيل: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف للخبر، إذ التقدير: فذلك الوقت وقوع يوم عسير، و﴿عَلَى﴾ متعلِّقة بـ﴿عَسِيرٌ﴾.[١] وقيل: بمحذوف هو صفة لـ﴿عَسِيرٌ﴾ أو حال مِن المستكِنّ فيه،[٢] وقوله تعالى: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ تأكيد لعُسره عليهم مُشعِر بيُسره على المؤمنين.

واختُلف في أنّ المراد به يوم النفخة الأولى أو الثانية، والحقّ أنّها الثانية؛ إذ هي التي يختصّ عُسرها بالكافرين، وأمّا النفخة الأولى فحُكمها الذي هو الإصعاق يعمّ البَرّ والفاجر، على أنّها مختصّة بمَن كان حيًّا عند وقوعها، وقد جاء في الأخبار أنّ في الصُّور ثُقَبًا بعدد الأرواح كلّها، وأنّها تُجمع في تلك الثُّقَب في النفخة الثانية فتخرج عند النفخ مِن كلّ ثقبة روح إلى الجسد الذي نُزعت منه فيعود الجسد حيًّا بإذن الله عزّ وجلّ.[٣]

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨٨.

٢ القول في التبيان للعكبري، ٢/١٢٥٠.

٣ الكلام في اللباب لابن عادل، ١٩/٥٠٥.

﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾ حال إمّا مِن "الياء"، أي: ذرني وحدي معه، فإنّي أكفيكه في الانتقام منه، أو مِن "التاء"، أي: خلقتُه وحدي لم يشرَكني في خَلْقه أحد، أو مِن العائد المحذوف، أي: ومَن خلقتُه وحيدًا فريدًا لا مالَ له ولا ولد. وقيل: نزلت في الوليد بن المُغيرة المخزومي، وكان يلقَّب في قومه بالوحيد، فهو تهكُّم به وبلقبه، وصَرْف له عن الغرض الذي يؤمُّونه مِن مدحه إلى جهة ذمِّه بكونه وحيدًا مِن المال والولد،[1] أو وحيدًا مِن أبيه؛ لأنّه كان زنيمًا كما مرّ، أو وحيدًا في الشَّرارة.[2]

﴿وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا﴾ مبسوطًا كثيرًا أو مُمَدًّا بالنماء مِن "مدّ النهر ومدّه نهر آخر". قيل: كان له الضَّرع والزَّرع والتجارة.[3] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: / هو ما كان له بين مكّة والطائف مِن صنوف الأموال.[4] وقيل: كان له بالطائف بستان لا تنقطع ثماره صيفًا وشتاءً.[5] وقال ابن عبّاس ومجاهدٌ وسعيد بن جبير: كان له ألف دينار.[6] وقال قتادةُ: ستّة آلاف دينار.[7] وقال سفيان الثوري: أربعة آلاف دينار.[8] وقال الثوري أيضًا: ألفُ ألفِ دينار.[9] [٢٤٠ظ]

﴿وَبَنِينَ شُهُودٗا﴾ حضورًا معه بمكّة يتمتّع بمشاهدتهم لا يفارقونه للتصرّف في عمل أو تجارة لكونهم مَكفيّين لوُفور نِعَمهم وكثرةِ خَدَمهم، أو حضورًا في الأندية والمحافل لوجاهتهم واعتبارهم. قيل: كان له عشرة بنين.[10] وقيل: ثلاثةَ عشرَ. وقيل: سبعة، كلّهم رجال: الوليد بن الوليد[11] وخالد

---

[1] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨٨.
[2] هذان الوجهان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٦٦.
[3] القول في معالم التنزيل للبغوي، ٨/٢٦٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨٨.
[4] بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٨/٢٦٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨٨.
[5] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨٨.
[6] جامع البيان للطبري، ٢٣/٤٢٢؛ معالم التنزيل للبغوي، ٨/٢٦٦؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨٨.
[7] اللباب لابن عادل، ١٩/٥٠٨، وعن قتادة أنّه أربعة آلاف دينار في معالم التنزيل للبغوي، ٨/٢٦٦.
[8] جامع البيان للطبري، ٢٣/٤٢٣؛
[9] معالم التنزيل للبغوي، ٨/٢٦٦.
[10] مَرويّ عن مجاهد في جامع البيان للطبري، ٢٣/٤٢٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨/٢٦٧؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٤٨٨.
[11] هو الوليد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم (ت. نحو ٧هـ/ نحو ٦٢٩م). >

وعمارةُ[١] وهشام[٢] والعاص والقيس وعبد شمس، أسلمَ منهم ثلاثة: خالدٌ وهشامٌ وعمارةُ.[٣]

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾ وبسطتُ له الرِّياسة والجاه العريض حتّى لُقِّب ريحانةَ قريش.

﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ﴾ على ما أوتيَه، وهو استبعاد واستنكار لطمعه وحرصه، إمّا لأنّه لا مَزيد على ما أوتيَ سَعةً وكثرةً، أو لأنّه منافٍ لِما هو عليه مِن كفران النِّعم ومعاندة المنعِم. وقيل: إنّه كان يقول: إن كان محمّد صادقًا فما خُلقت الجنّة إلّا لي.[٤]

﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ وزَجْر له عن طمعه الفارغ وقطعٌ لرجائه الخائب، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا﴾ تعليل لذلك على وجه الاستئناف التحقيقي، فإنّ معاندة آياتِ المنعِم مع وضوحها وكفرانَ نعمتِه مع سُبوغها ممّا يوجِب حرمانه بالكلّيّة، وإنّما أوتيَ ما أوتيَ استدراجًا. قيل: ما زال بعد نزول هذه الآية في نقصان مِن ماله حتّى هَلَك.[٥]

﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ سأُغشِّيه بدلَ ما يطمعه مِن الزيادة أو الجنّة عقبةً شاقّةَ المصعَد، وهو مَثَل لِما يُلقّى مِن العذاب الصعب الذي لا يُطاق. وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «يُكلَّف أن يصعَد عقبةً في النار، كلّما وَضَع يده عليها ذابت،

< مِن أشراف قريش في الجاهليّة ومِن أجوادهم. وهو أخو خالد بن الوليد رضي الله عنه، أدرك الإسلام وثبت على وثنية قومه إلى أن أُسر في وقعة بدر ففداه أخواه هشام وخالد وانصرفا به فأسلم. فحبسه إخوته بمكّة، فأفلت ولحق بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وشهد عمرة القضيّة، ومات بالمدينة. انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ١٥٥٨/٤؛ **والإصابة** لابن حجر، ١٣٤٦؛ **والأعلام** للزركلي، ١٢٢/٨.

١ هو عمارة بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، قيل: إنّه أسلم مع إخوته خالد وهشام، وقيل: مات كافرًا؛ لأنّ قريشًا أرسلوه إلى النجاشي وجرت معه قصّة فأُصيب بعقله وهام مع الوحش، وهو ممّن دعا عليه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن قريش لمّا وضعوا على ظهره الجزور وهو يصلّي. انظر: **الإصابة** لابن حجر، ٢٨٣/٥.

٢ هو هشام بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، أخو خالد رضي الله عنه، وهو مِن المؤلّفة قلوبهم، انظر: **الاستيعاب** لابن عبد البرّ، ١٥٤١/٤؛ **والإصابة** لابن حجر، ٥٤٤/٦.

٣ القولان في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٨٨/٤.

٤ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٨٩/٤.

٥ القول في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٦٦/٣.

فإذا رفعها عادت، وإذا وَضَع رجله ذابت، / فإذا رفعها عادت».[١] وعنه صلّى [٢٤١و] الله عليه وسلّم: «الصَّعود: جبل مِن نار يُصعَد فيه سبعين خريفًا، ثمّ يُهوى فيه كذلك أبدًا».[٢]

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ تعليل للوعيد واستحقاقه له، أو بيان لعناده لآياته تعالى، أي: فكّر ماذا يقول في شأن القرآن وقدّر في نفسه ما يقوله.

﴿فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ﴾ تعجيب مِن تقديره وإصابتِه فيه الغرضَ الذي كان ينتحيه قريشٌ قاتلهم الله، أو ثناءٌ عليه بطريق الاستهزاء به، أو حكايةٌ لِما كرّروه مِن قولهم: "قُتل كيف قدَّر" تهكّمًا بهم وبإعجابهم بتقديره واستعظامهم لقوله، ومعنى قولهم: "قتله الله ما أشجَعَه!" و"أخزاه الله ما أشعَرَه!" الإشعارُ بأنّه قد بلغ مِن الشجاعة والشِّعر مبلغًا حقيقًا بأن يدعوَ عليه حاسده بذلك.

رُوي أنّ الوليد قال لبني مخزوم: واللهِ لقد سمعتُ مِن محمّد آنفًا كلامًا ما هو مِن كلام الإنس ولا مِن كلام الجنّ، إنّ له لَحلاوةً وإنّ عليه لَطُلاوةً، وإنّ أعلاه لمُثمِر، وإنّ أسفله لمُغدِق، وإنّه يعلو وما يُعلى. فقالت قريشٌ: صبأ واللهِ الوليدُ، واللهِ لَتصبأنّ قريشٌ كلّهم، فقال ابن أخيه أبو جهل: أنا أكفيكُموه، فقعد عنده حزينًا، وكلّمه بما أَحْمأه، فقام فأتاهم فقال: تزعمون أنّ محمّدًا مجنون! فهل رأيتموه يخنق؟ وتقولون: إنّه كاهن! فهل رأيتموه يتكهّن؟ وتزعمون أنّه شاعر! فهل رأيتموه يتعاطى شعرًا قطّ؟ وتزعمون أنّه كذّاب! فهل جرّبتُم عليه شيئًا مِن الكذب؟ فقالوا في كلّ ذلك: اللّٰهمّ لا، ثمّ قالوا: فما هو؟ ففكّر فقال: ما هو إلّا ساحر، أما رأيتموه يفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، وما الذي يقوله إلّا سِحر يأثُره عن أهل بابِل، فارتجّ النادي فرحًا وتفرّقوا معجَبين بقوله متعجِّبين منه.[٣]

---

١ جامع البيان للطبري، ٤٢٧/٢٣؛ المعجم الأوسط للطبراني، ٣٦٦/٥ (٥٥٧٣)؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٧/٨-٢٦٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٩/٤.

٢ مسند أحمد، ٢٤٠/١٨ (١١٧١٢)؛ سنن الترمذي، ٧٠٣/٤ (٢٥٧٦)؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٦٧/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٨٩/٤.

٣ الخبر بلفظ قريب في أسباب النزول للواحدي، ص ٤٦٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٨٩/٤-٤٩٠.

﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تكرير للمبالغة، و﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على أنّ الثانية أبلغُ مِن الأولى، / وفيما بعدُ على أصلها مِن التراخي الزماني. [٢٤١ظ]

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي: في القرآن، مرّةً بعد مرّة.

﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ قطّب وجهه لِما لم يجد فيه مطعنًا، ولم يدرِ ماذا يقول، وقيل: نظَر في وجوه الناس ثمّ قطّب وجهه. وقيل: نظَر إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثمّ قطّب في وجهه.[1] ﴿وَبَسَرَ﴾ إتباع لـ﴿عَبَسَ﴾.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الحقّ أو عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ عن اتّباعه ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي: يُروى ويُتعلّم، و"الفاء" للدلالة على أنّ هذه الكلمة لمّا خطرت بباله تفوّه بها مِن غير تَلَعْثُم وتلبُّث.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ تأكيد لِما قبله، ولذلك أُخليَ عن العاطف.

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ بدل مِن ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾.[2]

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ أي: أيّ شيء أعلمَك ما سقر، على أنّ ﴿مَا﴾ الأولى مبتدأ و﴿أَدْرَىٰكَ﴾ خبره و﴿مَا﴾ الثانية خبر؛ لأنّها المُفيدة لِما قُصد إفادته مِن التهويل والتفظيع، و﴿سَقَرُ﴾ مبتدأ، أي: أيّ شيء هي في وصفها؟ لِما مرّ مرارًا مِن أنّ ﴿مَا﴾[3] قد يُطلب بها الوصف، وإن كان الغالب أن يُطلب بها الاسم والحقيقة.

وقوله تعالى: ﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ﴾ بيان لوصفها وحالها وإنجازٌ للوعد الضمني الذي يُلوّح به ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾. وقيل: حال مِن ﴿سَقَرُ﴾.[4] وليس بذاك، أي: لا تُبقي شيئًا يُلقى فيها إلّا أهلكَتْه، وإذا هلَك لم تذره هالكًا حتّى يُعاد، أو لا تُبقي على شيء ولا تدَعه مِن الهلاك؛ بل كلّ ما يُطرَح فيها هالك لا محالةَ.

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ مُغَيِّرة لأعالي الجِلد مُسَوِّدة لها. قيل: تلفَح الجِلد لفحةً فتدعه أشدّ سوادًا مِن الليل.[5] وقيل: تلوح للناس، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا

---

[1] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٩٠.
[2] في الآية السابعة عشرة مِن هذه السورة.
[3] وفي هامش م: أي لفظها.
[4] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٦٧.
[5] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٩٠.

عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر، ٧/١٠٢].[١] وقُرئ: "لَوَّاحَةً"[٢] بالنصب على الاختصاص للتهويل.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي: مَلَكًا أو صِنفًا أو صَفًّا أو نَقيبًا مِن الملائكة يَلُون أمرها ويتسلّطون على أهلها. وقُرئ بسكون عين "عَشْرَ"[٣] حذرًا مِن توالي الحركات فيما هو في حُكم اسم واحد، وقُرئ: "تَسْعَةَ أَعْشُرٍ"[٤] / جَمْع "عَشير" [٢٤٢و] مثل "يمين" و"أيمُن".

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ أي: المدبِّرين لأمرها القائمين بتعذيب أهلها ﴿إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ ليُخالفوا جنس المعذَّبين فلا يرِقّوا لهم ولا يستَرْوِحوا إليهم، ولأنّهم أقوى الخَلْق وأقوَمُهم بحقّ الله عزّ وجلّ وبالغضب له تعالى وأشدُّهم[٥] بأسًا.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لأحدهم مثلُ قوّة الثقلين، يسوق أحدهم الأمّة وعلى رقبته جبل، فيرمي بهم في النار ويرمي بالجبل عليهم».[٦] ورُوي أنّه لمّا نزل ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال: أبو جهل لقريشٍ أيعجز كلّ عشرة منكم أن يبطِشوا برجل منهم، فقال أبو الأشَدّ بن أسيد بن كلدة الجمحي، وكان شديد البطش: أنا أكفيكم سبعةَ عشرَ فاكفوني أنتم اثنين، فنزلت.[٧] أي: ما جعلناهم رجالًا مِن جنسكم.

---

[١] مرويّ عن الحسن وأبي رزين في جامع البيان للطبري، ٤٣٤/٢٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٧٠/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٩٠/٤.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي معاذ وابن أبي عبلة وزيد بن عليّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٥؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٥٣.

[٣] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢٧٩/٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن أنس بن مالك. والمغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٥٤.

[٥] س: وأشدُّ.

[٦] لم أجِده في مظانّه. وهو في الكشف والبيان للثعلبي، ٦٠/٢٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٩١/٤.

[٧] بلفظ قريب في تفسير مقاتل بن سليمان، ٤٩٧/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٩١/٤.

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: ما جعلنا عددهم إلّا العددَ الذي تسبَّب لافتتانهم وهو التسعةَ عشرَ، فعُبّر بالأثر عن المؤثِّر تنبيهًا على التلازم بينهما، وليس المراد مجرَّد جَعْلِ عددهم ذلك العددَ المُعيَّنَ في نفس الأمر؛ بل جَعْلِه في القرآن أيضًا كذلك، وهو الحكم بأنّ عليها تسعةَ عشرَ؛ إذ بذلك يتحقَّق افتتانهم باستقلالهم له واستبعادِهم لتولّي هذا العدد القليل لتعذيب أكثر الثقلين واستهزائهم به حسبما ذُكر، وعليه يدور ما سيأتي مِن استيقان أهل الكتاب وازدياد المؤمنين إيمانًا.

قالوا: المخصِّص لهذا العدد أنّ اختلاف النفوس البشريّة في النظر والعمل بسبب القوى الحيوانيّة الاثنتي عشرةَ والطبيعيّة السبع، أو أن جهنّم سبع درَكاتٍ ستٌّ منها لأصناف الكفَرة، كلّ صِنف يعذَّب بترك الاعتقاد والإقرار والعمل أنواعًا مِن العذاب يُناسبها، وعلى كلّ نوع مَلَك أو صِنف أو صفّ يتولّاه، وواحدة لعُصاة الأمّة يُعذَّبون فيها بترك العمل نوعًا يُناسبه ويتولّاه واحد، أو أنّ الساعات أربع وعشرون، خمسة منها مصروفة للصلوات الخمس، فيبقى تسعةَ عشرَ قد تُصرَف إلى ما يؤاخَذ به بأنواع مِن العذاب يتولّاها الزبانية.[١]

[٢٤٢ظ] / ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ متعلِّق بالجَعْل على المعنى المذكور، أي: ليكتسبوا اليقينَ بنبوّته صلّى الله عليه وسلّم وصِدق القرآن لِما شاهدوا ما فيه موافقًا لِما في كتابهم. ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا﴾ أي: يزداد إيمانهم كيفيّةً بما رأوا مِن تسليم أهل الكتاب وتصديقهم أنّه كذلك، أو كمّيّةً بانضمام إيمانهم بذلك إلى إيمانهم بسائر ما أُنزِل.

﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تأكيد لِما قبله مِن الاستيقان وازدياد الإيمان، ونفيٌ لِما قد يعتري المستيقِن مِن شبهة ما، وإنّما لم يُنظَم ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في سِلك أهل الكتاب في نفي الارتياب، حيث لم يقل: "ولا يرتابوا" للتنبيه على تبايُن النفيين حالًا، فإنّ انتفاء الارتياب مِن أهل الكتاب مقارِن لِما يُنافيه مِن الجحود، ومِن المؤمنين مقارِن لِما يقتضيه مِن الإيمان، وكم بينهما!

---

[١] الكلام بلفظ قريب في اللباب لابن عادل، ٥٢١/١٩.

والتعبيرُ عنهم باسم الفاعل بعد ذِكرهم بالموصول والصلة الفعليّة المنبِئة عن الحدوث للإيذان[١] بثباتهم على الإيمان بعد ازدياده ورسوخِهم في ذلك.

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شكّ أو نِفاق فيكون إخبارًا بما سيكون في المدينة بعد الهجرة ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المصرُّون على التكذيب: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ أي: أيّ شيء أراد بهذا العدد المستغرَب استغراب المَثَل. وقيل: لمّا استبعدوه حسِبوا أنّه مَثَل مضروب.[٢] وإفرادُ قولهم هذا بالتعليل مع كونه مِن باب فتنتهم للإشعار باستقلاله في الشَّناعة.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما قبله مِن معنى الإضلال والهداية، ومحلّ "الكاف" في الأصل النصب على أنّها صفة لمصدر محذوف، وأصل التقدير: يضلّ الله مَن يشاء. ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ إضلالًا وهدايةً كائنَين مِثلَ ما ذُكر مِن الإضلال والهداية، فحُذف المصدر وأقيم وصفه مُقامه، ثمّ قُدّم على الفعل لإفادة القصر، / فصار النظم: مِثل ذلك الإضلال وتلك الهداية يضلّ الله مَن يشاء إضلاله لصَرْف اختياره إلى جانب الضلال عند مشاهدته لآيات الله الناطقة بالحقّ، ويهدي مَن يشاء هدايته لصَرْف اختياره عن مشاهدة تلك الآيات إلى جانب[٣] الهدى لا إضلالًا وهدايةً أدنى منها. [٢٤٣و]

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ أي: جُموع خَلْقه التي مِن جملتها الملائكة المذكورون ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا سبيلَ لأحد إلى حصر الممكِنات والوقوفِ على حقائقها وصفاتها ولو إجمالًا، فضلًا عن الاطلاع على تفاصيل أحوالها مِن كمّ وكيفٍ ونسبةٍ.

﴿وَمَا هِيَ﴾ أي: سَقر أو عدّة خزَنتها أو الآيات الناطقة بأحوالها ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ إلّا تذكرةً لهم.

﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝٣٢ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ۝٣٤ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝٣٧﴾

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لمَن أنكرها، أو إنكارٌ ونفيٌ لأن يكون لهم تذكُّر.

---

١ السياق: والتعبيرُ... للإيذان...

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٦٨/٣.

٣ س: جناب.

﴿وَٱلْقَمَرِ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ وقُرئ: "إِذَا دَبَرَ"[١] بمعنى "أدبَر"، كـ"قَبَل" بمعنى "أقبَل"، ومنه قولهم: "صاروا كأمسِ الدابرِ"، قيل: هو مِن "دَبَر الليلُ النهارَ" إذا خلَفه.[٢]

﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ أي: أضاء وانكشف.

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ جواب للقسم، أو تعليل لـ﴿كَلَّا﴾ والقسمُ معترِض للتوكيد، و﴿ٱلْكُبَرِ﴾ جَمْع "الكُبرى" جُعلت ألف التأنيث كتائها فكما جُمعت "فُعْلَة" على "فُعَل" جُمعت "فُعْلى" عليها، ونظيرُها "القواصع" في جَمْع "القاصِعاء" كأنّها جَمْع "قاصِعة"، أي: لَإحدى البلايا أو لَإحدى الدّواهي الكُبَر، على معنى أنّ البلايا الكُبَر أو الدواهي الكُبَر كثيرة، وهذه واحدة في العِظَم لا نظيرةَ لها.[٣]

﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ تمييز، أي: لَإحدى الكُبَر إنذارًا، أو حالٌ ممّا دلّت عليه الجملة، أي: كبُرت مُنذِرةً. وقُرئ: "نَذِيْرٌ"[٤] بالرفع على أنّه خبر بعد خبر لـ﴿إِنَّ﴾، أو لمبتدأ محذوف.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ بدل مِن ﴿لِّلْبَشَرِ﴾ أي: نذيرًا لمَن شاء منكم أن يسبق إلى الخير فيهديه الله تعالى، أو لم يشأ ذلك فيضلّه. وقيل: ﴿لِمَن شَآءَ﴾ خبرٌ، و﴿أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ مبتدأ، فيكون في معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف، ١٨/٢٩].[٥]

﴿كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾

---

[١] قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩٣.

[٢] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٩٢.

[٣] الكلام بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٩٢-٤٩٣.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٣.

[٥] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٩٣.

﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ مرهونة عند الله تعالى / بكَسْبها، والرهينة: [٢٤٣ظ] اسم بمعنى "الرَّهْن"، كـ"الشَّتيمة" بمعنى "الشَّتم"، لا صفة، وإلّا لقيل: "رهين"؛ لأنّ فعيلًا بمعنى مفعول لا يدخله "التاء".

﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ فإنّهم فاكُّون رِقابهم بما أحسَنوا مِن أعمالهم، كما يَفكّ الراهن رهنَه بأداء الدَّين. وقيل: هم الملائكة.[١] وقيل: الأطفال.[٢] وقيل: هم الذين سبقت لهم مِن الله تعالى الحسنى.[٣] وقيل: الذين كانوا عن يمين آدمَ عليه السلام يوم الميثاق. وقيل: الذين يعطون كتبهم بأيمانهم.[٤] ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ لا يُكتنه كُنهها ولا يُدرَك وصفها. وهو خبر لمبتدأ محذوف، والجملة استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ ممّا قبله مِن استثناء ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾، كأنّه قيل: ما بالهم فقيل: هم في جنات. وقيل: حال مِن ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾. وقيل: مِن ضميرهم في قوله تعالى ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾.[٥] وقيل: ظرف للتساؤل.[٦]

وليس المراد بتساؤلهم أن يسأل بعضهم بعضًا على أن يكون كلّ واحد منهم سائلًا ومسئولًا معًا؛ بل صدور السؤال عنهم مجرّدًا عن وقوعه عليهم، فإنّ صيغة "التفاعل" وإن وُضعت في الأصل للدلالة على صدور الفعل عن المتعدِّد ووقوعه عليه معًا بحيث يصير كلّ واحد مِن ذلك فاعلًا ومفعولًا معًا، كما في قولك: "تراءى القوم"، أي: رأى كلّ واحد منهم الآخر، لكنّها قد تُجرّد عن المعنى الثاني، ويُقصَد بها الدلالة على الأوّل فقط، فيُذكر للفعل حينئذ مفعول، كما في قولك: "تراءوا الهلالَ"، فمعنى: يتساءلون ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: يسألونهم عن أحوالهم، وقد حُذف المسئول لكونه عينَ المسئول عنه.

---

١ مرويّ عن ابن عبّاس في جامع البيان للطبري، ٤٥٠/٢٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٧٢/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٩٣/٤.

٢ مرويّ عن عليّ بن أبي طالب في جامع البيان للطبري، ٤٤٩/٢٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٧٢/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٩٣/٤.

٣ مرويّ عن الضحّاك في اللباب لابن عادل، ٥٣٣/١٩.

٤ كلاهما عن مقاتل في معالم التنزيل للبغوي، ٢٧٣/٨.

٥ الوجهان في التبيان للعكبري، ١٢٥١/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٦٩/٣.

٦ هذا الوجه مذكور مع ما قبله في اللباب لابن عادل، ٥٣٣/١٩.

وقوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ مقدَّر بقول هو حال مِن فاعل ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾، أي: يسألونهم قائلين: أيُّ شيء أدخلَكم فيها؟ فتأمَّلْ ودعْ عنك ما تكلّف فيه المتكلِّفون.[١]

﴿قَالُواْ﴾ أي: المُجرمون مُجيبين للسائلين ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ للصلوات الواجبة.

﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ على معنى استمرار نفي الإطعام، لا على نفي استمرار الإطعام، كما مرّ مرارًا، وفيه دلالةٌ على أنّ الكفّار مخاطَبون بالفروع في حقّ المؤاخذة.

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ أي: نشرع في الباطل مع الشارعين فيه.

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: بيوم الجزاء، أضافوه إلى الجزاء مع أنّ فيه مِن الدواهي والأهوال ما لا غاية له؛ / لأنّه أدهاها وأهوَلُها وأنّهم مُلابِسوه، وقد [٢٤٤و] مضَت بقيّة الدواهي. وتأخيرُ جنايتهم هذه مع كونها أعظمَ مِن الكلّ لتفخيمها، كأنّهم قالوا: وكنّا بعد ذلك كلّه مكذِّبين بيوم الدِّين، ولبيان كونِ تكذيبهم به مقارِنًا لسائر جناياتهم المعدودة مستمرًا إلى آخر عمرهم حسبما نطَق به قولهم.

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ أي: الموت ومقدِّماته.

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ لو شفعوا لهم جميعًا.

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ لترتيب إنكار إعراضهم عن القرآن بغير سبب على ما قبلها مِن موجبات الإقبال عليه والاتّعاظ به مِن سوء حال المكذِّبين. و﴿مُعْرِضِينَ﴾ حال مِن الضمير في الجارّ الواقع خبرًا

---

[١] الظاهر أنّه يُعرِّض بالوجه الذي جوّزه الزمخشري في الكشّاف، ٤٩٣/٤؛ واختاره البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤٦٩/٣؛ وهو أنّ هذا الكلام جواب المشركين للمؤمنين عمّا جرى للمجرمين.

لِـ﴿مَا﴾ الاستفهاميّة و﴿عَنِ﴾ متعلِّقة به، أي: فإذا كان حال المكذِّبين به على ما ذُكر فأيّ شيء حصل لهم معرِضين عن القرآن مع تعاضُد موجِبات الإقبال عليه وتآخُذ الدواعي إلى الإيمان به.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ حال مِن المستكِنّ في ﴿مُعْرِضِينَ﴾ بطريق التداخُل، أي: مشبَّهين بحُمر نافرة. ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ أي: مِن أسد، "فَعْوَلَة" مِن "القَسْر"، وهو القهر والغَلَبة. وقيل: هي جماعةُ الرُّماة الذين يتصيَّدونها شُبِّهوا في إعراضهم عن القرآن واستماعِ ما فيه مِن المواعظ وشِرادهم عنه بحُمر جدّت في نِفارها ممّا أفزعها. وفيه مِن ذمّهم وتهجين حالِهم ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ عطفٌ على مقدَّر يقتضيه المقام، كأنّه قيل: لا يكتفون بتلك التذكرة ولا يرضَون بها؛ بل يريد كلّ واحد منهم أن يؤتى قراطيسَ تُنشَر وتُقرأ، وذلك أنّهم قالوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم لن نتّبعك حتّى تأتي كلَّ واحد منّا بكتبٍ مِن السماء، عنوانُها "مِن ربّ العالمين إلى فلان بن فلان"، نُؤمر فيها باتِّباعك، كما قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء، ٩٣/١٧]. وقُرئ: "صُحْفًا مُنْشَرَةً"[١] بسكون "الحاء" و"النون".

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لهم عن تلك الجرأة ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ / فلذلك يُعرِضون عن التذكرة لا لامتناع إيتاء الصُّحف. [٢٣٤ظ]

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عن إعراضهم ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ وأيُّ تذكرةٍ ﴿فَمَن شَآءَ﴾ أن يذكُره ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ وحاز بسببه سعادةَ الدارين ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ بمجرَّد مشيئتهم للذِّكر، كما هو المفهوم مِن ظاهر قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾، إذ لا تأثير لمشيئة العبد وإرادته في أفعاله.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ العِلَل أو مِن أعمّ الأحوال، أي: وما يذكُرون بعلّة مِن العِلَل أو في حال مِن الأحوال إلّا بأن يشاء الله،

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٥.

أو حالَ أن يشاء الله ذلك، وهذا تصريح بأن أفعال العباد بمشيئة الله عزّ وجلّ. وقُرئ: "تَذْكُرُوْنَ"[١] على الخطاب التفاتًا، وقُرئ بهما مشدَّدًا.[٢]

﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: حقيق بأن يُتقى عقابُه ويؤمَن به ويُطاع. ﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ حقيقٌ بأن يُغفر لمَن آمن به وأطاعَه.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة المُدَّثّر أعطاه الله عشرَ حسنات بعدد مِن صدّق بمحمّد عليه السلام وكذّب به».[٣]

---

١ قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٣٩٣/٢.

٢ قراءتان شاذّتان، بالياء مع التشديد مرويّة عن أبي حَيْوَة، وبالتاء مع التشديد مرويّة عن أبي البَرَهسم. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٥٧.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨/٩ (المدثر، ١/٧٤)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤٩٥/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة القيامة

مكيّة، وهي تسع وثلاثون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ٦﴾

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ إدخال ﴿لَآ﴾ النافية على فعل القسَم شائع، وفائدتها توكيد القسَم. قالوا: إنّها صِلة مِثلها في قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الحديد، ٢٩/٥٧]. وقيل: هي للنفي، لكنّ لا لنفي نفس الإقسام؛ بل لنفي ما يُنبئ هو عنه مِن إعظام المقسَم به وتفخيمه، كأنّ معنى ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ بكذا: "لا أعظِّمه بإقسامي به حقّ إعظامه، فإنّه حقيق بأكثرَ مِن ذلك وأكثرَ".[١]

وأمّا ما قيل: مِن أنّ المعنى نفي الإقسام لوضوح الأمر فقد عرفتَ ما فيه في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة، ٧٥/٥٦]. وقيل: إنّ ﴿لَآ﴾ نفيٌ وردٌّ لكلام معهود قبل القسَم، كأنّهم أنكروا البعث، فقيل: لا، أي: ليس الأمر كذلك، ثمّ قيل: أقسمُ بيوم القيامة، كقولك: لا والله إنّ البعث حقّ.[٢]

وأيًّا ما كان ففي الإقسام على تحقُّق البعث بيوم القيامة مِن الجزالة ما لا مزيدَ عليه، وقد مرّ / تفصيله في سورة يس[٣] وسورة الزخرف.[٤] [٢٤٥و]

﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ أي: بالنّفس المتّقية التي تلوم النفوسَ يومئذ على تقصيرهنّ في التقوى، ففيه طَرَف مِن البراعة التي في القَسَم السابق،

---

١ الوجهان في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٦/٤.

٢ الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٦/٤.

٣ في تفسير الآية الثالثة منها.

٤ في تفسير الآية الرابعة منها.

أو بالنفس التي لا تزال تلوم نفسَها وإن اجتهدت في الطاعات، أو بالنفس المطمئنّة اللائمة للنفس الأمّارة.

وقيل: بالجنس، لِما رُوي أنّه صلّى الله عليه وسلّم قال: «ليس مِن نفس برَّة ولا فاجرة إلّا وتلوم نفسَها يوم القيامة، إن عملتْ خيرًا قالت: كيف لم أزدَد؟ وإن عملتْ شرًّا قالت: ليتني كنت قصرتُ».[١] ولا يخفى ضعفُه، فإنّ هذا القَدْر مِن اللوم لا يكون مَدارًا للإعظام بالإقسام وإن صدر عن النفس المؤمنة المُسيئة، فكيف مِن الكافرة المندرِجة تحت الجنس. وقيل: بنفس آدمَ عليه السلام؛ فإنّها لا تزال تتلوَّم على فعلها الذّي خرجتْ به مِن الجنّة.[٢]

وجواب القسَم ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ وهو "لَيُبعثنّ"، والمراد بـ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ الجنس و"الهمزة" لإنكار الواقع واستقباحه، و"أنْ" مخفَّفة مِن الثقيلة، وضمير الشأن الذي هو اسمها محذوف، أي: أيحسَب أنّ الشأن لن نجمَع عظامه، فإنّ ذلك حسبان باطل، فإنّا نجمعها بعد تشتُّتها ورجوعها رميمًا ورفاتًا مختلطًا بالتراب، وبعدما سفَتها الرياح وطيَّرتها في أقطار الأرض وألقتها في البحار.

وقيل: إنّ عديّ بن أبي ربيعة خَتَنَ الأخنسِ بن شَريق[٣] وهما اللذان كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول فيهما: «اللّٰهمّ اكفني جارَي السَّوء»، قال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «يا محمَّد حدّثني عن يوم القيامة متى يكون وكيف أَمْره؟» فأخبره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: «لو عاينتُ ذلك اليوم لم أصدِّقك، أوَيجمعُ الله هذه العظامَ».[٤]

﴿بَلَىٰ﴾ أي: نجمعها حال كوننا ﴿قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ أي: نجمع سُلَامَيَاتِه ونضمّ بعضها إلى بعض كما كانت مع صغرها ولطافتها، فكيف بكِبار العِظام؟

---

١ القول مع الحديث في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٧١/٣. وما وقفت على الحديث في مظانّه.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٧/٤.

٣ كأنّها ضُبطت في م بضمّ الشين.

٤ بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ١١٥/٢٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٨٠/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٤٩٧/٤.

أو على أن نُسوِّيَ أصابعه التي هي أطرافه وآخِرُ ما يتمّ به خلقه. وقُرِئَ: "قَادِرُونَ"[١] / أي: نحن قادرون. [٢٤٥ظ]

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ عطفٌ على ﴿أَيَحْسَبُ﴾، إمّا على أنّه استفهام مثله أُضرِب عن التوبيخ بذلك إلى التوبيخ بهذا، أو على أنّه إيجاب انتُقِل إليه عن الاستفهام، أي: بل يريد ليدوم على فجوره فيما بين يديه مِن الأوقات وما يستقبله مِن الزمان لا يُرعوى عنه.

﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: متى يكون استبعادًا أو استهزاءً.

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي: تحيَّر فزعًا مِن "بَرِقَ الرجلُ" إذا نظر إلى البَرْق فدهش بصره. وقُرِئَ بفتح "الراء"،[٢] وهي لغة، أو مِن البريق بمعنى لمَع مِن شدّة شخوصه، وقُرِئَ: "بَلِقَ"[٣] أي: انفتح وانفرج.

﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ أي: ذهب ضوءه. وقُرِئَ على البناء للمفعول.[٤]

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ بأن يُطلِعهما الله تعالى مِن المغرِب. وقيل: جُمعا في ذهاب الضوء. وقيل: يُجمعان أسودين مُكوَّرين كأنّهما ثوران عَقيران في النار.[٥] وتذكيرُ الفعل لتقدُّمه وتغليب المعطوف.

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ إذ تقع هذه الأمور ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ أي: الفرار

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة والصَّرصري والمَلَطي عن أبي بكر. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٩٣؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٨٥٧.

٢ قرأ بها نافع وأبو جعفر. **النشر** لابن الجزري، ٣٩٣/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٦٥.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وأبي حَيْوَة وابن قُطيب. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٩٤؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٨٥٩.

٥ القولان في **الكشّاف** للزمخشري، ٤٩٨/٤.

يأسًا منه. وقُرئ بالكسر،[١] أي: موضع الفرار. وقد جُوِّز أن يكون هو أيضًا مصدرًا كـ"المَرجِع".[٢]

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ مِن طلب المفرّ وتمنّيه ﴿لَا وَزَرَ﴾ لا مَلجأ، مُستعار مِن الجبل. وقيل: كلّ ما التجأتَ إليه وتخلَّصت به فهو وَزَرك.[٣]

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ أي: إليه وحدَه استقرارُ العباد، أو إلى حكمه استقرارُ أمرهم، أو إلى مشيئته موضعُ قرارهم، يُدخِل مَن يشاء الجنّة ومَن يشاء النار.

﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يُخبَر كلّ امرئ برًّا كان أو فاجرًا عند وزن الأعمال ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾ أي: عمِل مِن عَمَل خيرًا كان أو شرًّا، فيُثاب بالأوّل ويُعاقَب بالثاني، ﴿وَأَخَّرَ﴾ أي: لم يعمَل خيرًا كان أو شرًّا، فيُعاقَب بالأوّل ويُثاب بالثاني، أو بما قدّم مِن حسنة أو سيّئة وبما أخّر مِن سُنّة حسَنة أو سيّئة فعُمل بها بعده، أو بما قدّم / مِن مال تصدّق به في حياته وبما أخَّر فخلّفه أو وَقَفه أو أوصى به، أو بأوّل عمله وآخرِه. [٢٤٦و]

﴿بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ أي: حجّة بيّنة على نفسه شاهدة بما صدَر عنه مِن الأعمال السيّئة، كما يُعرِب عنه كلمة ﴿عَلَىٰ﴾ وما سيأتي مِن الجملة الحاليّة، وُصفت بالبَصارة مجازًا، كما وُصفت الآيات بالإبصار في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ [النمل، ١٣/٢٧]؛ أو عين بصيرة، أو "التاء" للمبالغة، ومعنى ﴿بَلْ﴾ الترقّي، أي: ينبّأ الإنسان بأعماله؛ بل هو يومئذ عالمٌ بتفاصيل أحواله شاهِدٌ على نفسه؛ لأنّ جوارحه تنطِق بذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ أي: ولو جاء بكلّ مَعذِرة يمكن أن يُعتذَر بها عن نفسه، حالٌ مِن المُستكِنّ في ﴿بَصِيرَةٌ﴾ أو مِن مرفوع ﴿يُنَبَّأُ﴾، أي: هو بصيرة على نفسه تشهَد عليه جوارحه وتُقبل شهادتها، ولو اعتذَر بكلّ معذِرة،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسين بن عليّ والحسن بن يزيد وابن عبّاس والزُّهري وعكرمة وأيّوب السختياني وأبي حَيْوَة وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٤؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٨٥٩.

٢ ذكره الزمخشري في الكشّاف، ٤٩٨/٤.

٣ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤٩٨/٤.

أو يُنبأ بأعماله ولو اعتذر... إلخ. والمعاذير اسم جمع للمَعذِرة، كـ"المَناكير" اسم جمع لـ"المُنكَر". وقيل: هو جمع "مِعذار" وهو الستر، أي: ولو أرخى سُتوره.[1]

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ۝٢١﴾

كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا لُقِّن الوحيَ نازع جبريلَ عليه السلام القراءةَ ولـم يصبر إلى أن يُتمَّها مُسارعةً إلى الحفظ وخوفًا مِن أن يتفلّت منه، فأُمِر عليه السلام بأن يستنصت له مُلقيًا إليه قلبه وسمعه حتّى يُقضى إليه الوحي ثمّ يقفِّيه بالدراسة إلى أن يرسَخ فيه.[2] فقيل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن ﴿لِسَانَكَ﴾ عند إلقاء الوحي ﴿لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ أي: لتأخُذه على عجَلة مخافةَ أن يتفلّت منك.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ في صدرك بحيث لا يذهب عليك شيء مِن معانيه ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: إثبات قراءته في لسانك.

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ أي: أتممنا قراءته عليك بلسان جبريلَ عليه السلام. وإسنادُ القراءة إلى نون العظمة للمبالغة في إيجاب التأنّي. ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ فكن مقفِّيًا له ولا تُراسله.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي: بيان ما أشكَل عليك مِن معانيه وأحكامه.

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ له صلّى الله عليه وسلّم عن عادة العجَلة، وترغيبٌ له في الأناة، وأكّد ذلك / بقوله تعالى: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ على تعميم الخطاب للكلّ، أي: بل أنتم يا بني آدمَ لِما خُلِقتم مِن عَجَل وجُبِلتم عليه تعجَلون في كلّ شيء، ولذلك تُحبُّون العاجلة وتذرون الآخرة. وقيل: ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ للإنسان عن الاغترار بالعاجل،[3] فيكون جَمْع الضمير في الفعلين باعتبار معنى الجنس، ويُؤيِّده قراءة الفعلين على صيغة الغَيبة.[4] [٢٤٦ظ]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٩٨. وهو مرويّ بمعناه عن السدّي في جامع البيان للطبري، ٢٣/٤٩٥.

٢ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٢٣/٤٩٦-٤٩٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨/٢٨٣-٢٨٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٤٩٨.

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٧٣.

٤ قرأ بها ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩٣.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ أي: وجوه كثيرة، وهي وجوه المؤمنين المخلِصين يوم إذ تقوم القيامة بَهيّة متهلِّلة يُشاهَد عليها نضرة النعيم، على أنّ ﴿وُجُوهٌ﴾ مبتدأ و﴿نَاضِرَةٌ﴾ خبره و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ منصوب بـ﴿نَاضِرَةٌ﴾. و﴿نَاظِرَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ خبر ثانٍ للمبتدأ، أو نعت لـ﴿نَاضِرَةٌ﴾، و﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ متعلِّق بـ﴿نَاظِرَةٌ﴾. وصحّة وقوع النكرة مبتدأ؛ لأنّ المقام مقامُ تفصيل، لا على أنّ ﴿نَاضِرَةٌ﴾ صفة لـ﴿وُجُوهٌ﴾ والخبر ﴿نَاظِرَةٌ﴾ كما قيل،[1] لِما هو المشهور مِن أنّ حقّ الصفة أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند السامع، وحيث لم يكن ثبوت النُّضرة للوجوه كذلك فحقُّه أن يُخبَر به.

ومعنى كونِها ناظرةً إلى ربّها أنّها تراه تعالى مُستغرقةً في مُطالعة جماله بحيث تغفل عمّا سواه، وتُشاهِده تعالى بلا كيفٍ ولا على جهة، وليس هذا في جميع الأحوال حتّى ينافيَه نظرُها إلى غيره. وقيل: مُنتظِرة إنعامَه.[2] ورُدّ بأنّ الانتظار لا يُسنَد إلى "الوجه". وتفسيره بالجملة خلافُ الظاهر، وأنّ المُستعمَل بمعناه لا يعدّى بـ"إلى".[3]

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ شديدة العُبوس وهي وجوه الكفَرة.

﴿تَظُنُّ﴾ يتوقَّع أربابها ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ داهية عظيمة تقصِم فَقار الظهر.

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عن إيثار العاجلة على الآخرة، أي: ارتدِعوا عن ذلك وتنبّهوا لِما بين أيديكم مِن الموت الذي ينقطع عنده ما بينكم وبين العاجلة مِن العلاقة. ﴿إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ أي: بلغت النفسُ أعاليَ الصدر وهي العِظام المُكتنِفة لثُغرة النَّحر عن يمين وشمال.

---

[1] الوجه في اللباب لابن عادل، ٥٦٢/١٩.
[2] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤٩٩/٤.
[3] القول وردُّه بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٧٣/٣-٤٧٤.

﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ أي: قال مَن حضَر صاحبَها: "مَن يرقيه ويُنجيه ممّا هو فيه" مِن الرُّقية. وقيل: هو مِن كلام ملائكة الموت: أيُّكم يَرْقى بروحه، ملائكةُ الرحمة أو ملائكةُ العذاب؟ مِن الرُّقيّ.[١]

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ وأيقَنَ المُحتضَر أنّ ما نزَل به الفراق مِن الدنيا ونعيمها.

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ والتفّتْ ساقُه بساقه والتوَت عليها عند قلق الموت. وقيل: هما شدّة فِراق الدنيا وشدّة / إقبال الآخرة.[٢] وقيل: هما ساقاه حين تُلفّان في أكفانه.[٣] [٢٤٧و]

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ أي: إلى الله وإلى حُكمه يُساق لا إلى غيره.

﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ ما يجب تصديقه مِن الرسول عليه السلام والقرآنِ الذي نزَل عليه، أو فلا صدّق ماله ولا زكّاه. ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ ما فُرض عليه. والضمير فيهما لـ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ المذكور في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾.[٤] وفيه دلالة على أنّ الكفّار مخاطَبون بالفروع في حقّ المؤاخَذة كما مرّ.

﴿وَلَـٰكِن كَذَّبَ﴾ ما ذُكر مِن الرسول والقرآن ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الطاعة.

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ يتبختر افتخارًا بذلك مِن المطّ، فإنّ المتبختر يمدّ خُطاه، فيكون أصله يتمطّط أو مِن المطا وهو الظهر، فإنّه يلويه.

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ أي: ويلٌ لك، وأصله أولاك الله ما تكرهه، و"اللام" مَزيدة كما في ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل، ٧٢/٢٧]، أو أولى لك الهلاك. وقيل: هو "أفعل" مِن "الويل" بعد القلب، كـ"أدنى" مِن "دون"، أو "فَعْلَى" مِن "آل يئول" بمعنى عُقباك النار.

﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ أي: يتكرّر عليه ذلك مرّةً بعد أخرى.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٠/٤.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٠/٤.

٣ مرويّ عن الحسن وسعيد بن المسيّب في جامع البيان للطبري، ٥١٩/٢٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٨٦/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٠٠/٤.

٤ في الآية الثالثة مِن هذه السورة.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أي: يُخلّى مُهمَلًا فلا يكلَّف ولا يُجزى. وقيل: أن يُترك في قبره فلا يُبعث.[1]

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾... إلى آخره، استئنافٌ واردٌ لإبطال الحسبان المذكور، فإنّ مداره لمّا كان استبعادَهم للإعادة استُدلّ على تحقُّقها ببدء الخلق.

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ أي: بقدرة الله تعالى، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا[2] ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ [المؤمنون، ١٤/٢٣]. ﴿فَخَلَقَ﴾ أي: فقدَّر بأن جَعَلها مُضغةً مخلَّقةً ﴿فَسَوَّىٰ﴾ فعدّل وكمّل نشأته.

﴿فَجَعَلَ مِنْهُ﴾ مِن الإنسان ﴿ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ أي: الصنفين ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ بدل مِن الزوجين.

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ﴾ العظيمُ الشأنِ الذي أنشأ هذا الإنشاء البديع ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، وهو أهون مِن البدء في قياس العقل.

[٢٤٧ظ] روي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان إذا قرأها / قال: «سبحانك بلى».[3] وعنه عليه السلام: «مَن قرأ سورة القيامة شهدتُ له أنا وجبريلُ يوم القيامة أنّه كان مؤمنًا بيوم القيامة».[4]

---

[1] القول في اللباب لابن عادل، ٥٧٧/١٩.

[2] م س: جعلنا.

[3] سنن أبي داود، ١٦١/٢ (٨٨٤)؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٤٤٠/٣ (١٩٢٩)؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٨٨/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٠/٤.

[4] الكشف والبيان للثعلبي، ١٠٨/٢٨ (القيامة، ١/٧٥)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٩٠/٤ (القيامة، ١/٧٥)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠١/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة الإنسان

مكيّة، وهي إحدى وثلاثون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾

﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ استفهامُ تقرير وتقريب، فإنّ "هل" بمعنى "قد"، والأصل "أَهَلْ أتى" ﴿عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ قبل زمان قريب ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ أي: طائفة محدودة كائنةٌ مِن الزمن الممتدّ ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ بل كان شيئًا منسيًّا غير مذكور بالإنسانيّة أصلًا، كالعُنصر والنُّطفة وغير ذلك. والجملة المنفيّة حالٌ مِن ﴿ٱلْإِنسَٰنِ﴾، أي: غيرَ مذكور، أو صفة أخرى لـ﴿حِينٌ﴾ على حذف العائد إلى الموصوف، أي: لم يكن فيه شيئًا مذكورًا.

والمراد بـ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الجنس، فالإظهار في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ لزيادة التقرير، أو آدم عليه السلام، وهو المروي عن ابن عبّاسٍ وقتادةَ والثوري وعكرمةَ والشعبي.[1] قال ابن عبّاس في رواية أبي صالح عنه: «مرّت به أربعون سنةً قبل أن يُنفخ فيه الروح وهو ملقًى بين مكّة والطائف». وفي رواية الضحّاك عنه أنّه خُلق مِن طين فأقام أربعين سنةً، ثمّ مِن حمأ مسنون فأقام أربعين سنةً، ثمّ مِن صلصال فأقام أربعين سنةً، فتمّ خَلْقه بعد مائة وعشرين سنةً، ثمّ نُفخ فيه الروح. وحكى الماوردي عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما أنّ "الحِين" المذكور ههنا هو الزمن الطويل الممتدّ الذي لا يُعرَف مقداره فيكون الأوّل إشارةً إلى خَلْقه عليه السلام وهذا بيانًا لخلق بنيه.[2]

---

[1] انظر: جامع البيان للطبري، ٥٢٩/٢٣-٥٣٠؛ واللباب لابن عادل، ٥/٢٠.

[2] هذه الروايات كلُّها في اللباب لابن عادل، ٥/٢٠.

﴿أَمْشَاجٍ﴾ أخلاطٍ، جمع مَشَج أو مَشيج، مِن "مَشجتُ الشيءَ" إذا خلطتَه. وُصِف النطفة به لِما أنّ المراد بها مجموع الماءين، ولكلّ منهما أوصاف مختلفة مِن اللون والرّقة والغِلَظ، وخواصّ متباينة، فإنّ ماء الرجل أبيضُ غليظ فيه قوّة العَقد وماءَ المرأة أصفرُ رقيق فيه قوّة / الانعقاد، يُخلَق منهما الولد، فما كان مِن عصَب وعَظْم وقوّة فمِن ماء الرجل، وما كان مِن لحم ودمٍ وشَعْر فمِن ماء المرأة. قال القرطبي: وقد رُوي هذا مرفوعًا.[١] وقيل: مفرد كـ"أعشار" و"أكياش".[٢] وقيل: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ ألوان وأطوار،[٣] فإنّ النطفة تصير علقةً، ثمّ مضغةً، إلى تمام الخِلقة. [٢٤٨و]

وقوله تعالى: ﴿نَبْتَلِيهِ﴾ حال مِن فاعل ﴿خَلَقْنَا﴾، أي: مُريدين ابتلاءه بالتكليف فيما سيأتي أو ناقلين له مِن حال إلى حال على طريقة الاستعارة، كما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: نُصرّفه في بطن أمّه نطفةً ثمّ علقةً إلى آخره.[٤]

﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ ليتمكّن مِن استماع الآيات التنزيليّة ومشاهدةِ الآيات التكوينيّة، فهو كالمسبَّب مِن الابتلاء، فلذلك عُطف على الخَلْق المقيَّد به بـ"الفاء"، ورُتّب عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ بإنزال الآياتِ ونَصْبِ الدلائل. ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ حالان مِن مفعول ﴿هَدَيْنَا﴾، أي: مكّنّاه وأقدرناه على سلوك الطريق الموصِل إلى البغية في حالتيه جميعًا. أو للتفصيل أو التقسيم، أي: هديناه إلى ما يُوصِل إليها في حالَيه جميعًا أو مقسومًا إليهما، بعضُهم شاكر بالاهتداء والأخذ فيه وبعضُهم كفور بالإعراض عنه.

وقيل: مِن السبيل،[٥] أي: عرّفناه السبيل إمّا سبيلًا شاكرًا أو كفورًا، على وصف السبيل بوصف سالكه مجازًا. وقُرئ: "أمّا"[٦] بالفتح على حذف الجواب،

---

١ الكلام كلُّه مع قول القرطبي مذكور بلفظ قريب في اللباب لابن عادل، ٨/٢٠. وانظر: تفسير القرطبي، ١٢١/١٩.

٢ كما في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٢/٤.

٣ مرويّ عن ابن عبّاس وقتادة في جامع البيان للطبري، ٥٣٣/٢٣-٥٣٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٩٢/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٠٢/٤.

٤ بمعناه في جامع البيان للطبري، ٥٣٣/٢٣؛ واللباب لابن عادل، ٩/٢٠.

٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٧٧/٣.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ وابن مسعود أبي السّمّال ورؤبة بن العجّاج والرّبيع بن خُثيم وأبي زيد. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٦؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٦٣.

أي: أمّا شاكرًا فبِتوفيقنا، وأمّا كفورًا فبِسوء اختياره لا بمجرّد إجبارنا مِن غير اختيار مِن قِبَله. وإيرادُ "الكفور" لمراعاة الفواصل والإشعار بأنّ الإنسان قلّما يخلو مِن كفران ما وإنّما المُؤاخَذ عليه الكفر المُفرِط.

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ مِن أفراد الإنسان الذي هديناه السبيل ﴿سَلَٰسِلَاْ﴾ بها يقادون ﴿وَأَغۡلَٰلٗا﴾ بها يقيّدون ﴿وَسَعِيرًا﴾ بها يحرقون. وتقديمُ وعيدهم مع تأخّرهم للجَمْع بينهما في الذِّكر، كما في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾ الآية [آل عمران، ١٠٦/٣]، ولأنّ الإنذار أهمّ وأنفع، وتصديرُ الكلام وخَتْمه بذِكر المؤمنين / أحسنُ، على أنّ في وصفهم تفصيلًا ربّما يُخلّ تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم. وقُرئ: "سَلَاسِلًا"[1] للتناسب. [٢٤٨ظ]

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ۝٧ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨﴾

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ شروع في بيان حُسن حال الشاكرين إثرَ بيان سوء حال الكافرين. وإيرادُهم بعنوان البرّ للإشعار بما استحقّوا به ما نالوه مِن الكرامة السنيّة. و﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ جمع "بَرّ" أو "بارّ" كـ"ربّ" و"أرباب" و"شاهد" و"أشهاد". قيل: هو مَن يَبرّ خالقه، أي: يطيعه. وقيل: مَن يمتثل بأمره تعالى. وقيل: مَن يؤدّي حقّ الله تعالى ويُوفي بالنَّذْر.[2] وعن الحسن: البَرّ مَن لا يؤذي الذرّ.[3]

﴿يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ﴾ هي الزجاجة إذا كانت فيها خَمْر، وتُطلق على نفس الخمر أيضًا، فـ﴿مِن﴾ على الأوّل ابتدائيّة وعلى الثاني تبعيضيّة أو بيانيّة. ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ أي: ما تُمزَج به ﴿كَافُورًا﴾ أي: ماءَ كافور، وهو اسم عين في الجنّة ماؤها في بياض الكافور ورائحتِه وبَرْدِه. والجملة صفة ﴿كَأۡسٖ﴾.

---

[1] قرأ بها نافع والكسائي وأبو جعفر وأبو بكر ورُويس بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٩٤/٢.

[2] الأقوال الثلاثة في اللباب لابن عادل، ١٥/٢٠-١٦.

[3] اللباب لابن عادل، ١٥/٢٠.

وقوله تعالى: ﴿عَيۡنٗا﴾ بدل مِن ﴿كَافُورًا﴾، وعن قتادة: تُمزَج لهم بالكافور وتُختَم لهم بالمِسك.[١] وقيل: تُخلَق فيها رائحة الكافور وبياضه وبَرْده، فكأنّها مُزِجت بالكافور،[٢] فـ﴿عَيۡنٗا﴾ على هذين القولين بدل مِن محلّ ﴿مِن كَأۡسٖ﴾ على تقدير مضاف، أي: يشربون خمرًا خمرَ عين، أو نصب على الاختصاص.

وقوله تعالى: ﴿يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ صفة ﴿عَيۡنٗا﴾، أي: يشربون بها الخمر لكونها ممزوجةً بها. وقيل: ضُمّن ﴿يَشۡرَبُ﴾ معنى يلتذّ. وقيل: "الباء" بمعنى "مِن". وقيل: زائدة، ويعضده قراءة ابن أبي عبلة: "يَشْرَبُهَا عِبَادُ اللهِ".[٣] وقيل: الضمير للكأس، والمعنى يشربون العين بتلك الكأس.[٤]

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾ أي: يُجرونها حيثما شاءوا مِن منازلهم إجراءً سهلًا لا يمتنع عليهم؛ بل يجري جريًا بقوّة واندفاع، والجملة صفة أخرى لـ﴿عَيۡنٗا﴾.

وقوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ استئناف مَسوقٌ لبيان ما لأجله رُزقوا ما ذُكر مِن النعيم مشتمِل على نوع تفصيل لِما ينبئ عنه اسم الأبرار / إجمالًا، كأنّه [٢٤٩و] قيل: ماذا يفعلون حتّى ينالوا تلك الرُّتبة العالية؟ فقيل: يُوفون بما أوجبوه على أنفسهم، فكيف بما أوجبه الله تعالى عليهم؟

﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ﴾ عذابه ﴿مُسۡتَطِيرٗا﴾ فاشيًا منتشِرًا في الأقطار غاية الانتشار، مِن "استطار الحريقُ والفجرُ"، وهو أبلغ مِن "طار" بمنزلة استنفر مِن نفَر.

﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: كائنين على حبّ الطّعام والحاجة إليه، كما في قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران، ٩٢/٣]، أو على حبّ الإطعام بأن يكون ذلك بطيب النفس، أو كائنين على حبّ الله تعالى، أو إطعامًا كائنًا على حبّه تعالى، وهو الأنسب لِما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾.

﴿مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا﴾ أيّ أسيرٍ كان، فإنّه صلّى الله عليه وسلّم يُؤتى بالأسير

---

١ جامع البيان للطبري، ٥٣٩/٢٣؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٩٣/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٣/٤.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٣/٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٦٤.

٤ هذه الوجوه الثلاثة مع الاستدلال بالقراءة في اللباب لابن عادل، ١٨/٢٠. وأصل الكلام في التبيان للعكبري، ١٢٥٨/٢.

فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول: «أحسِنْ إليه»،[١] أو أسيرًا مؤمِنًا، فيدخُل فيه المملوك والمسجون، وقد سمّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الغريمَ أسيرًا فقال: «غريمُك أسيرُك، فأحسِن إلى أسيرك».[٢]

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝﴾

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ على إرادة قولٍ هو في موقع الحال مِن فاعل ﴿يُطْعِمُونَ﴾ أي: قائلين ذلك بلسان الحال أو بلسان المقال إزاحةً لتوهُّم المنّ المُبطِل للصدقة وتوقُّع المكافأة المُنقِصة للأجر. وعن الصِّدِّيقة رضي الله تعالى عنها: أنّها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت، ثمّ تسأل الرسول ما قالوا؟ فإذا ذكَر دعاءهم دعتْ لهم بمِثله؛[٣] ليبقى ثواب الصدقة لها خالصًا عند الله تعالى.

﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ أي: شكرًا، وهو تقرير وتأكيد لِما قبله.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا﴾ أي: عذابَ يوم ﴿عَبُوسًا﴾ يعبس فيه الوجوه، أو يُشبه الأسدَ العبوسَ في الشدّة والضراوة. ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ شديدَ العبوس فلذلك نفعل بكم ما نفعل رجاءَ أن يَقِيَنا ربُّنا بذلك شرَّه. وقيل: هو تعليل لعدم إرادة الجزاء والشكور،[٤] أي: / إنّا نخاف عِقابَ الله تعالى أن أردناهما. [٢٤٩ظ]

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝﴾

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ بسبب خوفهم وتحفُّظهم عنه ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أي: أعطاهم بدل عبوس الفجّار وحُزنهم نَضرةً في الوجوه وسُرورًا في القلوب.

---

[١] بمعناه في جامع البيان للطبري، ٥٤٤/٢٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٩٤/٨؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٤/٤.

[٢] لم أقف عليه في مظانّه. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٤/٤.

[٣] لم أقف عليه في مظانّه. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٤/٤.

[٤] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥٠٤/٤.

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ﴾ بصبرهم على مشاقّ الطاعات ومُهاجرة هوى النفس في اجتناب المحرَّمات وإيثار الأموال ﴿جَنَّةً﴾ بستانًا يأكلون منه ما شاءوا ﴿وَحَرِيرًا﴾ يلبسونه ويتزيَّنون به.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّ الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما مرِضا فعادهما النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في ناس معه فقالوا لِعليّ رضي الله تعالى عنه: «لو نذَرت على ولدك»، فنذر عليٌّ وفاطمةُ رضي الله عنهما وفِضَّةُ جارية لهما إن برئا ممّا بهما أن يصوموا ثلاثة أيام، فشُفيا وما معهما شيء، فاستقرض عليٌّ رضي الله عنه مِن شمعون الخَيبري ثلاث[1] أصوُع مِن شعير فطحنت فاطمةُ رضي الله عنها صاعًا واختبزت خمسةَ أقراص على عددهم، فوضعوها بين أيديهم ليُفطروا، فوقف عليهم سائل فقال: «السّلام عليكم أهل بيت محمّد، مسكين مِن مساكين المسلمين، أطعِموني أطعَمكم الله تعالى مِن موائد الجنّة»، فآثروه وباتوا لم يذوقوا إلّا الماء، وأصبحوا صيامًا، فلمّا أمسَوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه، ثمّ وقف عليهم في الثالثة أسيرٌ ففعلوا مثل ذلك، فلمّا أصبحوا أخذ عليٌّ بيد الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهم فأقبلوا إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فلمّا أبصرهم وهم يرتعِشون كالفِراخ مِن شدّة الجوع قال عليه السلام: «ما أشدَّ ما يسوءني ما أرى بكم»، وقام فانطلق معهم فرأى فاطمةَ في مِحرابها قد التصق ظهرُها ببطنها / وغارت عيناها فساءه ذلك، فنزل جبريلُ عليه السلام وقال: [٢٥٠و] «خُذها يا محمّد هنأك الله تعالى في أهل بيتك»، فأقرأه السورة.[2]

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ﴿١٦﴾ وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ﴿١٩﴾﴾

---

١ كذا في م س.

٢ لم أقف عليه في مظانّه. وهو بمعناه في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨/٢٢٣-٢٣٢، وفصّل محقّقوه الكلام على وضع هذا الحديث؛ وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٠٥.

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ حال مِن ﴿هُم﴾ في ﴿جَزَىٰهُم﴾ والعامل فيها ﴿جَزَىٰ﴾. وقيل: صفة لـ﴿جَنَّةً﴾ مِن غير إبراز الضمير.[1] و"الأرائك" هي السُّرر في الحِجال.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ إمّا حال ثانية مِن الضمير أو المستكنّ في ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾، والمعنى أنّه يمرّ عليهم هواء معتدِل لا حارّ مُحمٍ ولا بارد مُؤذٍ. وقيل: الزَّمْهرير: القمر في لغة طيّئ،[2] والمعنى أنّ هواءها مضيء بذاته لا يحتاج إلى شمس ولا قمر.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ عطفٌ على ما قبلها حال مثلَها، أو صفة لمحذوف معطوف على ﴿جَنَّةً﴾، أي: وجنةً أخرى دانيةً عليهم ظلالها، على أنّهم وُعدوا جنَّتين كما في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن، ٥٥/٤٦].

وقُرئ: "دَانِيَةٌ"[3] بالرفع على أنّه خبر لـ﴿ظِلَالُهَا﴾، والجملة في حيّز الحال، والمعنى لا يرون فيها شمسًا ولا زمهريرًا، والحال أنّ ظلالها دانية. قالوا: معناه أنّ ظلال أشجار الجنّة قريبة مِن الأبرار مَظلَّة عليهم زيادةً في نعيمهم، على معنى أنّه لو كان هناك شمس مؤذِية لكانت أشجارها مظلَّةً عليهم مع أنّه لا شمسَ ثمَّة ولا قمر.

﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أي: سُخِّرت ثمارها لمتناوليها وسُهِّل أَخْذها، مِن "الذلّ" وهو ضدّ الصعوبة. والجملة حال مِن ﴿دَانِيَةً﴾، أي: تدنو ظلالها عليهم مذلَّلة لهم قطوفها، أو معطوفة على ﴿دَانِيَةً﴾، أي: دانيةً عليهم ظلالها ومذلَّلةً قطوفها، وعلى تقدير رفع ﴿دَانِيَةٌ﴾، فهي جملة فعليّة معطوفة على جملة اسميّة.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ الكوبُ: الكوز العظيم الذي لا أُذنَ له ولا عروةَ.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٠٦.

٢ نقله الزمخشري عن ثعلب في الكشّاف، ٤/٥٠٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٦.

﴿كَانَتْ قَوَارِيرَاْ ۞ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾ أي: تكوَّنت جامعةً بين صفاء الزجاجة وشفيفها ولِين الفضّة وبياضها، والجملة صفة الأكواب. وقُرئ بتنوين ﴿قَوَارِيرَاْ﴾ الثاني أيضًا،[١] وقُرئا بغير تنوين،[٢] وقُرئ الثّاني بالرفع،[٣] على "هي قواريرُ".

[٢٥٠ظ] / ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ صفة لـ﴿قَوَارِيرَاْ﴾ ومعنى تقديرهم لها أنّهم قدّروها في أنفسهم وأرادوا أن تكون على مقاديرَ وأشكال معيَّنة موافقةً لشهواتهم، فجاءت حسبما قدّروها، أو قدّروها بأعمالهم الصالحة فجاءت على حسبها. وقيل: الضمير للطائفين بها المدلول عليهم بقوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم﴾، فالمعنى قدّروا شرابها على قدر اشتهائهم.[٤] وقُرئ: "قُدِّرُوهَا"[٥] على البناء للمفعول، أي: جُعلوا قادرين لها كما شاءوا مِن "قدَّر" منقولًا مِن "قَدَرت الشيءَ".

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ أي: ما يُشبه الزنجبيل في الطعم، وكان الشراب الممزوج به أطيبَ ما تستطيبه العرب وألذَّ ما تستلذّ به.

﴿عَيْنًا﴾ بدل مِن ﴿زَنجَبِيلًا﴾. وقيل: تُمزج كأسهم بالزَّنجبيل بعينه، أو يخلُق الله تعالى طعمَه فيها،[٦] فـ﴿عَيْنًا﴾ حينئذ بدل مِن ﴿كَأْسًا﴾، كأنّه قيل: ويُسقَون فيها كأسًا كأس عين، أو نصب على الاختصاص. ﴿فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ لسلاسة انحدارها في الحَلْق وسهولة مَساغها، يقال: شراب سَلسَل وسلسال وسلسبيل، ولذلك حُكم بزيادة "الباء"، والمراد بيانُ أنّها في طعم الزنجبيل، وليس فيها لذعة؛ بل نقيض اللذع الذي هو السَّلاسة.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: دائمون على ما هم عليه مِن الطراوة والبهاء ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ لحُسنهم وصفاء ألوانهم وإشراق وجوههم وانبثاثهم في مجالسهم ومنازلهم وانعكاس أشعّة بعضهم إلى بعض.

---

١ قرأ بها نافع والكسائي وأبو جعفر أبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩٥.

٢ قرأ بها أبو عمرو وابن عامر وحفص ورَوح. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٦.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٠٦.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب وابن عبّاس والضحّاك وقتادة، والجَحدري وأبان وشيبان وحمّاد بن زيد وحمّاد بن عمرو، كلُّهم عن عاصم، والواقدي عن حفص بن عاصم. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٦٦.

٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٠٧.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ۝﴾

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾[1] ليس له مفعول ملفوظ ولا مقدَّر ولا مَنويّ؛ بل معناه أنّ بصرَك أينما وقع في الجنّة ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ أي: هنيئًا واسعًا. وفي الحديث: «أدنى أهلِ الجنّة منزلةً ينظر في مُلكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه».[2] وقيل: لا زوالَ له.[3] وقيل: إذا أرادوا شيئًا كان.[4] وقيل: يُسلِّم عليهم الملائكة ويستأذنون عليهم.[5]

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ﴾ قيل: ﴿عَالِيَهُمْ﴾ ظرف على أنّه خبر مقدَّم و﴿ثِيَابُ﴾ مبتدأ مؤخَّر، والجملة صفة أخرى لـ﴿وِلْدَانٌ﴾، كأنّه قيل: يطوف عليهم ولدان فوقهم ثياب... إلخ، وقيل: حال مِن ضمير ﴿عَالِيَهُمْ﴾ أو ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾، أي: يطوف عليهم ولدان عاليًا / للمَطوف عليهم ثياب... إلخ، أو حسبتَهم لؤلؤًا منثورًا عاليًا لهم ثياب... إلخ.[6] [٢٥١و]

وقُرئ: "عَالِيْهِمْ"[7] بالرفع على أنّه مبتدأ خبره ﴿ثِيَابُ﴾، أي: ما يعلوهم مِن لباسهم ثياب سندس. وقُرئ: "خُضْرٍ"[8] بالجرّ حملًا على ﴿سُندُسٍ﴾ بالمعنى، لكونه اسم جنس. ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ بالرفع عطفًا على ﴿ثِيَابُ﴾. وقُرئ برفع الأوّل وجرّ الثاني،[9] وقُرئ بالعكس،[10] وقُرئ بجرّهما،[11] وقُرئ: "وَاسْتَبْرَقَ"[12] بوصل "الهمزة"

---

١ م س: ثمّة.

٢ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٥٦٦/٢٣؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٣٩٤/٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢٩٧/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٠٧/٤.

٣ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٢٩٧/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٠٧/٤.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٧/٤.

٥ مرويّ عن سفيان في جامع البيان للطبري، ٥٦٧/٢٣.

٦ الوجهان في اللباب لابن عادل، ٤٢/٢٠؛ وثانيهما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٨٠/٣.

٧ قرأ بها نافع وحمزة وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩٦/٢. | ضُبطت في س: "عاليُهم".

٨ قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٩٦/٢.

٩ قرأ بها ابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩٦/٢.

١٠ قرأ بها ابن كثير وشعبة. النشر لابن الجزري، ٣٩٦/٢.

١١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٩٦/٢.

١٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محيصن وأبي البَرَهسم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٦-١٦٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٧.

والفتح على أنّه "استفعل" مِن البريق، جُعل عَلَمًا لهذا النوع مِن الثياب.

﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ عطفٌ على ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف، ٣١/١٨]، لإمكان الجمع والمُعاقبة والتبعيض، فإنّ حليّ أهل الجنّة تختلف حسب اختلاف أعمالهم، فلعلّه تعالى يُفيض عليهم جزاءً لِما عملوه بأيديهم حُليًا وأنوارًا تتفاوت تفاوتَ الذهب والفضّة، أو حالٌ مِن ضمير ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ بإضمار "قد"، وعلى هذا يجوز أن يكون هذا للخدَم وذاك للمخدومين.

﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ هو نوع آخرُ يفوق النوعين السالفين، كما يُرشد إليه إسنادُ سقيِه إلى ربّ العالمين ووصفُه بالطهوريّة، فإنّه يُطهِّر شاربه عن دنَس المَيل إلى الملاذّ الحسّيّة والركون إلى ما سوى الحقّ، فيتجرّد لمطالعة جماله مُلتذًّا بلقائه باقيًا ببقائه. وهي الغاية القاصية مِن منازل الصدّيقين، ولذلك خُتم بها مقالة ثواب الأبرار.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ على إضمار القول، أي: يقال لهم: إنّ هذا الذي ذُكر مِن فنون الكرامات ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ بمقابلة أعمالكم الحسَنة ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ مَرضيًّا مقبولًا مقابِلًا بالثواب.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ أي: مفرّقًا منجّمًا لحِكَم بالغة مقتضية له لا غيرُنا، كما يعرِب عنه تكرير الضمير مع "إنّ".

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بتأخير نصرك على الكفّار فإنّ له عاقبةً حميدةً. ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أي: كلّ واحد مِن مرتكب / الإثم الداعي لك إليه، [٢٥١ظ] ومِن الغالي في الكفر الداعي إليه. و﴿أَوْ﴾ للدلالة على أنّهما سِيّان في استحقاق العصيان والاستقلال به، والتقسيمُ باعتبار ما يدعُونه إليه، فإنّ ترتّب النهي على الوصفين مُشعِر بعلّيّتهما له، فلا بدّ أن يكون النهي عن الإطاعة في الإثم والكفر،

لا فيما ليس بإثم ولا كفر. وقيل: الآثم عُتْبَةُ، فإنّه كان ركّابًا للمآثم متعاطيًا لأنواع الفُسوق، والكَفور الوليدُ، فإنّه كان غاليًا في الكفر شديدَ الشكيمة في العتوّ.[١]

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وداوِمْ على ذِكره في جميع الأوقات، أو دُمْ على صلاة الفجر والظهر والعصر، فإنّ الأصيل ينتظِمهما.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾ وبعضَ الليل فصلِّ له، ولعلّه صلاة المغرب والعشاء. وتقديم الظرف لِما في صلاة الليل مِن مزيد كُلفةٍ وخُلوص. ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ وتهجَّد له قِطْعًا مِن الليل طويلًا.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ۝٢٧ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ۝٢٨ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٣١﴾

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الكفَرة ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ وينهمِكون في لذّاتها الفانية ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ﴾ أي: أمامهم لا يستعدُّون أو ينبِذون وراء ظهورهم ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ لا يعبئون به، ووَصْفُه بالثقل لتشبيه شدّته وهَوله بثِقل شيء فادح باهظ لحامله بطريق الاستعارة، وهو كالتعليل لِما أُمِر به ونُهِي عنه.

﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ﴾ لا غيرُنا ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ أي: أحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب، ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ بعد إهلاكهم ﴿تَبْدِيلًا﴾ بديعًا لا ريبَ فيه هو البعث، كما ينبئ عنه كلمة ﴿إِذَا﴾، أو بدّلنا غيرَهم ممّن يُطيع، كقوله تعالى: ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [التوبة، ٣٩/٩]، و﴿إِذَا﴾ للدلالة على تحقّق القدرة وقوّة الداعية.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ إشارة إلى السورة أو الآيات القريبة ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: فمَن شاء أن يتّخذ إليه تعالى سبيلًا، أي: وسيلةً تُوصله إلى ثوابه اتّخذه، أي: تقرّب إليه بالعمل بما في تضاعيفها.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٠٨/٤.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ تحقيق للحقّ ببيان أنّ مجرّد مشيئتهم غيرُ كافية في اتّخاذ السبيل، كما هو المفهوم مِن ظاهر الشرطيّة، / أي: وما تشاءون اتّخاذ السبيل، ولا تقدِرون على تحصيله في وقت مِن الأوقات إلّا وقتَ مشيئته[1] تعالى تحصيلَه لكم؛ إذ لا دَخْلَ لمشيئة العبد إلّا في الكسب، وإنّما التأثير والخلقُ لمشيئة الله عزّ وجلّ. وقُرِئ: "يَشَاءُوْنَ"[2] بـ"الياء"، وقُرِئ: "إِلَّا مَا يَشَاءُ اللهُ".[3] [٢٥٢و]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ بيان لكون مشيئته تعالى مبنيّةً على أساس العِلم والحكمة، والمعنى أنّه تعالى مبالغ في العِلم والحكمة، فيعلم ما يستأهله كلّ أحد فلا يشاء لهم إلّا ما يستدعيه عِلمه ويقتضيه حكمته.

وقوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ بيان لأحكام مشيئته المترتِّبة على عِلمه وحكمته، أي: يُدخل في رحمته مَن يشاء أن يُدخله فيها، وهو الذي يصرف مشيئته نحو اتّخاذ السبيل إليه تعالى، حيث يوفِّقه لِما يؤدّي إلى دخول الجنّة مِن الإيمان والطاعة.

﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهم الذين صرفوا مشيئتهم إلى خِلاف ما ذُكر ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: متناهيًا في الإيلام. قال الزجّاج نصب ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنّ ما قبله منصوب، أي: يُدخل مَن يشاء في رحمته ويعذِّب الظالمين، ويكون ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ تفسيرًا لهذا المضمر.[4] وقُرِئ بالرفع[5] على الابتداء.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ كان جزاؤه على الله تعالى جنّةً وحريرًا».[6]

---

[1] س: مشيئة الله.

[2] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وهشام بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٩٦/٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٧.

[4] انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ٢٦٤/٥؛ ونقله ابن عادل في اللباب، ٥٧/٢٠.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن الزُّبير وأبان بن عثمان وإبراهيم النخَعي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٧؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٧.

[6] الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٠/٢٨ (الإنسان، ١/٧٦)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣٩٨/٤ (الإنسان، ١/٧٦)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٠٩/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة المرسلات

مكّيّة، وهي خمسون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ۝١ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۝٣ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٥ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ۝١١ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ۝١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٣ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٤ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾

﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا * فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا * وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا * فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا * فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ إقسامٌ مِن الله عزّ وجلّ بطوائفَ مِن الملائكة أرسلهنّ بأوامره فعصفنَ في مضيّهنّ عصفَ الرياح مُسارعةً في الامتثال بالأمر، وبطوائفَ أخرى نشرنَ أجنحتهنّ في الجوّ عند انحطاطهنّ بالوحي، أو نشرنَ الشرائع في الأقطار، أو نشرنَ النفوسَ الموتى بالكفر والجهل بما أوحَين ففرَّقنَ بين الحقّ والباطل فألقينَ ذِكرًا إلى الأنبياء. ﴿عُذۡرًا﴾ للمُحقّين ﴿أَوۡ نُذۡرًا﴾ للمُبطلين.

/ ولعلّ تقديمَ نشرِ الشرائع ونشرِ النفوس والفَرْقِ على الالتقاء للإيذان بكونها غايةً للإلقاء حقيقةً بالاعتناء بها، أو للإشعار بأنّ كلًّا مِن الأوصاف المذكورة مستقِلّ بالدلالة على استحقاق الطوائف الموصوفة بها للتفخيم والإجلالِ بالإقسام بهنّ، ولو جيء بها على ترتيب الوقوع لَربّما فُهِم أنّ مجموع الإلقاء والنَّشر والفَرْق هو الموجِب لِما ذُكر مِن الاستحقاق. [٢٥٢ظ]

أو إقسامٌ برياحِ عذاب أرسلهنّ فعصفنَ وبرياح رحمةٍ نشرنَ السحاب في الجوّ ففرّقن بينه، كقوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا﴾ [الروم، ٤٨/٣٠]، أو بسحائبَ نشرنَ الموات ففرّقن كلَّ صنف منها عن سائر الأصناف بالشكل واللون وسائر الخواصّ،

أو فرّقن بين مَن يشكر الله تعالى وبين مَن يكفر به، فألقين ذِكرًا إمّا عُذرًا للمعتذِرين إلى الله تعالى بتوبتهم واستغفارهم عند مشاهدتهم لآثار رحمته تعالى في الغيث ويشكرونها، وإمّا إنذار للذين يكفرونها وينسبونها إلى الأنواء. وإسنادُ إلقاء الذِّكر إليهنّ لكونهنّ سببًا في حصوله إذا شكرتَ النعمة فيهنّ أو كفرت.

أو إقسامٌ بآيات القرآن المرسَلة إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فعصفنَ سائر الكتب بالنسخ ونشرنَ آثار الهدى في مشارق الأرض ومغاربها وفرّقن بين الحقّ والباطل، فألقين ذِكر الحقّ في أكناف العالمين. والعُرف إمّا نقيض النُّكر وانتصابُه على العِلّة، أي: أرسلنا للإحسان والمعروف، فإنّ إرسال ملائكةِ العذاب معروف للأنبياء عليهم السلام والمؤمنين، أو بمعنى المُتابعة، مِن "عُرف الفرَس"، وانتصابُه على الحاليّة. و"العُذر" و"النُّذر" مصدران مِن "عَذَر" إذا محا الإساءة ومِن "أنذَر" إذا خوّف، وانتصابهما على البدليّة مِن ﴿ذِكۡرًا﴾، أو على العِلّيّة، وقُرئا بالتثقيل.[1]

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾ جواب للقسم، أي: إنّ الذي توعدونه مِن مجيء القيامة كائنٌ لا محالةَ.

[٣٥٣و] / ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ مُحيَت ومُحِقت أو ذُهِب بنورها.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾ صُدعت وفُتحت فكانت أبوابًا.

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ﴾ جُعلت كالحبّ الذي يُنسَف بالمِنسَف، ونحوه ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا﴾ [الواقعة، ٥٦/٥]. وقيل: أُخِذت مِن مقارّها بسرعة مِن "انتسَفتُ الشيءَ" إذا اختطفتَه.[2] وقُرئ: "طُمِّسَتْ" و"فُرِّجَتْ" و"نُسِّفَتْ"[3] مُشدَّدةً.

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ﴾ أي: عُيِّن لهم الوقت الذي يحضرون فيه للشهادة على أمَمهم وذلك عند مجيئه وحضوره؛ إذ لا يتعيَّن لهم قبله، أو بلغوا المِيقات

---

١ قرأ بضمّ الذال مِن الأولى رَوح، وقرأ بضمّ الذال مِن الثانية نافع وابن كثير وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٧، ٣٩٦.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥١١.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مِقسَم وعمرو بن ميمون. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٨؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١٨٧٢.

الذي كانوا ينتظرونه. وقُرِئ: "وُقِّتَتْ"[١] على الأصل، وبالتخفيف فيهما.[٢]

﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ مقدَّر بقول هو جواب لـ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾، أو حال مِن مرفوع ﴿أُقِّتَتْ﴾، أي: يقال: لأيّ يوم أُخِّرت الأمور المتعلِّقة بالرسل، والمرادُ تعظيم ذلك اليوم والتعجيبُ مِن هوله.

وقوله تعالى: ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ بيان ليوم التأجيل، وهو اليوم الذي يُفصَل فيه بين الخلائق.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ ﴿مَا﴾ مبتدأ ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ خبره، أي: أيّ شيء جعلك داريًا ما هو فوُضع موضعَ الضمير ﴿يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ لزيادة تفظيعٍ وتهويلٍ، على أنّ ﴿مَا﴾ خبر و﴿يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ مبتدأ، لا بالعكس كما اختاره سيبويهِ؛[٣] لأنّ محطّ الفائدة بيانُ كون يوم الفصل أمرًا بديعًا هائلًا لا يُقادَر قَدْره ولا يُكتنه كُنْهه كما يُفيده خبريّة ﴿مَا﴾، لا بيانُ كون أمر بديع مِن الأمور يومَ الفصل، كما يُفيده عكسه.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: في ذلك اليوم الهائل. و﴿وَيْلٌ﴾ في الأصل مصدر منصوب سادّ مَسدّ فعله، لكن عُدل به إلى الرفع للدلالة على ثبات الهلاك ودوامه للمدعوّ عليه، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرفه أو صفته.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كقوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ لتكذيبهم به. وقُرِئ: "نَهْلِكِ"[٤] بفتح "النون" مِن "هَلَكَه" بمعنى أهْلَكه.

﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾ / بالرفع على "ثمّ نحن نُتبعهم الآخِرين مِن نظرائهم السالكين لمَسلَكهم في الكفر والتكذيب" وهو وعيد لكفّار مكّة. وقُرِئ: [٢٥٣ظ]

---

[١] قرأ بها أبو عمرو وابن وردان وابن جمّاز. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩٦.

[٢] قرأ بها أبو جعفر بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩٧.

[٣] انظر: كتاب سيبويه، ١/١٣٤.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٧.

"ثُمَّ سَنُتْبِعُهُمْ"،[١] وقُرِئ: "نُتْبِعْهُمْ"[٢] بالجزم عطفًا على ﴿نُهْلِكِ﴾، فيكون المراد بـ﴿ٱلْآخِرِينَ﴾ المتأخِّرين هلاكًا مِن المذكورين كقوم لوطٍ وشعيبٍ وموسى عليهم السلام.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل الفظيع ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: سُنّتنا جارية على ذلك.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ أهلكناهم ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بآيات الله تعالى وأنبيائه، وليس فيه تكرير لِما أنّ الويل الأوّل لعذاب الآخرة وهذا لعذاب الدنيا.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم﴾ أي: ألم نُقدِّركم ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ أي: مِن نطفة قذِرة مَهينة.

﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ هو الرَّحِم.

﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ إلى مِقدار معلوم مِن الوقت قدّره الله تعالى للولادة تسعةَ أشهر، أو أقلَّ منها، أو أكثرَ.

﴿فَقَدَرْنَا﴾ أي: فقدّرناه، وقد قُرئ مُشدَّدًا،[٣] أو فقدرنا على ذلك على أنّ المراد بالقُدرة ما يقارِن وجود المقدور بالفعل. ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ أي: نحن.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بقُدرتنا على ذلك، أو على الإعادة.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ الكِفات اسم ما يُكفَتُ، أي: يُضمّ ويُجمَع، مِن "كَفَت الشيءَ" إذا ضمّه وجمَعه، كالضِّمام والجِماع لِما يُضمّ ويُجمَع، أي:

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج والزّعفرني وأبي حَيْوَة، وابن مسلم عن يعقوب، ونُعيم عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٩٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٧٣.

٣ قرأ بها نافع والكسائي وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩٧.

ألم نجعلها كِفاتًا تكفِتُ. ﴿أَحۡيَآءٗ﴾ كثيرةً على ظهرها ﴿وَأَمۡوَٰتٗا﴾ غيرَ محصورة في بطنها. وقيل: هو مصدر نُعت به للمبالغة. وقيل: جَمْع "كافت" كـ"صائم" و"صِيام"، أو "كُفُتٍ" وهو الوعاء، أجريَ على الأرض باعتبار بقاعها.[١] وقيل: تنكير ﴿أَحۡيَآءٗ﴾ و﴿أَمۡوَٰتٗا﴾؛ لأنّ أحياء الإنس وأمواتَهم بعض الأحياء والأموات. وقيل: انتصابُهما على الحاليّة مِن محذوف، أي: كِفاتًا تكفتُكم أحياءً وأمواتًا.[٢]

﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالًا ثوابتَ ﴿شَٰمِخَٰتٖ﴾ طِوالًا شواهقَ، ووَصْفُ جمع المذكّر بجمع المؤنّث في غير العقلاء مُطّرد كـ"داجن" و"دواجن" و﴿أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞ﴾ [البقرة، ٢/١٩٧]. وتنكيرُها للتفخيم أو للإشعار / بأنّ فيها ما لم يُعرَف. [٢٥٤و]

﴿وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا﴾ بأن خلقنا فيها أنهارًا ومنابعَ.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ بأمثال هذه النِّعَم العظيمة.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ﴿٣٣﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ أي: يقال لهم يومئذ للتوبيخ وللتقريع: انطلقوا ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا مِن العذاب.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ خصوصًا ﴿إِلَىٰ ظِلّٖ﴾ أي: ظلّ دخانِ جهنّم، كقوله تعالى: ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ﴾ [الواقعة، ٥٦/٤٣]. وقُرِئ: "انْطَلَقُوا"[٣] على لفظ الماضي إخبارًا بعد الأمر عن عملهم بموجَبه لاضطرارهم إليه طوعًا أو كرهًا.

﴿ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾ يتشعّب لِعظَمه ثلاث شُعَب كما هو شأن الدّخان العظيم، تراه يتفرّق ذوائبَ. وقيل: يخرج لسان مِن النار، فيُحيط بالكفّار كالسُّرادق،

---

١ القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٨٤.
٢ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥١٢.
٣ قرأ بها رُويس. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩٧.

ويتشعَّب مِن دخانها ثلاث شُعَب فتُظلُّهم حتّى يفرَغ مِن حسابهم، والمؤمنون في ظل العرش.[١] قيل: خصوصيّة الثلاث إمّا لأنّ حِجاب النفس عن أنوار القدس الحسُّ والخيال والوهم، أو لأنّ المُؤدّي إلى هذا العذاب هو القوّة الوهميّة الشيطانيّة الحالّة في الدِّماغ والقوّة الغضبيّة السبُعيّة التي عن يمين القلب والقوّة الشَّهويّة البهيميّة التي عن يساره، ولذلك قيل: تقِف شُعبة فوق الكافر وشُعبة عن يمينه وشُعبة عن يساره.[٢]

﴿لَا ظَلِيلٍ﴾ تهكُّم بهم أو ردٌّ لِما أوهمه لفظ الظلّ. ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ أي: غيرُ مُغنٍ لهم مِن حرّ اللهب شيئًا.

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ أي: كلّ شررة كالقَصْر مِن القصور في عِظَمها. وقيل: هو الغليظ مِن الشجر، الواحدة "قَصْرة" نحو "جَمْر وجَمْرة".[٣] وقُرئ: "كالقَصَر"[٤] بفتحتين، وهي أعناق الإبل أو أعناق النخل، نحو "شَجَرة وشَجَر". وقُرئ: "كَالقُصُرِ"[٥] بمعنى القُصور / كـ"رُهْن" و"رُهُن". وقُرئ: "كَالقِصَرِ"[٦] جمعُ "قَصَرة". [٢٥٤ظ]

﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ﴾ قيل: هو جَمْع "جَمَل" والتاء لتأنيث الجمع، يقال: جَمَل وجِمال وجِمالة.[٧] وقيل: اسم جَمْع كـ"الحِجارة".[٨] ﴿صُفْرٌ﴾ فإنّ الشَّرار لِما فيه مِن الناريّة يكون أصفرَ. وقيل: سُود لأنّ سواد الإبل يضرب إلى الصُّفرة، والأوّل تشبيه في العِظَم، وهذا في اللون والكثرة والتتابع والاختلاط والحركة.[٩]

---

١ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٥١٢/٤.
٢ القول في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٨٥/٣.
٣ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٥١٢/٤.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وإبراهيم بن أبي عبلة وابن مِقسَم. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٦٧؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٩٩؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٨٧٥.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٦٧؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٨٧٥.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير وابن عبّاس. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٦٧؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٩٩.
٧ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٥١٢/٤.
٨ القول في **اللباب** لابن عادل، ٨٠/٢٠.
٩ القول في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٤٨٥/٣.

وقُرئ: "جِمَالَاتٌ"[١] جَمْع "جِمال" أو "جِمالة"، وقُرئ: "جُمَالَاتٌ"[٢] جمع "جُمَالَة" وقد قُرئ بها،[٣] وهي الحبل العظيم مِن جِبال السفن وقُلوس[٤] الجسور، والتشبيه في امتداده والتفافه.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۞ هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ إشارة إلى وقت دخولهم النار، أي: هذا يوم لا ينطقون فيه بشيء لِما أنّ السؤال والجواب والحساب قد انقضت قبل ذلك، ويوم القيامة طويل له مواطنُ ومواقيتُ ينطقون في وقت دون وقت فعُبّر عن كلّ وقت بـ﴿يَوۡمُ﴾، أو لا ينطقون بشيء ينفعهم فإنّ ذلك كلا نُطقٍ. وقُرئ بنصب "اليوم"،[٥] أي: هذا الذي فُصِّل واقع يومَ لا ينطقون.

﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ عطفٌ على ﴿يُؤۡذَنُ﴾ منتظِم في سِلك النفي، أي: لا يكون لهم إذن واعتذار متعقّب له مِن غير أن يُجعَل الاعتذار مُسبَّبًا عن الإذن، كما لو نُصب.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۞ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ بين الحقّ والباطل والمُحِقّ والمُبطِل. ﴿جَمَعۡنَٰكُمۡ﴾ خطاب لأمّة محمّد صلّى الله عليه وسلّم. ﴿وَٱلۡأَوَّلِينَ﴾ مِن الأمَم، وهذا تقرير وبيان للفصل.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ﴾ فإنّ جميع مَن كنتُم تُقلِّدونهم وتقتدون بهم حاضرون، وهذا تقريع لهم على كيدهم للمؤمنين في الدنيا وإظهارٌ لعجزهم.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ حيث ظهر ألّا حيلة لهم في الخلاص مِن العذاب.

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٩٧/٢.

٢ قرأ بها رُويس. النشر لابن الجزري، ٣٩٧/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وحُميد. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٦٧؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٨٧٦.

٤ القلوس جمع قَلْس: وهو الحبل الضخم مِن ليف أو خُوص. **لسان العرب** لابن منظور، «قلس».

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج والأعمش وأبي حَيْوَة وابن أبي عبلة والزّعفراني وحُميد وهُرمز وزيد بن عليّ. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٦٧؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٩٩؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٨٧٧.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٤٢ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٤٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٥ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ۝٤٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٧ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ۝٤٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٩ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝٥٠﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ مِن الكفر والتكذيب ﴿فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾. [٢٥٥و] / أي: مستقِرُّون في فنون الترفُّه وأنواع التنعُّم.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مقدَّر بقولٍ هو حال مِن ضمير ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ في الخبر، أي: مقولًا لهم: كلوا واشربوا هنيئًا بما كنتُم تعملونه في الدنيا مِن الأعمال الصالحة.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ الجزاء العظيم ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: في عقائدهم وأعمالهم، لا جزاءً أدنى منه.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ حيث نال أعداؤهم هذا الثواب الجزيل، وهم بقُوا في العذاب المخلَّد الوَبيل.

﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ مقدَّر بقولٍ هو حال مِن ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، أي: الويل ثابت لهم مقولًا لهم ذلك تذكيرًا لهم بحالهم في الدنيا، وبما جنَوا على أنفسهم مِن إيثار المتاع الفاني عن قريب على النعيم الخالد، وعُلِّل ذلك بإجرامهم دلالةً على أنّ كلّ مجرم مآله هذا. وقيل: هو كلام مستأنَف خُوطب به المكذِّبون في الدنيا بعد بيان مآل حالهم،[١] وقُرِّر ذلك بقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ لزيادة التوبيخ والتقريع.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟﴾ أي: أطيعوا الله واخشعوا وتواضعوا له بقَبول وحيه واتّباع دينه وارفُضوا هذا الاستكبار والنخوة. ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ لا يخشَعون ولا يقبَلون ذلك، ويُصرُّون على ما هم عليه مِن الاستكبار. وقيل: إذا أُمروا بالصَّلاة أو الركوع لا يفعلون؛[٢] إذ رُوي أنّه نزل حين أمَر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥١٤/٤.

[٢] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٨٦/٣.

ثقيفًا بالصَّلاة فقالوا: لا نُجَبِّي فإنّها مَسَبّةٌ علينا، فقال عليه السلام: «لا خيرَ في دين ليس فيه ركوع ولا سجود».[١] وقيل: هو يوم القيامة حين يُدعَون إلى السجود فلا يستطيعون.[٢]

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ وفيه دلالة على أنّ الكفّار مخاطَبون بالفروع في حقّ المؤاخذة.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ﴾ أي: بعد القرآن الناطق بأحاديث الدارين وأخبار النشأتين على نمط بديع مُعجِز مؤسَّس على حُجَج قاطعة / وبراهينَ ساطعة [٢٥٥ظ] ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يؤمنوا به. وقُرئ: "تُؤْمِنُوْنَ"[٣] على الخطاب.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة والمرسلات كُتب له أنّه ليس مِن المشركين».[٤]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٥/٢٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٥١٤/٤. ومضى قريب منه في تفسير الإسراء، ٧٣/١٧.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٨٦/٣.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش، وابن جرير عن ابن بكّار عن ابن عامر. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٧٧.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٨/٢٨ (المرسلات، ١/٧٧)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥١٤/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة النبأ

مكيّة، وهي أربعون أو[1] إحدى وأربعون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾

﴿عَمَّ﴾ أصله "عمّا" فحُذف منه "الألف" إمّا فرقًا بين "ما" الاستفهاميّة وغيرها، أو قصدًا للخِفّة لكثرة استعمالها. وقُرئ على الأصل.[2] وما فيها مِن الإبهام للإيذان بفخامة شأن المسئول عنه وهَوله وخروجه عن حدود الأجناس المعهودة، أي: عن أيّ شيء عظيم الشأن.

﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: أهلُ مكّة، وكانوا يتساءلون عن البعث فيما بينهم ويخوضون فيه إنكارًا واستهزاءً، لكن لا على طريقة التساؤل عن حقيقته ومسمّاه؛ بل عن وقوعه الذي هو حال مِن أحواله ووصفٌ مِن أوصافه. فإنّ "ما" وإن وُضعت لطلب حقائق الأشياء ومسمّيات أسمائها، كما في قولك: ما المُلك؟ وما الروح؟ لكنّها قد يُطلب بها الصفة والحال، تقول: ما زيدٌ؟ فيقال: عالمٌ أو طبيبٌ.

وقيل: كانوا يسألون عنه الرسولَ صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين استهزاءً، كقولهم: يتداعَونهم، أي: يدعُونهم.[3] وتحقيقه أنّ صيغة "التفاعُل" في الأفعال المتعدِّية موضوعة لإفادة صدور الفعل عن المتعدِّد ووقوعِه عليه بحيث يصير كلّ واحد مِن ذلك فاعلًا ومفعولًا معًا، لكنّه يُرفَع بإسناد الفعل إليه ترجيحًا

---

[1] س – أربعون أو.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب وعكرمة وعيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٧٩.

[3] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥١٥.

لجانب فاعليّته ويُحال بمفعوليّته على دلالة العقل، كما في قولك: "تراءى القومُ"، أي: رأى كلّ واحد منهم الآخرَ.

وقد تُجرَّد عن المعنى الثاني،[١] فيُراد بها مجرَّد صدور الفعل عن المتعدِّد عاريًا عن اعتبار وقوعه عليه، فيُذكَر للفعل حينئذ مفعول متعدِّد كما في المثال المذكور، أو واحد كما في قولك: "تراءوا الهلالَ"، وقد يُحذَف لظهوره كما فيما نحن فيه، فالمعنى: عن أيّ شيء يسأل هؤلاء القومُ الرسولَ صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين؟ وربّما تُجرَّد عن صدور الفعل عن المتعدِّد أيضًا فيُراد بها تعدُّده باعتبار تعدُّد متعلَّقه مع وَحدة الفاعل، كما في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم، ٥٥/٥٣].

وقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ بيان لشأن المسئول عنه إثر تفخيمه بإبهام أمره وتوجيهِ أذهان السامعين نحوه وتنزيلِهم منزلةَ المُستفهِمين، فإنّ إيراده على طريقة الاستفهام مِن علّام الغيوب للتنبيه على أنّه لانقطاع قرينه وانعدام نظيرِه خارجٌ عن دائرة علوم الخلق، خليق / بأن يُعتنى بمعرفته ويُسأل عنه، كأنّه [٢٥٦و] قيل: عن أيّ شيء يتساءلون؟ هل أخبِركم به؟ ثمّ قيل: بطريق الجواب: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ على منهاج قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر، ١٦/٤٠]، فـ﴿عَنْ﴾ متعلِّقة بما يدلّ عليه المذكور مِن مضمر حقُّه أن يقدَّر بعدها مُسارعةً إلى البيان ومراعاةً لترتيب السؤال. هذا هو الحقيق بالجزالة التنزيليّة.

وقد قيل: هي متعلِّقة بالمذكور، و﴿عَمَّ﴾ متعلِّق بمضمر مفسَّر به، وأُيِّد ذلك بأنّه قُرئ: "عَمَّهْ".[٢] والأظهرُ أنّه مبنيٌّ على إجراء الوصل مُجرَى الوقف.[٣] وقيل: "عن" الأولى للتعليل، كأنّه قِيل: لِمَ يتساءلون عن النبأ العظيم؟ وقيل: قبلَ ﴿عَنْ﴾ الثانية استفهام مضمر، كأنّه قيل: عمّ يتساءلون أعن النبأ العظيم؟[٤]

والنبأ: الخبر الذي له شأن وخطَر، وقد وُصف بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ بعد وصفه بـ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ تأكيدًا لخطره إثر تأكيد، وإشعارًا بمدار التساؤل عنه، و﴿فِيهِ﴾ متعلِّق بـ﴿مُخْتَلِفُونَ﴾ قُدِّم عليه اهتمامًا به ورعايةً للفواصل.

---

١ وفي هامش م: هو وقوع الفعل عليه.

٢ قرأ بها يعقوب والبزّي بخلاف عنها. النشر لابن الجزري، ١٣٤/٢.

٣ الوجهان في الكشّاف للزمخشري، ٥١٥/٤.

٤ القولان في اللباب لابن عادل، ٩٣/٢٠.

وجعلُ الصلة جملةً اسميّةً للدلالة على الثبات، أي: هم راسخون في الاختلاف فيه، فمِن جازم باستحالته يقول: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا[1] وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون، ٣٧/٢٣]، وشاكٍّ يقول ﴿مَا نَدْرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية، ٣٢/٤٥]. وقيل: منهم مَن يُنكِر المَعادَين معًا كهؤلاء، ومنهم مَن يُنكِر المعاد الجسماني فقط كجمهور النصارى.[2]

وقد حُمل الاختلاف على الاختلاف في كيفيّة الإنكار، فمنهم مَن يُنكره لإنكاره الصانع المختار، ومنهم مَن يُنكره بناءً على استحالة المعدوم بعينه.[3]

وحملُه على الاختلاف بالنفي والإثبات بناءً على تعميم التساؤل لفريقَي المسلمين والكافرين، على أنّ سؤال الأوّلين ليزدادوا خشيةً واستعدادًا، وسؤالَ الآخرين ليزدادوا كفرًا وعنادًا،[4] يردّه قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾... إلخ،[5] / فإنّه صريح في أنّ المراد اختلافُ الجاهلين به المنكرين له؛ إذ عليه يدور الردعُ والوعيد، لا على خلاف المؤمنين لهم، وتخصيصهما بالكفَرة بناءً على تخصيص ضمير ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ بهم مع عموم الضميرين السابقين للكلّ ممّا ينبغي تنزيه التنزيل عن أمثاله. هذا ما أدّى إليه جليلُ النظر. [٢٥٦ظ]

والذي يقتضيه التحقيق ويستدعيه النظرُ الدقيق أن يُحمَل اختلافهم على مخالفتهم للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم بأن يُعتبَر في الاختلاف محضُ صدور الفعل عن المتعدِّد حسبما ذُكر في التساؤل، فإنّ "الافتعال" و"التفاعل" صيغتانِ متآخيتان كالاستباق والتسابق والانتضال والتناضل إلى غير ذلك، يجري في كلّ منهما ما يجري في الأخرى، لا على مخالفة بعضهم لبعض مِن الجانبين؛ لأنّ الكلّ وإن استحقّ الردعَ والوعيد لكنّ استحقاق كلّ جانب لهما ليس لمخالفته للجانب الآخر؛ إذ لا حقّيّة في شيء منهما حتّى يستحقّ مَن يخالفه المؤاخذة؛ بل لمخالفته له عليه السلام.

---

[1] م س + وما يهلكنا إلّا الدهر.

[2] القول في اللباب لابن عادل، ٩٢/٢٠.

[3] الوجه في اللباب لابن عادل، ٩٢/٢٠.

[4] أورد الزمخشري هذا الوجه على سبيل التضعيف في **الكشّاف**، ٥١٥/٤.

[5] س – إلخ.

فـ﴿كَلَّا﴾ ردع لهم عن التساؤل والاختلاف بالمعنيين المذكورين، و﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ وعيد لهم بطريق الاستئناف وتعليل للردع، و"السين" للتقريب والتأكيد، وليس مفعوله ما ينبئ عنه المقام مِن وقوع ما يتساءلون عنه ووقوعِ ما يختلفون فيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل، ٣٨/١٦] إلى قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ[١] فِيهِ﴾ الآية [النحل، ٣٩/١٦]، فإنّ ذلك عارٍ عن صريح الوعيد؛ بل هو عبارة عمّا يُلاقونه مِن فنون الدواهي والعقوبات.

والتعبير عن لقائها بالعِلم لوقوعه في معرِض التساؤل والاختلاف، والمعنى: ليرتدِعوا عمّا هم عليه، فإنّهم سيعلمون عمّا قليل حقيقةَ الحال إذا حلّ بهم العذاب والنّكال.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تكرير للردع والوعيد للمبالغة في التأكيد والتشديد، و﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على أنّ الوعيد الثّاني أبلغ وأشدّ. وقيل: الأوّل عند النزع والثاني في القيامة. وقيل: الأوّل للبعث والثاني للجزاء.[٢] وقُرئ: "سَتَعْلَمُوْنَ"[٣] بـ"التاء" على نهج الالتفات / إلى الخطاب الموافق لِما بعده مِن الخطابات تشديدًا للردع والوعيد، لا على تقدير "قل لهم" كما تُوهِّم؛[٤] فإنّ فيه مِن الإخلال بجزالة النظم الكريم ما لا يخفى. [٢٥٧و]

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾... إلخ، استئناف مَسوق لتحقيق النبأ المُتساءل عنه بتعداد بعض الشواهد الناطقة بحقّيّته إثر ما نُبّه عليها

---

١ م س: اختلفوا.

٢ القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٨٨/٣.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة والحسن ومالك بن دينار وابن مِقسَم والفحّام، والجوردكي عن الوليد عن يعقوب، والتغلبي عن ابن ذكوان. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٧٩.

٤ ذلك في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٨٨/٣.

بما ذُكر مِن الردع والوعيد. ومِن ههنا اتّضح أنّ المُتساءل عنه هو البعث، لا القرآن أو نبوّة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كما قيل.[١] و"الهمزة" للتقرير. والالتفات إلى الخطاب على القراءة المشهورة للمبالغة في الإلزام والتبكيت. والمِهاد: البِساط والفِراش. وقُرئ: "مَهْدًا"[٢] على تشبيهها بمهد الصبيّ، وهو ما يُمهَد له فيُنوّم عليه تسميةً للمَمهود بالمصدر. وجعلُ الجبال أوتادًا لها إرساؤها بها كما يُرسى البيت بالأوتاد.

﴿وَخَلَقْنَـٰكُمْ﴾ عطفٌ على المضارع المنفيّ بـ﴿لَمْ﴾ داخل في حُكمه، فإنّه في قوّة "أمَا جعلنا"... إلخ، أو على ما يقتضيه الإنكار التقريري، فإنّه في قوّة أن يقال: "قد جعلنا"... إلخ. ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أصنافًا ذكرًا وأنثى ليسكُن كلّ مِن الصنفين إلى الآخر، وينتظِم أمر المعاشرة والمعاش ويتسنّى التناسُل.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي: موتًا فإنّه أحد التّوفّيين لِما بينهما مِن المشاركة التامّة في انقطاع أحكام الحياة، وعليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ [الأنعام، ٦/٦٠]، وقولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر، ٣٩/٤٢]. وقيل: قطعًا عن الإحساس والحركة لإراحة القوى الحيوانيّة وإزاحةِ كلالها.[٣] والأوّل هو اللائق بالمِقام، كما ستعرفه.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ﴾ الذي يقع النوم فيه غالبًا ﴿لِبَاسًا﴾ يستركم بظلامه كما يستركم اللباس، ولعلّ المرادَ به ما يُستتر به عند النوم مِن اللِّحاف ونحوه، فإنّ شبَه الليل به أكملُ واعتبارَه في تحقيق المقصد أدخَلُ، فهو جَعْل الليل محلًّا للنوم الذي جُعل موتًا كما جُعل النّهار محلًّا لليقظة المُعبَّر عنها بالحياة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ / أي: وقتَ حياةٍ تُبعثون فيه مِن نومكم الذي هو أخو الموت، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان، ٢٥/٤٧]. [٢٥٧ظ]

وجَعْلُ كونِ الليل لباسًا عبارةً عن سَتْره عن العيون لمَن أراد هربًا مِن عدوّ

---

١ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥١٥.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وعيسى بن عمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٨.

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٨٨.

أو بيانًا له أو نحو ذلك،[١] ممّا لا مناسبةَ[٢] له بالمقام، وكذا جَعْلُ النهار وقتَ التقلّب في تحصيل المعايش والحوائج.[٣]

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ أي: سبعَ سماوات قويّةَ الخلقِ محكمَةَ البناء لا يُؤثِّر فيها مرّ الدهور وكرّ العصور. والتعبير عن خَلْقها بـ"البناء" مبنيّ على تنزيلها منزلةَ القِباب المضروبة على الخَلْق. وتقديم الظرف على المفعول ليس لمراعاة الفواصل فقط؛ بل للتشويق إليه، فإنّ ما حقّه التقديم إذا أُخِر تبقى النفس مترقِّبةً له، فإذا ورد عليها تمكّن عندها فضلَ تمكُّن.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ هذا الجَعْل بمعنى الإنشاء والإبداع كالخَلْق، خلا أنّه مختصّ بالإنشاء التكويني، وفيه معنى التقدير والتسوية، وهذا عامّ له كما في الآية الكريمة، وللتشريعي أيضًا كما في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ [المائدة، ١٠٣/٥]... إلخ، وقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة، ٤٨/٥].

وأيًّا ما كان ففيه إنباء عن ملابسة مفعوله بشيء آخر بأن يكون فيه أوّله أو منه أو نحو ذلك ملابَسةً مصحِّحةً لأنّ يتوسّط بينهما شيء مِن الظروف لغوًا كان أو مستقرًا، لكن لا على أن يكون عُمدةً في الكلام؛ بل قيدًا فيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ [الفرقان، ٥٣/٢٥]، وقولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [الرعد، ٣/١٣]، وقولِه تعالى: ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ الآية [النساء، ٧٥/٤]. فإنّ كلّ واحد مِن هذه الظروف إمّا متعلِّق بنفس الجَعْل، أو بمحذوف وَقَع حالًا مِن مفعوله تقدّمت عليه لكونه نكرةً.

وأيًّا ما كان فهو قيد في الكلام حتّى إذا اقتضى الحالُ وقوعَه عمدةً فيه يكون الجَعْل متعدِّيًا إلى اثنين هو ثانيهما، كما في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ [البقرة، ١٩/٢]، وربّما يشتبه الأمر فيُظنّ أنّه عمدة فيه وهو في الحقيقيّة قيد بأحد الوجهين، كما سلف في قوله تعالى: / ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة، ٣٠/٢]. [٢٥٨و]

---

١ كما ذكره الزمخشري في الكشّاف، ٥١٦/٤.

٢ السياق: وجَعْل... ممّا لا مناسبةَ...

٣ وهو أحد وجهين ذكرهما البيضاوي في أنوار التنزيل، ٤٨٨/٣.

والوهّاج: الوقّاد المتلألئ مِن "وهَجت النارُ" إذا أضاءت، أو البالغُ في الحرارة مِن الوَهْج، والمراد به الشمس. والتعبير عنها بـ"السِّراج" مِن روادف التعبير عن خلق السماوات بـ"البناء".

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ هي السحائب إذا أعصَرَت، أي: شارفَت أن تعصِرها الرياح فتُمطِر، كما في "أَحْصَدَ الزَّرعُ" إذا حان له أن يُحصَد، ومنه "أعصَرتِ الجاريةُ" إذا دنَت أن تحيض، أو الرياح التي حان لها أن تعصِر السحابَ. وقُرِئ: "بِالمُعْصِرَاتِ"،[١] ووجهُ ذلك أنّ الإنزال حيث كان مِن المعصرات -سواء أريدَ بها السحائب أو الرياح- فقد كان بها، كما يقال: أعطاه مِن يده وبيده. وقد فُسِّرت ﴿ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ بالرياح ذوات الأعاصير، ووجهُ أنّ الرياح هي التي تنشئ السحابَ وتُدِرّ أخلافه فصلحت أن تُجعل مبدأً للإنزال.[٢]

﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾ أي: مُنصبًّا بكثرة، يقال: "ثجّ الماءُ"، أي: سال بكثرة، و"ثجّه"، أي: أسالَه، ومنه قوله صلّى الله عليه وسلّم: «أفضل الحجّ العَجّ والثجّ»،[٣] أي: رَفْع الصوت بالتلبية وصبُّ دماء الهَدي. وقُرِئ: "ثَجَّاحًا"[٤] بـ"الحاء" بعد "الجيم"، قالوا: "مثاجحُ الماء: مَصابّه".

﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ﴾[٥] بذلك الماء ﴿حَبًّا﴾ يُقتات كالحنطة والشعير ونحوهما ﴿وَنَبَاتًا﴾ يُعتلَف كالتبن والحشيش. وتقديم الحبّ مع تأخّره عن النبات في الإخراج لأصالته وشرفه؛ لأنّ غالبه غذاء الإنسان.

﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ الجنّة في الأصل هي المرّة مِن مصدر "جَنَّه" إذا سَتَره، تُطلق على النخل والشجر المُتكاثِف المُظلِّل بالتفاف أغصانه، قال زهير بن أبي سُلمى:

كــأنّ عينيّ فـي غـربَـيْ مُـقـتَّـلـةٍ ... مِـن الـنـواضـح تسقي جنّةً سُحُقا[٦]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وابن الزُّبير وقتادة وعكرمة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٨؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٠.

[٢] الكلام على هذا الوجه بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٥١٦/٤.

[٣] بلفظ قريب في سنن الترمذي، ٢٢٥/٥ (٢٩٩٨)؛ وسنن ابن ماجه، ١٤٣/٤ (٢٨٩٦)؛ وجامع البيان للطبري، ١٥/٢٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٥١٧/٤.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٨٠.

[٥] س + أي.

[٦] مضى بتخريجه في تفسير البقرة، ٢٦٦/٢.

وعلى الأرض ذات الشجر،[١] قال الفرّاء: الجنّة: ما فيه النخيل، والفِردوس: ما فيه الكَرْم،[٢] والأوّل هو المراد.

وقوله تعالى: ﴿أَلْفَافًا﴾ أي: ملتفّةً تداخل بعضها في بعض، قالوا: لا واحد له كـ"الأوزاع" و"الأخياف"، وقيل: الواحد "لِفّ" كـ"كِنّ وأكنان"، أو "لفيف" / كـ"شَريف وأشراف". وقيل: هو جمع "لُفّ" جمعِ "لفّاء"، كـ"خُضر وخَضراء". [٢٥٨ظ] وقيل: جمع "مُلتفّة" بحذف الزوائد.[٣]

واعلم أنّ فيما ذكر مِن أفعاله عزّ وجلّ دلالة على صحّة البعث وحقّيّته مِن وجوه ثلاثة: **الأوّل**: باعتبار قدرته تعالى، فإنّ مَن قدر على إنشاء هذه الأفعال البديعة مِن غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه كان على الإعادة أقدرَ وأقوى، **الثاني**: باعتبار عِلمه وحكمته، فإنّ مَن أبدع هذه المصنوعات على نمط رائع مستتبع لغايات جليلة ومنافعَ جميلة عائدةً إلى الخلق يستحيل أن يُفنيَها بالكلّيّة ولا يجعل لها عاقبةً باقيةً، **والثالث**: باعتبار نفس الفعل، فإنّ اليقظة بعد النوم أنموذج للبعث بعد الموت يشاهدونها كلّ يوم، وكذا إخراج الحبّ والنبات مِن الأرض الميتة يعاينونه كلّ حين، كأنّه قيل: ألم نفعل هذه الأفعال الآفاقيّةَ والأنفسيّةَ الدالّةَ بفنون الدلالات على حقّيّة البعث الموجِبةَ للإيمان به، فما لكم تخوضون فيه إنكارًا وتتساءلون عنه استهزاءً.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ شروع في بيان سرّ تأخير ما يتساءلون عنه ويستعجلون به قائلين ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [يونس، ٤٨/١٠]، ونوعُ تفصيل لكيفيّة وقوعه وما سيلقَونه عند ذلك مِن فنون العذاب، حسبما جرى به الوعيد إجمالًا، أي: إنّ يوم فصل الله عزّ وعلا بين الخلائق كان في عِلمه وتقديره

---

١ السياق: تُطلق على النخل... وعلى الأرض...

٢ ما وقفتُ عليه في معاني القرآن. ونقله عن الفرّاء البغويُّ في معالم التنزيل، ٧٣/١ (البقرة، ٢٥/٢)؛ وابن عادل في اللباب، ٤٥٠/١ (البقرة، ٢٥/٢).

٣ الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٥١٧/٤.

ميقاتًا وميعادًا لبعث الأوّلين والآخرين، وما يترتَّب عليه مِن الجزاء ثوابًا وعقابًا لا يكاد يتخطّاه بالتقدّم والتأخّر.

وقيل: حدًّا تُوقَّت به الدنيا وتنتهي عنده، أو حدًّا للخلائق ينتهون إليه.[١] ولا ريبَ في أنّهما بمَعزِل مِن التقريب الذي أشيرَ إليه، على أنّ الدنيا تنتهي عند النفخة الأولى.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ أي: نفخةً ثانيةً بدلٌ مِن ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، أو عطفُ بيان له مفيد لزيادة تفخيمه وتهويله، ولا ضيرَ في تأخّر الفصل عن النفخ، فإنّه زمان ممتدّ يقع في مبدئه النفخة وفي بقيّته الفصل ومباديه وآثاره. و﴿ٱلصُّورِ﴾: هو القَرْن الذي ينفخ فيه إسرافيلُ عليه السلام.

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «لمّا فرغ الله تعالى مِن خَلْق السماوات والأرض خَلَق الصُّور فأعطاه إسرافيلَ، فهو واضعُه على فيه شاخص بصره إلى العرش، متى يؤمَر بالنفخ فيه فيُؤمَر به[٢] فينفخ فيه نفخةً لا يبقى عندها في الحياة غيرُ مَن شاء الله، وذلك قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر، ٦٨/٣٩]، ثمّ يؤمَر بأخرى فينفخ نفخةً لا يبقى معها ميّت إلّا بُعث وقام، وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر، ٦٨/٣٩]».[٣]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَتَأْتُونَ﴾ فصيحةٌ تُفصِح عن جملة قد حُذفت ثقةً بدلالة الحال عليها وإيذانًا بغاية سرعة الإتيان، كما في قوله تعالى: ﴿أَنِ[٤] ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء، ٦٣/٢٦]، أي: فتُبعثون مِن قبوركم فتأتون إلى الموقف عَقيبَ ذلك مِن غير لبث أصلًا. ﴿أَفْوَاجًا﴾ أي: أممًا كلّ أمّة مع إمامها كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء، ٧١/١٧]، أو زمرًا [٢٥٩و] وجماعاتٍ مختلفةَ الأحوال متباينةَ الأوضاع حسب اختلاف أعمالهم وتباينها.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥١٧/٤.

٢ س - فيُؤمر به.

٣ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٤١٩/١٥ (الكهف، ٩٩/١٨)؛ وتفسير ابن أبي حاتم، ٢٩٢٨/٩ (المؤمنون، ٨٧/٢٧).

٤ م س: فقلنا.

عن معاذ رضي الله عنه أنّه سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال عليه السلام: «يا معاذُ سألتَ عن أمر عظيم مِن الأمور»، ثمّ أرسل عينيه وقال: «تُحشَر عشرةُ أصناف مِن أمّتي: بعضُهم على صورة القِرَدة، وبعضُهم على صورة الخنازير، وبعضُهم مُنكّسون أرجلهم فوق وجوههم يُسحَبون عليها، وبعضُهم عُميّ، وبعضُهم صُمّ بُكمٌ، وبعضُهم يمضعون ألسنتهم فهي مدلّاة على صدورهم يسيل القيح مِن أفواههم يتقذّرهم أهلُ الجَمْع، وبعضُهم مقطّعة أيديهم وأرجلهم، وبعضُهم مُصلّبون على جذوع مِن نار، وبعضُهم أشدّ نتنًا مِن الجِيَف، وبعضُهم مُلبَسون جِبابًا سابغةً مِن قَطِران لازقةً بجلودهم.

فأمّا الذين على صورة القِرَدة فالقتّات مِن الناس، وأمّا الذين على صورة الخنازير فأهلُ السُّحت، وأمّا المُنكّسون على وجوههم فأكَلَة الرِّبا، وأمّا العُمي فالذين يجورون في الحُكم، وأمّا الصمّ البُكم فالمُعجَبون بأعمالهم، وأمّا الذين يمضغون ألسنتهم فالعلماء الذين خالفت أقوالهم أعمالَهم، وأمّا الذين قُطِّعت أيديهم وأرجلُهم فهم الذين يؤذون جيرانهم، وأمّا المصلَّبون على جذوع مِن نار فالسُّعاة بالناس إلى السلطان، وأمّا الذين هم أشدّ نَتْنًا مِن الجِيَف فالذين يتّبعون الشهواتِ واللذّاتِ ومنعوا حقّ الله تعالى في أموالهم، وأمّا الذين يُلبَسون الجِباب فأهل الكِبر والفخر والخُيلاء».[1]

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ عطفٌ على ﴿يُنفَخُ﴾، وصيغة الماضي للدلالة على التحقّق. وقُرئ: "فُتِّحَتْ"[2] بالتشديد، وهو الأنسب بقوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ أي: كثُرت أبوابها المُفتّحة لنزول الملائكة نزولًا غيرَ معتاد حتّى صارت كأنّها ليست إلّا أبوابًا مفتّحةً، كقوله تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر، ١٢/٥٤]، كأنّ كلّها عيونٌ متفجّرة، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان، ٢٥/٢٥]، وهو الغمام الذي ذُكر في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾

---

[1] لم أجده في مظانّه. وهو بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٣١٥/٢٨-٣١٦؛ والكشّاف للزمخشري، ٥١٧/٤-٥١٨.

[2] قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٦٤/٢.

أي: أمرُه وبأسُه ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة، ٢١٠/٢]. وقيل: الأبواب: الطرق والمَسالك، أي: تُكشَط فينفتح مكانها وتصير طرقًا لا يسدّها شيء.[١]

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: في الجوّ على هيئاتها بعد قلعها مِن مقارّها، / كما يعرِب عنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل، ٨٨/٢٧] أي: تراها رأيَ العين ساكنةً في أماكنها والحالُ أنّها تمرّ مرّ السحاب الذي تُسيِّرها الرياح سَيرًا حثيثًا، وذلك أنّ الأجرام العِظام إذا تحرّكتْ نحوًا مِن الأنحاءِ لا تكاد تتبيَّن حركتها وإن كانت في غاية السرعة لا سيّما مِن بعيد،[٢] وعليه قول مَن قال: [٢٥٩ظ]

بأرعَنَ مِثلِ الطَّود تحسب أنّهمْ   وقوفٌ لِحَاجٍ والرِّكاب تُهَمْلِجُ[٣]

وقد أُدمِج في هذا التشبيه تشبيه حال الجبال بحال السحاب في تخلخُل الأجزاء وانتفاشها، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة، ٥/١٠١]. يُبدِّل الله عزّ وجلّ الأرض ويُغيِّر هيأتها ويُسيِّر الجبال على تلك الهيئة الهائلة عند حَشْر الخلائق بعد النفخة الثانية ليشاهدوها، ثمّ يفرِّقها في الهواء، وذلك قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي: فصارت بَعْدَ تَسييرها مثلَ السراب، كقوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة، ٥٦/٥-٦] أي: غُبارًا منتشِرًا، وهي وإن اندكَّت وانصدعَت عند النفخة الأولى، لكنّ تسييرها وتسويةَ الأرض إنّما يكونان بعد النفخة الثانية، كما نطَق به قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾ [طه، ٢٠/١٠٥-١٠٨]، وقولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [ابراهيم، ٤٨/١٤]، فإنّ اتّباع الداعي الذي هو إسرافيلُ عليه السلام وبُروزَ الخلق لله تعالى لا يكون إلّا بعد النفخة الثانية.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥١٨/٤.
٢ الكلام بلفظ قريب في الغريبين للهروي، ٣٦٢/١.
٣ البيت للنابغة الجَعدي في ديوانه، ص ١٤٨ وهو له في شرح القصائد السبع لابن الأنباري، ص ٣٦١؛ وبلا عزو في الغريبين للهروي، ٣٦٢/١. وقصد به جيشًا يُشبِه الجبل، والجيش الأرعن: هو المضطرب لكثرته. لسان العرب لابن منظور، «رعن».

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ شروع في تفصيل أحكام الفَصْل الذي أضيفَ إليه "اليوم" إثر بيانِ هَوله. ووجهُ تقديم بيانِ حال الكفّار غَنيّ عن البيان. والمِرصاد: اسمٌ للمكان الذي يُرصَد فيه كـ"المِضمار" الذي هو اسم للمكان الذي يُضمَّر فيه الخيل، و"المِنهاج" اسم للمكان الذي يُنهَج فيه، أي: أنّها كانت في حُكم الله تعالى وقضائه موضعَ رَصد يَرصُد فيه خَزَنةُ النار الكفّار ليُعذّبوهم فيها.

﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾ متعلّق بمضمَر هو إمّا نعت لـ﴿مِرْصَادًا﴾، أي: كائنًا للطاغين، وقوله تعالى: ﴿مَـَٔابًا﴾ بدلٌ منه، أي: مَرجِعًا يرجعون إليه لا محالةَ، وإمّا حال مِن ﴿مَـَٔابًا﴾ قُدِّمت عليه لكونه نكرةً، ولو تأخّرت لكانت صفةً له. / [٢٦٠و] وقد جُوِّز أن يتعلّق بنفس ﴿مَـَٔابًا﴾، على أنّها مِرصاد للفريقين مآبٌ للكافرين خاصّة.[١] ولا يخفى بُعده؛ فإنّ المتبادر مِن كونها مِرصادًا لطائفة كونُهم معذَّبين بها، وقد قيل: إنّها مِرصاد لأهل الجنّة يرصُدهم الملائكة الذين يستقبلونهم عندها؛ لأنّ مجازهم عليها وهي مآب للطاغين.[٢] وقيل: "المِرصاد" صيغة مبالغة مِن الرصد، والمعنى أنها مُجِدَّة في ترصُّد الكفار لئلّا يشذّ منهم أحد.[٣] وقرئ: "أَنَّ"[٤] بالفتح على تعليل قيام الساعة بأنّها مِرصاد للطاغين.

﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ﴾ حال مقدَّرة مِن المستكِنّ في ﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾. وقُرئ: "لَبِثِينَ".[٥] وقوله تعالى: ﴿أَحْقَابًا﴾ ظرف للَبْثهم، أي: دهورًا متتابعةً كلّما مضى حُقب[٦] تبِعه حُقب آخرُ إلى غير نهاية، فإنّ الحُقب لا يكاد يستعمل إلّا حيث يُراد تتابع الأزمنة

---

١ هذه الوجه في التبيان للعكبري، ١٢٦٧/٢؛ واللباب لابن عادل، ١٠٤/٢٠.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥١٨/٤.

٣ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٨٩/٣.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٠.

٥ قرأ بها حمزة ورَوح. النشر لابن الجزري، ٣٩٧/٢.

٦ الحُقْب والحُقُب: ثمانون سنةً. وقيل: أكثر مِن ذلك. والدهر. وقيل: السَّنة. وجمعه حِقاب، كـ"قُفٍ وقِفاف". لسان العرب لابن منظور، «حقب».

وتواليها، فليس فيه ما يدلّ على تناهي تلك الأحقاب، ولو أريد بالحُقب ثمانون سنةً أو سبعون ألفَ سنة.[١]

وقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ جملةٌ مبتدأة، أُخبِر عنهم بأنّهم لا يذوقون فيها شيئًا مِن برد ورَوح يُنفِّس عنهم حرَّ النار ولا مِن شراب يُسكِّن مِن عطشهم، ولكن يذوقون فيها حميمًا وغسّاقًا. وقيل: البرد النوم.[٢] وقُرئ: "غَسَاقًا"[٣] بالتخفيف، وكلاهما ما يسيل مِن صَديدهم.

﴿جَزَآءً﴾ أي: جوُزوا بذلك جزاءً ﴿وِفَاقًا﴾ ذا وفاق لأعمالهم، أو نفسَ الوِفاق مبالغةً، أو وافقها وِفاقًا. وقُرئ: "وِفَّاقًا"[٤] على أنّه "فعّال" مِن "وَفِقَه كذا"، أي: لاقَه.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ تعليل لاستحقاقهم الجزاء المذكور، أي: كانوا لا يخافون أن يُحاسبوا بأعمالهم.

﴿وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الناطقة بذلك ﴿كِذَّابًا﴾ أي: تكذيبًا مُفرِطًا، ولذلك كانوا مصرِّين على الكُفر وفنون المعاصي. و"فعّال" مِن باب "فعّل" شائع فيما بين الفصحاء. وقُرئ بالتخفيف[٥] وهو مصدر "كَذَب"، قال:

فصَدَقْتُها وكَذَبْتُها والمرءُ ينفعُه كِذَابُهْ[٦]

وانتصابه إمّا بفعله / المدلول عليه بـ﴿كَذَّبُواْ﴾، أي: وكذّبوا بآياتنا فكذَبوا كِذَابًا، وإمّا بنفس ﴿كَذَّبُواْ﴾ لتضمُّنه معنى "كَذَبوا"، فإنّ كلّ مَن يكذِّب بالحقّ فهو كاذب. وقُرئ: "كُذَّابًا"[٧] وهو جمع "كاذب"، فانتصابه على الحاليّة، أي: [٢٦٠ظ]

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٥١٨/٤.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥١٨/٤.

٣ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٣٦١/٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٨.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مناذر وابن مِقسَم عن الدُّروي عن الكسائي. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٨٨١.

٦ للأعشى في جامع البيان للطبري، ٤٣/٢٤؛ والتفسير البسيط للواحدي، ١٤١/٢٣؛ وليس في ديوانه؛ وهو بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥١٩/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٩٠/٣.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والماجشون. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠١؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٨٨١.

كذّبوا بآياتنا كاذبين، وقد يكون الكُذّاب بمعنى الواحد البليغ في الكَذِب فيُجعل صفةً لمصدر ﴿كَذَّبُواْ﴾، أي: تكذيبًا كُذّابًا مفرطًا كِذبُه.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ مِن الأشياء التي مِن جملتها أعمالهم. وانتصابه بمضمر يفسّره ﴿أَحْصَيْنَهُ﴾ أي: حفظناه وضبطناه. وقُرئ بالرفع[1] على الابتداء. ﴿كِتَبًا﴾ مصدر مؤكِّد لـ﴿أَحْصَيْنَهُ﴾ لِما أنّ الإحصاء والكِتْبة مِن وادٍ واحد،[2] أو لفعله المقدَّر، أو حال بمعنى مكتوبًا في اللوح أو في صحف الحَفَظة، والجملة اعتراض.

وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ مسبَّب عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات، وفي الالتفات المنبئ عن التشديد في التهديد وإيرادِ ﴿لَن﴾ المفيدة لكون تَرْك الزيادة مِن قبيل ما لا يدخل تحت الصحّة، مِن الدلالة[3] على تبالُغ الغضب ما لا يخفى. وقد رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: أنّ هذه الآية أشدّ ما في القرآن على أهل النّار.[4]

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّبًا ۝٣٥ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦﴾

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ شروع في بيان محاسنِ أحوال المؤمنين إثرَ بيان سوء أحوال الكفرة، أي: إنّ للذين يتّقون الكفرَ وسائر قبائح أعمال الكفَرة فوزًا وظفَرًا بمباغيهم أو موضعَ فوز. وقيل: نجاةً ممّا فيه أولئك، أو موضعَ نجاة.[5]

وقوله تعالى: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَبًا﴾ أي: بساتينَ فيها أنواع الأشجار المثمِرة وكرومًا، بدلٌ مِن ﴿مَفَازًا﴾.

﴿وَكَوَاعِبَ﴾ أي: نساءً فَلَكت ثُدِيُّهُنّ، وهنّ النواهد ﴿أَتْرَابًا﴾ أي: لِدَات.

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ أي: مُترَعةً، يقال: "أدهَق الحوضَ"، أي: مَلأه.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال وابن مِقسَم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١١٦٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٨٢.

٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥١٩/٤.

٣ السياق: وفي الالتفات... مِن الدلالة...

٤ بمعناه في جامع البيان للطبري، ١٣٦/٢٤؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥١٩/٤.

٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥١٩/٤.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أي: في الجنّة. وقيل: في الكأس.[١] ﴿لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ أي: لا ينطقون بلَغو ولا يكذِّب بعضُهم بعضًا. وقُرئ: "كِذَابًا"[٢] بالتخفيف، أي: لا يكذِبه أو لا يُكاذِبه.

﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ مصدر مؤكِّد منصوب بمعنى ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾،[٣] فإنّه في قوّة أن يقال: جازى المتّقين بمَفازٍ جزاءً كائنًا مِن ربّك. والتعرّضُ لعنوان الربوبيّة المُنبئة عن التبليغ إلى الكمال شيئًا فشيئًا مع الإضافة / إلى ضميره [٢٦١و] صلّى الله عليه وسلّم مزيدُ تشريف له عليه السلام.

﴿عَطَآءً﴾ أي: تفضّلًا وإحسانًا منه تعالى؛ إذ لا يجب عليه شيء، وهو بدل مِن ﴿جَزَآءً﴾.

﴿حِسَابًا﴾ صفة لـ﴿عَطَآءً﴾ بمعنى كافيًا على أنّه مصدر أقيمَ مُقام الوصف، أو بُولغ فيه مِن "أحسَبه الشيء" إذا كفَاه حتّى قال: "حسبي". وقيل: على حسب أعمالهم. وقُرئ: "حَسَّابًا"[٤] بالتشديد على أنّه بمعنى المُحسِب كالدّرّاك بمعنى المُدرِك.

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بدل مِن ﴿رَبِّكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ صفة له. وقيل: صفة للأوّل.[٥] وأيًّا ما كان ففي ذِكر ربوبيّته تعالى للكلّ ورحمته الواسعة إشعارٌ بمَدار الجزاءِ المذكور.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ استئناف مقرِّر لِما أفاده الربوبيّة العامّة مِن غاية العظَمة والكبرياء واستقلالِه تعالى بما ذُكر مِن الجزاء والعطاء

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ١١٤/٢٠.

٢ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٩٧/٢.

٣ في الآية الحادية والثلاثين مِن هذه السورة.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن قُطيب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠١.

٥ الوجه في اللباب لابن عادل، ١١٦/٢٠.

مِن غير أن يكون لأحد قُدرة عليه. وقُرئ برفعهما،[١] فقيل: على أنّهما خبران لمبتدأ مضمَر. وقيل: الثّاني نعت للأوّل. وقيل: الأوّل مبتدأ والثاني خبره، و﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ خبر آخرُ، أو هو الخبر و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ صفة للأوّل. وقيل: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ حال لازمة. وقيل: الأوّل مبتدأ و﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مبتدأ ثانٍ، و﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ خبره، والجملة خبرٌ للأوّل، وحصل الربطُ بتكرير المبتدأ بمعناه على رأي مَن يقول به.[٢]

والأوجهُ أن يكون كلاهما مرفوعًا على المدح، أو يكونَ الثاني نعتًا للأوّل، و﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ استئنافًا على حاله، ففيه ما ذُكر مِن الإشعار بمَدار الجزاء والعطاء كما في البدليّة؛ لِما أنّ المرفوع أو المنصوب مدحًا تابع لِما قبله معنى، وإن كان منقطعًا عنه إعرابًا، كما فُصِّل في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة، ٣/٢] مِن سورة البقرة.

وقُرئ بجرّ الأوّل على البدليّة ورَفْعِ الثاني[٣] على الابتداء والخبرُ ما بعده، أو على أنّه خبرٌ لمبتدأ مضمر وما بعده استئناف أو خبر ثانٍ أو حال.

وضمير ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ لأهل السماوات والأرض، أي: لا يملكون أن يخاطبوه تعالى مِن تلقاء أنفسهم -كما ينبئ عنه لفظ المُلك- خطابًا ما في شيء ما. والمراد نفي قدرتهم على أن يخاطبوه تعالى بشيء مِن نَقْص العذاب أو زيادةِ الثواب مِن غير إذنه على أبلغ وجه وآكدِه. وقيل: ليس في أيديهم ممّا يُخاطب الله به ويأمر به في أمر الثواب والعقاب خطابٌ واحدٌ يتصرّفون فيه تصرُّف المُلّاك فيزيدون فيه أو ينقصون منه.[٤]

[٢٦١ظ] ﴿يَوْمَ يَقُومُ / ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ قيل: الروح خلقٌ أعظم مِن الملائكة وأشرفُ منهم وأقربُ مِن ربّ العالمين. وقيل: هو مَلَك، ما خَلَق الله عزّ وجلّ بعد العرش خَلْقًا أعظمَ منه.[٥] عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّه إذا كان يوم القيامة

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩٧/٢.

٢ هذه الأقوال الخمسة كلُّها في اللباب لابن عادل، ١١٦/٢٠.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٩٧/٢.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٠/٤.

٥ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٠/٤. ومعناهما عن ابن عبّاس في جامع البيان للطبري، ٤٧/٢٤.

قام هو وحدَه صفًّا والملائكة كلّهم صفًّا.[١] وعنه عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «الرُّوح: جند مِن جنود الله تعالى ليسوا ملائكةً لهم رءوس وأيدٍ وأرجُل يأكلون الطعام»، ثمّ قرأ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ الآية.[٢] وهذا قول أبي صالح ومجاهدٍ، قالوا: ما ينزل مِن السماء مَلَك إلّا ومعه واحد منهم. نقله البغوي.[٣] وقيل: هم أشراف الملائكة. وقيل: هم حفَظة على الملائكة.[٤] وقيل: جبرائيل عليهم السلام.[٥]

و﴿صَفًّا﴾ حال، أي: مصطفِّين. وقيل: هما صفّان الروح صفّ واحدًا أو متعدِّدًا، والملائكة صفّ. وقيل: صفوف. وهو الأوفَق لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر، ٢٢/٨٩]. وقيل: يقوم الكلّ صفًّا واحدًا.[٦] و﴿يَوْمَ﴾ ظرف لقوله تعالى: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ بدل مِن ضمير ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾، العائد إلى أهل السماوات والأرض الذين مِن جملتهم الروح والملائكة.

وذِكر قيامهم واصطفافهم لتحقيق عظَمة سلطانه وكبرياء ربوبيَّته وتهويلِ يوم البعث الذي عليه مدارُ الكلام مِن مطلع السورة الكريمة إلى مقطعها. والجملة استئناف مقرّر لمضمون قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾... إلخ، ومؤكّد له على معنى أنّ أهل السماواتِ والأرض إذا لم يقدروا يومئذ على أن يتكلّموا بشيء مِن جنس الكلام إلّا مَن أذن الله تعالى له منهم في التكلّم وقال ذلك المأذون له قولًا صوابًا، أي: حقًّا، فكيف يملِكون خِطاب ربّ العزّة مع كونه أخصَّ مِن مطلق الكلام وأعزَّ منه مَرامًا.

---

١ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٣١٧/٨.

٢ بمعناه في جامع البيان للطبري، ٤٨/٢٤؛ وبلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٣٤٦/٢٨؛ والتفسير البسيط للواحدي، ١٤٦/٢٣؛ وبمعناه في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٠/٤.

٣ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٣١٧/٨. ومِن قوله: "عن ابن عبّاس" إلى هنا مع النصّ على النقل عن البغوي بلفظ قريب في اللباب لابن عادل، ١١٧/٢٠-١١٨.

٤ القولان في اللباب لابن عادل، ١١٨/٢٠.

٥ مرويّ عن الضحّاك والشعبي في جامع البيان للطبري، ٤٧/٢٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣١٧/٨؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٠/٤.

٦ الأقوال الثلاثة في اللباب لابن عادل، ١١٨/٢٠.

لا على معنى أنّ الروح والملائكة مع كونهم أفضلَ الخلائق وأقربَهم مِن الله تعالى إذا لم يقدروا أن يتكلّموا بما هو صواب مِن الشفاعة لمَن ارتضى إلّا بإذنه فكيف يملِكه غيرهم؟ كما قيل.[1] فإنّه مؤسَّس على قاعدة الاعتزال فمَن سلكه مع تجويزه أن يكون ﴿يَوْمَ﴾ ظرفًا لـ﴿يَمْلِكُونَ﴾ فقد اشتبه عليه الشئون واختلط به الظنون.

[٢٦٢و] وقيل: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ﴾... إلخ، منصوب / على أصل الاستثناء،[2] والمعنى لا يتكلّمون إلّا في حقّ شخص أذِن له الرحمن وقال ذلك الشخص صوابًا، أي: حقًّا هو التوحيد. وإظهار ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ في موقع الإضمار للإيذان بأنّ مناط الإذن هو الرحمة البالغة، لا أنّ أحدًا يستحقّه عليه سبحانه وتعالى.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى يوم قيامهم على الوجه المذكور وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب العهد المشار إليه للإيذان بعلوّ درجته وبُعد منزلته في الهَول والفخامة. ومحلُّه الرفع على الابتداء خبره ما بعده، أي: ذلك اليوم العظيم الذي يقوم فيه الروح والملائكة مُصطفّين غيرَ قادرين هم وغيرهم على التكلّم مِن الهَيبة والجَلال. ﴿ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الثابت المتحقِّق لا محالةَ مِن غير صارف يَلويه ولا عاطف يَثنيه.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ فصيحةٌ تُفصِح عن شرط محذوف، ومفعولُ المشيئة محذوف لوقوعها شرطًا وكونِ مفعولها مضمونَ الجزاءِ وانتفاءِ الغرابة في تعلّقه بها، حسب القاعدة المستمرّة. و﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ متعلِّق بـ﴿مَـَٔابًا﴾، قدِّم عليه اهتمامًا به ورعايةً للفواصل، كأنّه قيل: وإذا كان الأمر كما ذُكر مِن تحقّق اليوم المذكور لا محالةَ فمَن شاء أن يتّخذ مرجعًا إلى ثواب ربّه الذي ذُكر شأنه العظيم فَعَل ذلك بالإيمان والطاعة. وقال قتادة: ﴿مَـَٔابًا﴾ أي: سبيلًا.[3] وتعلُّق الجارّ به لِما فيه مِن معنى الإفضاء والإيصال، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران، ٩٧/٣].

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٠/٤.

٢ القول في اللباب لابن عادل، ١١٨/٢٠.

٣ جامع البيان للطبري، ١٥٣/٢٤؛ اللباب لابن عادل، ١١٩/٢٠.

﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾ أي: بما ذُكر في السورة مِن الآيات الناطقة بالبعث وبما بعده مِن الدّواهي، أو بها وبسائر القوارع الواردة في القرآن. ﴿عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ هو عذاب الآخرة، وقُربه لتحقّق إتيانه حتمًا، ولأنّه قريب بالنسبة إليه تعالى، وإن رأوه بعيدًا وسيَرَونه قريبًا لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات، ٤٦/٧٩].

وعن قتادةَ: هي عقوبة الدنيا؛ لأنّه أقرب العذابين. / وعن مقاتل: هو قتلُ قريش يوم بدر.[١] ويأباه قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾، فإنّه إمّا بدل مِن ﴿عَذَابٗا﴾، أو ظرفٌ لمضمر هو صفة له، أي: عذابًا كائنًا يومَ ينظر المرء، أي: يُشاهِد ما قدَّمه مِن خير أو شرّ، على أنّ ﴿مَا﴾ موصولة منصوبة بـ﴿يَنظُرُ﴾ والعائدُ محذوف، أو ينظر أيَّ شيء قدّمت يداه، على أنّها استفهاميّة منصوبة بـ﴿قَدَّمَتۡ﴾. [٢٦٢ظ]

وقيل: ﴿ٱلۡمَرۡءُ﴾ عبارة عن الكافر، وما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ ظاهر وُضع موضعَ الضمير لزيادة الذمّ.[٢] قيل: معنى تمنّيه: ليتني كنت ترابًا في الدنيا فلم أخلق ولم أكلَّف، أو ليتني كنتُ ترابًا في هذا اليوم فلم أبعَث. وقيل: يحشُر الله تعالى الحيوان فيقتصّ للجمّاء مِن القَرْناء ثمّ يردّه ترابًا، فيَودّ الكافر حالَه. وقيل: الكافر إبليسُ يرى آدمَ وولده وثوابهم، فيتمنّى أن يكون الشيءَ الذي احتقره حين قال: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف، ١٢/٧].[٣]

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة عمّ يتساءلون سقاه الله تعالى بردَ الشراب يوم القيامة».[٤]

---

١ القولان في اللباب لابن عادل، ١١٩/٢٠.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٠/٤.

٣ الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٠/٤.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠٢/٢٨ (النبأ، ١/٧٨)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤١١/٤ (النبأ، ١/٧٨)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٢٠/٤. وهو جزء مِن حديث أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة النازعات

مكيّة، وهي خمس أو ستّ وأربعون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۞ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۞ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۞ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۞ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۞﴾

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۞ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۞ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۞ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۞ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ إقسامٌ مِن الله عزّ وجلّ بطوائف الملائكة الذين ينزعون الأرواحَ مِن الأجساد على الإطلاق، كما قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما ومجاهدٌ،[1] أو أرواحَ الكفَرة كما قاله عليّ رضي الله تعالى عنه وابن مسعود وسعيد بن جبير ومسروق.[2] وينشِطونها، أي: يُخرجونها مِن الأجساد مِن "نَشَط الدلوَ" مِن البئر إذا أخرجها، ويسبَحون في إخراجها سَبْح الغوّاص الذي يُخرِج مِن البحر ما يُخرِج فيسبقون بأرواح الكفَرة إلى النار وبأرواح المؤمنين إلى الجنّة، فيدبِّرون أمر عقابها وثوابها بأن يهيّئوها لإدراك ما أُعدّ لها / مِن الآلام واللذّات والعطف، [٢٦٣و] مع اتّخاذ الكلّ بتنزيل التغايُر العُنواني منزلةَ التغايُر الذاتي، كما في قوله:

إلى المَلِك القَرْم وابنِ الهُمامِ وليثِ الكتائبِ في المُزدحَمْ[3]

للإشعار بأنّ كلّ واحد مِن الأوصاف المعدودة مِن مُعظَّمات الأمور حقيقٌ بأن يكون على حياله مَناطًا لاستحقاق موصوفه للإجلال والإعظام بالإقسام به مِن غير انضمام الأوصاف الأُخَر إليه. و"الفاء" في الأخيرين للدلالة على ترتُّبهما على ما قبلهما بغير مُهلة، كما في قوله:

---

[1] انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٨/٣٢٣-٣٢٥.

[2] انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٨/٣٢٣-٣٢٥؛ واللباب لابن عادل، ٢٠/١٢١.

[3] مضى بتخريجه وشرحه في تفسير البقرة، ٢/٢٣١.

يا لهفَ زيّابةَ للحارث الصـ ـابحِ فالغانمِ فالآيبِ[1]

و﴿غَرْقًا﴾ مصدر مؤكِّد بحذف الزوائد، أي: إغراقًا في النَّزْع حيث تنزِعها مِن أقاصي الأجساد. قال ابن مسعود رضي الله عنه: تنزع روح الكافر مِن جسده مِن تحت كلّ شعرة، ومِن تحت الأظافير وأصول القدمين، ثم تُغرِقها في جسده، ثمّ تنزِعها، حتّى إذا كادت تخرُج تردُّها في جسده، فهذا عملها بالكفّار.[2] وقيل: يرى الكافر نفسَه في وقت النَّزْع كأنّها تغرَق.[3]

وانتصابُ ﴿نَشْطًا﴾ و﴿سَبْحًا﴾ و﴿سَبْقًا﴾ أيضًا على المصدريّة، وأمّا ﴿أَمْرًا﴾ فمفعول لـ﴿ٱلْمُدَبِّرَٰتِ﴾. وتنكيرُه للتهويل والتفخيم. ويجوزُ أن يُراد بـ﴿ٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾ وما بعدها طوائفُ مِن الملائكة يسبحون في مُضيّهم، أي: يُسرعون فيه فيسبقون إلى ما أُمروا به مِن الأمور الدنيويّة والأخرويّة.

والمُقسَم عليه محذوف تعويلًا على إشارة ما قبله مِن المُقسَم به إليه ودلالةِ ما بعده مِن أحوال القيامة عليه وهو "لتُبعثنّ"، فإنّ الإقسام بمَن يتولّى نزعَ الأرواح ويقوم بتدبير أمورها يلوِّح بكون المُقسَم عليه مِن قبيل تلك الأمور لا محالةَ. وفيه مِن الجَزالة ما لا يخفى.

وقد جُوِّز أن يكون إقسامًا بالنجوم التي تنزِع مِن المَشرِق إلى المَغرِب غَرَقًا في النَّزْع بأن تقطَع الفَلَك حتّى تنحطّ في أقصى الغرب وتنشَط مِن بُرج إلى بُرج، أي: تخرُج مِن "نشِط الثور" إذا خرج مِن بلد إلى بلد، وتسبح في الفَلَك فيسبِق بعضها بعضًا، فتُدبِّر أمرًا نِيط بها، كاختلاف الفصول وتقديرِ الأزمنة وتبيُّنِ مواقيت العبادات.[4] وحيث كانت حركاتها مِن المَشرِق

---

[1] البيت لابن زيّابة، واختُلف في اسمه، فهو: عمرو بن لأي، أو سَلَمة بن ذُهل، أو عمرو بن الحارث بن همّام. وزيّابة أمّه. انظر تفصيل ذلك والكلامَ على البيت في خزانة الأدب للبغدادي، ٥/١٠٧-١١٣. والبيت له في معجم الشعراء للمرزباني، ص ١٣٣؛ وهو مِن حماسيّة له في شرح الحماسة للمَرزوقي، ١/١٤٧؛ وبلا عزْو في شرح الرضيّ على الكافية، ٢/٣٣٢.

[2] بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٨/٣٢٣؛ واللباب لابن عادل، ٢٠/١٢١.

[3] القول في اللباب لابن عادل، ٢٠/١٢١؛ وهو بمعناه في معالم التنزيل للبغوي، ٨/٣٢٣.

[4] القول بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٢١. وأصل القول بأنّه إقسام بالنجوم مرويّ عن الحسن وقتادة في جامع البيان للطبري، ٢٤/٥٨-٥٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨/٣٢٥؛ واللباب لابن عادل، ٢٠/١٢٢.

إلى المَغرِب قسريّةً وحركاتُها مِن برج إلى برج ملائمةً عبّر عن الأولى بـ"النزع" وعن الثانية بـ"النشط".

أو بأنفس الغُزاة أو أيديهم التي تنزع القِسِيَّ بإغراق / النّبِسهام، وينشطون [٢٦٣ظ] بالسهم للرمي، ويسبحون في البرّ والبحر، فيسبِقون إلى حرب العدوّ، فيدبِّرون أمرها.[1]

أو بخيلهم التي تنزِع في أعِنَّتها نَزْعًا تغرّق فيه الأعِنّة لطول أعناقها؛ لأنّها عِراب، وتخرج مِن دار الإسلام إلى دار الحرب، وتسبح في جريها لتسبِق إلى الغاية فتُدبِّر أمرَ الظفَر والغلَبة.[2] وإسنادُ التدبير إليها؛ لأنّها مِن أسبابه.

هذا، والذي يليق بشأن التنزيل هو الأوّل.

﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ۝٩﴾

وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ منصوب بالجواب المضمر، والمراد بـ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ الواقعةُ التي ترجُف عندها الأجرامُ الساكنة، أي: تتحرَّك حركةً شديدةً وتتزلزل زلزلةً عظيمةً كالأرض والجبال، وهي النفخة الأولى. وقيل: ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾: الأرض والجبال، لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾ [المزمل، ٧٣/١٤].[3]

وقوله تعالى: ﴿تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ أي: الواقعة التي تردَف الأولى وهي النفخة الثانية، حالٌ مِن ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ مُصحِّحة لوقوع "اليوم" ظرفًا للبعث، أي: لتُبعثنّ يومَ النفخة الأولى حالَ كون النفخة الثانية تابعةً لها لا قبل ذلك، فإنّه عبارة عن الزمان الممتدّ الذي يقع فيه النفختان، وبينهما أربعون سنةً، واعتبارُ امتداده مع أنّ البعث لا يكون إلّا عند النفخة الثانية لتهويل اليوم ببيان كونه موقعًا لداهيتين عظيمتين لا يبقى عند وقوع الأولى حيّ إلّا مات ولا عند وقوع الثانية ميّت إلّا بُعث وقام. ووجهُ إضافته إلى الأولى ظاهرٌ.

---

١ هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٢١.

٢ هذا الوجه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٩٤.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٢١.

وقيل: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ منصوب بـ"اذكرْ"،[١] فيكون الجملة استئنافًا مقرِّرًا لمضمون الجواب المضمر، كأنّه قيل: لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: اذكر لهم يوم النفختين فإنّه وقتُ بعثِهم. وقيل: هو منصوب بما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ أي: يوم ترجُف وجَفت القلوب. قيل: ﴿قُلُوبٌ﴾ مبتدأ و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلّق بـ﴿وَاجِفَةٌ﴾ / وهي صفة لـ﴿قُلُوبٌ﴾ مسوِّغة لوقوعه مبتدأ.[٢] [٢٦٤و]

وقوله تعالى: ﴿أَبْصَارُهَا﴾ أي: أبصار أصحابها ﴿خَاشِعَةٌ﴾ جملة مِن مبتدأ وخبرٍ وقعَت خبرًا لـ﴿قُلُوبٌ﴾. وقد مرّ أنّ حقّ الصفة أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند السامع، حتّى قالوا: إنّ الصفاتِ قبل العِلم بها أخبارٌ والأخبارُ بعد العِلم بها صفاتٌ،[٣] فحيث كان ثبوت الوجيف للقلوب وثبوتُ الخشوع لأبصار أصحابها سواءً في المعرفة والجهالة كان جَعْلُ الأوّل عنوانًا للموضوع مسلَّمَ الثبوت مفروغًا عنه وجَعْلُ الثاني مخبَرًا به مقصودَ الإفادة تحكُّمًا بحتًا. على أنّ الوجيف -الذي هو عبارة عن شدّة اضطراب القلب وقلقه مِن الخوف والوَجَل- أشدُّ مِن خشوع البصر وأهولُ، فجعلُ أهونِ الشرَّين عمدةً وأشدِّهما فضلةً ممّا لا عهدَ له في الكلام. وأيضًا فتخصيصُ الخشوع بـ﴿قُلُوبٌ﴾ موصوفة بصفة معيّنة غيرِ مشعرة بالعموم والشمول تهوينٌ للخَطْب في موقع التهويل.

فالوجه أن يقال: تنكيرُ ﴿قُلُوبٌ﴾ يقوم مقامَ الوصف المخصِّص: سواءٌ حُمل على التنويع، كما قيل، وإن لم يُذكَر النوع المقابلُ، فإنّ المعنى منسَحبٌ عليه؛ أو على التكثير[٤] كما في «شرٌّ أهرَّ ذا نابٍ»،[٥] فإنّ التفخيم كما يكون بالكيفيّة يكون بالكمّيّة أيضًا، كأنّه قيل: قلوب كثيرة يوم إذ يقع النفختان ﴿وَاجِفَةٌ﴾، أي: شديدة الاضطراب. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: خائفة وَجِلة.[٦] وقال السدّي: زائلة عن أماكنها، كما في قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ [غافر، ١٨/٤٠].[٧]

---

١ هذا الوجه في التبيان للعكبري، ١٢٦٩/٢؛ واللباب لابن عادل، ١٢٧/٢٠.

٢ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٢/٤.

٣ انظر القول في المطوّل للتفتازاني، ص ٤٢.

٤ السياق: سواءٌ حُمل على التنويع... أو التكثير...

٥ مِن أمثال العرب. انظر: كتاب سيبويه ٣٢٩/١؛ ومجمع الأمثال للميداني، ٣٧٠/١؛ والمستقصى للزمخشري، ١٣٠/٢.

٦ جامع البيان للطبري، ٦٩/٢٤.

٧ معالم التنزيل للبغوي، ٣٢٧/٨.

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾ حكاية لِما يقوله المنكِرون للبعث المكذِّبون بالآيات الناطقة به إثرَ بيان وقوعِه بطريق التوكيد القَسَمي، وذِكرُ مقدّماته الهائلة وما يعرِض عند وقوعها للقلوب والأبصار. أي: يقولون إذا قيل لهم: إنكم تُبعثون منكِرين له متعجِّبين منه: أئنّا لَمردودون بعد موتنا في الحافرة، أي: في الحالة الأولى، يعنون الحياة[١] مِن قولهم: / "رَجَع فلان في حافرته"، أي: طريقته التي جاء فيها فحفَرها، أي: أثّر فيها بمشيه. وتسميتُها حافرةً مع أنّها محفورة، كقوله تعالى: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة، ٢١/٦٩] أي: منسوبة إلى الحَفْر والرِّضا، أو كقولهم: "نهارُه صائمٌ" على تشبيه القابل بالفاعل. وقُرئ: "فِي الحَفِرَةِ"[٢] وهي بمعنى المحفورة. [٢٦٤ظ]

وقوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ تأكيد لإنكار الردّ ونفيه بنسبته إلى حالة مُنافيةٍ له. والعامل في ﴿إِذَا﴾ مضمر يدلّ عليه ﴿مَرْدُودُونَ﴾، أي: أئذا كنّا عظامًا بالية نُردّ ونُبعث مع كونها أبعدَ شيء مِن الحياة. وقُرئ: "إِذَا كُنَّا"[٣] على الخبر أو إسقاطِ حرف الإنكار. وناخِرَة مِن "نخِر العَظْمُ" فهو نخِر وناخِر، وهو البالي الأجوف الذي يمرّ به الريح فيُسمَع له نخير.

﴿قَالُواْ﴾ حكاية لكُفرٍ آخرَ لهم متفرّع على كفرهم السابق. ولعلّ توسيطَ ﴿قَالُواْ﴾ بينهما للإيذان بأنّ صدور هذا الكفر عنهم ليس بطريق الاطّراد والاستمرار مثل كفرهم السابق المستمرّ صدوره عنهم في كافّة أوقاتهم حسبما ينبئ عنه حكايته بصيغة المضارع، أي: قالوا بطريق الاستهزاء مُشيرين إلى ما أنكروه مِن الرَّدّة في الحافِرة مشعرين بغاية بُعدها مِن الوقوع. ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي: ذاتُ خُسران أو خاسِرة أصحابها، أي: إن صحّت فنحن إذن خاسرون لتكذيبنا بها.

---

[١] س + بعد الموت.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وابن يعمر والضرير عن يعقوب. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٦٨؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٥٠١؛ **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١٨٨٥.

[٣] قرأ بها نافع وابن عامر والكسائي ويعقوب. **النشر** لابن الجزري، ٣٧٤/١.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ تعليل لمقدّر يقتضيه إنكارهم لإحياء العظام النخِرة الذي عبّروا عنها بالكرّة، فإنّ مداره لمّا كان استصعابَهم إيّاها رُدّ عليهم ذلك فقيل: لا يستصعِبوها فإنّما هي صيحة واحدة، أي: حاصلة بصيحة واحدة وهي النفخة الثانية، عُبّر عنها بها تنبيهًا على كمال اتّصالها بها، كأنّها عينُها. وقيل:[1] ﴿هِيَ﴾ راجع إلى ﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾.

فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ حينئذ بيان لترتّب الكرّة على الزجرة مفاجأةً، أي: فإذ هم أحياء على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتًا في جوفها، وعلى الأوّل بيان لحضورهم الموقف عقيبَ الكرّة التي عُبّر عنها بالزجرة. و﴿ٱلسَّاهِرَةِ﴾: الأرض البيضاء المستوية، سُمّيت بذلك؛ لأنّ السراب يجري فيها، مِن قولهم: "عين ساهرة جارية الماء"، وفي / ضدّها "نائمة". [٢٦٥و]

وقيل: لأنّ سالكها لا ينام خوف الهَلَكة.[2] وقيل: اسم لجهنّم.[3] وقال الراغبُ: هي وجه الأرض.[4] وقيل: هي أرض القيامة.[5] وروى الضحّاك عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّ الساهرة أرض مِن فضّة لم يُعصَ الله تعالى عليها قطّ خلقها حينئذ.[6] وقيل: هي أرض يجدّدها الله عزّ وجلّ يوم القيامة. وقيل: هي اسم الأرض السابعة يأتي بها الله تعالى فيُحاسب الخلائق عليها، وذلك حين تُبدَّل الأرضُ غير الأرض.[7] وقال الثوري: الساهرة أرض الشام.[8] وقال وهب بن منبِّه: جبل بيت المَقدِس.[9] وقيل: الساهِرة بمعنى الصحراء على شفير جهنّم.[10]

---

١ وفي هامش م: كواشي. انظر: تفسير الكواشي، ٥٧٢و.
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٢/٤.
٣ مرويّ عن قتادة في جامع البيان للطبري، ٧٨/٢٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٢٨/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٢٢/٤؛ وبلا عزو في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٩٥/٣.
٤ مفردات القرآن للراغب الأصفهاني، ص ٤٣٠؛ ونقله عنه ابن عادل في اللباب، ١٣٤/٢٠. وهو مرويّ عن ابن عبّاس وعكرمة والحسن وسعيد بن جُبير والضحّاك في جامع البيان للطبري، ٧٥/٢٤-٧٧.
٥ القول في اللباب لابن عادل، ١٣٤/٢٠.
٦ اللباب لابن عادل، ١٣٤/٢٠.
٧ القولان في اللباب لابن عادل، ١٣٤/٢٠.
٨ معالم التنزيل للبغوي، ٣٢٨/٨؛ اللباب لابن عادل، ١٣٤/٢٠.
٩ جامع البيان للطبري، ٧٨/٢٤؛ اللباب لابن عادل، ١٣٤/٢٠.
١٠ القول في اللباب لابن عادل، ١٣٤/٢٠.

﴿هَلْ أَتَنكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝١٥ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦﴾

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَنكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ كلام مستأنَف وارد لتسلية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مِن تكذيب قومه بأنّه يصيبهم مثلُ ما أصاب مَن كان أقوى منهم وأعظمَ. ومعنى هل ﴿أَتَنكَ﴾ -إن اعتُبر هذا أوّل ما أتاه عليه السلام مِن حديثه عليه السلام-[1] ترغيبٌ له عليه السلام في استماع حديثه، كأنّه قيل: هل أتاك حديثه؟ أنا أخبرك به، وإن اعتُبر إتيانه قبل هذا، وهو المتبادر مِن الإيجاز في الاقتصاص، أليس قد أتاك حديثه؟

وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ ظرف للحديث لا للإتيان لاختلاف وقتيهما. ﴿طُوًى﴾ بضمّ "الطاء" غيرَ منوَّن. وقُرئ مُنوَّنًا،[2] وقُرئ بالكسر مُنوَّنًا[3] وغيرَ منوَّن،[4] فمَن نونّه أوّله بالمكان دون البقعة. وقيل: هو كـ"ثُنًى" مصدر لـ"نادى" أو ﴿ٱلْمُقَدَّسِ﴾، أي: ناداه نِدائين، أو المقدّس مرّةً بعد أخرى.

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝٢٦﴾

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ على إرادة القول. وقيل: هو تفسير للنداء، أي: ناداه: اذهبْ. وقيل: هو على حذف "أن" المفسِّرة، ويدلّ عليه قراءة عبد الله: "أَنِ اذْهَبْ"؛[5] لأنّ في النداء معنى القول. ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ / تعليل للأمر أو لوجوب الامتثالِ به. [٢٦٥ظ]

﴿فَقُلْ﴾ بعد ما أتيتَه ﴿هَل لَّكَ﴾ رغبة وتوجُّه ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ بحذف إحدى "التاءين" مِن تتزكّى، أي: تتطهَّر مِن دَنَس الكفر والطغيان. وقُرئ: "تَزَّكّى"[6] بالتشديد.

---

[1] س - عليه السلام.

[2] قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم وخلف. النشر لابن الجزري، ٣١٩/٢.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن ومجاهد والأعمش وابن أبي عبلة. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٨٥.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن عمرو بن عُبيد. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٨٥.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٢.

[6] قرأ بها نافع وابن كثير ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩٣/٢.

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وأُرشِدك إلى معرفته عزّ وجلّ فتعرِفه ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ إذ الخشية لا تكون إلّا بعد معرفته تعالى، قال عزّ وعلا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر، ٢٨/٣٥]، وجَعَل الخشية غايةً للهداية لأنّها ملاك الأمر، مَن خشيَ الله تعالى أتى منه كلّ خير، ومَن أمِنَ اجترأ على كلّ شرّ. أُمِر النبيّ عليه السلام بأن يُخاطِبه بالاستفهام الذي معناه العَرْض ليستدعيه بالتلطّف في القول ويستنزِله بالمُداراة مِن عُتوّه، وهذا ضرب تفصيل لقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه، ٤٤/٢٠].

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ فصيحة تُفصِح عن جُمَل قد طُويَت تعويلًا على تفصيلها في السوَر الأخرى، فإنّه عليه السلام ما أراه إيّاها عَقيب هذا الأمر؛ بل بعد ما جرى بينه وبين الله تعالى ما جرى مِن الاستدعاء والإجابة وغيرِهما مِن المراجعات، وبعد ما جرى بينه وبين فرعونَ ما جرى مِن المحاورات، إلى أن قال: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الأعراف، ١٠٦/٧].

والإراءة إمّا بمعنى التبصير أو التعريف، فإنّ اللعين حين أبصرها عرَفها. وادّعاء سحريّتها إنّما كان إراءةً منه وإظهارًا للتجلّد. ونسبتُها إليه عليه السلام بالنظر إلى الظاهر، كما أنّ نسبتها إلى نون العظمة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا﴾ [طه، ٥٦/٢٠] بالنظر إلى الحقيقة.

والمراد بـ﴿ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ قلبُ العصا حيّةً، وهو قول ابن عبّاس رضي الله عنهما،[١] فإنّها كانت المقدّمة والأصل، والأخرى كالتبَع لها. أو هما جميعًا، وهو قول مجاهد،[٢] فإنّهما كالآية الواحدة، وقد عُبّر عنهما بصيغة الجمع حيث قيل: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى﴾ [طه، ٤٢/٢٠]، باعتبار ما في تضاعيفهما / مِن بدائع الأمور التي كلّ منها آية بيّنة لقوم يعقلون، كما مرّ تفصيله في سورة طه،[٣] [٢٦٦و]

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ١٣٨/٢٠.

٢ مرويّ عن الحسن ومجاهد وقتادة في جامع البيان للطبري، ٨٢/٢٤؛ واللباب لابن عادل، ١٣٨/٢٠.

٣ في تفسير الآية الثانية والأربعين منها.

ولا مَساغ لحَمْلها على مجموع معجزاته، فإنّ ما عدا هاتين الآيتين مِن الآيات التسع إنّما ظهرت على يده عليه السلام بعد ما غَلَب السحرة على مَهَل في نحو مِن عشرين سنةً، كما مرّ في سورة الأعراف،[1] ولا ريبَ في أنّ هذا مطلَع القصّة وأَمر السحرة مُترقَّب بعد.

﴿فَكَذَّبَ﴾ بموسى عليه السلام، وسمّى معجزته سِحرًا ﴿وَعَصَىٰ﴾ الله عزّ وجلّ بالتمرّد بعد ما علِم صحّة الأمر ووجوبَ الطاعة أشدَّ عصيان وأقبحَه، حيث اجترأ على إنكار وجود ربّ العالمين رأسًا، وكان اللعينُ وقومُه مأمورين بعبادته عزّ وعلا وتركِ العظيمة التي كان يدّعيها الطاغية ويقبلها منه فئتُه الباغية، لا بإرسال بني إسرائيلَ مِن الأسْر والقَسْر فقط.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ أي: تولّى عن الطاعة، أو انصرف عن المجلس ﴿يَسْعَىٰ﴾ أي: يجتهد في معارضة الآية، أو أريدَ: ثمّ أقبَل، أي: أنشأ يسعى فوُضع موضعَه ﴿أَدْبَرَ﴾ تحاشيًا عن وصفه بالإقبال. وقيل: أدبرَ هاربًا مِن الثعبان.[2] فإنّه رُوي أنّه عليه السلام لمّا ألقى العصا انقلبت ثعبانًا أشعرَ فاغرًا فاه بين لَحييه ثمانون ذراعًا وضع لَحيَه الأسفلَ على الأرض والأعلى على سُور القصر، فتوجّه نحو فرعونَ فهرب وأحدَث، وانهزم الناس مزدحمين، فمات منهم خمسة وعشرون ألفًا مِن قومه. وقيل: إنها انقلبت حيّةً ارتفعت في السماء قدرَ مِيل ثمّ انحطت مقبلةً نحو فرعون، وجعلت تقول: يا موسى مُرني بما شئت ويقول فرعون: أنشدك بالذي أرسلك إلّا أخذتَه فأخذه فعاد عصًا.[3]

ويأباه أنّ ذلك كان قبل الإصرار على التكذيب والعصيان والتصدّي للمعارضة، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ﴾ أي: فجَمَع السَّحَرةَ لقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ[4] فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ﴾ [الشعراء، ٢٦/٥٣]، وقولِه تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ [طه، ٢٠/٦٠] أي: ما يُكاد به مِن السَّحَرة وآلاتهم.

---

[1] في تفسير الآية الثالثة والثلاثين بعد المائة منها.

[2] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٩٥؛ واللباب لابن عادل، ٢٠/١٣٩.

[3] مضت هذه المرويات بتخريجها في تفسير طه، ٢٠/٥٦.

[4] م س – فرعون.

وقيل: جنودَه.[١] ويجوز أن يراد: جَمَع الناس.[٢] ﴿فَنَادَىٰ﴾ في المَجمَع بنفسه، أو بواسطة المنادي.

[٢٦٦ظ] ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ قيل: قام فيهم خطيبًا، فقال / تلك العظيمة.[٣]

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾ النَّكال بمعنى التنكيل كـ"السلام" بمعنى "التسليم"، وهو التعذيب الذي يُنكّل مَن رآه أو سمعه ويمنعه مِن تعاطي ما يفضي إليه، ومحلّه النصب على أنّه مصدر مؤكِّد كـ"وَعْدَ الله" و"صبغةَ الله"، كأنّه قيل: نكّل الله به نكالَ الآخرة والأولى، وهو الإحراق في الآخرة والإغراقُ في الدنيا.

وقيل: مصدر لـ﴿أَخَذَ﴾، أي: أخذَه الله أخذَ نَكال... إلخ، وقيل: مفعول له، أي: أخذه لأجل نَكال... إلخ. وقيل: نصب على نَزْع الخافض، أي: أخذه بنَكال الآخرة والأولى.[٤] وإضافته إلى الدارين باعتبار وقوع نفس الأخذِ فيهما، لا باعتبار أنّ ما فيه مِن معنى المنع يكون فيهما، فإنّ ذلك لا يتصوَّر في الآخرة؛ بل في الدنيا، فإنّ العقوبة الأخرويّة تنكّل مَن سمعها وتمنعه مِن تعاطي ما يؤدّي إليها لا محالةَ.

وقيل: المراد بـ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾ قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات، ٢٤/٧٩]، وقولُه: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص، ٣٨/٢٨].[٥] قيل: كان بين الكلمتين أربعون سنةً.[٦] فالإضافة إضافة المسبَّب إلى السبب.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن قصّة فرعونَ وما فَعَل وما فُعل به ﴿لَعِبۡرَةً﴾ عظيمةً ﴿لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾ أي: لمَن مِن شأنه أن يخشى، وهو مِن مَن شأنه المعرفة.

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٩٥/٣؛ واللباب لابن عادل، ١٣٩/٢٠.

٢ هذا الوجه في اللباب لابن عادل، ١٣٩/٢٠.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ١٣٩/٢٠.

٤ الأقوال الثلاثة في اللباب لابن عادل، ١٤٠/٢٠؛ والأوّلان بلفظ قريب في التبيان للعكبري، ١٢٦٩/٢.

٥ مرويّ عن ابن عبّاس ومجاهد في جامع البيان للطبري، ٨٤/٢٤-٨٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٢٩/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٢٣/٤.

٦ مرويّ عن مجاهد في جامع البيان للطبري، ٨٤/٢٤-٨٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٢٩/٨؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٣/٤.

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ خطاب لأهل مكّة المنكِرين للبعث بناءً على صعوبته في زَعْمهم بطريق التوبيخ والتبكيت بعد ما بُيّن كمال سهولته بالنسبة إلى قدرة الله عزّ وجلّ بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الصافات، ١٩/٣٧]، أي: أخَلْقكم بعد موتكم أشدّ، أي: أشقّ وأصعب في تقديركم ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ أي: أم خَلْق السماء على عِظَمها وانطوائها على تعاجيب البدائع التي تحار العقول عن ملاحظة أدناها، كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر، ٥٧/٤٠]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس، ٨١/٣٦].

وقوله تعالى: ﴿بَنَىٰهَا﴾... إلخ، بيان وتفصيل لكيفيّة خَلْقها المستفاد مِن قوله تعالى:[١] ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾، وفي عدم ذِكر الفاعل فيه وفيما عُطف عليه مِن التنبيه على تعيّنه وتفخيمِ شأنه عزّ وجلّ ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ بيان للبناء، أي: جَعْلُ مقدار ارتفاعِها مِن الأرض وذهابِها إلى سَمْت العُلوّ مديدًا رفيعًا مسيرةَ خمسمائة عام. ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ فعدَّلها مستويةً ملساءَ ليس فيها تفاوتٌ ولا فُطور، أو فتمَّمها بما عَلِم أنّها تتمّ به مِن الكواكب / والتداوير وغيرِها ممّا لا يعلمه إلّا الخلّاق العليم مِن قولهم: "سوّى أمرَ فلان" إذا أصلحه. [٢٦٧و]

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي: جَعَله مظلِمًا، يقال: غَطِش الليل وأغطَشه الله تعالى، كما يقال: ظَلِم وأظلَمه، وقد مرّ هذا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ [البقرة، ٢٠/٢]. ويقال أيضًا: أغطَش الليل، كما يقال: "أظلَم".

﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أي: أبرز نهارها، عُبّر عنه بالضّحى؛ لأنه أشرفُ أوقاته وأطيبُها، فكان أحقَّ بالذِّكر في مقام الامتنان، وهو السرُّ في تأخير ذِكره عن ذِكر الليل.

---

[١] س - تعالى.

وفي التعبير عن إحداثه بالإخراج، فإنّ إفاضةَ النور بعد الظُّلمة أتمّ في الإنعام وأكملُ في الإحسان. وإضافةُ "الليل" و"الضحى" إلى السماء لدوران حدوثهما على حركتها. ويجوز أن يكون إضافة "الضحى" إليها بواسطة الشمس، أي: أبرَز ضوء شمسِها.[١] والتعبيرُ عنه بالضّحى؛ لأنّه وقت قيام سلطانها وكمال إشراقها.

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَا﴾ أي: بسَطها ومهّدها لسكنى أهلها وتقلُّبهم في أقطارها، وانتصابُ الأرض بمضمر يفسِّره ﴿دَحَىٰهَا﴾.

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾ بأن فجَّر منها عُيونًا وأجرى أنهارًا ﴿وَمَرْعَىٰهَا﴾ أي: رَعْيَها، وهو في الأصل موضعُ الرَّعي. وقيل: هو مصدر مِيميّ بمعنى المفعول.[٢] وتجريد الجملة عن العاطف إمّا لأنّها بيان وتفسير لـ﴿دَحَىٰهَا﴾ وتكملة له، فإنّ السُّكنى لا يتأتّى بمجرَّد البسط والتمهيد؛ بل لا بدّ مِن تسوية أمرِ المَعاش مِن المأكل والمشرب حتمًا، وإمّا لأنّها حال مِن فاعله بإضمار "قد" عند الجمهور أو بدونه عند الكوفيّين والأخفش،[٣] كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ [النساء، ٩٠/٤].

﴿وَٱلْجِبَالَ﴾ منصوب بمضمر يفسِّره ﴿أَرْسَىٰهَا﴾ أي: أثبتَها وأثبتَ بها الأرض أن تميد بأهلها. وهذا تحقيق للحقّ وتنبيهٌ على أنّ الرسوّ المنسوب إليها في مواضعَ كثيرةٍ مِن التنزيل بالتعبير عنها بالرواسي ليس مِن مقتضيات ذواتها؛ بل هو بإرسائه عزّ وجلّ، ولولاه لَما ثبَتَتْ في أنفسها فضلًا عن إثباتها للأرض. وقُرئ: "وَالأَرْضُ" و"الجَبَالُ"[٤] بالرفع على الابتداء.

ولعلّ تقديمَ إخراج الماء والمرعى ذِكرًا مع تقدّم الإرساء عليه وجودًا / [٢٦٧ظ] وشدَّةَ تعلّقِه بالدَّحو لإبراز كمال الاعتناء بأمر المَأكَل والمَشرَب، مع ما فيه مِن دَفْع توهّم رجوع ضميرَي الماء والمَرعى إلى الجبال. وهذا كما ترى يدلّ

---

١ وهو المذكور في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٤/٤.

٢ القول في اللباب لابن عادل، ١٤٥/٢٠.

٣ الكلام في اللباب لابن عادل، ١٤٥/٢٠. وانظر تفصيل المسألة في الإنصاف للأنباري، ٢٥٢/١-٢٥٨. ومضى موجزًا في تفسير سورة الجن، ٢٨/٧٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وعمرو بن عُبيد وأبي حَيْوَة وأبي السَّمّال وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٨٦.

بظاهره على تأخّر دَحْو الأرض عن خَلْق السماء وما فيها، كما يُروى عن الحسَن مِن أنّه تعالى خَلَق الأرض في موضع بيت المَقدِس كهيئة الفِهر[1] عليه دُخانٌ ملتزِق بها، ثمّ أصعَد الدخان وخَلَق منه السماواتِ وأمسك الفِهر في موضعها وبسطَ منها الأرض، وذلك قوله تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ الآية [الأنبياء، ٢١/٣٠].[2]

وقد مرّ في سورة السجدة حم أنّ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت، ٤١/٩] إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ الآية [فصلت، ٤١/١١] إنّ حُمِل ما فيه مِن الخَلْق وما عُطف عليه مِن الأفعال الثلاثة على معانيها الظاهرة لا على تقديرها، فهو وما في سورة البقرة مِن قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة، ٢/٢٩] يدلّان على تقدّم خَلْق الأرض وما فيها على خَلْق السماء وما فيها. وعليه إطباقُ أكثرِ أهل التفسير.

وقد رُوي أنّ العرش كان قبل خَلْق السماوات والأرض على الماء، ثمّ إنّه تعالى أحدَث في الماء اضطرابًا، فأزبَد فارتفع منه دُخان، فأمّا الزَّبَد فبقيَ على وجه الماء، فخَلَق فيه اليُبوسةَ فجعله أرضًا واحدةً ثمّ فتقها فجعلها أرضِين وأمّا الدخان فارتفع وعلا فخَلَق منه السماوات.

ورُوي أنّه تعالى خَلَق جِرْم الأرض يوم الأحد ويوم الإثنين ودحاها، وخَلَق ما فيها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، وخَلَق السماواتِ وما فيهنّ يوم الخميس ويوم الجمعة، وخَلَق آدمَ عليه السلام في آخر ساعة منه، وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة.[3]

فالأقربُ كما قيل تأويلُ هذه الآيةِ بأن يُجعَل ذلك إشارةً إلى ذِكر ما ذُكر مِن بناء السماء / ورَفْع سَمْكها وتسويتِها وغيرِها لا إلى أنفسها، ويُحمَل بُعديّة [٢٦٨و]

---

[1] الفِهر: حجَر يملأ الكفّ. لسان العرب لابن منظور، «فهر».

[2] ما رُوي عن الحسن مضى مرارًا، آخرُها في تفسير فصلت، ٤١/١٢.

[3] مضت هذه المرويّات في تفسير فصلت، ٤١/١٢.

الدَّحْو عنها على البعديّة في الذِّكر كما هو المعهود في ألسنة العرب والعجم لا في الوجود، لِما عرفتَ مِن أنّ انتصاب الأرض بمضمر مقدَّم قد حُذف على شريطة التفسير لا بما ذُكر بعده ليفيد القصر وتتعيَّن البَعديّة في الوجود.

وفائدة تأخيره في الذِّكر إمّا التنبيهُ على أنّه قاصر في الدلالة على القدرة القاهرة بالنسبة إلى أحوال السماء، وإمّا الإشعار بأنّه أدخَل في الإلزام، لِما أنّ المَنافع المَنوطَةَ بما في الأرض أكثرُ وتعلُّقَ مصالح الناس بذلك أظهرُ وإحاطتَهم بتفاصيل أحواله أكملُ.

وليس ما رُوي عن الحسَن رضي الله عنه نصًّا في تأخّر دَحْو الأرض عن خَلْق السماء فإنّ بَسْط الأرض معطوف على إصعاد الدُّخان وخَلْق السماء بـ"الواو" التي هي بمَعزِل مِن الدلالة على الترتيب.

هذا على تقدير حَملِ ما ذُكر في آيات سورة السجدة مِن الخَلْق وما عُطف عليه مِن الأفعال الثلاثة على معانيها الظاهرة، وأمّا إذا حُملت على تقديرها فلا دلالةَ فيها إلّا على تقدّم تقدير الأرض وما فيها على إيجاد السماء، كما لا دلالةَ على الترتيب أصلًا إذا حُملت كلمة "ثمّ" فيها وفيما في سورة البقرة[1] على التراخي في الرُّتبة. وقد سلف تفصيلُ الكلام في السورة المذكورة.

وقوله تعالى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ إمّا مفعول له، أي: فعل ذلك تمتيعًا لكم ولأنعامكم؛ لأنّ فائدة ما ذُكر مِن البسط والتمهيد وإخراجِ الماء والمرعى واصلةٌ إليهم ولأنعامهم، فإنّ المراد بـ"المَرعى" ما يعمّ ما يأكله الإنسان وغيرُه بناءً على استعارة الرَّعي لتناول المأكول على الإطلاق، كاستعارة "المَرسِن" للأنف. وقيل: مصدر مؤكِّد لفعله المضمر، أي: متَّعكم بذلك متاعًا، أو مصدر مِن غير لفظه، فإنّ قوله تعالى: ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا﴾ [النازعات، ٣١/٧٩] في معنى "متَّع بذلك".[2]

---

[1] في الآية التاسعة والعشرين منها، ومضى ذِكرها آنفًا.

[2] الوجهان في اللباب لابن عادل، ١٤٥/٢٠.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي: الداهية العظمى التي تطمّ على سائر الطامّات، أي: تعلوها وتغلِبها، وهي القيامة أو النفخة الثانية. وقيل: هي الساعة التي يُساق فيها الخلائق إلى مَحشرِهم. وقيل: التي يُساق فيها أهل الجنّة إلى الجنّة وأهل النار إلى النار.[١] شروع في بيان أحوال معادهم إثر بيانِ أحوال معاشهم بقوله تعالى: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ﴾... إلخ [المائدة، ٩٦/٥]، و"الفاء" للدلالة على ترتّب ما بعدها على ما قبلها عمّا قليل، كما ينبئ عنه لفظ المتاع.

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ قيل: هو بدل مِن ﴿إِذَا جَآءَتْ﴾.[٢] والأظهرُ أنّه منصوب بـ"أعني"، كما قيل،[٣] تفسيرًا لـ﴿ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾، فإنّ الإبدال منها بالظَرف المَحض ممّا يُوهِن تعلّقها بالجواب. ويجوز أن يكون بدلًا مِن ﴿ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ / مفتوحًا لإضافته إلى الفعل على رأي الكوفيّين،[٤] أي: يتذكّر فيه كلّ [٢٦٨ظ] أحد ما عَمِله مِن خير أو شرّ بأن يُشاهده مدوّنًا في صحيفة أعماله، وقد كان نسيَه مِن فرط الغفلة وطولِ الأمد، كقوله تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة، ٦/٥٨]. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ مصدريّةً.[٥]

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ عطفٌ على ﴿جَآءَتْ﴾، أي: أُظهِرت إظهارًا بيّنًا لا تخفى على أحد ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ كائنًا مَن كان. يُروى أنّه يُكشف عنها فتتلظّى فيراها كلّ ذي بصر. وقُرئ: "وَبَرَزَتْ"[٦] بالتخفيف، و"لِمَنْ رَأَى"[٧] و"لِمَنْ تَرَى"،[٨] على أنّ فيه

---

١ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٤/٤.

٢ كما في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٤/٤.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ١٤٧/٢٠.

٤ انظر قولهم وتفصيله في شرح الرضيّ على الكافية ٢٤٩/١.

٥ الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٤/٤.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي نهيك وعكرمة وأبي السمّال ومالك بن دينار، وهارون عن أبي عمرو. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٨٧.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٨.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة وعُبيد بن عُمير وزيد بن عليّ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٨٧.

ضمير الجحيم، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [الفرقان، ١٢/٢٥]، أو على أنّه خطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أي: لمَن تراه مِن الكفّار.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾... إلى آخره جواب ﴿فَإِذَا﴾، جاءت على طريقة قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ الآية [البقرة، ٣٨/٢]. وقيل: هو تفصيل للجواب المحذوف، تقديره: انقسم الراءون قسمين ﴿فَأَمَّا مَن﴾... إلخ.[١]

والذي يستدعيه فخامةُ التنزيل ويقتضيه مقامُ التهويل أنّ الجواب المحذوف كان مِن عظائم الشئون ما لم تُشاهده العيون، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة، ١٠٩/٥] أي: فأمّا مَن عتا وتمرَّد عن الطاعة وجاوز الحدّ في العصيان ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ الفانية التي هي على جناح الفوات فانهمك فيما مُتِّع به فيها، ولم يستعدّ للحياة الأخرويّة الأبديّة بالإيمان والطاعة، ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ التي ذُكر شأنها ﴿هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: هي مأواه. و"اللام" سادّة مَسدّ الإضافة، للعِلم بأنّ صاحب المأوى هو الطاغي، كما في قولك: "غُضّ الطَّرْفَ". ودخول "اللام" في ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾ و"الطَّرْف" للتعريف؛ لأنّهما معروفان، وهي إمّا ضمير فَصْل أو مبتدأ. قيل: نزلت الآية في النَّضْر وأبيه الحارث المشهورَين بالغلوّ في الكفر والطغيان.[٢]

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي: مقامه بين يدي مالك أمرِه يومَ الطامّة الكبرى، يومَ يتذكّر الإنسان ما سعى، ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ عن المَيل إليه بحُكم الجِبلّة البشريّة، ولم يعتدّ بمتاع الحياة الدنيا وزهرتها، ولم يغترّ بزخارفها وزينتها عِلمًا منه بوَخامة عاقبتها.

﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ له لا غيرُها. وقيل: نزلت الآيتان في أبي عَزيز بن عُمير ومصعب بن عُمير وقد قتَل مصعب أخاه أبا عَزيز يوم أُحُد ووقى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم حتّى استُشهد رضي الله عنه.[٣]

[٢٦٩و] هذا، وقد قيل: / جوابُ ﴿إِذَا﴾ ما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ﴾... إلخ، أي: فإذا جاءت الطامّة الكبرى يتذكّر الإنسان ما سعى، على طريقة قوله تعالى:

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ١٤٦/٢٠.

٢ القول في اللباب لابن عادل، ١٤٧/٢٠.

٣ بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٥/٤؛ واللباب لابن عادل، ١٤٩/٢٠.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير، ١٤/٨١]، وقولِه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار، ٥/٨٢]، فيكون قولُه تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ عطفًا عليه، وصيغةُ الماضي للدلالة على التحقّق، أو حالًا مِن ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ بإضمار "قد"، أو بدونه على اختلاف الرأيين، و﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ مُغنٍ عن العائد؛ وقولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾... إلخ تفصيلًا[١] لحالَي الإنسان الذي يتذكّر ما سعى وتقسيمًا له بحسب أعماله إلى القسمين المذكورين.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ متى إرساؤها، أي: إقامتها، يُريدون متى يُقيمها الله تعالى ويُثبِتها ويكوِّنها. وقيل: أيّان منتهاها ومستقرُّها، كما أنّ مُرسى السفينة حيث تنتهي إليه وتستقرّ فيه.[٢]

وقوله تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَا﴾ إنكارٌ وردّ لسؤال المشركين عنها، أي: في أيّ شيء أنت مِن أن تذكُر لهم وقتها وتُعلِمَهم به حتّى يسألوك بيانها، كقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف، ١٨٧/٧] أي: ما أنت مِن ذِكرها لهم وتبيين وقتها في شيء؛ لأنّ ذلك فَرْعُ عِلمك به، وأنّى لك ذلك؟ وهو ممّا استأثر بعِلمه علّام الغيوب.

ومَن قال بصدَد التعليل: فإنّ ذِكرها لا يزيدهم إلّا غيًّا،[٣] فقد نأى عن الحقّ. وقيل: ﴿فِيمَ﴾ إنكار لسؤالهم، وما بعده مِن الاستئناف تعليل للإنكار وبيانٌ لبطلان السؤال، أي: فيمَ هذا السؤال. ثمّ ابتُدئ فقيل: أنت مِن ذكراها، أي: إرسالك وأنت خاتم الأنبياء المبعوث في نسَم الساعة علامةٌ مِن علاماتها، ودليل يدلّهم على العِلم بوقوعها عن قريب فحسبُهم هذه المَرتبة مِن العِلم.[٤]

---

[١] السياق: فيكون قوله... عطفًا... وقولُه... تفصيلًا...

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٥/٤.

[٣] الكلام بلفظ قريب في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٩٧/٣.

[٤] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٥/٤.

فمعنى قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ على هذا الوجه: إليه تعالى يرجع منتهى عِلمِها، أي: عِلمها بكنهها وتفاصيل أمرها ووقت وقوعها لا إلى أحد غيره، وإنّما وظيفتهم أن يعلموا باقترابها ومشارفتها، وقد حصل لهم ذلك بمَبعثك، فما معنى سؤالهم عنها بعد ذلك؟ وأمّا على الوجه الأوّل فمعناه إليه تعالى انتهاء عِلمها ليس لأحد منه شيء ما كائنًا مَن كان، فلأيّ شيء يسألونك عنها؟

[٢٦٩ظ] / وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ على الوجه الأوّل تقرير لِما قبله مِن قوله تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾،[١] وتحقيقٌ لِما هو المراد منه وبيان لوظيفته عليه السلام في ذلك الشأن، فإنّ إنكار كونه عليه السلام في شيء مِن ذكراها ممّا يُوهِم بظاهره أن ليس له عليه السلام أن يذكُرها بوجه مِن الوجوه، فأزيحَ ذلك ببيان أنّ المنفيَّ منه عليه السلام ذِكرُها لهم بتعيين وقتها حسبما كانوا يسألونه عليه السلام عنها. فالمعنى إنّما أنت منذِرُ مَن يخشاها، وظيفتُك الامتثال بما أُمِرتَ مِن بيان اقترابها وتفصيلِ ما فيها مِن فنون الأهوال كما تُحيط به خُبرًا، لا تعيينُ وقتها الذي لم يُفوَّض إليك، فما لهم يسألونك عمّا ليس مِن وظائفك بيانه؟

وعلى الوجه الثاني هو تقرير لقوله تعالى: ﴿أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾[٢] ببيان أنّ إرساله عليه السلام، وهو خاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، منذِرٌ بمجيء الساعة، كما ينطق به قوله عليه السلام: «بُعِثْتُ أنا والساعةُ كهاتين، إن كادت لَتسبِقني».[٣] وقُرئ: "مُنْذِرٌ"[٤] بالتنوين، وهو الأصل، والإضافةُ تخفيفٌ صالح للحال والاستقبال، فإذا أريدَ الماضي تعيَّنت الإضافة. وتخصيص الإنذارِ بمَن يخشى مع عموم الدعوة لأنّه المُنتفَع به.

---

[١] في الآية الثالثة والأربعين مِن هذه السورة.
[٢] في الآية الثالثة والأربعين مِن هذه السورة.
[٣] بلفظ قريب في مسند أحمد، ٦١/٣١ (١٨٧٧٠)، ٣٦/٣٨ (٢٢٩٤٧)؛ والمعجم الكبير للطبراني، ١٢٦/٢٢ (٣٢٦). والشطر الأوّل منه في صحيح البخاري، ١٠٥/٨ (٦٥٠٤)؛ وصحيح مسلم، ٥٩٢/٢ (٨٦٧)؛ وسنن الترمذي، ٤٩٦/٤ (٢٢١٤).
[٤] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩٨/٢.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ إمّا تقرير وتأكيد لِما ينبئ عنه الإنذار مِن سرعة مجيء المُنذَر به، لا سيّما على الوجه الثّاني، أي: كأنّهم يوم يرونها لم يلبثوا بعد الإنذار بها إلّا عشيّةَ يوم واحد أو ضحاه، فلمّا تُرك "اليوم" أضيف ضحاه إلى عشيّته؛ وإمّا ردٌّ[1] لِما أدمجوه في سؤالهم، فإنّهم كانوا يسألون عنها بطريق الاستبطاء مستعجِلين بها، وإن كان على نهج الاستهزاء بها ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس، ٤٨/١٠]. فالمعنى: كأنّهم يومَ يرونها لم يلبثوا بعد الوعيد بها إلّا عشيّةً أو ضحاها.

واعتبار كونِ اللّبث في الدنيا أو في القبور،[2] لا يقتضيه المقام، وإنّما الذي يقتضيه اعتبار كونه بعد الإنذار أو بعد الوعيد تحقيقًا للإنذار وردًّا لاستبطائهم.

والجملة على الأوّل حال مِن الموصول، فإنّه / على تقديرَي الإضافة [٢٧٠و] وعدمِها مفعول لـ﴿مُنذِرُ﴾، كما أنّ قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يونس، ٤٥/١٠] حالٌ مِن ضمير المفعول في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ [يونس، ٤٥/١٠]، أي: يحشُرهم مُشْبِهِين بمَن لم يلبث في الدنيا إلّا ساعةً، خلا أن الشَّبَه هناك في الأحوال الظاهرة مِن الزيّ والهيئة وفيما نحن فيه في الاعتقاد، كأنّه قيل: تُنذرهم مُشْبِهِين يومَ يرونها في الاعتقاد بمَن لم يلبث بعد الإنذار بها إلّا تلك المدّة اليسيرة؛ وعلى الثاني مُستأنَفة[3] لا محلّ لها.[4]

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة والنازعات كان ممّن حبَسه الله عزّ وجلّ في القبر والقيامة حتّى يدخل الجنّة قدرَ صلاة مكتوبة».[5]

---

١ السياق: إمّا تقريرٌ... وإمّا ردٌّ...

٢ الوجهان في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٥/٤.

٣ السياق: والجملة على الأوّل... وعلى الثاني...

٤ س ي + مِن الإعرب. | كأنّه خُطّ عليها.

٥ بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٣٦٢/٢٨ (النازعات، ١/٧٩)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٤١٨/٤ (النازعات، ١/٧٩)؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٥/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة عبس

مكّيّة، وهي إحدى وأربعون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ١٠﴾

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۞ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ رُوي أنّ ابن أمّ مكتوم -واسمه عبد الله بن شُريح بن مالك بن أبي ربيعةَ الفِهري، وأمّ مكتوم اسم أمّ أبيه- أتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعنده صناديدُ قريشٍ عتبةُ وشيبةُ بنا ربيعةَ وأبو جهل بن هشام والعبّاس بن عبد المطّلب وأميّةُ بن خَلَف[1] والوليد بن المغيرة، يدعوهم إلى الإسلام رجاءَ أن يُسلم بإسلامهم غيرهم، فقال له: «يا رسول الله، أقرئني وعلِّمني ممّا علّمك الله تعالى»، وكرّر ذلك وهو لا يعلَم تشاغله عليه السلام بالقوم، فكَرِه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قَطْعَه لكلامه وعبَس وأعرَض عنه، فنزلت.[2] فكان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يُكرمه ويقول إذا رآه: «مرحبًا بمَن عاتبني فيه ربّي»، ويقول له: «هل لك مِن حاجة؟»، واستخلَفه على المدينة مرّتين.[3] وقُرئ: "عَبَّسَ"[4] بالتشديد للمبالغة.

---

[1] هو أُميّة بن خلف بن وهب مِن بني لؤيّ (ت. ٢هـ/٦٢٤م). أحد جبابرة قريش في الجاهليّة ومِن ساداتهم. أدرك الإسلام ولم يُسلم. هو الذي عذّب بلالًا الحبشي في بداءة ظهور الإسلام، أسَرَه عبد الرحمن بن عوف يوم بدر فرآه بلال فصاح يحرّض الناس على قتله فقتلوه. انظر: الأعلام للزركلي، ٢/٢٢.

[2] مرويّ بمعناه عن عائشة وابن عبّاس ومجاهد وقتادة في جامع البيان للطبري، ٢٤/١٠٢-١٠٤؛ وبلا عزو في معالم التنزيل للبغوي، ٨/٣٣٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٥٢٦.

[3] كلّه في معالم التنزيل للبغوي، ٨/٣٣٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٥٢٦؛ وبعضه في جامع البيان للطبري، ٢٤/١٠٤.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ وأبي عمران الجوني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٣.

و﴿أَن جَآءَهُ﴾ علّة لـ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾ أو ﴿عَبَسَ﴾ على اختلاف الرأيين،[١] أي: لأنْ جاءه الأعمى.

[٢٧٠ظ] والتعرّض لعنوان عَماه إمّا لتمهيد عُذره في الإقدام / على قَطْع كلامه عليه السلام بالقوم والإيذان باستحقاقه بالرِّفق والرأفة، وإمّا لزيادة الإنكار، كأنّه قيل: تولّى لكونه أعمى. كما أنّ الالتفات في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ لذلك، فإنّ المشافهة أدخَلُ في تشديد العِتاب، أي: وأيّ شيء يجعلك داريًا بحاله حتّى تُعرِض عنه.

وقوله تعالى:[٢] ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ استئناف وارد لبيان ما يلوّح به ما قبله، فإنّه مع إشعاره بأنّ له شأنًا منافيًا للإعراض عنه خارجًا عن دِراية الغير وإدْرائه مؤذِنٌ بأنّه تعالى يُدريه ذلك، أي: لعلّه يتطهّر بما يقتبس منك مِن أوضار الأوزار بالكلّيّة. وكلمة ﴿لَعَلَّ﴾ مع تحقّق التزكّي واردةٌ على سَنن الكبرياء، أو على اعتبار معنى الترجّي بالنسبة إليه عليه السلام للتنبيه على أنّ الإعراض عنه عند كونه مرجوّ التزكّي ممّا لا يجوز، فكيف إذا كان مقطوعًا بالتزكّي؟ كما في قولك: "لعلّك ستندم على ما فعلتَ". وفيه إشارةٌ إلى أنّ مَن تصدّى لتزكيتهم مِن الكفَرة لا يُرجى منهم التزكّي والتذكّر أصلًا.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ عطفٌ على ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ داخلٌ معه في حُكم الترجّي.

وقوله تعالى: ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ بالنصب على جواب ﴿لَعَلَّ﴾. وقُرئ بالرفع[٣] عطفًا على ﴿يَذَّكَّرُ﴾، أي: أو يتذكّر فتنفعه موعظتك إن لم يبلغ درجة التزكّي التامّ. وقيل: الضمير في ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ للكافر،[٤] فالمعنى أنّك طمِعت في أن يتزكّى أو يذكّر فتُقرّبه الذكرى إلى قَبول الحقّ، ولذلك تولّيت عن الأعمى، وما يدريك أن ذلك مرجوُ الوقوع.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي: عن الإيمان وعمّا عندك مِن العلوم والمعارف التي ينطوي عليها القرآن.

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٧/٤.

٢ س – تعالى.

٣ قرأ بها العشرة إلّا عاصمًا. النشر لابن الجزري، ٣٩٨/٢.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٧/٤.

﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ أي: تتصدّى وتتعرّض بالإقبال عليه والاهتمام بإرشاده واستصلاحه. وفيه مزيدُ تنفير له عليه السلام عن مصاحبتهم، فإنّ الإقبال على المُدبِر ليس مِن شِيم الكِرام. وقُرئ: "تَصَّدَّى"[١] بإدْغام "التاء" في "الصاد". وقُرئ: "تُصَدَّى"[٢] بضمّ "التاء"، أي: تُعرَّض، ومعناه يدعوك إلى التصدّي له داعٍ مِن الحرص والتهالُك على إسلامه.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ وليس عليك بأس في أن لا يتزكّى بالإسلام حتّى تهتمّ بأمره وتُعرِض عمّن أسلم. والجملة حال مِن ضمير ﴿تَصَدَّىٰ﴾. وقيل: ﴿مَا﴾ استفهاميّة للإنكار،[٣] / أي: أيُّ شيء عليك في ألّا يتزكّى، ومآله النفيُ أيضًا. [٢٧١و]

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ أي: حالَ كونه مُسرِعًا طالبًا لِما عندك مِن أحكام الرُّشد وخصالِ الخير.

﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ أي: الله تعالى. وقيل: يخشى أذيّة الكفّار في إتيانك. وقيل: يخشى الكَبوَة إذ لم يكن معه قائدٌ.[٤] والجملة حال مِن فاعل ﴿يَسْعَىٰ﴾، كما أنّه حال مِن فاعل ﴿جَآءَكَ﴾.

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ تتشاغل. يقال: "لهى عنه والتَهى وتلهّى". وقُرئ: "تَتَلَهَّى"،[٥] و"تُلَهَّى"،[٦] أي: يُلهِّيك شأن الصناديد. وفي تقديم ضميره عليه السلام على الفعلين تنبيهٌ على أنّ مَناط الإنكار خصوصيّته عليه السلام، أي: مثلك خصوصًا لا ينبغي أن يتصدّى للمستغني ويتلهّى عن الفقير الطالب للخير.

وتقديمُ ﴿لَهُۥ﴾ و﴿عَنْهُ﴾ للتعريض باهتمامه عليه السلام بمضمونهما.

رُوي أنّه صلّى الله عليه وسلّم ما عبَس بعد ذلك في وجه فقير قطّ ولا تصدّى لغنيّ.[٧]

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩٨/٢.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر محمّد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٣.
٣ لم أقف على هذا القول فيما بين يديّ مِن المظانّ.
٤ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٧/٤.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وطلحة بن مصرف. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٣.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جعفر محمّد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٣.
٧ ما وقفت عليه في مظانّه. وهو في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٧/٤.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝﴾

﴿كَلَّآ﴾ ردع له صلّى الله عليه وسلّم عمّا عُوتب عليه مِن التصدّي لمَن استغنى عمّا دعاه إليه مِن الإيمان والطاعة وما يُوجبهما مِن القرآن الكريم، مبالِغًا في الاهتمام بأمره، متهالِكًا على إسلامه معرِضًا بسبب ذلك عن إرشاد مَن يسترشده.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي: موعظة يجب أن يُتّعَظ بها ويُعمَل بموجَبها، تعليلٌ للردع عمّا ذُكر ببيان علوّ رُتبة القرآن العظيم الذي استغنى عنه مَن تصدّى عليه السلام[١] له، وتحقيقُ أنّ شأنه أن يكون موعظةً حقيقةً بالاتّعاظ بها، فمَن رغِب فيها اتّعظ بها، كما نطق به قولُه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي: حَفِظَه واتّعظَ به ومَن رغِب عنها كما فعله المستغني فلا حاجةَ إلى الاهتمام بأمره، فالضميران للقرآن، وتأنيث الأوّل لتأنيث خبره.

وقيل: الأوّل للسورة، أو للآيات السابقة، والثاني للتذكرة والتذكير؛ لأنّها في معنى الذِّكر والوعظ.[٢] وليس بذلك؛ فإنّ السورة والآياتِ وإن كانت متّصفةً بما سيأتي مِن الصفات الشريفة، لكنّها ليست ممّا أُلقيَ على مَن استغنى عنه واستحقّ بسبب ذلك ما سيأتي مِن الدعاء عليه والتعجّبِ مِن كفره المُفرِط، لنزولها بعد الحادثة.

وأمّا مَن جوّز رجوعَهما إلى العِتاب المذكور،[٣] فقد أخطأ وأساء الأدبَ وخبط خبطًا يُقضى منه العجبُ. فتأمّلْ وكنْ على الحقّ المُبين.

وقوله تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ﴾ متعلِّق بمضمر هو صفة لـ﴿تَذْكِرَةٌ﴾، وما بينهما اعتراضٌ جيء به للترغيب فيها والحثّ على حِفْظها، أي: كائنة في صُحُف مُنتسَخة مِن اللوح، أو خبر ثان لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ عند الله عزّ وجلّ.

﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي: في السماء السابعة، أو مرفوعةِ المقدار والذِّكر ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ منزّهةٍ عن مساس أيدي الشياطين.

---

١ س – عليه السلام.

٢ القول في اللباب لابن عادل، ٢٠/١٥٨-١٥٩.

٣ جوّز ذلك الطِّيبي في فتوح الغيب، ١٦/٢٩٦.

﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ﴾ أي: كَتَبة مِن الملائكة عليهم السلام[١] ينتسِخون الكتب مِن اللوح على أنّه جَمْع "سافر" مِن "السَّفْر"، وهو الكتب. وقيل: بأيدي رسُل مِن الملائكة يُسفِرون بالوحي بينه تعالى وبين الأنبياء على أنّه جمع "سفير" مِن "السِّفَارة".[٢] وحَمْلُهم على الأنبياء عليهم السلام[٣] بعيدٌ؛ فإنّ وظيفتَهم التلقّي مِن الوحي لا الكَتْبُ منه، وإرشادُ الأمّة بالأمر والنّهي وتعليم الشرائع والأحكام لا مجرَّد السِّفارةِ إليهم. وكذا حَمْلُهم على القرّاء لقراءتهم الأسفار، أو على أصحابه صلّى الله عليه وسلّم.[٤] وقد قالوا: هذه اللفظة مختصَّة بالملائكة لا تكاد تُطلَق / على غيرهم،[٥] وإن جاز الإطلاق بحسَب اللغة. [٢٧١ظ]

و"الباء" متعلّقة بـ﴿مُّطَهَّرَةِۭ﴾. قال القفّال: لمّا لم يمسّها إلّا الملائكة المطهَّرون أضيفَ التطهيرُ إليها لطهارة مَن يَمسُّها.[٦] وقال القُرطبي: إنّ المراد بما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة، ٧٩/٥٦] هؤلاء السَّفَرة الكرام البَرَرة.[٧]

﴿كِرَامِۭ﴾ عند الله عزّ وجلّ، أو متعطِّفين على المؤمنين يكمِّلونهم ويستغفرون لهم ﴿بَرَرَةٖ﴾ أتقياء. وقيل: مُطيعين لله تعالى، مِن قولهم: "فلان يَبَرّ خالقه"، أي: يُطيعه. وقيل: صادقين مِن "بَرّ في يمينه".[٨]

﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ٢٣ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢﴾

---

١ س - عليهم السلام.
٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٩٩/٣-٥٠٠.
٣ كما في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٧/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٩٩/٣.
٤ هذان الوجهان في جامع البيان للطبري، ١٠٨/٢٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٢٧/٤.
٥ انظر: جامع البيان للطبري، ١٠٨/٢٤؛ واللباب لابن عادل، ١٥٩/٢٠.
٦ نقله عن القفّال ابن عادل في اللباب، ١٦٠/٢٠.
٧ انظر: تفسير القرطبي، ٢٢٥/١٧؛ ونقله عنه ابن عادل في اللباب، ١٦٠/٢٠.
٨ الوجهان في اللباب لابن عادل، ١٥٩/٢٠-١٦٠.

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ دعاء عليه بأشنع الدعوات.

وقوله تعالى: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ تعجُّب مِن إفراطه في الكفران وبيانٌ لاستحقاقه للدعاء عليه. والمراد به إمّا مَن استغنى عن القرآن الكريم الذي ذُكرت نُعوته الجليلة الموجِبة للإقبال عليه والإيمان به، وإمّا الجنسُ باعتبار انتظامه له ولأمثاله مِن أفراده لا باعتبار جميع أفراده. وفيه مع قِصَر مَتْنه وتقارُب قُطرَيه مِن الإنباء عن سخط عظيم ومذمّة بالغة ما لا غايةَ وراءه.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ شروع في بيان إفراطه في الكفران بتفصيل ما أفاض عليه مِن مبدأ فطرته إلى منتهى عمره مِن فنون النِّعَم الموجِبة لقضاء حقّها بالشكر والطاعة مع إخلاله بذلك. وفي الاستفهام مِن مَبدأ خلقه ثمّ بيانِه بقوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ تحقيرٌ له، أي: مِن أيّ شيء حقير مَهين خلقه، مِن نطفة مَذِرة خَلَقه، ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ فهيّأه لِمَا يصلح له ويليق به مِن الأعضاء والأشكال، أو فقدّره أطوارًا إلى أن تمّ خَلْقه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ منصوب بمضمَر يفسِّره الظاهر، أي: ثمّ سهَّل مَخرَجه مِن البطن بأن فتح فمَ الرَّحِم وألهمه أن ينتكِس، أو يسَّر له سبيل الخير والشرّ، ومكّنه مِن السلوك فيهما. وتعريف ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ بـ"اللام" دون الإضافة للإشعار بعمومه.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ أي: جَعَله ذا قبر يُوارى فيه تكرمةً له، ولم يَدَعه مطروحًا على وجه الأرض جَزَرًا للسِّباع والطير[1] كسائر الحيوان، يقال: "قَبَر الميّتَ" إذا دفَنه، و"أقبَرهُ" إذا أمر بدفنِه أو مكَّن منه.[2] وعَدُّ الإماتة مِن النِّعَم لأنّها [٢٧٢و] / وُصلة في الجملة إلى الحياة الأبديّة والنَّعيم المُقيم.

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ أي: إذا شاء إنشاره أنشَره على القاعدة المستمرّة في حذف مفعولِ المشيئة. وفي تعليق الإنشار بمشيئته تعالى إيذانٌ بأنّ وقته غيرُ متعيّن؛ بل هو تابع لها. وقُرئ: "نَشَرَهُ".[3]

---

[1] جزر السِّباع والطير: اللحم الذي تأكله، بأن يُترك قطعًا. لسان العرب لابن منظور، «جزر».

[2] وفي هامش م: قال أبو عبيدة: أقبَره: جَعَل له قبرًا وأمَر أن يُقبَر. «منه». | وانظر الكلام في مجاز القرآن لابي عبيدة، ٢/٢٨٦.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن شعيب وأبي حمزة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٣؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٨٩١.

﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عمّا هو عليه. وقوله تعالى: ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ بيان لسبب الردع، أي: لم يقضِ بعدُ مِن لدن آدمَ عليه السلام إلى هذه الغاية مع طول المدى وامتداده ما أمره الله تعالى بأسره؛ إذ لا يخلو أحد عن تقصير ما. كذا قالوا، وهكذا نُقل عن مجاهدٍ وقتادةَ.[1]

ولا ريبَ في أنّ مساق الآياتِ الكريمة لبيان غاية عِظَم جنايةِ الإنسان وتحقيقِ كفرانه المفرط المستوجِب للسخط العظيم، وظاهرٌ أنّ ذلك لا يتحقّق بهذا القدر مِن نوع تقصير لا يخلو عنه أحد مِن أفراده، كيف لا، وقد قال صلّى الله عليه وسلّم: «شيّبتني سورة هود»،[2] لِما فيها مِن قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود، ١١/١١٢].

فالوجه أن يُحمَل عدمُ القضاء على عموم النفي لا على نفي العموم، إمّا على أنّ المحكوم عليه هو المستغني، أو هو الجنس، لكن لا على الإطلاق؛ بل على أنّ مِصداق الحُكم بعدم القضاء بعضُ أفراده، وقد أسنِدَ إلى الكلّ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم، ١٤/٣٤] للإشباع في اللوم بحُكم المجانسة، على طريقة قولهم: "بنو فلان قتلوا فلانًا" والقاتل واحد منهم، وإمّا على أنّ مِصداقه الكلّ[3] مِن حيث هو كلّ بطريق رَفْع الإيجاب الكلّي دون السَّلْب الكلّي، فالمعنى لمّا يقضِ جميعُ أفراده ما أمره، بل أخلّ به بعضُها بالكفر والعصيان، مع أنّ مقتضى ما فُصِّل مِن فنون النَّعماء الشاملة للكلّ أن لا يتخلّف عنه أحد أصلًا. هذا، وقد قيل: ﴿كَلَّا﴾ بمعنى حقًّا،[4] فيتعلّق بما بعده، أي: حقًّا لم يعمل بما أمره به.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ شروع في تعداد النِّعَم المتعلّقة ببقائه بعد تفصيل النِّعَم المتعلّقة بحدوثه، أي: فلينظر إلى طعامه الذي عليه يدور أمر معاشه كيف دبّرناه.

---

١ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٣٨/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٢٨/٤؛ واللباب لابن عادل، ١٦٣/٢٠.

٢ سنن الترمذي، ٤٠٢/٥ (٣٢٩٧)؛ المعجم الكبير للطبراني، ١٤٨/٦ (٥٨٠٤)؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٠٣/٤ (هود، ١١/١١٢)؛ الكشّاف للزمخشري، ٣١٩/٢ (هود، ١١/١١٢).

٣ السياق: إمّا على أنّ المحكوم... وإمّا على أنّ مِصداقه...

٤ مرويّ عن الحسن في تفسير القرطبي، ٢١٩/١٩؛ ونقله عن القرطبي ابن عادل في اللباب، ١٦٣/٢٠.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ أي: الغيث بدل اشتمال مِن ﴿طَعَامِهِ﴾؛ لأنّ الماء سبب لحدوث الطعام / فهو مشتمِل عليه. وقُرئ: "إِنَّا"[1] على الاستئناف، وقُرئ: "أَنَّى"[2] بالإمالة. أي: كيف صببنا... إلخ، أي: صببناه صبًّا عجيبًا. [٢٧٢ظ]

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ﴾ أي: بالنبات ﴿شَقًّا﴾ بديعًا لائقًا بما يَشقّها مِن النبات صِغرًا وكِبَرًا وشكلًا وهيئةً. وحَمْلُ شقّها على ما بالكِراب[3] بجَعْل إسناده إلى نون العظمة مِن قبيل إسناد الفعل إلى سببه،[4] يأباه كلمة ﴿ثُمَّ﴾.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ فإنّ الشقّ بالمعنى المذكور لا ترتُّب بينه وبين الإمطار أصلًا، ولا بينه وبين إنبات الحبّ بلا مُهلة، وإنّما الترتّب بين الإمطار وبين الشقّ بالنبات على التراخي المعهود وبين الشقِّ المذكور وبين إنبات الحبّ بلا مهلة، فإنّ المراد بالنبات ما نبت مِن الأرض إلى أن يتكامل النموّ وينعقِد الحبّ، فإنّ انشقاق الأرض بالنبات لا يزال يتزايد ويتّسع إلى تلك المرتبة.

على أنّ مَساق النظم الكريم لبيان النِّعَم الفائضة مِن جنابه تعالى على وجه بديع خارج عن العادات المعهودة، كما ينبئ عنه تأكيد الفعلين بالمصدرين، فتوسيط فِعْل المُنعَم عليه في حصول تلك النِّعَم مُخِلّ بالمرام.

وقوله تعالى: ﴿وَعِنَبًا﴾ عطفٌ على ﴿حَبًّا﴾، وليس مِن لوازم العطف أن يُقيَّد المعطوف بجميع ما قُيِّد به المعطوف عليه، فلا ضيرَ في خلوّ إنبات العِنَب عن شقّ الأرض. ﴿وَقَضْبًا﴾ أي: رَطبةً، سُمِّيت بمصدر قَضَبه، أي: قَطَعه مبالغةً، كأنّها لتكرُّر قَطْعها وتكثُّره نفسُ القَطْع.

﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ الكلام فيهما وفي أمثالهما كما في العنب.

﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ أي: عِظامًا. وُصِف به الحدائق لتكاثفها وكثرةِ أشجارها، أو لأنّها ذات أشجار غِلاظ. مُستعار مِن وَصْف الرِّقاب.

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر ووافقهم رُويس في الابتداء. النشر لابن الجزري، ٣٩٨/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الصرصري والعنبريّ والمَلَطي والبصري، كلّهم عن أبي بكر عن عاصم. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ١٨٩١.

٣ كَرَب الأرض يكرِبها كربًا وكِرابًا: قَلَبها للحَرْث وأثارها للزرع. لسان العرب لابن منظور، «كرب».

٤ جوّز الزمخشري هذا الوجه في الكشّاف، ٥٢٨/٤.

﴿وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا﴾ أي: مرعًى مِن "أبّه" إذا أمّه، أي: قَصَده؛ لأنّه يؤمّ ويُنتجَع، أو مِن "أبّ لكذا" إذا تهيّأ له؛ لأنّه متهيّئ للرعي، أو فاكهةً / يابسةً تؤبّ للشتاء. [٢٧٣و] وعن الصِّدّيق رضي الله عنه أنّه سُئل عن "الأبّ" فقال: «أيُّ سماء تُظِلّني، وأيُّ أرض تُقلّني إذا قلتُ في كتاب الله ما لا عِلمَ لي به».[١] وعن عمرَ رضي الله عنه أنّه قرأ هذه الآية، فقال: «كلُّ هذا قد عرفنا، فما الأبّ؟» ثم رفض عصًا كانت بيده وقال: «هذا لعَمْرُ الله التكلُّف، وما عليك يا ابن أمّ عمرَ ألّا تدري ما الأبّ؟»، ثم قال: «اتّبعوا ما تبيَّن لكم مِن هذا الكتاب، وما لا فدَعوه».[٢]

﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ إمّا مفعول له، أي: فعلَ ذلك تمتيعًا لكم ولمواشيكم، فإنّ بعض النِّعَم المعدودة طعامٌ لهم وبعضَها علفٌ لدوابّهم. والالتفاتُ لتكميل الامتنان؛ وإمّا مصدرٌ مؤكِّد لفعله المضمر بحَذْف الزوائد، أي: متّعكم بذلك مَتاعًا، أو لفعل مترتِّب عليه، أي: متّعكم بذلك فتمتّعتم مَتاعًا، أي: تمتُّعًا كما مرّ غيرَ مرّة، أو مصدرٌ مِن غير لفظه، فإنّ ما ذُكر مِن الأفعال الثلاثة في معنى التمتيع.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ شروع في بيان أحوال معادهم إثرَ بيان مبدأ خلقهم ومعاشهم. و"الفاء" للدلالة على ترتّب ما بعدها على ما قبلها مِن فنون النِّعَم عن قريب، كما يُشعِر لفظ "المتاع" بسرعة زوالها وقُرب اضمحلالها. و﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ هي الداهية العظيمة التي يصخّ لها الخلائق، أي: يُصيخون لها، مِن "صَخّ لحديثه" إذا أصاخ له واستمع. وُصِفت بها النفخة الثانية؛ لأنّ الناس يصخّون لها.

---

[١] بلفظ قريب في شعب الإيمان للبيهقي، ٥٤٠/٣ (٢٠٨٢)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٣٩/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٢٩/٤.

[٢] مرويّ عن أنس بن مالك بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ١٢٠/٢٤؛ والمستدرك للحاكم، ٥٥٩/٢ (٣٨٩٧)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٥٤١/٣ (٢٠٨٤)؛ وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٢٩/٤.

وقيل: هي الصيحة التي تُصِخّ الآذان، أي: تُصِمّها لشِدّة وقعِها. وقيل: هي مأخوذة مِن "صَخَّه بالحَجَر"، أي: صَكّه.[١]

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ إمّا منصوب بـ"أعني" تفسيرًا لـ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾، أو بدل منها، مبنيّ على الفتح بالإضافة إلى الفعل على رأي الكوفيّين.[٢] وقيل: بدل مِن ﴿إِذَا جَآءَتِ﴾،[٣] كما مرّ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ﴾ [النازعات، ٣٥/٧٩]... إلخ، أي: يُعرِض عنهم ولا يُصاحِبهم ولا يَسأل عن حالهم كما في الدنيا / لاشتغاله بحال نفسه. [٢٧٣ظ]

وأمّا تعليل ذلك بعلمه بأنّهم لا يُغنون عنه شيئًا، أو بالحذر مِن مطالبتهم بالتبِعات،[٤] فيأباه قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾؛ فإنّه استئناف وارد لبيان سببِ الفِرار، أي: لكلّ واحد مِن المذكورين شُغل شاغل وخَطْب هائل يكفيه في الاهتمام به. وأمّا الفِرار حَذَرًا مِن مطالبتهم أو بُغضًا لهم، كما يُروى عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّه يفِرّ قابيلُ مِن أخيه هابيلَ، ويفِرّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مِن أمّه، ويفِرّ إبراهيمُ عليه السلام مِن أبيه، ونوحٌ عليه السلام مِن ابنه، ولوطٌ عليه السلام مِن امرأته،[٥] فليس مِن قبيل[٦] هذا الفرارِ.

وكذا ما يُروى أنّ الرجل يفِرّ مِن أصحابه وأقربائه لئلّا يرَوه على ما هو عليه مِن سوء الحال. وقُرئ: "يَعْنِيهِ" بـ"الياء" المفتوحة و"العين" المهملة، أي: يُهمّه مِن "عَناه الأمرُ" إذا أهمّه، أي: أوقعه في الهمّ، ومنه: «مِن حُسن إسلام المرء تركُه ما لا يَعنيه».[٧] لا مِن "عَناه" إذا قَصَده كما قيل.[٨]

وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ بيان لمآل أَمر المذكورين وانقسامهم إلى السُّعداء والأشقياء بعد ذِكر وقوعهم في داهية دَهْياء، فـ﴿وُجُوهٌ﴾ مبتدأ

---

١ القولان في اللباب لابن عادل، ١٦٩/٢٠.
٢ انظر قولهم وتفصيله في شرح الرضيّ على الكافية، ٢٤٩/١.
٣ القول في اللباب لابن عادل، ١٧٠/٢٠.
٤ كما ذكر البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥٠١/٣.
٥ مرويّ عن ابن عبّاس وقتادة في معالم التنزيل للبغوي، ٣٤٠/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٣٠/٤.
٦ السياق: وأمّا الفرارُ... فليس مِن قبيل...
٧ مسند أحمد، ٢٥٩/٣ (١٧٣٧)؛ سنن الترمذي، ٥٥٨/٤ (٢٣١٧)؛ سنن ابن ماجه، ١١٩/٥ (٣٩٧٦).
٨ القول في اللباب لابن عادل، ١٧١/٢٠.

وإن كانت نكرةً لكونها في حيّز التنويع، و﴿مُسْفِرَةٌ﴾ خبره، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلّق به، أي: مُضيئة متهلِّلة مِن "أسفَر الصبح" إذا أضاء. وعن ابن عبّاس أنّ ذلك مِن قيام الليل. وفي الحديث: «مَن كثُر صلاته بالليل حَسُن وجهه بالنهار».[١] وعن الضحّاك: مِن آثار الوضوء.[٢] وقيل: مِن طُول ما اغبرّت في سبيل الله.[٣]

﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ بما تُشاهِد مِن النعيم المُقيم والبهجة الدائمة.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أي: غُبار وكُدورة.

﴿تَرْهَقُهَا﴾ أي: تعلوها وتغشاها ﴿قَتَرَةٌ﴾ أي: سواد وظُلمة.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى أصحاب تلك الوجوه، وما فيه مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد درجتهم في سوء الحال، أي: أولئك الموصوفون بسواد الوجوه وغيره. ﴿هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ الجامعون / بين الكفر والفجور، فلذلك جَمَع الله عزّ وجلّ إلى سواد وجوههم الغَبرةَ. [٢٧٤و]

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة عبس جاء يوم القيامة ووجهُه ضاحك مُستبشِر».[٤]

---

١ سنن ابن ماجه، ٣٥٨/٢ (١٣٣٣)؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٤٧١/٤ (٢٨٣٠)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٠/٤.

٢ لم أجده في مظانّه. وهو في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٠/٤؛ واللباب لابن عادل، ١٧٢/٢٠.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٠/٤.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٠٤/٢٨ (عبس، ١/٨٠)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٢٢/٤ (عبس، ١/٨٠)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٠/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة التكوير

مكيّة، وهي تسع وعشرون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤﴾

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ أي: لُفّتْ مِن "كوَّرتُ العِمامةَ" إذا لففتَها، على أنّ المراد بذلك إمّا رفعُها وإزالتها مِن مقرّها، فإنّ الثوب إذا أريدَ رفعه يُلفّ لفًّا ويُطوى، ونحوه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ [الأنبياء، ١٠٤/٢١]، وإمّا لفّ ضوئها[١] المنبسِط في الآفاق المنتشِر في الأقطار، على أنّه عبارة عن إزالتها والذهابِ بها بحُكم استلزام زوال اللازم لزوال الملزوم؛ أو أُلقيَت[٢] عن فَلَكها كما وُصفت النجوم بالانكدار مِن "طعَنه فكَوّره" إذا ألقاه على الأرض.

وعن أبي صالح: ﴿كُوِّرَتْ﴾: نُكّست،[٣] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: تكويرُها إدخالها في العرش.[٤] ومدار التركيب على الإدارة والجَمْع. وارتفاعُ ﴿ٱلشَّمْسُ﴾ على أنّه فاعل لفِعل مضمر يفسِّره المذكور، وعند البعض على الابتداء.

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ أي: انقضّت. وقيل: تناثرتْ وتساقطتْ.[٥] رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما:[٦] أنّه لا يبقى يومئذ نجم إلّا سقط في الأرض،

---

١ السياق: إمّا رفعُها... وإمّا لفّ ضوئها...

٢ السياق: لُفّت... أو أُلقيَت...

٣ جامع البيان للطبري، ١٣٠/٢٤؛ اللباب لابن عادل، ١٧٥/٢٠.

٤ لم أجِده في مظانّه. وهو في اللباب لابن عادل، ١٧٥/٢٠.

٥ مرويّ عن مجاهد وأبي صالح وقتادة في جامع البيان للطبري، ١٣٢/٢٤-١٣٣.

٦ م - رضي الله عنهما.

وعنه رضي الله عنه: أنّ النجوم قناديلُ معلَّقة بين السماء والأرض بسلاسلَ مِن نور بأيدي ملائكة مِن نور، فإذا مات مَن في السماوات ومَن في[1] الأرض تساقطت مِن أيديهم.[2] وقيل: انكدارها انطماس نورها.[3] ويُروى أنّ الشمس والنجوم تُطرح في جهنّم ليراها مَن عَبَدها، كما قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء، ٩٨/٢١].[4]

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي: عن أماكنها بالرجفة الحاصلة. لا في الجوّ،[5] فإنّ ذلك بعد النفخة الثانية.

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ﴾ جَمْع عُشَراء: وهي الناقة التي أتى على حَمْلها عشرة أشهر، وهو اسمها إلى أن تضع لتمام السَّنة، وهي أنفَسُ ما يكون عند أهلها وأعزُّها عليهم. ﴿عُطِّلَتْ﴾ تُرِكت مهملةً لاشتغال أهلها بأنفسهم. وقيل: العِشار: السحائب،[6] فإنّ العرب تُشبِّهها بالحامل، ومنه قوله تعالى: / ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾ [الذاريات، ٢/٥١]. وتعطيلها: عدم إمطارها. وقُرِئ: "عُطِلَتْ"[7] بالتخفيف. [٢٧٤ظ]

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي: جُمعت مِن كلّ جانب. وقيل: بُعثت للقِصاص.[8] قال قتادةُ: يُحشَر كلّ شيء حتّى الذُّباب للقِصاص، فإذا قُضي بينها رُدّت ترابًا، فلا يبقى منها إلّا ما فيه سرور لبني آدمَ وإعجاب بصورته كالطاوس ونحوه.[9] وقُرِئ: "حُشِّرَتْ"[10] بالتشديد.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي: أُحمِيت أو مُلِئت بتفجير بعضها إلى بعض حتّى يعود بحرًا واحدًا. مِن "سَجَر التنور" إذا ملأه بالحطب ليُحمِيَه. وقيل: مُلئت نيرانًا

---

١ س - مَن في.
٢ لم أجِدهما في مظانّهما. وهما بلفظ قريب في اللباب لابن عادل، ١٧٦/٢٠.
٣ القول في اللباب لابن عادل، ١٧٦/٢٠.
٤ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٣١/٤.
٥ كما ذكره البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥٠٢/٣.
٦ الوجه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٠٢/٣.
٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن البَزي وابن خالويه عن ابن كثير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٤.
٨ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٠٣/٣.
٩ مرويّ عن قتادة وابن عبّاس في تفسير ابن أبي حاتم، ٣٤٠٥/١٠، والكشّاف للزمخشري، ٥٣١/٤، واللباب لابن عادل، ١٧٧/٢٠.
١٠ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن مِقسَم وابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٤.

تضطرم لتعذيب أهل النار.[١] وعن الحسن: يذهب ماؤها حتّى لا يبقى فيها قطرة.[٢] وقُرئ: "سُجِرَتْ"[٣] بالتخفيف.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أي: قُرنت بأجسادها أو قُرنت كلّ نفس بشكلها أو بكتابها أو بعملها، أو نفوس المؤمنين بالحُور ونفوسُ الكفَرة بالشياطين.

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾ أي: المدفونة حيّةً، وكانت العرب تئد البنات مخافةَ الإملاق أو لحوقِ العار بهم مِن أجلهنّ. قيل: كان الرجل إذا وُلدت له بنت ألبسها جُبّةً مِن صوف أو شعر، حتّى إذا بلغت ستّ سنين ذهَب بها إلى الصحراء وقد حفر لها حفرةً فيلقيها فيها ويهيل عليها التراب.[٤] وقيل: كانت الحامل إذا قربت حفَرت حفرةً فتمخَّضت على رأس الحُفرة، فإذا ولدت بنتًا رمَت بها وإن ولدت ابنًا حبسته.[٥]

﴿سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ توجيه السؤال إليها لتسليتها وإظهارِ كمال الغيظ والسخط لوائدها وإسقاطه عن درجة الخطاب والمبالغة في تبكيته، كما في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ﴾ [المائدة، ١١٦/٥]. وقُرئ: "سَأَلَتْ"،[٦] أي: خاصمَتْ أو سألتِ الله تعالى[٧] / أو قاتلَها. وإنّما قيل: ﴿قُتِلَتْ﴾ [٢٧٥و] لِما أنّ الكلام إخبار عنها، لا حكايةٌ لِما خُوطبت به حين سُئلت ليقال: "قُتلتِ" على الخطاب، ولا حكاية لكلامها حين سألَت ليقال: "قُتلتُ" على الحكاية عن نفسها، وقد قُرئ كذلك،[٨] وبالتشديد أيضًا.[٩]

---

١ مرويّ عن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ٣٤٦/٨؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٣١/٤.

٢ مرويّ عن قتادة والحسن في جامع البيان للطبري، ١٣٩/٢٤-١٤٠؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٤٧/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٣١/٤-٥٣٢.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بخلاف عن رُويس. النشر لابن الجزري، ٣٩٨/٢.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٢/٤.

٥ مرويّ عن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ٣٤٨/٨؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٢/٤.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب وابن عبّاس وابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٩.

٧ م - تعالى.

٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب وابن عبّاس وابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٩.

٩ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩٨/٢.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّه سُئل عن أطفال المشركين، فقال: لا يُعذَّبون، واحتجّ بهذه الآية.[١]

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ﴾ أي: صحف الأعمال، فإنّها تُطوى عند الموت وتُنشر عند الحساب. عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «يُحشَر الناس عُراةً حُفاةً»، فقالت أمّ سلمة: «فكيف بالنساء»، فقال: «شُغِل الناس يا أمّ سلمة»، قالت: «وما شُغلهم؟» قال: «نَشْرُ الصُّحف فيها مثاقيلُ الذرّ ومثاقيلُ الخردل».[٢]

وقيل: نُشرت، أي: فرِّقت بين أصحابها، عن مَرثد بن وَداعة:[٣] إذا كان يوم القيامة تطايرت الصحف مِن تحت العرش فيقع صحيفة المؤمن في يده في جنّة عالية، وتقع صحيفة الكافر في يده في سَموم وحميم، أي: مكتوب فيها ذلك، وهي صحف غيرُ صُحف الأعمال.[٤]

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ﴾ قُلعت وأُزيلت كما يُكشَط الإهاب عن الذبيحة والغِطاءُ عن الشيء المستور به. وقُرئ: "قُشِطَتْ"،[٥] واعتقاب "الكاف" و"القاف" غيرُ عزيز كـ"الكافور" و"القافور".

﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ﴾ أي: أوقِدتْ إيقادًا شديدًا. قيل: سعَّرها غضب الله عزّ وجلّ وخطايا بني آدم. وقُرئ: "سُعِرَتْ"[٦] بالتّخفيف.

﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ﴾ أي: قُرِّبت مِن المتّقين، كقوله تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ﴾ [ق، ٣١/٥٠]. قيل: هذه اثنتا عشرةَ خصلةً ستّ منها في الدنيا، أي: فيما بين النفختين، وهنّ مِن أوّل السورة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾،[٧]

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٢/٤.

٢ لم أجده في مظانّه. وهو في الكشف والبيان للثعلبي، ٤٨٧/٢٨-٤٨٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٣٢/٤.

٣ هو مرثد بن وداعة الكِندي، ويقال: الجُعْفِي، أبو قُتيلة، قيل: مِن ساكنيّ مصر، له صُحبة فيما ذكر البخاري، وله عند أبي داود والبغوي حديث في فضل الشام، وقال أبو حاتم الرازي: ليس له صحبة وإنّما كان يروي عن عبد الله بن حوالة، وذكره ابن حبّان ومسلم بن الحجّاج في التابعين. انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ، ١٣٨٦/٣؛ والإصابة لابن حجر، ٧١/٦.

٤ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٢/٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٤.

٦ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وهشام وروح وأبو بكر بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٩٨/٢.

٧ الآية السادسة مِن هذه السورة.

على أنّ المراد بـ"حَشْر الوحوش" جمعُها مِن كلّ ناحية، لا بعثُها للقِصاص؛ وستّ في الآخرة، أي: بعد النفخة الثانية.

وقوله تعالى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٌ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾، على أنّ المراد بها زمان واحد ممتدّ يسَع ما في سِياقها وسِياق ما عُطف عليها مِن الخصال، مبدؤه النفخة الأولى، ومنتهاه فَصْل القضاء بين الخلائق، لكن لا بمعنى / أنّها تعلم ما تعلم في [٢٧٥ظ] كلّ جزء مِن أجزاء ذلك الوقت المديد، أو عند وقوع داهية مِن تلك الدواهي؛ بل عند نَشْر الصحف، إلّا أنّه لمّا كان بعض تلك الدّواهي مِن مباديه، وبعضُها مِن روادفه نُسِب عِلمها بذلك إلى زمان وقوع كلِّها تهويلًا للخطب وتفظيعًا للحال.

والمراد بـ﴿مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ أعمالُها مِن الخير والشرّ، وبحضورها إمّا حضور صحائفها، كما يُعرِب عنه نَشْرها، وإمّا حضور أنفُسها على ما قالوا: مِن أنّ الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصوَر عرضيّة تبرز في النشأة الآخرة بصوَر جوهريّة مناسبة لها في الحُسن والقُبح على كيفيّات مخصوصة وهيئات معيَّنة، حتّى إنّ الذنوب والمعاصي تتجسّم هنالك وتتصوَّر بصورة النار.

وعلى ذلك حُمل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة، ٩/٤٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارًا﴾ [النساء، ٤/١٠]، وكذا قوله عليه السلام في حقّ مَن يشرب مِن آنية الذهب والفضّة: «إنّما يُجَرجَر في بطنه نارُ جهنّم»،[١] ولا بُعد في ذلك، ألا يُرى أنّ العِلم يظهر في عالم المثال على صورة اللبن، كما لا يخفى على مَن له خبرة بأحوال الحضرات الخمس.

وقد رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّه يؤتى بالأعمال الصالحة على صوَر حسنة وبالأعمال السيّئة على صور قبيحة، فتُوضع في الميزان.[٢] وأيًّا ما كان فإسنادُ إحضارها إلى النفس مع أنّها تُحضَر بأمر الله تعالى، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾ الآية [آل عمران، ٣/٣٠]؛

---

[١] صحيح البخاري، ٧/١١٣ (٥٦٣٤)؛ صحيح مسلم، ٣/١٦٣٤ (٢٠٦٥).

[٢] معالم التنزيل للبغوي، ٣/٢١٥ (الأعراف، ٧/٩)؛ فتوح الغيب للطِّيبي، ٦/٣٣٠ (الأعراف، ٧/٩).

لأنّها لمّا عملتها في الدنيا فكأنّها أحضرتها في الموقف، ومعنى عِلمها بها حينئذ أنّها تُشاهدها على ما هي عليه في الحقيقة، فإن كانت صالحةً تُشاهدها على صوَر أحسنَ ممّا كانت تُشاهدها عليه في الدنيا؛ لأنّ الطاعات لا تخلو فيها عن نوع مشقّة، وإن كانت سيّئةً تشاهدها على خلاف ما كانت تشاهدها عليه ههنا؛ / لأنّها كانت مزيَّنةً لها مُوافقةً لهواها. [٢٧٦و]

وتنكيرُ "النفس" المُفيدُ لثبوت العِلم المذكور لفرد مِن النفوس أو لبعض منها للإيذان بأنّ ثبوته لجميع أفرادها قاطبةً مِن الظهور والوضوح بحيث لا يكاد يحوم حوله شائبة اشتباه قطعًا يعرِفه كلّ أحد ولو جيء بعبارةٍ تدلّ على خلافه، وللرمز إلى أنّ تلك النفوسَ العالمة بما ذُكر مع توفُّر أفرادها وتكثُّر أعدادها ممّا يُستقَلّ بالنسبة إلى جناب الكبرياء الذي أشيرَ إلى بعض بدائع شئونه المنبِئة عن عِظَم سلطانه.

وأمّا ما قيل: مِن أنّ هذا مِن قبيل عكس كلامهم الذي يقصدون به الإفراط فيما يُعكَس عنه وتمثيلُه بقوله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر، ٢/١٥]، وبقول مَن قال:

قد أتركُ القِرن مُصفَرًّا أناملُهُ[١]

وبقول مَن قال حين سُئل عن عدد فرسانه: "ربّ فارس عندي"،[٢] وعنده المقانب،[٣] قاصدًا بذلك التماديَ في تكثير فرسانه وإظهار براءته مِن التزيّد، وأنّه ممّن يُقلِّل كثيرَ ما عنده فضلًا أن يتزيّد،[٤] فمِن لوائح النظر الجليل؛[٥] لِما أنّ الكلام المعكوس عنه فيما ذُكر مِن الأمثلة ممّا يقبل الإفراطَ والتماديَ فيه،

---

١ لعبيد بن الأبرص في ديوانه، ص ٤٩، وتمامه:
كأنّ أثوابه مُجّتْ بفِرصادِ
وهو له في الصحاح للجوهري، «قدد»؛ وهو للهُذليّ في كتاب سيبويه، ٢٢٤/٤؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٣/٤؛ وشرح الرضيّ على الكافية، ٤٤٥/٤. على أنّ "قد" بمعنى "ربّما". ونبّه الرضيّ وأنّها استُعملت ههنا للتكثير لأنّ المقام مقام تمدُّح، وهو ما سيُعوّل عليه المؤلّف في الاعتراض على هذا الوجه.

٢ المثال في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٣/٤.

٣ المقانب: جمع "مِقنَب"، وهي جماعة الخيل والفرسان، وقيل: هي دون المائة. لسان العرب لابن منظور، «قنب».

٤ القول مع الأمثلة في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٣/٤.

٥ السياق: وأمّا ما قيل... فمِن لوائح...

فإنّه في الأوّل: "كثيرًا ما يودّ"، وفي الثاني "كثيرًا ما أترُك"، وفي الثالث "كثير مِن الفرسان"، وكلّ واحد مِن ذلك قابل للإفراط والمبالغة فيه لعدم انحصار مراتبِ الكثرة، وقد قُصِد بعكسه ما ذُكر مِن التمادي في التكثير حسبما فُصِّل، وأمّا فيما نحن فيه فالكلام الذي عُكس عنه: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾، كما صرّح به القائل، وليس فيه إمكان التكثير حتّى يُقصَد بعكسه المبالغةُ والتّمادي فيه، وإنّما الذي يُمكِن فيه مِن المبالغة ما ذكرناه، فتأمّلْ.

ويجوز أن يكون ذلك للإشعار / بأنّه إذا عَلِمت حينئذ نفسٌ مِن النفوس ما أحضرتْ وجَب على كلّ نفس إصلاحُ عملِها مخافةَ أن تكون هي تلك التي عَلِمت ما أحضرت، فكيف وكلّ نفس تعلَمه؟ على طريقة قولك لمَن تنصحه: "لعلّك ستندم على ما فعلت" و"ربّما ندِم الإنسان على ما فعَل"، فإنّك لا تقصِد بذلك أنّ ندَمه مَرجوُّ الوجود لا متيقَّنٌ به أو نادر الوقوع؛ بل تُريد أنّ العاقل يجب عليه أن يجتنب أمرًا يُرجى فيه الندم، أو قلّما يقع فيه فكيف به إذا كان قطعيَّ الوجود كثيرَ الوقوع. [٢٧٦ظ]

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨﴾

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ أي: بالكواكبِ الرواجع مِن "خنَس" إذا تأخّر، وهي ما عدا النيّرين مِن الدّراريّ الخمسة، وهي بَهرام وزُحَلُ وعُطاردٌ والزُّهرةُ والمُشتري.

وُصفت بقوله تعالى: ﴿ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ لأنّها تجري مع الشمس والقمر، وترجع حتّى تختفي تحت ضوء الشمس، فخُنوسها: رجوعُها، وكُنوسها: اختفاؤها تحت ضوئها، مِن "كَنَس الوحشُ" إذا دخل كِناسه، وهو بيته الذي يتّخذه مِن أغصان الشجر. وقيل: هي جميع الكواكب تخنِس بالنهار فتغيب عن العيون وتكنس بالليل، أي: تطلُع في أماكنها كالوحش في كُنُسها.[١]

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ أي: أدبَر ظلامه أو أقبَل فإنّه مِن الأضداد، وكذلك "سَعْسَع". قال الفرّاء: أجمع المفسّرون على أنّ معنى ﴿عَسۡعَسَ﴾ أدبَر،[٢]

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٣/٤.

[٢] انظر: معاني القرآن للفرّاء، ٢٤٢/٣؛ ونقله عنه ابن عادل في اللباب، ١٨٧/٢٠.

وعليه قول العجّاج:

حتّى إذا الصبحُ لها[١] تنفّسا ... وانجابَ عنها ليلُها وعَسْعَسَا[٢]

وقيل: هي لغة قريشٍ خاصّة. وقيل: معنى إقبال ظلامه أوفَق لقوله تعالى: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾؛[٣] لأنّه أوّل النهار. وقيل: إدباره أقرب مِن تنفس الصبح، ومعناه أنّ الصبح إذا أقبل يُقبل بإقباله رَوح ونسيم، فجُعل ذلك نفَسًا له مجازًا، فقيل: تنفّس الصبح.[٤]

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١﴾

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن الكريم الناطق بما ذُكر مِن الدواهي الهائلة ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ هو جبريلُ عليه السلام، قاله مِن جهة الله عزّ وجلّ. ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ شديدة، كقوله تعالى: ﴿شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ [النجم، ٥٣/٥]. وقيل: المراد القوّة في أداء طاعة الله تعالى[٥] وتركُ الإخلال بها مِن أوّل الخلق إلى آخر زمان التكليف.[٦] ﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ ذي مكانة رفيعة عند الله عزّ وعلا عنديّةَ إكرام وتشريف لا عنديّةَ مكان.

[٢٧٧و] ﴿مُّطَاعٖ﴾ / فيما بين ملائكته المقرَّبين يَصدُرون عن أمره ويَرجِعون إلى رأيه. ﴿ثَمَّ[٧] أَمِينٖ﴾ على الوحي. و﴿ثَمَّ﴾[٨] ظرف لِما قبله، وقيل: لِما بعده.[٩] وقُرئ: "ثُمّ"،[١٠] تعظيمًا لوصف الأمانة وتفضيلًا لها على سائر الأوصاف.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ٢٥﴾

---

١ وفي هامش م: مفازة. «منه».

٢ الرجز لعلقمة بن قُرط في مجاز القرآن لأبي عبيدة، ٢/٢٨٨؛ وجامع البيان للطبري، ٢٤/١٦٢؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٢٣/٢٧٢. وهو للعجّاج في ملحقات ديوانه، ١/٢٥٦؛ وهو له في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٣٣؛ واللباب لابن عادل، ٢٠/١٨٧.

٣ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٣٣.

٤ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٣٣.

٥ س – تعالى.

٦ القول في اللباب لابن عادل، ٢٠/١٨٨.

٧ م س: ثمّة.

٨ م س: ثمّة.

٩ الوجه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٥٠٤.

١٠ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وابن مِقسَم وأبي البَرَهسم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٦٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٩٦.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ هو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ كما تَبهَتُه الكفرة. والتعرّض لعنوان المُصاحَبة للتلويح بإحاطتهم بتفاصيل أحواله عليه السلام خُبرًا، وعِلمهم بنزاهته عليه السلام[1] عمّا نسبوه إليه بالكلّيّة. وقد استدلّ به على فضل جبريلَ عليه عليهما السلام للتبائن البيّن بين وَصْفَيهما، وهو ضعيف؛ إذ المقصود ردُّ قولِ الكفَرة في حقّه عليه السلام: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل، ١٠٣/١٦]، ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [سبأ، ٨/٣٤]، لا تعدادُ فضائلهما والموازنة بينهما.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ أي: وبالله لقد رأى رسول الله جبريلَ عليهما الصلاة والسلام ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ بمطلع الشمس الأعلى.

﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ على ما يُخبِره مِن الوحي إليه وغيره مِن الغيوب ﴿بِضَنِينٍ﴾ أي: ببخيل لا يبخل بالوحي ولا يُقصِّر في التبليغ والتعليم. وقُرئ: "بِظَنِينٍ"،[2] أي: بمُتَّهم مِن الظِّنّة وهي التُّهمة.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ أي: قول بعض المسترِقة للسمع، وهو نفي لقولهم: إنّه كِهانة وسِحر.

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ استضلال لهم فيما يسلكونه في أمر القرآن، و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها مِن ظهور أنّه وحيٌ مُبين، وليس ممّا يقولون في شيء، كما تقول لمَن تَرَك الجادّة بعد ظهورها: هذا الطريق الواضح، فأين تذهب؟

﴿إِنْ هُوَ﴾ ما هو ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ موعظة وتذكير لهم.

وقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾ بدل مِن "العالمين" بإعادة الجارّ. وقوله تعالى: ﴿أَن يَسْتَقِيمَ﴾ مفعول ﴿شَآءَ﴾ أي: لمَن شاء منكم الاستقامة / بتحرّي الحقّ وملازمة الصواب. وإبدالُه مِن ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لأنّهم المنتفِعون بالتذكير. [٢٧٧ظ]

---

[1] س - عليه السلام.

[2] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ورُويس. النشر لابن الجزري، ٣٩٨-٣٩٩.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ أي: الاستقامة مشيئةً مستتبِعةً لها في وقت مِن الأوقات ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلّا وقت أن يشاء الله تعالى تلك المشيئة، أي: المستتبِعة للاستقامة، فإنّ مشيئتكم لا تستتبعها بدون مشيئة الله لها. ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مالك الخلق ومُربّيهم أجمعين.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة التكوير أعاذه الله أن يفضحَه حين تُنشَر صحيفتُه».[1]

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨/٤٦٤ (التكوير، ٨١/١)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤/٤٢٧ (التكوير، ٨١/١)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٣٥. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

سورة الانفطار[1]

مكّيّة، وهي تسعَ عشرةَ آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ أي: انشقَّت لنزول الملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان، ٢٥/٢٥]، وقولِه تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ [النبأ، ١٩/٧٨]، والكلام في ارتفاع ﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ كما مرّ في ارتفاع ﴿ٱلشَّمْسُ﴾.[2]

﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ أي: تساقطت متفرِّقةً.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ فُتح بعضها إلى بعض فاختلط العذبُ بالأُجاج وزال ما بينهما مِن البرزخ الحاجز، وصارت البحار بحرًا واحدًا. ورُوي أنّ الأرض تنشَف الماء بعد امتلاء البحار فتصير مستويةً، وهو معنى التسجير عند الحسن رحمه الله.[3] وقيل: إنّ مياه البحار الآن راكدة مجتمعة، فإذا فُجِّرت تفرّقت وذهبت. وقُرئ: "فُجِرَتْ" بالتخفيف مبنيًا للمفعول،[4] ومبنيًا للفاعل[5] أيضًا، بمعنى بغَت مِن "الفجور" نظرًا إلى قوله تعالى: ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن، ٢٠/٥٥].

﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ أي: قُلب ترابُها وأُخرج موتاها، ونظيره "بَحْثَر" لفظًا ومعنى، وهما مركّبان مِن "البعث" و"البحث" مع "راء" ضُمَّت إليهما.

---

١ س: انفطرت.

٢ في تفسير سورة التكوير، ١/٨١.

٣ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٦/٤. وانظر المرويّ عن الحسن في جامع البيان للطبري، ١٤٠/٢٤ (التكوير، ٦/٨١).

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الربيع بن خُثيم ومجاهد والزعفراني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨٩٧.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٠.

وقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾، لكن لا على أنّها تعلمه عند البعث؛ بل عند نشر الصُّحف لِما عرفتَ مِن أنّ المراد بها زمان واحد مبدؤه النفخة الأولى ومنتهاه الفصل بين الخلائق، لا أزمنة متعدِّدة حسب تعدُّد / كلمة ﴿إِذَا﴾، وإنّما كُرِّرت لتهويل ما في حيّزها مِن الدّواهي. والكلام فيه كالذي مرّ تفصيله في نظيره. [٢٧٨و]

ومعنى ما قدّم وأخّر: ما أسلَف مِن عمل خير أو شرّ، وأخّر مِن سُنّة حسنة أو سيّئة يُعمل بها بعده، قاله ابن عبّاس وابن مسعود رضي الله عنهما.[١] وعن ابن عبّاس أيضًا: ما قدَّم مِن معصية وأخّر مِن طاعة، وهو قول قتادةَ.[٢] وقيل: ما قدَّم مِن أمواله لنفسه وما أخَّر لورثته. وقيل: ما قدَّم مِن فَرْض وأخَّر مِن فرض. وقيل: أوّلُ عملِه وآخِرُه.[٣] ومعنى عِلمها بهما عِلمُها التفصيلي حسبما ذُكر فيما مرّ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ أي: أيّ شيء خدَعك وجرّأك على عصيانه وقد علمتَ ما بين يديك مِن الدواهي التامّة والعراقيل الطّامة، وما سيكون حينئذ مِن مشاهدة أعمالك كلّها. والتعرّض لعنوان كَرَمه تعالى للإيذان بأنّه ليس ممّا يصلح أن يكون مدارًا لاغتراره حسبما يغويه الشيطان ويقول له: افعل ما شئت فإنّ ربك كريم قد تفضَّل عليك في الدنيا، وسيفعل مِثله في الآخرة، فإنّه قياس عقيم وتَمْنِيةٌ باطلة؛ بل هو ممّا يُوجب المبالغة في الإقبال على الإيمان والطاعة والاجتنابَ عن الكفر والعصيان، كأنّه قيل: ما حَمَلك على عصيان ربّك الموصوفِ بالصفات / الزاجرة عنه الداعية إلى خلافه؟ [٢٧٨ظ]

---

[١] م - رضي الله عنهما.

[٢] انظر المرويّ عنهم في جامع البيان للطبري، ٢٤/١٧٧-١٧٨.

[٣] انظر هذه الأقوال في اللباب لابن عادل، ٢٠/١٩٥.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ صفة ثانية مقرِّرة للربوبيّة مبيِّنة للكرم منبِّهة على أنّ مَن قَدَر على ذلك بدءًا قَدَر عليه إعادةً. والتسوية جعلُ الأعضاء سليمةً سويّةً معدَّةً لمنافعها، وعَدْلُها عَدْل بعضها ببعض بحيث اعتدلت ولم تتفاوت، أو صَرْفها عن خِلقة غير ملائمة لها. وقُرئ: "فَعَدَّلَكَ"[١] بالتشديد، أي: صيَّرك معتدِلًا متناسِبَ الخَلْق مِن غير تفاوت فيه.

﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ أي: ركّبك في أيّ صورة شاءها مِن الصور المختلفة، و﴿مَا﴾ مَزيدة، و﴿شَآءَ﴾ صفة لـ﴿صُورَةٍ﴾، أي: ركّبك في أيّ صورة شاءها واختارها لك مِن الصور العجيبة الحسنة، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين، ٩٥/٤]، وإنّما لم تُعطف الجملة على ما قبلها لأنّها بيان لـ﴿عَدَلَكَ﴾.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع عن الاغترار بكَرَم الله تعالى وجعلِه ذريعةً إلى الكفر والمعاصي مع كونه موجِبًا للشكر والطاعة. وقوله تعالى: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ إضراب عن جملة مقدَّرة ينساق إليها الكلام، كأنّه قيل بعد الردع بطريق الاعتراض: وأنتم لا ترتدعون عن ذلك، بل تجترئون على أعظمَ مِن ذلك، حيث تكذِّبون بالجزاء والبعث رأسًا، أو بدين الإسلام الذي هما مِن جملة أحكامه، فلا تُصدِّقون سؤالًا ولا جوابًا ولا ثوابًا ولا عقابًا. وقيل: كأنّه قيل: إنكم لا تستقيمون على ما تُوجبه نِعَمي عليكم وإرشادي لكم، ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾... إلخ. وقال القفّال: ليس الأمر كما تقولون مِن أنّه لا بعث ولا نشور، ثمّ قيل: أنتم لا تتبيَّنون بهذا البيان؛ بل تكذّبون بيوم الدِّين.[٢]

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ حال مِن فاعل ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ مفيدة لبطلان تكذيبهم وتحقُّق ما يكذّبون به، أي: تكذِّبون بالجزاء والحالُ أنّ عليكم مِن قبلنا لحافظين لأعمالكم. ﴿كِرَامًا﴾ لدينا ﴿كَٰتِبِينَ﴾ لها.

---

[١] قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩٩/٢.

[٢] القولان في اللباب لابن عادل، ٢٠٠/٢٠.

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ مِن الأفعال قليلًا وكثيرًا ويضبِطونه نقيرًا وقِطميرًا لتُجازَوا بذلك. وفي تعظيم الكاتبين بالثناء عليهم تفخيمٌ لأمر / الجزاء وأنّه عند الله عزّ وجلّ مِن جلائل الأمور حيث يُستعمَل فيه هؤلاء الكرام. [٢٧٩و]

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ استئناف مسوق لبيان نتيجة الحفظ والكتاب مِن الثواب والعقاب. وفي تنكير "النعيم" و"الجحيم" مِن التفخيم والتهويل ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ إمّا صفة لـ﴿جَحِيمٍ﴾، أو استئنافٌ مبنيّ على سؤال نشأ مِن تهويلها، كأنّه قيل: ما حالهم فيها؟[١] فقيل: يُقاسُون حرَّها. ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاء الذي كانوا يكذِّبون به.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ طرفةَ عينٍ، فإنّ المراد دوام نفي الغَيبة لا نفيُ دوامِ الغَيبة لِما مرّ مرارًا مِن أنّ الجملة الاسميّة المنفيّة قد يراد بها استمرارُ النفي لا نفيُ الاستمرار، باعتبار ما تُفيده مِن الدوام والثبات بعد النفي لا قبله. وقيل: معناه وما كانوا غائبين عنها.[٢] قيل: ذلك بالكلّيّة؛ بل كانوا يجِدون سمومها في قبورهم،[٣] حسبما قال[٤] عليه السلام: «القبرُ روضة مِن رياض الجنّة، أو حفرةٌ مِن حفر النيران».[٥]

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ تفخيم لشأن يوم الدِّين الذي يكذِّبون، به إثر تفخيمٍ وتهويلٍ لأمره بعد تهويل ببيان أنّه خارج عن دائرة دراية الخلق، على أيّ صورة تَصوَّروه فهو فوقها، وكيفما تخيّلوه فهو أطَمّ مِن ذلك وأعظمُ، أي: وأيُّ شيء جعلك داريًا ما يوم الدين؟

---

١ س - فيها.
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٨/٤.
٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٠٧/٣.
٤ س ي + النبيّ.
٥ سنن الترمذي، ٦٣٩/٤-٦٤٠ (٢٤٦٠)؛ المعجم الأوسط للطبراني، ٢٧٢/٨-٢٧٣ (٨٦١٣).

على أنّ ﴿مَا﴾ الاستفهاميّة خبرُ لـ﴿يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ لا بالعكس كما هو رأي سيبويه،[١] لِما مرّ مِن أنّ مدار الإفادة هو الخبر لا المبتدأ، ولا ريبَ في أنّ مناط إفادة الهَول والفخامة هنا هُوَ ﴿مَا﴾ لا ﴿يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾، أي: أيُّ شيء عجيب هو في الهَول والفظاعة؟ لِما مرّ غير مرّة أنّ كلمة ﴿مَا﴾ قد يطلب بها الوصف وإن كانت موضوعةً لطلب الحقيقة وشرح الاسم، يقال: ما زيد؟ فيقال في الجواب: "كاتبٌ" أو "طبيبٌ"، / وفي إظهار ﴿يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ في موقع الإضمار تأكيد لهَوله وفخامته. [٢٧٩ظ]

وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ بيانٌ إجمالي لشأنِ يوم الدِّين إثرَ إبهامه وبيانِ خروجه عن علوم الخَلْق بطريق إنجاز الوعد، فإنّ نفي إدرائهم مُشعِر بالوعد الكريم بالإدراء. قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: كلّ ما في القرآن مِن قوله تعالى: ﴿مَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أدراه، وكلّ ما فيه مِن قوله: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فقد طوي عنه.[٢]

و﴿يَوۡمَ﴾ مرفوع على أنّه خبر مبتدأ محذوف، وحركتُه الفتح لإضافته إلى غير متمكِّن،[٣] كأنّه قيل: هو يومَ لا تملك فيه نفس مِن النفوس لنفس مِن النفوس شيئًا مِن الأشياء... إلخ، أو منصوبٌ بإضمار "اذكُر"، كأنّه قيل: بعد تفخيم أمر يوم الدِّين وتشويقه صلّى الله عليه وسلّم إلى معرفته: اذكُر يومَ لا تملك نفس... إلخ، فإنّه يدريك ما هو. وقيل: بإضمار "يُدانون"،[٤] وليس بذاك؛ فإنّه عارٍ عن إفادة ما لم[٥] يُفده[٦] ما قبله، كما أنّ إبداله مِن ﴿يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ على قراءة الرفع[٧] كذلك؛ بل الحقّ حينئذٍ الرفعُ على أنّه خبر لمبتدأ محذوف. والله تعالى أعلم.

---

[١] انظر: كتاب سيبويه، ١٣٤/١.

[٢] بلفظ قريب في تفسير القرطبي، ٢٤٩/١٩؛ واللباب لابن عادل، ٢٠٣/٢٠.

[٣] وفي هامش م: قال الزجّاج: يجوز أن يكون في موضع رفع، إلّا أنّه بُنِيَ على الفتح لإضافته إلى قوله: ﴿لَا تَمۡلِكُ﴾، وما أُضيفَ إلى غير المتمكِّن فقد يُبنى كما إذا أُضيفَ إلى الماضي، وأمّا إذا أُضيفَ إلى المستقبل فلا يبنى عند البصريّين ويبنى عند الكوفيّين. «منه». | انظر: معاني القرآن وإعرابه للزجّاج، ٢٩٦/٥، وليس فيه تفصيل نسبة المذاهب إلى البصريّين والكوفيّين، وإنّما ذكره الواحدي تفصيلًا لكلام الزجّاج، ونقله عنه ابن عادل. انظر: التفسير البسيط للواحدي، ٣٠٢/٢٣-٣٠٣؛ واللباب لابن عادل، ٢٠٣/٢٠-٢٠٤.

[٤] هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٨/٤.

[٥] س ي – لم.

[٦] س ي: يفيده.

[٧] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٩٩/٢.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الانفطار كَتَب الله تعالى له بعدد كلّ قطرة مِن السماء حسنة وبعدد كلّ قَبْر حسنةً».[١]

١ بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٢٩ (الانفطار، ١/٨٢)؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٤٣٣/٤ (الانفطار، ١/٨٢)؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٣٨/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة المطفّفين

مختلَف فيها،[1] وهي ستّ وثلاثون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ قيل: الويل: شدّة الشرّ.[2] وقيل: العذاب الأليم.[3] وقيل: هو وادٍ في جهنّم يهوي فيه الكافر أربعين خريفًا قبل أن يبلغ قعره.[4] وقيل وقيل.[5] وأيًا ما كان فهو مبتدأ وإن كان نكرةً، لوقوعه في موقع الدّعاء. والتطفيف: البخس في الكيل والوزن؛ لأنّ ما يُبخَس شيء طفيف حقير.

ورُوي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قدِم المدينة وكان أهلها مِن أخبَث الناس كَيلًا، فنزلت فأحسَنوا الكَيل.[6] وقيل: قدمها عليه السلام وبها رجل يعرف بأبي جهينةَ ومعه صاعان يكيل بأحدهما ويكتال بالآخر.[7] وقيل:

---

[1] انظر تفصيل ذلك الاختلاف في اللباب لابن عادل، ٣٠٥/٢٠.

[2] منقول عن الخليل في المحرَّر الوجيز لابن عطيّة، ١٧٠/١ (البقرة، ٧٩/٢)؛ واللباب لابن عادل، ٢٠٧/٢ (البقرة، ٧٩/٢).

[3] مرويّ عن ابن عبّاس في اللباب لابن عادل، ٢٠٨/٢ (البقرة، ٧٩/٢).

[4] مرويّ عن أبي سعيد الخدري في جامع البيان للطبري، ١٦٤/٢ (البقرة، ٧٩/٢)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١١٥/١ (البقرة، ٧٩/٢).

[5] انظر هذه الأقوال في جامع البيان للطبري، ١٦٣/٢-١٦٤ (البقرة، ٧٩/٢)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١١٥/١ (البقرة، ٧٩/٢)؛ واللباب لابن عادل، ٢٠٧/٢-٢٠٨ (البقرة، ٧٩/٢).

[6] بلفظ قريب في سنن ابن ماجه، ٣٣٦/٢ (٢٢٢٣)؛ وأسباب النزول للواحدي، ص ٤٧٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٦١/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٣٩/٤.

[7] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٧/٢٩؛ أسباب النزول للواحدي، ص ٤٧٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٩/٤.

[٢٨٠و] كان أهل المدينة تِجارًا يطفِّفون وكانت / بياعاتهم المُنابَذة والمُلامَسة[١] والمُخاطَرة،[٢] فنزلت،[٣] فخَرَج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقرأها عليهم، وقال: «خَمس بخَمس: ما نقض قوم العهد إلّا سلّط الله عليهم عدوّهم، وما حكَموا بغير ما أنزل الله إلّا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلّا فشا فيهم الموت، ولا طفَّفوا الكيل إلّا مُنعوا النبات وأُخِذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلّا حُبِس عنهم القطر».[٤]

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾... إلى آخره، صفة كاشفة للمطفِّفين شارحة لكيفيّة تطفيفهم الذي استحقّوا به الذمّ والدعاء بالويل، أي: إذا اكتالوا مِن الناس مَكيلهم بحكم الشراء ونحوه يأخذونه وافيًا وافرًا، وتبديل كلمة ﴿عَلَى﴾ بـ"مِن" لتضمين الاكتيال معنى الاستيلاء،[٥] أو للإشارة إلى أنّه اكتيال مُضِرّ بهم، لكن لا على اعتبار الضرر في حيّز الشرط الذي يتضمّنه كلمة ﴿إِذَا﴾ لإخلاله بالمعنى؛ بل في نفس الأمر بموجَب الجواب؛[٦] فإنّ المراد بالاستيفاء ليس أخذَ الحقّ وافيًا مِن غير نقص؛ بل مجرّدُ الأخذ الوافي الوافر حسبما أرادوا، بأيّ وجه تيسَّر مِن وجوه الحِيَل، وكانوا يفعلونه بكَبْس المَكيل وتحريكِ المِكيال والاحتيال في مَلئه.

وأمّا ما قيل: مِن أنّ ذلك للدلالة على أنّ[٧] اكتيالهم لِما لهم على النّاس، فمع اقتضائه لعدم شمول الحُكم لاكتيالهم قبل أن يكون لهم على الناس شيء

---

١ بيع المُلامَسة أو اللِّماس: أن يقولَ لصاحبه: إذا لمستُ ثوبك أو لمستَ ثوبي فقد وجب البيعُ. وبيع المنابذة: أن تقول: إذا نبذتُه إليك، أو يقولَ المشتري إذا نبذته إليّ، فقد وجب البيعُ. **المُغرب** للمُطرّزي، «لمس».

٢ وقال الطِّيبي في **فتوح الغيب**، ٣٣٤/١٦: «وقيل: المخاطرة: بيع الغَرَر، مثل بَيْعِ الطير في الهواء والسَّمكِ في الماء»، وأصل الكلام في **الكشف عن مشكلات الكشّاف** للقزويني، ٣١٨و. وفي **معجم المصطلحات** لنزيه حمّاد، ص ١١٤: أنّ بيع المخاطرة: هو أن يقول رجل لرجل: بعتُ منك هذا المتاعَ بكذا وكذا إن قدم فلان مِن سفره، ونحوه. وهو البيع المعلّق على شرط.

٣ **أسباب النزول** للواحدي، ص ٤٧٥؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٣٩/٤.

٤ بلفظ قريب في **المعجم الكبير** للطبراني، ٤٥/١١ (١٠٩٩٢)؛ و**المستدرك** للحاكم، ١٣٦/٢ (٢٥٧٧)؛ و**أسباب النزول** للواحدي، ص ٤٧٥؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٥٣٩/٤.

٥ وفي هامش م: فإنّ الاستيلاء على مَكيلهم بمنزلة الاستيلاء على أنفسهم. «منه».

٦ وفي هامش م: والأوّل هو الأظهر. «منه».

٧ س - أنّ.

بطريق الشراء ونحوه -مع أنّه الشائع فيما بينهم- يقتضي أن يكون معنى الاستيفاء أخذَ ما لهم عليهم وافيًا مِن غير نقص؛ إذ هو المتبادر منه عند الإطلاق في معرِض الحقّ، فلا يكون مدارًا لذمّهم والدعاءِ عليهم، وحَمْلَ ما لهم عليهم على معنى ما سيكون لهم عليهم[1] -مع كونه بعيدًا جدًّا- ممّا لا يُجدي نفعًا؛ فإنّ اعتبار كون المَكيل لهم حالًا كان أو مآلًا يستدعي كون الاستيفاء بالمعنى المذكور حتمًا.

وكذا حالُ ما نُقل عن الفرّاء مِن أنّ "مِن" و"على" تعتقبان في هذا الموضع؛ لأنّه حقّ عليه، فإذا قال: "اكتلتُ عليك"، فكأنّه قال: "أخذتُ ما عليك"، وإذا قال: "اكتلتُ منك"، فكقوله: "استوفيتُ منك".[2] فتأمّلْ.

وقد جُوِّز أن تكون ﴿عَلَى﴾ متعلقةً بـ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾، ويكون تقديمها على الفعل لإفادة الخصوصيّة، أي: يستوفون على النّاس خاصّة، فأمّا أنفسهم فيستوفون لها.[3]

وأنت خبير بأنّ القصر بتقديم الجارّ والمجرور إنّما يكون فيما يمكن تعلُّق الفعل بغير المجرور أيضًا حسب تعلُّقه به، فيُقصَد بالتقديم قَصْره عليه بطريق القلب أو الإفراد أو التعيين حسبما يقتضيه المقام. ولا ريبَ في أنّ الاستيفاء الذي هو عبارة عن الأخذ الوافي ممّا لا يُتصوَّر أن يكون على أنفسهم حتّى يُقصَد بتقديم الجارّ والمجرور قَصْرُه على الناس، على أنّ الحديث واقع في الفعل لا فيما وَقَع عليه. فتدبَّرْ.

والضمير البارز في قوله تعالى: / ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ للناس، أي: إذ كالوا لهم أو وزنوا لهم للبيع ونحوه ﴿يُخْسِرُونَ﴾ أي: ينقصون، يقال: "خَسَر الميزانَ وأَخْسَره"، فحُذف الجارّ وأوصِل الفعل، كما في قوله: [٢٨٠ظ]

ولـقـد جنـيـتُـكَ أَكْــمُــؤًا وعَـسَـاقِـلًا[4]

---

[1] ما وقفت على هذا الوجه فيما بين يديّ مِن المظانّ.

[2] انظر: معاني القرآن للفرّاء، ٣/٢٤٦؛ ونقله عنه الزمخشري في الكشّاف، ٤/٥٤٠.

[3] هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٤٠.

[4] تمامه:

ولـقـد نـهيـتُـكَ عـن بـنـاتِ الأوبـرِ

وهو بلا عزو في سرّ صناعة الإعراب لابن جنّي، ٢/٤٤١؛ والصحاح للجوهري، «عسقل»؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٣/٤٨ (البقرة، ٢/٧١)؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٥٤٠. والأكمؤ والكمأة جمعُ الكمء، والعساقل: ضرب منه، وبنات الأوبر: الرديء منه. لسان العرب لابن منظور، «كمأ»، «وبر»، «عسقل».

أي: جنيتُ لك. وجعلُ البارز تأكيدًا للمستكِنّ ممّا لا يليق بجزالة التنزيل. ولعلّ ذِكرَ الكَيل والوزنِ في صورة الإخسار والاقتصارَ على الاكتيال في صورة الاستيفاء لِما أنّهم لم يكونوا متمكِّنين مِن الاحتيال عند الاتّزان تمكُّنَهم منه عند الكيل والوزنِ. وعدمُ التعرّض للمَكيل والمَوزون في الصورتين؛ لأنّ مَساق الكلام لبيان سوء معاملتهم في الأخذ والإعطاء لا في خصوصيّة المأخوذ والمُعطى.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾ استئناف وارد لتهويل ما ارتكبوه مِن التطفيف والتعجيب مِن اجترائهم عليه. و﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ﴿ٱلۡمُطَفِّفِينَ﴾،[1] ووضعُه موضعَ ضميرهم للإشعار بمَناط الحُكم الذي هو وصفُهم، فإنّ الإشارة إلى الشيء متعرِّضة له مِن حيث اتّصافه بوَصْفه، وأمّا الضمير فلا يُتعرَّض لوصفه؛ وللإيذان بأنّهم ممتازون بذلك الوصف القبيح عن سائر الناس أكملَ امتياز، نازلون منزلةَ الأمور المشار إليها إشارةً حسّيّةً. وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار ببُعد درجتهم في الشرارة والفساد، أي: ألا يظنّ أولئك الموصوفون بذلك الوصف الشنيع الهائل أنّهم مبعوثون.

﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ لا يُقادَر قَدْر عِظَمه وعِظَمِ ما فيه، ومُحاسَبون فيه على مِقدار الذرّة والخَرْدلة، فإنّ مَن يظنّ ذلك وإن كان ظنًّا ضعيفًا مُتاخِمًا للشكّ فالوهم لا يكاد يتجاسَر على أمثال هاتيك القبائح، فكيف بمَن تيقّنه؟

وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ﴾ أي: لحُكمه وقضائه. منصوب بإضمار "أعني"، وقيل: بـ﴿مَبۡعُوثُونَ﴾، أو مرفوع المحلّ خبرًا لمبتدأ مضمر أو مجرور بدلًا مِن ﴿يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ مبنيّ على الفتح / لإضافته إلى الفعل وإن كان مضارعًا، كما هو رأي الكوفيّين.[2] ويؤيِّد الأخيرين القراءة بالرفع[3] وبالجرّ.[4] [٢٨١و]

---

[1] في الآية الأولى مِن هذه السورة.

[2] انظر قولهم وتفصيله في شرح الرضيّ على الكافية ١/٢٤٩.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٦.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي معاذ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٠.

وفي هذا الإنكار والتعجيب وإيرادِ الظنّ ووصفِ اليوم بالعِظَم وقيامِ الناس فيه كافّة لله تعالى خاضعين ووَصْفِه تعالى بربوبيّة العالمين مِن البيان البليغ[١] لعِظَم الذَّنب وتفاقُمِ الإثم في التطفيف وأمثالِه ما لا يخفى.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ۝٧ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ۝٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٩ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣﴾

﴿كَلَّآ﴾ ردع عمّا كانوا عليه مِن التطفيف والغفلة عن البعث والحساب. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾... إلخ تعليل للردع أو وجوب الارتداع بطريق التحقيق. و﴿سِجِّينٖ﴾ عَلَم لكتاب جامع هو ديوان الشرّ، دُوّن فيه أعمال الشياطين وأعمال الكفرة والفَسَقة مِن الثقلين، منقولٌ مِن وصف كـ"حاتم". وأصلُه "فِعّيل" مِن "السَّجْن" وهو الحبس والتضييق؛ لأنّه سبب الحبس والتضييق في جهنّم، أو لأنّه مطروح -كما قيل- تحت الأرض السابعة في مكان مُظلِم وَحِش وهو مَسكَن إبليسَ وذرّيّته.[٢] فالمعنى أنّ كتاب الفجّار الذين مِن جملتهم المطفِّفون، أي: ما يُكتَب مِن أعمالهم أو كتابةُ أعمالهم لفي ذلك الكتاب المدوَّن فيه قبائح أعمالِ المذكورين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾ تهويل لأمره، أي: هو بحيث لا يبلغه دِراية أحد.

وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾[٣] مسطور بيّن الكتابة أو مُعلَم يَعلَم مَن رآه أنّه لا خيرَ فيه. وقيل: هو اسم المكان، والتقدير: ما كتابُ السِّجّين، أو محلّ كتابٍ مرقوم.[٤]

وقوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ متّصل بقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وما بينهما اعتراض.

---

١ السياق: وفي هذا الإنكار... مِن البيان البليغ...
٢ أورده الزمخشري في الكشّاف، ٥٤١/٤.
٣ س ي + أي.
٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥١٠/٣-٥١١.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ إمّا مجرور على أنّه صفة ذامّة للمكذِّبين، أو بدلٌ منه، أو مرفوعٌ، أو منصوبٌ على الذمّ.

[٢٨١ظ] ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ أي: متجاوِز عن حدود النظر والاعتبار / غالٍ في التقليد حتّى استقصر قُدرة الله تعالى وعِلمه عن الإعادة مع مشاهدته للبدء. ﴿أَثِيمٍ﴾ أي: منهمِك في الشهوات المخدَجة الفانية، بحيث شغلَته عمّا وراءها مِن اللذات التامّة الباقية وحملَته على إنكارها.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ الناطقة بذلك ﴿قَالَ﴾ مِن فرط جهله وإعراضه عن الحقّ الذي لا مَحيد عنه. ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: هي حكايات الأوّلين. قال الكلبي: المراد بالمعتدي الأثيم: هو الوليد بن المغيرة. وقيل: النَّضر بن الحارث. وقيل: عامّ لكلّ مَن اتّصف بالأوصاف المذكورة.[١] وقُرئ: "إِذَا يُتْلَى"[٢] بتذكير الفعل، وقُرئ: "أَإِذَا تُتْلَى"[٣] على الاستفهام الإنكاري.

﴿كَلَّاۖ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع للمُعتدي الأثيم عن ذلك القول الباطل وتكذيب له فيه. وقوله تعالى: ﴿بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ بيان لِما أدّى بهم إلى التفوّه بتلك العظيمة، أي: ليس في آياتنا ما يُصحِّح أن يقال في شأنها مِثلُ هذه المقالات الباطلة؛ بل ركّب قلوبهم وغلَب عليها ما كانوا يكسبونها مِن الكفر والمعاصي، حتّى صارت كالصدأ في المرآة، فحالَ ذاك بينهم وبين معرفة الحقّ، كما قال صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ العبد كلّما أذنب ذنبًا حَصَل في قلبه نكتةٌ سوداءُ حتّى يسوَدّ قلبه»،[٤] ولذلك قالوا ما قالوا. والرَّين: الصدأ، يقال:

---

١ الأقوال الثلاثة في اللباب لابن عادل، ٢١٤/٢٠.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة والحسن وابن مِقسَم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٠؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٠٠.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٠.

٤ بلفظ قريب في مسند أحمد، ٣٣٣/١٣ (٧٩٥٢)؛ وسنن ابن ماجه، ٣١٦/٥-٣١٧ (٤٢٤٤)؛ وسنن الترمذي، ٤٣٤/٥ (٣٣٣٤)؛ وبلفظه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥١١/٣.

رانَ عليه الذَّنْب وغانَ عليه رَينًا وغَينًا، ويقال: ران فيه النوم، أي: رَسَخ فيه.[١] وقُرئ بإدغام "اللام" في "الراء".[٢]

﴿كَلَّآ﴾ ردع وزجرٌ عن الكسب الرائن ﴿إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ فلا يكادون يرَونه، بخلاف المؤمنين. وقيل: هو تمثيل لإهانتهم بإهانة مَن يُحجَب عن الدخول على الملوك.[٣] وعن ابن عبّاسٍ رضي الله عنه[٤] وقتادةَ وابن أبي مُلَيكةَ:[٥] محجوبون عن رحمته. وعن ابن كَيْسان: عن كرامته.[٦]

﴿ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: داخلو النار، و﴿ثُمَّ﴾ لتراخي الرتبة فإنّ صِليّ الجحيم أشدّ مِن الإهانة والحرمان مِن الرحمة والكرامة.

﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ لهم توبيخًا وتقريعًا مِن جهة الزبانية ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ فذُوقوا / عذابه. [٢٨٢و]

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝٢١ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ۝٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝٢٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ۝٣٣﴾

﴿كَلَّآ﴾ ردع عمّا كانوا عليه بعد ردع، وزجرٌ إثرَ زجر. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ استئناف مَسوق لبيان محلّ كتاب الأبرار بعد بيان

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٤١/٤.

٢ قرأ بها العشرة إلّا حفصًا بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٤٢٥/١.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٤١/٤.

٤ س – رضي الله عنه.

٥ هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة التيمي المكي، أبو بكر (ت. ١١٧هـ/٧٣٥م). الإمام الحجّة الحافظ القاضي الأحول المؤذن. كان عالمًا مفتيًا صاحب حديث وإتقان، معدود في طبقة عطاء. حدّث عن عائشة وأختها أسماء وابن عبّاس وغيرهم. ولاه ابن الزبير قضاء الطائف. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٨٨/٥؛ والأعلام للزركلي، ١٠٢/٤.

٦ كلاهما في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٢/٤. وانظر: جامع البيان للطبري، ٢٠٤/٢٤-٢٠٦؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٦٥/٨.

سوءِ حال الفجّار متّصلًا ببيان سوء حال كتابهم، وفيه تأكيد للردع ووجوب الارتداع. وكتابُهم: ما كُتب مِن أعمالهم، وعِلِّيُّون: عَلَم لديوان الخير الذي دُوّن فيه كلّ ما عمِلته الملائكة وصُلحاء الثقلين، منقولٌ مِن جَمْع "عِلِّيّ" على "فِعِّيل" مِن العُلوّ، سُمّي بذلك إمّا لأنّه سبب الارتفاع إلى أعالي الدرجات في الجنّة وإمّا لأنّه مرفوع في السماء السابعة حيث يسكن الكَرُوبيُّون[١] تكريمًا له وتعظيمًا.

والكلام في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ﴾ كما مرّ في نظيره.

وقوله تعالى: ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ صفة أخرى لـ﴿كِتَٰبٌ﴾ أي: يحضرونه ويحفظونه أو يشهدون بما فيه يوم القيامة.

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ شروع في بيان مَحاسِن أحوالهم إثرَ بيان حال كتابهم، على طريقة ما مرّ في شأن الفجّار.

﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ أي: على الأسِرّة في الحِجال،[٢] ولا يكاد يُطلق الأريكة على السرير عندهم إلّا عند كونه في الحَجَلة. ﴿يَنظُرُونَ﴾ أي: إلى ما شاءوا مدّ أعينهم إليه مِن رغائب مناظرِ الجنّة، وإلى ما أولاهم الله عزّ وجلّ مِن النِّعمة والكرامة، وإلى أعدائهم يُعذَّبون في النار وما تحجُب الحِجال أبصارَهم عن الإدراك.

﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: بهجةَ التنعّم وماءه ورونقَه. والخطاب لكلّ أحد ممّن له حظٌّ مِن الخطاب، للإيذان بأنّ ما لهم مِن آثار النعمة وأحكام البهجة بحيث لا يختصّ برؤية راءٍ دون راءٍ.

﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ﴾ شراب خالص لا غِشّ فيه ﴿مَّخۡتُومٍ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾ أي: مختوم أوانيه وأكوابه بالمِسك مكانَ الطين، ولعلّه تمثيل لكمال نفاسته. وقيل:

---

[١] الملائكة الكَرُوبيُّون: هم سادة الملائكة، وقيل حملة العرش. انظر: جامع البيان للطبري، ٤٠١/١٦ (الأنبياء، ٩٥/٢١)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٣٩/٧ (غافر، ٧/٤٠)؛ ولسان العرب لابن منظور، «كرب».

[٢] الحِجال جمع حَجَلة: وهو بيت مثل القُبّة يستر بالثياب، ويكون له أزرار كِبار، منه حَجَلة العروس: بيت يُزيَّن بالثياب والأسِرّة والستور. لسان العرب لابن منظور، «حجل».

﴿خِتَـٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ﴾ أي: مقطعُه رائحة مِسك. وقُرِئ: "خَاتمُهُ" بفتح "التاء"[1] وكسرها،[2] أي: ما يُختَم به ويُقطَع.

﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الرحيق، وهو الأنسب لِما بعده، أو إلى ما ذُكر مِن أحوالهم. وما فيه مِن معنى البعد إمّا للإشعار بعُلوّ رتبته وبُعد منزلته، أو لكونه في الجنّة، أي: في ذلك خاصّةً دون غيره. ﴿فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أي: فليرغب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة الله تعالى. وقيل:[3] فليَعمل العاملون، كقوله تعالى: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات، ٦١/٣٧].[4] وقيل:[5] فليَستبق المستبقون.[6] وأصل التنافُس: التغالُب في الشيء النفيس، وأصله مِن النَّفْس لعزّتها. قال الواحدي: نفَست الشيء أنفسُه نفاسةً، والتنافس تفاعلٌ منه، كأنّ كلّ واحد مِن الشخصين يريد أن يستأثر به.[7] وقال البَغوي: وأصله مِن الشيء النفيس الذي يحرص عليه نفوسُ الناس ويُريده كلّ أحد لنفسه، وينفس به على غيره، أي: يضنّ به.[8]

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ﴾ عطفٌ على ﴿خِتَـٰمُهُۥ﴾، صفة أخرى لـ﴿رَحِيقٖ﴾ مثله، وما بينهما اعتراضٌ مقرّر لنفاسته، أي: ما يُمزَج به ذلك الرحيق مِن ماء تسنيم على أنّ ﴿مِن﴾ بيانيّة أو تبعيضيّة، أو مِن نفسه على أنّها ابتدائيّة. و"التسنيم" عَلَم لِعَين بعينها، سُمّيت به إمّا لأنّها أرفَع شراب في الجنّة، وإمّا لأنّها تأتيهم مِن فوق. رُوي أنّها تجري في الهواء متسنِّمة فتَنصبُّ في أوانيهم.[9]

﴿عَيۡنٗا﴾ نصبٌ على الاختصاص وجُوّز أن تكون حالًا مِن ﴿تَسۡنِيمٍ﴾ مع كونه جامدًا لاتّصافه بقوله تعالى: ﴿يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾، فإنّهم يشربونها صِرفًا، وتُمزَج لسائر أهل الجنّة، فـ"الباء" مزيدة أو بمعنى "مِن".

---

١ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٩٩/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن النخَعي وابن يعمُر والعِجلي والأسدي، والخاشع عن أبي بكر، والشِّيزريُّ وابن المغيرة كلاهما عن الكسائي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٦؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ١٩٠١.

٣ وفي هامش م: مجاهد.

٤ مروي عن مجاهد في معالم التنزيل للبغوي، ٣٦٨/٨؛ واللباب لابن عادل، ٢٢٢/٢٠.

٥ في هامش م: عطاء.

٦ مروي عن عطاء في معالم التنزيل للبغوي، ٣٦٨/٨؛ واللباب لابن عادل، ٢٢٢/٢٠.

٧ انظر: التفسير الوسيط للواحدي، ٤٤٨/٤-٤٤٩؛ ونقله عنه ابن عادل في اللباب، ٢٢٢/٢٠.

٨ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٦٨/٨؛ ونقله عنه ابن عادل في اللباب، ٢٢٢/٢٠.

٩ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٢/٤.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾... إلخ، حكايةٌ لبعض قبائح مشركي قريشٍ، جيء بها تمهيدًا لذِكر بعض أحوال الأبرار في الجنّة. ﴿كَانُواْ﴾ في الدنيا ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾ أي: يستهزئون بفقرائهم كعَمّار وصُهيب وخَبّاب وبلال وغيرِهم مِن فقراء المؤمنين. وتقديمُ الجارّ والمجرور إمّا للقصر إشعارًا بغاية شَناعة ما فعلوا، أي: كانوا مِن الذين آمنوا / يضحكون مع ظهور عدم [٢٨٣و] استحقاقهم لذلك، على مِنهاج قوله تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم، ١٠/١٤]، أو لمراعاة الفواصل.

﴿وَإِذَا مَرُّواْ﴾ أي: فقراء المؤمنين ﴿بِهِمْ﴾ بالمشركين وهم في أنديتهم، وهو الأظهر، وإن جاز العكس أيضًا. ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ أي: يغمِز بعضُهم بعضًا ويُشيرون بأعينهم.

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ﴾ مِن مجالسهم ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ ملتذِّين بذِكرهم بالسوء والسخرية منهم. وفيه إشارة إلى أنّهم كانوا لا يفعلون ذلك بمَرأى مِن المارّين بهم، ويكتفون حينئذ بالتغامز. وقُرئ: "فَاكِهِينَ".[١] قيل: هما بمعنًى. وقيل: فَكِهين أشِرين. وقيل: فَرِحين وفاكِهين متفكِّهين. وقيل: ناعِمين. وقيل: مازِحين.[٢]

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ أينما كانوا ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ أي: نسَبوا المسلمين ممّن رأوهم ومِن غيرهم إلى الضلال بطريق التأكيد.

﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ﴾ على المسلمين ﴿حَٰفِظِينَ﴾ حال مِن واو ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: قالوا ذلك والحال أنّهم ما أُرسلوا مِن جهة الله تعالى موكَّلين بهم، يحفظون عليهم أحوالهم، ويُهيمِنون على أعمالهم، ويشهدون برُشدهم وضلالهم. وهذا تهكُّم بهم وإشعارٌ بأنّ ما اجترأوا عليه مِن القول مِن وظائف مَن أُرسِل مِن جهته تعالى.

وقد جُوّز أن يكون ذلك مِن جملة قول المجرمين، كأنّهم قالوا: "إنّ هؤلاء لضالُّون وما أرسلوا علينا حافظين" إنكارًا لصدِّهم عن الشِّرك ودعائهم إلى الإسلام.[٣]

---

١ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف وأبو بكر وابن عامر بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٣٥٤/٢-٣٥٥، ٣٩٩.

٢ هذه الأقوال في اللباب لابن عادل، ٢٢٤/٢٠.

٣ هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٣/٤.

وإنّما قيل: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ نقلًا له بالمعنى كما في قولك: "حَلَف لَيفعلنّ"، لا بالعبارة كما في قولك: "حَلَف لأفعلنّ".

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: المعهودون مِن الفقراء ﴿مِنَ ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: مِن المعهودين، وهو الأظهر. وإن أمكَن التعميم مِن الجانبين. / ﴿يَضْحَكُونَ﴾ [٢٨٣ظ] حين يرَونهم أذِلّاء مغلولين قد غشِيَهم فنون الهَوان والصَّغار بعد العِزّة والكِبْر ورَهَقهم ألوانُ العذاب بعد التنعّم والتَّرفّه. وتقديم الجارّ والمجرور للقَصْر تحقيقًا للمقابلة، أي: فاليوم هم مِن الكفّار يضحكون، لا الكفّار منهم كما كانوا يفعلون في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ حال مِن فاعل ﴿يَضْحَكُونَ﴾، أي: يضحكون منهم ناظرين إليهم وإلى ما فيهم مِن سوء الحال. وقيل: يُفتح للكفّار بابٌ إلى الجنّة، فيقال لهم: "اخرجوا إليها" فإذا وصلوا إليها أُغلِق دونهم، يُفعَل بهم ذلك مِرارًا، ويضحك المؤمنون منهم.[1] ويأباه قوله تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾؛ فإنّه صريح في أنّ ضَحِك المؤمنين منهم جزاءٌ لضَحِكهم منهم في الدنيا، فلا بدّ مِن المجانَسة والمشاكَلة حتمًا. والتثويب والإثابة: المُجازاة. وقُرئ بإدغام "اللام" في "الثاء".[2]

وعنه عليه السلام: «مَن قرأ سورة المطفِّفين سقاه الله تعالى يوم القيامة مِن الرحيق المختوم».[3]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٣/٤.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي وهشام بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٧/٢.

٣ بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٣١/٢٩ (المطففين، ١/٨٣)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٤٤٠/٤ (المطففين، ١/٨٣)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٤٣/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة الانشقاق[1]

مكّيّة، وهي خمس[2] وعشرون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ أي: بالغمام كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان، ٢٥/٢٥]. وعن عليّ رضي الله عنه: تنشقّ مِن المجرّة.[3]

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ واستمعت، أي: انقادت وأذعَنت لتأثير قدرته تعالى حين تعلّقت إرادته بانشقاقها انقيادَ المأمور المِطواع إذا ورد عليه أَمْر الآمر المُطاع. والتعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إليها للإشعار بعِلّة الحُكم. وهذه الجملة ونظيرتُها الآتية بمنزلة قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت، ١١/٤١] في الإنباء عن كون ما نُسب إلى السماء والأرض مِن الانشقاق والمدّ وغيرهما جاريًا على مقتضى الحِكمة، كما أشيرَ إليه فيما سلف.

﴿وَحُقَّتْ﴾ أي: جُعلت حقيقةً بالاستماع والانقياد لكن لا بعدَ أن لم يكن كذلك؛ بل في نفسها وحدّ ذاتها مِن قولهم "هو محقوق بكذا" و"حقيقٌ به"، والمعنى: انقادت لربّها وهي حقيقة بذلك، لكن لا على أنّ المدار خصوصيّة ذاتها مِن بين سائر المقدورات؛ بل خصوصيّة القدرة القاهرة الربّانيّة التي يتأتّى لها

---

[1] س: انشقّت.

[2] س: ثلاث.

[3] النكت والعيون للماوردي، ٢٣٨/٦؛ تفسير أبي المظفّر السمعاني، ١٨٣/٦؛ الكشّاف للزمخشري، ٧٢٥/٤.

كلّ مقدور ولا يتخلّف عنها أمر مِن الأمور، فحَقُّ الجملة أن تكون اعتراضًا مقرِّرًا لِما قبلها لا معطوفةً / عليه. [٢٨٤و]

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي: بُسِطت بإزالة جبالها وآكامها مِن مقارّها وتسويتها بحيث صارت قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عِوَجًا ولا أَمْتًا، أو زِيدت سَعةً وبسطةً، مِن "مدّه" بمعنى أمدّه، أي: زاده.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ أي: رَمَت ما في جوفها مِن الموتى والكنوز، كقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة، ٢/٩٩]. ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ وخلَت عمّا فيها غاية الخُلوّ، حتّى لم يبقَ فيها شيء منه، كأنّها تكلَّفت في ذلك أقصى جُهدها.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ في الإلقاء والتخلّي ﴿وَحُقَّتْ﴾ أي: وهي حقيقة بذلك، أي: شأنها ذلك بالنسبة إلى القدرة الربانيّة. وتكريرُ كلمة ﴿إِذَا﴾ مع اتّحاد الأفعال المنسوبة إلى السماء والأرض وقوعًا في الوقت الممتدّ الذي هو مدلولها، قد مرّ سرّه فيما مرّ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ أي: جاهِدٌ ومُجِدّ إلى الموت وما بعده مِن الأحوال التي مُثِّلت باللقاء مبالغٌ في ذلك، فإنّ الكدح جُهد النفس في العمل والكدُّ فيه، بحيث يؤثِّر فيها مِن "كَدَح جِلدَه" إذا خَدَشه. ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ أي: فمُلاقٍ له عَقيب ذلك لا محالةَ مِن غير صارف يَلويك عنه.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾... إلى آخره. قيل: جوابُ ﴿إِذَا﴾، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة، ٣٨/٢].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾... إلخ اعتراضٌ. وقيل: هو محذوف للتهويل والإيماء إلى قصور العبارة عن بيانه، أو للتعويل على دلالة ما مرّ في سورة التكوير والانفطار عليه. وقيل: هو ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾... إلخ، تقديرُه لاقى الإنسان كَدْحه. وقيل: هو قوله تعالى: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾، وما قبله اعتراض. وقيل: هو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾... إلخ، بإضمار القول ومعنى يسيرًا سهلًا

لا مناقشة فيه ولا اعتراض.[١] وعن الصِّدِّيقة رضي الله عنها: هو أن يُعرَّف ذنوبه ثمّ يُتجاوز عنه.[٢]

﴿وَيَنقَلِبُ / إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾ أي: عشيرتِه المؤمنين أو فريقِ المؤمنين مبتهجًا بحاله قائلًا: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة، ١٩/٦٩]. وقيل: إلى أهله في الجنّة مِن الحُور والغِلمان.[٣] [٢٨٤ظ]

﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ۝١٠ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ۝١١ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا ۝١٥﴾

﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ أي: يؤتاه بشِماله مِن وراء ظهره. قيل: تُغَلّ يمناه إلى عنقه وتُجعَل شِماله وراءَ ظهره، فيُؤتى كتابَه بشماله. وقيل: تُخلَع يده اليسرى مِن وراء ظهره.[٤]

﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا﴾ أي: يتمنّى الثُّبور: وهو الهلاك، ويدعوه "يا ثبوراه تعالَ فإنّه أوانك"، وأنّى له ذلك؟

﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾ أي: يدخلها. وقُرئ: "يُصَلَّى"،[٥] كقوله تعالى: ﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة، ٩٤/٥٦]. وقُرئ: "وَيُصْلَى"،[٦] كما في قوله تعالى: ﴿وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ [النساء، ١١٥/٤].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ﴾ فيما بين أهله وعشيرته في الدنيا ﴿مَسۡرُورًا﴾ مُترَفًا بَطِرًا مُستبشِرًا كدَيْدَن الفُجّار الذين لا يُهمّهم ولا يخطُر ببالهم أمور الآخرة ولا يتفكّرون في العواقب، ولم يكن حزينًا متفكِّرًا في حاله ومآله كسنّة الصُّلحاء والمتّقين. والجملة استئناف ببيان عِلّة ما قبلها.

---

١ انظر لهذه الأقوال اللباب لابن عادل، ٢٢٦/٢٠-٢٢٧؛ وبعضها في معالم التنزيل للبغوي، ٣٧٣/٨.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٥٤٥/٤.

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥١٥/٣.

٤ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٥/٤.

٥ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٩٩/٢.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى البصرة وهارون، وأبان عن عاصم، وخارجة والأصمعي عن نافع، والعتكي عن أبي عمرو، والقرّاب عن أُبيّ، ومحبوب عن ابن كثير. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٠٤.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ تعليل لسروره في الدنيا، أي: ظنّ أن لن يرجع إلى الله تعالى تكذيبًا للمَعاد. و"أنْ" مخفَّفة مِن "أنّ" سادّة مع ما في حيّزها مَسدّ مفعولي "الظنّ" أو أحدهما، على الخلاف المعروف.[١]

﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجاب لِما بعد ﴿لَن﴾. وقوله تعالى:[٢] ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ تحقيق وتعليل له، أي: بلى لَيحورَنّ البتّةَ إنّ ربّه الذي خلقه كان به وبأعماله الموجِبة للجزاء بصيرًا بحيث لا تخفى منها خافية، فلا بدّ مِن رَجْعه وحسابه وجزائه عليها حتمًا. وقيل: نزلت الآيتان في أبي سلمةَ بن عبد الأشدّ وأخيه الأسود.[٣]

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ هي الحُمرة التي تُشاهَد في أفُق المغرب بعد الغروب، أو البياضُ الذي يليها، سُمّي به لرِقّته، ومنه الشَّفَقة التي هي عبارة عن رِقّة القلب. ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ وما جَمَع وضَمّ، / يقال: "وَسَقه فاتّسَق واستوسَق"، أي: جَمَعه فاجتمع. و﴿مَا﴾ عبارة عمّا يجتمع بالليل ويأوي إلى مكانه مِن الدوابّ وغيرها. ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ أي: اجتمع وتمّ بدرًا ليلة أربعَ عشرةَ. [٢٨٥و]

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أي: لَتُلاقُنّ حالًا بعد حال كلُّ واحدة منها مطابقة لأختها في الشِّدّة والفظاعة. وقيل: الطَّبَق جَمْع طَبَقة وهي المرتبة، وهو الأوفق للرُّكوب المنبئ عن الاعتلاء، والمعنى لَتركبُنّ أحوالًا بعد أحوال هي طبقات في الشِّدّة بعضُها أرفع مِن بعض، وهي الموتُ وما بعده مِن مواطن القيامة ودواهيها.

وقُرئ: "لَتَرْكَبَنَّ"[٤] بالإفراد على خطاب الإنسان، باعتبار اللفظ لا باعتبار شموله لأفراده كالقراءة الأولى. وقُرئ بكسر "الباء" على خطاب النفس،[٥]

---

[١] بين سيبويهِ والأخفش. انظر لتفصيله: شرح الرضي على الكافية، ١٧١/٤.

[٢] س - وقوله تعالى.

[٣] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٥/٤.

[٤] قرأ بها ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٩٩/٢.

[٥] قراءة شاذّة، غير منسوبة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧١.

و"لَيَرْكَبَنَّ"[١] بـ"الياء"، أي: لَيَركبنّ الإنسانُ. ومحلّ ﴿عَن طَبَقٍ﴾ النصب على أنّه صفة لـ﴿طَبَقًا﴾، أي: طبقًا مجاوزًا لطبَق، أو حال مِن الضمير في ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ أي: لَتركبنّ طبقًا مجاوِزين أو مجاوِزًا أو مجاوِزةً على حسب القراءة.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٢٥﴾

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لترتيب ما بعدها مِن الإنكار والتعجيب على ما قبلها مِن أحوال يوم القيامة وأهوالها الموجِبة للإيمان والسجود، أي: إذا كان حالهم يوم القيامة كما ذُكر، فأيّ شيء لهم حالَ كونهم غيرَ مؤمنين؟ أي: أيُّ شيء يمنعهم مِن الإيمان مع تعاضُد موجِباته؟

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾ جملة شرطيّة محلّها النصب على الحاليّة نسَقًا على ما قبلها، أي: فأيُّ مانع لهم حالَ عدم سجودهم وخضوعهم واستكانتهم عند قراءة القرآن؟ وقيل: قرأ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ذات يوم: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ [العلق، ١٩/٩٦]، فسَجَد هو ومَن معه مِن المؤمنين وقريشٌ تصفِّق فوق رءوسهم وتصفِر، فنزلَت.[٢] وبه احتجّ أبو حنيفةَ رحمه الله على وجوب السجدة.[٣] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «ليس في المفصَّل سجدة»،[٤] وعن أبي هريرةَ: أنّه سجد فيها، وقال: «واللهِ ما سجدتُ إلّا بعد أن رأيتُ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم / يسجد فيها»،[٥] وعن أنسٍ رضي الله عنه: «صلّيتُ خلفَ أبي بكر وعمرَ وعثمانَ رضي الله تعالى عنهم فسجدوا»،[٦] وعن الحسَن رحمه الله: هي غيرُ واجبة.[٧] [٢٨٥ظ]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي الدرداء والقاسم بن محمّد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٧.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٥٤٦/٤.

٣ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٦/٤.

٤ مصنَّف عبد الرزّاق، ٣٤٣/٣ (٥٩٠٠)؛ السنن الكبرى للبيهقي، ٤٤٤/٢-٤٤٥ (٣٧٠٧)؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٤٦/٤.

٥ بمعناه في صحيح البخاري، ١٥٣/١ (٧٦٦)؛ وصحيح مسلم، ٤٠٧/١ (٥٧٨)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٧٧/٨؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٦/٤.

٦ ما وجدته في مظانّه. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٦/٤.

٧ الكشّاف للزمخشري، ٥٤٦/٤.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ بالقرآن الناطق بما ذُكر مِن أحوال القيامة وأهوالها مع تحقُّق موجِبات تصديقه، ولذلك لا يخضعون عند تلاوته.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ بما يُضمِرون في قلوبهم ويجمعون في صدورهم مِن الكفر والحسد والبغي والبغضاء، أو بما يجمعون في صحفهم مِن أعمال السوء ويدَّخرون لأنفسهم مِن أنواع العذاب عِلمًا فعليًا.

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأنّ عِلمه تعالى بذلك على الوجه المذكور موجِبٌ لتعذيبهم حتمًا.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استثناء منقطِع إن جُعل الموصول عبارةً عن المؤمنين كافّة، ومتّصلٌ إن أريد به مَن آمن منهم بعد ذلك. وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غيرُ مقطوع أو ممنون به عليهم، استئناف مقرِّر لِما أفاده الاستثناء مِن انتفاء العذاب عنهم، ومبيِّن لكيفيّته ومقارنته للثواب العظيم.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة انشقّت أعاذه الله تعالى أن يعطيَه كتابه وراءَ ظهره».[1]

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٩٤/٢٩ (الانشقاق، ١/٨٤)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٥١/٤ (الانشقاق، ١/٨٤)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٤٦/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة البروج

مكيّة، وهي ثنتان وعشرون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣﴾

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾ هي البروج الاثنا عشر، شُبِّهت بالقصور لأنّها تنزلها السّيّارات ويكون فيها الثوابت، أو منازلُ القمر، أو عِظامُ الكواكب، سُمّيت بروجًا لظهورها، أو أبوابُ السماء، فإنّ النوازل تخرج منها، وأصل التركيب للظهور.

﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ﴾ أي: يوم القيامة.

﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾ أي: ومَن يشهد في ذلك اليوم مِن الخلائق، وما يُحضَر فيه مِن العجائب. وتنكيرهما للإبهام في الوصف، أي: وشاهد ومشهود لا يُكتنه وصفُهما، أو للمبالغة في الكثرة.

وقيل: الشاهد محمّد صلّى الله عليه وسلّم والمشهود يوم القيامة.[1] وقيل: عيسى عليه السلام / وأمّته، لقوله تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾... إلخ [المائدة، ١١٧/٥]. وقيل: أمّة محمّد وسائر الأمم. وقيل: يوم التروية ويوم عرفة.[2] وقيل: يوم عرفة ويوم الجمعة.[3] وقيل: الحجر الأسود والحجيج. وقيل: الأيّام والليالي وبنو آدم. [٢٨٦و]

---

١ مرويّ عن ابن عبّاس والحسن بن عليّ وسعيد بن المسيّب في جامع البيان للطبري، ٢٦٦/٢٤-٢٦٧؛ وهو بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٧/٤.

٢ الأقوال الثلاثة في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٧/٤.

٣ مرويّ عن أبي هريرة وابن عبّاس وعليّ بن أبي طالب وقتادة وغيرهم في جامع البيان للطبري، ٢٦٤/٢٤-٢٦٦؛ وهو بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٧/٤.

وعن الحسن: ما مِن يوم إلّا وينادي: إنّي يوم جديد وإنّي على ما يُعمَل فيّ شهيد فاغتنمني، فلو غابت شمسي لم تدركني إلى يوم القيامة. وقيل: الحَفَظة وبنو آدم. وقيل: الأنبياء ومحمّد عليهم الصلاة والسلام.[١]

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ۝١١﴾

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ قيل: هو جواب القسم على حذف "اللام" منه للطول، والأصل "لَقُتِل"،[٢] كما في قول مَن قال:

حلفتُ لها بالله حَلفةَ فاجرٍ   لَناموا فما إنْ مِن حديث ولا صَالِ[٣]

وقيل: تقديره لقد قُتل.[٤] وأيًّا ما كان فالجملة خبريّة.

والأظهرُ أنّها دعائيّة دالّة على الجواب، كأنّه قيل: أقسمُ بهذه الأشياء إنّهم، أي: كفّار مكّة ملعونون كما لُعن أصحاب الأخدود، لِما أنّ السورة وردت لتثبيت المؤمنين على ما هم عليه مِن الإيمان وتصبيرهم على أذيّة الكَفَرة وتذكيرهم بما جرى على مَن تقدّمهم مِن التعذيب على الإيمان وصَبْرهم على ذلك، حتّى يأتَسُوا بهم ويصبروا على ما كانوا يَلقَون مِن قومهم، ويعلموا أنّ هؤلاء عند الله عزّ وجلّ بمنزلة أولئك المعذِّبين ملعونون مِثلَهم أحقّاء بأن يقال فيهم ما قد قيل فيهم.[٥] وقُرِئ: "قُتِّلَ"[٦] بالتشديد. والأُخدود: الخدّ في الأرض، وهو الشقّ، ونحوهما بناءً ومعنًى "الخَقّ" و"الأُخْقوق".

---

١ هذه الأقوال جميعها في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٧/٤.

٢ القول في اللباب لابن عادل، ٢٤٧/٢٠.

٣ البيت لامرئ القيس في ديوانه، ص ٣٢؛ وهو بلا عزو في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٧٤٣/١٠؛ واللباب لابن عادل، ٢٤٧/٢٠.

٤ القول في التبيان للعكبري، ١٢٨٠/٢؛ واللباب لابن عادل، ٢٤٧/٢٠.

٥ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٧/٤-٥٤٨.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البَرَهسَم والحسن وابن مِقسَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٠٦.

رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه كان لبعض الملوك ساحرٌ فلمّا كبِر ضمّ إليه غلامًا ليُعلّمه السِّحرَ، وكان في طريق الغلام راهبٌ فسمع منه، فرأى في طريقه ذات يوم دابّةً قد حبست الناس، قيل: كانت الدابّة أسدًا، فأخذ حجرًا فقال: اللّٰهمّ إن كان الراهب أحبَّ إليك مِن الساحر فاقتلها فقتلها، فكان الغلام بعد ذلك يُبرئ الأكمَه والأبرص ويشفي مِن الأدواء.

وعَمِي جليسٌ للمَلِك فأبرَأه، فأبصره المَلِك فسأله / مَن ردّ عليك بصرَك؟ [٢٨٦ظ] فقال: ربّي، فغَضَب فعذّبه، فدلّ على الغلام فعذّبه، فدلّ على الراهب فلم يرجع الراهبُ عن دينه فقُدّ بالمِنشار، وأبى الغلام فذُهِب به إلى جبل ليُطرح مِن ذروته فدعا فرُجِف بالقوم فطاحوا ونجا، فذُهِب به إلى قُرْقُور[١] فلجَّجوا به ليُغرِقوه فدعا فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ونجا.

فقال للمَلِك: لستَ بقاتلي حتّى تجمَع الناس في صعيد وتصلبني على جِذع وتأخُذ سهمًا مِن كِنانتي وتقول: "باسم الله ربّ الغلام" ثمّ ترميني به، فرماه فوَقَع في صُدغه فوَضَع يده عليه ومات، فقال الناس: "آمنّا بربّ الغلام". فقيل للمَلَك: نزل بك ما كنتَ تحذر، فأمر بأخاديدَ في أفواه السِّكَك وأوقدت فيها النيران، فمَن لم يرجع منهم طرحه فيها، حتّى جاءت امرأة معها صبيّ فتقاعست فقال الصبي: "يا أمّاه اصبري فإنّك على الحقّ" فاقتحمتْ. وقيل: قال لها: "قَعي ولا تُنافقي ما هي إلّا غُمَيضة" فصبرَت.[٢]

قيل: أُخرِج الغلام مِن قبره في خلافة عمرَ بن الخطّاب رضي الله عنه وأصبعه على صُدغه كما وضعها حين قُتل.[٣]

وعن عليّ رضي الله تعالى عنه: أنّ بعض ملوك المجَوس وقع على أخته وهو[٤] سكران، فلمّا صحا ندِم وطَلَب المَخرَج، فقالت له: المَخرَج أن تخطب بالناس

---

١ القُرقُور: ضرب مِن السُّفن، قيل: هي العظيمة والطويلة. لسان العرب لابن منظور، «قرقر».

٢ بلفظ قريب في مسند أحمد، ٣٩/٣٥١-٣٥٤ (٢٣٩٣١)؛ وصحيح مسلم، ٤/٢٢٩٩-٢٣٠٠ (٣٠٠٥)؛ وجامع البيان للطبري، ٢٤/٢٧٣-٢٧٥؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨/٣٨٣-٣٨٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٥٤٨.

٣ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٨/٣٨٥.

٤ س - وهو.

فتقول: "إنّ الله قد أحلّ نكاحَ الأخوات"، ثمّ تخطُبهم بعد ذلك أنّ الله حرّمه، فخَطَب فلم يقبلوا منه، فقالت له: ابسُط فيهم السَّوط ففعل فلم يقبلوا، فقالت: ابسُط فيهم السيف ففعل فلم يقبلوا، فأمر بالأخاديد وإيقاد النيران[١] وطرح مَن أبى فيها، فهم الذين أرادهم الله تعالى[٢] بقوله: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾.[٣]

وقيل: وقع إلى نجرانَ رجل ممّن كان على دين عيسى فدعاهم فأجابوه، فسار إليهم ذو نُوَاس اليهودي[٤] بجنود مِن حِمْيَر، فخيَّرهم بين النار واليهوديّة فأبَوا، فأحرَق منهم اثني عشرَ ألفًا في الأخاديد. وقيل: سبعين ألفًا. وذُكر أنّ طول الأخدود أربعون ذراعًا وعرضَه / اثنا عشر ذراعًا.[٥] [٢٨٧و]

﴿ٱلنَّارِ﴾ بدل اشتمال مِن ﴿ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ ﴿ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ﴾ وصف لها بغاية العِظَم وارتفاع اللهَب وكثرةِ ما يُوجِبه مِن الحطب وأبدان الناس. وقُرئ: "الوُقُودِ"[٦] بالضمّ.

وقوله تعالى: ﴿إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ﴾ ظرف لـ﴿قُتِلَ﴾ أي: لُعِنوا حين أحدقوا بالنار قاعدين حولها في مكان مُشرِف عليها مِن حافّات الأخدود، كما في قوله:

وبـاتَ عـلى الـنـار الـنـدى والـمُـحـلِّـقُ[٧]

﴿وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ﴾ أي: يشهد بعضهم لبعض عند المَلِك بأنّ أحدًا لم يقصِّر فيما أُمِر به، أو أنّهم شهود يشهدون بما فعلوا بالمؤمنين يوم القيامة يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم. وقيل: ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى "مع"، والمعنى:

---

١ س ي: النار.

٢ س - تعالى.

٣ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٢٧١/٢٤.

٤ هو زرعة بن تبان أسعد، أحد ملوك حِميَر. وهو صاحب الأخدود. وذلك أنّه بلغه عن أهل نجران أنّهم أتاهم رجل مِن آل جفنة مِن غسّان، فردّهم إلى دين النصرانيّة. فسار إليهم ذو نواس بنفسه، حتّى احتفر في الأرض أخاديد وملأها نارًا، فمَن تبعه على دينه خلّى عنه، مَن أقام على النصرانيّة قذفه فيها. انظر: التيجان للحميري، ص ٣١٢؛ والبداية والنهاية لابن كثير، ٢٩/٣.

٥ انظر: معالم التنزيل للبغوي، ٣٨٤/٨-٣٨٥.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي رجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٨.

٧ عجز بيت للأعشى، صدره:

تُـشَـبُّ لـمَـقـرورِيـن يَـصطلِيـانـها

وهو في ديوانه، ص ٢٢٥؛ وله في الصحاح للجوهري، «حلق»؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٥٤٩/٤. وضُبطت "اللام" في اسم "المُحلّق" في نسخة المؤلِّف بالكسر، وبذلك ضبطها الجوهريُّ. واستُدرك عليه أنّها بفتح "اللام"، كما ذكر الصغاني في التكملة والذيل والصلة، «حلق»؛ والصفديُّ في تصحيح التصحيف، ص ٤٦٧.

وهم مع ما يفعلون بالمؤمنين مِن العذاب حُضور لا يَرِقّون لهم لغاية قسوة قلوبهم.[١] هذا هو الذي يستدعيه النظم الكريم وينطِق به الرِّوايات المشهورة.

وقد رُوي أنّ الجبابرة لمّا ألقَوا المؤمنين في النار وهم قعود حولها علِقت بهم النّار فأحرقتهم، ونجّى الله عزّ وجلّ المؤمنين منها سالمين. وإلى هذا القول ذهب الربيع بن أنس[٢] والواحديّ،[٣] وعلى ذلك حملا قوله تعالى ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾.[٤]

﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ﴾ أي: ما أنكروا منهم وما عابوا ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ استثناء مُفصِح عن براءتهم عمّا يُعاب ويُنكَر بالكلّيّة، على مِنهاج قوله:

ولا عيبَ فيهمْ غيرَ أنّ ضيوفَهمْ   تُلام بنسيان الأحبّةِ والوطنْ[٥]

ووصفُه تعالى بكونه عزيزًا غالبًا يُخشى عقابه وحميدًا مُنعِمًا يُرجى ثوابه، وتأكيدُ ذلك بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ للإشعار بمَناط إيمانهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ وعدٌ لهم ووعيد شديد لمعذِّبيهم، فإنّ عِلمه تعالى بجميع الأشياء التي مِن جملتها أعمال الفريقين يستدعي توفير جزاء كلّ منهما حتمًا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ / وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: مَحَنوهم في دينهم ليرجعوا عنه، والمراد بهم إمّا أصحاب الأخدود خاصّة، وبالمفتونين المطروحون في الأخدود، وإما الذين بَلَوهم في ذلك بالأذيّة والتعذيب على الإطلاق، وهم داخلون في جملتهم دخولًا أوّليًا. ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ أي: عن كفرهم وفتنتهم، فإنّ ما ذُكر مِن الفتنة في الدِّين لا يُتصوَّر مِن غير الكافر قطعًا. [٢٨٧ظ]

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ٢٥١/٢٠.

٢ انظر: جامع البيان للطبري، ٢٧٦/٢٤؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٤٦١/٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٣٨٧/٨.

٣ انظر: التفسير الوسيط للواحدي، ٤٦١/٤.

٤ سيأتي في الآية الحادية عشرة مِن هذه السورة.

٥ ما عرفت قائله. وهو بلا عزو في خزانة الأدب لابن حجّة، ٣٩٩/٢؛ والكلّيّات للكفوي، ص ٢٧٠.

وقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ جملة وقعت خبرًا لـ﴿إِنَّ﴾، أو الخبر ﴿لَهُمْ﴾ و﴿عَذَابُ﴾ مرتفعٌ به على الفاعليّة، وهو الأحسن. و"الفاء" لتضمُّن المبتدأ معنى الشرط. ولا ضيرَ في نَسْخه بـ﴿إِنَّ﴾، وإن خالفه الأخفشُ.[١] والمعنى: لهم في الآخرة عذاب جهنّم بسبب كفرهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ وهي نار أخرى عظيمة بسبب فتنتهم للمؤمنين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على الإطلاق مِن المفتونين وغيرهم ﴿لَهُمْ﴾ بسبب ما ذُكر مِن الإيمان والعمل الصالح ﴿جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ إن أريدَ بالجنّات الأشجارُ فجريان الأنهار مِن تحتها ظاهرٌ، وإن أريدَ بها الأرضُ المشتمِلة عليها فالتحتيّة باعتبار جزئها الظاهر، فإنّ أشجارها ساترةٌ لساحتها كما يُعرِب عنه اسم الجنّة، وقد مرّ بيانه مِرارًا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إمّا إلى الجنّات الموصوفة، والتذكيرُ لتأويلها بما ذُكر للإشعار بأنّ مَدار الحُكم عنوانُها الذي يتنافس فيه المتنافِسون، فإنّ اسم الإشارة متعرِّض لذات المشار إليه مِن حيث اتّصافُه بأوصافه المذكورة لا لذاته فقط كما هو شأن الضمير، فإذا أشيرَ إلى الجنّات مِن حيث ذِكرُها فقد اعتُبر معها عنوانها المذكورُ حتمًا. وإمّا إلى ما يُفيده[٢] قوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾... إلخ، مِن حِيازتهم لها، فإنّ حصولها لهم مستلزمٌ لحِيازتهم لها قطعًا. وأيًّا ما كان فما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلوّ درجته وبُعد منزلته في الفضل والشرف. ومحلُّه الرفع على الابتداء خبرُه ما بعده، أي: ذلك المذكور العظيم الشأنِ.

﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي تصغُر عنده الدنيا وما فيها مِن فنون الرغائب بحذافيرها. و﴿ٱلْفَوْزُ﴾: النجاة مِن الشرّ والظفَرُ بالخير، فعلى الأوّل[٣] هو مصدر أُطلقَ على المفعول مبالغةً، وعلى الثاني[٤] مصدرٌ على حاله.

---

[١] الكلام في اللباب لابن عادل، ٢٠/٢٥٣.

[٢] السياق: إشارة إمّا إلى الجنّات... وإمّا إلى ما يفيده...

[٣] وفي هامش م: هو كون ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الجنّات. «منه».

[٤] وفي هامش م: هو كونه إشارة إلى ما يُفيده قوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾. «منه».

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ۝١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝١٨ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ۝١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ۝٢٠ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ / استئناف خُوطِب به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم إيذانًا [٢٨٨و] بأنّ لكفّار قومه نصيبًا موفورًا مِن مضمونه كما ينبئ عنه التعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام. والبطشُ: الأَخْذ بعُنف، وحيث وُصف بالشدَّة فقد تضاعَف وتفاقَم، وهو بطشُه بالجبابرة والظلَمة وأَخْذه إيّاهم بالعذاب والانتقام، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود، ١١/١٠٢].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أي: هو يُبدئ الخلق وهو يُعيده مِن غير دَخلٍ لأحد في شيء منهما، ففيه مزيدُ تقرير لشدّة بطشه، أو هو يُبدئ البطش بالكفرة في الدنيا ويُعيده في الآخرة.

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لمَن تاب وآمن ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ المُحبّ لمَن أطاع.

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ خالقُه. وقيل: المراد بالعرش المُلك،[١] أي: ذو السلطنة القاهرة. وقُرئ: "ذِي العَرْشِ"[٢] على أنّه صفة ﴿رَبِّكَ﴾. ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ العظيمُ في ذاته وصفاته، فإنّه واجب الوجود تامّ القُدرة كامل الحِكمة. وقُرئ بالجرّ[٣] على أنّه صفة لـ﴿رَبِّكَ﴾ أو لـ﴿ٱلْعَرْشِ﴾. ومجدُه: عُلوّه وعظمتُه.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ بحيث لا يتخلّف عن إرادته مُراد مِن أفعاله تعالى وأفعالِ غيره، وهو خبرُ مبتدأ محذوف.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ استئناف مقرِّر لشدّة بطشه تعالى بالظلَمة العُصاة والكفَرة العُتاة، وكونُه فعّالًا لِما يريد متضمِّن لتسليته صلّى الله عليه وسلّم بالإشعار بأنّه سيُصيب قومَه ما أصاب الجنود. ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ بدل مِن ﴿ٱلْجُنُودِ﴾؛ لأنّ المراد بـ﴿فِرْعَوْنَ﴾ هو وقومه. والمراد بـ"حديثهم" ما صدر عنهم

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٥١٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن بكّار عن ابن عامر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٩.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩٩.

مِن التمادي في الكفر والضلال وما حلّ بهم مِن العذاب والنَّكال، والمعنى: قد أتاك حديثهم وعرفتَ ما فعلوا وما فُعل بهم فذكِّر قومك بشئون الله تعالى وأنذِرهم أن يصيبهم مثلُ ما أصاب أمثالَهم.

وقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكۡذِيبٍ﴾ إضراب عن مُماثلتهم لهم وبيانٌ لكونهم أشدَّ منهم في الكفر والطغيان، كأنّه قيل: ليسوا مثلَهم في ذلك؛ بل هم أشدّ منهم في استحقاق العذاب واستيجاب العقاب، فإنّهم مستقرّون في تكذيب شديدٍ للقرآن الكريم، أو قيل: ليست جنايتُهم مجرّدَ عدم التذكّر والاتّعاظ بمّا سمعوا مِن حديثهم؛ بل هم مع ذلك في تكذيب شديد للقرآن / الناطق بذلك لكن لا أنّهم يكذِّبون بوقوع الحادثة؛ بل يكون ما نطَق به قرآنًا مِن عند الله تعالى مع وضوح أمره وظهور حاله بالبيّنات الباهرة. [٢٨٨ظ]

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ تمثيل لعدم نجاتِهم مِن بأس الله تعالى بعدم فَوْت المُحاطِ المُحيطَ.

وقوله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ ردّ لكفرهم وإبطالٌ لتكذيبهم وتحقيقٌ للحقّ، أي: ليس الأمر كما قالوا بل هو كتاب شريف عالي الطبقةِ فيما بين الكتب الإلهيّة في النظم والمعنى. وقُرئ: "قُرآنُ مَجِيدٍ"[١] بالإضافة، أي: قرآنُ ربٍّ مَجيدٍ.

﴿فِى لَوۡحٍ مَّحۡفُوظٍ﴾ أي: مِن التحريف ووصول الشياطين إليه. وقُرئ: "مَحفُوظٌ"[٢] بالرفع على أنّه صفة ﴿قُرۡءَانٌ﴾. وقُرئ: "فِي لُوحٍ"[٣] وهو الهواء، أي: ما فوق السماء السابعة التي فيه اللوح.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة البروج أعطاه الله تعالى بعدد كلّ جمعة وعَرَفةٍ تكون في الدنيا عشر حسنات».[٤]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧١.

[٢] قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢/٣٩٩.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني وطاوس. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٠٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٠٧.

[٤] بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩/١٣٦ (البروج، ١/٨٥)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٤/٤٥٧ (البروج، ١/٨٥)؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٥٥٠. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

سورة الطارق

مكيّة، وهي سبع وعشرون[1] آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠﴾

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ الطارق في الأصل اسم فاعل مِن طَرَق طَرْقًا وطروقًا إذا جاء ليلًا، قال الماوَردي: «وأصل الطرق الدقّ، ومنه سُمِّيت المِطرَقة، وإنّما سُمّي قاصد الليل طارقًا لاحتياجه إلى طَرْق الباب غالبًا»،[2] ثمّ اتُّسع في كلّ ما ظهَر بالليل كائنًا ما كان، ثمّ أشبع في التوسّع حتّى أُطلِق على الصوَر الخياليّة الباديةِ بالليل، قال:

طَـرَق الـخـيـالُ ولا كـلـيـلة مُـدلِـجٍ　　سَـدِكًـا بـأرحـلـنـا ولـم يـتـعـرَّجِ[3]

والمراد ههنا الكوكبُ البادي بالليل، إمّا على أنّه اسم جنس أو كوكب معهود. وقيل: الطارق: النجم الذي يقال له: كوكبُ الصبح.[4]

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ تنويه بشأنه إثر تفخيمه بالإقسام به، وتنبيهٌ على أنّ رِفعة قدره بحيث لا ينالها إدراكُ الخلق، فلا بدّ مِن تلقّيها مِن الخلّاق العليم، فـ﴿مَا﴾ الأولى مبتدأ و﴿أَدۡرَىٰكَ﴾ خبرٌ، والثانية خبرٌ و﴿ٱلطَّارِقُ﴾ مبتدأ، حسبما بيِّن في نظائره، أي: وأيُّ شيء أعلمك ما الطارق؟

---

[1] س: سبع عشرة. | وهو الصحيح، وما في م سهو.

[2] النكت والعيون للماوردي، ٢٤٥/٦؛ ونقله عنه ابن عادل في اللباب، ٢٦٠/٢٠.

[3] البيت للحارث بن حِلِّزة في ديوانه، ص ١٠٧؛ وهو له في المفضّليّات للضَّبّي، ص ٢٥٥؛ ومفتاح العلوم للسكّاكي، ص ٢٩٨.

[4] القول في اللباب لابن عادل، ٢٦٠/٢٠؛ ونقله عن الصحاح للجوهري، «طرق».

[٢٨٩و] وقوله تعالى: / ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، والجملة استئنافٌ وقع جوابًا عن استفهام نشأ عمّا قبله، كأنّه قيل: ما هو؟ فقيل: هو النجم المضيء في الغاية، كأنّه يثقب الظلام أو الأفلاكَ بضوئه وينفذ فيها، والمراد به إمّا الجنس -فإنّ لكلّ كوكبٍ ضوءًا ثاقبًا لا محالةَ- وإمّا كوكب معهود.

قيل: هو زُحَل.[١] وقيل: هو الثُّريّا.[٢] وقيل: هو الجَدْي.[٣] وقيل: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾: نجم في السماء السابعة لا يسكنها غيرُه، فإذا أخذت النجوم أمكنتها مِن السماء هَبَط فكان معها، ثمّ يرجع إلى مكانه مِن السماء السابعة، وهو زُحَل فهو طارق حين ينزل وحين يصعد.[٤]

وفي إيراده عند الإقسام به بوصف مشترك بينه وبين غيره، ثمّ الإشارةِ إلى أنّ ذلك الوصف غيرُ كاشف عن كُنه أمره وأنّ ذلك ممّا لا يبلغه أفكار الخلائق، ثمّ تفسيرِه بـ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾، مِن تفخيم شأنه وإجلال محلّه ما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ جواب للقسم وما بينهما اعتراض جيء به لِما ذُكر مِن تأكيد فخامة المقسَم به المستتبع لتأكيد مضمون الجملة المقسَم عليها، و﴿إِن﴾ نافية، و﴿لَّمَّا﴾ بمعنى "إلّا"، أي: ما كلّ نفس إلّا عليها حافظ مُهيمِن رقيب وهو الله عزّ وجلّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ [الأحزاب، ٥٢/٣٣]. وقيل: هو مَن يحفظ عملها ويحصي عليها ما تكسب مِن خير وشرّ،[٥] كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامٗا﴾ الآية [الانفطار، ٨٢/١٠-١١]، وقولِه تعالى: ﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً﴾ [الأنعام، ٦١/٦]، وقولِه تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ﴾ [الرعد، ١١/١٣].

---

١ مرويّ عن محمّد بن الحسين في اللباب لابن عادل، ٢٦٠/٢٠؛ وبلا عزو في معالم التنزيل للبغوي، ٣٩٣/٨.

٢ مرويّ عن ابن زيد في معالم التنزيل للبغوي، ٣٩٣/٨؛ واللباب لابن عادل، ٢٦٠/٢٠.

٣ مرويّ عن ابن عبّاس في اللباب لابن عادل، ٢٦٠/٢٠.

٤ مرويّ عن عليّ بن أبي طالب في اللباب لابن عادل، ٢٦٠/٢٠.

٥ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٥١/٤.

وقُرئ: "لَمَا"[١] مخفَّفة على أنّ "إنْ" مخفَّفة مِن الثقيلة، واسمها الذي هو ضمير الشأن محذوف، و"اللام" هي الفارقة و"ما" مزيدة، أي: إنّ الشأن كلُّ نفس لَعَلَيْها حافظٌ.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ للتنبيه على أنّ ما بُيِّن مِن أنّ كلّ نفس عليها حافظ يحصي عليها كلَّ ما يصدر عنها مِن قول وفعل، مستوجبٌ على الإنسان أن يتفكَّر في مبدأ فطرته حقَّ التفكّر، حتّى يتَّضح له أنّ مَن قدر على إنشائه مِن موادَّ لم تشَمَّ رائحة الحياة قطّ فهو قادر على إعادته؛ بل أقدرُ على قياس العقل، فيعملَ ليوم الإعادة والجزاء ما ينفعه يومئذ ويُجديه ولا يملي على حافظه / ما يُرديه. [٢٨٩ظ]

وقوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ استئناف وقع جوابًا عن استفهام مقدَّر كأنّه قيل: مِمّ خُلق؟ فقيل: خُلق مِن ماء ذي دَفْق: وهو صبٌّ فيه دَفْع وسيَلان بسرعة، والمراد به الممتزِج مِن الماءين في الرَّحِم، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ أي: صُلب الرجل وترائب المرأة: وهي عِظام صدرها.

قالوا: إنّ النطفة تتولَّد مِن فضل الهضم الرابع، وينفصل عن جميع الأعضاء حتّى يستعدّ لأنْ يتولَّد منها مِثلُ تلك الأعضاء، ومقرّها عروق ملتفٌّ بعضُها بالبعض عند البيضتين، فالدماغُ أعظم الأعضاء معونةً في توليدها، ولذلك يُشْبِهُه ويُورث الإفراطُ في الجماع الضعفَ فيه، وله خليفة هي النُّخاع وهو في الصُّلب وشُعَب كثيرة نازلة إلى الترائب، وهما أقربُ إلى أوعية المَنيّ، فلذلك خُصّا بالذِّكر.[٢]

وقُرئ: "الصَّلَبِ"[٣] بفتحتين، و"الصُّلُبِ"[٤] بضمّتين، وفيه لغة رابعة هي "صالب".

---

[١] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩١، ٣٩٩.

[٢] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٥٢٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٢.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٢.

﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير للخالق تعالى، فإنّ قوله تعالى: ﴿خُلِقَ﴾ يدلّ عليه، أي: إنّ ذلك الذي خَلَقه ابتداءً ممّا ذُكر ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾ أي:[١] إعادته بعد موته ﴿لَقَادِرٌ﴾ لَبيّنُ القدرة.

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ أي: يُتعرَّف ويُتصفَّح ما أُسرَّ في القلوب مِن العقائد والنيّات وغيرها، وما أُخفيَ مِن الأعمال ويُميَّزُ بين ما طاب منها وخبُث. وهو ظرف لـ﴿رَجْعِهِۦ﴾.

﴿فَمَا لَهُۥ﴾ أي: للإنسان ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ في نفسه يمتنع بها ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ ينتصر به.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ أي: المطرِ، سُمّي رَجْعًا لِما أنّ العرب كانوا يزعمون أنّ السحاب يحمل الماء مِن بحار الأرض ثمّ يرجعه إلى الأرض، أو أرادوا بذلك التفاؤل ليَرجع، ولذلك سمَّوه أَوْبًا، أو لأنّ الله تعالى يرجعه حينًا فحينًا.

﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ هو ما يتصدَّع عنه الأرض مِن النبات، أو مصدر مِن المبنيّ / للمفعول وهو تَشقُّقها بالنبات لا بالعيون كما قيل، فإنّ وَصْف السماء والأرض عند الإقسام بهما على حقّيّة القرآن الناطق بالبعث بما ذُكر مِن الوصفين للإيماء إلى أنّهما في أنفسهما مِن شواهده، وهو السرّ في التعبير عنه[٢] وعن المطر بالرَّجْع، وذلك في تشقُّق الأرض بالنبات المُحاكي للنشور، حسبما ذُكر في مواقعَ مِن التنزيل، لا في تشقُّقها بالعيون. [٢٩٠و]

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن الذي مِن جملته ما تُلي مِن الآيات الناطقة بمَبدأ حال الإنسان ومَعاده ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ أي: فاصل بين الحقّ والباطل مبالغ في ذلك كأنّه نفس الفَصْل.

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ ليس في شيء منه شائبةُ هَزْل، بل كلّه جِدّ مَحضٌ لا هَوَادَة فيه، فمِن حقّه أن يهتدي به الغُواة وتخضع له رِقابُ العُتاة.

---

١ س + على.

٢ وفي هامش م: بقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾. «منه».

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: أهلَ مكّة ﴿يَكِيدُونَ﴾ في إبطال أمره وإطفاء نوره ﴿كَيْدًا﴾ حسبما يفي به قدرتهم.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ أي: أقابلهم بكيد متينٍ لا يمكن ردُّه حيث أستدرجهم مِن حيث لا يعلمون.

﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: لا تشتغل بالانتقام منهم ولا تَدْعُ عليهم بالهلاك، أو لا تستعجل به. و"الفاء" لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنّ الإخبار بتولّيه تعالى لكيدهم بالذات ممّا يوجب إمهالَهم وتركَ التصدّي لمُكايدتهم قطعًا. وقوله تعالى: ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾ بدل مِن ﴿مَهِّلِ﴾. وقوله تعالى: ﴿رُوَيْدًا﴾ إمّا مصدر مؤكِّد لمعنى العامل، أو نعت لمصدره المحذوف، أي: أمهلهم إمهالًا رُوَيدًا، أي: قريبًا، كما قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما،[1] أو قليلًا كما قاله قتادةُ.[2] قال أبو عبيدةَ:[3] هو في الأصل تصغير "رُودٍ" بالضمّ، وأنشدَ:

كـأنّـهـا ثَـمِـل تـمـشـي عـلـى رُودٍ[4]

أي على مَهَل. وقيل: تصغير "إِرْوَادٍ" مصدرِ "أَرْوَد" بالترخيم، وله في الاستعمال وجهان آخران: كونه اسمَ فعل نحو "رُوَيدَ زيدًا"، وكونه حالًا نحو "سار القوم رُوَيدًا"، أي: متمهِّلين.[5]

وفي إيراد البدل بصيغة لا تحتمل التكثير وتقييدِه بـ﴿رُوَيْدًا﴾ على أحد الوجهين المذكورين مِن تسلية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم / وتسكين قلبه ما لا يخفى. [٢٩٠ظ]

---

[1] انظر: جامع البيان للطبري، ٢٤/٣٠٧-٣٠٨.

[2] انظر: جامع البيان للطبري، ٢٤/٣٠٨.

[3] ليس الكلام في مجاز القرآن. والظاهر أنّه أبو عبيد، كما في مطبوع تفسير القرطبي، ٢٠/١١٢؛ واللباب لابن عادل، ٢٠/٢٧٠.

[4] م: رُودِ. | وهو سهو؛ لأنّه عجز بيت، أوله:
تـكـاد لا تـثـلِم الـبـطـحـاءَ وطـأتُـهـا
والبيت للهُذلي في أساس البلاغة للزمخشري، «رود»؛ وللجموح الظُفري في لسان العرب لابن منظور، «رود»؛ وعجزه بلا عزو في الصحاح للجوهري، «رود»؛ وتفسير القرطبي، ٢٠/١١٢؛ واللباب لابن عادل، ٢٠/٢٧٠.

[5] الكلام بلفظ قريب في الغريبين للهروي، ٣/٧٩٠، وليس فيه الشِّعر المذكور؛ وهو عن أبي عُبيد مع الشِّعر في تفسير القرطبي، ٢٠/١١٢؛ واللباب لابن عادل، ٢٠/٢٧٠. ولفظ المصنِّف ههنا أقرب إلى عبارة اللباب.

وعنه عليه السلام: «مَن قرأ سورة الطارق أعطاه الله تعالى بعدد كلّ نجم في السماء عشر حسنات».[١]

١ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٩/١٩٦ (الطارق، ١/٨٦)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٤/٤٦٤ (الطارق، ١/٨٦)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٥٥٣. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

سورة الأعلى

مكيّة، وهي تسعَ عشرةَ آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ۝٥﴾

﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ أي: نزِّه اسمه عزّ وجلّ عن الإلحاد فيه بالتأويلات الزائغة، وعن إطلاقه على غيره بوجه يُشعِر بتشاركهما فيه، وعن ذِكره لا على وجه الإعظام والإجلال. و﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ إمّا صفة للربّ، وهو الأظهرُ، أو للاسم. وقُرئ: "سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى".[1] وفي الحديث: لمّا نزلت ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الواقعة، ٧٤/٥٦] قال عليه السلام: «اجعلوها في ركوعكم»، فلمّا نزل ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم».[2] وكانوا يقولون في الركوع: «اللّٰهمّ لك ركعتُ»، وفي السجود: «اللّٰهمّ لك سجدتُ».[3]

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ صفة أخرى للربّ على الوجه الأوّل، ومنصوب على المدح على الثاني، لئلّا يلزَم الفصل بين الموصوف والصفة بصفة غيره، أي: خلق كلّ شيء فسوّى خَلْقه، بأن جَعَل له ما به يتأتّى كماله ويتسنّى معاشه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي قَدَّرَ﴾ إمّا صفة أخرى للربّ كالموصول الأوّل، أو معطوف عليه، وكذا حال ما بعده، أي: قدّر أجناسَ الأشياء وأنواعها وأفرادها

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب وعمرَ بن الخطّاب وأُبيّ بن كعب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٢؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩١١.

٢ مسند أحمد، ٦٣٠/٢٨ (١٧٤١٤)؛ سنن ابن ماجه، ٥٧/٢ (٨٨٧)؛ سنن أبي داود، ١٥١/٢ (٨٦٩)؛ معالم التنزيل للبغوي، ٢٧/٨ (الواقعة، ٩٦/٥٦)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٥٤/٤.

٣ طرف حديث في مسند أحمد، ١٣٢/٢ (٧٢٩)؛ وسنن أبي داود، ٧٣/٢ (٧٦٠)؛ وسنن الترمذي، ٤٨٥/٥ (٣٤٢١)؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٥٤/٤.

ومقاديرها وصفاتِها وأفعالها وآجالها. ﴿فَهَدَىٰ﴾ أي: فوجّه كلّ واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغي له طبعًا واختيارًا، ويسّره لِما خُلِق له بخَلْق الميول والإلهامات ونَصْب الدلائل وإنزال الآيات. ولو تتبّعتَ أحوال النباتات والحيوانات لرأيتَ في كلّ منها ما يحار فيه العقول.

يُحكى أنّ الأفعى إذا بلغت ألف سنةٍ عميَت وقد ألهمها الله تعالى أنّ مَسْح عينها بورقِ الرَّازِيانج الغضِّ يردّ إليها بصرها، فربّما كانت عند عُروض العمى لها في بَرّيّة بينها وبين الريف مسافة طويلة فتطويها حتّى تهجم في بعض البساتين على شجرة الرَّازِيانج لا تخطئها فتحكّ عينها بورقها، وترجع باصرةً بإذن الله عزّ وجلّ.

[٢٩١و] ويروى أنّ التمساح لا يكون له دُبر وإنّما يُخرِج فضلاتِ ما يأكله / مِن فمه حيث قيّض الله تعالى له طائرًا قُدِّر غذاؤه مِن ذلك، فإذا رآه التمساح يفتح فمه فيدخله الطائر فيأكل ما فيه، وقد خَلَق الله تعالى له مِن فوق منقاره ومن تحته قَرْنَين لئلّا يُطبق عليه التمساح فمَه.

هذا وأمّا فنون هداياته سبحانه وتعالى للإنسان مِن حيث الجسميّةُ ومن حيث الحيوانيّةُ لا سيّما مِن حيث الإنسانيّةُ فممّا لا يحيط به فَلَك العبارةِ والتحريرِ ولا يعلمه إلّا العليم الخبير.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ أي: أنبت ما يرعاه الدوابّ غضًّا طريًّا يرِفّ.

﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ بعد ذلك ﴿غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ أي: دَرينًا[1] أسودَ. وقيل: ﴿أَحْوَىٰ﴾ حال مِن المرعى، أي: أخرجه أحوى مِن شدّة الخُضرة والرِّيّ، فجعلَه غُثاءً بعد ذلك.

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾

وقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ بيان لهدايته تعالى الخاصّة برسول الله

---

[1] الدُّرين والدُّرانة: يبيس الحشيش، وحُطام المرعى إذا قدُم. لسان العرب لابن منظور، «درين».

صلّى الله عليه وسلّم إثرَ بيان هدايته العامّة لكافّة مخلوقاته، وهي هدايته عليه السلام لتلقّي الوحي وحِفظ القرآن الذي هو هدًى للعالمين، وتوفيقُه عليه السلام لهداية الناس أجمعين.

و"السين" إمّا للتأكيد وإمّا لأنّ المراد إقراءُ ما أُوحيَ إليه حينئذ وما سيُوحى إليه بعدَ ذلك، فهو وعد كريم باستمرار الوحي في ضمن الوعد بالإقراء، أي: سنُقرئك ما نُوحي إليك الآن وفيما بعدُ على لسان جبريلَ عليه السلام، أو سنجعلك قارئًا بإلهام القراءة فلا تنسى أصلًا مِن قوّة الحفظ والإتقان مع أنّك أمّيّ لا تدري ما الكتاب وما القراءة، ليكون ذلك آيةً أخرى لك مع ما في تضاعيف ما تقرؤه مِن الآيات البيّنات مِن حيث الإعجازُ ومن حيث الإخبارُ بالمغيَّبات. وقيل: ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ نهيٌ، و"الألف" لمراعاة الفاصلة، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب، ٦٧/٣٣].[١]

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ المفاعيل، أي: لا تنسى ممّا تقرؤه شيئًا مِن الأشياء إلّا ما شاء الله أن تنساه أبدًا بأن نسَخ تلاوته. والالتفاتُ إلى الاسم الجليل لتربية المَهابة والإيذان بدوران المشيئة على عنوان الألوهيّة المستتبعة لسائر الصفات.

وقيل: المراد به النسيان في الجملة على القلّة والنُّدرة،[٢] كما روي أنّه صلّى الله عليه وسلّم أسقطَ آيةً في قراءته / في الصلاة، فحسب أُبيّ أنّها نُسخت فسأله فقال عليه السلام «نسيتُها».[٣] وقيل: نفى النسيان رأسًا، فإنّ القِلّة قد تُستعمَل في النفي،[٤] فالمراد بالنسيان حينئذ النسيان بالكلّيّة؛ إذ هو المنفيّ رأسًا لا ما قد يُنسى ثمّ يُذكَر. [٢٩١ظ]

﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ تعليل لِما قبله، أي: يعلم ما ظهر وما بطن مِن الأمور التي مِن جملتها ما أوحى إليك فيُنسي ما يشاء إنساءَه ويُبقي محفوظًا ما يشاء إبقاءَه لِما نيط بكلّ منهما مِن مصالح دينكم.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٥٥/٤.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٥٥/٤.

٣ مسند أحمد، ٨٠/٢٤ (١٥٣٦٥)؛ صحيح ابن خزيمة، ٧٣/٣ (١٦٤٧).

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٥٥/٤.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ عطفٌ على ﴿نُقْرِئُكَ﴾،[١] كما ينبئ عنه الالتفاتُ إلى الحكاية، وما بينهما اعتراضٌ وارد لِما ذُكر مِن التعليل. وتعليق التيسير به عليه السلام مع أنّ الشائع تعليقه بالأمور المسخَّرة للفاعل كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِى﴾ [طه، ٢٦/٢٠] للإيذان بقوّة تمكينه عليه السلام مِن اليُسرى والتصرّف فيها بحيث صار ذلك مَلَكةً راسخةً له كأنّه عليه السلام جُبل عليها، كما في قوله عليه السلام: «اعملوا فكلّ مُيسَّر لِما خُلق له».[٢]

أي: نوفِّقك توفيقًا مستمِرًّا للطريقة اليُسرى في كلّ باب مِن أبواب الدِّين عِلمًا وتعليمًا واهتداءً وهدايةً، فيندرج فيه تيسير طريق تلقّي الوحي والإحاطة بما فيه مِن أحكام الشريعة السمحة والنواميس الإلهيّة ممّا يتعلّق بتكميل نفسه عليه السلام وتكميل غيره، كما يُفصح عنه "الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: فذكِّر الناس حسبما يسَّرناك له بما يُوحى إليك واهدِهم إلى ما في تضاعيفه مِن الأحكام الشرعيّة، كما كنتَ تفعله، لا بعد ما استتبّ لك الأمر كما قيل.[٣]

وتقييد التذكير بنَفْع الذكرى لِما أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم طالما كان يُذكِّرهم ويستفرغ فيه غايةَ المجهود ويتجاوز في الجدّ كلّ حدّ معهود حرصًا على إيمانهم، وما كان يزيد ذلك لبعضهم إلّا كفرًا وعِنادًا فأُمر عليه السلام بأن يخصّ التذكير بموادّ النفع في الجملة، بأن يكون مَن يذكِّره كلًّا أو بعضًا ممّن يرجى منه التذكّر ولا يُتعِب نفسه في تذكير مَن لا يورثه التذكير إلّا عتوًّا ونفورًا مِن المطبوع على قلوبهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق، ٤٥/٥٠]، وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [النجم، ٢٩/٥٣].

وقيل: هو ذمّ للمذكَّرين وإخبارٌ عن حالهم، واستبعادٌ لتأثير التذكير فيهم،[٤] وتسجيلٌ عليهم بالطبع على قلوبهم، كقولك للواعظ: "عِظِ المَكّاسين / إن سمعوا منك" قصدًا إلى أنّه ممّا لا يكون. [٢٩٢و]

---

١ في الآية السادسة مِن هذه السورة.

٢ صحيح البخاري، ١٧١/٦ (٤٩٤٩)؛ صحيح مسلم، ٢٠٤٠/٤ (٢٦٤٧).

٣ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٢٤/٣.

٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٢٤/٣.

والأوّل أنسبُ، لقوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ أي: سيتذكّر بتذكيرك مَن مِن شأنه أن يخشى الله تعالى حقّ خشيته أو مَن يخشى الله تعالى في الجملة، فيزداد ذلك بالتذكير فيتفكّر في أمر ما تذكّر به فيقف على حقّيّته فيؤمن به.

وقيل: ﴿إن﴾ بمعنى "إذ"، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران، ١٣٩/٣]، أي: إذ كنتم. وقيل: هي بمعنى "ما"، أي: فذكِّر ما نفَعت الذكرى، فإنّها لا تخلو عن نفع بكلّ حال. وقيل: هناك محذوف، فالتقدير: إن نفَعت الذكرى وإن لم تنفع، كقوله تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل، ٨١/١٦]. قاله الفرّاء والنَّحّاس والجُرجاني والزهراوي.[١]

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أي: الذكرى ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ مِن الكفَرة لتوغُّله في عداوة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة وعُتبة بن ربيعة.[٢]

﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي: الطبقة السفلى مِن طبقات النار. وقيل: الكبرى نار جهنّم والصغرى نار الدنيا،[٣] لقوله عليه السلام: «ناركم هذه جزء مِن سبعين جزءًا مِن نار جهنّم».[٤]

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ حتّى يستريح ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياةً تنفعه، و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في مراتب الشِّدّة لأنّ التردّد بين الموت والحياة أفظع مِن الصِّليّ.

﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ أي: نجا مِن المكروه وظفر بما يرجوه ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: تطهَّر مِن الكفر والمعاصي بتذكّره واتّعاظه بالذكرى، أو تكثَّر مِن التقوى والخشية مِن "الزَّكاء" وهو النماء. وقيل: تطهَّر للصلاة. وقيل: "تزكّى" تفعّل مِن "الزكاة".[٥] وكلمة ﴿قَدْ﴾ لِما أنّ عند الإخبارِ بسوء حال المتجنِّب عن الذكرى في الآخرة يتوقَّع السامع الإخبارَ بحسن حالِ المتذكِّر فيها وينتظره.

---

١ هذه الأقوال الثلاثة في اللباب لابن عادل، ٢٨٢/٢٠. والوجه الأخير ذكره النَّحّاس في إعراب القرآن، ٢٠٦/٥، ولم أجده في معاني القرآن للفرّاء، والذي في تفسير درج الدُّرر المنسوب إلى الجرجاني، ٧١/٤، أنّ ﴿إن﴾ بمعنى "قد".

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٥٦/٤.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٥٦/٤.

٤ بلفظ قريب في مسند أحمد، ٢٨٠/١٢ (٧٣٢٧)؛ وصحيح مسلم، ٢١٨٤/٤ (٢٨٤٣)؛ وسنن ابن ماجه، ٣٧٠/٥ (٤٣١٨)؛ وسنن الترمذي، ٧٠٩/٤ (٢٥٨٩).

٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٥٦/٤.

﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾ بقلبه ولسانه ﴿فَصَلَّىٰ﴾ أقام الصلوات الخمس، كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه، ١٤/٢٠]، أي: كبّر تكبيرة الافتتاح فصلّى. وقيل: ﴿تَزَكَّىٰ﴾، أي: تصدّق صدقة الفطر.[١] ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾، أي: كبّره يوم العيد فصلّى، أي: صلاته.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ إضراب عن مقدَّر ينساق إليه الكلام، كأنّه قيل إثر بيان ما يؤدّي / إلى الفلاح: لا تفعلون ذلك؛ بل تُؤثِرون اللذّات العاجلة الفانية فتَسْعون لتحصيلها. والخطاب إمّا للكفَرة فالمراد بإيثار الحياة الدنيا هو الرضا والاطمئنان بها والإعراضُ عن الآخرة بالكلّيّة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ الآية [يونس، ٧/١٠]، أو للكلّ فالمراد بإيثارها ما هو أعمّ ممّا ذُكر وما لا يخلو عنه الناس غالبًا مِن ترجيح جانب الدنيا على الآخرة في السعي وترتيب المبادي. والالتفات على الأوّل لتشديد التوبيخ وعلى الثاني كذلك في حقّ الكفرة وتشديد العتاب في حقّ المسلمين. وقُرِئ: "يُؤْثِرُونَ"[٢] بـ"الياء". [٢٩٢ظ]

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ حال مِن فاعل ﴿تُؤْثِرُونَ﴾ مؤكِّدة للتوبيخ والعِتاب، أي: تؤثِرونها على الآخرة، والحال أنّ الآخرة خير في نفسها لِما أنّ نعيمها مع كونه في غاية ما يكون مِن اللذّة خالص عن شائبة الغائلة أبديّ لا انصرام له. وعدمُ التعرّض لبيان تكدُّر نعيم الدنيا بالمنغِّصات وانقطاعِه عمّا قليل لغاية ظهوره.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾.[٣] وقيل: إلى ما في السورة جميعًا.[٤] ﴿لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: ثابت فيها معناه.

---

١ مرويّ عن أبي سعيد الخُدري وعليّ بن أبي طالب في معالم التنزيل للبغوي، ٤٠٢/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٥٦/٤.

٢ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب بخلاف عنه. النشر لابن الجزري، ٤٠٠/٢.

٣ في الآية الرابعة عشرة مِن هذه السورة.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٥٦/٤.

﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ بدل مِن ﴿ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾، وفي إبهامها ووصفِها بالقِدم ثمّ بيانها وتفسيرها مِن تفخيم شأنها ما لا يخفى. رُوي أنّ جميع ما أنزلَ الله عزّ وجلّ مِن كتاب مائة وأربعة كتب، أنزل على آدمَ عليه السلام عشرَ صُحف وعلى شيث خمسين صحيفةً وعلى إدريسَ ثلاثين صحيفةً وعلى إبراهيمَ عشر صحائفَ عليهم السلام والتوراةَ والإنجيلَ والزبورَ والفرقانَ.[١]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الأعلى أعطاه الله تعالى عشرَ حسنات بعدد كلّ حرف أنزله الله تعالى على إبراهيمَ وموسى ومحمّد عليهم السّلام».[٢]

---

١ جزء مِن حديث طويل بلفظ قريب في صحيح ابن حبّان، ٧٧/٢ (٣٦١)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٤٤/٤ (٢١٥٥)؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٥٦/٤.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٢٨/٢٩ (الأعلى، ١/٨٧)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٦٨/٤ (الأعلى، ١/٨٧)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٥٧/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة الغاشية

مكّيّة، وهي ستّ وعشرون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ① وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ② عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ③ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ④ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ⑤ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ⑥ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ⑦﴾

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ قيل: ﴿هَلْ﴾ بمعنى "قد"، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ الآية [الإنسان، ١/٧٦]، قال قُطرُب: أي: قد جاءك يا محمّد حديث الغاشية.[1] وليس بذاك؛ بل هو استفهام أريدَ به التعجيب ممّا في حيّزه والتشويق إلى استماعه والإشعار / بأنّه مِن الأحاديث البديعة التي حقُّها أن يتناقلها الرواة ويتنافس في تلقّيها الوُعاة مِن كلّ حاضر وبادٍ. [٢٩٣و]

والغاشية: الداهية الشديدة التي تغشى الناس بشدائدها وتكتنفهم بأهوالها وهي القيامة مِن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾... إلخ [العنكبوت، ٥٥/٢٩]. وقيل: هي النار مِن قوله تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [ابراهيم، ٥٠/١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف، ٤١/٧].[2] والأوّل هو الحقّ فإنّ ما سيُروى مِن حديثها ليس مختصًّا بالنار وأهلها؛ بل ناطق بأحوال أهل الجنّة أيضًا.

وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾[3] استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ مِن الاستفهام التشويقيّ، كأنّه قيل: مِن جهته عليه السلام: ما أتاني حديثها، ما هو؟ فقيل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم إذ غشيَت ذليلة.

---

[1] القول في اللباب لابن عادل، ٢٨٩/٢٠.

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٥٨/٤.

[3] في الآية السادسة عشرة مِن هذه السورة.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: لم يكن أتاه عليه السلام حديثُها فأخبره عليه السلام عنها فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ﴾... إلخ،[١] ف﴿وُجُوهٌ﴾ مبتدأ، ولا بأس بتنكيرها؛ لأنّها في موضع التنويع، و﴿خَٰشِعَةٌ﴾ خبره.

وقوله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ خبران آخران ل﴿وُجُوهٌ﴾ إذ المراد بها أصحابها، أي: تعمل أعمالًا شاقّةً تتعب فيها وهي جرّ السلاسل والأغلال والخوضُ في النار خوضَ الإبل في الوحل والصعودُ والهبوط في تلال النار ووِهادِها. وقيل: عملت في الدنيا أعمالَ السوء والتذّت بها فهي يومئذ في نَصَب منها. وقيل: عَمِلت ونَصِبت في أعمال لا تجدي عليها في الآخرة.[٢]

وقوله تعالى: ﴿تَصۡلَىٰ﴾ أي: تدخل ﴿نَارًا حَامِيَةً﴾ أي: متناهيةً في الحرّ، خبر آخرُ ل﴿وُجُوهٌ﴾. وقيل: هو الخبر وما قبله صفات ل﴿وُجُوهٌ﴾.[٣] وقد مرّ غيرَ مرّة أنّ الصفة حقُّها أن تكون معلومة الانتساب إلى الموصوف عند السامع قبل جَعْلها صفةً له، ولا ريبَ في أنّ صُليَّ النار وما قبله مِن الخشوع والعمل والنَّصَب أمور متساوية في الانتساب إلى الوجوه معرفةً وجهالةً، فجعلُ بعضِها عنوانًا للموضوع قيدًا مفروغًا عنه غيرَ مقصود الإفادة وبعضِها مَناطًا للإفادة تحكّمٌ بحت. ويجوز أن يكون هذا وما بعده / مِن الجملتين استئنافًا مبيّنًا لتفاصيل أحوالها. [٢٩٣ظ]

﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٍ﴾ أي: متناهية في الحَرّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن، ٥٥/٤٤].

﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ بيان لطعامهم إثر بيان شرابهم. والضريع: يبيس الشِّبْرِق، وهو شوك ترعاه الإبل ما دام رطبًا وإذا يبس تحامته، وهو سمّ قاتل.[٤] وقيل: هي شجرة ناريّة تشبه الضريع.[٥] وقال ابن كَيْسان: هو طعام يضرعون عنده ويذِلّون ويتضرّعون إلى الله تعالى طلبًا للخلاص منه، فسمّي بذلك.[٦] وهذا طعام لبعض أهل النار، والزّقوم والغِسلين لآخرين.

---

١ لم أجده في مظانّه. وهو في اللباب لابن عادل، ٢٠/٢٩٠.

٢ القولان في اللباب لابن عادل، ٢٠/٢٩٠.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ٢٠/٢٩١.

٤ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٥٨.

٥ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٥٢٦-٥٢٧.

٦ نقله عنه ابن عادل في اللباب، ٢٠/٢٩٦.

﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ أي: ليس مِن شأنه الإسمان والإشباع كما هو شأن طعام الدنيا، وإنّما هو شيء يُضطرّون إلى أكله مِن غير أن يكون له دَفْع لضرورتهم، لكن لا على أنّ لهم استعدادًا للشِّبع والسِّمن إلّا أنّه لا يفيدهم شيئًا منهما؛ بل على أنّه لا استعداد مِن جهتهم ولا إفادة مِن جهة طعامهم.

وتحقيق ذلك أنّ جوعهم وعطشهم ليسا مِن قبيل ما هو المعهود منهما في هذه النشأة مِن حالة عارضة للإنسان عند استدعاء الطبيعة لبدل ما يتحلَّل مِن البدن مُشوِّقةٍ له إلى المطعوم والمشروب، بحيث يلتذّ بهما عند الأكل والشرب ويستغني بهما عن غيرهما عند استقرارهما في المَعدَة ويستفيد منهما قوّةً وسِمنًا عند انهضامهما؛ بل جوعهم عبارة عن اضطرارهم عند اضطرام النار في أحشائهم إلى إدخال شيء كثيف يملؤها ويخرج ما فيها مِن اللهب، وأمّا أن يكون لهم شوق إلى مطعوم ما أو التذاذٌ به عند الأكل واستغناء به عن الغير أو استفادةُ قوّةٍ فهيهات.

وكذا عطشُهم عبارة عن اضطرارهم عند أكل الضريع والتهابه في بطونهم إلى شيء مائع بارد يطفئه مِن غير أن يكون لهم التذاذ بشربه أو استفادةُ قوّة به في الجملة، وهو المعنيّ بما رُوي أنّه تعالى يسلّط عليهم الجوع بحيث يضطرّهم إلى أكل الضريع، فإذا أكلوه يسلِّط عليهم العطش فيضطرّهم إلى شُرب الحميم فيشوي / وجوهَهم ويُقطِّع أمعاءهم. [٢٩٤و]

وتنكير الجوع للتحقير، أي: لا يغني مِن جوعٍ ما. وتأخيرُ نفي الإغناء منه لمراعاة الفواصل والتوسّل به إلى التصريح ينفي كلا الأمرين؛ إذ لو قُدِّم لَمَا احتيج إلى ذِكر نفي الإسمان ضرورةَ استلزام نفي الإغناء عن الجوع إيّاه بخلاف العكس، ولذلك كُرِّر ﴿لَا﴾ لتأكيد النفي.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾

وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ شروع في رواية حديث أهل الجنّة. وتقديمُ حكاية حال أهل النار لأنّه أدخَل في تهويل الغاشية وتفخيم حديثها،

ولأنّ حكاية حُسن حال أهل الجنّة بعد حكاية سوء حال أهل النار ممّا يزيد المحكيّ حسنًا وبهجةً. والكلام في إعراب الجملة كالذي مرّ في نظيرتها، وإنّما لم تُعطَف عليها إيذانًا بكمال تباين مضمونيهما. ومعنى ناعمة ذات بهجة وحُسن، كقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين، ٢٤/٨٣]، أو متنعِّمة.

﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ أي: لعملها الذي عمِلته في الدنيا حيث شاهدت ثمرتَه.

﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ مرتفعة المحلّ أو عليّة المقدار.

﴿لَّا تَسْمَعُ﴾ أي: أنت أو الوجوه ﴿فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ لغوًا، أو كلمةً ذات لغو، أو نفسًا تلغو، فإنّ كلام أهل الجنّة كلّه أذكار وحِكم. وقُرئ: "لَا يُسمَع" على البناء للمفعول بـ"الياء"[1] و"التاء"[2] ورفع "لَاغِيَةٌ".

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أي: عيون كثيرة[3] تجري مياهها، كقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ [التكوير، ١٤/٨١].

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ رفيعة السَّمك أو المِقدار ﴿وَأَكْوَابٌ﴾ جمع كوب: وهو إناء لا عُروةَ له ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ أي: بين أيديهم، ﴿وَنَمَارِقُ﴾ وسائد، جمع "نمرقة" بالفتح والضمّ، ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ بعضها إلى بعض ﴿وَزَرَابِىُّ﴾ أي: بُسُط فاخرة جمع زِربيّة ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ أي: مبسوطة.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ استئناف مسوق لتقرير ما فُصِل مِن حديث الغاشية وما هو مبنيّ عليه مِن البعث الذي هم فيه مختلفون بالاستشهاد عليه

---

[1] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ورُوَيس. النشر لابن الجزري، ٤٠٠/٢.

[2] قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٤٠٠/٢.

[3] في هامش م: فيه إشارة إلى التنوين للتكثير. «منه».

بما لا يستطيعون إنكاره. و"الهمزة" للإنكار والتوبيخ، و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، / وكلمة ﴿كَيْفَ﴾ منصوبة بما بعدها، كما في قوله تعالى: [٢٩٤ظ] ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة، ٢٨/٢] معلَّقة لفعل النظر.

والجملة في حيّز الجرّ على أنّها بدل اشتمال مِن ﴿ٱلْإِبِلِ﴾، أي: أيُنكرون ما ذُكر مِن البعث وأحكامه، ويستبعدون وقوعه مِن قدرة الله عزّ وجلّ؟ فلا ينظرون إلى الإبل التي هي نُصب أعينهم يستعملونها كلّ حين، إلى[1] أنّها كيف خُلقت خلقًا بديعًا معدولًا به عن سَنَن خِلْقَة سائر أنواع الحيوانات؛ في عِظَم جثّتها وشدّةِ قوتها وعجيبِ هيئتها اللائقة بتأتّي ما يصدر عنها مِن الأفاعيل الشاقّة كالنَّوء بالأوقار الثقيلة وجرّ الأثقال الفادحة إلى الأقطار النازحة، وفي صبرها على الجوع والعطش حتّى إنّ أظماءها لتبلُغ العِشر فصاعدًا واكتفائها باليسير ورعيها لكلّ ما تيسَّر مِن شَوك وشجر وغير ذلك ممّا لا يكاد يرعاه سائر البهائم، وفي انقيادها مع ذلك للإنسان في الحركة والسكون والبروك والنهوض حيث يستعملها في ذلك كيفما شاء ويقتادها بقطارها كلّ صغير وكبير.

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ التي يشاهدونها كلّ لحظة بالليل والنهار ﴿كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ رفعًا سحيق المدى بلا عِماد ولا مِساك بحيث لا يناله الفهم والإدراك.

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ﴾ التي ينزلون في أقطارها وينتفعون بمياهها وأشجارها ﴿كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ نصبًا رصينًا فهي راسخة لا تميل ولا تميد.

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ التي يضربون فيها ويتقلّبون عليها ﴿كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ سطحًا بتوطئة وتمهيد وتسوية وتوطيد حسبما يقتضيه صلاح أمور ما عليها مِن الخلائق. وقُرئ: "سُطِّحَتْ"[2] مشدّدًا، وقُرئت الأفعال الأربعة على بناء الفاعل للمتكلّم، وحذفِ الراجع المنصوب.[3] والمعنى أفلا ينظرون نظر التدبّر والاعتبار إلى كيفيّة خَلْق هذه المخلوقات الشاهدة بحقّيّة البعث والنشور ليرجعوا عمّا هم عليه مِن الإنكار والنفور ويسمعوا إنذارك ويستعدّوا للقائه بالإيمان والطاعة.

---

[1] وفي هامش م: بدل مِن قوله: "إلى الإبل". «منه».

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن هارون الرشيد والحسن وسعيد بن جُبير. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٣؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١١.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٣.

[٢٩٥و] و"الفاء" في قوله تعالى: / ﴿فَذَكِّرْ﴾ لترتيب الأمر بالتذكير على ما ينبئ عنه الإنكار السابق مِن عدم النظر، أي: فاقتصر على التذكير ولا تُلحّ عليهم ولا يُهمنّك أنّهم لا ينظرون ولا يتذكّرون.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ تعليل للأمر.

وقوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ تقرير له وتحقيقٌ لمعنى الإنذار، أي: لست بمتسلِّط عليهم تُجبِرهم على ما تُريد، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق، ٥٠/٤٥]. وقُرئ بـ"السين" على الأصل،[١] وبالإشمام،[٢] وقُرئ بفتح "الطاء".[٣] قيل: هي لغة بني تميم، فإنّ "سيطر" عندهم متعدٍّ، ومنه قولهم: "تسيطَر".[٤]

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ استثناء منقطِع، أي: لكنّ مَن تولّى منهم فإنّ لله تعالى الولايةَ والقهر.

﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ الذي هو عذاب جهنّم. وقيل: استثناء متّصل مِن قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: فذكِّر إلّا مَن انقطع طمعك مِن إيمانه وتولّى فاستحقّ العذاب الأكبر، وما بينهما اعتراضٌ.[٥] ويعضد الأوّل أنّه قُرئ: "أَلَا"[٦] على التنبيه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ تعليل لتعذيبه تعالى بالعذاب الأكبر، أي: إنّ إلينا رجوعَهم بالموت والبعث لا إلى أحد سوانا لا استقلالًا ولا اشتراكًا. وجَمْع الضمير فيه وفيما بعده باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ إفراده فيما سَبَق باعتبار لفظها. وقُرئ: "إِيَّابَهُمْ"[٧] على أنّه "فِيعَال" مصدر "فَيْعَلَ" مِن الإياب، أو "فِعَّال" مِن "أوّب" كـ"فِسَّار" مِن "فَسَّرَ"، ثمّ قيل: "إيوَابًا" كـ"دِيوَان" في "دِوَّان"، ثمّ قُلبت الواو ياءً فأُدغمت الياء الأولى في الثانية.

---

[١] قرأ بها هشام، وقرأ قنبل وابن ذكوان وحفص بالسين والصاد. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٨.

[٢] قرأ بها خلف عن حمزة، وقرأ خلّاد بالإشمام وبالصاد الخالصة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٨.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن قُطيب واليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١١.

[٤] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٦٠.

[٥] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٦٠.

[٦] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وزيد بن أسلم وقتادة وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١١.

[٧] قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٤٠٠.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ في المَحشَر لا على غيرنا، و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الرُّتبة لا في الزمان، فإنّ الترتّب الزماني بين إيَابهم وحسابهم لا بين كون إيَابهم إليه تعالى وحسابهم عليه تعالى، فإنّهما أمران مستمرّان.

وفي تصدير الجملتين بـ﴿إِنَّ﴾ وتقديمِ خبرها وعطفِ الثانية على الأولى بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ المفيدةِ لبُعد منزلة الحساب في الشدّة مِن الإنباء عن غاية السخط الموجِب لتشديد العذاب ما لا يخفى.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الغاشية يُحاسِبه الله تعالى حسابًا يسيرًا».[١]

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٢/٢٩ (الغاشية، ١/٨٨)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٧٣/٤ (الغاشية، ١/٨٨)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٦٠/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

/ سورة الفجر [٢٩٥ظ]

مكيّة، وهي تسع وعشرون أو ثلاثون[١] آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْفَجْرِ ① وَلَيَالٍ عَشْرٍ ② وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ③ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ④ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ⑤ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ⑥ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ⑦ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ⑧ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ⑨ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ⑩ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ⑪ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ⑫ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ⑬ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ⑭﴾

﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ أقسم سبحانه بالفجر كما أقسم بالصبح حيث قال: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير، ١٨/٨١]. وقيل: المراد به صلاتُه.[٢]

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ هنّ عشر ذي الحجّة، ولذلك فُسِّر ﴿ٱلْفَجْرِ﴾ بفجر عرفةَ أو النحر، أو العشر الأواخر مِن رمضان. وتنكيرُها للتفخيم. وقُرئ: "وَلَيَالِ عَشْرٍ"[٣] بالإضافة على أنّ المراد بـ"العشر" الأيّام.

﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ أي: الأشياءِ كلّها شفعِها ووَترها، أو شفعِ هذه الليالي ووَترها، وقد رُوي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فسّرهما بيوم النحر ويوم عرفةَ،[٤] ولقد كثُرت فيهما الأقوال،[٥] والله تعالى أعلم بحقيقة الحال. وقُرئ بكسر "الواو" وهما لغتان كـ"الحَبْر" و"الحِبْر". وقيل:[٦] ﴿ٱلْوَتْرِ﴾ بالفتح في العدد

---

[١] س - أو ثلاثون.

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٦١/٤.

[٣] قراءة شاذّة، غير منسوبة. أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٢٩/٣.

[٤] بلفظ قريب في شعب الإيمان للبيهقي، ٣٠٤/٥ (٣٤٦٨)؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٦١/٤.

[٥] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٦١/٤.

[٦] وفي هامش م: هذا على ما حكى يونس لغة أهل العالية. وفي الصحاح أنّها لغة أهل الحِجاز وأمّا تميم فبالكسر فيهما. «منه». | انظر: الصحاح للجوهري، «وتر».

وبالكسر في الدَّخل.[١] وقُرئ: "وَالوَتِرِ"[٢] بفتح "الواو" وكسرِ "التاء".

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ أي: يمضي كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ [المدثر، ٣٣/٧٤] ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ [التكوير، ١٧/٨١]. والتقييد لِما فيه مِن وضوح الدلالة على كمال القدرة ووفورِ النعمة، أو يُسرى فيه مِن قولهم: "صلّى المقامُ"، أي: صُلّيَ فيه، وحُذِف "الياء" اكتفاءً بالكسر. وقُرئ بإثباتها على الإطلاق[٣] وبحذفها في الوقف خاصّة،[٤] وقُرئ: "يَسْرٍ" بالتنوين كما قُرئ: "والفَجْرٍ"، "والوَتْرٍ"،[٥] وهو التنوين الذي يقع بدلًا مِن حرف الإطلاق.

﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ﴾... إلخ، تحقيقٌ وتقريرٌ لفخامة شأن المقسَم بها وكونِها أمورًا جليلةً حقيقةً بالإعظام والإجلال عند أرباب العقول وتنبيهٌ على أنّ الإقسام بها أمر مُعتدٌّ به خليقٌ بأنْ يؤكَّد به الأخبار، على طريقة قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة، ٧٦/٥٦]. وذلك إشارة إمّا إلى الأمور المقسَم بها والتذكير بتأويل ما ذُكر كما مرّ تحقيقه، أو إلى الإقسام بها. وأيًّا ما كان فما فيه مِن معنى البُعد للإيذان بعُلوّ رتبة المشار إليه وبُعد منزلته في الشرف والفضل، أي: هل فيما ذُكر مِن الأشياء قَسَم، أي: مُقسَم به.

﴿لِّذِي حِجۡرٍ﴾ يراه حقيقًا بأن يُقسَم به إجلالًا وتعظيمًا. والمراد تحقيق أنّ الكلّ كذلك، / وإنّما أُوثِرت هذه الطريقة هضمًا للحقّ وإيذانًا بظهور الأمر. أو هل في إقسامي بتلك الأشياء إقسامٌ لذي حِجْر مقبولٌ عنده يَعتدّ به ويفعل مثلَه ويُؤكّد به المقسَم عليه؟ والحِجْر: العقل؛ لأنّه يحجُر صاحبه، أي: يمنعه مِن التهافت فيما لا ينبغي، كما سُمّي عَقْلًا ونُهْيَةً؛ لأنّه يعقِل ويَنهى، وحصاةً أيضًا [٢٩٦و]

---

[١] وفي هامش م: قال الأصمعي: الدحل: هوّة تكون في الأرض وفي أسافل الأودية، فيها ضِيقٌ ثمّ تتّسع. صحاح. | انظر: **الصحاح** للجوهري، «دحل».

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن هارون ويونس وعديّ، وابن موسى وختن ليث كلاهما عن أبي عمرو. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٩١٧.

[٣] قرأ بها ابن كثير ويعقوب. **النشر** لابن الجزري، ١٨٣/٢.

[٤] قرأ بها ابن عامر والكسائي وحمزة وعاصم وخلف. **النشر** لابن الجزري، ١٨٣/٢.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي الدينار الأعرابي. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٧٣.

مِن الإحصاء وهو الضبط. قال الفرّاء: «يقال: "إنّه لذو حِجر" إذا كان قاهرًا لنفسه ضابطًا لها».[١]

والمُقسَم عليه محذوف وهو "لَيُعَذَّبُنَّ"، كما ينبئ عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾... إلخ، فإنّه استشهاد بعِلمه عليه السلام بما يدلّ عليه مِن تعذيب عاد وأضرابهم المشاركين لقومه عليه السلام في الطغيان والفساد على طريقة قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ الآية [البقرة، ٢٥٨/٢]، وقولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ [الشعراء، ٢٢٥/٢٦]، كأنّه قيل: ألم تعلم علمًا يقينيًّا كيف عذّب ربّك عادًا ونظائرَهم، فيُعذِّب هؤلاء أيضًا لاشتراكهم فيما يُوجِبه مِن الكفر والمعاصي.

والمراد بعاد أولادُ عاد بن عُوص بن إرَمَ بن سام بن نوح عليه السلام قوْمِ هودٍ عليه السلام، سُمُّوا باسم أبيهم كما سمّي بنو هاشم هاشمًا. وقد قيل: لأوائلهم: عاد الأولى ولأواخرهم: عاد الأخيرة.[٢] قال عماد الدين بن كثير: كلّ ما ورد في القرآن خبرُ عادٍ الأولى إلّا ما في سورة الأحقاف.[٣]

وقوله تعالى: ﴿إِرَمَ﴾ عطف بيان لـ﴿عَادٍ﴾ للإيذان بأنّهم عاد الأولى بتقدير مضاف، أي: سبط إرَمَ، أو أهل إرَمَ على ما قيل: مِن أنّ ﴿إِرَمَ﴾ اسم بلدتهم أو أرضهم التي كانوا فيها ويؤيّده القراءة بالإضافة، وأيًّا ما كان فامتناع صرفها للتعريف والتأنيث. وقرئ: "إِرْمَ" بإسكان "الراء" تخفيفًا،[٤] كما قرئ: "بِوَرْقِكُمْ".[٥]

﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ صفة لـ﴿إِرَمَ﴾، أي: ذات القدود الطوال على تشبيه قاماتهم بالأعمدة، ومنه قولهم: "رجل عُمُدٌ وعُمُدانٌ" إذا كان طويلًا، أو ذاتِ الخيام والأعمدة حيث كانوا بدويّين أهلَ عُمُد، أو ذاتِ البناء الرفيع، أو ذاتِ الأساطين، على أنّ ﴿إِرَمَ﴾ اسم بلدتهم. وقُرِئ: "إِرَمِ ذَاتِ العِمَادِ"،[٦] بإضافة ﴿إِرَمَ﴾ إلى ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾.

---

١ معاني القرآن للفرّاء، ٢٦٠/٣؛ ونقله عنه الزمخشري في الكشّاف، ٥٦٢/٤.
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٦٢/٤.
٣ انظر: البداية والنهاية لابن كثير، ٣٠٣/١.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩١٨.
٥ قرأ بها أبو عمرو وحمزة وخلف وأبو بكر ورَوح. النشر لابن الجزري، ٣١٠/٢.
٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الله بن الزُّبير. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٣.

[٢٩٦ظ] والإِرَم: العَلَم، أي: بعادٍ أهل أعلام ذات العماد، / على أنّها اسم بلدتهم. وقرئ: "أَرَمَّ ذَاتَ العِمَادِ"،[١] أي: جعلها الله تعالى رميمًا، بدلٌ مِن ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾. وقيل: هي جملة دعائيّة اعترضت بين الموصوف والصفة.[٢]

ورُوِي أنّه كان لعادٍ ابنان شديد وشدّاد فملكا وقهرا، ثمّ مات شديد وخَلُص الأمر لشدّاد، فمَلَك الدنيا، ودانَت له ملوكها، فسمع بذِكر الجنّة فقال: "أَبْني مثلَها"، فبنى إرَمَ في بعض صحاري عدَن في ثلاثمائة سنةٍ، وهي مدينة عظيمة، قصورها مِن الذهب والفضّة، وأساطينها مِن الزَّبَرجد والياقوت، وفيها أصناف الأشجار والأنهار المطَّردة. ولمّا تمّ بناؤها سار إليها بأهل مملكته، فلمّا كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله تعالى عليهم صيحةً مِن السماء فهلَكوا.

وعن عبد الله بن قِلابةَ أنّه خرج في طلب إبل له فوقَع عليها فحمل ما قدر عليه ممّا ثمّة وبلغ خبرُه معاويةَ فاستحضره فقصّ عليه فبعث إلى كعب فسأله فقال: هي إرَمُ ذات العِماد، وسيدخلها رجل مِن المسلمين في زمانك أحمرُ أشقرُ قصيرٌ، على حاجبه خالٌ وعلى عقِبه خالٌ، يخرج في طَلَب إبل له، ثمّ التفت إلى ابن قِلابةَ فقال: هذا والله ذلك الرجل.[٣]

﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ صفة أخرى لـ﴿إِرَمَ﴾ أي: لم يُخلَق مِثلهم في عِظَم الأجرام والقوّة، حيث كان طُول الرجل منهم أربعمائة ذراع، وكان يأتي الصخرة العظيمة فيحملها ويلقيها على الحيّ فيُهلكهم، أو لم يُخلَق مِثل مدينة شدّاد في جميع بلاد الدنيا. وقُرئ: "لَمْ يَخْلُقْ"[٤] على إسناده إلى الله تعالى.

﴿وَثَمُودَ﴾ عطفٌ على ﴿عَادٍ﴾ وهي قبيلة مشهورة سُمّيت باسم جدّهم ثمودَ أخي جَديس، وهما ابنا عامر بن إرَم بن سام بن نوح عليه السلام وكانوا عربًا

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك وشهر بن حوشب وعُبيد بن عُمير وابن عبّاس. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٣؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩١٩.

[٢] القول في اللباب لابن عادل، ٣١٦/٢٠.

[٣] الخبر كلُّه بزيادة تفصيل في الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٧/٢٩-٣٣١؛ وهو بلفظ جِدّ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٥٦٢/٤.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الزُّبير وعكرمةَ واليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١٢.

مِن العاربة يسكنون الحِجر بين الحِجاز وتبوك، وكانوا يعبدون الأصنام كعاد.

﴿ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ أي: قطعوا صخر الجبال / فاتّخذوا فيها بيوتًا نحتوها مِن الصخر، كقوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [الشعراء، ١٤٩/٢٦]. قيل: هم أوّل مَن نحَت الجبال والصخور والرُّخام، وقد بنَوا ألفًا وسبعمائة مدينةٍ كلّها مِن الحجارة.[١] [٢٩٧و]

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ وُصف بذلك لكثرة جنوده وخيامهم التي يضربونها في منازلهم، أو لتعذيبه بالأوتاد.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ إمّا مجرور على أنّه صفة للمذكورين أو منصوب أو مرفوع على الذمّ، أي: طغى كلّ طائفة منهم في بلادهم، وكذا الكلام في قوله تعالى: ﴿فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ أي: بالكفر وسائر المعاصي.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أنزل إنزالًا شديدًا على كلّ طائفة مِن أولئك الطوائف عَقيب ما فعلَتْ ما فعلت مِن الطغيان والفساد. ﴿رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ أي: عذاب شديد لا يُدرَك غايته، وهو عبارة عمّا حلّ بكلّ منهم مِن فنون العذاب التي شُرحت في سائر السور الكريمة. وتسميتُه سوطًا للإشارة إلى أنّ ذلك بالنسبة إلى ما أُعدّ لهم في الآخرة بمنزلة السوط عند السيف.

والتعبير عن إنزاله بـ"الصبّ" للإيذان بكثرته واستمراره وتتابعه، فإنّه عبارة عن إراقة شيء مائع أو جارٍ مَجراه في السيلان كالرمل والحبوب وإفراغِه بشدّة وكثرةٍ واستمرارٍ. ونسبتُه إلى "السَّوط" مع أنّه ليس مِن ذلك القبيل باعتبار تشبيهه في نزوله المتتابع المتدارك على المضروب بقطرات الشيء المصبوب.

وقيل: السَّوط: خلطُ الشيء بعضِه ببعض، فالمعنى ما خُلط لهم مِن أنواع العذاب.[٢] وقد فُسِّر بالنصيب وبالشدَّة أيضًا؛ لأنّ السَّوط يُطلَق على كلّ منهما لغةً،[٣] فلا حاجةَ حينئذ في تشبيهه بالمصبوب إلى اعتبار تكرُّر تعلُّقه بالمعذَّب، كما في المعنى الأوّل، فإنّ كلّ واحد مِن هذه المعاني ممّا يقبل الاستمرار في نفسه.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٦٣/٤.

٢ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٣١/٣.

٣ الوجهان في اللباب لابن عادل، ٣٢٢/٢٠.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ تعليل لِما قبله وإيذان بأنّ كفّار قومه صلّى الله عليه وسلّم سيُصيبهم مثلُ ما أصاب المذكورين مِن العذاب، كما ينبئ عنه التعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام. وقيل:[1] هو جواب القسَم وما بينهما اعتراضٌ. / والمِرصاد: المكان يترقَّب فيه الرَّصَد،[2] [٢٩٧ظ] "مِفعال" مِن "رَصَده" كـ"المِيقات" مِن "وَقَته". وهذا تمثيل لإرصاده تعالى بالعُصاة وأنّهم لا يفوتونه.

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾... إلخ، متّصل بما قبله، كأنّه قيل: إنّه تعالى بصدَد مراقبة أحوال عباده ومُجازاتهم بأعمالهم خيرًا وشرًّا، فأمّا الإنسان فلا يُهمّه ذلك، وإنّما مَطمَح أنظاره ومَرصَد أفكاره الدنيا ولذائذُها. ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: عامله معاملة مَن يبتليه بالغنى واليسار.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ تفسيريّة، فإنّ الإكرام والتنعيم عين الابتلاء. ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ أي: فضّلني بما أعطاني مِن الجاه والمال حسبما كنتُ أستحقُّه، ولا يخطر بباله أنّه فَضل تفضَّل به عليه ليبلوَه أيشكر أم يكفر، وهو خبر للمبتدأ الذي هو ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، و"الفاء" لِما في ﴿أَمَّا﴾ مِن معنى الشرط، والظرف المتوسّط على نيّة التأخير، كأنّه قيل: فأمّا الإنسان فيقول ربّي أكرمَنِ وقتَ ابتلائه بالإنعام. وإنّما تقديمُه للإيذان مِن أوّل الأمر بأنّ الإكرام والتنعيم بطريق الابتلاء ليتّضح اختلالُ قوله المحكيّ.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾ أي: وأمّا هو إذا ما ابتلاه ربّه ﴿فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ حسبما يقتضيه مشيئته المبنيّة على الحِكَم البالغة، ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ ولا يخطر بباله

---

[1] في هامش م: كواشي. «منه». | الوجه في تفسير الكواشي، ٥٨١ظ.

[2] في هامش م: جمع "راصد". «منه».

أنّ ذلك ليبلوَه أيصبر أم يجزَع مع أنّه ليس مِن الإهانة في شيء؛ بل التقتير قد يؤدّي إلى كرامة الدارين، والتوسِعةُ قد تُفضي إلى خُسرانهما.

وقرئ: "فَقَدَّرَ"[١] بالتشديد، وقرئ: "أَكْرَمَنِي" و"أَهَانَنِي" بإثبات "الياء"،[٢] و"أَكْرَمَنْ" و"أَهَانَنْ"[٣] بسكون "النون" في الوقف.

﴿كَلَّا﴾ ردع للإنسان عن مقالته المحكيّة وتكذيبٌ له فيها في كلتا الحالتين، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: المعنى لم أبتَلِهِ بالغنى لكرامته عليّ، ولم أبتلِه بالفقر لهوانه عليّ؛ بل ذلك لمَحض القضاء والقدر.[٤] وحملُ الردع والتكذيب إلى قوله الأخير[٥] بعيدٌ.

وقوله تعالى: ﴿بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ انتقال مِن بيان سوء أقواله إلى بيان سوءِ أفعاله، والالتفاتُ إلى الخطاب للإيذان باقتضاء ملاحظة جنايته السابقة لمشافهته بالتوبيخ تشديدًا للتقريع وتأكيدًا للتشنيع. / والجمع باعتبار معنى الإنسان؛ إذ المرادُ هو الجنس، أي: بل لكم أحوال أشدّ شرًّا ممّا ذُكر وأدلّ على تهالككم على المال حيث يُكرمكم الله تعالى بكثرة المال، فلا تؤدُّون ما يلزمكم فيه مِن إكرام اليتيم بالمَبرّة به. وقرئ: "لَا يُكْرِمُونَ".[٦] [٢٩٨و]

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾ بحذف إحدى التاءين مِن "تتحاضّون"، أي: لا يحضّ بعضُكم بعضًا ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ أي: على إطعامه. وقُرئ: "تُحَاضُّونَ"[٧] مِن المُحاضّة، وقُرئ: "يَحُضُّونَ" بـ"الياء"[٨] و"التاء".[٩]

---

١ قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٤٠٠/٢.

٢ قرأ البزيّ ويعقوب بإثباتها وصلًا ووقفًا. النشر لابن الجزري، ٤٠٠/٢-٤٠١.

٣ قرأ نافع وأبو جعفر وأبو عمرو بخلاف عنه بإثبات الياء فيهما وصلًا. النشر لابن الجزري، ٤٠٠/٢.

٤ القول عن ابن عبّاس وقتادة بمعناه في **التفسير البسيط** للواحدي، ٥١٠/٢٣؛ وبلا عزو في **معالم التنزيل** للبغوي، ٤٢١/٨؛ وهو بلفظه عن ابن عبّاس في **اللباب** لابن عادل، ٣٢٧/٢٠.

٥ ما وقفتُ على هذا الوجه فيما بين يديّ مِن المظانّ.

٦ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب سوى الزُّبيري عن رَوح. النشر لابن الجزري، ٤٠٠/٢.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى الشّيرزي وخلف عن الكسائي وأبي بشر عن عامر. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٥١٣؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٩٢٠.

٨ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب سوى الزبيري عن رَوح. النشر لابن الجزري، ٤٠٠/٢.

٩ قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر والزبيري عن رَوح. النشر لابن الجزري، ٤٠٠/٢.

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ أي: المِيراث، وأصله "وُرَاث"، ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي: ذا لَمٍّ، أي: جَمْع بين الحلال والحرام، فإنّهم كانوا لا يورِّثون النساء والصبيان ويأكلون أنصباءَهم، أو يأكلون ما جَمَعه المورث مِن حلال وحرام عالمين بذلك.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ كثيرًا مع حرص وشَرَهٍ. وقُرئ: "وَيُحِبُّونَ"[1] بـ"الياء".

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿كَلَّآ﴾ ردع لهم عن ذلك، وقوله تعالى: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾... إلخ استئناف جيء به بطريق الوعيد تعليلًا للردع، أي: إذا دُكَّت الأرض دَكًّا متتابعًا حتّى انكسر وذهب كلّ ما على وجهها مِن جبال وأبنية وقصور حين زُلزِلت وصارت هباءً منبثًّا. وقيل: الدكّ: حطّ المرتفع بالبسط والتسوية،[2] فالمعنى إذا سُوِّيت تسويةً بعد تسوية ولم يبقَ على وجهها شيء حتّى صارت كالصخرة الملساء، وأيًّا ما كان فهو عبارة عمّا عَرَض لها عند النفخة الثانية.

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي: ظهرت آيات قُدرته وآثار قَهْره، مُثِّل ذلك بما يظهر عند حضور السلطان مِن أحكام هيبته وسياسته. وقيل: جاء أمرُه تعالى وقضاؤه، على حذف المضاف للتهويل.[3]

﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي: مصطفِّين أو ذوي صفوف، فإنّه ينزل يومئذ ملائكة كلّ سماء فيصطفُّون صفًّا بعد صفّ بحسب منازلهم ومراتبهم محدِقين بالجنّ والإنس.

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ [الشعراء، ٩١/٢٦]. قال ابن مسعود ومقاتل: «تُقاد جهنّم بسبعين ألف زمام، كلُّ زمام / معه سبعون ألف مَلَك [٢٩٨ظ]

---

١ قرأ بها أبو عمرو ويعقوب سوى الزُّبيري عن رَوح. النشر لابن الجزري، ٤٠٠/٢.

٢ القول في اللباب لابن عادل، ٣٣٠/٢٠.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ٣٣١/٢٠، وعزاه إلى الحسن.

يجرُّونها حتّى تُنصَب عن يسار العرش لها تغيُّظ وزفيرٌ».[١] وقد رواه[٢] مسلم في **صحيحه** عن ابن مسعود مرفوعًا.

﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ بدل مِن ﴿إِذَا دُكَّتِ﴾ والعامل فيهما قوله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أي: يتذكّر ما فرّط فيه بتفاصيله بمشاهدة آثاره وأحكامه أو بمعاينة عينه، على أنّ الأعمال تتجسّم في النشأة الآخرة، فيبرز كلّ مِن الحسنات والسيّئات بما يُناسبها مِن الصور الحسنة والقبيحة أو يتّعظ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ اعتراض جيء به لتحقيق أنّه ليس يتذكّر حقيقةً لعرائه عن الجدوى بعدم وقوعه في أوانه، و﴿أَنَّىٰ﴾ خبر مقدَّم، و﴿ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ مبتدأ، و﴿لَهُ﴾ متعلِّق بما تعلَّق به الخبرُ، أي: ومِن أين يكون له الذكرى وقد فات أوانها. وقيل: هناك مضاف محذوف،[٣] أي: وأنّى له منفعةُ الذكرى.[٤]

والاستدلال به على عدم وجوبِ قَبول التوبة في دار التكليف[٥] ممّا لا وجهَ له، على أنّ تذكّره ليس مِن التوبة في شيء، فإنّه عالم بأنّها إنّما تكون في الدنيا كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾، وهو بدل اشتمال مِن ﴿يَتَذَكَّرُ﴾، أو استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ منه، كأنّه قيل: ماذا يقول عند تذكُّره، فقيل: يقول:[٦] يا ليتني عمِلت لأجل حياتي هذه أو وقتَ حياتي في الدنيا أعمالًا صالحةً أنتفع بها اليوم. وليس في هذا التمنّي شائبةُ دلالةٍ على استقلال العبد بفعله، وإنّما الذي يدلّ عليه ذلك اعتقاد كونه متمكِّنًا مِن تقديم الأعمال الصالحة، وأمّا أنّ ذلك بمَحض قُدرته[٧] أو بخَلْق الله تعالى عند صَرْف قدرته الكاسبة إليه فكلّا.

وأمّا ما قيل مِن أنّ المحجور قد يتمنّى إن كان ممكنًا منه،[٨] فربّما يُوهِم أنّ مَن صَرَف قدرته إلى أحد طرفَي الفعل يعتقد أنّه محجور مِن الطرف الآخر.

---

١ بلفظ قريب في صحيح مسلم، ٢١٨٤/٤ (٢٨٤٢)؛ وسنن الترمذي، ٧٠١/٤ (٢٥٧٣).

٢ في هامش م: لباب. | والكلام في اللباب لابن عادل، ٣٣٢/٢٠.

٣ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٦٦/٤.

٤ التقدير في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٣٢/٣.

٥ نُقل هذا الاستدلال في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٣٢/٣.

٦ س – يقول.

٧ س + تعالى.

٨ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٣٢/٣.

وليس كذلك؛ بل كلّ أحد جازم بأنّه لو صَرَف قدرته إلى أيّ طرف كان مِن أفعاله الاختياريّة لحَصَل، وعلى هذا يدور / فَلَك التكليف وإلزامُ الحجّة. [٢٩٩و]

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ يكون ما ذُكر مِن الأحوال والأقوال ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ "الهاء" لله تعالى، أي: لا يتولّى عذابَ الله تعالى ووثاقه أحد سواه؛ إذ الأمر كلّه له أو للإنسان، أي: لا يعذِّب أحدٌ مِن الزبانية مثلَ ما يُعذِّبونه. وقُرئ الفعلان على البناء للمفعول، والضمير للإنسان أيضًا.

وقيل: المراد به أُبيّ بن خَلَف، أي: لا يُعذَّب أحدٌ مثلَ عذابه، ولا يُوثَق بالسلاسل والأغلال مثلَ وَثاقه لتناهيه في الكفر والعِناد.[١] وقيل: لا يُحمَّل عذابَ الإنسان أحدٌ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام، ١٦٤/٦].[٢]

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ حكاية لأحوال مَن اطمأنّ بذِكر الله عزّ وجلّ وطاعته إثر حكاية أحوال مَن اطمأنّ بالدنيا، وُصِفت بالاطمئنان؛ لأنّها تترقّى في معارج الأسباب والمسبَّبات إلى المبدأ المؤثِّر بالذات فتستقرّ دون معرفته وتستغني به في وجودها وسائر شئونها عن غيرها بالكلّيّة.

وقيل: هي النفس المؤمنة المطمئنّة إلى الحقّ الواصلة إلى ثَلَج اليقين، بحيث لا يُخالِجها شكّ ما. وقيل: هي الآمنة التي لا يستفزُّها خوف ولا حَزَن،[٣] ويؤيِّده أنّه قُرئ: "يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الآمِنَةُ المُطْمَئِنَّةُ"،[٤] أي: يقول الله تعالى ذلك بالذات كما كلّم موسى عليه السلام، أو على لسان المَلَك عند تمام حساب الناس. وهو الأظهر. وقيل: عند البعث. وقيل: عند الموت.[٥]

---

١ القول في معالم التنزيل للبغوي، ١٤٢٣/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٦٦/٤.

٢ الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٥٦٦/٤.

٣ القولان في معالم التنزيل للبغوي، ١٤٢٣/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٦٦/٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٤.

٥ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٦٦/٤.

﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ أي: إلى موعده أو إلى أمره ﴿رَاضِيَةً﴾ بما أُوتيت مِن النعيم المقيم ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ عند الله عزّ وجلّ.

﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ في زمرة عبادي الصالحين المختصّين بي.

﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ معهم أو انتظمي في سِلك المقرَّبين واستضيئي بأنوارهم، فإنّ الجواهر القدسيّة كالمرايا المتقابلة. وقيل: المراد بـ﴿ٱلنَّفْسُ﴾ الروح، والمعنى فادخلي أجساد عبادي التي فارقتِ عنها / وادخلي دارَ ثوابي.[1] وهذا [٢٩٩ظ] يؤيّد كون الخطاب عند البعث. وقُرئ: "فَادْخُلِي فِي عَبْدِي"،[2] وقُرئ: "فِي جَسَدِ عَبْدِي".[3] وقيل: نزلت في حمزةَ بن عبد المطلب. وقيل: في خُبَيْب بن عَديّ رضي الله عنهما. والظاهر العموم.[4]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الفجر في الليالي العَشر غُفر له، ومَن قرأها في سائر الأيّام كانت له نورًا يوم القيامة».[5]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٦٦؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٥٣٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٤.

٤ القولان وترجيح العموم في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٦٦.

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩/٢٩٠ (الفجر، ١/٨٩)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤/٤٧٨ (الفجر، ١/٨٩)؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٦٦. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

سورة البلد

مكيّة، وهي عشرون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤﴾

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ أقسمَ سبحانه بالبلد الحرام وبما عُطِف عليه على أنّ الإنسان خُلق ممنوًّا بمقاساة الشدائد ومعاناة المشاقّ. واعتُرض بين القسم وجوابه بقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ إمّا لتشريفه صلّى الله عليه وسلّم بجَعْل حُلوله عليه السلام به مَناطًا لإعظامه بالإقسام به، أو التنبيهِ[1] مِن أوّل الأمر على تحقّق مضمون الجواب بذِكر بعض موادّ المكابدة على نهج براعة الاستهلال، وبيانِ أنّه عليه السلام مع جلالة قدره وعِظَم حُرمته قد استحلّوه في هذا البلد الحرام وتعرَّضوا له بما لا خيرَ فيه وهمّوا بما لم ينالوا. عن شُرحبيل: يُحرِّمون أن يقتلوا بها صيدًا ويعضِدوا بها شجرةً ويستحلّون إخراجك وقتلَك.[2]

أو لتسليته[3] عليه السلام بالوعد بفتحه، على معنى: وأنت حلّ به في المستقبل، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر، ٣٠/٣٩]، تصنع فيه ما تُريد مِن القتل والأسر.

وقد كان كذلك حيث أَحلّ له عليه السلام مكّة وفتحَها عليه وما فُتحت على أحد قبله ولا أُحِلَّت له، فأحلّ عليه السلام فيها ما شاء وحرّم ما شاء،

---

١ السياق: إمّا لتشريفه... أو التنبيه...

٢ القول في التفسير البسيط للواحدي، ١٠/٢٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤٢٩/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٦٧/٤.

٣ السياق: أو التنبيه... أو لتسليته...

قَتَل ابن خَطَلٍ[١] وهو متعلِّق بأستار الكعبة ومِقْيَس بن ضُبابة[٢] وغيرهما وحرّم دار أبي سفيانَ، ثمّ قال: «إنّ الله حرّم مكّة يومَ خلق السماوات والأرض فهي حرام إلى أن تقوم الساعة لم تحلّ لأحد قبلي ولن تحلّ لأحد بعدي، ولم تحلّ لي إلّا ساعةً مِن نهار فلا يُعضَد شجرها ولا يُختلى خَلاها ولا يُنفَّر صيدها ولا تحِلّ لُقَطتُها إلّا لمُنشدٍ»، فقال العبّاس: «يا رسول الله، إلّا الإذْخِرَ فإنّه لقيوننا وقبورنا وبيوتنا»، فقال عليه السلام: «إلّا الإذْخِرَ».[٣]

[٣٠٠و] / ﴿وَوَالِدٍ﴾ عطفٌ على ﴿هَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ والمراد به إبراهيمُ وبقوله تعالى ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ إسماعيلُ والنبيّ صلوات الله تعالى عليهم حسبما يُنبئ عنه المعطوف عليه، فإنّه حَرَمُ إبراهيمَ ومنشأ إسماعيلَ ومسقطُ رأس رسول الله عليهم السلام. والتعبير عنهما بـ﴿مَا﴾ دون "مَن" للتفخيم والتعظيم كتنكير ﴿وَالِدٍ﴾، وإيرادهم بعنوان الوِلادِ ترشيحٌ لمضمون الجواب وإيماءٌ إلى أنّه متحقِّق في حالتَي الوالديّة والولديّة. وقيل: آدمُ عليه السلام ونسلُه.[٤] وهو أنسبُ لمضمون الجواب مِن حيث شموله للكلّ إلّا أنّ التفخيم المستفاد مِن كلمة ﴿مَا﴾ لا بدّ فيه مِن اعتبار التغليب. وقيل: كلّ والد وولده.[٥]

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ أي: تعب ومشقّة، فإنّه لا يزال يقاسي فنون الشدائد مِن وقت نفخ الروح إلى حين نزعها وما وراءه، يقال: "كبَدَ الرجلُ كبدًا" إذا وجعت كبدُه، وأصله "كبَدَه" إذا أصاب كبِدَه، ثمّ اتُّسع فيه حتّى استُعمل في كلّ نصَب ومشقّة، ومنه اشتُقّت "المكابدة"، كما قيل: كبَتَهُ بمعنى أهلَكَه، وهو تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ممّا كان يكابده مِن كفّار قريش.

---

١ هو عبد الله بن خَطَل، وقيل: هلال، وهو مِن بني تيم بن غالب بن فِهر، أمر النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم بقتله يوم الفتح، فقُتل وهو متعلّق بأستار الكعبة. انظر: **الروض الأنف** للسُّهيلي، ١٠٦/٧.

٢ في م "ضُبابة" بالضاد المعجمة، والمشهور أنّه "صُبابة" بالصاد غير المعجمة، وقد يُضبط بالمعجمة. و"مِقيَس" بالسين، وهو عند بعضهم "مِقْيَص" بالصاد. انظر لذلك: **المُغرِب** للمُطرّزي، «قيص».

٣ **صحيح البخاري**، ٩٢/٢ (١٣٤٩)؛ **صحيح مسلم**، ٩٨٦/٢ (١٣٥٣).

٤ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٦٨/٤.

٥ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٦٨/٤.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾

والضمير في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ﴾ لبعضهم الذي كان عليه السلام يُكابد منهم ما يُكابد كالوليد بن المُغيرة وأضرابه. وقيل: هو أبو الأشدّ بن كلدة الجُمَحيُّ وكان شديدَ القوّة مغترًا بقوّته، وكان يُبسَط له الأديم العُكاظيُّ فيقوم عليه ويقول: «مَن أزالني عنه فله كذا»، فيجذبه عشرة فيتقطّع قطعًا ولا تزِلّ قدماه.[1] أي: أيظنّ هذا القويّ المارد المتضعِّفِ للمؤمنين ﴿أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ ﴿أَن﴾ مخفّفة مِن "أنّ"، واسمها الذي هو ضمير الشأن محذوف، أي: أيحسب أنّه لن يقدر على الانتقام منه أحد.

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ يريد كثرةَ ما أنفقه فيما كان أهل الجاهليّة يسمّونها مكارمَ ويدعونها معاليَ ومفاخرَ.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ حين كان ينفق وأنّه تعالى لا يسأله عنه ولا يُجازيه عليه.

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ يُبصِر بهما ﴿وَلِسَانًا﴾ يُترجِم به عن ضمائره / ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ [٣٠٠ظ] يستر بهما فاه ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب وغيرها ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ أي: طريقي الخير والشرّ، أو الثديين. وأصل النجد: المكان المرتفع.

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠﴾

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ أي: فلم يشكر تلك النِّعَم الجليلة بالأعمال الصالحة. وعُبِّر عنها بالعقبة التي هي الطريق في الجبل لصعوبة سلوكها.

---

[1] القول في معالم التنزيل للبغوي، ٨/٤٣٠.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ أي: أيُّ شيء أعلمك ما اقتحام العقبة؟ لزيادة تقريرها وكونها عند الله تعالى بمكانة رفيعة.

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أي: هو إعتاق رقبة ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾ أي: مجاعة ﴿يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ﴾ أي: قرابة ﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾ أي: افتقار، وحيث كان المراد باقتحام العقبة هذه الأمور حَسُن دخول "لا" على الماضي، فإنّها لا تكاد تقع إلّا مكرَّرةً؛ إذ المعنى فلا فكَّ رقبةً ولا أطعَم يتيمًا أو مسكينًا.

و"المَسغَبة" و"المَقرَبة" و"المَترَبة" مفعلات مِن "سَغِب" إذا جاع، و"قَرُب" مِن النسب، و"تَرِب" إذا افتقر. وقُرئ: "فَكَّ رَقَبَةً أَوْ أَطْعَمَ"[1] على الإبدال مِن ﴿ٱقۡتَحَمَ﴾.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عطفٌ على المنفيّ بـ﴿لَا﴾، و﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على تراخي رُتبة الإيمان ورِفعة محلّه لاشتراط جميع الأعمال الصالحة به. ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ عطفٌ على ﴿ءَامَنُواْ﴾، أي: أوصى بعضهم بعضًا بالصبر على طاعة الله، ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ بالرحمة على عباده أو بموجِبات رحمته تعالى مِن الخيرات.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصول باعتبار اتّصافه بما في حيِّز صلته، وما فيه مِن معنى البُعد مع قُرب المشار إليه للإيذان ببُعد درجتهم في الشرف والفضل، أي: أولئك الموصوفون بالنعوت الجليلة المذكورة ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ أي: اليمين أو اليُمن.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بما نصبناه دليلًا على الحقّ مِن كتاب وحجّة، أو بالقرآن ﴿هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ أي: الشِّمال أو الشؤم، ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ مطبقة مِن "آصدتُ الباب" إذا أطبقتَه وأغلقتَه. وقُرئ: "مُوصَدَةٌ"[2] بغير همزة مِن "أَوْصدتُه".

---

[1] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٤٠١.

[2] قرأ نافع وابن كثير وابن عامر والكسائي وأبو بكر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ١/٣٩٥.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ أعطاه الله تعالى الأمان مِن عقبة يوم القيامة».[١]

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٧٨/٢٩ (البلد، ١/٩٠)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٨٨/٤ (البلد، ١/٩٠)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٧٠/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

/ سورة الشمس [٣٠١و]

مكيّة، وهي خمس عشرون[١] آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨﴾

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ أي: ضوئها إذا أشرقت وقام سلطانها. وقيل: الضحوة ارتفاع النهار، والضحى فوق ذلك، والضَّحاءُ بالفتح والمدّ إذا امتدّ النهار وكاد ينتصف.[٢]

﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ بأن طلع بعد غروبها. وقيل: إذا تلا طلوعه طلوعَها.[٣] وقيل: إذا تلاها في الاستدارة وكمال النور.[٤]

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ أي: جلّى الشمس، فإنّها تتجلّى عند انبساط النهار، فكأنّه جلّاها مع أنّها التي تبسطه، أو جلّى الظُّلمة أو الدنيا أو الأرض، وإن لم يجرِ لها ذِكر للعِلم بها.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ أي: الشمسَ فيغطّي ضوءها أو الآفاقَ أو الأرضَ، وحيث كانت "الواوات" العاطفة نوائبَ لـ"الواو" الأولى القَسَميّة القائمة مقامَ الفعل و"الباء" سادّةً مسدّهما معًا في قولك: "أقسم بالله" حُقِقنَ أن يعملنَ عملَ الفعل والجارّ جميعًا، كما تقول: "ضَرَب زيد عمرًا وبكرٌ خالدًا".

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ أي: ومَن بناها. وإيثارُ "ما" على "مِن" لإرادة الوصفيّة تفخيمًا، كأنّه قيل: والقادر العظيم الشأنِ الذي بناها. وجعلُها مصدريّةً

---

[١] س: عشرة. | وهو الصحيح، وما في م سهو.
[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٧١/٤.
[٣] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٣٧/٣.
[٤] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٧١/٤.

مُخِلّ بالنظم الكريم. وكذا الكلام في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ أي: بسطها مِن كلّ جانب كـ﴿دَحَىٰهَا﴾ [النازعات، ٧٩/٣٠].

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ أي: أنشأها وأبدعَها مستعدّةً لكمالاتها. والتنكير للتفخيم، على أنّ المراد نفس آدمَ عليه السلام، أو للتكثير وهو الأنسبُ للجواب.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ أي: أفهمَها إيّاهما وعرّفها حالَهما مِن الحُسن والقُبح وما يؤدّي إليه كلّ منهما، ومكّنها مِن اختيار أيّهما شاءت. وتقديم "الفجور" لمراعاة الفواصل.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ أي: فاز بكلّ مطلوب ونجا مِن كلّ مكروه مِن أنماها وأعلاها بالتقوى، وهو جواب القسم، وحذف "اللام" لطول الكلام.

وتكريرُ ﴿قَدْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ لإبراز الاعتناء بتحقيق مضمونه والإيذانِ بتعلُّق القسم به أيضًا أصالةً، / أي: خَسِر مَن نقَصها وأخفاها بالفجور. وأصل "دسّى" "دسّس" كـ"تقضّى" و"تقضّض". وقيل: هو كلام تابع لقوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[1] بطريق الاستطراد، وإنّما الجواب ما حُذف تعويلًا على دلالة قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ عليه، كأنّه قيل: لَيُدَمْدِمَنّ الله تعالى على كفّار مكّة لتكذيبهم رسول الله عليه السلام كما دمدَم على ثمودَ لتكذيبهم صالحًا عليه السلام، وهو على الأوّل استئناف وارد لتقرير مضمون قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾. [٣٠١ظ]

والطُّغوى بالفتح: الطُّغيان، والباء للسببيّة، أي: فعلت التكذيب بسبب طغيانها، كما تقول: "ظلمني بجرأته على الله تعالى"، أو صلة للتكذيب، أي:

[1] في الآية الثامنة مِن هذه السورة.

كذّبت بما أُوعِدت به مِن العذاب ذي الطَّغوى، كقوله تعالى: ﴿فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة، ٥/٦٩]. وقُرِئ: "بِطُغْوَاهَا"[١] بضمّ "الطاء" وهو أيضًا مصدر كـ"الرُّجعى".

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ منصوب بـ﴿كَذَّبَتۡ﴾ أو بالطَّغوى، أي: حين قام أشقى ثمودَ وهو قُدار بن سالف، أو هو ومَن تصدّى معه لعَقْر الناقة مِن الأشقياء، فإنّ "أفعَل" التفضيل إذا أضيفَ يصلح للواحد والمتعدِّد والمذكّر والمؤنّث. وفضلُ شقاوتهم على مَن عداهم لمباشرتهم العَقْرَ مع اشتراك الكلّ في الرضى به.

﴿فَقَالَ لَهُمۡ﴾ أي: لثمودَ ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أي: صالح عليه السلام عُبّر عنه بعنوان الرسالة إيذانًا بوجوب طاعته وبيانًا لغاية عتوِّهم وتماديهم في الطغيان، وهو السرّ في إضافة الناقة إليه تعالى في قوله تعالى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: ذروا ناقةَ الله ﴿وَسُقۡيَٰهَا﴾ ولا تذودوها عنها في نوبتها، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: في وعيده بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الأعراف، ٧٣/٧]. وقد جُوّز أن يكون ضمير ﴿لَهُمۡ﴾ للأشقَين.[٢] ولا يُلائمه ذِكر ﴿سُقۡيَٰهَا﴾. ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي: الأشقى، والجمع على تقدير وحدته لرِضى الكلّ بفعله.

وقال قتادةُ: بلغنا أنّه لم يعقِرها حتّى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذَكَرهم وأُنثاهم.[٣] وقال الفرّاء: عقرها اثنان، والعرب تقول: هذان أفضل الناس.[٤]

/ ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم﴾ فأطبق عليهم العذاب، وهو مِن تكرير قولهم: "ناقة مدمومة" إذا ألبسها الشحم. ﴿بِذَنۢبِهِمۡ﴾ بسبب ذنبهم المحكي. والتصريحُ بذلك مع دلالة "الفاء" عليه للإنذار بعاقبة الذنب ليعتبِر به كلّ مذنِب. ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: الدمدمةَ بينهم لم يُفلِت منهم أحد مِن صغير وكبير، أو فسوّى ثمودَ بالأرض، أو سوّاها في الإهلاك. [٣٠٢و]

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وابن مجالد وابن نبهان وأبي عمرو أربعتهم عن عاصم، وابن عمرَ عن يحيى عن أبي بكر، وأبي الربيع، والزّهراني وحسين الجُعفي كلاهما عن حفص. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٥١٥؛ **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٩٢٨.

[٢] كما في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٧٣/٤.

[٣] **القول في اللباب** لابن عادل، ٣٦٦/٢٠.

[٤] انظر: **معاني القرآن** للفرّاء، ٢٦٨/٣؛ ونُقل عن الفرّاء في **اللباب** لابن عادل، ٣٦٦/٢٠.

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ أي: عاقبتَها وتبِعَتها، كما يخاف سائر المُعاقِبين مِن الملوك، فيُبقي بعضَ الإبقاء؛ وذلك أنّه تعالى لا يفعل فعلًا إلّا بحقّ، وكلّ مَن فعل بحقّ فإنّه لا يخاف عاقبةَ فعله، وإن كان مِن شأنه الخوف. و"الواو" للحال أو للاستئناف. وقُرئ: "فَلَا يَخَافُ"،[1] وقُرئ: "وَلَمْ يَخَفْ".[2]

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿وَٱلشَّمْسِ﴾ فكأنّما تصدَّق بكلّ ما طلعت عليه الشمس والقمر».[3]

---

١ قرأ بها نافع وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٤٠١/٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٢٨-١٩٢٩.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٤١٦/٢٩ (الشمس، ١/٩١)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤٩٤/٤ (الشمس، ١/٩١)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٧٣/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة واللَّيْلِ

مكّيّة، وهي إحدى وعشرون آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ١٣﴾

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ أي: حين يغشى الشمسَ كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ [الشمس، ٩١/٤]، أو النهارَ، أو كلّ ما يُواريه بظلامه.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ ظَهَر بزوال ظلمة الليل، أو تبيَّن وتكشَّف بطلوع الشمس.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ أي: والقادر العظيم القدرةِ الذي خلَق صنفَي الذَّكر والأنثى مِن كلّ ما له توالد. وقيل: هما آدمُ وحوّاءُ.[1] وقُرِئ: "وَالذَّكَرِ وَالأُنْثَى"،[2] وقُرِئ: "وَالَّذِي خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى".[3] وقيل: ﴿مَا﴾ مصدريّة.[4]

﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ جواب القسم، و﴿شَتَّىٰ﴾ جمع شَتيت، أي: إنّ مساعيَكم لأشتاتٌ مختلفة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾... إلخ تفصيل لتلك المساعي المشتّتة وتبيين لأحكامها، أي: فأمّا مَن أعطى حقوق ماله، واتّقى محارم الله التي نهى عنها، وصدّق بالخصلة الحسنى وهي الإيمان، أو بالكلمة الحسنى

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٧٤/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وعليّ وابن مسعود وأبي الدرداء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٣٠.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٣١.

٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٤٠/٣.

وهي كلمة التوحيد، أو بالملّة الحسنى وهي ملّة الإسلام، أو بالمثوبة الحسنى وهي الجنّة. ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ فسنُهيّئه للخصلة التي تؤدّي إلى يُسر وراحة، كدخول الجنّة ومباديه، مِن "يَسَّر الفرسَ للركوب" إذا أسرَجها وألجَمَها.

[٣٠٢ظ] / ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ أي: بماله فلم يبذله في سبيل الخير ﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ أي: زهِد فيما عنده تعالى كأنّه مستغنٍ عنه فلم يتّقه، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة. ﴿وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي: ما ذُكر مِن المعاني المتلازمة ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ أي: للخصلة المؤدّية إلى العُسر والشدّة، كدخول النار ومقدِّماته لاختياره لها.

ولعلّ تصديرَ القسمين بالإعطاء والبخل مع أنّ كلًّا منهما أدنى رتبةً ممّا بعدهما في استتباع التيسير لليسرى والتيسير للعسرى للإيذان بأنّ كلًّا منهما أصيل فيما ذُكر لا تتمّة لِما بعدهما مِن التصديق والتقوى والتكذيب والاستغناء.

وتفسير الأوّل بإعطاء الطاعة والثاني بالبخل بما أُمر به،[1] مع كونه خلاف الظاهر، يأباه قوله تعالى: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ﴾ أي: ولا يغني، أو أيُّ شيء يغني عنه ماله الذي يبخل به؟ ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ أي: هَلَك، تفعّل مِن الردى الذي هو الهلاك، أو تردّى في الحفرة إذا قُبِر، أو تردّى في قعر جهنّم.

﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾ استئناف مقرِّر لِما قبله، أي: إنّ علينا بموجَب قضائنا المبنيّ على الحِكَم البالغة حيث خلقْنا الخَلْق للعبادة أن نبيّن لهم طريق الهدى وما يؤدّي إليه مِن طريق الضلال وما يؤدّي إليه. وقد فعلنا ذلك بما لا مزيد عليه، حيث بيّنا حال مَن سَلَك كلا الطريقين ترغيبًا وترهيبًا، ومِن ههنا تبيَّن أنّ الهداية هي الدلالة على ما يوصل إلى البغية لا الدلالة الموصلة إليها قطعًا.

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ أي: التصرّف الكلّي فيهما كيفما نشاء، فنفعل فيهما ما نشاء مِن الأفعال التي مِن جملتها ما وُعدنا مِن التيسير لليسرى والتيسير للعسرى. وقيل: إنّ لنا كلَّ ما في الدنيا والآخرة فلا يضرُّنا ترككم الاهتداءَ بهُدانا.[2]

---

[1] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٥٤٠-٥٤١.

[2] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٥٤١.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ بحذف إحدى التاءين مِن "تتلظّى"، أي: تتلهّب. وقُرئ على الأصل.[1]

﴿لَا يَصْلَىٰهَا﴾ صُلِيًا لازمًا ﴿إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ إلّا الكافرُ، فإنّ الفاسق لا يصلاها صُلِيًا لازمًا. وقد / صرّح به قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: كذّب بالحقّ وأعرض عن الطاعة. [٣٠٣و]

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ أي: سيُبعَد عنها ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ المبالِغ في اتّقاء الكفر والمعاصي، فلا يحوم حولها فضلًا عن دخولها أو صُلِيِّها الأبديّ، وأمّا مَن دونه ممَّن يتّقي الكفر دون المعاصي فلا يُبعَّد عنها هذا التبعيدَ، وذلك لا يستلزم صُلِيَّها بالمعنى المذكور، فلا يقدح في الحصر السابق. ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ﴾ يعطيه ويصرفه في وجوه البرّ والحسنات.

وقوله تعالى: ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ إمّا بدل مِن ﴿يُؤْتِى﴾ داخل في حُكم الصلة لا محلّ له، أو في حيّز النصب على أنّه حال مِن ضمير ﴿يُؤْتِى﴾، أي: يطلب أن يكون عند الله تعالى زاكيًا ناميًا لا يريد به رياءً ولا[2] سُمعةً.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ استئناف مقرِّر لكون إيتائه للتزكّي خالصًا لوجه الله تعالى، أي: ليس لأحد عنده نعمة مِن شأنها أن تُجزى وتُكافأ فيَقصِد بإيتاء ما يُؤتى مُجازاتَها.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ استثناء منقطِع مِن ﴿نِعْمَةٍ﴾. وقُرئ بالرفع[3] على البدل مِن محلّ ﴿نِعْمَةٍ﴾، فإنّه الرفع إمّا على الفاعليّة أو على الابتداء،

---

١ قرأ بها رويس والبزي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٣٢، ٤٠١.

٢ س - لا.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني ويحيى بن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٣١.

و﴿مِن﴾ مزيدة. ويجوز أن يكون مفعولًا له؛ لأنّ المعنى: لا يُؤتي ماله إلّا ابتغاءَ وجه ربّه لا لمكافأة نعمةٍ.[١]

والآيات نزلت في حقّ أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله تعالى عنه حين اشترى بلالًا في جماعة كان يُؤذيهم المشركون فأعتقهم، ولذلك قالوا: المراد بالأشقى أبو جهل أو أميّةُ بن خَلَف. وقد روى عطاءٌ والضحّاك عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّه عذّب المشركون بلالًا وبلالٌ يقول: «أَحَد أَحَد» فمرّ به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقال: «أَحَدٌ، يعني الله تعالى، ينجيك»، ثمّ قال لأبي بكر رضي الله عنه: «إنّ بلالًا يعذَّب في الله»، فعَرَف مراده عليه السلام، فانصرف إلى منزله، فأخذ رطلًا مِن ذهب ومضى به إلى أميّةَ بن خَلَف، فقال له: أتبيعني بلالًا؟ قال: نعم، فاشتراه فأعتقه، / فقال المشركون: ما أعتقه أبو بكر إلّا ليد [٣٠٣ظ] كانت له عنده، فنزلت.[٢]

وقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ جواب قسم مضمَر، أي: وبالله لسوف يرضى، وهو وعد كريم بنَيل جميع ما يبتغيه على أكمل الوجوه وأجملها؛ إذ به يتحقَّق الرِّضى. وقُرئ: "يُرْضَى"[٣] مبنيًا للمفعول مِن "الإرضاء".

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ أعطاه الله تعالى حتّى يرضى وعافاه مِن العسر ويسّر له اليُسر».[٤]

---

١ هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٥٧٦/٤.

٢ بمعناه في جامع البيان للطبري، ٤٧٩/٢٤-٤٨٠؛ في معالم التنزيل للبغوي، ٤٤٨/٨-٤٤٩؛ وبلفظه في اللباب لابن عادل، ٣٧٨/٢٠.

٣ قراءة شاذّة، غير منسوبة. اللباب لابن عادل، ٣٧٩/٢٠.

٤ س + والحمد لله ربّ العالمين. | الكشف والبيان للثعلبي، ٤٣٨/٢٩ (الليل، ١/٩٢)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٠١/٤ (الليل، ١/٩٢)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٧٦/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة والضُّحَى

مكّيّة، وهي إحدى عشرةَ آيةً.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾

﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ هو وقت ارتفاع الشمس وصدرُ النهار. قالوا: تخصيصه بالإقسام به؛ لأنّها الساعة التي كُلِّم فيها موسى عليه السلام وأُلقيَ فيها السحَرة سُجّدًا، لقوله تعالى: ﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى﴾ [طه، ٢٠/٥٩]. وقيل: أريدَ به النهار، كما في قوله تعالى: ﴿أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى﴾ [الأعراف، ٧/٩٨] في مقابلة ﴿بَيَٰتٗا﴾ [الأعراف، ٧/٩٧].[1]

﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ أي: جنس الليل ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾ أي: سكن أهله، أو ركد ظلامه مِن "سَجا البحر سُجُوًّا" إذا سكنتْ أمواجه، ونُقل عن قتادةَ ومقاتل وجعفر الصادق أنّ المراد بـ﴿ٱلضُّحَىٰ﴾ هو الضحى الذي كلّم الله تعالى فيه موسى عليه السلام، وبـ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ ليلة المِعراج.[2]

وقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ جواب القسم، أي: ما قَطَعك قَطْعَ المودِّع. وقُرئ بالتخفيف،[3] أي: ما تَرَكك. ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي: وما أبغضك. وحذفُ المفعول إمّا للاستغناء عنه بذِكره مِن قبلُ، أو للقصد إلى نفي صدورِ الفعل عنه تعالى بالكلّيّة، مع أنّ فيه مراعاةً للفواصل.

---

[1] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٧٧.

[2] عنهم في اللباب لابن عادل، ٢٠/٣٨٠.

[3] قراءة شاذّة، مرويّة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وابن أبي عبلة وأبي حَيْوَة وعروة بن الزُّبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٣٢.

رُوي أنّ الوحي تأخّر عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أيّامًا لتركه الاستثناء، كما مرّ في سورة الكهف،[١] أو لزجره سائلًا مُلِحًّا، فقال المشركون: إنّ محمّدًا ودَّعه ربّه وقَلاه،[٢] فنزلت ردًّا عليهم وتبشيرًا له عليه السلام بالكرامة الحاصلة والمترقَّبة، كما يُشعِر به إيرادُ اسم الربّ المنبئ عن التربية والتبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام.

وحيثُ تضمَّن ما سبق مِن نفي التوديع والقِلى أنّه تعالى يواصله بالوحي والكرامة في الدنيا بُشِّر عليه السلام بأنّ ما سنؤتيه في الآخرة أجلّ وأعظم مِن ذلك فقيل: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ / لِما أنّها باقية صافية عن الشوائب [٣٠٤و] على الإطلاق، وهذه فانية مَشوبة بالمضارّ، وما أوتي عليه السلام مِن شرف النبوّة وإن كان ممّا لا يُعادِله شرفٌ ولا يُدانيه فضل لكنّه لا يخلو في الدنيا مِن بعض العوارض القادحة في تمشية الأحكام، مع أنّه عندما أُعِدّ له عليه السلام في الآخرة مِن السَّبْق والتقدّم على كافّة الأنبياء والرسل يوم الجمع ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين، ٦/٨٣] وكونِ أمّته شهداءَ على سائر الأمم ورفعِ درجات المؤمنين وإعلاءِ مراتبهم بشفاعته وغيرِ ذلك مِن الكرامات السنيّة التي لا تُحيط بها العبارة، بمنزلة[٣] بعض المبادي بالنسبة إلى المطالب. وقيل: المراد بـ﴿الْآخِرَةُ﴾ عاقبة أمره عليه السلام، أي: لَنهايةُ أمرِك خير مِن بدايته، لا يزال يتزايد قوّةً ويتصاعد رِفعةً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ عِدَة كريمة شاملة لِما أعطاه الله تعالى في الدنيا مِن كمال النفس، وعلومِ الأوّلين والآخرين، وظهورِ الأمر وإعلاءِ الدِّين بالفتوح الواقعة في عصره عليه السلام وفي أيّام خلفائه الراشدين وغيرهم مِن الملوك الإسلاميّة، وفشوِّ الدعوة والإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، ولِما ادّخر له مِن الكرامات التي لا يعلمها إلّا الله عزّ وجلّ.

---

[١] في تفسير الآية الثالثة والعشرين منها.

[٢] بمعناه في جامع البيان للطبري، ٤٨٦/٢٤-٤٨٧؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤٥٤/٨؛ وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٧٧/٤.

[٣] السياق: مع أنّه... بمنزلة...

وقد أنبأ ابن عبّاس عن شمّة منها حيث قال له عليه السلام: «في الجنّة ألف قصر مِن لؤلؤ أبيضَ ترابُه المِسك».[1]

و"اللام" للابتداء دخلت الخبر لتأكيد مضمون الجملة، والمبتدأ محذوف تقديره: ولأنت سوف يعطيك... إلخ، لا للقسم؛ لأنّها لا تدخل على المضارع إلّا مع "النون" المؤكِّدة، وجمعُها مع ﴿سَوْفَ﴾ للدلالة على أنّ الإعطاء كائن لا محالةَ وإن تراخى لحكمة.

وقيل: هي للقسم، وقاعدة التلازم بينها وبين نون التأكيد قد استثنى النُّحاة منها صورتين: إحداهما أن يُفصَل بينها وبين الفعل بحرف التنفيس، كهذه الآية، وكقولك: "والله لَسَأُعطيك"، والثانية أن يُفصَل بينهما بمعمول الفعل، كقوله تعالى: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران، ٣/١٥٨]. وقد قال / أبو علي الفارسي: [٣٠٤ظ] ليست هذه "اللام" هي التي في قولك: "إنّ زيدًا لَقائم"؛ بل هي التي في قولك: "لأقومنّ" ونابَتْ "سوف" عن إحدى نونَي التوكيد، فكأنّه قيل: "ولَيُعطينّك".[2] وكذلك "اللام" في قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾... إلخ.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ تعديد لِما أفاض عليه عليه السلام مِن أوّل أمره إلى ذلك الوقت مِن فنون النَّعماء العِظام ليستشهد بالحاضر الموجود على المترقَّب الموعود فيطمئنّ قلبه وينشرح صدره. و"الهمزة" لإنكار النفي وتقرير المنفيّ على أبلغ وجه، كأنّه قيل: قد وجدك... إلخ، والوجودُ بمعنى العِلم، و﴿يَتِيمًا﴾ مفعوله الثاني. وقيل: بمعنى المصادفة، و﴿يَتِيمًا﴾ حال مِن مفعوله.[3]

---

[1] جامع البيان للطبري، ٢٤/٤٨٨؛ المستدرك للحاكم، ٢/٥٧٣ (٣٩٤٣)؛ التفسير البسيط للواحدي، ٢٤/١٠٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٧٨.

[2] القول والآراء التي فيه مذكورة بلفظ قريب في اللباب لابن عادل، ٢٠/٣٨٥.

[3] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٥٤٤.

رُوي أنّ أباه مات وهو جنين قد أتت عليه ستّة أشهر، وماتت أمّه وهو ابن ثمان سنين فكفله عمّه أبو طالب، وعطّفه الله تعالى عليه فأحسن تربيته،[١] وذلك إيواؤه. وقُرئ: "فَأَوَى"،[٢] وهو إمّا مِن "أَوَاهُ" بمعنى "آواه" أو مِن "أَوَى له" إذا رَحِمَه.

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ عطفٌ على ما يقتضيه الإنكار السابق، كما أشيرَ إليه، أو إلى المضارع المنفيّ بـ﴿لَمْ﴾ داخلٌ في حُكمه، كأنّه قيل: أما وَجَدك يتيمًا فآوى ووَجَدك غافلًا عن الشرائع التي لا يهتدي إليها العقول، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ [الشورى، ٥٢/٤٢].

وقيل: ضلّ في صباه في بعض شِعاب مكّة فردّه أبو جهل إلى عبد المطّلب.[٣] وقيل: ضلّ مرّةً أخرى وطلبوه فلم يجدوه، فطاف عبد المطّلب بالكعبة سبعًا وتضرّع إلى الله تعالى، فسمعوا مناديًا ينادي مِن السماء: يا معشر الناس لا تضجّوا فإنّ لمحمّد ربًّا لا يخذله ولا يُضيّعه، وإنّ محمّدًا بوادي تِهامة عند شجر السَّمُر، فسار عبد المطّلب وورقةُ بن نوفل فإذا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قائم تحت شجرة يلعب بالأغصان والأوراق.[٤] وقيل: أضلّته مرضعتُه حليمةُ عند باب مكّة حين فطمَتْه وجاءت به لتردّه على عبد المطّلب.[٥] وقيل: ضلّ في طريق الشام حين خرج به أبو طالب. يُروى أنّ إبليسَ أخذ بزمام ناقته في ليلة ظلماء فعَدَل به عن الطريق، فجاء جبريلُ عليه السلام فنفخ إبليسَ نفخةً وَقَع منها / إلى أرض الهند، وردّه إلى القافلة.[٦] [٣٠٥و]

﴿فَهَدَىٰ﴾ فهداك إلى مناهج الشرائع المنطوية في تضاعيف ما أوحيَ إليك مِن الكتاب المبين، وعلّمك ما لم تكن تعلم، أو أزال ضلالك عن جدّك وعمّك.

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٧٨/٤؛ وقال ابن حجَر في الكافي الشاف، ص ١٨٥: «لم أجِد هذا»، وذكر له تفصيلًا؛ وفي المستدرك للحاكم، ٦٦١/٢ (٤١٩١): «توفّي أبوه وأمّه حبلى به»؛ وفي الروض الأنف للسهيلي، ١٦٠/٢: «وأكثر العلماء على أنّه كان في المهد».

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٥٧٨/٤.

٣ القول في معالم التنزيل للبغوي، ٤٥٦/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٧٨/٤؛ واللباب لابن عادل، ٣٩٠.

٤ القول في اللباب لابن عادل، ٣٩٠.

٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٧٨/٤؛ واللباب لابن عادل، ٣٩٠.

٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٧٨/٤؛ واللباب لابن عادل، ٣٩٠.

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا﴾ أي: فقيرًا. وقُرئ: "عَيِّلًا"،[١] وقُرئ: "عَدِيمًا".[٢] ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ فأغناك بمال خديجةَ، أو بما حصل لك مِن ربح التجارة، أو بما أفاء عليك مِن الغنائم، قال عليه السلام: «جُعل رزقي تحت ظلّ رُمحي».[٣] وقيل: قنّعك وأغنى قلبك.[٤]

﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ فلا تغلبه على ماله. وقال مجاهدٌ: لا تحتقر.[٥] وقُرئ: "فَلَا تَكْهَرْ"،[٦] أي: فلا تعبِس في وجهه.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ فلا تزجر ولا تُغلِظ له القول؛ بل رُدَّه ردًّا جميلًا. قال إبراهيمُ بن أدهمَ: نِعم القوم السُّؤّال يحملون زادنا إلى الآخرة. وقال إبراهيمُ النخَعي: السائل يريد الآخرة يجيء إلى باب أحدكم فيقول: أتبعثون إلى أهليكم بشيء؟ وقيل: المراد بالسائل ههنا الذي يسأل عن الدين.[٧]

﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ بشكرها وإشاعتها وإظهار آثارها وأحكامها، أريدَ بها ما أفاضه الله تعالى عليه صلّى الله عليه وسلّم مِن فنون النِّعَم التي مِن جملتها النِّعَم المعدودة الموجودة منها والموعودة، والمعنى أنّك كنتَ يتيمًا وضالًّا وعائلًا فآواك الله وهداك وأغناك، فمهما يكن مِن شيء فلا تنسَ حقوق نعمة الله تعالى عليك في هذه الثلاث، واقتدِ بالله، وأحسن كما أحسن الله إليك، فتعطَّف على اليتيم فآوِه، وترحَّم على السائل وتفقَّده بمعروفك ولا تزجره عن بابك، وحدِّث بنعمة الله كلّها، وحيث كان معظمها نعمة النبوّة فقد اندرج تحت الأمر هدايته عليه السلام للضلّال وتعليمُه للشرائع والأحكام حسبما هداه الله عزّ وجلّ وعلّمه مِن الكتاب والحِكمة.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١٩٣٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١٩٣٣.

٣ طرف حديث في **مسند أحمد**، ١٢٣/٩ (٥١١٤)؛ و**صحيح البخاري**، ٤٠/٤ (٢٩١٤)؛ و**الكشّاف** للزمخشري، ٥٧٩/٤.

٤ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٧٩/٤.

٥ **معالم التنزيل** للبغوي، ٤٥٧/٨.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأُبيّ وحفصة وجعفر بن محمّد وقتيبة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٥١٧؛ **المغني في القراءات** للنُّوزاوازي، ص ١٩٣٤.

٧ الأقوال الثلاثة في **اللباب** لابن عادل، ٣٩٣/٢٠.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ جعله الله تعالى فيمن يرضى لمحمّد أن يشفع له وعشر حسنات يكتبها الله تعالى له بعدد كلّ سائل ويتيم».[1]

❀

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٤٦٦/٢٩ (الضحى، ١/٩٣)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٠٧/٤ (الضحى، ١/٩٣)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٨٠/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة أَلَمْ نَشْرَحْ

مكيّة، وهي ثمان آياتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾

/ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ لمّا كان الصدر محلًّا لأحوال النفس ومخزنًا لسرائرها مِن العلوم والإدراكات والمَلَكات والإرادات وغيرها عُبِّر بشرحه عن توسيع دائرة تصرّفاتها بتأييدها بالقوّة القدسيّة وتحليتها بالكمالات الأنسيّة، أي: ألم نفسحه حتّى حوى عالمَي الغيب والشهادة وجَمَع بين ملكتَي الاستفادة والإفادة، فما صدَّك الملابسةُ بالعلائق الجسمانيّة عن اقتباس أنوار المَلَكات الروحانيّة وما عاقك التعلُّقُ بمصالح الخَلْق عن الاستغراق في شئون الحقّ. [٣٠٥ظ]

وقيل: أريدَ به ما رُوي أنّ جبريلَ[١] أتى رسول الله صلّى الله عليهما وسلّم في صباه أو يوم المِيثاق فاستخرج قلبه فغسله ثمّ ملأه إيمانًا وعِلمًا.[٢]

ولعلّه تمثيلٌ لِما ذُكر، أو أنموذج جسماني ممّا سيظهر له عليه السلام مِن الكمال الروحاني. والتعبيرُ عن ثبوت الشرح بالاستفهام الإنكاري عن انتفائه للإيذان بأنّ ثبوته مِن الظهور بحيث لا يقدر أحد على أن يجيب عنه بغير "بلى".

وزيادة الجارّ والمجرور مع توسيطه بين الفعل ومفعوله للإيذان مِن أوّل الأمر بأنّ الشرح مِن منافعه عليه السلام ومصالحه مسارعةً إلى إدخال المَسرّة في قلبه عليه السلام وتشويقًا له إلى ما يعقبه ليتمكّن عنده وقتَ وروده فضلَ تمكُّن.

---

١ س + عليه السلام.

٢ الحديث بمعناه في مسند أحمد، ٤٥٥/٢١ (١٤٠٦٩)؛ وصحيح مسلم، ١٤٧/١ (٢٦١)؛ وبلفظه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٤٥/٣.

وقوله تعالى: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾ عطفٌ على ما أشيرَ إليه مِن مدلول الجملة السابقة كأنّه قيل: قد شرحنا صدرك ووضعنا... إلخ، و﴿عَنكَ﴾ متعلِّق بـ﴿وَضَعۡنَا﴾، وتقديمُه على المفعول الصريح مع أنّ حقّه التأخّر عنه لِما مرّ آنفًا مِن القصد إلى تعجيل المَسرّة والتشويق إلى المؤخَّر، ولِما أنّ في وصفه نوعَ طولٍ، فتأخيرُ الجارّ والمجرور عنه مخِلّ بتجاوب أطراف النظم الكريم، أي: حططنا عنك عِبأك الثقيل.

﴿ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾ أي: حَمَلَه على النقيض وهو صوت الانقضاض والانفكاك، كما يُسمع مِن الرحل المتداعي إلى الانتقاض مِن ثِقَل الحِمْل، مُثِّل به حالُه عليه السلام ممّا كان يثقل عليه ويغمّه مِن فرطاته قبل النبوّة، أو مِن عدم إحاطته بتفاصيل الأحكام والشرائع، أو مِن تهالكه على إسلام المعانِدين مِن قومه وتلهُّفه، ووضعُه عنه مغفرتُه وتعليمَ الشرائع وتمهيدَ عذرِه بعد أن بلّغ / وبالغَ. [٣٠٦و]

وقُرِئ: "وَحَطَطْنَا"[١] و"حَلَلْنَا"[٢] مكان ﴿وَضَعۡنَا﴾، وقُرِئ: "وَحَلَلْنَا عَنْكَ وِقْرَكَ".[٣]

﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ بعنوان النبوّة وأحكامها أيّ رفع، حيث قُرِن اسمه باسم الله تعالى في كلمة الشهادة والأذان والإقامة، وجُعل طاعتُه طاعتَه تعالى، وصلّى عليه هو وملائكته وأمر المؤمنين بالصلاة عليه، وسُمّي رسولَ الله ونبيَّ الله. والكلام في العطف وزيادة ﴿لَكَ﴾ كالذي سلف.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ تقرير لِما قبله ووعدٌ كريم بتيسير كلّ عسير له عليه السلام وللمؤمنين، كأنّه قيل: خوّلناك ما خوّلناك مِن جلائل النِّعَم فكن على ثقة بفضل الله تعالى ولطفه، فإنّ مع العسر يسرًا كثيرًا. وفي كلمة ﴿مَعَ﴾ إشعارٌ بغاية سرعة مجيء اليسر، كأنّه مقارن للعسر.

﴿إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ تكرير للتأكيد، أو عِدَة مستأنفة بأنّ العسر مشفوع بيسر آخرَ كثواب الآخرة، كقولك: "إنّ للصائم فرحةً إنّ للصائم فرحةً"، أي:

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن أنس بن مالك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١٧.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١٧.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١٧.

فرحةً عند الإفطار وفرحةً عند لقاء الربّ، وعليه قوله صلّى الله عليه وسلّم: «لن يغلب عسرٌ يسرين»،[١] فإنّ المعرّف إذا أعيدَ يكون الثاني عينَ الأوّل سواء كان معهودًا أو جنسًا، وأمّا المنكَّر فيحتمل أن يراد بالثاني فردٌ مغاير لِما أريدَ بالأوّل.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ أي: مِن التبليغ. وقيل: مِن الغَزْو[٢] ﴿فَٱنصَبْ﴾ فاجتهد في العبادة واتعب شكرًا لِما أوليناك مِن النِّعَم السالفة ووعدناك مِن الآلاء الآنفة. وقيل: فإذا فرغت مِن صلاتك فاجتهد في الدعاء.[٣] وقيل: إذا فرغت مِن دنياك فانصَب في صلاتك.[٤]

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وحدَه ﴿فَٱرْغَب﴾ بالسؤال، ولا تسأل غيره، فإنّه القادر على إسعافه لا غيره. وقُرئ: "فَرَغِّبْ"،[٥] أي: فرغِّب الناس إلى طَلَب ما عنده.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ﴾، فكأنّما جاءني وأنا مغتمّ ففرج عنّي».[٦]

---

١ جامع البيان للطبري، ٤٤٩٥/٢٤؛ المستدرك للحاكم، ٥٧٥/٢ (٣٩٤٩)؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٣٥٩/١٢ (٩٥٣٨)؛ معالم التنزيل للبغوي، ٤٦٦/٨.

٢ مرويّ عن الحسن في جامع البيان للطبري، ٤٤٩٨/٢٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤٦٦/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٨٣/٤.

٣ مرويّ عن ابن عبّاس في جامع البيان للطبري، ٤٤٩٧/٢٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤٦٦/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٨٣/٤.

٤ مرويّ عن مجاهد في جامع البيان للطبري، ٤٤٩٩/٢٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤٦٦/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٨٣/٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥١٧.

٦ الكشف والبيان للثعلبي، ٥٢٤/٢٩ (الضحى، ١/٩٤)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥١٥/٤ (الضحى، ١/٩٤)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٨٣/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة والتِّين

مكّيّة، وهي ثمان آياتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ ۞ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۞ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۞ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۞﴾

[٣٠٦ظ] / ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾ هما هذا التين وهذا الزيتون خصّهما الله سبحانه مِن بين الثمار بالإقسام بهما لاختصاصهما بخواصّ جليلةٍ، فإنّ التين فاكهة طيّبة لا فضلَ له، وغذاءٌ لطيف سريع الهضم، ودواءٌ كثير النفع؛ يُليّن الطبع ويُحلّل البلغم ويُطهّر الكليتين ويُزيل ما في المثانة مِن الرمل ويُسمّن البدن ويفتح سُدَد الكبِد والطِّحال.

وروى أبو ذرّ أنّه أُهديَ للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم سَلٌّ مِن تين، فأكل منه وقال لأصحابه: «كُلوا فلو قلتُ: إنّ فاكهةً نزلت مِن الجنّة لقلتُ: هذا؛ لأنّ فاكهة الجنّة بلا عَجَم، فكلوها فإنّها تقطع البواسير وتنفع مِن النِّقْرِس».[1]

وعن عليّ بن موسى الرِّضا:[2] التينُ يُزيل نكهةَ الفم، ويطوّل الشَّعر، وهو أمان مِن الفالج، وأمّا الزيتون فهو فاكهة وإدام ودواء، ولو لم يكن له سوى اختصاصه

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٠/١٠؛ التفسير البسيط للواحدي، ١٤٤/٢٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٨٤/٤.

٢ هو عليّ الرضى بن موسى الكاظم الهاشمي العلوي، أبو الحسن (ت. ٢٠٣هـ/٨١٨م). الإمام السيّد المدني ثاني الأئمّة الاثني عشر عند الإماميّة، ومِن أجلّاء السادة أهل البيت وفضلائهم. كان أسودَ اللون وأمّه حبشيّة. وكان مِن الدِّين والعلم والسؤدد بمكان. أحبّه المأمون وزوّجه ابنته وضرب اسمه على الدرهم والدينار، وغيّر مِن أجله الزيّ العبّاسي، وصيّره وليّ عهده لكنّه مات في عهد المأمون. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٨٨/٩؛ والأعلام للزركلي، ٢٦/٥.

بدُهن كثير المنافع مع حصوله في بقاع لا دهنيّة فيها لكفى به فضلًا، وشجرته هي الشجرة المباركة المشهود لها في التنزيل.[١]

ومرّ معاذُ بن جبل بشجرة الزيتون، فأخذ منها قضيبًا واستاكَ به وقال: سمعت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: «نِعمَ السِّواكُ الزيتونُ مِن الشجرة المباركة، يطيِّب الفم ويذهب بالحفرة»،[٢] وسمعتُه يقول: «هو سواكي وسواكُ الأنبياء قبلي».[٣]

وقيل: هما جبلان مِن الأرض المقدَّسة يقال لهما بالسُّريانيّة: "طور تينا" و"طور زيتا"؛ لأنهما منبتا التين والزيتون. وقيل: ﴿ٱلتِّينِ﴾ جبال ما بين حُلوان[٤] وهَمْدان،[٥] ﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾ جبال الشام؛ لأنّهما منابتهما، كأنّه قيل: ومنابتِ التين والزيتون.[٦]

وقال قتادةُ: ﴿ٱلتِّينِ﴾ الجبل الذي عليه دمشقُ ﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾ الجبل الذي عليه بيت المَقدِس.[٧] وقال عكرمةُ وابن زيد: ﴿ٱلتِّينِ﴾ دمشقُ، ﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾ بيت المَقدِس.[٨] وهو اختيار الطبري.[٩]

وقال محمد بن كعب: ﴿ٱلتِّينِ﴾ مسجد أصحاب الكهف، ﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾ مسجد إيليا.[١٠] وعن ابن عبّاس: ﴿ٱلتِّينِ﴾ مسجد نوح عليه السلام الذي بناه على الجودي،

---

١ القول في تفسير الرازي، ٢١٠/٣٢؛ واللباب لابن عادل، ٤٠٦/٢٠.

٢ الحَفَر: أن يحفر القَلَح أصول الأسنان بين اللِّثة وأصل السنّ مِن ظاهر وباطن. لسان العرب لابن منظور، «حفر».

٣ المعجم الأوسط للطبراني، ٢١٠/١ (٦٧٨)؛ والطبّ النبوي لأبي نُعيم، ٦٣٦/٢ (٦٨٦)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٢/٣٠؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٨٤/٤.

٤ حُلوان بالضمّ: حُلوان العراق، وهي آخر حدود السواد ممّا يلي الجبال في بغداد. انظر: معجم البلدان للحموي، ٢٩٠/٢.

٥ همدان: قبيلة يمانيّة، ولعلّ المصنِّف قَصَد بلاد همدان. انظر: قلائد الجمان للقلقشندي، ص ٩٩-١٠٠.

٦ الكشّاف للزمخشري، ٥٨٤/٤.

٧ جامع البيان للطبري، ٥٠٣/٢٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٤٧١/٨.

٨ جامع البيان للطبري، ٥٠٣/٢٤؛ معالم التنزيل للبغوي، ٤٧١/٨.

٩ هذه العبارة في اللباب لابن عادل، ٤٠٦/٢٠. والذي في جامع البيان للطبري، ٥٠٤/٢٤: أنّه اختار الوجه الأوّل، وهو أنّ التين هو التين الذي يؤكل والزيتون هو الزيتون الذي يُعصَر، ثمّ جوّز الوجه المذكور ههنا، وذكر أنّه ليس في صحّة الوجه الأوّل.

١٠ معالم التنزيل للبغوي، ٤٧١/٨.

﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾ مسجد بيت المقدس.[١] / وقال الضحّاك: ﴿ٱلتِّينِ﴾ المسجد الحرام، [٣٠٧و]
﴿وَٱلزَّيْتُونِ﴾ المسجد الأقصى.[٢]

والصحيح هو الأوّل، قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «هو تينكم الذي تأكلون وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت». وبه قال مجاهدٌ وعكرمةُ وإبراهيمُ النخَعي وعطاءٌ وجابر بن زيد[٣] ومقاتلٌ والكلبي.[٤]

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ هو الجبل الذي ناجى عليه موسى ربّه، و﴿سِينِينَ﴾ وسيناءُ عَلَمان للموضع الذي هو فيه، ولذلك أضيفَ إليهما، وسِينون كـ"يبرون"[٥] في جواز الإعراب بـ"الواو" و"الياء" والإقرارِ على "الياء" وتحريك "النون" بالحركات الإعرابيّة.[٦]

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ أي: الآمن مِن "أَمُنَ الرجلُ أمانةً" فهو أمين، وهو مكّة شرّفها الله تعالى، وأمانتُها أنّها تحفظ مَن دخلها كما يحفظ الأمين ما يُؤتمَن عليه. ويجوز أن يكون فعيلًا بمعنى "مفعول" مِن "أمنه"، لأنّه مأمونُ الغوائل، كما وُصف بـ"الآمن" في قوله تعالى: ﴿حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [القصص، ٥٧/٢٨]، بمعنى "ذي أمن".

ووجهُ الإقسام بهاتيك البقاع المباركة المشحونة ببركات الدنيا والدِّين غنيٌّ عن الشرح والتبيين.

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: جنسَ الإنسان ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي: كائنًا في أحسن ما يكون مِن التقويم والتعديل صورةً ومعنًى، حيث برَأه تعالى مستويَ القامة،

---

١ جامع البيان للطبري، ٥٠٤/٢٤.

٢ اللباب لابن عادل، ٤٤٠٦/٢٠؛ وعن الضحّاك في معالم التنزيل للبغوي، ٤٧١/٨: أنّها مسجدان بالشام.

٣ هو جابر بن زيد الأزدي البصري، أبو الشعثاء (ت. ٩٣هـ/٧١٢م). تابعي فقيه، مِن الأئمّة، مِن أهل البصرة، أصله مِن عُمان. صحب ابن عبّاس، وهو مِن بحور العلم ويعدّ مع الحسن وابن سيرين. نفاه الحجّاج إلى عُمان. قال قتادة عند موته: اليوم مات أعلم أهل العراق. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤٨١/٤؛ والأعلام للزركلي، ١٠٤/٢.

٤ جامع البيان للطبري، ٥٠١/٢٤-٥٠٣؛ معالم التنزيل للبغوي، ٤٧١/٨.

٥ يَبْرِين، وأَبْرِين لغة فيه: اسم قرية كثيرة النخل والعيون العذبة بحذاء الأحساء مِن بني سعد بالبحرين. انظر: معجم البلدان للحموي، ٤٢٧/٥، ٧١/١.

٦ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٨٤/٤.

متناسبَ الأعضاء، متّصفًا بالحياة والعِلم والقدرة والإرادة والتكلّم والسمع والبصر وغير ذلك مِن الصفات التي هي أنموذجات مِن الصفات السبحانيّة وآثارٌ لها، وقد عبَّر بعض العلماء[١] عن ذلك بقوله: «خلق آدمَ على صورته»،[٢] وفي رواية «على صورة الرحمن»،[٣] وبنى عليه تحقيق معنى قوله: «مَن عرَف نفسه فقد عرف ربّه»، وقال: إنّ النفس الإنسانيّة مجرّدةٌ ليست حالّةً في البدن ولا خارجةً عنه، متعلّقةٌ به تعلُّقَ التدبير والتصرّف، تستعمله كيفما شاءت، فإذا أرادت فعلًا مِن الأفاعيل الجسمانيّة تُلقيه إلى ما في القلب مِن الروح الحيوانيّ الذي هو أعدل الأرواح وأصفاها، وأقربُها منها، / وأقواها مناسبةً إلى عالم [٣٠٧ظ] المجرَّدات إلقاءً روحانيًا، وهو يُلقيه بواسطة ما في الشرايين مِن الأرواح إلى الدِّماغ الذي هو منبَت الأعصاب التي فيها القوى المحرِّكة للإنسان، فعند ذلك يحرِّك مِن الأعضاء ما يليق بذلك الفعل مِن مباديه البعيدة والقريبة، فيصدُر عنه ذلك بهذه الطريقة، فمَن عرَف نفسه على هذه الكيفيّة مِن صفاتها وأفعالها تسنّى له أن يترقّى إلى معارج معرفة ربّ العزّة عزّ سلطانه، ويطّلعَ على أنّه سبحانه منزَّه عن كونه داخلًا في العالم أو خارجًا منه، يفعل فيه ما يشاء ويحكم ما يريد بواسطة ما رتَّبه فيه مِن الملائكة الذين يُستَدلّ على شئونهم بما ذُكر مِن الأرواح والقوى المرتَّبة في العالم الإنسانيّ الذي هو نسخة للعالم الأكبر وأنموذج منه.[٤]

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي: جعلناه مِن أهل النّار الذين هم أقبح مِن كلّ قبيح، وأسفل مِن كلّ سافل، لعدم جريانه على موجَب ما خلقناه عليه مِن الصفات التي لو عمل بمقتضاها لكان في أعلى علّيّين. وقيل: رددناه إلى أرذل العمر، وهو الهرم بعد الشباب، والضعف بعد القوّة، كقوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾ [يس، ٣٦/٦٨].[٥] وأيًّا ما كان فـ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾

---

١ وفي هامش م: هو الإمام حُجّة الإسلام محمّد الغزّالي رحمه الله.

٢ مسند أحمد، ٢٧٥/١٢ (٧٣٢٣)؛ صحيح ابن حبّان، ٤٢٠/١٢ (٥٦٠٥).

٣ المعجم الكبير للطبراني، ٤٣٠/١٢ (١٣٥٨٠).

٤ الكلام بمعناه في ميزان العمل للغزّالي، ص ٦٩-٧١.

٥ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٨٥/٤.

إمّا حال مِن المفعول، أي: رددناه حال كونه أسفل سافلين، أو صفة لمكان محذوف، أي: رددناه مكانًا أسفلَ سافلين، والأوّل أظهر. وقُرئ: "أَسْفَلَ السَّافِلِينَ".[١]

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ على الأوّل استثناء متّصل مِن ضمير ﴿رَدَدْنَٰهُ﴾، فإنّه في معنى الجمع، وعلى الثاني منقطع، أي: لكنّ الذين كانوا صالحين مِن الهرمى. ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غير منقطِع على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله تعالى بالشيخوخة والهرم، وعلى مقاساة المشاقّ، والقيام بالعبادة على تخاذل نهوضهم، أو غيرُ ممنون به عليهم. وهذه الجملة على الأوّل / مقرّرة لِما يفيده الاستثناء مِن خروج المؤمنين عن حكم الردّ، ومبيّنة لكيفيّة حالهم. [٣٠٨و]

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾

والخطاب في قوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ للرسول عليه السلام، أي: فأيُّ شيء يكذِّبك دلالةً أو نطقًا بالجزاء بعد ظهور هذه الدلائل الناطقة به؟ وقيل: ﴿مَا﴾ بمعنى "مَن". وقيل: الخطاب للإنسان على طريق الالتفات لتشديد التوبيخ والتبكيت، أي: فما يجعلك كاذبًا بسبب الدِّين وإنكاره بعد هذا الدليل؟[٢] والمعنى أنّ خَلْق الإنسان مِن نطفة وتقويمَه بشرًا سويًّا وتحويلَه مِن حال إلى حال كمالًا ونقصانًا مِن أوضح الدلائل على قدرة الله عزّ وجلّ على البعث والجزاء، فأيُّ شيء يضطرُّك بعد هذا الدليل القاطع إلى أن تكون كاذبًا بسبب تكذيبه أيها الإنسان؟

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أي: أليس الذي فعل ما ذُكر بأحكم الحاكمين صنعًا وتدبيرًا حتّى يُتوهَّم عدمُ الإعادة والجزاء، وحيث استحال عدم كونه أحكمَ الحاكمين تعيَّن الإعادة والجزاء، فالجملةُ تقرير لِما قبلها. وقيل: الحُكم بمعنى القضاء، فهي وعيد للكفّار، وأنّه يحكم عليهم بما يستحقّونه مِن العذاب.[٣]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ٥٨٥/٤.

٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٨٥/٤.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ٤١١/٢٠.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «أنّه كان إذا قرأها يقول: بلى، وأنا على ذلك مِن الشاهدين».[١] وعنه عليه السلام: «مَن قرأ سورة ﴿وَٱلتِّينِ﴾ أعطاه الله تعالى الخصلتين: العافية واليقين ما دام في دار الدنيا، وإذا مات أعطاه الله تعالى مِن الأجر بعدد مَن قرأ هذه السورة».[٢]

---

١ مسند أحمد، ٣٥٣/١٢ (٧٣٩١)؛ سنن أبي داود، ١٦٣/٢ (٨٨٧)؛ سنن الترمذي، ٤٤٣/٥ (٣٣٤٧)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٨٥/٤.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٣٠ (الضحى، ١/٩٥)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٢٢/٤ (الضحى، ١/٩٥)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٨٥/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة العَلَق

مكّيّة، وهي تسعَ عشرةَ آيةً. قيل: هي أوّل سورة نزلت، والأكثرون على أنّ "الفاتحة" أوّلُ ما نزل، ثمّ هذه.[1]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾

﴿ٱقْرَأْ﴾ أي: ما يُوحى إليك، فإنّ الأمر بالقراءة يقتضي المقروء قطعًا، وحيث لم يُعيَّن وَجَب أن يكون ذلك ما يتّصل بالأمر حتمًا سواءً كانت السورة أوّلَ ما نزل أو لا. والأقربُ أنّ هذا إلى قوله تعالى: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2] أوّلُ ما نزل عليه عليه السّلام، كما ينطق به حديث الزُّهري المشهور.[3]

وقوله تعالى: ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ / متعلّق بمضمر هو حال مِن ضمير الفاعل، أي: اقرأ ملتبِسًا باسمه تعالى، أي: مبتدئًا به لتتحقّق مقارنته لجميع أجزاء المقروء. والتعرّض لعنوان الربوبيّة المنبِئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال اللائق شيئًا فشيئًا مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام للإشعار بتبليغه عليه السلام إلى الغاية القاصية مِن الكمالات البشريّة بإنزال الوحي المتواتر. [٣٠٨ظ]

ووصفُ الربّ بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ لتذكير أوّلِ النَّعماء الفائضة عليه منه تعالى والتنبيهِ على أنّ مَن قدَر على خَلْق الإنسان، على ما هو عليه مِن الحياة وما يتبعها مِن الكمالات العِلميّة والعمليّة مِن مادّة لم يشَمّ رائحة الحياة

---

[1] س – قيل: هي أوّل سورة نزلت، والأكثرون على أنّ "الفاتحة" أوّلُ ما نزل، ثمّ هذه.

[2] في الآية الخامسة مِن هذه السورة.

[3] يعني حديث بدء الوحي. انظره في صحيح البخاري، ٧/١ (٣)؛ وصحيح مسلم، ١٣٩/١ (٢٥٢)؛ وجامع البيان للطبري، ٥٢٨/٢٤-٥٢٩.

فضلًا عن سائر الكمالات، قادرٌ[1] على تعليم القراءة للحيّ العالم المتكلِّم، أي: الذي أنشأ الخلق واستأثر به، أو خَلَق كلّ شيء.

وقوله تعالى:[2] ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ على **الأوّل** تخصيصٌ لخَلْق الإنسان بالذِّكر مِن بين خلق سائر المخلوقات لاستقلاله ببدائع الصُّنع والتدبير، وعلى **الثاني** إفرادٌ للإنسان مِن بين سائر المخلوقات بالبيان وتفخيمٌ لشأنه؛ إذ هو أشرفهم وإليه التنزيل، وهو المأمور بالقراءة.

ويجوز أن يُراد بالفعل الأوّل أيضًا خَلْقُ الإنسان، ويُقصَد بتجريده عن المفعول الإبهامُ ثمّ التفسيرُ رَومًا لتفخيم فطرته.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ أي: دم جامدٍ لبيان كمال قدرته تعالى بإظهار ما بين حالته الأولى والآخرة مِن التبايُن البيِّن. وإيرادُه بلفظ الجمع بناءً على أنّ الإنسان في معنى الجمع لمراعاة الفواصل، ولعلّه هو السرّ في تخصيصه بالذِّكر مِن بين سائر أطوار الفطرة الإنسانيّة، مع كون النُّطفة والترابِ أدلَّ منه على كمال القدرة لكونهما أبعدَ منه بالنسبة إلى الإنسانيّة.

ولمّا كان خَلْق الإنسان أوّلَ النِّعم الفائضة عليه منه تعالى وأقدمَ الدلائل الدالّة على وجوده عزّ وجلّ وكمالِ قدرته وعِلمه وحكمته وصفَ[3] ذاته تعالى بذلك أوّلًا ليستشهد عليه السلام به على تمكينه تعالى له مِن القراءة، ثمّ كُرِّر الأمر / [٣٠٩و] بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ﴾ أي: افعل ما أُمِرتَ به تأكيدًا للإيجاب وتمهيدًا لِما يعقبه مِن قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾... إلخ، فإنّه كلام مستأنَف واردٌ لإزاحة ما بيَّنه عليه السلام مِن العُذر بقوله عليه السلام: «ما أنا بقارئ»،[4] يريد أنّ القراءة شأنُ مَن يكتب ويقرأ وأنا أمّي، فقيل: له: وربّك الذي أمرك بالقراءة مبتدئًا باسمه هو الأكرم.

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ أي: علّم ما علّم بواسطة القلم لا غيرِه، فكما علّم القارئ بواسطة الكتابة والقلم يعلِّمك بدونها. وقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

---

١ السياق: أنّ مَن قدَر... قادرٌ...
٢ س - تعالى.
٣ السياق: ولمّا كان... وصف...
٤ صحيح البخاري، ١/٧ (٣)؛ صحيح مسلم، ١٣٩/١ (٢٥٢).

بدل اشتمال مِن ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾، أي: علّمه به وبدونه مِن الأمور الكلّيّة والجزئيّة والجليّة والخفيّة ما لم يخطر بباله. وفي حذف المفعول أوّلًا وإيرادِه بعنوان عدمِ المعلوميّة ثانيًا مِن الدلالة على كمال قدرته تعالى وكمالِ كرمه والإشعارِ بأنّه تعالى يعلِّمه مِن العلوم ما لا تحيط به العقول ما لا يخفى.

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۞ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ۞ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۞ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۞ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۞ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۞ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۞﴾

﴿كَلَّآ﴾ ردع لمَن كفر بنعمة الله تعالى عليه بطغيانه وإن لم يسبق ذِكره للمبالغة في الزجر. وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ أي: ليُجاوز الحدّ ويستكبر على ربّه، بيانٌ للمردوع والمردوع عنه. قيل: هذا إلى آخر السورة نزَل في أبي جهل بعد زمان.[1] وهو الظاهر.

وقوله تعالى: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ مفعول له، أي: يطغى لأنّ رأى نفسه مستغنيًا، على أنّ ﴿ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ مفعول ثان لـ﴿رَءَا﴾ لأنه بمعنى "علِم"، ولذلك ساغ كون فاعلِه ومفعولِه ضميرَيْ واحدٍ كما في "علِمتُني"، وإن جوّزه بعضهم في الرؤية البصريّة أيضًا وجَعَل مِن ذلك قولَ عائشةَ رضي الله عنها: «لقد رأيتُنا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وما لنا طعام إلّا الأسودان».[2] وتعليلُ طغيانه برؤيته لا بنفس الاستغناء، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى، ٤٢/٢٧]، للإيذان بأنّ مدار طغيانه زعمُه الفاسد.

رُوي أنّ أبا جهل قال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أتزعُم أنّ / مَن استغنى طغى؟ فاجعل لنا جبال مكّة فضّةً وذهبًا لعلّنا نأخذ منها فنطغى فندع ديننا ونتّبع دينك»، فنزل جبريلُ عليه السلام فقال: «إن شئت فعلنا ذلك، [٣٠٩ظ]

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٨٧.

٢ نقل ذلك ابن عادل في اللباب، ٢٠/٤١٧-٤١٨، عن السمين الحلبيّ في الدرّ المصون، ١١/٥٧. والحديث بلفظ قريب في مسند أحمد، ٤١/٢٨٥ (٢٤٧٦٨).

ثمّ إن لم يؤمنوا فعلنا بهم ما فعلنا بأصحاب المائدة»، فكفّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن الدّعاء إبقاءً[1] عليهم.[2]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ تهديد للطاغي وتحذيرٌ له مِن عاقبة الطغيان. والالتفات للتشديد في التهديد. و﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ مصدر بمعنى الرُّجوع كـ"البُشرى"، وتقديم الجارّ والمجرور عليه لقصره عليه، أي: إنّ إلى مالك أمرِك رجوعَ الكلّ بالموت والبعث لا إلى غيره استقلالًا أو اشتراكًا، فسترى حينئذ عاقبةَ طغيانك.

وقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ تقبيح وتشنيعٌ لحاله وتعجيبٌ منها، وإيذانٌ بأنّها مِن الشَّناعة والغرابة بحيث يجب أن يراها كلّ مَن يتأتّى منه الرؤية ويقضيَ منها العجبَ. رُوي أن أبا جهل قال في ملأ مِن طُغاة قريش: «لئن رأيتُ محمّدًا يصلّي لأطأنّ عنقه»، فرآه عليه السلام في الصلاة فجاءه ثمّ نكَص على عقبَيه، فقالوا: «ما لك؟» قال: «إن بيني وبينه لخندقًا مِن نار وهولًا وأجنحةً»، فنزلت.[3] ولفظُ "العبد" وتنكيرُه لتفخيمه صلّى الله عليه وسلّم واستعظامِ النهي وتأكيدِ التعجيب منه.

والرؤية ههنا بصريّة، وأمّا ما في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ وما في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ فقلبيّة، معناه "أخبرني"، فإنّ الرؤية لمّا كانت سببًا للإخبار عن المرئيّ أُجري الاستفهام عنها مُجرى الاستخبار عن متعلَّقها، والخطاب لكلّ مَن صلح للخطاب.

ونظمُ "الأمر" و"التكذيب" و"التولّي" في سِلك الشرط المتردِّد بين الوقوع وعدمِه ليس باعتبار أنفس الأفعال المذكورة ومِن حيث صدورُها عن الفاعل، / فإنّ ذلك ليس في حيّز التردّد أصلًا؛ بل باعتبار أوصافها التي هي كونها أمرًا بالتقوى وتكذيبًا وتولّيًا، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ [فصلت، ٥٢/٤١] كما مرّ. [٣١٠و]

---

[1] في هامش م: رحمةً.

[2] لم أجده في مظانّه. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٥٨٧/٤؛ واللباب لابن عادل، ٤١٨/٢٠.

[3] بمعناه في صحيح مسلم، ٢١٥٤/٤ (٢٧٩٧)؛ وجامع البيان للطبري، ٥٣٤/٢٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٨٧/٤.

والمفعول الأوّل لـ﴿أَرَءَيْتَ﴾ محذوف، وهو ضميرٌ يعود إلى الموصول، أو اسمُ إشارة يُشار به إليه، ومفعولُه الثاني سدّ مسدّه الجملة الشرطيّة بجوابها المحذوف، فإنّ المفعول الثاني لـ﴿أَرَءَيْتَ﴾ لا يكون إلّا جملةً استفهاميّةً أو قسميّةً، والمعنى: أخبِرني ذلك الناهي إن كان على الهدى فيما ينهى عنه مِن عبادة الله تعالى، أو آمرًا بالتقوى فيما يأمر به مِن عبادة الأوثان كما يعتقده، أو مُكذِّبًا للحقّ معرِضًا عن الصواب، كما نقول نحن: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ أي: يطّلع على أحواله فيُجازيه بها حتّى اجترأ على ما فعل.

وإنّما أُفرِد "التكذيب" و"التولّي" بشرطيّة مستقلّة مقرونة بالجواب مصدَّرة باستخبار مستأنَف، ولم يُنظما في سِلك الشرط الأوّل بعطفهما على ﴿كَانَ﴾ للإيذان باستقلالهما بالوقوع في نفس الأمر وباستتباع الوعيد الذي ينطق به الجواب، وأمّا القسم الأوّل فأمرٌ مستحيل قد ذُكر في حيّز الشرط لتوسيع الدائرة، وهو السرّ في تجريد الشرطيّة الأولى عن الجواب والإحالةِ به على جواب الثانية.

هذا، وقد قيل: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الأوّل بمعنى "أخبِرني"، مفعوله الأوّل الموصول ومفعوله الثاني الشرطيّة الأولى بجوابها المحذوف لدلالة جواب الشرطيّة الثانية عليه، و﴿أَرَءَيْتَ﴾ في الموضعين تكرير للتأكيد، ومعناه أخبرني عمّن ينهى بعضَ عباد الله تعالى عن صلاته، إن كان ذلك النّاهي على طريقة سديدة فيما ينهى عن عبادة الله تعالى، أو كان آمرًا بالمعروف والتقوى فيما يأمر به مِن عبادة الأوثان كما يعتقده، وكذلك إن كان على التكذيب للحقّ والتولّي عن الدِّين الصحيح، كما نقول نحن: ألم يعلم بأنّ الله يرى ويطّلع على أحواله مِن هُداه وضلاله فيُجازيه على حسب ذلك.[1] فتأمّلْ.

وقيل: المعنى أرأيتَ الذي ينهى عبدًا يصلّي، والمَنهيُّ عن الهدى آمرٌ بالتقوى والناهي مكذِّب متولٍّ، فما أعجبُ مِن ذا؟ / وقيل: الخطاب الثاني للكافر، فإنّه تعالى [٣١٠ظ] كالحاكم الذي حضره الخصمان يُخاطب هذا مرّةً والآخرَ أخرى، وكأنّه قال: يا كافر أخبِرني إن كان صلاته هدًى ودعاؤه إلى الله تعالى أمرًا بالتقوى أتنهاه؟[2]

---

[1] القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٨٧/٤.
[2] القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٥٢/٣.

وقيل: هو أميّةُ بن خَلَف، كان ينهى سلمانَ عن الصلاة.[١]

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع للناهي اللعين وخَسْءٌ له. و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ موطِّئة للقسم، أي: والله لئن لم ينته عمّا هو عليه ولم ينزجر ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ لنأخذنّ بناصيته ولنَسحبَنّه بها إلى النّار. والسَّفع: القبض على الشيء وجذبُه بعُنف وشِدّة. وقُرئ: "لَنَسْفَعَنَّ"[٢] بـ"النون" المشدَّدة، وقُرئ: "لَأَسَفَعَنْ"،[٣] وكِتبتُه في المصحف بـ"الألف" على حُكم الوقف، والاكتفاءُ بلام العهد عن الإضافة لظهور أنّ المراد ناصية المذكور.

﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ بدل مِن ﴿النَّاصِيَةِ﴾، وإنّما جاز إبدالها عن المعرفة وهي نكرة لوصفها. وقُرئت بالرفع[٤] على "هي ناصية"، وبالنصب،[٥] وكلاهما على الذمّ والشتم. ووصفُها بالكذب والخطأ على الإسناد المجازي، وهما لصاحبها، وفيه مِن الجزالة ما ليس في قولك: ناصيةُ كاذبٍ خاطئٍ.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أي: أهل ناديه ليُعينوه، وهو المجلس الّذي ينتدي فيه القوم، أي: يجتمعون. رُوي أنّ أبا جهل مرّ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم وهو يصلّي فقال: «ألم أنهَك؟» فأغلظ له رسول الله، فقال: «أتُهدّدني وأنا أكثر أهل الوادي ناديًا؟»»، فنزلت.[٦]

---

١ مرويّ عن الحسن في الكشّاف للزمخشري، ٥٨٧/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن محبوب وخالد وعَدي عن أبي عمرو. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٣٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمر وأبي البَرَهسم وعُبيد بن عُمير. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٣٨.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وزيد بن عليّ وابن أبي عبلة. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٣٨.

٦ بلفظ قريب في مسند أحمد، ١٦٤/٤؛ وسنن الترمذي، ٤٤٤/٥ (٣٣٤٩)؛ وجامع البيان للطبري، ٥٣٧/٢٤-٣٣٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٨٨/٤.

﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ ليَجرُّوه إلى النار. والزَّبانية: الشُّرَط، الواحدة "زِبْنِية" كـ"عِفْرِيَة"[1] مِن الزَّبْن وهو الدّفع، وقيل: "زَبَنيّ"، وكأنّه نُسِب إلى "الزَّبْن" ثمّ غُيِّر كـ"إمسيّ"، وأصلها "زَبانيّ"، فقيل: "زَبانِيَة" بتعويض "التاء" عن "الياء"، والمراد ملائكة العذاب. عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لو دعا ناديَه لأخذته الزبانية عِيانًا».[2]

/ ﴿كَلَّا﴾ ردع بعد ردع، وزجر إثر زجر ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ أي: دُم على ما أنت عليه مِن معاصاته ﴿وَٱسْجُدْ﴾ وواظب على سجودك وصلاتك غيرَ مكترث به ﴿وَٱقْتَرِب۩﴾ وتقرَّب بذلك إلى ربّك. وفي الحديث: «أقرب ما يكون العبدُ إلى ربّه إذا سجد».[3] [٣١١و]

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة العلق أعطي مِن الأجر كأنّما قرأ المفصّل كلّه».[4]

---

[1] س: كعفريته.

[2] بلفظ قريب في مسند أحمد، ١٦٤/٤؛ وسنن الترمذي، ٤٤٤/٥ (٣٣٤٩)؛ وجامع البيان للطبري، ٥٣٧/٢٤-٣٣٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٨٨/٤.

[3] صحيح مسلم، ٣٥٠/١ (٤٨٢)؛ سنن أبي داود، ١٥٥/٢ (٨٧٥)؛ بلفظ «وهو ساجد» مكان «إذا سجد»، وهو بلفظه ههنا في الكشّاف للزمخشري، ٥٨٨/٤.

[4] س + تمّ. | الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢/٣٠ (العلق، ١/٩٦)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٢٧/٤ (العلق، ١/٩٦)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٨٨/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة القَدْر

مختلَف فيها، وهي خمس آياتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥﴾

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ تنويه بشأن القرآن الكريم، وإجلالٌ لمحلّه بإضماره المُؤذِن بغاية نباهته المُغنية عن التصريح به، كأنّه حاضر في جميع الأذهان، وبإسناد إنزاله إلى نون العظمة المنبئ عن كمال العناية به، وبتفخيم وقت إنزاله بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ لِما فيه مِن الدلالة على أنّ علوّ قدرها خارج عن دائرة دراية الخلق لا يَدريها ولا يُدرِيها إلّا علّام الغيوب، كما يُشعر به قوله تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ فإنّه بيان إجمالي لشأنها إثر تشويقه عليه السلام إلى درايتها، فإنّ ذلك مُعرِب عن الوعد بإدرائها، وقد مرّ بيان كيفيّة إعراب الجملتين. وفي إظهار ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ في الموضعين مِن تأكيد التفخيم ما لا يخفى.

والمراد بإنزاله فيها إمّا إنزال كلِّه إلى السماء الدنيا، كما رُوي أنّه أنزل جملةً واحدةً في ليلة القدر مِن اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، وأملاه جبريلُ عليه السلام على السَّفَرة، ثمّ كان يُنزِّله على النبيّ عليه السلام نجومًا في ثلاث وعشرين سنةً،[1] وإمّا ابتداء إنزاله فيها، كما نُقل عن الشعبي.[2]

---

[1] بمعناه في المستدرك للحاكم، ٢٤٢/٢ (٢٨٧٨)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٥٢٣/٣ (٢٠٥٣)؛ وجامع البيان للطبري، ٥٤٢/٢٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٨٩/٤.

[2] انظر: جامع البيان للطبري، ٥٤٣/٢٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٨٩/٤.

وقيل: المعنى أنزلناه في شأن ليلة القدر وفضلها،[١] كما في قول عمرَ رضي الله عنه: «خشيتُ أن ينزل فيّ قرآن»،[٢] وقول عائشةَ رضي الله عنها: «لَأنا أحقرُ في نفسي مِن أن ينزل فيّ قرآن»،[٣] فالأنسبُ أن يُجعل الضمير حينئذ للسورة التي هي جزء مِن القرآن، لا للكلّ.

واختلفوا في وقتها، فأكثرهم على أنّها في شهر رمضان في العشر الأواخر في أوتارها، وأكثر الأقوال أنّها / السابعة منها، ولعلّ السرَّ في إخفائها تعريض مَن يريدها للثواب الكثير بإحياء الليالي الكثيرة رجاءً لموافقتها.[٤] [٣١١ظ]

وتسميتها بذلك إمّا لتقدير الأمور وقضائها فيها لقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان، ٤/٤٤]، أو لخَطَرها وشرفها على سائر الليالي.

وتخصيص "الألْف" بالذِّكر إمّا للتكثير، أو لِما رُوي أنّه عليه السلام ذَكَر رجلًا مِن بني إسرائيلَ لبس السلاحَ في سبيل الله ألفَ شهر، فعجِب المؤمنون منه، وتقاصرت إليهم أعمالهم، فأُعطوا ليلةً هي خير مِن مدّة ذلك الغازي.[٥] وقيل: إنّ الرجل فيما مضى ما كان يقال له: "عابد" حتّى يعبد الله تعالى ألفَ شهر، فأُعطوا ليلةً إن أحيَوها كانوا أحقّ بأن يُسمَّوا عابدين مِن أولئك العُبّاد.[٦] وقيل: أُريَ النبيّ عليه السلام أعمارَ الأمم كافّةً فاستقصر أعمار أمّته فخاف أن لا يبلغوا مِن العمل مثلَ ما بلغ غيرُهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر، وجعلها خيرًا مِن ألف شهر لسائر الأمم.[٧] وقيل: كان مُلك سليمانَ خمسمائة شهرٍ، ومُلك ذي القرنين خمسمائة شهرٍ، فجعل الله تعالى العمل في هذه الليلة لمَن أدركها خيرًا مِن مُلكهما.[٨]

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٥٤/٣.
٢ صحيح البخاري، ١٢٦/٥ (٤١٧٧).
٣ صحيح البخاري، ١٧٣/٣ (٢٦٦١)؛ صحيح مسلم، ٢١٢٩/٤ (٢٧٧٠).
٤ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٨٩/٤.
٥ بلفظ قريب عن ابن عبّاس ومجاهد في تفسير ابن أبي حاتم، ٣٤٥٢/١٠؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٤٩٠/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٨٩/٤.
٦ القول في الكشف والبيان للثعلبي، ١٠٩/٣٠؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٨٩/٤.
٧ ما وجدته في مظانّه. وهو في اللباب لابن عادل، ٤٢٨/٢٠.
٨ القول عن أبي بكر الورّاق في اللباب لابن عادل، ٤٢٨/٢٠.

وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ استئناف مبيّن لمناط فضلها على تلك المدّة المتطاولة. قد سبق في سورة النبأ[1] ما قيل في شأن الروح على التفصيل. وقيل: هم خَلْق مِن الملائكة لا يراهم الملائكة إلّا تلك الليلة،[2] أي: تتنزّل الملائكة والروح في تلك الليلة مِن كلّ سماء إلى الأرض أو إلى السماء الدنيا.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ متعلّق بـ﴿تَنَزَّلُ﴾ أو بمحذوف هو حال مِن فاعله، أي: ملتبِسين بإذن ربّهم، أي: بأمره. ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: مِن أجل كلّ أمر قضاه الله عزّ وجلّ لتلك السنة إلى قابل، كقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان، ٤/٤٤]. وقُرئ: "مِنْ كُلِّ امْرِئٍ"،[3] أي: مِن أجل كلّ إنسان. قيل: لا يلقَون فيها مؤمنًا ولا مؤمنةً إلّا سلّموا عليه.[4]

﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ أي: ما هي إلّا سلامة، أي: لا يقدِّر الله تعالى فيها إلّا السلامة والخير، وأمّا في غيرها / فيقضي سلامةً وبلاءً، أو ما هي إلّا سلام لكثرة ما [٣١٢و] يسلِّمون فيها على المؤمنين. ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ أي: وقت طلوعه. وقُرئ بالكسر[5] على أنّه مصدر كـ"المَرجِع"، أو اسم زمان على غير قياس كـ"المَشرِق". و﴿حَتَّىٰ﴾ متعلِّقة بـ﴿تَنَزَّلُ﴾ على أنّها غاية لحُكم التنزّل، أي: لمكثهم في محلّ تنزُّلهم، أو لنفس تنزُّلهم بأن لا ينقطع تنزُّلهم فوجًا بعد فوج إلى طلوع الفجر. وقيل: متعلِّقة بـ﴿سَلَٰمٌ﴾ بناءً على أنّ الفصل بين المصدر ومعموله بالمبتدأ مغتفَر في الجارّ.[6]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة القدر أعطي مِن الأجر كمَن صام رمضان وأحيا ليلة القدر».[7]

---

١ في الآية الثامنة والثلاثين منها.

٢ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٨٩/٤.

٣ س - أي: مِن أجل كلّ أمر قضاه الله عزّ وجلّ لتلك السنة إلى قابل، كقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، وقُرئ: "مِنْ كُلِّ امْرِئٍ". | قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وعكرمة والكلبي. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٩٣٩.

٤ القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٩٠/٤.

٥ قرأ بها الكسائي وخلف. **النشر** لابن الجزري، ٤٠٣/٢.

٦ القول في **اللباب** لابن عادل، ٤٣٠/٢٠.

٧ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٥٧/٣٠ (القدر، ١/٩٧)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٥٣٢/٤ (القدر، ١/٩٧)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٩٠/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة البيّنة[1]

مدنيّة،[2] وهي ثماني آياتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: اليهود والنّصارى. وإيرادُهم بذلك العنوان للإشعار بعلّة ما نُسب إليهم مِن الوعد باتّباع الحقّ، فإنّ مناط ذلك وجدانهم له في كتابهم. وإيرادُ الصلة فعلًا لِما أنّ كفرهم حادث بعد أنبيائهم. ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: عبدةِ الأصنام، وقُرِئَ: "وَالمُشْرِكُونَ"[3] عطفًا على الموصول ﴿مُنفَكِّينَ﴾ أي: عمّا كانوا عليه مِن الوعد باتّباع الحقّ والإيمان بالرسول المبعوث في آخر الزمان والعزم على إنجازه.

وهذا الوعد مِن أهل الكتاب ممّا لا ريبَ فيه، حتّى إنّهم كانوا يستفتحون ويقولون: اللّٰهمّ افتح علينا وانصرنا بالنبيّ المبعوث في آخر الزمان، ويقولون لأعدائهم مِن المشركين: قد أظلّ زمان نبيّ يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قَتْل عاد وإرَم، وأمّا مِن المشركين فلعلّه قد وقع مِن متأخِّريهم بعد ما شاع ذلك مِن أهل الكتاب، واعتقدوا صحّته بما شاهدوا مِن نصرتهم على أسلافهم، كما يشهد به أنّهم كانوا يسألونهم عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هل هو المذكور في كتابهم، وكانوا يغرُّونهم بتغيير نعوته عليه السلام.

---

١ س: القيّمة.

٢ س: مكّيّة، وقيل مدنيّة.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش وابن مسعود. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٤١.

وانفكاك الشيء مِن الشيء أن يُزايله بعد التحامه، كالعَظْم إذا انفكّ مِن مفصله، وفيه إشارة إلى كمال وَكَادة وعدهم، أي: لم يكونوا مفارقين للوعد المذكور؛ بل كانوا مُجمعين عليه، عازمين على إنجازه.

﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ التي كانوا قد جعلوا إتيانها مِيقاتًا لاجتماع الكلمة والاتّفاق على الحقّ، فجعلوه مِيقاتًا للانفكاك والافتراق وإخلاف الوعد. والتعبير عن إتيانها بصيغة المضارع باعتبار حالِ المحكيّ لا باعتبار حال الحكاية، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [البقرة، ١٠٢/٢] أي: تلَت.

وقوله تعالى: ﴿رَسُولٌ﴾ بدل مِن ﴿ٱلۡبَيِّنَةُ﴾، عُبِّر عنه عليه السلام بالبيّنة للإيذان بغاية ظهور أمره، وكونه ذلك الموعود في الكتابين. وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بمضمر هو صفة لـ﴿رَسُولٌ﴾ مؤكِّد لِما أفاده التنوين مِن الفخامة الذاتيّة بالفخامة الإضافيّة، أي: رسول وأيّ رسول كائن منه تعالى؟

وقوله تعالى: ﴿يَتۡلُواْ﴾ صفة أخرى له، أو حال مِن الضمير في متعلَّق الجارّ. ﴿صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ أي: منزَّهةً مِن الباطل، لا يأتيه مِن بين يديه ولا مِن خلفه، ومِن أن يمسّه غيرُ المطهَّرين. ونسبةُ تلاوتها إليه عليه السلام مِن حيث إنّ تلاوة ما فيها بمنزلة تلاوتها.

وقوله تعالى: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ صفة لـ﴿صُحُفًا﴾ أو حال مِن ضميرها في ﴿مُّطَهَّرَةً﴾، ويجوز أن يكون الصفةُ أو الحالُ الجارَّ والمجرورَ فقط و﴿كُتُبٌ﴾ مرتفعًا به على الفاعلية.[1] ومعنى ﴿قَيِّمَةٌ﴾ مستقيمة ناطقة بالحقّ والصواب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾... إلى آخره، كلام مسوق لغاية تشنيعِ أهل الكتاب خاصّة وتغليظِ جناياتهم، ببيان أنّ ما نُسِب إليهم مِن الانفكاك لم يكن لاشتباهٍ ما في الأمر؛ بل كان بعد وضوح الحقّ وتبيُّن الحال وانقطاعِ الأعذار بالكلّيّة، وهو السرُّ في وصفهم بإيتاء الكتاب المنبئ عن كمال تمكُّنهم مِن مطالعته، والإحاطة بما في تضاعيفه مِن الأحكام والأخبار التي مِن جملتها

---

[1] الوجه في اللباب لابن عادل، ٤٣٨/٢٠.

نعوت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعد ذِكرهم فيما سبَق بما هو جارٍ مَجرى اسم الجنس للطائفتين.

[٣١٢ظ] / ولمّا كان هؤلاء والمشركون باعتبار اتّفاقهم على الرأي المذكور في حُكم فريق واحد عُبّر عمّا صدر عنهم عَقيب الاتّفاق عند الإخبار بوقوعه بالانفكاك وعند بيان كيفيّة وقوعه بالتفرّق اعتبارًا لاستقلال كلٍّ مِن فريقَي أهل الكتاب، وإيذانًا بأنّ انفكاكهم عن الرأي المذكور ليس[١] بطريق الاتّفاق على رأي آخر؛ بل بطريق الاختلاف القديم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأوقات، أي: وما تفرَّقوا في وقت مِن الأوقات إلّا مِن بعد ما جاءتهم الحجّة الواضحة الدالّة على أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هو الموعود في كتابهم دلالةً جليّةً لا ريبَ فيها، كقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ [آل عمران، ١٩/٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ جملة حاليّة مفيدة لغاية قبح ما فعلوا، أي: والحال أنّهم ما أُمِروا بما أُمِروا في كتابهم إلّا لأجل أن يعبدوا الله. وقيل: "اللام" بمعنى "أن"، أي: إلّا بأن يعبدوا الله، ويعضده قراءة "إِلَّا أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ".[٢]

﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: جاعلين دينهم خالصًا له تعالى، أو جاعلين أنفسهم خالصةً له تعالى في الدِّين. ﴿حُنَفَآءَ﴾ مائلين عن جميع العقائد الزائغة إلى الإسلام ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ إن أريدَ بهما ما في شريعتهم مِن الصلاة والزكاة فالأمرُ ظاهر، وإن أريدَ ما في شريعتنا فمعنى أمرهم بهما في الكتابين أنّ أمرهم باتّباع شريعتنا أمر لهم بجميع أحكامها التي هما مِن جملتها.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن عبادة الله تعالى بالإخلاص وإقامةِ الصلاة وإيتاءِ الزكاة، وما فيه مِن معنى البُعد للإشعار / بعُلوّ رتبته وبُعد منزلته. ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ أي: دِين المِلّة القيّمة. وقُرئ: "الدِّينُ القَيِّمَةُ"[٣] على تأويل الدِّين بالمِلّة. [٢٨٢ظ]

---

١ س – ليس.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٩١-٥٩٢. | قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٤٢.

٣ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٩١.

هذا، وقد قيل: قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إلى قوله: ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ حكايةٌ لِما كانوا يقولونه قبل مبعثه عليه السلام: مِن أنّهم لا ينفكُّون مِن دِينهم إلى مبعثه، ويعِدون أن ينفكّوا منه حينئذ، ويتّفقوا على الحقّ.[١]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ﴾... إلى آخره، بيان لإخلافهم الوعدَ، وتعكيسهم الأمرَ، بجَعْلهم ما هو سبب لانفكاكهم مِن دينهم الباطل حسبما وعدوه سببًا لثباتهم عليه وعدمِ انفكاكهم منه. / ومُثِّل ذلك بأن يقول [٣١٣و] الفقير الفاسق لمَن يعِظه: "لا أنفكّ ممّا أنا فيه حتّى أستغنيَ"، فيستغني فيزداد فِسقًا، فيقول له واعظه: "لم تكن منفكًّا عن الفِسق حتّى توسِر، وما عكفتَ على الفسق إلّا بعد اليسار".[٢]

وأنت خبير بأنّ هذا إنّما يتسنّى بعد اللّتيّا والتي،[٣] على تقدير أن يُراد بالتفرّق تفرُّقُهم عن الحقّ، بأن يقال: "التفرّق عن الحقّ مستلزِمٌ للثبات على الباطل"، فكأنّه قيل: وما أجمعوا على دينهم إلّا مِن بعد ما جاءتهم البيّنة. وأمّا على تقدير أن يُراد به تفرُّقهم فِرقًا فمنهم مَن آمَن، ومنهم مَن أنكر، ومنهم مَن عرف وعاند، كما جوّزه القائل، فلا. فتأمَّل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ بيان لحال الفريقين في الآخرة بعد بيان حالهم في الدنيا، وذِكرُ المشركين لئلّا يُتوهَّم اختصاص الحُكم بأهل الكتاب حسب اختصاص مشاهدةِ شواهد النبوّة في الكتاب بهم، ومعنى كونهم فيها أنّهم يصيرون إليها يوم القيامة.

[١] القول بمعناه في اللباب لابن عادل، ٢٠/٤٣٤.
[٢] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٩١.
[٣] اللّتيّا والّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللّتيّا: تصغير التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١/١٦٤.

وإيراد الجملة الاسميّة للإيذان بتحقّق مضمونها لا محالةَ، أو أنّهم فيها الآن إمّا على تنزيل مُلابستهم لِما يُوجِبها منزلة ملابستهم لها، وإمّا على أنّ ما هم فيه مِن الكفر والمعاصي عينُ النار إلّا أنّها ظهرت في هذه النشأة بصور عرضيّة، وستخلعها في النشأة الآخرة وتظهر بصورتها الحقيقيّة، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة، ٤٩/٩]، وفي سورة الأعراف.[١]

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ حال مِن المستكنّ في الخبر، واشتراكُ الفريقين في دخول دار العذاب بطريق الخلود لا ينافي تفاوت عذابهم في الكيفيّة، فإنّ جهنّم دركاتٌ وعذابَها ألوانٌ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إليهم باعتبار اتّصافهم بما هم فيه مِن القبائح المذكورة، وما فيه مِن معنى البعد للإشعار بغاية بعد منزلتهم في الشرّ، أي: أولئك البعداء المذكورون ﴿هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ شرُّ الخليقة، أي: أعمالًا، وهو الموافق لِما سيأتي في حقّ المؤمنين، فيكون في حيّز التعليل لخلودهم في النار، أو شرُّهم مقامًا ومصيرًا، فيكون تأكيدًا لفظاعة حالهم. وقُرئ بـ"الهمز"[٢] على الأصل.

/ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بيان لمحاسن أحوال المؤمنين إثرَ بيان سوء حال الكفرة جريًا على السنّة القرآنيّة مِن شفع الترهيب بالترغيب. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بما هو في الغاية القاصية مِن الشرف والفضيلة مِن الإيمان والطاعة ﴿هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ وقُرئ: "خِيَارُ البَرِيَّةِ"،[٣] وهو جمع "خيّر"، نحو "جيّد" و"جِيَاد". [٣١٣ظ]

﴿جَزَآؤُهُمۡ﴾ بمقابلة ما لهم مِن الإيمان والطاعات ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ إن أريدَ بالجنّات الأشجار الملتفّة الأغصان كما هو الظاهر، فجريان الأنهار مِن تحتها ظاهر، وإن أريدَ بها مجموع الأرض وما عليها فهو باعتبار الجزء الظاهر، وأيًّا ما كان فالمراد جريانها بغير أُخدُودٍ.

---

١ وفي هامش م: عند قوله تعالى: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ﴾ [الأعراف، ٨/٧]. «منه».

٢ قرأ بها نافع وابن ذكوان. النشر لابن الجزري، ٤٠٧/١، ٤٠٣/٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبد الواحد. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٤٢.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ متنعِّمين بفنون النِّعم الجسمانيّة والروحانيّة. وفي تقديم مدحِهم بخيريّة البريّة، وذِكرِ الجزاء المؤذِن بكون ما منحوه في مقابلة ما وُصفوا به، وبيانِ كونه مِن عنده تعالى، والتعرّضِ لعنوان الربوبيّة المنبئة عن التربية، والتبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميرهم، وجمعِ الجنّات وتقييدها بالإضافة، وبما يزيدها نعيمًا، وتأكيدِ الخُلودِ بالأُبود، مِن الدلالة[1] على غاية حُسن حالهم ما لا يخفى.

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ استئناف مبيِّن لِما يتفضَّل عليهم زيادةً على ما ذُكر مِن أجزيَة أعمالِهم. ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ حيث بلغوا مِن المطالب قاصيتَها، ومَلَكوا مِن المآرب ناصيتَها، وأتيحَ لهم ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خَطَر على قلب بشر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن الجزاء والرضوان ﴿لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ فإنّ الخشية التي هي مِن خصائص العلماء بشئون الله عزّ وجلّ مناطٌ لجميع الكمالات العِلميّة والعمليّة المستتبِعة للسعادة الدينيّة والدنيويّة. والتعرّضُ لعنوان الربوبيّة المعربة عن المالكيّة والتربية للإشعار بعِلّة الخشية والتحذير مِن الاغترار بالتربية.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿لَمۡ يَكُنِ﴾ كان يوم القيامة مع خير البريّة مساءً ومقيلًا».[2]

---

[1] السياق: وفي تقديم... ما لايخفى...

[2] **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٢٤/٣٠ (البينة، ١/٩٨)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٥٣٨/٤ (البينة، ١/٩٨)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٩٢/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

/ سورة الزلزلة [٣١٤و]

مختلَف فيها، وهي تسع آياتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ۝١ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٦ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾

﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ أي: حُرِّكت تحريكًا عنيفًا متكرِّرًا متداركًا ﴿زِلۡزَالَهَا﴾ أي: الزلزالَ المخصوص بها على مقتضى المشيئة الإلهيّة المبنيّة على الحِكم البالغة، وهو الزلزال الشديد الذي لا غايةَ وراءه، أو زلزالَها العجيب الذي لا يُقادَر قَدْره، أو زلزالَها الداخل في حيّز الإمكان. وقُرئ بفتح "الزاء"،[١] وهو اسم، وليس في الأبنية "فَعْلال" بالفتح إلّا في المضاعَف،[٢] وقولُهم: "ناقة خَزْعال" نادرٌ.[٣] وقد قيل: "الزَّلزال" بالفتح أيضًا، مصدر كـ"الوَسواس" و"الجَرجار" و"القَلقال".[٤]

وذلك عند النفخة الثانية لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا﴾ أي: ما في جوفها مِن الأموات والدفائن، جمع "ثِقْل"، وهو متاع البيت. وإظهارُ ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ في موقع الإضمار لزيادة التقرير، أو للإيماء إلى تبدُّل الأرض غيرَ الأرض، أو لأنّ إخراج الأثقال حالُ بعض أجزائها.

﴿وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أي: كلّ فرد مِن أفراده، لِما يدهَمهم مِن الطامّة التامّة ويبهرهم مِن الدّاهية العامّة. ﴿مَا لَهَا﴾ زُلزِلت هذه المرتبة الشديدة مِن الزلزال،

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجَحدري. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٧.

[٢] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٩٣/٤.

[٣] نقله الجوهري في الصحاح، «خزعل»، عن الفرّاء، وفيه: «ناقة بها خَزعال، أي: ظَلَع».

[٤] الكلام في تفسير القرطبي، ١٤٧/٢٠، ونقله عنه ابن عادل في اللباب، ٤٤٥/٢٠.

وأخرجت ما فيها مِن الأثقال، استعظامًا لِما شاهدوه مِن الأمر الهائل، وقد سُيِّرت الجبال في الجوّ وصُيِّرت هباءً. وقيل: هو قول الكافر؛ إذ لم يكن مؤمنًا بالبعث.[١] والأظهر هو الأوّل، على أنّ المؤمنَ يقوله بطريق الاستعظام، والكافرَ بطريق التعجّب.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل مِن ﴿إِذَا﴾، وقوله تعالى: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ عامل فيهما، ويجوز أن يكون ﴿إِذَا﴾ منتصبًا بمضمر، أي: يوم إذ زُلزِلت الأرض تُحدِّث الخلقَ أخبارَها إمّا بلسان الحال حيث تدلّ دلالةً ظاهرةً على ما لأجله زِلزالُها وإخراجُ أثقالها، وإمّا بلسان المقال حيث يُنطقها الله تعالى فتُخبِر بما عُمل عليها مِن خير وشرّ. ورُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «أنّها تشهد على كلّ أحد بما عَمِل على ظهرها».[٢] وقُرئ: "تُنَبِّئُ أَخْبَارَهَا"[٣] وقُرئ: "تُنْبِئُ"[٤] مِن الإنباء.

[٣١٤ظ] ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي: تُحدِّث أخبارها بسبب إيحاء ربّك لها / وأمرِه إيّاها بالتحديث، على أحد الوجهين، ويجوز أن يكون بدلًا مِن ﴿أَخْبَارَهَا﴾، كأنّه قيل: تحدِّث بأخبارها بأنّ ربّك أوحى لها؛[٥] لأنّ التحديث يُستعمل بـ"الباء" وبدونها، وأوحى لها بمعنى أوحى إليها.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم إذ يقع ما ذُكر ﴿يَصْدُرُ النَّاسُ﴾ مِن قبورهم إلى موقف الحساب ﴿أَشْتَاتًا﴾ متفرِّقين بحسب طبقاتهم: بيضَ الوجوه آمنين، وسودَ الوجوه فزعين، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ، ١٨/٧٨]. وقيل: يصدرون عن الموقف أشتاتًا: ذات اليمين إلى الجنّة، وذات الشمال إلى النار.[٦] ﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: أجزية أعمالهم خيرًا كان أو شرًّا. وقُرئ: "لَيَرَوا"[٧] بالفتح.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٩٣/٤.

٢ مسند أحمد، ٤٥٥/١٤ (٨٨٦٧)؛ سنن الترمذي، ٦١٩/٤-٦٢٠ (٢٤٢٩)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٩٣/٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٤٣.

٤ س – "تنبئ". | قراءة شاذّة، مرويّة عن سعيد بن جبير. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٤٣.

٥ الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٥٩٣/٤.

٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٩٤/٤.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وقتادة والزّعفراني وحمّاد بن سلمة. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٤٤.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ تفصيل ﴿لِيُرَوْا﴾. وقُرئ: "يُرَهْ".[1] والذرّة: النملة الصغيرة. وقيل: ما يُرى في شعاع الشمس مِن الهَباء.[2] وأيًا ما كان فمعنى رؤية ما يعادلها مِن خير وشرّ إمّا مشاهدة جزائه، فـ﴿مَن﴾ الأولى مختصّة بالسُّعداء والثانية بالأشقياء، كيف لا، وحسنات الكافر مُحبَطة بالكفر، وسيّئات المؤمن المجتنِب عن الكبائر معفوّة.

وما قيل: مِن أنّ حسنة الكافر تؤثّر في نقص العقاب يردّه قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان، ٢٣/٢٥]. وأمّا مشاهدة نفسه مِن غير أن يعتبَر معه الجزاء ولا عدمه؛ بل يفوِّض كلّ منهما إلى سائر الدلائل الناطقة بعفو صغائر المؤمن المجتنِب عن الكبائر وإثابته لجميع حسناته، وبحبوط حسناتِ الكافر ومعاقبتِه لجميع معاصيه، فالمعنى ما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «ليس مِن مؤمن ولا كافر عَمِل خيرًا أو شرًّا إلّا أراه الله تعالى إيّاه، أمّا المؤمن فيغفر له سيّئاته ويُثيبه بحسناته، وأمّا الكافر فيردّ حسناته تحسُّرًا ويعاقب بسيّئاته».[3]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ أربع مرّات كان كمَن قرأ القرآن كلّه».[4]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس والحسن وزيد بن عليّ وأبان بن عاصم وابن أبي عبلة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٥٢٠.

[2] القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٥٩٤/٤.

[3] **جامع البيان** للطبري، ٥٦٣/٢٤؛ **معالم التنزيل** للبغوي، ٥٠٢/٨-٥٠٣.

[4] **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٤٠/٣٠ (البينة، ١/٩٩)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٥٤٢/٤ (البينة، ١/٩٩)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٥٩٤/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة والعادِيات

مختلَف فيها،[1] وهي إحدى عشرةَ آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ أقسم سبحانه بخيل الغُزاة التي تعدو نحوَ العدوّ. وقولُه تعالى: ﴿ضَبْحًا﴾ مصدرٌ منصوب إمّا بفعله المحذوف الواقع حالًا منها، أي: تضبَح ضَبْحًا، وهو صوت أنفاسها عند عَدْوها، أو بـ﴿ٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ فإنّ العَدْو مستلزِم للضبح، كأنّه قيل: "والضابحاتِ"، أو حالٌ على أنّه مصدر / بمعنى الفاعل، أي: ضابحاتٍ. [٣١٥و]

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ الإيراء: إخراج النار، والقدح: الصكّ. يقال: قدح فأورى، أي: فالتي تُورى النار مِن حوافرها. وانتصابُ ﴿قَدْحًا﴾ كانتصاب ﴿ضَبْحًا﴾ على الوجوه الثلاثة.

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ﴾ أسند الإغارة -التي هي مباغتة العدوّ للنهب أو القتل أو الأسر- إليها، وهي حالُ أهلِها، إيذانًا بأنّها العُمدة في إغارتهم. ﴿صُبْحًا﴾ أي: في وقت الصبح، وهو المعتاد في الغارات، يعدُون ليلًا لئلّا يشعر بهم العدوّ،[2] ويهجمون عليهم صباحًا ليَروا ما يأتون وما يذرون.

وقوله تعالى: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ﴾ عطفٌ على الفعل الذي دلّ عليه اسم الفاعل؛ إذ المعنى: واللاتي عدونَ فأورينَ فأغرنَ فأثرنَ به، أي: فهيَّجنَ بذلك الوقت.

---

[1] س – مختلف فيها.

[2] وفي هامش م: يطلق "العدوّ" على الواحد والجمع. «منه».

﴿نَقْعًا﴾ أي: غُبارًا، وتخصيصُ إثارته بالصبح؛ لأنّه لا يثور، أو لا يظهر ثَوَرانه بالليل. وبهذا ظهر أنّ الإيراء الذي لا يظهر في النهار واقع في الليل، ولله درُّ شأن التنزيل. وقيل: النقع: الصياح والجَلَبة.[١] وقُرِئ: "فَأَثَّرْنَ"[٢] بالتشديد، بمعنى فأظهرنَ به غُبارًا؛ لأنّ التأثير فيه معنى الإظهار.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ﴾ أي: توسَّطن بذلك الوقت، أو توسَّطن ملتبِسات بالنقع. ﴿جَمْعًا﴾ مِن جموع الأعداء، والفاءات للدلالة على ترتّب ما بعد كلٍّ منها على ما قبلها، كما في قوله:

يا لهفَ زَيّابةَ للحارث الصَّـ ـابحِ فالغانمِ فالآيبِ[٣]

فإنّ توسّط الجمع مترتِّب على الإثارة المترتِّبة على الإغارة المترتِّبة على الإيراء المترتِّب على العَدْو.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ أي: لكفور، مِن كَنَد النعمة كُنودًا. جواب القسم. والمراد بـ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ بعضُ أفراده.

رويَ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعث إلى أناس مِن بني كِنانة سَريّةً، واستعمل عليها المنذِر بنَ عمرو الأنصاري،[٤] وكان أحدَ النُّقباء، فأبطأ عليه عليه السلام خبرُها شهرًا، فقال المنافقون: «إنّهم قُتلوا»، فنزلت[٥] السورة إخبارًا للنبيّ صلّى الله عليه وسلّم بسلامتها، وبشارةً له / [٣١٥ظ] بإغارتها على القوم، ونعيًا على المرجِفين في حقّهم ما هم فيه مِن الكُنود. وفي تخصيص خيل الغُزاة بالإقسام بها مِن البراعة ما لا مزيد عليه، كأنّه قيل: وخيل الغزاة التي فعلت كيت وكيت، وقد أرجف هؤلاء في حقّ أربابها ما أرجفوا إنّهم مبالغون في الكفران.

---

١ جوّزه الزمخشري في الكشّاف، ٥٩٥/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حَيْوَة وابن أبي عبلة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٨.

٣ البيت لابن زَيّابة. ومضى بتخريجه في تفسير النازعات، ١/٧٩.

٤ هو المنذر بن عمرو بن خنيس الأنصاري الخزرجي الساعدي (ت. ٤هـ/٦٢٥م). أحد نقباء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الاثني عشر، وأحد السبعين الذين بايعوا النبيّ، شهد العقبة وبدرًا، واستشهد يوم بئر معونة. وكان في الجاهليّة يكتب بالعربيّة. انظر: الاستيعاب لابن عبد البرّ، ١٤٤٩/٤؛ والإصابة لابن حجر، ٢١٧/٦؛ والأعلام للزركلي، ٢٩٤/٧.

٥ بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ١٧١/٣٠؛ وتفسير القرطبي، ١٥٥/٢٠؛ واللباب لابن عادل، ٤٥٧/٢٠.

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ أي: وإنّ الإنسان على كُنوده ﴿لَشَهِيدٌ﴾ يشهد على نفسه بالكُنود لظهور أثره عليه.

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: المال، كما في قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة، ١٨٠/٢]. ﴿لَشَدِيدٌ﴾ أي: قويّ مُطيق مُجدٌّ في طلبه وتحصيله متهالكٌ عليه، يقال: هو شديد لهذا الأمر وقويّ له إذا كان مطيقًا له ضابطًا. وقيل: الشديد: البخيل،[1] أي: إنّه[2] لأجل حبّ المال وثقل إنفاقه عليه لبخيل ممسِك. ولعلّ وصفَه بهذا الوصف القبيح بعد وَصْفه بالكنود للإيماء إلى أنّ مِن جملة الأمور الداعية للمنافقين إلى النفاق حبَّ المال؛ لأنّهم بما يظهرون مِن الإيمان يعصمون أموالهم ويحوزون مِن الغنائم نصيبًا.

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾... إلى آخره، تهديدٌ ووعيد، و"الهمزة" للإنكار، و"الفاء" للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أيفعل ما يفعل مِن القبائح؟ أو ألا يُلاحظ فلا يعلم حالَه إذا بُعث مَن في القبور مِن الموتى؟ وإيرادُ ﴿مَا﴾ لكونهم إذ ذاك بمَعزِل مِن رتبة العقلاء. وقُرئ: "بُحْثِرَ"،[3] و"بُحِثَ"،[4] و"بَحْثَرَ"،[5] و"بَحَثَ"،[6] على بنائهما للفاعل.

﴿وَحُصِّلَ﴾ أي: جُمع محصّلًا، أو ميّز خيره مِن شرّه. وقُرئ: "حَصَّلَ"[7] مبنيًا للفاعل، و"حَصَلَ"[8] مخفّفًا. ﴿مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ مِن الأسرار الخفيّة التي مِن جملتها ما يُخفيه المنافقون مِن الكفر والمعاصي فضلًا عن الأعمال الجليّة.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٥٩٦/٤.
٢ س - إنّه.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٤٧.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأسود بن يزيد. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٤٧.
٥ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٥٩٦/٤.
٦ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٥٩٦/٤.
٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مِقسَم ومحمّد بن مَعْدان. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٤٧.
٨ قراءة شاذّة، مرويّة عن نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٤٧.

﴿إِنَّ رَبَّهُم﴾ أي: المبعوثين، كُنّيَ عنهم بعد الإحياء الثاني بضمير العقلاء بعد ما عُبّر عنهم قبل ذلك بـ﴿مَا﴾ بناءً على تفاوتهم في الحالين كما فُعل نظيرُه بعد الإحياء الأوّل حيث التُفِتَ إلى الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ الآية [النحل، ٧٨/١٦] بعد قوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة، ٩/٣٢] إيذانًا بصلاحيّتهم / للخطاب بعد نفخ الروح وبعدمها قبله، كما أشيرَ إليه هناك. [٣١٦و]

﴿بِهِمْ﴾ بذواتهم وصفاتهم وأحوالهم بتفاصيلها ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ يكون ما ذُكر مِن بَعْث ما في القبور وتحصيلِ ما في الصدور ﴿لَّخَبِيرٌ﴾ أي: عالم بظواهر ما عمِلوا وبواطنه عِلمًا موجِبًا للجزاء متّصلًا به، كما ينبئ عنه تقييده بذلك اليوم، وإلّا فمطلَق عِلمه سبحانه محيط بما كان وما سيكون، وقوله تعالى: ﴿بِهِمْ﴾ و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ متعلّقان بـ﴿خَبِيرٌ﴾ قدِّما عليه لمراعاة الفواصل، و"اللام" غيرُ مانعة مِن ذلك، وقرأ ابن السّمّال: "إِنّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ".[١]

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ أعطيَ مِن الأجر عشرَ حسنات بعدد مَن بات بمزدلفةَ وشهِد جمعًا».[٢]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السمّال. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٧٨-١٧٩.

٢ س + تمّ. | الكشف والبيان للثعلبي، ١٦٨/٣٠ (العاديات، ١/١٠٠)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٤٤/٤ (العاديات، ١/١٠٠)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٩٦/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة القارِعة

مكيّة، وهي إحدى عشرةَ آيةً.[1]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلۡقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٣ يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ۝٥﴾

﴿ٱلۡقَارِعَةُ﴾ القرع هو الضرب بشدّة واعتمادٍ بحيث يحصل منه صوت شديد، وهي القيامة التي مبدؤها النفخة الأولى ومنتهاها فصل القضاء بين الخلائق كما مرّ في سورة التكوير،[2] سُمّيت بها لأنّها تقرع القلوب والأسماع بفنون الأفزاع والأهوال، وتُخرج جميع الأجرام العُلويّة والسفليّة مِن حال إلى حال: السماءَ بالانشقاق والانفطار، والشمس والنجوم بالتكوير والانكدار والانتثار، والأرض والجبال بالدكّ والنسف.

وهي مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ أي: أنّ ﴿مَا﴾ الاستفهاميّة خبر و﴿ٱلۡقَارِعَةُ﴾ مبتدأ، لا بالعكس لِما مرّ غيرَ مرة أنّ محطّ الإفادة هو الخبر لا المبتدأ، ولا ريبَ في أنّ مدار إفادةِ الهَول والفخامة ههنا هو كلمة ﴿مَا﴾، لا ﴿ٱلۡقَارِعَةُ﴾، أي: أيّ شيء عجيب هي في الفخامة والفظاعة، وقد وُضِع الظاهر موضعَ الضمير تأكيدًا للتهويل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ تأكيد لهَولها وفظاعتها ببيان خروجها عن دائرة علوم الخلق، على معنى أنّ عِظَم شأنها ومدى شدّتها بحيث لا تكاد تناله دراية أحد حتّى يُدريك بها، وما في حيّز الرفع على الابتداء، و﴿أَدۡرَىٰكَ﴾ هو الخبر، ولا سبيلَ إلى العكس ههنا.

---

[1] س: وهي ثمان آيات.

[2] في تفسير الآية الرابعة عشرة منها.

و﴿مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ جملة كما مرّ محلُّها النصب على نزع الخافض؛ / لأنّ [٣١٦ظ] "أدرى" يتعدّى إلى المفعول الثاني بـ"الباء"، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦ﴾ [يونس، ١٠/١٦]، فلمّا وقعت الجملة الاستفهاميّة معلّقةً له كانت في موقع المفعول الثاني له، والجملة الكبيرة[١] معطوفة على ما قبلها مِن الجملة الواقعة خبرًا للمبتدأ الأول، أي: وأيُّ شيء أعلمكَ ما شأن القارعة؟

ولمّا كان هذا منبِئًا عن الوعد الكريم بإعلامها أُنجِز ذلك بقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ﴾، على أنّ ﴿يَوۡمَ﴾ مرفوعٌ على أنّه خبرُ مبتدأ محذوف، وحركته الفتح لإضافته إلى الفعل، وإن كان مضارعًا كما هو رأي الكوفيّين،[٢] أي: هي يومٌ يكون الناس فيه كالفراش المبثوث في الكثرة والانتشار والضعف والذلّة والاضطراب والتطايُر إلى الداعي كتطاير الفراش إلى النار، أو منصوبٌ[٣] بإضمار "اذكُرْ"، كأنّه قيل: بعد تفخيم أمر القارعة وتشويقه عليه السلام إلى معرفتها: اذكُرْ يومَ يكون الناس... إلخ، فإنّه يُدريك ما هي.

هذا وقد قيل: إنّه ظرف، ناصبُه مضمر يدلّ عليه ﴿ٱلۡقَارِعَةُ﴾، أي: تقرع يوم يكون... إلخ.[٤] وقيل: تقديره ستأتيكم القارعة يوم يكون... إلخ.[٥]

﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾ أي: كالصوف المُلوَّن بالألوان المختلفة المندوف في تفرّق أجزائها وتطايرها في الجوّ حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل، ٢٧/٨٨]، وكلا الأمرين مِن آثار القارعة بعد النفخة الثانية عند حَشْر الخلق، يبدِّل الله عزّ وجلّ الأرض غيرَ الأرض، ويغيِّر هيئاتها، ويسيِّر الجبال عن مقارّها، على ما ذُكر مِن الهيئة الهائلة، ليُشاهدها أهل المحشَر، وهي وإن اندكّت وتصدَّعت عند النفخة الأولى لكنّ تسييرها وتسويةَ الأرض إنّما يكونان بعد النفخة الثانية، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا

---

[١] س: الكبير.
[٢] انظر قولهم وتفصيله في شرح الرضيّ على الكافية ١/٢٤٩.
[٣] السياق: مرفوعٌ... أو منصوبٌ...
[٤] القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٥٩٧.
[٥] القول في اللباب لابنْ عادل، ٢٠/٤٧٠.

وَلَآ أَمْتًا ۝ يَوْمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ﴾ [طه، ١٠٥/٢٠-١٠٨]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم، ٤٨/١٤]، فإنّ اتّباع الداعي الذي هو إسرافيلُ عليه السلام وبروزَ الخَلْق لله سبحانه لا يكون إلّا بعد البعث قطعًا، وقد مرّ تمام الكلام في سورة النمل.[1]

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ۝١١﴾

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾... إلخ بيانٌ إجمالي لتحزّب الناس إلى حزبين، وتنبيهٌ على كيفيّة الأحوال الخاصّة بكلّ منهما إثرَ بيان الأحوال الشاملة للكلّ. والموازين: إمّا جمع المَوزون، وهو العمل الذي له وزنٌ وخَطَر عند الله تعالى،[2] كما قاله الفرّاء،[3] أو جمع "مِيزان"، قال ابن عبّاس: إنّه ميزان له لسان وكفّتان، لا يوزن فيه إلّا الأعمال.[4] قالوا: تُوضَع فيه صحائف الأعمال، فينظر إليه الخلائق إظهارًا للمعدلة، وقطعًا للمعذرة. وقيل: الوزن عبارة عن القضاء السويّ، والحكم العادل، وبه قال مجاهدٌ والأعمشُ والضحّاك، واختاره كثير مِن المتأخِّرين.[5]

قالوا: إنّ المِيزان لا يتوصّل به إلّا إلى معرفة مقادير الأجسام، فكيف يمكن أن يُعرَف به مقاديرُ الأعمال التي هي أعراض متقضِّية. وقيل: إن الأعمال الظاهرة في هذه النشأة بصور عرَضيّة تبرُز في النشأة الآخرة بصور جوهريّة مناسبة لها في الحُسن والقبح،[6] وقد رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه يُؤتى بالأعمال الصالحة على صور حسنة، وبالأعمال السيّئة على صور قبيحة،

---

١ في تفسير الآية الثامنة والثمانين منها.

٢ س - تعالى.

٣ القول في اللباب لابن عادل، ٤٤٧٢/٢٠؛ ولم أقف عليه في معاني القرآن.

٤ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٦٩/١٠ (الأعراف، ٨/٧)؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٤٤٧/١ (٢٧٧)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٣٥٠/٢ (الأعراف، ٨/٧)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢١٤/٣ (الأعراف، ٨/٧).

٥ الكلام بلفظ جدّ قريب في تفسير الرازي، ٢٠٢/١٤ (الأعراف، ٨/٧)؛ ونقله عنه الطِّيبي في فتوح الغيب، ٣٣٠/٦ (الأعراف، ٨/٧).

٦ الكلام بمعناه في تفسير الرازي، ٢٠٢/١٤ (الأعراف، ٨/٧).

فتُوضَع في المِيزان،[١] أي: فمَن ترجّحت مقادير حسناته ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي: ذات رضًى، أو مرضيّة.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بأن لم يكن لها حسنة يُعتدّ بها، أو ترجّحت سيّئاته على حسناته ﴿فَأُمُّهُۥ﴾ أي: فمأواه ﴿هَاوِيَةٌ﴾ هي مِن أسماء النار، سُمّيت بها لغاية عُمقها وبُعد مهواها.[٢] رُوي أنّ أهل النار يهوي فيها سبعين خريفًا.[٣] [٣١٧ظ] / وقيل: إنّها اسم للباب الأسفل منها، وعُبّر عن المأوى بـ"الأمّ"؛ لأنّ أهلها يأوون إليها كما يأوي الولد إلى أمّه. وعن قتادةَ وعكرمةَ والكلبيّ أنّ المعنى: فأمّ رأسه هاوية في قعر جهنّم؛ لأنّه يُطرَح فيها منكوسًا.[٤]

والأوّل هو الموافق لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ فإنّه تقرير لها بعد إبهامها. والإشعار بخروجها عن الحدود المعهودة للتفخيم والتهويل، وهي ضمير الهاوية، والهاء للسكت، وإذا وصل القارئ حذفها. وقيل: حقّه ألّا يدرج لئلّا يُسقطها الإدراج؛ لأنّها ثابتة في المصحف، وقد أجيزَ إثباتها مع الوصل.[٥]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة القارعة ثقّل الله تعالى بها ميزانه[٦] يوم القيامة».[٧]

---

[١] لم أجِده في مظانّه. وهو في تفسير الرازي، ٢٠٢/١٤ (الأعراف، ٨/٧).

[٢] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٩٨/٤.

[٣] بلفظ قريب في مسند أحمد، ١٤٩/١٢ (٧٢١٥)؛ وصحيح مسلم، ٢١٨٤/٤ (٢٨٤٤)؛ وسنن الترمذي، ٥٥٧/٤ (٢٣١٤).

[٤] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٥٩٦/٢٤؛ والتفسير البسيط للواحدي، ٢٦٨/٢٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥١٤/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٥٩٨/٤.

[٥] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٩٨/٤.

[٦] م س: ميزانها ["صح" في هامش م].

[٧] س + تمّ. | الكشف والبيان للثعلبي، ١٩٤/٣٠ (القارعة، ١/١٠١)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٤٦/٤ (القارعة، ١/١٠١)؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٩٨/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة التكاثر[1]

مكّيّة،[2] وهي ثماني[3] آياتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾

﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ أي: شغلكم التغالب في الكثرة والتفاخر بها. رُوي أنّ بني عبد مَناف وبني سهم تفاخروا وتعادّوا وتكاثروا بالسادة والأشراف في الإسلام، فقال كلّ مِن الفريقين: نحن أكثر منكم سيّدًا، وأعزّ عزيزًا، وأعظم نفرًا، فكَثَرهم[4] بنو عبد مَناف، فقال بنو سهم:[5] إنّ البغيَ أفنانا في الجاهليّة، فعادُّونا بالأحياء والأموات، فكَثَرهم بنو سهم.[6]

والمعنى أنّكم تكاثرتم بالأحياء ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ﴾ أي: حتّى إذا استوعبتُم عددهم صرتُم إلى التفاخر والتكاثر بالأموات، فعُبِّر عن بلوغهم ذِكر الموتى بزيارة القبور تهكُّمًا بهم. وقيل: كانوا يزورون المقابر فيقولون: هذا قبر فلان، وهذا قبر فلان، يفتخرون بذلك. وقيل: المعنى ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن متُّم، وقُبرتم، مضيِّعين أعماركم في طلب الدنيا، معرِضين عمّا يهمّكم

---

[1] س: أَلۡهَىٰكُمُ.

[2] س – مكّيّة.

[3] س: تسع.

[4] س: فكثُرهم. | وفي هامش م: أي: غلَبهم.

[5] بنو سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب، بطن مِن بطون قريش في زمن الإسلام، كان له مِن الولد سعد وسعيد، فمِن بني سعد بن سهم قيس بن عديّ، ومِن بني سعيد بن سهم العمرين. انظر: قلائد الجمان للقلقشندي، ص ١٤١.

[6] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٥٩٩/٤.

مِن السعي لأخراكم، فيكون زيارة القبور عبارةً عن الموت.[١] وقُرئ: "أَأَلْهَاكُمْ"[٢] على / الاستفهام التقريري. [٣١٨و]

﴿كَلَّا﴾ ردع وتنبيه على أنّ العاقل ينبغي ألّا يكون معظم همّه مقصورًا على الدنيا، فإنّ عاقبة ذلك وخيمة. ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ سوء مغبّة ما أنتم عليه إذا عاينتُم عاقبته.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تكرير للتأكيد، و﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على أنّ الثانيَ أبلغُ مِن الأول، أو الأوّل عند الموت، أو في القبر، والثاني عند النشور.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين، أي: كعلمكم ما تستيقنونه، لفعلتم ما لا يوصف ولا يُكتنه، فحُذف الجواب للتهويل.

وقوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ جواب قسم مضمَر أكِّد به الوعيد، وشدِّد به التهديد، وأُوضِح به ما أُنذروه بعد إبهامه تفخيمًا.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ تكرير للتأكيد، أو الأولى إذا رأتهم مِن مكان بعيد، والثانية إذا وردوها، أو المراد بالأولى المعرفة، وبالثانية المشاهدة والمعاينة ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: الرؤية التي هي نفس اليقين، فإنّ عِلم المشاهدة أقصى مراتب اليقين.

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: عن النعيم الذي ألهاكم الالتذاذ به عن الدِّين وتكاليفه، فإنّ الخطاب مخصوص بمَن عكف هِمّته على استيفاء اللذات، ولم يعش إلّا ليأكل الطيِّب ويلبَس الليّن، ويقطع أوقاته باللهو والطرب، لا يعبأ بالعِلم والعمل، ولا يُحمِّل نفسه مشاقّهما، فأمّا مَن تمتّع بنعمة الله تعالى، وتقوّى بها على طاعته، وكان ناهضًا بالشكر، فهو مِن ذلك بمَعزِل بعيد. وقيل: الآية مخصوصة بالكفّار.[٣]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة التكاثر لم يحاسبه الله تعالى بالنعيم الذي أنعم به عليه في دار الدنيا، وأُعطيَ مِن الأجر كأنّما قرأ ألف آية».[٤]

---

١ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٥٩٩/٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن مالك بن دينار. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٥١.

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٦٥/٣.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٠١/٣٠-٢٠٢ (التكاثر، ١٠٢/١)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٤٨/٤ (التكاثر، ١٠٢/١)؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٠٠/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة العصر

مكيّة، وهي ثلاث آياتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾

﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ أقسمَ سبحانه بصلاة العصر لفضلها الباهر،[1] أو بالعشيّ الذي هو ما بين الزوال والغروبِ، كما أقسمَ بالضحى، أو بعصر النبوّة لظهور فضله على سائر الأعصار، أو بالدهر لانطوائه على تعاجيب الأمور القارّة والمارّة.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ أي: خسران في متاجرهم ومساعيهم، وصَرْف أعمارهم في مباغيهم. والتعريف للجنس، والتنكير للتفخيم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنّهم في تجارة لن تبور، حيث باعوا الفاني الخسيس، واشترَوا الباقي النفيس، واستبدلوا الباقيات الصالحات بالغاديات الرائحات، فيا لها مِن صفقة ما أربَحَها. وهذا بيان لتكميلهِم لأنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾... إلى آخره، بيان لتكميلهم لغيرهم، أي: وصّى بعضهم بعضًا بالأمر الثابت الذي لا سبيلَ إلى إنكاره، ولا زوالَ في الدارين لمحاسن آثاره، وهو الخير كلّه مِن الإيمان بالله عزّ وجلّ، واتّباع كتبه ورسله في كلّ عقد وعمل.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ أي: عن المعاصي التي تشتاق إليها النفس بحُكم الجِبلّة البشريّة، وعلى الطاعات التي يشقّ عليها أداؤها، أو على ما يبلو[2] الله عزّ وجلّ به عباده.

---

[1] وفي هامش م: وهي المرادة بالصلاة الوسطى، أي: الفُضلى. «منه».

[2] س ي: يتلو.

وتخصيصُ هذا التواصي بالذِّكر مع اندراجه تحت التواصي بالحقّ لإبراز كمال الاعتناء به، أو لأنّ الأوّل عبارة عن رُتبة العبادة التي هي فعل ما يرضى به الله تعالى، والثاني عن رتبة العبوديّة التي هي الرِّضى بما فعل الله تعالى، فإنّ المراد بالصبر ليس مجرّد حبس النفس عمّا تَتُوق إليه مِن فعل وتَرْك؛ بل هو تلقّي ما ورد منه تعالى بالجميل والرِّضى به ظاهرًا وباطنًا.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة العصر غفر الله تعالى له، وكان ممّن تواصى بالحقّ وتواصى بالصبر».[1]

---

[1] **الكشّاف** للزمخشري، ٦٠١/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة الهُمَزة

مكّيّة، وهي تسع آياتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ۝٨ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ۝٩﴾

﴿وَيۡلٞ﴾ مبتدأ، خبره[1] ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾، وساغ الابتداء به مع كونه نكرةً؛ لأنّه دعاء عليهم بالهَلَكة، / أو بشدّة الشرّ، والهَمْز: الكسر كـ"الهَزْم"، واللَّمْز: الطعن كـ"اللهز"، شاعا في الكسر مِن أعراض الناس والطعن فيهم. وبناء "فُعَلَة" للدلالة على أنّ ذلك منه عادة مستمرّة قد ضَري بها، وكذلك اللُّعنة والضُّحكة. وقُرئ: "لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُمْزَةٍ"[2] بسكون الميم، وهو المسخَرة الذي يأتي بالأضاحيك فيُضحك منه ويُستهزأ به. [٣١٩و]

وقيل: نزلت في الأخنس بن شَريق، فإنّه كان ضاريًا بالغِيبة والوقيعة.[3] وقيل: في أميّةَ بن خَلَف. وقيل: في الوليد بن المغيرة واغتيابه لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وغضِّه مِن جنابه الرفيع.[4] واختصاصُ السبب لا يستدعي خصوصَ الوعيد بهم؛ بل كلّ مَن اتّصف بوصفهم القبيح فله ذنوب منه مثلَ ذنوبهم.

﴿ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا﴾ بدل مِن ﴿كُلِّ﴾، أو منصوب، أو مرفوع على الذمّ. وقُرئ: "جَمَّعَ"[5] بالتشديد للتكثير، وتنكير ﴿مَالٗا﴾ للتفخيم والتكثير الموافق لقوله تعالى:

---

١ س: وخبر.

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٦٠٢/٤.

٣ القول في جامع البيان للطبري، ٦١٩/٢٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٠٢/٤.

٤ القولان في معالم التنزيل للبغوي، ٥٣٠/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٠٢/٤.

٥ قرأ بها ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف وروح. النشر لابن الجزري، ٤٠٣/٢.

﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾. وقيل: معنى ﴿عَدَّدَهُۥ﴾ جَعَله عدّةً لنوائب الدهر.[١] وقُرئ: "وَعَدَدَهُ"،[٢] أي: جَمَع المال وضبط عَدَدَه، أو جمع ماله وعدَدَه الذين ينصرونه، مِن قولك: "فلان ذو عَدَدٍ وعُدَدٍ" إذا كان له عَدَدٌ وافر مِن الأنصار والأعوان. وقيل: هو فعل ماضٍ بفكّ الإدغام.[٣]

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ أي: يعمل عملَ مَن يظنّ أنّ ماله يبقيه حيًّا، والإظهارُ في موقع الإضمار لزيادة التقرير. وقيل: طوَّل المالُ أمله ومنّاه الأمانيّ البعيدة حتّى أصبح لفرط غفلته وطولِ أمله يحسب أنّ المال تَرَكه خالدًا في الدنيا لا يموت. وقيل: هو تعريض بالعمل الصالحِ والزهد في الدنيا، وأنّه هو الذي أخلد صاحبه في الحياة الأبديّة والنعيم المقيم، فأمّا المال فليس بخالد ولا بمخلِّد. ورُوي أنّ الأخنس كان له أربعة آلاف دينار، وقيل: عشرة آلاف.[٤] والجملة مستأنَفة أو حال مِن فاعل ﴿جَمَعَ﴾.

﴿كَلَّا﴾ ردع له عن ذلك الحسبان الباطل، وقوله تعالى: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ جوابُ قسم مقدَّر، والجملة استئناف مبيِّن لعِلّة الردع، أي: والله ليُطرحَنّ بسبب تعاطيه للأفعال / المذكورة. ﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ أي: في النار التي شأنها أن تحطِم وتكسِر كلَّ ما يلقى فيها، كما أنّ شأنه كسرُ أعراض الناس وجمعُ المال. [٣١٩ظ]

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾ لتهويل أمرها ببيان أنّها ليست مِن الأمور التي تنالها عقول الخلق.

وقوله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾ خبر مبتدأ محذوف، والجملةُ بيان لشأن المسئول عنها، أي: هي نار الله ﴿ٱلْمُوقَدَةُ﴾ بأمر الله عزّ سلطانه، وفي إضافتها إليه سبحانه ووصفها بالإيقاد مِن تهويل أمرها ما لا مزيدَ عليه. ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ أي: تعلو أوساط القلوب وتغشاها. وتخصيصُها بالذِّكر لِما أنّ الفؤاد ألطفُ ما في الجسد وأشدّه تألُّمًا بأدنى أذى يمسّه، أو لأنّه محلّ العقائد الزائغة والنيّات الخبيثة، ومنشأ الأعمال السيّئة.

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٦٠٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٨٠.

٣ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤/٦٠٢.

٤ هذه الأقوال كلُّها في الكشّاف للزمخشري، ٤/٦٠٢.

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي: مطبَقة، مِن "أوصدتُ البابَ وآصدتُه"، أي: أطبقته. ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ إمّا حال مِن الضمير المجرور في ﴿عَلَيْهِم﴾، أي: كائنين ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾، أي: موثَقين فيها مثل المقاطر التي يقطَّر فيها اللصوص، أو خبرُ مبتدأ مضمر، أي: هم في عَمَد، أو صفةٌ لـ﴿مُؤْصَدَةٌ﴾، قاله أبو البقاء.[1] أي: كائنةٌ في عَمَد ممدَّة، بأن تُوصَد عليهم الأبواب، وتمدَّد على الأبواب العَمَد استيثاقًا في استيثاقٍ. اللّٰهمّ أجرنا منها يا خيرَ مستجار. وقُرئ: "عُمُدٍ"[2] بضمّتين.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الهُمَزة أعطاه الله[3] عشرَ حسنات بعَدَد مَن استهزأ بمحمّد عليه السلام وأصحابه».[4]

---

١ انظر: التبيان للعكبري، ١٣٠٤/٢.

٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر. النشر لابن الجزري، ٤٠٣/٢.

٣ س + تعالى.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٥٠/٣٠ (الهمزة، ١/١٠٤)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٥٢/٤ (الهمزة، ١/١٠٤)؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٠٣/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة الفيل

مكّيّة، وهي خمس آياتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ الخِطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، و"الهمزة" لتقرير رؤيته عليه السلام بإنكار عدمها، و﴿كَيْفَ﴾ معلِّقة لفعل الرؤية منصوبة بما بعدها، والرؤية عِلميّة، أي: ألم تعلم عِلمًا رصينًا متاخمًا للمشاهدة والعِيان باستماع الأخبار المتواترة ومعاينة الآثار الظاهرة. وتعليقُ الرؤية بكيفيّة فعله عزّ وجلّ لا بنفسه، بأن يقال: ألم ترَ ما فعل / ربّك... إلخ، لتهويل [٣٢٠و] الحادثة، والإيذان بوقوعها على كيفيّة هائلة، وهيئة عجيبة دالّة على عظيم قدرة الله تعالى، وكمالِ علمه وحِكمته، وعزّةِ بيته، وشرفِ رسوله صلّى الله عليه وسلّم.

فإنّ ذلك مِن الإرهاصات، لِما رُوي أنّ القصّة وقعت في السَّنة التي وُلد فيها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وتفصيلُها أنّ أبرهةَ بن الصبّاح الأشرمَ[١] مَلِك اليمن مِن قبل أصحمةَ النجاشي[٢] بنى بصنعاءَ كنيسةً وسمّاها القُلَّيس، وأراد أن يصرِف إليها الحاجّ، فخرج رجل مِن كنانةَ فقعد فيها ليلًا فأغضبه ذلك. وقيل:

---

١ أبو يكسوم أبرهة الأشرم الحبشي (ت. ٥٧٠م [؟])، هو أوّل ملك مِن الحبشة افتتح اليمن وملكها، وهو الذي أراد هدم البيت. أنظر: التيجان للحميري، ص ٣١٤.

٢ النجاشي لقب كلّ ملك مِن ملوك الحبشة، ولعلّ أمير أبرهة المذكور ليس أصحمة النجاشي، بل نجاشي قبله، وأصحمة النجاشي معدودٌ في الصحابة رضي الله عنهم، وكان ممّن حسُن إسلامه، وقصّته مشهورة في المغازي بإحسانه إلى المسلمين الذين هاجروا إليه في صدر الإسلام. مات في عصر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فصلّى عليه بالناس صلاة الغائب. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤٢٨/١، والإصابة لابن حجر، ٢٠٥/١.

أجّجت رُفقة مِن العرب نارًا فحملتها الريح فأحرقَتها، فحلف ليهدمنّ الكعبةَ، فخرج مع الحبشة ومعه فيل له اسمه محمود- وكان قويًّا عظيمًا- واثنا عشرَ فيلًا غيره، وقيل: ثمانية، وقيل: ألف فيل، وقيل: كان معه وحدَه. فلمّا بلغ المُغمَّس[1] خرج إليه عبد المطّلب، وعَرَض عليه ثلث أموال تهامةَ ليَرجع فأبى. وعبّأ جيشه، وقدّم الفيلَ، فكان كلّما وجّهوه إلى الحرَم برك ولم يبرح، وإذا وجّهوه إلى اليمن أو إلى غيره مِن الجهات هرول.

فأرسل الله تعالى طيرًا سُودًا، وقيل: خضرًا، وقيل: بيضًا، مع كلّ طائر حَجَر في مِنقاره، وحجران في رجليه، أكبر مِن العدسة وأصغر مِن الحمّصة، فكان الحَجَر يقع على رأس الرجل ويخرج مِن دبره، وعلى كلّ حجر اسم مَن يقع عليه، ففرّوا فهَلَكوا في كلّ طريق ومنهل. ودَوِيَ أبرهةُ فتساقطت أنامله وآرابه وما مات حتّى انصدع صدره عن قلبه، وانفلت وزيره أبو يكسوم وطائر يُحلِّق فوقه حتّى بلغ النجاشيَّ فقصّ عليه القصّة، فلمّا أتمّها وَقَع عليه الحَجَر فخرّ ميّتًا بين يديه.[2]

وقيل: إنّ أبرهة أخذ لعبد المطّلب مائتي بعير، فخرج إليه في شأنها، فلمّا رآه أبرهةُ عظُم في عينه، وكان رجلًا وسيمًا جسيمًا، وقيل: هذا سيِّد قريش، وصاحب عِير مكّة الذي يُطعم الناس في السهل والوحوش في رءوس الجبال، فنزل أبرهةُ عن سريره وجلس على بساطه، وقيل: أجلسه معه على سريره، ثم قال لترجمانه: «قل له: ما حاجتُك؟» فلمّا ذَكَر حاجته قال: «سقطتَ مِن عيني حيث جئتُ لأهدمَ البيت الذي هو دينك ودين آبائك وعصمتُكم وشرفُكم في / قديم الدهر، لا تكلِّمني فيه، ألهاك عنه ذَودٌ أخذتُ لك». فقال عبد المطّلب: «أنا ربّ الإبل، وإنّ للبيت ربًّا يحميه»، ثم رجع وأتى باب الكعبة فأخذ بحلقته ومعه نفر مِن قريش يدعون الله عزّ وجلّ، فالتفت وهو يدعو، فإذ هو بطيرٍ مِن نحو اليمن، [٣٢٠ظ]

---

[1] المُغمَّس: موضع قربَ مكّة في طريق الطائف. معجم البلدان للحمَوي، ١٦١/٥.

[2] الخبر بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٦٠٤/٤؛ وهو بمعناه في معالم التنزيل للبغوي، ٥٣٥/٨-٥٣٨.

فقال: «والله إنّها لَطير غريبة، ما هي ببحريّة ولا تِهاميّة»، فأرسل حلقة الباب، ثمّ انطلق مع أصحابه ينتظرون ما يفعل أبرهةُ، فأرسل الله تعالى عليهم الطير، فكان ما كان.[١]

وقيل: كان أبرهةُ جدَّ النجاشي الذي كان في زمن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.[٢] وعن عائشةَ رضي الله عنها: رأيتُ قائد الفيل وسائسه أعميين مُقعَدين يستطعمان.[٣] وقُرئ: "أَلَمْ تَرْ" بسكون "الراء"[٤] للجدّ في إظهار أثر الجازم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾... إلخ، بيانٌ إجمالي لِما فعل الله تعالى بهم، و"الهمزة" للتقرير كما سبق، ولذلك عُطف على الجملة الاستفهاميّة ما بعدها، كأنّه قيل: قد جُعل كيدهم في تعطيل الكعبة وتخريبها في تضييع وإبطال، بأن دمّرهم أشنعَ تدمير.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ أي: حزائقَ وجماعاتٍ، جمع "إبّالة"، وهي الحزمة الكبيرة شُبّهت بها الجماعة مِن الطير في تضامّها، وقيل: ﴿أَبَابِيلَ﴾ مثل "عبابيد" و"شماطيط"، لا واحدَ لها.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ﴾ صفة لـ﴿طَيْرًا﴾. وقُرئ: "يَرْمِيهِمْ"[٥] بالتذكير؛ لأنّ الطير اسم جمع وتأنيثه باعتبار المعنى. ﴿مِن سِجِّيلٍ﴾ مِن طين متحجِّر، معرّب "سنك كل".[٦] وقيل: كأنّه عَلَم للديوان الذي كُتب فيه عذاب الكفّار، كما أنّ سِجّينًا عَلَم للديوان الذي يكتب فيه أعمالهم، كأنّه قيل: بحجارة مِن جملة العذاب المكتوب المدوّن. واشتقاقه مِن الإسجال وهو الإرسال.[٧]

---

١ القول بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٦٠٤/٤-٦٠٥؛ وهو بمعناه في معالم التنزيل للبغوي، ٥٣٦/٨-٥٣٧.

٢ القول بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٦٠٤/٤.

٣ بلفظ قريب في أخبار مكّة للأزرقي، ١٤٨/١-١٤٩؛ ومسند البزّار، ٢٥٧/١٨ (٣٠٠)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٣/٣٠؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٠٤/٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن السُلمي. المغني في القراءات للنَّوزاوازي، ص ١٩٥٧.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر ويحيى بن يعمر وأبي نهيك وأبي حنيفة، وابن المغيرة وابن واصل وابن منصور والفارسي أربعتهم عن الكسائي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٨٠؛ المغني في القراءات للنَّوزاوازي، ص ١٩٥٨.

٦ انظر: جامع البيان للطبري، ٦٣٣/٢٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٠٥/٤. و"سنك كل" معناها بالفارسيّة: الحجر والطين. انظر لتفصيل الكلام عليه والأقوال فيه: المُعرَّب للجواليقي، ص ٣٦٤-٣٦٦، وحواشي مُحقِّقه.

٧ القول في الكشّاف للزمخشري، ٦٠٥/٤.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ كورق زرع وقع فيه الأُكَال، وهو أن يأكله الدُّود، أو أُكل حبُّه فبقيَ صِفْرًا منه، أو كتِبْنٍ أكلته الدوابّ وراثَتْه، أشيرَ بأولّ حاله.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الفيل أعفاه الله تعالى أيّام حياته مِن الخسف والمسخ».[1]

---

[1] بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٥/٣٠ (الفيل، ١/١٠٥)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٥٥٤/٤ (الفيل، ١/١٠٥)؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٠٥/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة قريش

مكيّة، وهي أربع آياتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ متعلِّق بقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟﴾، و"الفاء" لِما في الكلام مِن معنى الشّرط؛ إذ المعنى أنّ نِعَم الله تعالى عليهم غيرُ محصورة، فإن لم يعبدوه لسائر نِعَمه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة. وقيل: بمضمر، تقديره: فعلنا ما فعلنا مِن إهلاك أصحاب الفيل ﴿لِإِيلَٰفِ﴾... إلخ. وقيل: تقديره: اعجبوا لإيلاف. وقيل: بما قبله مِن قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾ [الفيل، ١٠٥/٥]، ويؤيِّده أنّهما في مصحف أُبيّ سورةٌ واحدة بلا فصل.[١]

والمعنى أهلك مَن قصدهم مِن الحبشة ليتسامع الناس بذلك فيتهيَّبوا لهم زيادة تهيُّب، ويحترموهم فضلَ احترام، / حتّى ينتظم لهم الأمن في رحلتهم، فلا يجترئ عليهم أحد. وكانت لقريش رحلتان: يرحلون في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، فيمتارون ويتّجرون، وكانوا في رحلتيهم آمنين؛ لأنّهم أهل حَرَم الله تعالى وولاةُ بيته العزيز، فلا يُتعرَّض لهم، والناس بين متخطَّف ومنهوب. [٣٢١و]

والإيلاف مِن قولك: "آلفتُ المكان إيلافًا" إذا أَلِفْتَه، وقُرئ: "لِإِلَافِ قُرَيْشٍ"،[٢] أي: لمُوَالَفتهم. وقيل: يقال: "ألفتُه إلْفًا وإلَافًا"، وقُرئ: "لِإِلْفِ قُرَيْشٍ".[٣] وقريش ولد النضر بن كِنانة، سُمّوا بتصغير القِرْش، وهو دابّة عظيمة في البحر

---

١ هذه الأقوال في الكشّاف للزمخشري، ٦٠٦/٤.

٢ قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ٤٠٣/٢.

٣ قراءة شاذّة، نسبها الزمخشري في الكشّاف، ٦٠٦/٤، إلى أبي جعفر، والصحيح عن أبي جعفر فيها مِن غير همز، فالظاهر أنّها مِن المروي عنه في غير الصحيح.

تعبث بالسُّفن ولا تطاق إلّا بالنار، والتصغير للتعظيم، وقيل: مِن القَرْش، وهو الكسب؛ لأنّهم كانوا كسّابين بتجاراتهم وضَرْبهم في البلاد.

وقوله تعالى: ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾ بدل مِن الأوّل، و﴿رِحۡلَةَ﴾ مفعول لـ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ﴾، وإفرادُها مع أنّ المراد "رحلتي الشتاء والصيف" لأمن الإلباس، وفي إطلاق الإيلاف عن المفعول أوّلًا وإبدال هذا منه تفخيم لأمره، وتذكيرُ تعظيم النعمة فيه. وقُرئ: "لِيَأْلَفَ قُرَيشٌ إِلْفَهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ"،[1] وقُرئ: "رُحْلَةَ"[2] بالضمّ، وهي الجهة التي يُرحَل إليها.

﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم﴾ بسبب تينك الرحلتين اللتين تمكّنوا منهما بواسطة كونهم مِن جيرانه. ﴿مِّن جُوعٖ﴾ شديد كانوا فيه قبلهما. وقيل: أريدَ به القحط الذي أكلوا فيه الجِيَف والعِظام.[3] ﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ عظيم لا يُقادَر قَدْره وهو خوف أصحاب الفيل، أو خوف التخطّف في بلدهم ومسائرهم. وقيل: خوفُ الجذّام، فلا يصيبهم في بلدهم.[4]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة قريش أعطاه الله عشرَ حسنات بعدد مَن طاف بالكعبة واعتكف بها».[5]

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. **المغني في القراءات** للنّوزاوازي، ص ١٩٦١.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السمّال. **شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٨١.

[3] القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٦٠٧/٤.

[4] القول في **الكشّاف** للزمخشري، ٦٠٧/٤.

[5] **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣٠٤/٣٠ (قريش، ١/١٠٦)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٥٥٥/٤ (قريش، ١/١٠٦)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٦٠٧/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

/ سورة الدِّين[1] [٣٢١ظ]

مكّيّة،[2] وهي سبع آياتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۝٣ فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ۝٧﴾

﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ استفهام أريدَ به تشويقُ السامع إلى معرفة مَن سيق له الكلام والتعجيبُ منه. والخطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وقيل: لكلّ عاقل. والرؤية بمعنى المعرفة.[3] وقُرئ: "أَرَأَيْتَكَ"[4] بزيادة حرف الخطاب.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ﴾ جواب شرط محذوف على أنّ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ والموصول خبره، والمعنى: هل عرفتَ الذي يكذِّب بالجزاء أو بالإسلام؟ إن لم تعرفه أو إن أردت أن تعرفه فهو الذي يدفع اليتيم دفعًا عنيفًا، ويزجره زجرًا قبيحًا. ووضعُ اسم الإشارة المتعرِّض لوصف المشار إليه موضعَ الضمير للإشعار بعلّة الحُكم، والتنبيهِ بما فيه مِن معنى البعد على بُعد منزلته في الشرّ والفساد.

وقيل: هو أبو جهل، كان وصيًّا ليتيم فأتاه عُريانًا يسأله مِن مال نفسه فدفعه دفعًا شنيعًا.[5] وقيل: أبو سفيان نحَر جزورًا فسأله يتيم لحمًا فقرعه بعصاه.[6]

---

[1] س: أرأيتَ.

[2] س + وقيل مدنيّة.

[3] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٦٠٨/٤.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٦٢.

[5] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٧٣/٣، واللباب لابن عادل، ٥١٢/٢٠.

[6] القول مرويّ عن ابن جُريج في أسباب النزول للواحدي، ص ٤٩٣؛ وبلا عزو في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٥٧٣/٣، واللباب لابن عادل، ٥١٢/٢٠.

وقيل: هو الوليد بن المغيرة.[١] وقيل: هو العاص بن وائل السهمي.[٢] وقيل: هو رجل بخيل مِن المنافقين.[٣] وقيل: الموصول على عمومه.[٤] وقُرِئ: "يَدَعُ اليَتِيمَ"،[٥] أي: يتركه ويجفوه.

﴿وَلَا يَحُضُّ﴾ أي: أهلَه وغيرَهم مِن المُوسِرين ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ وإذا كان حال مَن تَرَك حثّ غيره على ما ذُكر فما ظنّك بحال مَن تَرَك ذلك مع القدرة عليه؟

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ﴾... إلخ، إمّا لربط ما بعدها بشرط محذوف، كأنّه قيل: إذا كان ما ذُكر مِن عدم المبالاة باليتيم والمسكين مِن دلائل التكذيب بالدِّين وموجِبات الذمّ والتوبيخ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ غافلون غيرَ مبالين بها.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ أي: يُرُون الناسَ أعمالهم ليُرُوهم الثناءَ عليها، ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ أي: الزكاة، أو ما يُتعاور عادةً، فإنّ عدم المبالاة باليتيم والمسكين حيث كان كما ذُكر فعدمُ المبالاة بالصلاة التي هي عماد الدين، والرياءُ الذي هو شعبة مِن الكفر، ومنعُ الزكاة التي هي قنطرة الإسلام، / وسوءُ المعاملة مع الخلق، أحقُّ بذلك. [٣٢٢و]

وإمّا[٦] لترتيب الدعاء عليهم بالويل على ما ذُكر مِن قبائحهم. ووَضْعُ "المصلين" موضع ضميرهم ليُتوسَّل بذلك إلى بيان أنّ لهم قبائحَ أخرَ غيرَ ما ذُكر.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الدِّين غُفر له إن كان للزكاة مؤديًا».[٧]

---

[١] مرويّ عن السدّي ومقاتل وابن كَيسان في معالم التنزيل للبغوي، ٥٥١/٨؛ وبلا عزو في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٧٣/٣؛ واللباب لابن عادل، ٥١٢/٢٠.

[٢] مرويّ عن مقاتل في أسباب النزول للواحدي، ص ٤٩٣؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥٥١/٨؛ واللباب لابن عادل، ٥١٢/٢٠.

[٣] مرويّ عن عطاء عن ابن عبّاس في معالم التنزيل للبغوي، ٥٥١/٨؛ وبلا عزو في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٧٣/٣؛ واللباب لابن عادل، ٥١٢/٢٠.

[٤] القول في اللباب لابن عادل، ٥١٢/٢٠.

[٥] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ رضي الله عنه واليماني وأبي رجاء والزّعفراني، وعمران عن الحسن. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٨١؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٦٢.

[٦] السياق: إمّا لربط ما بعدها... وإمّا...

[٧] س + تم. | الكشف والبيان للثعلبي، ٣٣٠/٣٠ (الماعون، ١/١٠٧)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٥٨/٤ (الماعون، ١/١٠٧)؛ الكشّاف للزمخشري، ٦١٠/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة الكوثر

مكّيّة، وهي ثلاث آياتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ﴾ وقُرئ: "أَنطَيْنَاكَ"[1] ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ أي: الخير المفرط، الكثرة مِن شرف النبوّة الجامعة لخيرَي الدارين، والرياسة العامّة المستتبعة لسعادة الدنيا والدِّين، "فَوْعَل" مِن الكثرة. وقيل: هو نهر في الجنّة.[2]

وعن النبيّ عليه السلام أنّه قرأها فقال: «أتدرون ما الكوثرُ؟ إنّه نهر في الجنّة وعدنِيه ربّي، فيه خيرٌ كثير».[3] ورُوي في صفته: «أحلى مِن العسل، وأشدُّ بياضًا مِن اللبن، وأبردُ مِن الثلج، وألينُ مِن الزُّبد، حافتاه الزَّبرجد، وأوانيه مِن فِضّة عددَ نجوم السماء».[4] ورُوي: «لا يظمأ مَن شرب منه أبدًا، أوّل وارديه فقراء المهاجرين الدَّنسو الثياب، الشُّعث الرءوس، الذين لا يُزوَّجون المُنعَّمات، ولا تُفتَح لهم أبواب السُّدَد، يموت أحدهم وحاجته تتلجلج في صدره، لو أقسم على الله لأبرّه».[5]

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّه فسّر ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ بالخير الكثير، فقال له سعيد بن جُبير: «فإنّ ناسًا يقولون: "هو نهر في الجنّة"»، فقال: «هو مِن الخير

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أُبيّ بن كعب وابن مسعود وابن عبّاس وأبي هريرة رضي الله عنهم أجمعين، والحسن والزّعفراني وابن مُحيصن. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٦٤.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٦١١/٤.

٣ بلفظ قريب في مسند أحمد، ٥٣/١٩ (١١٩٩٥)؛ وصحيح مسلم، ٣٠٠/١ (٤٠٠)؛ وجامع البيان للطبري، ٦٨٢/٢٤-٦٨٥؛ والكشّاف للزمخشري، ٦١١/٤.

٤ بلفظ قريب في مسند أحمد، ١٤٥/١٠ (٥٩١٣)؛ وسنن الترمذي، ٤٤٩/٥ (٣٣٦١)؛ وجامع البيان للطبري، ٦٧٩/٢٤-٦٨٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٦١١/٤.

٥ بلفظ قريب في مسند أحمد، ٥٠/٣٩ (٢٣٣٦٧)؛ وسنن الترمذي، ٦٢٩/٤ (٢٤٤٤)؛ والكشّاف للزمخشري، ٦١١/٤.

الكثير».[١] وقيل: هو حوض فيها. وقيل: هو وأولاده وأتباعه أو علماء أمّته، أو القرآن الحاوي لخير الدنيا والدِّين.[٢]

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإنّ إعطاءه تعالى إيّاه عليه السلام ما ذُكر مِن العطيّة التي لم يعطِها ولن يعطيَها أحدًا مِن العالمين مستوجب للمأمور به أيّ استيجاب، أي: فدُمْ على الصلاة / لربّك الذي أفاض عليك هذه النعمة الجليلة التي لا تُضاهيها [٣٢٢ظ] نعمة خالصةً لوجهه خلافَ الساهين عنها المُرائين فيها، أداءً لحقوق شكرها، فإنّ الصلاة جامعة لجميع أقسام الشكر. وانحر البُدن التي هي خِيار أموال العرب باسمه تعالى، وتصدَّق على المحاويج خلافًا لمن يدُعُّهم ويمنع منهم الماعون.

وعن عطيّة: هي صلاة الفجر بجَمْع، والنحر بمنًى.[٣] وقيل: صلاة العيد والتضحية. وقيل: هي جنس الصلاة. والنحر: وضعُ اليمين على الشمال.[٤] وقيل: هو أن يرفع يديه في التكبير إلى نحره، وهو المرويّ عن النبيّ عليه السلام. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: استقبِل القبلة بنحرك، وهو قول الفرّاء والكلبي وأبي الأحوص.[٥]

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي: مُبغِضك كائنًا مَن كان ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ الذي لا عقبَ له، حيث لا يبقى منه نسل ولا حسنُ ذِكر، وأمّا أنت فتبقى ذرّيّتك وحُسن صيتك

---

١ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ١٧٨/٦ (٤٩٦٦)؛ وجامع البيان للطبري، ٦٨٢/٢٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥٥٧/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٦١١/٤.

٢ القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٧٥/٣.

٣ مرويّ عن عطاء في جامع البيان للطبري، ٦٩٢/٢٤.

٤ مرويّ عن عليّ بن أبي طالب وابن عبّاس وأبي الجوزاء في جامع البيان للطبري، ٦٩٠/٢٤–٦٩١؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥٥٩/٨؛ وبلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٦١٢/٤.

٥ اللباب لابن عادل، ٥٢٢/٢٠. | هو سلام بن سليم الحنفي مولاهم، أبو الأحوص (ت. ١٧٩هـ). الإمام الثقة الحافظ قرأ القرآن على حمزة. وكان حديثه نحو أربعة آلاف حديث وكان صالحًا فيه. مات في الكوفة في خلافة هارون. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٥٠٠/٨؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ٢٨١/٨–٢٨٣.

وآثارُ فضلك إلى يوم القيامة، ولك في الآخرة ما لا يندرج تحت البيان. وقيل: نزلت في العاص بن وائل،[١] وأيًّا ما كان فلا ريبَ في عموم الحكم.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الكوثر سقاه الله تعالى مِن كلّ نهر في الجنّة، ويُكتب له عشر حسنات بعدد كلّ قربان قرّبه العباد في يوم النحر».[٢]

---

١ مرويّ عن ابن عبّاس وسعيد بن جُبير ومجاهد في **جامع البيان** للطبري، ٢٤/٦٩٧-٦٩٨؛ و**معالم التنزيل** للبغوي، ٨/٥٦٠.

٢ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٣٠/٣٥٠ (الكوثر، ١/١٠٨)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٤/٥٦٠ (الكوثر، ١/١٠٨)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٤/٦١٢. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

سورة الكافرون[1]

مكّيّة، وهي ستُّ آياتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ① لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ③ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ⑤ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ⑥﴾

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هم كفرة مخصوصون قد عَلِم الله تعالى أنّه لا يتأتّى منهم الإيمان أبدًا. رُوي أنّ رهطًا مِن عتاة قريش قالوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «هلمّ فاتّبع ديننا ونتّبع دينك، تعبد آلهتنا سنةً ونعبد إلهك سنةً»، فقال: «معاذ الله أن أشرك بالله غيره». فقالوا: «فاستلم بعض آلهتنا نصدّقك ونعبد إلهك»، فنزلت، فغدا إلى المسجد الحرام، وفيه الملأ مِن قريش، فقام على رءوسهم فقرأها عليهم فأيسوا.[2]

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: فيما يستقبل؛ لأنّ ﴿لَا﴾ لا تدخل غالبًا إلّا على مضارع في معنى الاستقبال، كما أنّ "ما" لا تدخل إلّا على مضارع في معنى الحال، والمعنى لا أفعل / في المستقبل ما تطلبونه منّي مِن عبادة آلهتكم. [٣٢٣و]

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أي: ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلب منكم مِن عبادة إلهي.

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ أي: وما كنت قطّ عابدًا فيما سلف ما عبدتُم فيه، أي: لم يُعهَد منّي عبادة صنم في الجاهليّة، فكيف تُرجى منّي في الإسلام.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أي: وما عبدتُم في وقت مِن الأوقات ما أنا على عبادته. وقيل: هاتان الجملتان لنفي العبادة حالًا، كما أنّ الأوّلين لنفيها استقبالًا.

---

[1] س: الكافرين.

[2] بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٧٠٣/٢٤؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥٦٣/٨؛ وبلفظه بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٦١٣/٤.

وإنّما لم يقل: "ما عبدت" لتوافق ﴿مَا عَبَدتُّمْ﴾؛ لأنّهم كانوا موسومين قبل البعثة بعبادة الأصنام، وهو عليه السلام لم يكن حينئذ موسومًا بعبادة الله تعالى.

وإيثار ﴿مَا﴾ في ﴿أَعْبُدُ﴾ على "مَن" لأنّ المراد هو الوصف، كأنّه قيل: ما أعبد مِن المعبود العظيم الشأن الذي لا يُقادَر قَدْر عظمته. وقيل: إنّ ﴿مَا﴾ مصدريّة، أي: لا أعبده عبادتكم، ولا تعبدون عبادتي. وقيل: الأوّليان بمعنى "الذي"، والأخريان مصدريّتان. وقيل: قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ تأكيد لقوله تعالى: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾، وقولُه تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ ثانيًا تأكيد لمثله المذكور أوّلًا.[١]

وقوله تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ﴾ تقرير لقوله تعالى: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ وقولِه تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾، كما أنّ قوله تعالى: ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ تقرير لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾، والمعنى أنّ دينكم الذي هو الإشراك مقصور على الحصول لكم، لا يتجاوزه إلى الحصول لي أيضًا كما تطمعون فيه، فلا تعلِّقوا به أمانيّكم الفارغة، فإنّ ذلك مِن المحالات، وأنّ ديني الذي هو التوحيد مقصور على الحصول لي، لا يتجاوزه إلى الحصول لكم أيضًا؛ لأنكم علّقتموه بالمحال[٢] الذي هو عبادتي لآلهتكم أو استلامي إيّاها، ولأنّ ما وعدتموه عين الإشراك.

وحيث كان مبنى قولهم: تعبد آلهتنا سنةً ونعبد إلهك سنةً على شركة الفريقين في / كلتا العبادتين، كان القصر المستفاد مِن تقديم المسند قصرَ [٣٢٣ظ] إفراد حتمًا. ويجوز أن يكون هذا تقريرًا لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾، أي: ولي ديني لا دينكم، كما هو في قوله تعالى: ﴿وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡ﴾ [البقرة، ١٣٤/٢].[٣] وقيل: المعنى إنّي نبيّ مبعوث إليكم لأدعوَكم إلى الحقّ والنجاة، فإذا لم تقبلوا منّي ولم تتّبعوني فدعوني كفافًا، ولا تدعوني إلى الشِّرك.[٤] فتأمّل.

---

[١] هذه الأقوال جميعها في اللباب لابن عادل، ٥٢٢/٢٠؛ وبعضها في الكشّاف للزمخشري، ٦١٣/٤-٦١٤.

[٢] س: بالمجال.

[٣] س - ويجوز أن يكون هذا تقريرًا لقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾، أي: ولي ديني لا دينكم، كما هو في قوله تعالى: ﴿وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡ﴾.

[٤] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٦١٤/٤.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الكافرين فكأنّما قرأ رُبع القرآن، وتباعدت عنه مرَدة الشياطين، وبرئ مِن الشِّرك، وتعافى مِن الفزع الأكبر».[1]

---

[1] س + تمّ. | الكشف والبيان للثعلبي، ٣٩٧/٣٠ (الكافرون، ١/١٠٩)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٦٤/٤ (الكافرون، ١/١٠٩)؛ الكشّاف للزمخشري، ٦١٤/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة النصر

مدنيّة، وهي ثلاث آياتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ أي: إعانته تعالى وإظهاره إيّاك على عدوّك ﴿وَٱلۡفَتۡحُ﴾ أي: فتح مكّة، وقيل: جنس نصر الله تعالى ومطلَق الفتح،[1] فإنّ فتح مكّة لمّا كان مِفتاحَ الفتوح ومناطها كما أنّ نفسها أمّ القرى وإمامها جُعل مجيئه بمنزلة مجيء سائر الفتوح، وعُلِّق به أمره عليه السلام بالتسبيح والحمد.

والتعبير عن حصول النصر والفتح بالمجيء للإيذان بأنّهما متوجّهان نحوه عليه السلام، وأنّهما على جناح الوصول إليه عليه السلام عن قريب. رُوي أنّها نزلت قبل الفتح،[2] وعليه الأكثر. وقيل: في أيّام التشريق بمنًى في حجّة الوداع،[3] فكلمة ﴿إِذَا﴾ حينئذٍ باعتبار أنّ بعض ما في حيّزها -أعني رؤية دخول الناس... إلخ- غير منقضٍ بعد.

وكان فتح مكّة لعشر مضين مِن شهر رمضان سنة ثمان، ومع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عشرةُ آلاف مِن المهاجرين والأنصار وطوائف العرب، وأقام بها خمسَ عشرةَ ليلةً، وحين دخلها وقف على باب الكعبة ثمّ قال: «لا إلهَ إلّا الله وحدَه لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحدَه». ثمّ قال: «يا أهل مكّة ما تُرَون أنّي فاعل بكم؟» قالوا: خيرًا، أخ كريم، وابن أخ كريم،

---

[1] القول في الكشّاف للزمخشري، ٦١٥/٤.

[2] اللباب لابن عادل، ٥٣٨/٢٠.

[3] القول في الكشّاف للزمخشري، ٦١٥/٤.

قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، فأعتقهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.[١] وقد كان الله عزّ وعلا أمكَنَه مِن رقابهم عُنوةً، وكانوا له فيئًا، ولذلك سُمّي أهل مكّة الطلقاءَ، ثمّ بايعوه على الإسلام، ثمّ خرج إلى هَوازن.[٢]

[٣٢٤و] / ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: أبصرتهم أو علِمتهم ﴿يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي: ملّة الإسلام التي لا دينَ يضاف إليه تعالى غيرُها، والجملة على الأوّل حال مِن ﴿ٱلنَّاسَ﴾، وعلى الثاني مفعول ثانٍ لـ﴿رَأَيْتَ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَفْوَاجًا﴾ حال مِن فاعل ﴿يَدْخُلُونَ﴾، أي: يدخلون فيه جماعاتٍ كثيفةً كأهل مكّة والطائف واليمن وهوازن وسائر قبائل العرب، وكانوا قبل ذلك يدخلون فيه واحدًا واحدًا، واثنين اثنين.

رُوي أنّه عليه الصلاة السلام لمّا فتح مكّة أقبلت العرب بعضُها على بعض، فقالوا: إذا ظفر بأهل الحرَم فلن يقاومه أحد، وقد كان الله تعالى أجارهم مِن أصحاب الفيل، وعن كلّ مَن أرادهم، فكانوا يدخلون في دين الإسلام أفواجًا مِن غير قتال. وقُرئ: "فَتْحُ اللهِ وَالنَّصْرُ".[٣] وقُرئ: "يُدْخَلُونَ"[٤] على البناء للمفعول.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فقل: سبحان الله، حامدًا له، أي: فتعجَّب لتيسير الله تعالى ما لم يخطر ببال أحد، مِن أن يغلب أحد على أهل حرمه المحترم، واحمَده على جميل صنعه. هذا على الرواية الأولى ظاهر، وأمّا على الثانية، فلعلّه عليه السلام أُمِر بأن يداوم على ذلك استعظامًا لنعمته، لا بإحداث التعجّب لِما ذُكر، فإنّه إنّما يُناسِب حالة الفتح؛ أو فاذكره مسبِّحًا حامدًا زيادةً في عبادته والثناء عليه، لزيادة إنعامه عليك، أو فصلِّ له حامدًا على نعمه. رُوي أنّه لمّا فُتح باب الكعبة صلّى صلاة الضحى، ثماني ركعات؛[٥] أو فنزِّهه عمّا يقوله الظلَمة

---

١ بلفظ قريب في السنن الكبرى للبيهقي، ٢٠٠/٩ (١٨٢٧٦)؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥٧٤/٨.

٢ هوازن: هم بنو هوازن بن منصور بن عكرمة بن خَفصة بن قيس بن عيلان، ومنها بنو غزية وبنو صعصعة، قيل: منازلهم بالسروات بين تهامة ونجد. انظر: قلائد الجمان للقلقشندي، ص ١١٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٨٢.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن كثير. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٨٢.

٥ بمعناه في صحيح البخاري، ٨٠/١ (٣٥٧)؛ وصحيح مسلم، ٤٩٨/١ (٣٣٦).

حامدًا له على أن صدق وعدَه؛ أو فاثنٍ على الله تعالى بصفات الجلال، حامدًا له على صفات الإكرام.

﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ هضمًا لنفسك، واستقصارًا لعملك، واستعظامًا لحقوق الله تعالى، واستدراكًا لِما فرط منك مِن تَرْك الأولى. عن عائشةَ رضي الله تعالى عنها أنّه كان عليه السلام يُكثر قبل موته أن يقول: «سبحانك اللّهمّ وبحمدك، استغفرك وأتوب إليك».[1] / وعنه عليه السلام: «إنّي لأستغفر في اليوم والليلة مائة مرّة».[2] [٣٢٤ظ]

ورُوي أنّه لمّا قرأها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على أصحابه استبشروا، وبكى العبّاس، فقال عليه السلام: «ما يبكيك يا عمّ؟» فقال: «نُعيت إليك نفسك»، قال عليه السلام: «إنّها لَكَما تقول»، فلم يُرَ عليه السلام بعد ذلك ضاحكًا مستبشرًا.[3] وقيل: إنّ ابن عبّاس هو الذي قال ذلك،[4] فقال عليه السلام: «لقد أوتي هذا الغلام علمًا كثيرًا»،[5] ولعلّ ذلك للدلالة على تمام أمر الدعوة، وتكامل أمر الدين، كقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة، ٣/٥].

ورُوي أنّها لمّا نزلت خطب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: «إنّ عبدًا خيّره الله تعالى بين الدنيا وبين لقائه، فاختار لقاء الله تعالى»، فعلِم أبو بكر رضي الله عنه فقال: «فديناك بأنفسنا وآبائنا وأولادنا».[6] وعنه عليه السلام أنّه دعا فاطمةَ رضي الله عنها فقال: «يا بنتاه، إنّه نُعيت إليّ نفسي» فبكَت، فقال:

---

١ بلفظ قريب في صحيح مسلم، ٣٥١/١ (٤٨٤)؛ وجامع البيان للطبري، ٧١٠/٢٤.

٢ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٦٧/٨ (٦٣٠٧)؛ وصحيح مسلم، ٢٠٧٥/٤ (٢٧٠٢).

٣ بلفظه في الكشف والبيان للثعلبي، ٤٤٨/٣٠؛ والكشّاف للزمخشري، ٦١٦/٤. وهو بمعناه في صحيح البخاري، ١٤٩/٥ (٤٢٩٤)؛ وجامع البيان للطبري، ٧٠٨/٢٤-٧٠٩.

٤ بمعناه عن ابن عبّاس في صحيح البخاري، ١٤٩/٥ (٤٢٩٤)؛ وجامع البيان للطبري، ٧٠٨/٢٤-٧١٠.

٥ ما وجدته في مظانّه. وهو بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٦١٦/٤.

٦ بلفظ قريب في فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل، ٢٣٩/١ (٢٩٥)؛ وصحيح البخاري، ٥٧/٥ (٣٩٠٤)؛ وسنن الترمذي، ٦٠٦/٥ (٣٦٦٠).

«لا تبكي، فإنّكِ أوّل أهلي لحوقًا بي».[1] وعن ابن مسعود أنّ هذه السورة تسمّى سورة التوديع.[2] وقيل: هو أمرٌ بالاستغفار لأمّته.[3]

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ منذ خلق المكلّفين، أي: مبالغًا في قبول توبتهم، فليكن كلّ تائب مُستغفِرًا متوقِّعًا للقَبول.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة النصر أعطيَ مِن الأجر كمَن شهد مع محمّد عليه السلام يوم فتح مكّة».[4]

---

١ بمعناه في مسند أحمد، ٩/٤٤ (٢٦٤١٣)؛ وصحيح مسلم، ١٩٠٥/٤ (٢٤٥٠).

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٤٨/٣٠؛ الكشّاف للزمخشري، ٦١٦/٤.

٣ ورد ذلك في حديث ابن عبّاس في صحيح البخاري، ١٤٩/٥ (٤٢٩٤).

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٤٠٨/٣٠ (النصر، ١/١١٠)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٦٦/٤ (النصر، ١/١١٠)؛ الكشّاف للزمخشري، ٦١٧/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة تَبَّتْ

مكيّة، وهي خمس آياتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ١﴾

﴿تَبَّتْ﴾ أي: هلكت ﴿يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ هو عبد العُزّى بن عبد المطّلب. وإيثارُ التّباب على الهلاك وإسنادُه إلى يديه لِما رُوي أنّه لمّا نزل ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء، ٢١٤/٢٦] رقى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الصّفا وجمع أقاربه فأنذرهم، فقال أبو لهب: «تبًا لك، ألهذا دعوتنا؟» وأخذ حجرًا ليرميه عليه السلام به.[١] ﴿وَتَبَّ﴾ أي: وهلك كلّه، وقيل: المراد بالأوّل هلاك جملته، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة، ١٩٥/٢]. ومعنى ﴿وَتَبَّ﴾: وكان ذلك وحصل، كقول مَن قال:

جزاني جزاه الله شرَّ جزائهِ   جزاءَ الكلابِ العاوياتِ وقد فعلْ[٢]

ويؤيِّده قراءة مَن قرأ: "وَقَدْ تَبَّ".[٣] / وقيل: الأوّل إخبار عن هلاك عمله؛ [٣٢٥و] لأنّ الأعمال تُزاول غالبًا بالأيدي، والثاني إخبار عن هلاك نفسه. وقيل: كلاهما دعاء عليه بالهلاك. وقيل: الأوّل دعاء، والثاني إخبار.[٤] وذِكر كُنيته للتعريض بكونه جهنّميًا ولاشتهاره بها، ولكراهة ذِكر اسمه القبيح. وقُرئ: "أَبُو لَهَبٍ"[٥] كما قيل: "عليّ بن أبو طالب"، وقُرئ: "أَبِي لَهْبٍ"[٦] بسكون "الهاء".

---

١ بلفظ قريب في صحيح البخاري، ١١١/٦ (٤٧٧٠)؛ وصحيح مسلم، ١٩٣/١ (٣٥٥).

٢ بلا عزو في الكشّاف للزمخشري، ٦١٨/٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٨٢/٣. وله روايات أخرى، انظر لها: خزانة الأدب للبغدادي، ٢٨٢/١.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٢٦.

٤ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٨٢/٣.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي معاذ. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٨٢.

٦ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٤٠٤/٢.

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ۝٥﴾

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ أي: لم يُغن عنه حين حلّ به التباب -على أنّ ﴿مَا﴾ نافية، أو أيّ شيء أغنى عنه على أنّها استفهاميّة في معنى الإنكار منصوبة بما بعدها- أصلُ ماله وما كَسَبه به مِن الأرباح والنتائج والمنافع والوجاهة والأتباع، أو مالُه الموروث مِن أبيه والذي كَسَبه بنفسه أو عملِه الخبيث الذي هو كيده في عداوة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أو عملِه الذي ظنّ أنّه منه على شيء، كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان، ٢٥/٢٣].

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «ما كَسَب ولده».[١] ورُوي أنّه كان يقول: «إن كان ما يقول ابن أخي حقًّا فأنا أفتدي منه نفسي بمالي وولدي، فأستخلص منه».[٢] وقد خاب مرجاه وما حصل ما تمنّاه، فافترس وَلَده عتبةَ أسدٌ في طريق الشام بين العِير المكتنفة به، وقد كان صلّى الله عليه وسلّم دعا عليه وقال: «اللّهمّ سلّط عليه كلبًا مِن كلابك»،[٣] وهَلَك نفسُه بالعدسة[٤] بعد وقعة بدر لسبع ليالٍ، فاجتنبه أهله مخافة العدوى، وكانت قريش تتّقيها كالطاعون، فبقي ثلاثًا حتّى أنتَنَ، ثم استأجروا بعض السودان فاحتملوه ودفنوه، فكان الأمر كما أخبر به القرآن.

﴿سَيَصۡلَىٰ﴾ بفتح "الياء"، وقُرئ بضمّها وفتح اللام بالتخفيف[٥] والتشديد،[٦] و"السين" لتأكيد الوعيد وتشديده، أي: سيدخل لا محالةَ بعد هذا العذاب العاجل

---

١ مروي عن ابن عبّاس ومجاهد في جامع البيان للطبري، ٧١٧/٢٤-٧١٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٦١٩/٤.

٢ الكلام بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٥٨٢/٨.

٣ معالم التنزيل للبغوي، ١٥٨/٥ (الكهف، ١٨/١٨)؛ تفسير ابن كثير، ٤٤٦/٧ (النجم، ٥٣/٧).

٤ العدسة: بَثْرة صغيرة شبيهة بالعَدَسة تخرج بالبدن مفرّقة كالطاعون، تقتل غالبًا. تاج العروس للزّبيدي، «عدس».

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة والحسن وابن أبي إسحاق وابن نبهان وابن مجالد، والضحّاك عن عاصم، والجُعفي، والبُرجمي عن أبي بكر عنه، والأزرق عن حمزة. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٨٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٦٩.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود، والأزرق عن أبي بكر، والحسن عن طريق عبّاد، وابن مِقسَم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٨٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٧٠.

في الآخرة. ﴿نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي: نارًا عظيمةً ذات اشتعال وتوقُّد، وهي نار جهنّم، وليس هذا نصًّا في أنّه لا يؤمن أبدًا حتّى يلزَم مِن تكليفه الإيمانُ بالقرآن أن يكون مكلَّفًا[1] بأن يؤمن بأنّه لا يؤمن أبدًا، / فيكونَ مأمورًا بالجمع بين النقيضين كما هو المشهور، فإنّ صليّ النار غيرُ مختصّ بالكفّار، فيجوز أن يفهم أبو لهب مِن هذا أنّ دخوله النار لفِسقه ومعاصيه، لا لكفره، فلا اضطرار إلى الجواب المشهور مِن أنّ ما كُلِّفه هو الإيمان بجميع ما جاء به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم إجمالًا، لا الإيمان بتفاصيل ما نطق به القرآن، حتّى يلزَم أن يُكلَّف الإيمانَ بعدم إيمانه المستمرّ. [٣٢٥ظ]

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ عطفٌ على المستكنّ في ﴿سَيَصْلَىٰ﴾ لمكان الفصل بالمفعول، وهي أمّ جميل بنت حرب أخت أبي سفيان، وكانت تحمل حُزمةً مِن الشَّوك والحسَك والسَّعدان فتنثرها بالليل في طريق النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وكان عليه السلام يطؤه كما يطأ الحرير.[2] وقيل: كانت تمشي بالنميمة،[3] ويقال لمَن يمشي بالنمائم، ويُفسِد بين الناس: يحمل الحطب بينهم، أي: يوقِد بينهم النائرةَ.

﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ بالنصب على الشتم والذمّ. وقيل: على الحاليّة بناءً على أنّ الإضافة غيرُ حقيقيّة؛ إذ المراد أنّها تحمل يوم القيامة حزمةً مِن حطب جهنّم كالزقّوم والضريع. وعن قتادةَ أنّها مع كثرة مالها كانت تحمل الحطب على ظهرها لشدَّة بُخلها، فعُيِّرت بالبخل،[4] فالنصب حينئذ على الشتم حتمًا. وقُرئ بالرفع[5] على أنّه خبر، ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ مبتدأ. وقُرئ: "حَمَّالَةٌ لِلحَطَبِ" بالتنوين نصبًا[6] ورفعًا،[7] وقُرئ: "مُرَيَّتُهُ"[8] بالتصغير للتحقير.

---

[1] وفي هامش م: على تضمين التكليف معنى الأمر. «منه».

[2] مرويّ بلفظ قريب عن ابن عبّاس والضحّاك وابن زيد في جامع البيان للطبري، ٢٤/٧١٩-٧٢٠؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨/٥٨٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٤/٦١٩.

[3] مرويّ عن عكرمة ومجاهد وقتادة وسفيان في جامع البيان للطبري، ٢٤/٧٢٠-٧٢١.

[4] في اللباب لابن عادل، ٢٠/٥٥٥.

[5] قرأ بها العشرة إلّا عاصمًا. النشر لابن الجزري، ٢/٤٠٤.

[6] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤/٦١٩.

[7] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤/٦١٩.

[8] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٨٢.

﴿فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ جملة مِن خبر مقدَّم ومبتدأ مؤخَّر، والجملة حالية. وقيل: الظرف خبر لـ﴿ٱمْرَأَتُهُۥ﴾، وحبل مرتفع به على الفاعلية. وقيل: هو حال مِن ﴿ٱمْرَأَتُهُۥ﴾، على تقدير عطفها على ضمير ﴿سَيَصْلَىٰ﴾، و﴿حَبْلٌ﴾ فاعل كما ذكر.[1]

والمسد ما يُفتَل مِن الحبال فتلًا شديدًا مِن لِيف المقل، وقيل: مِن أيّ ليف كان، وقيل: مِن لِحاء شجر باليمن، وقد يكون مِن جلود الإبل وأوبارها،[2] والمعنى: في عنقها حبل ممّا مُسِد مِن الحبال، وأنّها تحمل تلك الحزمة مِن الشوك، وتربطها في جيدها كما يفعل الحطّابون تخسيسًا بحالها، وتصويرًا لها بصورة بعض الحطّابات مِن المواهن، لتمتعض مِن ذلك، ويتمعّض بعلُها، وهما في بيت العزّ والشرف.

[٣٢٦و] / قال مرّة الهَمْداني:[3] كانت أمّ جميل تأتي كلّ يوم بإبّالة[4] مِن حَسَك[5] فتطرحها على طريق المسلمين، فبينا هي ذات ليلة حاملة حزمةً أعيت فقعدت على حَجَر لتستريح، فجذبها المَلَك مِن خلفها فاختنقت بحبلها.[6]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿تَبَّتْ﴾ رجوتُ ألّا يُجمَع بينه وبين أبي لَهَب في دار واحدة».[7]

---

١ الوجهان في اللباب لابن عادل، ٥٥٦/٢٠.

٢ القولان في اللباب لابن عادل، ٥٥٦/٢٠.

٣ هو مُرّة الطيّب بن شراحيل الهمداني الكوفي، ويقال له: "مُرّة الخير" لعبادته وعلمه وخيره، مخضرم كبير الشأن. روى عن عليّ وعمر وعبد الله، ولم يكد يتفرّغ لنشر العِلم، ولهذا لم تكثر روايته. مات بالكوفة. انظر: **الطبقات الكبرى** لابن سعد، ٢٣٦/٨؛ وسير **أعلام النبلاء** للذهبي، ٤٧/٤-٧٥.

٤ الإبّالة: الحزمة مِن الحشيش والحطب. لسان العرب لابن منظور، «أبل».

٥ الحسك: نبات له شوك وثمرة خشنة تعلق بأصواف الغنم. لسان العرب لابن منظور، «حسك».

٦ مرويّ عن الضحّاك في معالم التنزيل للبغوي، ٥٨٣/٨.

٧ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٤٥٦/٣٠ (المسد، ١/١١١)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٥٦٨/٤ (المسد، ١/١١١)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٦١٩/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة الإخلاص

مكيّة،[1] وهي أربع آياتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ الضمير للشأن، ومدار وضعه موضعَه مع عدم سَبْق ذِكره الإيذانُ بأنّه مِن الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كلّ أحد، وإليه يُشير كلّ مُشير، وإليه يعود كلّ ضمير، كما ينبئ عنه اسمُه الذي أصله القصدُ، أُطلِق على المفعول مبالغةً، ومحلُّه الرفع على الابتداء، خبرُه الجملة بعده، ولا حاجةَ إلى الرابط؛ لأنّها عين الشأن الذي عُبّر عنه بالضمير.

والسرُّ في تصدير الجملة به التنبيهُ مِن أوّل الأمر على فخامة مضمونها وجلالةِ حيّزها مع ما فيه مِن زيادة تحقيق وتقرير، فإنّ الضمير لا يُفهَم منه مِن أوّل الأمر إلّا شأن مُبهَم له خطرٌ جليل فيبقى الذهن مترقِّبًا لِما أمامه ممّا يفسّره ويزيل إبهامه، فيتمكّن عند وروده له فضلَ تمكُّن.

وهمزة ﴿أَحَدٌ﴾ مُبدَلة مِن "الواو"، وأصله "وَحَدٌ" لا كهمزة ما يُلازم النفي ويُراد به العموم كما في قوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة، ٤٧/٦٩]، وما في قوله عليه السلام: «ما أُحِلّت الغنائم لأحد سُودِ الرءوس غيرِكم»،[2] فإنّها أصليّة.[3]

وقال مكّي: أصل ﴿أَحَدٌ﴾ واحد، فأُبدِلت الواو همزةً فاجتمع ألفان؛ لأنّ "الهمزة" تشبِه "الألف"، فحُذفت إحداهما تخفيفًا.[4] وقال ثعلب: إنّ "أحدًا"

---

[1] س + وقيل مدنيّة.

[2] سنن الترمذي، ٣١٨/٥ (٣٠٨٥)؛ التفسير البسيط للواحدي، ٥٣٠/٤ (البقرة، ٢٨٥/٢).

[3] السياق: لا كهمزة... فإنّها أصليّة...

[4] انظر: التبيان للعكبري، ١٣٠٩/٢؛ ونقله عنه ابن عادل في اللباب، ٥٥٩/٢٠.

لا يبنى عليه العدد ابتداءً، فلا يقال: "أحد واثنان" كما يقال: "واحد واثنان"، ولا يقال: "رجلٌ أحدٌ" كما يقال: "رجلٌ واحدٌ"، ولذلك اختصّ به تعالى.[1]

أو هو لِما سئل عنه، أي: الذي سألتُم عنه هو الله؛ إذ روي أنّ قريشًا قالوا: «صِفْ لنا ربّك الذي تدعونا إليه، وانْسِبْهُ»، فنزلت.[2] فالضمير مبتدأ، و﴿ٱللَّهُ﴾ خبره، و﴿أَحَدٌ﴾ بدل منه، أو خبر ثان، / أو خبر مبتدأ محذوف. [٣٢٦ظ]

وقُرِئ: "هُوَ اللهُ أَحَدٌ"[3] بغير ﴿قُلْ﴾، وقُرِئ: "اللهُ أَحَدٌ"[4] بغير ﴿قُلْ هُوَ﴾، وقُرِئ: "قُلْ هُوَ الوَاحِدُ".[5]

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ مبتدأ وخبر، و﴿ٱلصَّمَدُ﴾ فعل بمعنى مفعول، مِن "صمَد إليه" إذا قصَده، أي: هو السيِّد المصمود إليه في الحوائج، المستغني بذاته، وكلّ ما عداه محتاج إليه في جميع جهاته. وقيل: ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزال. وقيل: الذي يفعل ما يشاء، ويحكُم ما يُريد، وتعريفُه لعِلمهم بصمديّته، بخلاف أحديّته.[6]

وتكريرُ الاسم الجليل للإشعار بأنّ مَن لم يتّصف بذلك فهو بمَعزِل مِن استحقاق الألوهيّة، وتعريةُ الجملة عن العاطف؛ لأنّها كالنتيجة للأولى، بُيِّن أوّلًا ألوهيّته عزّ وجلّ المستتبعة لكافة نعوت الكمال، ثمّ أحديّته الموجِبة لتنزهُّه عن شائبة التعدّد والتركّب بوجه مِن الوجوه وتوهُّمِ المشاركة في الحقيقة وخواصّها، ثمّ صمديّتُه المقتضية لاستغنائه الذاتي عمّا سواه وافتقارِ جميع المخلوقات إليه في وجودها وبقائها وسائر أحوالها تحقيقًا للحقّ وإرشادًا لهم إلى سَننه الواضح.

ثمّ صُرّح ببعض أحكام جزئيّة مندرِجة تحت الأحكام السابقة فقيل: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ تنصيصًا على إبطال زَعْم المفترين في حقّ الملائكة والمسيح، ولذلك

---

١ الكلام عنه في اللباب لابن عادل، ٥٥٩/٢٠-٥٦٠.

٢ بلفظ قريب في جامع البيان للطبري، ٧٢٧/٢٤-٧٢٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٥٨٧/٨؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٢١/٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وأُبيّ بن كعب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٨٣.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٨٣.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٨٣.

٦ القولان في اللباب لابن عادل، ٥٦١/٢٠.

ورَد النفيُ على صيغة الماضي، أي: لم يصدر عنه ولد؛ لأنّه لا يُجانسه شيء ليمكن أن يكون له مِن جنسه صاحبة فيتوالدا، كما نطق به قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ [الأنعام، ١٠١/٦]، ولا يفتقر إلى ما يُعينه أو يخلُفه لاستحالة الحاجة والفناء عليه سبحانه.

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ أي: لم يصدر عنه شيء لاستحالة نسبة العدم سابقًا أو لاحقًا، والتصريح به مع كونهم معترفين بمضمونه لتقرير ما قبله وتحقيقِه بالإشارة إلى أنّهما متلازمان؛ إذ المعهودُ أنّ ما يلِد يُولَد، وما لا فلا، ومِن قضيّة الاعتراف بأنّه لم يُولَد الاعتراف بأنّه لا يلِد، فهو قريب مِن عطف ﴿لَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس، ٤٩/١٠] على ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ كما مرّ تحقيقه.[١]

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ أي: لم يُكافئه أحد، ولم يُماثله ولم يُشاكله مِن صاحبة وغيرها، و﴿لَهُۥ﴾ صلة لـ﴿كُفُوًا﴾ قُدِّمت عليه مع أنّ حقّها التأخّر عنه للاهتمام بها؛ لأنّ المقصود نفي المكافأة عن ذاته تعالى، وقد جُوِّز أن يكون خبرًا لا صلة، ويكون ﴿كُفُوًا﴾ حالًا مِن ﴿أَحَدٌ﴾،[٢] وليس بذاك. وأمّا تأخير اسم "كان" فلمراعاة الفواصل. ووجهُ الوصل بين هذه الجمل غنيّ عن البيان. وقُرئ بضمّ "الكاف" و"الفاء" مع تسهيل "الهمزة"،[٣] وبضمّ "الكاف" وكسرها مع سكون "الفاء".[٤]

هذا، ولانطواء السورة الكريمة مع تقارب قُطريها على أشتات المعارف الإلهيّة والردّ على مَن ألحَد فيها وردَ في الحديث النبويّ أنّها تعدل ثُلث القرآن،[٥] فإنّ مقاصده منحصرةٌ في بيان العقائد والأحكام والقصص، ومَن عدَلها بكلِّه اعتبر المقصود بالذات منه.

[٣٢٧و] / رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «أسِّست السماواتُ السبع والأرضون السبع على ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾»،[٦] أي: ما خلقت إلّا لتكون دلائلَ

---

١ في تفسير يونس، ٤٩/١٠.
٢ الوجه في التبيان للعكبري، ١٣٠٩/٢.
٣ قرأ بها حفص. النشر لابن الجزري، ٤٠٤/٢.
٤ قرأ بضمّ "الكاف" مع سكون "الفاء" حمزة ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٤٠٤/٢. وبكسر "الكاف" مع سكون "الفاء" قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن سليمان. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٧٤.
٥ انظر: صحيح البخاري، ١٨٩/٦ (٥٠١٣)؛ وصحيح مسلم، ٥٥٦/١ (٨١١).
٦ بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٦٢٢/٤؛ وقال عنه الطِّيبي في فتوح الغيب، ٦٤١/١٦: «لم أجد الحديث في الأصول المعتبرة».

على توحيد الله تعالى ومعرفة صفاته التي نُطقت بها هذه السورة. وعنه عليه السلام أنّه سمع رجلًا يقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال: «وجبتْ»، فقيل: وما وجبتْ يا رسول الله؟ قال: «وجبتْ له الجنّة».[1]

[1] س + تمّ. | **مسند أحمد**، ٣٨٦/١٣ (٨٠١١)؛ **الكشّاف للزمخشري**، ٦٢٢/٤.

سورة الفلق

مدنيّة،[1] وهي خمس آياتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ ﴿ٱلْفَلَقِ﴾ الصّبح كـ"الفَرَق"؛ لأنّه يُفلَق عنه الليل ويُفرَق، "فَعَلٌ" بمعنى "مفعول"، فإنّ كلّ واحد مِن المفلوق والمفلوق عنه مفعول. وقيل: هو ما انفلق مِن عموده. وقيل: هو كلّ ما يُفلقه الله تعالى كالأرض عن النبات والجبال عن العيون والسحاب عن الأمطار والحبّ والنّوى عمّا يخرج منهما، وغيرِ ذلك.[2]

وفي تعليق العياذ باسم الربّ المضاف إلى الفَلَق المنبئ عن النور عَقيب الظلمة والسَّعة بعد الضيق والفَتْق بعد الرَّتْق عِدَةٌ كريمة بإعاذة العائذ ممّا يعوذ منه وإنجائه منه، وتقويةٌ لرجائه بتذكير بعضِ نظائره، ومزيدُ ترغيب له في الجِدّ والاعتناءِ بقَرْع باب الالتجاء إليه تعالى. وأمّا الإشعارُ بأنّ مَن قدَر أن يزيل ظلمةَ الليل مِن هذا العالم قدَر أن يُزيل عن العائذ ما يخافه كما قيل،[3] فلا؛ إذ لا ريبَ للعائذ في قدرته تعالى على ذلك حتّى يحتاج إلى التنبيه عليها.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي: مِن شرّ ما خَلَقه مِن الثقلين وغيرهم كائنًا ما كان مِن ذوات الطبائع والاختيار، وهذا كما ترى شامل لجميع الشرور. فمَن توهّم أنّ الاستعاذة ههنا مِن المضارّ البدنيّة، وأنّها تعمّ الإنسان وغيره ممّا ليس بصدَد الاستعاذة،

---

[1] س: مختلف فيها.

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٦٢٣/٤.

[3] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٨٥/٣.

ثمّ جَعَل عمومها مدارًا لإضافة الربّ إلى ﴿ٱلْفَلَقِ﴾،[١] فقد نأى عن الحقّ بمراحل. وإضافة "الشرّ" إليه لاختصاصه بعالم الخَلْق المؤسَّس على امتزاج الموادّ المتباينة، وتفاعل كيفيّاتها المتضادّة المستتبعة للكون والفساد، وأمّا عالم الأمر فهو خير محض منزَّه عن شوائب الشرّ بالمرّة.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾ تخصيص لبعض الشرور بالذِّكر مع اندراجه فيما قبله لزيادة مساس الحاجة إلى الاستعاذة منه لكثرة وقوعه، ولأنّ تعيين المستعاذ منه أدلّ على الاعتناء بالاستعاذة / وأدعى إلى الإعاذة، أي: ومِن شرّ ليل معتكر [٣٢٧ظ] ظلامُه، مِن قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء، ٧٨/١٧]، وأصل الغَسَق الامتلاء، يقال: "غَسَقت العين" إذا امتلأت دمعًا. وقيل: هو السيلان.[٢] وغسَقُ الليل: انصبابُ ظلامه. وغسَقُ العين: سيلانُ دمعها، وإضافةُ الشرّ إلى الليل لملابسته له بحدوثه فيه.

وتنكيرُه لعدم شمول الشرّ لجميع أفراده، ولا لكلّ أجزائه، وتقييده بقوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ أي: دخل ظلامه في كلّ شيء؛ لأنّ حدوثه فيه أكثر، والتحرّز منه أصعب وأعسرُ، ولذلك قيل: «الليل أخفى للويل»،[٣] وقيل: الغاسقُ هو القمر إذا امتلأ.[٤] ووقوبُه دخوله في الخسوف واسودادُه، لِما رُوي عن عائشةَ رضي الله تعالى عنها أنّها قالت: أخذ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بيدي فأشار إلى القمر، فقال: «تعوذي بالله مِن شرّ هذا، فإنّه الغاسق إذا وقب».[٥]

وقيل: التعبير عن القمر بالغاسق؛ لأنّ جِرْمه مظلِم، وإنّما يستنير بضوء الشمس، ووقوبُه المَحاق في آخر الشهر، والمنجّمون يعدونه نحسًا، ولذلك لا يشتغل السحرة بالسحر المورث للتمريض إلّا في ذلك الوقت. قيل: وهو المناسب لسبب النزول. وقيل: الغاسق الثُّريّا، ووقوبها: سقوطها؛ لأنّها إذا سقطت كثرت الأمراض والطواعين. وقيل: هو كلّ شر يعتري الإنسان، ووقوبه هجومه.[٦]

---

١ كما في الكشّاف للزمخشري، ٦٢٣/٤.

٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٨٦/٣.

٣ مِن أمثال العرب. وهو في مجمع الأمثال للميداني، ١٩٣/٢؛ والمستقصى للزمخشري، ٣٤٣/١.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٦٢٣/٤.

٥ بلفظ قريب في سنن الترمذي، ٤٥٢/٥ (٣٣٦٦)؛ والمستدرك للحاكم، ٥٨٩/٢ (٣٩٨٩)؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٢٣/٤-٦٢٤.

٦ هذه الأقوال الأربعة بلفظ قريب في تفسير الرازي، ٣٧٤/٣٢.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ﴾ أي: ومِن شرّ النفوس أو النساء السواحر اللاتي يعقِدن عَقَدًا في خيوط وينفثن عليها. والنفث: النفخ مع رِيق. وقيل: بدون رِيق.[١] وقُرِئ: "النَّافِثَاتِ"،[٢] كما قُرِئ: "النَّفِثَاتِ"[٣] بغير ألف. وتعريفها إمّا للعهد أو للإيذان بشمول الشرّ لجميع أفرادهنّ وتمحّضهنّ فيه.

وتخصيصُه بالذِّكر لِما روى ابن عبّاس وعائشةُ رضي الله تعالى عنهما: أنّه كان غلام مِن اليهود يخدم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وكان عنده أسنان مِن مُشطه عليه السلام، فأعطاها اليهودَ فسحروه عليه السلام فيها، وتولّاه لبيد بن الأعصم اليهودي[٤] وبناتُه، وهنّ النافثات في العقد، فدفنها في بئر أريس، فمرض النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فنزل جبريلُ / عليه السلام بالمعوِّذتين، وأخبره بموضع [٣٢٨و] السحر وبمَن سحره وبمَ سحره، فأرسل عليه السلام عليًا -كرّم الله تعالى وجهه- والزُّبيرَ وعمّارًا فنزحوا ماء البئر، فكأنّه نقاعة الحنّاء، ثمّ رفعوا راعُوفةَ البئر -وهي الصخرة التي توضع في أسفل البئر- فأخرجوا مِن تحتها الأسنان ومعها وَتَر قد عُقِد فيه إحدى عشرةَ عقدةً مُغْرَزَةً بالإبر، فجاءوا بها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فجعل يقرأ المعوِّذتين عليها، فكان كلّما قرأ آيةً انحلّت عقدة، ووَجَد عليه السلام خِفّةً، حتّى انحلّت العقدة الأخيرة عند تمام السورتين، فقام عليه السلام كأنّما أُنشِط مِن عِقال فقالوا: «يا رسول الله، أفلا نقتل الخبيثَ؟» فقال عليه السلام: «أمّا أنا فقد عافاني الله عزّ وجلّ، وأكره أن أُثيرَ على الناس شرًّا».[٥] قالت عائشةُ رضي الله عنها: «ما غَضِب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم غضبًا ينتقم لنفسه قطّ إلّا أن يكون شيئًا هو لله تعالى، فيغضب لله وينتقِم».[٦]

---

١ القول في اللباب لابن عادل، ٥٧٣/٢٠.

٢ قرأ بها رُويس بخلف عنه. النشر لابن الجزري، ٤٠٤/٢-٤٠٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وأبي الربيع. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٥٢٨.

٤ لبيد بن الأعصم مِن يهودِ بني زريق، وهو الذي سحر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، والقصّة مذكورة في كتب السيرة. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٧٥/٢؛ والروض الأنف للسُهيلي، ٣٩٨/٤.

٥ بلفظ قريب في معالم التنزيل للبغوي، ٥٩٣/٨-٥٩٤؛ وبعضه بمعناه في مسند أحمد، ٣٤٣/٤٠ (٢٤٣٠٠)؛ وصحيح البخاري، ١٣٦/٧ (٥٧٦٣)؛ وصحيح مسلم، ١٧١٩/٤ (٢١٨٩).

٦ بلفظ قريب في مسند أحمد، ٥٧/٤٣ (٢٥٨٧١)؛ وصحيح البخاري، ١٦٠/٨ (٦٧٨٦).

وقيل: المراد بالنفث في العُقَد إبطالُ عزائم الرجال بالحِيَل، مستعارٌ مِن تليين العقدة بنَفْث الرِّيق ليسهُل حلُّها.[١]

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أي: إذا أظهر ما في نفسه مِن الحسد، وعمل بمقتضاه بترتيب مقدّمات الشرّ، ومبادي الإضرار بالمحسود قولًا أو فعلًا. والتقييدُ بذلك لِما أنّ ضَرَر الحسد قبله إنّما يحيق بالحاسد لا غيرُ.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ المعوّذتين فكأنّما قرأ الكتب التي أنزلها الله تعالى».[٢]

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٥٨٦/٣.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٥٢٤/٣٠ (الفلق، ١/١١٣)؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٥٧٢/٤ (الفلق، ١/١١٣)؛ الكشّاف للزمخشري، ٦٢٥/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة الناس

مدنيّة،[1] وهي ستّ آياتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

﴿قُلۡ أَعُوذُ﴾ وقُرئ في السورتين بحذف الهمزة، ونقل حركتها إلى "اللام".[2]

﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ أي: مالك أمورهم ومربّيهم، بإفاضة ما يصلحهم، ودَفْع ما يضرُّهم.

وقوله تعالى: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ عطف بيان، جيء به لبيان أنّ تربيته تعالى إيّاهم ليست بطريق تربية سائر المُلّاك / لِما تحت أيديهم مِن مماليكهم؛ بل بطريق المُلك الكامل، والتصرّف الكلّي، والسلطان القاهر. [٣٢٨ظ]

وكذا قوله تعالى: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ فإنّه لبيان أنّ مُلكه تعالى ليس بمجرّد الاستيلاء عليهم، والقيامِ بتدبير أمور سياستهم، والتولّي لترتيب مبادي حفظهم وحمايتهم كما هو قصارى أمر الملوك؛ بل هو بطريق المعبوديّة المؤسَّسة على الألوهيّة المقتضية للقدرة التامّة على التصرّف الكلّي فيهم إحياءً وإماتةً وإيجادًا وإعدامًا. وتخصيص الإضافة بـ﴿ٱلنَّاسِ﴾ مع انتظام جميع العاملين في سِلك ربوبيّته تعالى وملكوته وألوهيّته للإرشاد إلى منهاج الاستعاذة المرضيّة عنده تعالى الحقيقةِ بالإعاذة؛ فإنّ توسّل العائذ بربّه وانتسابَه إليه تعالى بالمربوبيّة والمملوكيّة والعبوديّة في ضمن جنس هو فرد مِن أفراده مِن دواعي مزيدِ الرحمة والرأفة، وأمرُه تعالى بذلك مِن دلائل الوعد الكريم بالإعاذة لا محالةَ، ولأنّ المستعاذ منه شرُّ الشيطان المعروف بعداوتهم.

---

[1] س: مختلف فيها.

[2] قرأ بها ورش. النشر لابن الجزري، ٤٠٨/١.

ففي التنصيص على انتظامهم في سِلك عبوديّته تعالى وملكوته رمزٌ إلى إنجائهم مِن مَلَكة الشيطان وتسلّطِه عليهم حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر، ٤٢/١٥]، فمَن جَعَل مدار تخصيص الإضافة مجرَّدَ كون الاستعاذة مِن المضارّ المختصّة بالنفوس البشريّة، فقد قصَّر في توفية المقام حقَّه، وأمّا جعلُ المستعاذ منه فيما سبق المضارّ البدنيّة فقد عرفتَ حاله، وتكريرُ المضاف إليه لمزيد الكشف والتقرير والتشريف بالإضافة.

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ هو اسم بمعنى الوسوسة، وهي الصوت الخفي كالزلزال بمعنى الزلزلة، وأمّا المصدر فبالكسر، والمراد به الشيطان، سُمّي بفعله مبالغة؛ كأنّه نفس الوسوسة. ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ الذي عادته أن يخنس، أي: يتأخَّر إذا ذَكَر الإنسان ربّه.

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ إذا غفَلوا عن ذكره تعالى. ومحلُّ الموصول إمّا الجرّ على الوصف، وإمّا الرفع أو النصب على الذمّ.

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيان لـ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ﴾ على أنّه ضربان: جِنّي وإنسي، [٣٢٩و] / كما في[1] قوله[2] تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام، ١١٢/٦]، أو متعلّق بـ﴿يُوَسْوِسُ﴾، أي: يوسوس في صدورهم مِن جهة الجِنّ ومِن جهة الناس. وقد جُوِّز أن يكون بيانًا لـ﴿ٱلنَّاسِ﴾ على أنّه يُطلَق على الجنّ أيضًا حسب إطلاق "النفر" و"الرجال" عليهم،[3] ولا تعويلَ عليه.[4]

وأقرب منه أن يُراد بـ﴿ٱلنَّاسِ﴾ الناسي، ويُجعَلَ سقوط "الياء" كسقوطها في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ [القمر، ٦/٥٤]، ثمّ يُبيّن بـ﴿ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، فإنّ كلّ فرد مِن أفراد الفريقين مبتلى بنسيان حقّ الله سبحانه،[5] إلّا مَن تداركَه شوافعُ عصمته، وتناولَه واسعُ رحمته، عصمَنا الله عزّ وجلّ مِن الغفلة عن ذِكره، ووفّقَنا لأداء حقوق شكره.

---

[1] س – في.

[2] س: قال.

[3] كما في الآية الأولى والسادسة مِن سورة الجنّ.

[4] هذا الوجه وتفصيل تضعيفه مذكور في الكشّاف للزمخشري، ٦٢٧/٤.

[5] هذا الوجه مع تقويته مذكور في الكشّاف للزمخشري، ٦٢٧/٤.

[الخاتمة]

قال العبد الذليل متضرِّعًا إلى ربّه الجليل: اللّٰهمّ يا وليّ العصمة والإرشاد، وهاديَ الغُواة إلى سَنن الرشاد، بارئ البريّة مالكَ الرقاب، عليك توكُّلي وإليك مَتاب، أنت المغيث لكلّ حائر ملهوف، والمجيرُ مِن كلّ هائل مَخُوف، ألوذ بحَرَمك المأمون، مِن غوائل رَيب المَنون، وألتجئ إلى حِرزك الحريز، وآوي إلى رُكنك العزيز، واسألك مِن خزائن بِرّك المخزون، في مكامن سِرّك المكنون، خيرَ ما جرى به قلم التكوين، مِن أمور الدنيا والدِّين، وأعوذ بك مِن فنون الفِتن والشرور، لا سيَّما الاطمئنانُ بدار الغُرور، والاغترارُ بنعيمها وزهرتها، والافتتانُ بزخارفها وزينتها، فأعِذْني بحمايتك، وأعنّي بعِنايتك، وأفِض عليّ مِن شوارق الأنوار الربّانيّة، وبوارقِ الآثار السُّبحانيّة ما يُخلِّصني مِن العوائق الظلمانيّة، ويُجرّدني مِن العلائق الجسمانيّة، وهذِّبْ نفسي الأبيّة مِن دَنَس الطبائع والأخلاق، ونوِّر قلبي القاسي بلوامع الإشراق، ليستعدَّ للعثور على سرائر الإنس، ويتهيّأ للحضور في حظائر القدس، وثبّتني على مناهج الحقّ والهدى، وأرشِدني إلى مَسالك البِرّ والتُّقى، واجعلْ أعزَّ مَرامي ابتغاءَ رِضاك، وأشرفَ أيّامي يومَ ألقاك، يومَ يقوم الناس لربّ العالمين فريقًا فريقًا، واحشُرني مع الذين أنعمتَ عليهم مِن النبيّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحسُن أولئك رفيقًا.[1]

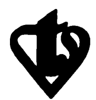
[1] س + كتب المؤلّف عفا الله سبحانه وتعالى عنه في آخر نسخة الأصل.

اتّفق الفراغ مِن تسويد هاتيك الأوراق بتوفيق الله عزَّ سلطانه
ليلةَ الجمعة الأولى مِن شهر الله الحرام رجب الفرد
لعام ثلاثة وسبعين وتسعمائة
حامدًا لله ربّ العالمين ومصلّيًا على سيّدنا محمّد
صلّى الله[١] عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين
والملائكة المقرّبين أجمعين
وسلّم تسليمًا كثيرًا.[٢]

---

[١] س + تعالى.

[٢] س + تمّ. | وفي هامش س: واتّفق الفراغ مِن تحرير هذه النسخة الشريفة وتنميقه بعناية الله سبحانه وحُسن توفيقه في منتصف شهر رمضان المبارك للعام القابل مِن تاريخ الأصل، الحمدُ لله على البداية والنهاية والصلاة على سيّدنا محمّد وآله وصحبه أجمعين. قُوبلت بنسخة الأصل وصُحِّحت عنها قدرَ ما تيسّر بتيسير الله سبحانه وتعالى، على يد كاتبها الفقير أحوَج الناس إلى رحمة الله مصطفى بن جار الله.



Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları

Yayın No. 1000-1
İSAM Yayınları 236
Klasik Eserler Dizisi 46

İRŞÂDÜ'l-AKLİ's-SELÎM ilâ MEZÂYA'l-KİTÂBİ'l-KERÎM
Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî

Cilt 8

Tahkik
Mehmet Taha Boyalık - Ahmet Aytep [Mukaddime - Bakara 98; Nisâ - Tevbe]
Ziyaüddin el-Kaliş [Bakara 99 - Âl-i İmrân 32; Yûnus - Hûd; Hicr - Tâhâ; Zâriyât - Nâs]
Muhammed İmâd el-Nabulsî [Âl-i İmrân 33-200; Yûsuf - İbrâhim; Enbiyâ - Kâf]



İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm
TDV İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM)
Tahkik Yayın Kurulu ilmî kontrolünde hazırlanmıştır.

İcadiye-Bağlarbaşı Cad. 38 Üsküdar/İstanbul
Tel. 0216. 474 08 50
www.isam.org.tr yayin@isam.org.tr

Yayın yönetmeni M. Suat Mertoğlu
Yayın koordinasyon Erdal Cesar
Tahkik editörü Okan Kadir Yılmaz
İnceleme kısmı son okuma (Türkçe) Mustafa Demiray
İnceleme kısmı üslup okuma (Türkçe) Metin Karabaşoğlu
Tercüme (Arapçaya) Merve Dağıstanlı Barsik
Tashih (Arapça) Said Kayacı, Münzir Şeyhhasan, Mohamed Shahin
(Türkçe) İsa Kayaalp, Abdülkadir Şenel, İnayet Bebek
Tasarım Ali Haydar Ulusoy, İbrahim Dervişmüezzin (Uygulama),
Hasan Hüseyin Can (Kapak), Ramzi Haj Mustafa (Kapak Hatu)
Yayın takip Münzir Şeyhhasan, Sema Doğan



Bu eser
TDV İslam Araştırmaları Merkezi'nin (İSAM)
İkinci Klasik Dönem Projesi
kapsamında yayınlanmıştır.

Proje koordinatörü Tuncay Başoğlu

Bu kitap
İSAM Yönetim Kurulu'nun
01/06/2020 tarihli ve 2020/05 sayılı kararıyla basılmıştır.

Birinci Basım: Ankara, Temmuz 2021 m. / 1442 h.
ISBN 978-625-7581-31-8 (Tk.)
978-625-7581-39-4 (8. Cilt)



Basım Yayın ve Dağıtım
TDV Yayın Matbaacılık ve Tic. İşl.
Ostim OSB Mahallesi, 1256 Cadde, No. 11
Yenimahalle/Ankara
Tel. 0312. 354 91 31 Faks. 0312. 354 91 32
bilgi@tdv.com.tr
Sertifika No. 48058

Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî
İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm [إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم] / Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî ; tahkik Mehmet Taha Boyalık, Ahmet Aytep, Ziyaüddin el-Kaliş, Muhammed İmâd el-Nabulsî. – Ankara : Türkiye Diyanet Vakfı, 2021.
8. c., 640 s. ; 24 cm. – (Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları ; 1000-1. İSAM Yayınları ; 236. Klasik Eserler Dizisi ; 46)

Dizin ve kaynakça var.
ISBN 978-625-7581-31-8 (Tk.) 978-625-7581-39-4 (8. Cilt)



İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm

Ebussuûd Tefsiri

Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî
(ö. 982 h. / 1574 m.)

Kendisine ait notlarla (minhüvât) birlikte
müellif nüshasından ilk neşir

Tahkik

Mehmet Taha Boyalık Ahmet Aytep
Ziyaüddin el-Kaliş Muhammed İmâd el-Nabulsî

Proje Yürütme ve İlmî Kontrol
Mehmet Taha Boyalık

Sekizinci Cilt



TÜRKİYE DİYANET VAKFI YAYINLARI

İKİNCİ KLASİK DÖNEM PROJESİ

"İslam medeniyetinin İkinci Klasik Dönemi" olarak adlandırılabilecek olan h. 7-13. (m. 13-19.) yüzyıllar arası entelektüel birikimin gereği gibi araştırma mevzuu edilmesi ve yaklaşık yedi asırlık bu dönemin ilmî ve fikrî boyutlarıyla ortaya çıkarılması hedefiyle Türkiye Diyanet Vakfı İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM) tarafından, bünyesinde pek çok alt projeyi ihtiva edecek bir çerçeve proje olan İkinci Klasik Dönem Projesi gündeme alınmıştır. Günümüz tarih yazıcılığında İslam medeniyeti tarihi Moğol istilası sonrası genelde İslam medeniyetinde özelde İslam düşüncesi ve ilimlerinde gelişmenin inkıtaa uğradığı varsayımıyla yazılmaya çalışılmıştır. Batı'da 19. yüzyılda oluşturulan, sömürgeleşme süreciyle birlikte müslümanlar arasında da yaygınlık kazanan bu bakış açısı İslam tarihiyle ilgili yargılarımızı eksik bırakmıştır. Neticede İslam tarihi, düşüncesi, sanatı, kurumları, önde gelen şahsiyetleri, literatürü ve olaylarıyla insicamlı bir bütünlük içinde ele alınamamıştır.

Bu alandaki çalışmalarla sadece İslam medeniyet tarihinin bir dönemi değil aynı zamanda insanlık tarihinin çok önemli bir devresi aydınlanmış olacaktır. Bu proje vasıtasıyla İkinci Klasik Dönem'de tartışılan ilmî meseleler yeniden kazanılarak günümüz ilim ve fikir dünyasının gündemi haline getirilecek ve böylece yeni dönemin inşasında, hâlihazırdaki sorunların tespit, tahlil, tenkit ve hallinde geçmiş birikimden azami ölçüde istifade edilmesi sağlanacaktır.

Bu dönemle ilgili çalışmalar kapsamında İslam ilimleri, İslam düşüncesi, İslam bilim tarihi, İslam medeniyetinde beşerî ilimler ve sanat alanlarına dair çalışmaların yanı sıra İslam ile diğer medeniyetler arası mukayeseli çalışmalar yer alacaktır. Gerçekleştirilecek projeler Osmanlı coğrafyası, Sahrâaltı Afrikası, Delhi Sultanlığı döneminden itibaren Hint alt kıtası ve Moğol istilası sonrası Orta Asya ve İran'a yoğunlaşacaktır. Proje kapsamında kataloglama, telif, tahkik, tercüme türünden yayınlar yapılması öngörülmektedir.

M. Sait Özervarlı, *İbn Teymiyye'nin Düşünce Metodu ve Kelâmcılara Eleştirisi*, 2008; 2017
Yavuz Köktaş, *Fethu'l-bârî ve Umdetü'l-kârî'nin Metin Tahlili Açısından İncelenmesi*, 2009; 2020
Fatih Yahya Ayaz, *Memlükler Döneminde Vezirlik*, 2009; 2017
Halil İnalcık, *Osmanlı İdare ve Ekonomi Tarihi*, 2011; 2018
Tuncay Başoğlu, *Fıkıh Usûlünde Fahreddin er-Râzî Mektebi*, 2011; 2014
Adalet Çakır, *Abdülkādir-i Geylânî ve Kādirîlik*, 2012; 2021
İslâm Düşüncesinin Dönüşüm Çağında Fahreddin er-Râzî (ed. Osman Demir-Ömer Türker), 2013
Nûreddin es-Sâbûnî, *el-Kifâye fi'l-hidâye* (thk. Muhammet Aruçi), 2013; (DİB/İSAM ortak yayını) 2019
Nûreddin es-Sâbûnî, *el-Müntekā min ismeti'l-enbiyâ* (thk. Mehmet Bulut), 2013; (DİB/İSAM ortak yayını) 2019
Türkiye'de Tarikatlar: Tarih ve Kültür (ed. Semih Ceyhan), 2015
Semih Ceyhan, *Üç Pîrin Mürşidi Halvetiyye, Ramazâniyye Kolu ve Köstendilli Ali Alâeddin Efendi*, 2015
Şükrü Maden, *Tefsirde Hâşiye Geleneği ve Şeyhzâde'nin Envârü't-Tenzîl Hâşiyesi*, 2015
İstanbul Şer'iyye Sicilleri Vakfiyeler Katalogu (haz. B. Aydın, İ. Yurdakul, A. Işık, İ. Kurt, E. Yıldız), 2015
Muhammed el-İsfahânî, *Kitâbü'l-Kavâidi'l-külliyye* (thk. Mansur Koçinkağ, Bilal Taşkın), 2017
İslâm İlim ve Düşünce Geleneğinde Kādî Beyzâvî (ed. Müstakim Arıcı), 2017
İslâm İlim ve Düşünce Geleneğinde Adudüddin el-Îcî (ed. Eşref Altaş), 2017
Osman Güman, *Nahiv ve Fıkıh Usulü İlişkisi*, 2017
Mirzazâde Mehmed Sâlim Efendi, *Selâmetü'l-insân fî muhâfazati'l-lisân* (thk. Murat Sula), 2018
Tilimsânî, *Meâni'l-esmâi'l-ilâhiyye* (thk. Orkhan Musakhanov), 2018
Tilimsânî, *Şerhu'l-Fâtiha ve ba'zı sûreti'l-Bakara* (thk. Orkhan Musakhanov), 2018
İSAM Tahkikli Neşir Kılavuzu (haz. Okan Kadir Yılmaz), 2018
Mustafa Bülent Dadaş, *Şeyh Bedreddin: Bir Osmanlı Fakihi*, 2018
Mehmed Fıkhî el-Aynî, *Risâle fî edebi'l-müftî* (thk. Osman Şahin), 2018
Kāsım b. Kutluboğa, *Kitâbü Takrîbi'l-garîb* (thk. Osman Keskiner), 2018
Safedî, *Keşfü'l-esrâr ve hetkü'l-estâr*, (thk. Bahattin Darıma), I-V, 2019
M. Taha Boyalık, *el-Keşşâf Literatürü: Zemahşerî'nin Tefsîr Klasiğinin Etki Tarihi*, 2019
Şeyh Bedreddin, *et-Teshîl Şerhu Letâifi'l-işârât* (thk. M. Bülent Dadaş), I-III, 2019
Rükneddîn es-Semerkandî, *Câmiu'l-usûl* (thk. İsmet Garibullah Şimşek), I-II, 2020
Mahmûd el-İsfahânî, *Tesdîdü'l-kavâid fî şerhi Tecrîdi'l-akāid; Cürcânî, Hâşiyetü't-Tecrîd; Cürcânî'nin minhüvâtı ve başka haşiye notlarıyla birlikte* (thk. E. Altaş, M.A. Koca, S. Günaydın, M. Yetim), I-III, 2020; I-II, 2021
İbn Nüceym, *Lübbü'l-usûl* (thk. Muhammed Fâl Seyyid eş-Şinkîtî), 2020
Sığnâkî, *et-Tesdîd fî şerhi't-Temhîd* (thk. Ali Tarık Ziyai Yılmaz), I-II, 2020
M. Âkif Aydın, *Osmanlı Hukuku: Devlet-i Aliyye'nin Temeli*, 2020
Mehmet Sami Baga, *İslam Felsefesinde Cisim Teorisi: Hikmetü'l-ayn Geleneği*, 2020
Güllü Yıldız, *Siyerde Şerh-Haşiye Geleneği: Moğultay b. Kılıç Örneği*, 2020
Mehmet Çiçek, *Müfessir Olarak Ali Kuşçu*, 2021
Ali Kuşçu, *Hâşiyetü Ali el-Kuşcî alâ Şerhi'l-Keşşâf li't-Teftâzânî* (thk. Mehmet Çiçek), 2021
İbn Âbidîn, *Şerhu Ukūdi resmi'l-müftî* (thk. Şenol Saylan), 2021
Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî, *İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm* (thk. Mehmet Taha Boyalık, Ahmet Aytep, Ziyaüddin el-Kaliş, Muhammed İmâd el-Nabulsî), I-IX, 2021



İrşâdü'l-akli's-selîm
ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm